البلاغة العربية

أسسها، وعلومها، وفنونها

وصور من تطبيقاتها، بهيكل جديد من طريف وتليد

تأليف وتأمل

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

دار القلم

البلاغة العربية

أُسُسُها، وعُلُومُها، وفُنُونُها

وصُوَرٌ من تطبيقاتها، بهيكلٍ جديدٍ من طريفٍ وتليد

تأليف وتأمُّل

عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني

الجزء الأوّل

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

الطبعة الأولى

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب: ٤٥٢٣ - هاتف: ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب: ١١٣/٦٥٠١ - هاتف: ٣١٦٠٩٢

تطلب جميع منشوراتنا في المملكة العربية السعودية
من دار البشير بجدة
جدة: ٢١٤٦٣ - ص.ب: ٢٨٩٥ - هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ - ٦٦٥٧٦٢١

البلاغة العربية

أُسُسُهَا، وَعُلُومُهَا، وَفُنُونُهَا

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقـدّمة الكتاب

الحمد لله ربّ العالمين الذي أتقن كلّ شيءٍ صنعاً، وفطر النفوس على حبّ الجمال، وزيّن ما خلَقَ بزيناتٍ روائعَ تميلُ إليها النفوس، وتأنَسُ بها وترتاح إليها، وهي تدلُّ عَلَىٰ إبداع خالقها وإرادته الحكيمة، في كلّ ما خلق من ظواهر وبواطن.

هو الذي أنزل كتابَهُ القرآن معجزاً، وآيةً عظيمةً تدلُّ علَيْه، ومن إعجازه ما فيه من جمالٍ بيانيّ وبلاغةٍ رائعة لا ترقىٰ إلى مِثْلها بلاغَةُ جميع البلغاء، ولا فصاحة جميعِ الفصحاء.

والصلاة والسلام على رسُولِنا محمّدٍ خاتم النبيّين والمرسلين، وإمامهم، مَنْ خَصَّه الله بالدّينِ الخاتم، والكتاب الخاتم المعجز، فأنزلَهُ عليه مُتكَفِّلاً بحفظهِ مِنَ التغيير والتبديل والزيادة والنقصان، بقَصْدٍ أو نسيان، فهيّأ له من وسائلِ الحفظِ ما جعَلَهُ باقياً كما أنْزَلَهُ في السُّطُور والصُّدور وأدواتِ التسجيل الصوتي.

وبـعـدُ:

فخدمةً للقرآن كتاب الله المجيد، وحرصاً على إبراز بعض جوانب إعجازه البيانيّ، اجتهد علماء المسلمين بحثاً، وتَنْقِيباً واستخراجاً، حتَّىٰ وَضَعُوا علوم البلاغة الثلاثة: «المعاني ــ والبيان ــ والبديع» وما يزال الباحثُون يَبْحَثُون

ويستَخْرِجون ويكْتَشِفُون مِن عناصر إعجاز القرآن البياني ما لم يكتشِفْهُ السّابقون.

على أنّ كتاب الله عزّ وجلّ أوسَعُ من أن يُحْصِيَ كُلَّ عناصرِ إعجازه البياني الباحثون والمستخرجون والمكتشفون، مهما اجتهدوا ونقَّبُوا، لأنّ كثيراً من عناصر الجمالِ تُدْرَكُ بالحسّ الجماليّ ولا يُسْتطاعُ تحديدُها والتعبيرُ عنها ولا اكتشافُ عناصِرِها.

وسيظهر في كلّ عَصْرٍ من جوانب إعجاز القرآن البياني روائع ما توصَّلَ السّابقون إلى اكْتشافها واستخراجها، فَهُو كتاب لا تفنىٰ عجائبُهُ، ولا يَخْلَقُ علىٰ كثْرةِ الرَّدّ، كَما جاء وصفُهُ في كلام الرسول ﷺ.

وقد فتح الله عليّ بجملة طرائف ولطائف هي من عناصر إعجاز القرآن البياني، أردتُ أن أضيفها إلَىٰ علوم البلاغة التي استقرّت منذ قرون علىٰ هَيْكلٍ لم يَدْخُلْهُ من الإضافات والتعديلات إلاّ القليل، وبعضُ التطبيقات من الأمثلة.

وفتح الله على غيري من الباحثين متناثرات تَتّصِل بموضوع إعجاز القرآن البياني، ويَحْسُنُ أن تُضافَ إلى علوم البلاغة، كظاهرة التصوير الفنّي الّتي اهتدى إليها المرحوم «سيّد قطب» وكالْبُحوث الطيّبة حول القصّة القرآنيّة الّتي نجدها لدى عدد من الباحثين المعاصرين.

فعزمْتُ مستعيناً بالله العزيز الحميد الوهّاب أنْ أجْمَعَ ما انتهىٰ إليه السّابقون من علوم البلاغة، محاولاً التذليلَ والانتقاءَ واستيعابَ الأمّهاتِ والْمُهمّات، متجاوزاً التفصيلاتِ التي لا تُكسِبُ مَلَكَةَ تَذَوُّقِ الجمال البياني، والّتي دخلت في علوم البلاغة بتأثير الدراسات المنطِقيّةِ والرّياضيّةِ العقليّة الصِّرْف، ومتجاوزاً الإجراءات التي تُشبه التحليل الكيميائي في معامل الكيمياء، والتي تفقد النصّ روعته الجماليّة، كأنواعِ الاستعارات في الفعلِ والحرف وإجراءاتها، وأشباه ذلك.

وأرجو أن أُوَفّق لتحقيق ما عزمْتُ عليه من تقريب علوم البلاغة وفُنُونِها

للأجيال المعاصرة من ناطقي اللّغة العربية، بالأُسلوب الذي يُسَهِّلُ عليهم فَهْمَها، ويُيَسِّرُ لهم تَطْبيق قواعدها على الأمثلة من القرآن، وأقوال الرسول، وغيرهما من نَثْرِ وشِعْرِ البلغاء، ويُشجّعُهم على أن يقتدوا في بيانهم بالنماذج الرفيعة من النُّصوصِ البليغة، وأن يبتكروا أشياء بديعةً تهديهم إليها الفطرة الرّبّانيّة، بما أَوْدع الله فيما خلَقَ وفيما أنزل من جمال، وبما أودع فيهم من حِسٍّ جماليّ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين وصلّى اللّه وسلم علىٰ سيّد البلغاء من الناس مُحمّدِ بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

مكة المكرمة في ٩/٤/١٤١٤هـ
٢٥/٩/١٩٩٣م

عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني

مُقَدّمَاتـــ عَامَّة

في العناصر التالية:

(١) الغرض من دراسة علوم البلاغة والأدب.

(٢) نظرات تحليليّة حول الغرض من الكلام.

(٣) أسس البلاغة العالية والأدب الرفيع،

ويأتي شرحها في ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الجمال في الكلام.

الفصل الثاني: الفصاحة.

الفصل الثالث: البلاغة.

(١)

الغرض من دراسة علوم البلاغة والأدب

البلاغة بفنونها الثلاثة «المعاني ــ البيان ــ البديع» وسائر الفنون الأدبية التي نبَّه عليها أدباء العرب، وكذلك سائر المذاهب الأدبيّة المستوردة من الشعوب غير العربيّةِ ليست إلاَّ بحوثاً وتتبُّعاتٍ لاكتشاف عناصر الجمال الأدبيّ في الكلام، ومحاولات لتحديد معالمها، ووضع بعض قواعدها، دُون أن تستطيع كلُّ هذه البحوثِ والدّراساتِ جَمْع كلِّ عناصر الجمال الأدبِيّ في الكلام، أو استقصاءها، واكتشاف كلّ وجوهها.

فالجمال كثيراً ما يتذوّقه الحسّ الظاهر والشعور الباطن، دون أن يستطيع الفكر تحديد كلّ العناصر التي امتلكت استحسانه وإعجابه، وإنْ عرف منها الشيء الكثير، واستطاع أن يُفْرِزَه ويُحَدّد معالمه.

إنّ آفاق الجمال أوسع من أنْ تُحَدَّدَ أو تُحْصَرَ بأُطُرٍ ومقاييس، ولكن يمكن اكْتشَافُ بَعْضِ عناصرِ الجمال، وكُلّيَّاتِه العامّة، وطائفةٍ مِنْ ملامحه.

والْغَرَضُ من عرض الباحثين لفنون البلاغة وعلومها، وللمذاهب الأدبيّة المختلفة، وللأمثلة الأدبيّة الراقية المقرونةِ بالتحليل الأدبي والبلاغي، تَرْبيةُ القدرة على الإحساس بعناصر الجمال الأدبيِّ في الكلام الأدبيّ الرفيع، وتربية القدرة على فهم النصوص الجميلة الراقية، والقدرة على محاكاة بعضها في إنشاء الكلام، والقدرة على الإبداع والابتكار لدى الذين يملكون في فطرهم الاستعداد لشيء من ذلك.

وليس الغرض من دراسة هذه الفنون والعلوم والمذاهب والنصوص، الجمودَ في قوالِبِ ما اسْتُخْرِجَ من العناصر الجمالية، وما وُضع من قواعد، دون اكتساب الإحساس المرهف بمواطن الجمال، لتقديم الأفكار، وصياغة الكلام صياغةً أدبيّة بليغة.

فَمَع ضرورة التَّسلُّح بهذه الدراسة، والاطلاع الواسع على النصوص الأدبيّة الجميلة الراقية، ودراستها دراسةً تَحْلِيلِيَّةً تكشفُ من جوانب الجمال والإبداع فيها على مقدار اسْتِطَاعَةِ الْمُحَلِّل، لا يصِحُّ بحالٍ من الأحوال الجمود عندها دون محاولات الابتكار والإبداعِ والتجديد، بشرط أَنْ يكون ذلك الابتكار قادراً على انتزاع إعجاب ذوي الإحساس المرهف والذَّوْق الرَّفيع في إدراك الكلام الأدبيِّ الجميل البليغ.

هذه الحقيقة لا بُدَّ من ملاحظتها دواماً لدى أيّةِ دراسَةٍ بلاغيّةٍ وأدبيّة، ولدى إنشاء أي نصٍّ أدبيّ جديد.

ومن الخير دواماً لكلّ كاتبٍ أو مُنْشِىءٍ أو شاعرٍ أن يحْذَرَ منْ أنْ يضَعَ الصورة الأدبيَّةَ الّتِي دَرَسَها بلاغيّاً أو أدبيّاً، وينشِىءَ كلامَهُ علىٰ قَالَبِها، فإذا فَعل ذلِكَ أَفْسَدَ كلامه، وشوّه روح القاعدة البلاغيّة أو الأدبيّة، وإن التزم بصورتها.

إنّ تربية الذوق والملكة البيانيّة، مع تلقائيّة الأداء التعبيريّ لدى إنشاء الكلام كتابةً أو ارتجالاً، عند منْ يَمْلك الاستعداد لأن يكون أديباً بليغاً، هي الكفيلة بتفجير الإبداع المطلوب في الأدب، بشرط عدم الخروج عن ضوابط قواعد اللّغة وأصول البيان.

ومن جيّد ما قرأت في التعريف بخير الكلام، قول «خالد بن صَفْوان» وهو من فصحاء العرب المشهورين، كان يجالس عُمَر بن عبد العزيز، وهشام بن عبد الملك، توفي نحو (١٣٣ هجرية):

«خَيْرُ الكلام مَا طَرُفَتْ مَعَانيه، وشَرُفَتْ مَبَانِيه، والْتَذَّه آذان سَامِعِيه». عن لسان العرب في مادة «طرف».

* * *

(٢)
نظرات تحليليّة حول الغرض من الكلام

الغرض من الكلام التعبيرُ عمّا في الفكر ومشاعر النفس وأحاسيسها بألفاظٍ دالّةٍ على ما يريد المتكلّم التعبير عنه.

والكلماتُ رموزٌ اصطلاحيّةٌ في الأوضاع اللُّغويّةِ الأولى، وفي الاستعمالات اللاّحقة للأَوْضَاعِ اللّغويّة والناجمة عن اسْتِخْدام الناس لمختلف الأساليب والْحِيَلِ الكلامية الْقَائِمةِ على التوسُّع في دلالاتِ الألفاظ، والانتقال بِها منَ الْحسّيَّاتِ إلى ما وراءَها، حتّى العقليّات المجرّدة.

● فمن أمثلة ذلك في الحسيّات:

التّضَرُّع: كان بمعنى خَفْضِ رَأْسِ الرّضِيع من صغار البهائم كَحَمَلٍ أو عِجْلٍ أَوْ سَخْلَةٍ، ونحو ذلك، لِيَرْضَعَ مِنْ ضَرْعِ أُمِّهِ، فصار في التوسُّع اللُّغَوِيّ بمعنىٰ الذُّلّ والانْكِسار، ونَزَلَت التعاليمُ الرَّبَّانِيَّةُ المبيِّنَةُ للصُّوَرِ الْمُثْلَىٰ من دَرجاتِ العبادةِ لله تبارك وتَعَالَىٰ، فعَلَّمَتْنَا أَنَّ أَمْثَلَ الْعِبَادَةِ لله عزّ وجلّ ما كانَ بتَضَرُّعٍ له، أي: بذُلٍّ وانْكِسَارِ اسْتِجْدَاءً لِرَحْمَتِهِ وَحَنَانِهِ، ويُعَبَّرُ عن حالَةِ الذّلِّ والانكسارِ في النفس بالركوعِ والسُّجُودِ لله جلَّ وعَلاَ.

● ومن الأَمثلة في العقليّات:

الحدّ ــ والْحُدود: فَأَصلُ الحدِّ في اللّغةِ الحاجزُ بيْنَ شيئَيْنِ مادّيّيْنِ مُدْرَكَيْنِ بالْحِسِّ الظّاهر، كالأعلام والْفَوَاصِلِ الَّتِي تُوضع في نَحْو آخِرِ الأَرْضِ الَّتِي يملُكَها إِنْسَانٌ ما، لتُبيِّنَ انْتِهاءَها وانْفِصَالَهَا عَنْ غَيْرِها من ممتلَكَات الآخَرِينَ.

ثُمَّ صَارَ تَوَسُّعٌ في كلمة «الحدِّ» وجمعها «الحدود» فصارت تدلُّ على ما يفصل المعانِيَ الفكريَّةَ بَعْضَها عن بعض، من بيانٍ جامعٍ لكُلِّ عَنَاصِرِ المحدود، مانعٍ من دُخولِ غَيْرِهِ فِيه.

وبالحدودِ البيانيّة تُحْمَىٰ المعاني من أنْ يتداخل بعضُهَا في بَعْضٍ، أو يختلط بَعْضُها ببعض.

وتُسْتَخْدَمُ في الكلام الأشباهُ والنَّظَائِرُ، ودَلالاَتُ اللَّوازِمِ الفكريّةِ، لإِفْهَامِ الآخَرِينَ ما يُرِيدُ ذو الكلام التَّعْبِير عنه، كمَا هو في ذهْنِهِ، أَوْ في مَشَاعِرِ نَفْسِهِ، أَوْ فِي إِحْسَاسَاتِهِ الجَسَدِيّة، أو الوجْدَانِيّةِ الباطنة.

فلدَينا إِذَنْ كلماتٌ مُفْرَدة، وجُمَلٌ مُرَكَّبَةٌ مِنْ كلماتٍ، وجَمِيعُها ذَواتُ أَلْفَاظٍ وَذَوَاتُ دَلالاتٍ، وَأَلْفَاظُهَا ذَواتُ حُروفٍ مجتمعة تَنْطِقُ بِهَا الأدواتُ النَّاطِقَةُ، وهِيَ تَصْدُرُ بأَصْواتٍ فتَقْرَعُ آذان السامِعِينَ بمختلِفِ أَشْكالِهَا وصُوَرِها.

وأصواتُ الحروفِ الَّتِي تُركَّبُ منْها الكلماتُ لها نَغَماتٌ وحُدودٌ مختلفات، فمنها ما يقْرَع السّمْعَ برِقَّةٍ ولِينٍ فيستَحْلِيه، ومنْها ما يقرعُ السَّمْعَ بغلظةٍ وخُشُونَةٍ فَيَمُجُّهُ كَارهاً له، ومنْها ما ينْفِرُ منه السّمْعُ وتتقزّزُ منْهُ النفس، سواءٌ أكان ذلك من الكلمة الواحدة مُفْرَدَةً، أمْ من اجْتِماع عدَّةِ كَلِماتٍ أحدثَ اجتماعُها ما لم يكُنْ عِنْدَ انْفرادِ كلٍّ منها.

وَكلُّ أمّةٍ تَضَع ما تَلَقَّتْ منْ كلمات أجدادها، وما تُضِيفُ من كلماتٍ تضَعُها لتُعَبِّر بها عن أفكارٍ ومشاعرَ وأحاسيسَ قامَتْ في أنفسها، مَوْضِعَ التجربة، لاختبارِ مدىٰ لينِها وسُهولَةِ النُّطْقِ بها، أو مدَىٰ التَّأْثيرِ النَّفْسِيّ لدى النطق بها في أنْفُسِ السَّامعين، ولاخْتبار مَدَىٰ استحسان الأسماع لها، أو استقباحها، واستغلاظها، والنُّفْرَة منها، وتَقَزُّز النفس لدى سماعها.

وخلال التجارب الطويلة تشيعُ غالباً الكلماتُ الَّتي تَوَاضَعَ مُعْظَمُ النَّاسِ على

قبولها واسْتِحْسَانِها، لأداءِ المعاني الَّتِي يُعبَّرُ بها عَنْهَا، مع ملاحظة الشُّعورِ بالتَّلاؤُم بينَ اللَّفظِ والمعنىٰ في كثيرٍ من الكلمات، في المجتمع البشري الذي درجَتْ على ألسنة أفرادِه.

وتُعْزَلُ في الغالبِ الكلماتُ القاسية الصعبة، والكلماتُ المستقبحة المستغلظة، والتي تتقزّزُ مِنْها النفوس، إلاَّ ما كانَ منها مقصوداً لِبَيَانِ قُبْحِ المعنَىٰ، أو ما كان منها مقصوداً للشتائم، ونحو ذلك.

ويَنتَقِي أصحابُ الأَذْواقِ الرَّفيعَة منَ الكلمات أَلْيَنها في النُّطْقِ، وأحْلاها في الأسماع، أوْ أوفقَهَا وأكْثَرها مُلاءَمَةً للمعاني الّتي تدلُّ عَلَيْهَا، ويخُصُّونَ بها أقوالهم ذوات الشأن، من خُطَبٍ، ورسائل، ومقالات، وشِعْر، وقصّة، وغير ذلك من موضوعات الكلام المحرّر المنتقىٰ، الذي صار يُسَمَّىٰ فيما بَعْدُ «أدباً» لأنَّه في الكلام يُشْبهُ أدبَ السلوك في الأعمال.

وتظلُّ كلماتٌ مستقبحاتٌ شائعاتٌ، لدى من لهم هوىً في أن يستخدموا ألفاظاً قاسيةً خشنةً، تنفرُ منها الأسماع، إذْ يرَوْنَهَا نافعةً لهم في إزْعاج الآخرين بها، أو في لفت أنْظارِ الناس إليهم عن طريقها، كما يفعلون مثل ذلك في ألبستِهِمْ، وما يحملون من أسلحةٍ مستهجنة، وما يمارسون من حَرَكاتٍ وأعمال، إلى غير ذلك من أُمُورٍ يبتَعِدُ عَنْها الْمتأَدِّبُونَ من الناسِ بالآداب الحسنة، وذوو الأذواق الرفيعة، والسلوك الجميل الفاضِلِ بيْنَ الناس.

وقد تتدخَّلُ عوامل أخرى في بقاء كلماتٍ صعبةٍ ثقيلةٍ في النُّطْقِ ضمْن الكلام الدارج المستعمل في اللّغة، وهذه العوامل يصْعُبُ تحديدها، وتبقَىٰ هٰذهِ الكلماتُ حَيَّةً في الاستعمال بحُكْمِ الإلْفِ والتقليدِ والمحافظة على المواريثِ اللُّغَويّة.

ومن هٰذهِ العوامل تفاخُرُ ٱلأُمَّةِ بقُدْرَةِ أَلْسنَتِها على الانفرادِ بالنطق ببعض الحروف أو الكلمات، ومنها المحافظةُ على إحْدَىٰ الصفاتِ القوميَّةِ للأُمَّة.

وتَظَلُّ كلماتٌ يسْهُلُ نُطْقُها على النّاس بالتداولِ في تَعاملاتِهمُ اليوميّة، ولو لم تكُنْ راقيةَ النغمات في تركيب حروفها، ولا عذْبةً في الأَسماع، ولكنْ بقيتْ في التداوُلِ بتأثير العادة، والحاجة إلى تداوُلها اليوميّ في تَعَامُلاتِ النّاس.

وهذه الكلماتُ يبتَعِدُ عَنْها أدباءُ الْقَوم وشُعَرَاؤُهم وخُطباؤهم وكُتَّابُهم لدى إنشاء كلامهم المجوّدِ الْمُحَسَّنِ الذي يحرصُونَ على أنْ يكون له شأنٌ بينهم.

فظهر بسبب ذلك صنف من الكلمات ضِمْنَ اللُّغَةِ الواحدة، يوصَفُ بأنّه فصيحٌ، وصنْفٌ آخَرُ يوصَفُ بأنَّهُ غيرُ فصِيح.

ثُمَّ لدى تركيب الكلمات في الْجُمَلِ التي تدلُّ على المعاني الَّتِي يرادُ تعريفُ المخاطبين بها، قد ينشَأُ من التركيب قساوةٌ أو صعوبةٌ في النُّطقِ، أو استقباح واستغلاظٌ ونُفْرَةٌ منْهُ في الأسماع، فلا يكون الكلام في هيئته التركيبيَّةِ فصيحاً، على الرغم من فصاحة مفرداته قبل اجتماعها في هٰذه الهيئةِ التركيبيَّةِ الخاصّة.

فظهر بسبب ذلك ما يُسَمَّىٰ به الكلامُ المركّبُ فصِيحاً أَوْ غَيْرَ فصيح.

لذلك نلاحظ أنَّ من يختار لكلامه مفرداتٍ فصيحةً، وينظمها في كلامه نظماً ملائماً فصيحاً، مع التزامه بضوابط قواعد اللّغة وأحكام أهل اللّسان النحويَّةِ والصرفية، فإنَّهُ يصِحُّ أنْ يُسَمَّى ناطقاً فصيحاً.

فصارت الفصاحة بهذا التحليل وصفاً للكلمة، وللكلامِ، وللمتكلّم.

- فيقال: كلمة فصيحة، ويُقَابلها: كلمة غير فصيحة.
- ويقال: كلامٌ فَصيحٌ، ويُقابله: كلامٌ غيْرُ فصيح.
- ويقال: متكلّمٌ فصيح، ويُقابله: متكلّم غير فصيح.

وتختلف الأمم في أوضاعها اللغويّة، وفي أساليب كلامها، وتعبيراتها، وفي أذواقها، ومَا يلين من الكلمات والحروف في ألسنتها، وما يصعُبُ ولا يلين عليها،

وما هو مستنكر مستهجَنٌ في أسماعها، وما هو مألوفٌ محبَّبٌ أو مقْبولٌ لديها، وهذه من ظواهر فطرة الله للناس، كما قال الله عزّ وجل في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

* * *

أمّا دلالات الألفاظ على المعاني المرادة، فتتعرّض لأحوال:

(١) إمَّا أنْ تكون قاصرة الدلالة غير وافية بتأدية المعنى المراد.

(٢) وإمَّا أن تكون وافية الدلالة بشرط وجود مُسَاعِدٍ لها من عبقريّة المتلقّي أو ذكائه المتفوّق، فإن لم يكن المتلقّي كذلك كانتِ الدلالة قاصرةً بالنسبة إليه.

(٣) وإمَّا أنْ تكون وافية الدلالة لدى الإنسان المتوسّط الذّكاء. فإن كان المتلقي دون ذلك كانت الدلالة قاصرةً بالنسبة إليه، وإنْ كان المتلقّي فوق ذلك رأى فيه زيادةً مُمِلَّة.

(٤) وإمَّا أن تكون وافية الدلالة لدى الإنسان الذي هو دون متوسّط الذكاء. فإنْ كان المتلقّي فوق ذلك كان الكلام بالنسبة إليه مُمِلًّا مطوّلاً، ولا سيما بالنسبة إلى متفوّق الذكاء.

(٥) وتتعرَّض أيضاً دلالاتُ الألفاظ على المعاني المرادة لأحْوالٍ أخرى، في الموضوعات التي يُراد توصيلُ مضامينها إلى المتلقي، أو إقناعه بها، إلى ما يقتضي البسط، أو التوسُّطَ بين الْبَسْطِ والإيجاز، أو الإيجاز.

أو يقتضي الابتعاد عن التوجيه المباشر، بدرجةٍ أو أكْثَرَ بِحَسَبِ ذكاء المخاطَبِ أو المتلقِّي، فَيُبْلِغُ إليه المعاني الَّتِي يريدُ تعريفَهُ بها إبلاغاً حسناً.

فما يطابق حالَ المخاطب أو المتلقّي من الكلام مع فصاحة مفرداته، وفصاحة جُمَلِهِ المركَّبَةِ هو الكلام البليغ.

والمتكلّم الذي يكون كلامه من هذا القبيل يقال له: متكلّمٌ بليغ.

ويرتقي الكلام البليغ بأساليبه في سُلَّمٍ ذي درجات متفاوتاتٍ فيكونُ بعضُه أبلغ من بعض، ضمْنَ الطبقة التي هو منها، والملائمة للْمُتَلَقِّي الذي يُراد إبلاغ المعاني المراد توصيلها إليه، مزيَّنةً بزيناتها التي تُعْجِبُهُ وتُمْتِعُه، وتَهُزُّ مَشَاعِرَه، وتَسْتَأْثِرُ بجوانِب فكرِهِ ونفسه من الداخِلِ والخارجِ.

فيختلف الإعجابُ بالكلام من كلامٍ بليغٍ إلى كلامٍ بليغٍ آخَرَ، بحَسَبِ نِسْبَةِ ما فيه من مرضياتٍ للفكر والمشاعِرِ والأَحاسيس.

وهنا تبرز بلاغةُ الكلام، ومستوياتُ درجات هذه البلاغَةِ صعوداً ونزولاً.

ولا يكون الكلامُ بليغاً في اللِّسَانِ العربـيّ لدى علماء البلاغة، ما لم يكن مع تأثيره في المخاطب بِهِ تأثيراً بالغاً، كلاماً فصيحاً في مفرداته وجمله.

* * *

(٣)

أسس البلاغة العالية والأدب الرفيع

باستطاعة الباحث المتفكر اكتشاف أنّ مقادير الارتقاء في درجات سلّم البلاغة العالية والأدب الرفيع في اللّسان العربـي تعتمد على نصيب الكلام من عناصر الأسس الثلاثة التالية:

الأساس الأول: الجمالُ المؤثر في النفس الإنسانية، المفطورة على الميل إلى الأشياء الجميلة، وحُبّها، والارتياح لها، والتأثّر بها، والانفعال السّارّ بمؤثراتها.

الأساس الثاني: كون الكلام في مفرداته وجُمَلِهِ فصيحاً وفْقَ ضوابط وقواعد ومنهج اللّسان العربـي، ولا يخلو هذا الأساس من مؤثرات جماليّة أيضاً.

الأساس الثالث: كون الكلام بليغاً، أي: مطابقاً لمقتضَى حال المخاطب به فرداً كان أو جماعة، وبالغاً التأثير المرجوَّ في نفسه، ولا يخلو هذا أيضاً من مؤثراتِ جمالية.

ولشرح هذه الأسس الثلاثة يتطلَّبُ الْبَحْثُ المتأنِّي عقْدَ ثلاثَة فصول:

الفصل الأول: الجمال في الكلام.

الفصل الثاني: الفصاحة.

الفصل الثالث: البلاغة.

• • •

الفصل الأول

الجمال في الكلام[1]

(١)

حبّ الجمال

حبُّ الجمال فطرةٌ في النفس الإنسانيّة، فهي بقوّة فطرية قاسرة تميل إليه، وتنجذب نحوه، وليس بمستطاع النفوس أنْ تغيِّر فطرها التي فطرها البارىء المصوِّر عليها.

والجمال شيء يصعب تحديده، ولكن باستطاعة النفوس أنْ تحسّ به وتتذوّقه متى أدركته، وعندئذٍ تميل إليه وتَنْجَذِب نحوه، وتأنس به، وترتاح إليه، وتَسْعَدُ بالاستمتاع بلذّة إحساس المشاعر به ولو تخيُّلاً، ويتفاوت النّاس في قدراتهم على تذوُّق الجمال والإحساس بدقائقه كشأن تفاوتهم في سائر قدراتهم المادّية والمعنوية: مثل القوى الجسمية، وقدرات الذكاء، وقوى الإبصار والسمع والشمّ والذوق واللّمس.

والجمال يكون في كل المجالات التي تدركها الحواس الظاهرة والباطنة،

---

(١) هذا الفصل هو من البحث الذي كنت كتبته للندوة العالمية للأدب الإسلامي، التي انعقدت في أواسط شهر جمادى الثانية من سنة «١٤٠١ هجرية» والتي نظمتها دار العلوم لندوة العلماء في مدينة لكهنؤ بالهند، ونشرته في كتابي: «مبادىء في الأدب والدعوة» واقتضى تكامل بحوث كتاب «البلاغة العربية» أن أضيفه إليه.

حتى مجالات الأفكار، والتخيّلات، والوجدانيّات، والطباع، والأخلاق، وأنواع السلوك الإرادي النفسي والظاهر.

ففي ساحة المرئيات تشاهد الأبصار مرئيات جميلة تتفاوت فيما تحظى به من نسب الجمال تفاوتاً كبيراً، وتشاهد مرئيات قبيحة تتفاوت فيما لديها من نسب القبح تفاوتاً كبيراً، وتشاهد وسطاً فاتراً لا يجذب بجمال، ولا ينفِّر بقبحٍ. وفي ساحة الأصوات يسمع السامعون أصواتاً جميلة تتفاوت فيما تحظى به من نسب الجمال تفاوتاً كبيراً، ويسمعون أصواتاً قبيحة تتفاوت فيما لديها من نسب القبح تفاوتاً كبيراً، وتسمع أصواتاً فاترة لا تجذب بجمال ولا تُنَفِّر بقبحٍ.

ونظير ذلك في ساحة الروائح، وفي ساحة الطعوم، وفي ساحة الملموسات التي فيها ناعم وخشن، وصلب وليّن، وقاسٍ وَلَدْن، وحارٌّ وبارد.

وفي المشاعر الوجدانيّة ندرك أنّ لدينا مشاعر وجدانية جميلة لذيذة، كمشاعر الحبّ، ومشاعر الإحساس بفعل الخير، ومشاعر الأبُوَّة والأمومة، والشعور بطمأنينة القلب، وبالأمن. وندرك أنَّ لدينا مشاعر وجدانية قبيحة نتألّم بها، كالشعور بالذلّة والصّغَار، وكالحقد والحسد، وكالشعور بالخوف والقلق. وندرك أنّ لدينا مشاعر وجدانيّة فاترة لا تُحدِث لذّة نفسية ولا تُحدِث ألماً، كمشاعر الانتماء إلى أسرة مغمورة ليس لها مجد يُحدث في النفس لذّة الافتخار، وليس لها فضائح وقبائح تُحْدِث في النّفس ألم الصَّغار.

وفي الساحة الفكرية نُدرك أفكاراً جميلة حلوة، وأفكاراً قبيحة مرّة، وأفكاراً فاترة لا تُحْدِث انفعال استحسان ولا انفعال استقباح. إنّ الفكرة الذكيّة المبتكرة فكرة جميلة، وإنّ الفكرة الغبيّة المستنكرة فكرة قبيحة، وإنّ الفكرة العاديّة المكرّرة دون غرض فنّي أدبي فكرة فاترة تمرُّ دون أنْ تثير أي انفعال، وكذلك الفكرة الغامضة التي لا يستطيع من تُعرض عليه أنْ يُدركها. ويمرُّ في أذهاننا شريط أفكار

طويل فلا يُحدث فينا أيّ انفعال من لذّة أو ألم، إنّها أفكار فاترة، وربّ فكرة تمرّ فتثير إعجاباً وانفعالاً عظيماً نحوها، وقد تمرُّ فكرة فتتقزّز النفس منها وتصرفها بسرعة وتتجاوزها.

وفي ساحة التخيّل تمرُّ أخيلة جميلة حلوة لذيذة، وتَمرُّ أخيلة قبيحة كريهة، وتمرُّ أخيلة في شريط طويل، فلا تُحدث أيّ انفعال.

وفي ساحة التعبير البياني عن الأفكار والمطالب والتخيّلات والمشاعر النفسيّة والوجدانيّة تُوجَد تعبيرات بديعة جميلة جذّابة، تتملّك المشاعر، وتؤثّر في القلوب، وتتفاوت فيما بينها بما تحظَى به من نِسَب الجمال تفاوتاً كبيراً. وتوجد تعبيرات قبيحةٌ منفّرة، وهذه تتفاوت فيما بينها بما فيها من نِسَب القبح تفاوتاً كبيراً، وتُوجَد تعبيرات فاترة تمرُّ دون أنْ تُحدث في النفوس أيّ انفعال محبوب أو مكروه.

* * *

(٢)

مجـالات الجمـال

من المعلوم لدى ذواقي الجمال أنّ الزينة من الجمال، وأنَّ كثيراً من المقاصد والمطالب إذا قُدِّمت إلينا مغلّفة بزيناتها أو مقرونة بزيناتِها كنّا أكثر قبولاً لها، وانسجاماً معها، لأنَّ جمال الزينة قد جذبنا إليها، وأقنع عواطفنا وانفعالاتنا بقبولها، لنحظَىٰ بلذّة الاستمتاع بالجمال، فتتحقّق من وراء ذلك المقاصد الأساسيّة والمطالب.

وهذه الحقيقة تشمل الأفكار، فإذا قُدّمت بعض الأفكار المقصودة وما اشتملت عليه من مطالبِ اعتقادٍ أو عمل ممتزجةً أو مقرونة بزينات جميلة فكرية أو لفظية كانت النفوس أكثر انجذاباً إليها، وقبولاً لها، ثمّ تمسكاً بها أو عملاً بما طلب فيها.

إنَّ شأن الأفكار كشأن المآكل والمشارب والأدوية، وسائر المطالب والحاجات، فمنها ما هو حلو بطبعه، ومنها ما هو حامض، ومنها ما هو مرّ، ومنها ما هو ليّن، ومنها ما هو قاسٍ، ومنها ما هو ناعم، ومنها ما هو خشن، ومنها ما هو مُهَوِّع مثيرٌ للغثيان، ومنها ما هو محرّك للشهوة مثير لِلُّعاب.

حتى الطيِّبات من المآكل والمشارب وغيرها يزيدها حسناً وجمالاً وتطريةً وتحريكاً لشهوات النفوس نَحْوَها إذا قُدّمت في أطباق جميلة نفيسة، وعلى مائدة جميلة أنيقة، وفي أيدٍ نظيفة رشيقة حلوة لِخَدَم مكتملي الأناقة حِسَان، وفي مكان منظّم مليء بالأشياء الحسَنة الجميلة، من منظور ومسموع ومشموم وملموس ونحو ذلك.

فالفكرة المرّة قد تحتاج غلافاً حلواً جميلاً يزيِّنها حتى يبتلعها مَنْ توجّه له.

والفكرة الشديدة الحموضة قد تحتاج مخالطاً يعدِّل حموضتها حتى يستسيغها من توجّه له.

والفكرة القاسية بطبعها قد تحتاج أسلوباً يليِّنها ويعدِّل قساوتها.

والفكرة الخشنة بطبعها قد تحتاج أسلوباً ناعماً يغلِّفها ويهوِّن ابتلاعها.

وكما أنَّ الحسِّيّات الجسدية يحتاج كثير منها إلى ما يجمّله ويحسِّنه ويزيِّنه للنفوس حتى تستسيغه، كذلك الأفكار التي نريد تقديمها إلى الآخرين قد يحتاج كثير منها إلى ما يجمِّله ويحسِّنه ويزيِّنه للنفوس حتى تستسيغه، وهذا التجميل والتزيين والتحسين هو من عناصر الأدب الرفيع لا محالة.

ولكنْ ليس من الضروري لكلّ فكرة مقصودة بالذّات أنْ تُصنَع لها مزيِّنات جماليّة لا يكون الكلام ذا أدب رفيع إلاّ بها. فكثير من الأفكار جمالُها ذاتِيّ، وإذا قُدِّمت مجرّدة من كل الزينات والأصباغ والألوان في أحوال ملائمة لهذا التقديم كانت أرفع أدباً، وكانت النفوس أكثر تقبُّلاً واستساغةً لها، فهي تزدردها أو ترتشفها بشهوة بالغة.

وهذا نظير تقديم سيِّد المائدة العظيم لضيفه العزيز قطعة مقشّرة من الفاكهة، أو قطعة منتقاة من أطيب اللحم، مجرّدة من أيّة زينات مرافقة أو مغلّفة لها.

وقد يكون من رفيع الأدب تقديم الفكرة المرّة من غير تغليف ولا تحلية لتقديمها لمن يحسن إذاقته مرارتها، كأنْ يكون عدوّاً مجاهراً بعدواته مواجهاً بشتائمه، وفي بعض الحالات التربويّة نلاحظ أنّه كما يحسن الضرب يحسن ما هو نظيره من الكلام.

* * *

(٣)

حول تعريف الجمال

والجمال في الوجود مع إدراك النّاس له وإحساسهم بكثير من صوره، دقيق العناصر متشابكها فهو شيء يصعب جدّاً تحديده، ويَصْعب قِياسُه، ولا تنحصر ألوانه.

وبما أنّ الأدب لون من الجمال، فهو إذن تنطبق عليه قواعد الجمال العامّة.

إنّ من الجمال أحياناً أنْ تتصنّع الحسناء، ومن الجمال أحياناً أنْ لا تتصنّع، بل أنْ تظهر على طبيعتها. ومن الجمال أحياناً أنْ تلبس الثياب الجميلة الساترة لكثير من مفاتن جسمها بطرائق خاصّة، ومِنَ الجمال أحياناً أنْ تلمح بعض مفاتن جسمها إلماحاً ثمّ تسترها، ومن الجمال أحياناً أنْ تتعرى على طبيعتها من غير ابتذال ثمّ تعود إلى سواترها.

ومِنْ أبدَعِ صُوَرِ الجمال التنويع فيه والتنقّل من لون إلى لون آخر منه، أمّا الثبات والتكرار للصورة الواحدة في كل الأوقات فهو مُمِلٌّ للنفوس مهما كانت هذه الصورة جميلة.

باستثناء تكرار المقاطع في بعض ألوان صُوَر الجمال، كشجرة الورد على رأس كل زاوية عند منعطف الطريق، أو على رأس كلّ مسافة، لتكون بمثابة الدلالة.

وكذلك حال الأفكار وأساليب عرضها الأدبي، ومثل شجرة الورد المتكرّرة على رأس كل مسافة أو على الزوايا، آية: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ في سورة الرحمن عروس القرآن. لكنّها صورة قدّمت لوناً من ألوان الجمال الأدبي ومثالاً من أمثلته، قلَّما يوجد في سائر القرآن نظير مطابق لها، بل فيه ألوان أخرى.

ومع وجود قسم من الجمال لا يختلف اثنان في استحسانه، وقدر من القبح لا يختلف اثنان في استهجانه، فكم توجد أوساط مشتبهات تختلف فيها أذواق النّاس، وتختلف وجهات أنظارهم إليها.

فما يستحسنه بعض النّاس منها قد لا يراه غيرهم حسناً، وما يستقبحه بعض النّاس منها قد لا يراه غيرهم قبيحاً، وتتدخّل النظرات الذاتيّة الشخصية في قسم المشتبهات بشكل واسع، ويصعب فيها تحديد النظرة الموضوعية.

ويخضع الأدب لهذا القانون العام.

فقد يُرْضِي كلام ممدوحاً مغروراً بنفسه بحبّ المديح، فيراه أدباً رفيعاً مستحسناً، لكنّه في الوقت نفسه يُسْخِط حاسداً له، فيراه تزلّفاً تافهاً، وأسلوباً في المدح سخيفاً مستهجناً، ويسمعه فريق ثالث فلا يرى فيه ما يحرّك النفس بإعجاب ولا ما يحرِّك النَّفس بتقزّز واستهجان.

وقد تُرْضِي تعبيرات حبٍّ معشوقة، فتراها أدباً رفيعاً مستحسناً، فتحفظها وترويها بإعجاب، لكن هذه التعبيرات قد أسخطت في الوقت نفسه أترابها، فرأينها تعبيرات سخيفةً مبتذلة. ثمّ يسمعها حياديّون فلا يرون فيها رأيَ المعشوقة المعجَبَة، ولا رأي أترابها الساخطات، بل يرون فيها أدباً عاديّاً.

وهكذا تختلف وجهات أنظار النّاس إلى هذه الأوساط المشتبهات، التي لم يتمحّض فيها الجمال، ولمْ يتمحّض فيها القبح، وتتدخّل عوامل نفسيّة في الاستحسان، أو في عدم الاستحسان، وربّما تتدخّل عوامل أخرى تّتصل بمدىٰ القدرة على الإحساس بالجمال، أو بمَدَى الخبرة بفنونه وألوانه وأشكاله ونسبته، أو بمَدَىٰ دقّة الملاحظة التي قد تَقَعُ على النّقص فتقف عنده، وتجسّمه حتى يملأ الساحة، أو تَقَعُ على لمحة جماليّة فتقف عندها مُعَجْبَةً وتعظّمها، ويتدخّل الوهم في مدّها حتى تملأ كل الساحة. وهكذا.

* * *

(٤)

عوامل اختلاف نظرات الناس إلى الجمال

لدى تحليل العوامل التي تجعل النّاس يختلفون في نظراتهم الجماليّة إلى الأشياء اختلافاً كبيراً، حتى إنَّ الشيء الواحد قد يستحسنه فريق، وقد يستقبحه فريق آخر، ويجعله فاتراً واقفاً على الحياد فريق ثالث، والمستحسنون له قد يتفاوتون في درجة استحسانه، والمستقبحون له قد يتفاوتون في درجة استقباحه. لدى هذا التحليل نلاحظ العوامل التالية:

العامل الأول: التلاؤم أو عدم التلاؤم بين أجهزة الإحساس في الإنسان والأشياء التي يُدْرِكها ويُحِسّ بها.

والأمزجة والأذواق البشريّة تختلف في هذا اختلافاً فطريّاً لا يُنْكَر، وبسبب هذا العامل قد تختلف أحكامهم في هذا المجال.

العامل الثاني: تدخُّل أهواء أو مصالح شخصيّة مرافقة.

وبسبب هذه الأهواء أو المصالح تختلف وجهة نظر أصحابها عن وجهات أنظار الآخرين الذين ليس لهم أمثال هذه الأهواء أو المصالح.

العامل الثالث: حكم العادة والإلف، فكثير منَ النّاس إذا اعتادوا لوناً من ألوان الجمال آثروه تلقائياً على غيره، وحَكَمُوا بأنّه أحسن وأجمل، وربّما لم يكن كذلك في حقيقة الأمر.

العامل الرابع: مؤثّرات البيئة، فقد تتواضع بيئة ما على استحسان لون جمالي، وربّما كان عاديّاً جدّاً وابتدائياً في سلّم الارتقاء الجمالي، إلاَّ أنّ تأثير البيئة يجعل الناشئين فيها يقتبسون منها الأذواق الجماليّة، فيتأثّرون بأحكامها الناقصة، أو أحكامها التي لا تَنِمُّ عن ذوق رفيع، وكذلك البيئات الراقية تمنح الناشئين فيها أذواقاً رفيعة، والبيئات تتفاوت تفاوتاً كبيراً في هذا المجال.

العامل الخامس: مدى القدرة على تصيّد نقاط الجمال والإغضاء عمّا سواها، وجعله أرضية لا تثير الانتباه. وقد يكون العكس، فتكون القدرة النقدية ذاتَ إحساس مفرط تجاه تصيّد نقاط النقص أو القبح فقط، أمّا سواها فتُغضي عنه، وتجعله أرضيّة غَيْرَ مُثِيرة للانتباه.

وبسبب هذا العامل بشَطْرَيْهِ وتفاوت نسبة كل منهما في النَّاس تظهر أحكام متباينة أو متخالفة.

العامل السادس: سعة التجارب وضيقها في اكتساب ذوق الإحساس بالجمال، وتفاوت نسبه.

فذو الخبرات الطويلة الباحثة والناقدة يكون أقدر على تذوُّق الجَمال، وإدْراك درجاته المتفاوتات، من الإنسان العاديّ غير ذي الخبرة، أو السائر في طريق البحث والنقد، ولم تكتمل بَعْدُ لديه القدرة على تَذوُّق الفروق الجمالية.

* * *

(٥)

عناصر الكمال والجمال الأدبـي

لا بُدَّ أوّلاً من توافر الأركان الأساسية للكلام البليغ، وهي:

(١) مطابقته لمقتضىٰ حال المخاطب به.

(٢) التزامه بقواعد اللّغة وضوابطها في مفرداتها وتراكيب جملها.

(٣) خلُوّه من التعقيد اللّفظي، والتعقيد المعنوي.

وبعد توافر هذه الأركان الأساسيّة توجد عناصر كثيرة تُكْسِبُ الكلام ارتقاءً أدبيّاً، وتُعْطيه جمالاً وإبداعاً، ورونقاً وحياةً، وقدرةً على التأثير والهيمنة على النفوس والأفكار والقلوب.

وبمقدار ما يُمْكِنُ أن يجتمع في الكلام من هذه العناصر، متلائمةً غير متنافرة، متوائمة غير متشاكسة، مُتَحابّة غير متباغضه، مطابقةً لمقتضى حال المخاطب، يكون تسامي الكلام في سلّم الكمال الأدبـيّ الرفيع، الّذي يحتلُّ قمّته لدى التحليل الْمِجْهَريّ الدقيق كلام الله المعجز، ثمّ يأتي من دونه كلامُ الناس، مع المسافات الشاسعات بينه وبين قمّة كلام الناس.

وكما نقتبس عناصر الجمال والكمال من لوحات الطبيعة التي خلقها الله، فنعمل الأعمال الفنيّة الرفيعة بمحاكاة الفنون المختلفة فيها ضمن قدراتنا البشريّة، ونتتلمذ على الأمثلة الجمالية الكمالية التي تقدّمها لنا، فنكتسب منها الذوق، وفنون الصنعة الرائعة، بأشكالها وألوانها وأنغامها وملامسها وأنظمتها وحركتها وحياتها وعواطفها ولذّاتها وآلامها وذكرياتها وتحسّراتها وآمالها ومخاوفها، إلى سائر الظواهر الطبيعية في كل جامد ومتحرّك ونام وحيّ.

كذلك يقتبس أهل البصيرة عناصر الجمال والكمال الأدبـي من اللّوحات

البيانيّة البديعة المنزّلة من لَدُنْ حكيم عليم، والتي نتدبّر ما نتدبّر منها في كتاب الله المجيد على مقدار قدراتنا البشريّة.

وهذا التدبّر الواعي يحتاج إلى بصيرة نفّاذة لمّاحة، وصبر طويل، ومعالجات متكرّرات، ومعرفة بما توصّل إليه المتدبِّرون السابقون، وبحث مستمر لاستنباطات جديدة، ثم تكون أنصبة الباحثين بعد كل ذلك على مقدار مواهبهم، لا على مقدار البحر المحيط الذي يغترفون منه، ويغوصون في أعماقه، ليستخرجوا من روائعه وبدائعه.

الكلام لفظ ومعنى:

ومن الْبَدَهِيّاَت الأساسيّة أنّ الكلام ذا الدلالة اللّغوية إنّما هو لفظ ومعنى.

- أمّا اللفظ، فينحلّ إلى قسمين:

١ ــ مفرد.

٢ ــ ومركب.

أمّا المفرد في المنظار الأدبي، فيمكن أنْ نقسِّمه إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: اللّيّن السهل، وتتفاوت في ذوق الأديب درجات هذا القسم، فمن هُلاميّ رجراج، مثل الكلمات الخفيفة التي يستطيع الأطفال الصغار المبتدئون بالنطق أن ينطقوا بها صحيحة سليمة، وهي غالباً تتألّف من الحروف الشفويّة والصوتية، ثم الحروف اللّثويّة والصوتيّة، مثل: «بابا ــ ماما ــ دادا ــ لولو» وتتدرّج النسبة ارتقاء، مع المحافظة على صفة اللّين والسهولة، ولكن بالنسبة إلى نطق الكبار العاديّين، مثل: «نَسْمَة ــ بَسْمَة ــ رَنَا ــ دَنَا ــ وَهَىٰ ــ وَشَىٰ» ومن السهل اللّين في القرآن قول الله تعالى في سورة (الرحمن ٥٥):

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾.

القسم الثاني: القويّ الجزل، وتتفاوت في ذوق الفصيح ذي الحسِّ المرهف درجات هذا القسم.

ومن أمثلة القوي الجزل المفردات التالية من سورة (الشمس ٩١):

«ضُحاها ــ جَلاّها ــ يَغْشاها ــ طَحَاها ــ بِطَغْواها ــ إذا انْبَعَثَ أشْقَاها ــ فَعَقَروها ــ فَدَمْدَمَ عليهم ــ عُقْباها».

القسم الثالث: الحُوشِيُّ الغريب، وتتفاوت درجات هذا القسم. والحوشي الغريب ما قلّ في العرب استعماله، لثقله على الألسنة، حتى يكاد بعضه يُهمل في الاستعمال عند معظم العرب، مثل المفردات التالية:

الْحَنْظَبَة: بمعنى الشجاعة.

والْحَيْزَبُون، والشَّهْرَبَة: بمعنى المرأة العجوز.

طَخَا الليل: بمعنى أظلم.

تَطَشَّى المريض: بمعنى برىء.

النُّقَاخ: وهو الضرب على الرأس بشيء صلب.

الْهَبَيَّخَة: وهي الجارية باللّغة الحِمْيَرِيَّة.

الْهَبَيَّخُ: وهو الرجل الأحمق، والوادي العظيم، والنهر العظيم.

الْقُدْمُوس والْقُدْمُوسَة: وهي الصخرة العظيمة.

الْعَقَنْفَسُ والْعَفَنْقَس: هو السيِّىء الخلق.

القسم الرابعُ: الصعب الجموح، وتتفاوت درجات هذا القسم. ومن الصعب الجموح ما هو حوشي غريب، ولكن ليس كل صعب جموح كذلك، فقد لانت في ألسنة العرب كلمات صعاب، وبقيت مستعملة دارجة بيْن أُدبائهم إلاَّ أنّها صعبة على الألسنة لها جُموح ونفور، مثل الكلمات التالية:

غَضَنْفر: من أسماء الأسد.

مُسْتَشْزِر: أي مفتول.

عَقْعَقٌ: اسم لطير.

والأديب رفيع الأدب، مرهف الحسّ في ذوق الكلمات، يختار في كلامه من القسمين الأوّلين:

- اللّين السهل.
- والقوي الجزل.

ويضع ما يختار في موضعه مراعياً حال المخاطب وما يسرُّه من المفردات، وما يلائم ذوقه، ولغة قومه.

ويحسن به أنْ يختار لبعض الموضوعات مفرداتٍ ذاتَ جَرْس موسيقي وإيقاعٍ رشيق.

ويختار أيضاً من الكلمات ما يلائم المعنى من لين وسهولة أو قوّة وجزالة.

ويختار أيضاً من الكلمات ما هو أليق بالمناسبة، وبالموضوع العام للكلام، وأكثر ملاءمة لهما.

ويبتعد عن الحوشي الغريب، إلاَّ في مجال التعليم، أو لنُكَتٍ أدبيّة خاصّة.

ويجعل الصعب الجموح مقصوراً على مواطن خاصّة تستدعي النُكتةُ الأدبيّة اختيار بعض منها، مثل كلمة: (ضِيزَى) في وصف القسمة الجائرة غير العادلة، لما لهذه الكلمة بحروفها وصيغتها من إيحاءات تلائم التشنيع على القسمة الجائرة.

والدُّعاة إلى اللّهِ مطالبون بالتزام هذا المنهج الأدبـي في دعوتهم.

* * *

وأمّا المركب في المنظار الأدبـي: فَلَه تقسيمات من ثلاث جهات:

١ ــ جهـة السبـك.

٢ ــ جهـة الكثافـة.

٣ ــ جهة تواصل الجمل بأدوات الربط أو تفاصلها.

أوّلاً ــ فمن جهة السبك:

ينقسم اللّفظ المركّب إلى أربعة أقسام:

القسم الأوّل: المتلائم المتناسق، المتوائم السهل حَسَنُ السّبك.

القسم الثاني: المتنافر الصعب العَسِر النطق.

القسم الثالث: سيِّىء السَّبك ضعيف الإنشاء.

القسم الرابع: معقَّد الترابط صعب الفهم.

والأديب البليغ رفيع الذوق، ذو الحسّ المرهف، المتمرّس بصناعة القول الرفيع، يحاول أنْ يكون كلامه سليماً من أنْ يكون سيِّىء السبك، ضعيف الإنشاء، ومن أنْ يكون معقّد الترابط صعب الفهم.

ويتحرّى أنْ يكون كلامه من القسم الأوّل (المتلائم المتناسق المتوائم السهل حَسَن السبك).

ويبتعد جَهْدَ مستطاعه عمّا هو متنافرٌ صعب عَسر النطق، ويُولِي عناية للعناصر الجماليّة التالية:

(١) صياغة الجملة صياغة فنّية سَهْلَةَ الفهم، لا توقع فكر المخاطب بارتباك في ربط مفردات الجملة، ولا تُكَلِّفه مشقّة، حتى يفهم المراد منها.

(٢) رصْف الجمل رصْفاً يثير الاستحسان والإعجاب لدى المخاطب. وقد يحتاج هذا إلى التفنُّن في الجُمل، ما بين متوازنات طولاً وقصراً أحياناً، وبين طويلة ومثل نصفها أو ثلثها أو ثلثيها أحياناً أخرى، وبين ترك التوازن ليذهب الكلام منساباً. وقد يحسن التكرير في بعض هذه العمليّات.

ولا ضابط لمَواطن الجمال فيها إلاّ الحسّ المرهف الذوّاق للجمال الأدبـي.

(٣) وقد يَجْمُلُ بعض السجع غير المتكلَّف ولا المتصنَّع، بشرط عدم الالتزام به في كل الكلام.

(٤) المحسِّنات البديعية اللّفظية التي تأتي منسابة محبّبة غير متكلّفة ولا متصنّعة.

(٥) فنون الشعر الذي له تأثير في أساليبه وموسيقاه على مشاعر كثير من النّاس.

ورجال الدّعوة إلى الله مطالبون بالعناية بهذه العناصر الجماليّة الأدبيّة في دعوتهم، إذا خَطبوا، أو حاضروا، أو تحدّثوا، أو كتبوا، أو نظّموا شعراً، أو ألّفوا مؤلفات علميّة، أو توجيهيّة، أو أدبيّة. وأنْ يُسَخِّروا أدبهم في خدمة الدّعوة إلى الله.

ثانياً ــ ومن جهة الكثافة:

ينقسم الكلام إلى ثلاث مراتب، تُعرف عند علماء البلاغة بالإيجاز، والمساواة، والإطناب، كما سيأتي بيانها إن شاء الله في علم المعاني.

ولكلّ من هذه المراتب درجات متفاوتات.

وأشرح الكثافة في بناء الكلام وأشرح مستوياتها في تحليل أدبـي فكري، فأقول:

تخضع التعبيرات الكلاميّة عن المراد لنِسَب متفاوتة من الكثافة.

فمِنَ الكلام ما هو شديد الكثافة، وقد تشتدّ فيه حتّى يكون بمثابة قطعة من الصخر، لا تُعرف عناصرها حتى تُكسر وتُطحن، وتُفرّق الأجزاء عن بعضها، وتحلّل بوسائط.

وبعض متون العلم المكثّفة المختصرة هي من هذا القبيل، وقلّما يسلم التكثيف الشديد في الكلام من الإخلال في الدلالة على المراد.

وفهم المكثّف من الكلام يحتاج إلى ملكات ذهنيّة عالية، أو إلى تدريب وممارسة طويلة، وتعلّم على أيدي أهل العلم.

وتخفّ الكثافة ببسط الكلام وتمديده، ويتدرّج ذلك في سلَّم كثير الدرجات، ولكنْ ليس لدينا ميزان نزن به كثافة الكلام، شبيه بميزان الكثافة الذي توزن به السوائل، فالمرجع في تحديد الكثافة أذواق العلماء والأُدباء، وملاحظة سهولة استساغة الكلام من قبل العامّة أو عدم ذلك.

وباستطاعتنا أنْ نقسّم مستويات الكثافة في الكلام إلى ثلاث مراتب، ولكلٍّ من هذه المراتب الثلاث درجات متفاوتات:

المرتبـة الأولـى:

هي مرتبة الكلام الموجز المختصر. ولهذه المرتبة عدّة درجات ما بين شديد الكثافة، أي شديد الإيجاز والاختصار حتى مستوى الرمزيّة، وما بين كثافة يتحمّل الإنسان العادي فهمها ولكن بشيء من الممارسة والتدرّب والتأمّل.

وعنوان هذه المرتبة عند علماء البلاغة: (الإيجاز). وتستخدم هذه المرتبة لدى اختبارات الذكاء، ولدى مخاطبة الأذكياء وكبار القوم وأمرائهم، بشرط أنْ يكون المخاطب بها قادراً على فهم المراد ولو بتأمُّل يسير، وبالنسبة إلى أحوال هؤلاء تداول الأُدباء قديماً عبارة (البلاغة الإيجاز).

وتستخدم هذه المرتبة في الخلاصات العلمية التي يعدّها طلّاب العلم للحفظ، وتَذَكُّرِ المسائل العلمية بها.

المرتبـة الثانيـة:

هي مرتبة الكلام الذي هو متوسط البسط، وضابطه فيما أرى أن يكون لكلّ

فكرة يراد الدلالة عليها لفظ يدل عليها، أو صيغة تدلُّ عليها، أو تركيب خاصٌّ يدل عليها، بشرط أن يكون المخاطب عارفاً بذلك ويفهمه دون كدٍّ ذهنيّ، ودون حاجة إلى تأمّل طويل.

وقد يبدو أنّ هذه المرتبة ليس فيها درجات متفاوتات، إلاَّ أنّني أرى خلاف ذلك، فلها فيما أرى درجات، وتختلف هذه الدرجات وتتفاوت، باختلاف أحوال المخاطبين وتفاوتهم في قدراتهم على الفهم، واستيعاب دلالات الكلام، وفي معرفة دلالات الصِّيَغ والتراكيب، وفي التمرّس بمتابعة فهم المعاني من الكلام.

فمتوسّط البسط من الكلام بالنسبة إلى المبتدىء ليس هو كذلك بالنسبة إلى الذي تقدّم أشواطاً في معرفة دلالات الكلام وفهمها. وكبار القرّاء لهم متوسط يناسبهم، والأذكياء لهم متوسط يناسبهم، والأطفال لهم متوسط يناسبهم.

فيدخل في تحديد نسبة التوسّط اعتبار حال المخاطب.

وعنوان هذه المرتبة عند علماء البلاغة (المساواة) ولكن ربّما كان تحديدي لها يختلف مع تحديد علماء البلاغة.

ويحسن استخدام هذه المرتبة في معظم الأحوال، ولا سيّما لدى كتابة صكوك العقود والمعاهدات، وكتابة المواد القانونيّة، وكتابة متون العلوم، والتعريف بالمبادىء في نصوص معدّة للحفظ والتداول بين النّاس، ومن ذلك كثير من أحاديث الرسول ﷺ، مثل قوله:

«اجتنبوا السبع الموبقات».

قالوا: يا رسول الله وما هنّ؟.

قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النّفس التي حرّم الله إلاَّ بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولّي يوم الزحف، وقَذْف المُحْصنات المؤمنات الغافلات». رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة

المرتبـة الثالثـة:

هي مرتبة الكلام المبسوط، والكلام المبسوط هو ما لو حذف منه شيءٌ بالنسبة إلى حال المخاطب به لفهم المراد من الكلام فهماً تامّاً، دون كدٍّ ذهني، ولا تأمّل طويل، ولَمَا حدث لديه أيّ ارتباك فكريّ أو غموض، ولَمَا نقص لديه من الفهم شيءٌ.

والكلام المبسوط له حدود دنيا، يمثّلها ما زاد على نسبة التوسّط ولو قليلاً، ثم تزداد درجات البسط كلّما زاد بسط الكلام، ولا حدّ لأكثرها، وباستطاعة الثّرثار أنْ يَمُدَّ كلاماً تكفي صفحة واحدة لفهم المراد منه فهماً كاملاً تامّاً، دون إرباك ولا كدّ للذهن ولا تأمّل طويل، فيؤلّفَ كتاباً من مئات الصفحات ثم لا يخرج قارئها بأكثر ممّا فهمه قارىء الصفحة الواحدة، ونلاحظ أمثلة كثيرة لهذه الثرثرات في كُتب الشيوعيّين، وكُتب الَّذين نَسَجُوا على منوالهم، والغرض من الثرثرة تغطية عيوب المضامين الفكريّة، والإيهام والتعمية على الغوغائيين من المراهقين والمراهقات في أعمارهم أو في أفكارهم، ولا سيّما إذا اقترنت هذه الثرثرات بعبارات غامضات ومصطلحات تُوهِمُ أنّ وراءها فلسفة وعلماً عظيماً.

وعنوان هذه المرتبة عند علماء البلاغة: (الإِطناب). إذا كانت الزيادة في الألفاظ ذات فائدة، وإلاّ كانت الزيادة من قبيل الإسهاب والتطويل.

وقد يحسن استخدام ما يدخل في هذه المرتبة من الكلام في دروس التعليم، وفي مجالس الوعظ العامّة، وفي الخطب التي تُلقى على الجماهير، وفي بعض مجالس المؤانسة والمحادثة، وفي إلقاء القصص أو كتابتها، ولكنْ يشترط في ذلك أنْ لا يصل المتكلّم بالمخاطبين أو بالقرّاء إلى مستوى السأم والْمَلَل، فبعد السأم والملل يكون الضجر، ثم النفور، وعندئذٍ يثمر الكلام عكس المقصود منه، ويشترط أيضاً أنْ لا يكون بسط الكلام عن طريق الاستطرادات الخارجة عن أصل موضوع الكلام، ومعلوم أنْ الاستطرادات تجرّها أدنى مناسبة.

ثالثاً ــ ومن جهة تواصل الجُمل بأدوات الربط وتفاصلها:

فقد حرّر علماء البلاغة ضوابط ذلك في مبحث «الفصل والوصل» كما سيأتي بيانه في علم المعاني إن شاء الله تحريراً كاملاً فيما أرى الآن، إلاّ أنّ ضوابطهم تحتاج إلى تطبيقات واسعات على الأمثلة، لتدريب المهتمّين بفنون الأدب وصناعة الكلام.

فعلى رجال الدّعوة إلى الله أنْ يكونوا على بصيرة بمحاسن الفصل والوصل بيْن الجمل في الكلام، حتّى يكون كلامهم أرفع أدباً، وأعظم تأثيراً.

وأعظم معلِّم لمحاسن الفصل والوصل بيْن الجمل كِتاب الله ثم أقوال الرسول ﷺ.

* * *

● **وأمّا المعنىٰ فالنظر إليه يكون من جهات ثلاث:**

الجهة الأولى: جهة كوْن المعنى له لفظ لغوي موضوع أو مستعمل في عُرْف النّاس أو في مصطلحاتهم للدّلالة عليه، أو ليس له لفظ يدلّ عليه.

الجهة الثانية: جهة الدّلالة على المعنى عن طريق الأسلوب الكلامي المباشر، أو عن طريق الأسلوب الكلامي غير المباشر.

الجهة الثالثة: جهة المعاني أنفسها وقيمها الفكريّة والجماليّة.

والبحث العلمي الشامل المتّزن يأخذ بأيدينا إلى النّظر الثاقب في المعاني من هذه الجهات الثلاث.

* * *

وبنظرة عَجْلى وبحث أوّليّ متواضع أعقد لكل جهة من هذه الجهات الثلاث مقولة خاصّة بها.

أوّلاً ــ مقولة الجهة الأولى حول المعنى:

وهي كون المعنى له لفظ يدلّ عليه أو ليس له لفظ يدلّ عليه.

إنّ المعاني التي يمكن أنْ يحيط بها علم الإنسان، أو يصل إليها إدراكُه الذهني، أو تخيُّلاته، تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: هي المعاني التي لها ألفاظ لغويّة تدلّ عليها.

القسم الثاني: هي المعاني التي ليس لها ألفاظ لغويّة تدلّ عليها.

- مثل بعض الوجدانيّات والمشاعر النفسيّة التي لا يجد الشاعر بها ألفاظاً تدلّ عليها.
- ومثل بعض المركبات التخيّلية التي ليس لها أمثلة في الواقع.
- ومثل الغيبيّات التي لم يصل إلى حسّ النّاس أيّة صفة من صفاتها، ولكنْ أدركوا بعض آثارها، كالجاذبيّة قبل أنْ يتنبّه العلماء إليها ويضعوا لها اسماً.
- ومثل كثير من عناصر الأرض ونباتاتها وحشراتها وأجزاء الأجسام المركّبة التي لم يحدّد النّاس بَعْدُ أسماءً لها.
- ومثل كثير من الطعوم والروائح التي لا تُحْصَر فروعها، وإنْ عرفت أصولها، وكذلك الأصوات وما بينها من فروق وما لأصول أنغامها من فروع.
- ومثل كثير من الأعمال ذات الحركات المركّبة المتداخلة التي صار النّاس يشاهدونها بعد اختراع الآلات واكتشاف الطاقات.

وكلّنا نلاحظ أنّه كلّما وضح في أذهان النّاس معنى من هذه المعاني، وصاروا بحاجة إلى تداوله والتعبير عنه بدأوا يضعون له لفظاً منقولاً أو مرتجلاً يدلّ عليه، ومع تداول هذا اللّفظ مشيراً إلى المعنى الذي وُضِع له يغدو رمزاً معروفاً،

فكُلّما ذُكِرَ هذا اللّفظ ربط به الذّهن معناه، مستخرجاً له من خزائن المعاني عنده، ووضعه في ساحة التصوّر الحاضر.

وتعجُّ كتب العلوم بالألفاظ المستحدثَة التي هي من هذا القبيل، وتُعْرَف بالمصطلحات العلميّة.

وتتزايد في تداول النّاس ضمن لغاتهم الدَّارِجات ألفاظ تدلُّ على معانٍ لم يكنْ لها من قبل ألفاظ تدلُّ عليها، لأنَّ هذه المعاني لم تكن موضوعة من قبل موضع التداول العام، إذْ لم تكنْ الحاجة ماسّة إلى تداولها بين النّاس.

وفي المقابل تموت ألفاظ دالّة على معانٍ لأنّ هذه المعاني لم تعد الحاجة ماسّة إلى تداولها، كأسماء بعض الأدوات التي أهمل النّاس استعمالها.

ومِنَ المُلاحظ أنَّ اللّغات يسرق بعضها من بعض مَعَانِيَ وألفاظاً فتغدو متداولة في غير مواطنها الأصليّة بعدَ أنْ لم تكنْ كذلك.

وكثيراً ما يحتال الإنسان ليدلّ الآخرين على معنى لا يجد له في اللّغة لفظاً يدلّ عليه دلالة واضحة، إذْ يَلْحَظُ شبهاً قويّاً أو ضعيفاً بينه وبين شيء ممّا له في اللّغة لفظ يدلُّ عليه، فيستخدم اللّفظ الدالَّ على هذا الشبيه فيضرب مثلاً منه، وإذا كان هذا المعنى الشبيه قابلاً للتعميم، ثم التجريد من الحدود الحسّية إذا كان من الحسّيّات، فإنَّ الإنسان يلجأ عادة إلى التعميم بملكة التعبير اللّغويّة الموجودة في فطرته والمكتسبة من مجتمعه، وعندئذٍ ينقل اللّفظ الموضوع أساساً في عرف النّاس للمعنى الحسّي، ويعمّمه ثمّ يجرِّده من الحدود الحسِّيّة.

لقد كان الباب لفظاً دالاًّ في الحسِّيَّات على المدخل المخصّص وسط حاجز أو سُور، والذي يمكن فتحه وإغلاقه عند الحاجة، فيدخل منه الإنسان هو وأشياؤه إلى دار أو بستان أو مدينة أو مغارة أو نحو ذلك، أو يخرج منه. . .

ثمّ لاحظ النّاس أنّ هذا المعنى إذا عُمِّم وجُرِّد من الحدود التي عرفوها عند

الإطلاق الأوّل كان لفظ الباب قابلاً لأنْ يدلّ على المنفذ الذي يدخل منه الطائر إلى عشِّه ويخرج منه، والّذي يدخل منه الحيوان إلى جُحْرِه ويخرج منه، وعلى الثَّقْب الذي تدخل منه النحلة إلى خليَّتها وتخرج منه.

ثم اتّسع التعميم فصار قابلاً لأنّ يدلّ على حَواجِزَ في السحاب تحجز الأمطار عن الهطول، وربّما تكون هذه الحواجز طاقات ذاتَ أنظمة خاصّة، فإذا حُرِّكت هذه الحواجز تحريكاً يسمح بهطول الأمطار هطلت الأمطار. ومنه التعبير القرآني في سورة (القمر ٥٤):

﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ ﴾.

ثم انتقل الذهن من التعميم إلى التجريد، فصار للرزق أبواب وهي أبواب معنويّة، وصار للعلم أبواب وهي أبواب معنويّة، ومن ذلك التعبير القرآني في سورة (الأنعام ٦):

﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

مُبْلِسون: أيْ يائِسون مبهوتون متحيّرون ساكتون قد انقطعت حجّتهم وهيمن عليهم الخِزْي والندم.

ونظير الباب المفتاح والمفاتيح، ومن التعميم والتجريد مفاتيح الرزق، ومفاتيح العلم، ومقاليد السماوات والأرض، قال الله تعالى في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

أيْ له مفاتيح السماوات والأرض.

ومِنْ احتيال الإنسان للدّلالة على مشاعر شوقه العنيف إلى محبوبه تشبيهه هذه المشاعر بالنّار التي تلذع بحرارتها وتؤلم، وتجفّف رطوبة الجوانح، وتَدَاوَلَ العشّاق والشعراء هذا التعبير حتّى قال الشاعر:

بِنْتُمْ وبِنّا فَمَا ابْتَلَّتْ جَوَانِحُنَا شَوْقاً إِلَيْكُمْ وَلاَ جَفَّتْ مَآقِينَا

ثانياً ــ مقولة الجهة الثانية حول المعنى:

وهي جهة الدلالة على المعنى بالأسلوب المباشر أو غير المباشر.

المعنى:

(أ) إمّا أنْ ندلّ عليه في الكلام بالأسلوب المباشر السافر.

(ب) وإمّا أن ندلّ عليه في الكلام بالأسلوب الملامس بساتر.

(ج) وإمّا أنْ ندلْ عليه في الكلام بالأسلوب غير المباشر.

فالأسلوب المباشر السافر:

هو الأسلوب الذي تكون الدلالة فيه على المعنى المراد:

- باللّفظ الموضوع له لغة، وهو ما يسمّى (حقيقة لغويّة).

- أو باللّفظ الدّال عليه في الاستعمال العامّ الدارج وهو ما يسمّى (حقيقة في العرف العام).

- أو باللّفظ الدّال عليه عند أهل علم من العلوم، أو فنّ من الفنون، أو في الاصطلاح الشرعي، وهو ما يسمّى (حقيقة في الاصطلاح الخاص).

والأسلوب المباشر السافر في الكلام قد يكون في كثير من الأحوال هو الأسلوب الأوقع والأكثر تأثيراً، أو الأنفع والأجدى، أو الأكثر ضبطاً.

والأصل في الكلام هو الأسلوب المباشر السافر، وله النّسبة الأكبر من كلّ الكلام.

ومن الأحوال التي يكون فيها الأسلوب المباشر السافر أوقع وأكثر تأثيراً، أو أنفع وأجدى، أو أكثر ضبطاً، الأحوال التالية:

(١) خطاب الذين يصعب عليهم الفهم بأسلوب غيره، كالصغار وضعفاء التفكير.

(٢) حينما يكون المخاطب في حالة انفعالية أفقدته الهدوء والصّفاء الفكري، فالإنسان في مثل هذه الحالة لا يروق له إلاّ الكلام الذي يدلّ على المقصود بطريقة مباشرة.

(٣) لدى بيان الحقائق الكبرى العقديّة، كالكلام الذي يحدّد قضايا الإيمان، فهذه يجب فيها التصريح المباشر السافر، مثل: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله. آمنت بالله وملائكتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِه واليوم الآخر.

(٤) لدى بيان المبادىء التي تعلنها الشعارات، فهذه ينبغي فيها التصريح الذي يدلّ على المعاني دلالة مباشرة سافرة.

(٥) لدى كتابة نصوص التشريع أو التقنين، فالأدب الرفيع فيها هو التعبير بالأسلوب المباشر السافر، لئلاّ يكون في الأفكار احتمالات تسمح بصرف الكلام عن دلالاته المقصودة.

(٦) لدى التعبير عن الأحكام القضائيّة، فالنّصوص ذات الدلالة المباشرة السافرة فيها هي أكمل الأدب وأحكمه، عملاً بما توجبه مقتضيات هذه الأحكام.

(٧) في معظم مواقف الدعاء لله تعالى، فالتعبير المباشر السافر الموجز فيها كثيراً ما يكون هو الأدب الأرفع، مثل: ربّ اغفر لي، وارحمني، واهدني، وسدِّدني، وعافني، وارزقني حلالاً طيِّباً مباركاً فيه.

(٨) في كثير من صور التعليم المنهجي.

(٩) في ذروات التعبيرات العاطفية، فالتعبير المباشر السافر فيها عند التصافي وانعدام الرقباء هو من أرقى الأدب وأرفعه. إنّه قد يكون أوقع عند وصول الحبيبين إلى التكاشف الصريح أنْ يقول كلُّ منهما لحبيبه: إنِّي أحبُّك، أو يا حبيبي.

والأسلوب الملامس بساتر:

هو الأسلوب الذي يُستخدم فيه للدلالة على المعنى المراد طريق التشبيه والتمثيل، أو الاستعارة، أو المجاز المرسل، أو المجاز العقلي إذا قلنا به.

فحين نقول: «وجهه كالقمر» فإنّ السامع أو القارىء يلمس أنّ المراد وصفه بأنّه جميل، ولكنّ حِسَّ اللّمس يقع على ساتر التشبيه بالقمر، ولا يباشر الملموس المراد، وإنّما يباشر الساتر، فبين اللاّمس والملموس فاصل الساتر، وهو هنا التشبيه.

ويتكاثف الساتر في التشبيه البليغ.

ويزداد الساتر كثافة في الاستعارة التصريحية.

ويزداد الساتر كثافة أخرى في الاستعارة المكنية.

مثلاً: حين نقول للولد: كنْ مع والديك كفرخ الطّير الذي يخفض جناحيه تذلُّلاً تحت صدر أمّه أو جناحها. فإنَّ الولد يلمس أنّ المراد مطالبته بأنّ يتواضع لوالديه كتواضع الذليل ذي الحاجة إلى الأمن والدفء والرزق، ولكن يلمس هذه المعاني مع فاصل ساتر التشبيه.

فإذا حذفْنا أداة التشبيه، وجعلناه تشبيهاً بليغاً، لَمَس المراد نفسه، إلاَّ أنّه شعر قليلاً بزيادة كثافة الفاصل.

ثمّ إذا قُلنا له كما جاء في القرآن في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ ﴾ على طريقة الاستعارة المكنيّة، فإنّه يلمَسُ المراد نفسه أيضاً، لكنّه يشعر بأنّ كثافة الفاصل قد زادت من جهة، وازدانت بحلاوة ملامس خاصّة بها، مع جسّ المراد من ورائها.

ونلاحظ نظير ذلك في المجاز المرسل، وفي المجاز العقليّ إذا قلنا به.

فقول الله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ. . . ﴾ [الآية ١٩].

هو من المجاز المُرسل بإطلاق الكلّ وإرادة البعض، ونحن حين نسمع هذا القول، ويسرع إلى تصوّرنا أنّ الإصبع كلّها لا تدخل عادة في الأُذن، إنّما الذي يدخل منها رأس الأنملة فقط، نعلم أنَّ المراد أنَّهم يجعلون رؤوس أناملهم في آذانهم، ولكنْ لَمَسْنا ذلك من وراء فاصل، وهو هنا ساتر المجاز المرسل.

ومع لمسِ المراد من وراء الساتر أحسسْنا بزينة خاصّة في هذا الساتر نفسه، وبفكرة مضافة، وهي أنّهم يبالغون بضغط أصابعهم على آذانهم، فلو كان الواقع يسمح بدخولها كلّها في آذانهم لفعلوا من شدّة ذعرهم وحذرهم، وهذا معنى بديع يضفي على الكلام زينة حلوة.

وقول الله تعالى في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا. . . ﴾ [الآية ١٧].

أسند فيه السيلان إلى الأودية، مع أنَّ السيلان للماء فيها، ولكنَّنا حين نقرأ أو نسمع هذا الكلام نلمَس المقصود به من وراء فاصل وهو ساتر المجاز، إذْ أُسنِد السيلان للمحلّ، وهو هنا الأودية، ومع لمْس المراد من وراء الساتر نحسّ بزينة خاصّة في هذا الساتر، وبفكرة مضافة، وهي أنّ النّاظر إلى تدفّق الماء في الأودية، وتدافع أمواجه، يتوهّم في لحظات الانبهار أنّ الأودية تجري أيضاً مع

الماء، وهذا معنى بديع يضفي على الكلام زينة حلوة، ويصوّر حالة التخيّل التي تعتري الناظرين المندهشين.

إنّ هذا الأسلوب الذي هو وسط بين الأسلوب المباشر السافر، والأسلوب غير المباشر، أسلوب يتّسع لإضافة زينات أدبيّة كثيرة، تضفي على الكلام جمالاً، ورَوْنقاً وبهاءً، مع ما في هذه الزينات من أفكار ودلالات يمكن إضافتها، ومن تصوير فنّيّ بديع يمكن أنْ يقدّمه الأديب البارع عن طريقها.

الأسلوب غير المباشر:

والأسلوب غير المباشر يكون بالتعبير عن فكرة لتفهم معها فكرة أخرى، عن طريق اللّوازم العقلية القريبة، أو متوسّطة القرب، أو البعيدة، أو شديدة البعد.

وهذه الفكرة الأخرى إنّما يريد المتكلّم الإشارة إليها من طرف خفي، ولا يريد التعبير عنها بأسلوب مباشر، لغرض بياني أو غرض تربوي، أو أي غرض آخر يقصده البلغاء.

فمع ما في هذا الأسلوب من دلالة على ذكاء من يستعمله، ومع ما فيه من مجال واسع لتفنّن أدبي لا حصر له من قِبَل نوابغ الأدباء، وعباقرة البلغاء والشعراء، فهو مجال لتحقيق أغراض كثيرة، منها الأغراض التالية:

(١) عدم مواجهة المخاطبين بما يراد إعلامهم به لدواع تربوية، أو لدواع نفسية، كعدم المواجهة بالتكليف، وعدم المواجهة بالنّقْد، وعدم المواجهة بالعتاب، وعدم المواجهة بالتلويم، وغير ذلك.

(٢) إرضاء نفس من يخاطب به، إذ يشعر بأنّه محترم مقدّر مِنْ قِبَل من يخاطبه، فهو في نظره من مستوى الأذكياء وكبراء القوم الذين يخاطبون بإشارات الكلام وكناياته، ولا يحتاجون إلى صريح القول.

(٣) إخفاء المراد على جمهور المستمعين، وإشعار المخاطب وحده بالرمز، لأغراض سياسيّة، أو عسكريّة أو تربويّة، أو نحوها.

كما وقع في غزوة الخندق، إذ بلغ الرسول ﷺ أنّ بني قريظة نقضوا عهدهم، فأرسل وفداً من الأنصار فيه سيِّدا الأوس والخزرج إلى كعب بن أسد القرظي سيِّد يهود بني قريظة ليستطلعوا الخبر، وقال لهم: انطلقوا حتّى تنظروا، أحقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أمْ لا؟ فإنْ كان حقاً فالْحَنُوا لي لَحْناً أعرفه، ولا تفتُّوا في أعضاد القوم (أي: تكلّموا بالرمز ولا تتكلّموا بصريح القول).

وكذلك فعلوا لمّا علموا أنَّ بني قريظة قد نقضوا عهدهم حقاً. إنَّهم لمّا عادوا إلى رسول الله ﷺ، سلَّموا عليه، ثمّ قالوا له: عَضَلٌ والْقَارَة. ففَهِم الرسول المراد، وعلم أنّ القوم قد غدروا كما غدرت عَضَلٌ والْقَارة بأصحاب الرجيع.

(٤) التوصّل عن طريق اللّوازم العقلية إلى معان قد لا يكون لها ألفاظ تدلّ عليها دلالة مباشرة.

(٥) تزيين الكلام ليكون أكثر تأثيراً في نفوس المخاطبين.

(٦) وقد يكون الأسلوب غير المباشر مقرِّباً للفكرة الغامضة، أو مقدِّماً لها مقترنة بحُجَّتِها المُقْنعة بها.

(٧) إمكان التهرّب من إرادة المعنى عند الإحراج، وذلك إذا كانت إرادته تسوء المخاطب به، أو تسوء غيره من أنداده أو حسّاده أو غيرهم.

ومِنْ أمثلة ذلك مَنْ يُشير بطَرْف خفيّ إلى حبِّه، أو يلمِّح إلماحاً خفيّاً، لأنَّ أمامه رُقباء من الأنداد أو الحُسّاد، أو مَنْ لا يَرْضَى بهذه العلاقة غَيْرةً أو نَخْوة أو مخافة العار، والمتكلِّم لا يريد إثارة هؤلاء نحوه لئلاّ يَكِيدُوه.

وفي كثير من الأحوال يكون خطاب النّاس بالأساليب غير المباشرة هو الأجدى، لأنَّه أوقع في نفوسهم، وأكثر إرضاءً لغرورهم، أو أوفق لظروف أحْوالهم.

ولكن لا يصحّ أنْ يكون كلّ الكلام جارياً وفق الأسلوب غير المباشر، فالأصل في الكلام هو الأسلوب المباشر، وهو بمثابة الخبز الذي تؤكل معه ألوان الأطعمة، إنّ الأسلوب غير المباشر ينبغي أنْ لا يزيد في الكلام كثيراً حتى لا يفقد الكلام قواعده وأركانه الأساسيّة.

إنَّ الأسلوب غير المباشر ينبغي أن يكون في غضون الكلام الجاري على الأسلوب المباشر، وبمقدار الأغراض البلاغيّة، وبمقدار الحِلْيات التي تتزيَّن بها الحِسان عادة.

وينبغي أيضاً أن يكون الكلام متنوعاً، لا ملازماً لوناً واحداً من ألوان الأساليب غير المباشرة.

إنَّ أبدع الكلام وأحلاه ما كان متنوعاً كثير الألوان، غير مقتصر على نَمَطٍ واحد. ومع ذلك فليس هذا في كل مائدة كلاميّة. إنّه قد تجمل في بعض الأحيان وفي بعض المناسبات مائدة كلاميّة من لون واحد من الكلام فقط.

إنَّ طبائع النفوس عجيبة، وينبغي أنْ يكون ميزان الأديب تُجَاهها شديد الحساسية، يتتبّعها بالمؤثّرات الآنية عليها.

ويُعرف الأسلوب غير المباشر عند علماء البلاغة باسم (الكناية) ويدخل فيه ما يعرف عند علماء أصول الفقه باسم (المفهوم) أو باسم (الفحوى) فيقولون: «منطوق اللّفظ ومفهومه» سواء أكان المفهوم موافقاً أم مخالفاً. ويقولون: «فحوى الكلام» وهو عندهم كالمفهوم المقابل للمنطوق.

والمعنى المدلول عليه بهذا الأسلوب غير المباشر:

(أ) إمّا أنْ يكون معنى قريب التناول لا يحتاج إلى متابعة لوازم عقليّة متعدِّدة مثل قولنا للدّلالة على طول إنسان: «لا يدخل الأبواب إلاَّ وهو يخفض رأسه أو يتقاصر بجسمه».

ويمكن أنْ نمثّل له بقول الله تعالى: ﴿وأحسنوا إنَّ الله يحبُّ المحسنين﴾ أيْ: ويثيبهم ويدخلهم جنّات النعيم. لأنّ من أحبّه الله أكرمه وأدخله في رحمته، فهذه من لوازم المحبّة. ونظيره في القرآن كثير.

ويدخل فيه مثل قول الله تعالى في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) في بيان واجبات برِّ الوالدين:

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا. . .﴾ [الآية ٢٣].

أي: ولا تفعل أيضاً ما هو أشدّ، وهذا يفهم بداهة لأنّ من نُهِيَ عن القبيح الأخفّ فهو منهي عن القبيح الشديد والأشدّ لزوماً عقليّاً.

(ب) وإمّا أنْ يكون معنىً متوسّط البعد، يدركه الذهن دون تأمّل عميق، وينتقل مع لوازم منطوق اللّفظ إليه بغير مشقّة فكريّة.

مثل الكناية عن كَثْرة إطعام الضيفان عند البدو، أنْ يقول قائلهم فلان: «كثير الرَّماد» أيْ: مضياف جَوَاد. لأنَّ كَثرة الرّماد عندهم مِنْ كَثرة إيقاد النَّار، وكثرة إيقاد النَّار مِنْ كَثرة الطبخ عليها، وكَثْرة الطبخ تدلُّ على كَثْرة الضيوف بحسب العادة.

(ج) وإمَّا أنْ يكون معنىً بعيداً، بسبب كَثْرة لوازمه العقلية، أو بسبب أنَّ هذه اللّوازم تحتاج إلى تعمّق في التفكير حتّى يدركها الذّهن، وغالباً لا يدركها إلاّ الأذكياء والعلماء.

ونُمثّل لهذا بقول إبراهيم عليه السلام حين رفض عبادة الأصنام وكلّ ما في الأرض، وبدأ يبحث عن ربّه في السماء. كما جاء في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

أيْ: إنَّ غياب الكوكب ظاهرة حدوث، وصفة الحدوث لا تكون من صفات الرَّب الخالق، فالكوكب لا يصلح لأنْ يكون ربّاً، فأنا لا أحب عبادة الآفلين الذين ليس أحد منهم يصلح لأنْ يكون ربّاً خالقاً، إنَّما أحبُّ عبادة ربِّـي الحقّ.

فجملة ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ في معرض البحث عن الربِّ الخالق، تستدعي لدى أهل الفكر والنظر وأذكياء التأمّل كل هذه اللّوازم.

(د) وإمَّا أنْ يكون معنَى يُلمح لمحاً، أو يشم شمّاً، ويتطلّب إدراكه حِسّاً مُرْهَفاً، وممارسة لإدراك مشاعر النفوس من وراء تعبيرات اللّسان.

وقد لا تظهر لوازم فكريّة تدلُّ عليه، بل قد تكون الإشارة إليه من قرائن الأحوال، أوْ مِنَ التصريح بشيء وعدم التصريح بقرينه أو مُقَابِله، مع وجود الدواعي لهذا التصريح.

ويعمل الذّكاء وقوّة الحَدْس في هذا المجال لاكتشاف ما يختلج في النفوس من معانٍ لم يُفْصِحْ عنها اللّسان، لسببٍ مِنَ الأسباب، كالاستحياء، أو الكِبَر، أوْ العِفَّة، أو الخَوْف، أو غير ذلك.

ونستطيع أنْ نمثِّل لهذا القسم بالأمثلة التالية:

(١) قول موسى عليه السلام بعد أن سقى لابنتي الشيخ الصالح عند ماء مدين ثم تولّى إلى الظّل، كما جاء في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾.

فهو في هذا يشير باستحياء إلى حاجته إلى الزوجة إشارة خفيَّة لا تُعْرف إلاَّ من قرينة الحال.

(٢) قوْل أيُّوب عليه السلام بعد أنْ طال به المرض ثمانيةَ عشر عاماً: يا ربْ إنِّي مسَّني الشيطانُ بنُصْبٍ وعذاب. قال تعالى مبيِّناً دعاءه في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾.

بنُصْب وعذاب: أيْ بتعب وبلاء ومؤلمات جسديّة ونفسيّة، فهو في دعائه هذا يشير باستحياء إشارة خفيّة إلى طلب الشفاء، معلّلاً ذلك بأثر وساوس الشيطان في نفسه من جراء طول المرض، فهذه الوساوس قد زادت متاعب جسده وآلامه وعذّبت نفسه.

(٣) قوْل امرأة عمران حين وضعت جنينها الذي كانت قد نذرتْهُ محرَّراً لبيت المقدِس، وكانت تنتظر أنْ يكون ذكراً، فجاء أنثى وأسمتْها مريم، قالت كما جاء في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ ﴾. وقالت: ﴿ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ... ﴾ [الآية ٣٦].

فهي تشير بقرينة الحال إلى مشاعر التحسُّر التي تشغل قلبها ساعتئذٍ.

(٤) قولُ ذي النّون عليه السلام وهو في بطن الحوت لربّه، كما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

فالقول توحيد وتسبيح واعتراف بالذنب، إلاّ أنّه يشير باستحياء شديد من طرف خفِيّ إلى طلب النجاة.

* * *

الخلاصة:

فالمعاني:

(١) إمّا أنْ تُسْتَفَاد مِنْ دلالة الكلام المباشرة السافرة.

(٢) وإمّا أنْ تُسْتَفَاد من دلالة الكلام الملامسة بِساتر.

(٣) وإمَّا أنْ تُسْتَفَاد مِنْ دلالة الكلام غير المباشرة، ويكون ذلك في حدود ظِلال الكلام.

ولهذه الحالة ثلاث مراتب: قريبة، ومتوسّطة، وبعيدة. ولكلّ من هذه المراتب الثلاث درجات متفاوتات.

ويلحق بالأسلوب غير المباشر أنْ تُستفاد المعاني من قرائن الأحوال، ومن الإشارات الخفيَّة الضمنيّة.

وهذه المعاني يُتَوصَّل إلى إدراكها بالذكاء والتفرّس والحَدْس، ومعرفة القرائن والملابسات.

فهي تُتصيَّد ممّا وراء ظلال الكلام، والإلماح إلى هذه المعاني ذو نِسَب متفاوتة في الظهور والخَفَاء.

وعلى الدُّعاة إلى الله أنْ يكونوا على بصيرة بفنون دلالات الكلام على المعاني، وأنْ يتمرّسوا بألوان التعبير البليغ ويُدَرِّبوا أنفسهم على تذوُّق آداب القول، وعلى معرفة أحوال التلاؤم بين أُسلوب الكلام ومُقتضى حال المخاطب به، حتّى يكون كلامُهُمْ أكثر تأثيراً، وتكون متأسِّية بمنهج القرآن في الدّعوة، ومنهج أنبياء الله ورُسُلِه في دعَواتِهم إلى سبيل ربِّهم.

ثالثاً ــ مقولة الجهة الثالثة حول المعنى:

وهي جهة المعاني أنفُسِها وقِيَمها الفكرية والجماليّة.

(أ) إنَّ المعانيَ أنفُسَها في أذهان النّاس ومقولاتهم تنقسم إلى أقسام خمسة:

(١) فمنها ما هو حقٌّ بلا ريب.

(٢) ومنها ما هو باطل بلا ريب.

(٣) ومنها ما يترجّح في الظن أنّه حق، وتختلف نسبة الرّجحان.

(٤) ومنها ما يترجّح في الظن أنّه باطل وتختلف نسبة الرّجحان.

(٥) ومنها ما هو واقف في المنطقة المتوسّطة تماماً، وهي الأمور التي تكافأت قوتا النفي والإثبات بالنّسبة إليها، فلا هي راجحة إلى جانب الحقّ، ولا هي راجحة إلى جانب الباطل، وهذه الحالة الذهْنيّة بالنّسبة إلى الأمور التي هي منْ هذا القبيل، يُطلِق عليها علماؤنا كلمة (الشّك) في اصطلاحهم، لكنّ كلمة الشّك في التّعبير القرآني تعني غير هذا: ﴿أفي اللَّهِ شَكٌّ﴾ أيْ: أفي إثبات وجود الله أيّ احتمال مهما كان ضعيفاً يُفْتَرَضُ معه أنْ لا يكون للكون ربٌّ خالق فاطر؟ إنّ هذا مرفوض بداهة.

(ب) وإنّ المعاني أنفُسها تختلف بالنّسبة إلى أَفْهَام النّاس بُعْداً وقُرْباً.

● فمنها ما هو قريب منْ مدارك النّاس، سَهْلُ المأخذ، سَهْلُ الفهم.

● ومنها ما هو بعيد نسبياً لا تتوصل إليه أفهام الناس ومداركهم إلاّ بالتأمّل ودقّة الملاحظة، أو بقسط من البحث.

● ومنها ما هو عميق بعيد الغَوْر لا يصل إليه إلاّ الأذكياء والنُّبهاء والعباقرة، أوْ الباحِثون المنقِّبون.

● ومنها ما لا تستطيع مدارك النّاس الوصول إليه أو الإحاطة به، وقد أصبحت الآلات الإلكترونية تقدِّم للعقول نتائج لا تستطيع العقول بأنْفُسِها التوصّل إليها. وهنالك في الغيب علوم لم يُؤْتَ النّاسُ وسائل الوصول إليها، نبّهت على بعضها الوسائل الحديثة، ودلّ على بحورها العميقة. قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾.

ودلّ عليها قول الله عزّ وجلّ في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾.

إنَّ المعاني كبحور عظيمة لها سطوح وشواطىء، وتحت السطوح أعماق، وتحت الأعماق أعماق أخرى، وتحت الأعماق أغوار، وتحت الأغوار أغوار سحيقة.

ومِنَ النّاس مَنْ يأخُذ من المعاني ما يصل إلى الشواطىء، ومنَ النّاس منْ يركب بحار المعاني ويجري على سطوحها، ويتناول منَ السطوح أو منَ العمْقِ القريب. ومنَ النّاس منْ يغوص إلى بعض الأعماق، ومنَ النّاس منْ يغوصُ إلى بعض الأغوار، ويتفاوت النّاس في نِسَب غوصهم، وكل منهم يستخرج منْ بحار المعاني على مقدار غوصه، وعلى مقدار استيعابه.

عناصر الجمال في المعاني:

أمّا عناصر الجمال في المعاني فمتنوِّعة، منها العناصر التالية:

العنصر الأوّل: تناسُق الأفكار وترابطها بوشائجها المنطقيّة دون إعنات للفكر، ثمّ تكاملها ولو مع طيّ بعض العناصر التي يمكن أنْ تفهم ذهناً، ولا يشترط التعبير عن وشائج الترابط، بل ربّما يكون طيّ ذلك أحلى وأكثر جمالاً أدبيّاً.

العنصر الثاني: الانتقال من الجذور والأصول في الأفكار إلى الفروع الكبرى فالصغرى فالأوراق والثّمار. أوْ مِنَ الفروع إلى الأصول. أمّا الخلط من غير ترابط منطقي فهو قبيح تنفر منه الأذهان، لأنّها لا تستطيع أن تُجريه في جداولها المنطقيّة الفطرية، ولأنّه يتنافى مع أُسلوب الطبيعة المنظَّمة بأبدع نظام.

العنصر الثالث: محاكاة الواقع بتصوير فنّيٍّ يُبْرِزُ الحركة والحياة والمشاعر، ويعبِّر عن مختلف أبعاد الواقع، ولا يقتصر على التصوير الجامد للأشكال والرسوم الظاهرة.

العنصر الرابع: الصدق في التعبير عن الحقيقة، أو عن المشاعر والأحاسيس، أو عن الآمال والرغائب، أو عمّا يسبح فيه الخيال متأثّراً بمطالب النفوس، وشهواتها، ومطامحها.

العنصر الخامس: ما تشتمل عليه المعاني ممّا يحرّك في النّاس المشاعر الوجدانيّة أو النفسيّة الحلوة، والعواطف الوجدانيّة أو النفسيّة الحلوة، أو يرضي شهوات النفوس.

العنصر السادس: ما يُعجب الأذهان من إشراقات ذكاء، وأفكار جديدة مبتكرة، بشرط أنْ لا تكون قبيحة بطبيعتها.

العنصر السابع: ما يسرُّ الخيال ويعجبه ويُمْتِعُه ممّا يرضي الرغبات النفسيّة التي يتمنّاها الإنسان ويعجز عن الوصول إليها وتحقيقها:

(أ) فمن الحق والصدق ما هو جميل جداً:

إنّ التصوير الفنّي الذي يُبرز في الكلام صورة الواقع المتحدَّث عنه، حتّى كأنّه مُشَاهَدٌ ملموس بحركته وحياته ورونقه وجماله هو من أرفع الأدب وأجمله، وكم من واقع هو أجمل وأكمل من الخيال.

وإنّ الكلام الذي يعبِّر عن الحقائق الفكرية المجرَّدة بطريقة مفهومه سهلة ليّنة طيّعة في الفكر وفي اللسان، هو من أرفع الأدب وأجمله.

وإنّ الكلام الذي يحدِّد الأحكام الشرعية أو الأحكام القانونية أو مسائل العلوم بوضوح، ودقّة تامّة، ورشاقة وعذوبة لفظ، هو من أرفع الأدب وأجمله.

وإنَّ الكلام الذي يعبِّر تعبيراً صادقاً عن مشاعر النّفس الوجدانيّة أو التخَيُّلِيَّة لدى مُشاهَدةِ طبيعية أو حادثة إنسانيّة هو من أرفع الأدب وأجمله.

وإنّ الكلام الحلو الذي يُرضي الآمال والمطامع النفسيّة، بإقناعات صادقات، أو بإقناعات توهِم بأنّها صادقات، فتستر بها عورات التلفيق والكذب، هو من أرفع الأدب وأجمله.

أمّا الكلام الذي تنكشف فيه عورات التلفيق والكذب فهو كلام قد تمجُّه النفوس، ولو سِيق لإرضاء الآمال والمطامع النفسيّة.

وإنَّ الكلام الذي يَصْنَعُ قصصاً مقتبسة ممّا يجري في الواقع نظائرها، هو من أرفع الكلام القصصي وأجمله.

دعوى «أعذب الشعر أكذبه»:

أمّا دعوى: «أعذب الشعر أكذبه» فهي دعوى لا أساس لها من الصحّة، لدى التحليل والبحث عن العناصر الجماليّة في الأدب.

إنّ الحقّ إذا لبس ثوباً أدبيّاً جميلاً كان أجمل من الباطل لا محالة، مهما لبس من أثواب جميلة مزخرفة.

إنّ الحُلَّة والحِلْيَة الأدبيَّة اللَّتَيْن يرفل بهما قول الله تعالى في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾.

للفكرة الحقِّ التي تبيّن واقع انتصار الحقّ والمحقِّين بعد أحداث الصِّراع بين الفريقين، أجمل من كل أدب يُزيِّن فكرة باطلة لتكون مقبولة محبَّبَة.

ربّما يكون تضخيم الحقّ وتجسيمه في الصورة الأدبيّة عملاً أدبيّاً جميلاً، لأنّ التضخيم والتجسيم في مفاهيم النّاس لون من ألوان البيان والشرح للحقيقة، وبعد الشرح ترجع الحقيقة في تَصَوُّرِ النّاس إلى حجمها الطبيعي.

إنّ الفكرة المشتملة على كذب سخيف ممجوج قد يستعذِبها الذهن لطرافتها، ولكن يمجّها الذَّوق والحسُّ المرهف العارف بألوان الجمال لسخافتها ومجافاتها للحقيقة مجافاةً واسعة المسافة.

في قول المتنبّـي:

كفى بجسمي نحولاً أنّني رجل　　لولا مخاطبتي إيّاك لم ترني

وفي قول الآخر:

ولوْ أنّ ما بـي من جَوىً وصبابةٍ　　على جَمَلٍ لم يدخل النّار كافر

قد نلاحظ فكرة غريبة لا يتصيّدها إلاَّ شاعر ذَكِيّ، فنُعْجَبُ بطرافتها، ولكنّنا مع ذلك نمُجُّها، لأنَّها تشتمل على دعوى كاذبة سخيفة.

أمَّا حين تكون الفكرة مبتكرة حلوة، وتكون الدَّعوى صادقة في أصلها، مضخَّمة مجسَّمة مبالغاً بها في صورتها الأدبيّة، فإنّ الكلام يكون حينئذٍ أرفع أدباً، وأعلى كعباً، وأوقع في النّفس.

هَلُمَّ فَلْنَلْحظ اجتماع الصدق والأدب الرفيع في قول الله تعالى في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾.

إنَّ في هذه الآية حلاوة فكرة السؤال والجواب. وحلاوة الجواب الذكي الذي لم يكن مباشرة بصيغة: (لم أمتلىء) أو بصيغة (لا) مع كثرة الذين أُلقوا فيها. وإنّما جاء على صيغة سُؤال النَّهِم الشَّرِه طالب المزيد: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾؟!!.

وما دام باستطاعة الإنسان أنْ ينتقي من الحقّ والصدق عناصر جماليّة لأدبه فما أوفر الحقّ والصدق في بيانات الإسلام أمام الدّعاة إلى الله، وما عليهم إلاَّ أنْ يغترفوا.

(ب) ومن الأفكار الجديدة المبتكرة ما هو جميل جداً:

وكلّنا نلاحظ أنّ النّاس تُعْجِبُهم وتحلو لديهم المعاني الجديدة المبتكرة، ويقولون في عباراتهم الدارجة: لكل جديد لذّة.

فاشتمال الكلام على المعاني الجديدة المبتكرة ــ دون أنْ تكون قبيحة في ذاتها ــ هو من عناصر الجمال الأدبـي، والزينة الجوهريّة في الكلام.

على أنَّ كلّ فكرة جديدة مبتكرة يستعذبها النّاس ويُعْجَبُون بها، قد تمسي مبتذلة مزهوداً فيها، متى تداولها النّاس واستعملوها كثيراً، باستثناء الأفكار التي هي بمثابة الخبز في الأكل، أو الملح في الطعام، أو الماء والهواء.

وما أوفر المعانيَ الجديدة التي يمكن استنباطها من كتاب الله عزَّ وجلّ، ويمكن إرضاء عقول النّاس بها، وما على الدّعاة إلى الله إلاَّ أنْ يحسنوا الاستفادة منها.

ومن المبتكرات في المعاني ما تكون جِدَّتُه في الجمع والتركيب.

مـثـلاً:

إنّ التعبير الساذج عن عدم الْعَدْلِ في مجال الحبّ الذي يعاتب به الإنسان العادي أميراً ذا مكانة، أنْ يقول له: يا سيّدي إنِّي أُحبُّك حبّاً عظيماً مع المحبِّين ولكنَّك لا تعامل حُبِّـي بالعدل كما تعامل الآخرين.

إنَّ مشاعر هذا الإنسان وقفت عند هذا الحدّ فأعطى هذا التعبير.

لكن المتنبّـي بذكائه تجاوز هذه المشاعر الساذجة، فأدرك أنّ سيف الدولة أعدل النّاس، وأدرك أنّه هو الْحَكَمُ لو شاء أنْ يشكوه إلى حَكَم، ثم رجع فأدرك أنّه هو الخصم، ثم استدرك ليكشف أنّ الخصومة على حُبِّه وما يقتضيه هذا الحب.

كل هذه الأفكار والمشاعر قد اجتمعت وتراكبت! وتدخّل الذكاء فأحاط بها معاً، وتدخَّلت القدرة البيانيّة على التعبير عنها مجتمعة بطريقة تُفْهَمُ بلا تعقيد ولا كدٍّ للذِّهْن، فقال المتنبِّـي لسيف الدولة:

يَـا أَعْـدَلَ النَّـاسِ إلاَّ فِـي مُعَـامَلَتِـي   فِيكَ الْخِصَامُ وأَنْتَ الْخَصْمُ وَالْحَكَمُ

(ج) ولإشراقات الذكاء في الأدب تأثير عظيم جدّاً في ارتفاع المستوى الأدبـي:

إنّ التعبيرات غير المباشرة أو المباشرة بساتر عن الأفكار المقصودة بالذات لا تكاد تُحْصَر.

ويتفاوت النّاس فيها بمقدار تفاوتهم في القدرة على تصيّد المعاني التي لها بالأفكار المقصودة صِلَة يمكن عن طريقها الإشارة إليها، أو الدّلالة عليها، ولو إلماحاً، أو من جانب خفي.

ومن الأسباب الجوهريّة في ارتقاء المستوى الأدبـيّ للكلام ما يكون لدى المتكلّم أو الكاتب من قدرة في هذا المجال.

كالقدرة على تصيُّد الأشباه والنظائر، واستخدام بعضها لبعض، في الأمثال والتشبيهات، والاستعارات، وأنواع المجاز التي يُكَنِّي بها الأديب عن مراده، وكالقدرة على معرفة الروابط بين الأفكار، والانتقال فيها بين اللوازم والملزومات، والأجزاء والكل الذي يجمعها، والخاصِّ والعام، والمتناقضات والأضداد، وغير ذلك من المعاني ذات الترابط فيما بينها في الواقع أو في الفكر، فهي تتخاطر معاً ولو كانت متناقضاتٍ وأضداداً، ويستدعي بعضها بعضاً.

ولا بدّ مع ذلك من توافر الذوق الفنّي، والحسِّ الجمالي الرفيع، لوضع هذه الأشياء في مواضعها، بحسب مقتضى حال المخاطب، فرداً كان أو جماعة.

مـثـلاً:

اعتاد الأُدباء والشعراء أن يُشَبِّهوا الجواد بالبحر، لأنّ البحر ماؤه كثير، وعطاؤه وفير، فهو لا يمنع آخذاً منه، لكن إشراقات الذكاء مكَّنت الشاعر من أنْ يعطي هذا التشبيه المتداول زينةً جديدة مُحَبَّبة بتقسيم البحر إلى لُجَّةٍ وساحل، فقال في ممدوحه:

هُـوَ الْبَحْـرُ مِـنْ أَيِّ النَّـوَاحِـي أَتَيْتَـهُ ... فَلُجَّتُـهُ الْمَعْـرُوفُ والْجُـودُ سَـاحِلُـهْ

(د) ولتحريك المشاعر الوجدانيّة والنّفسيّة الحلوة تأثير عظيم في ارتفاع المستوى الأدبـيّ:

ولا ريب في أنّ النّاس تُعجبهم وترضيهم وتحلو لديهم المعاني التي تحرّك لديهم المشاعر الوجدانيّة والنّفسية الحلوة، والعواطف الوجدانية والنّفسيّة الحلوة، أو تذكّرهم بها.

مثل: مشاعر الحبّ، ولقاءات الأحبّة، وعواطف الحنان والشفقة، ومشاعر الشوق لدى العُشّاق، ومشاعر الإيمان وأحاسيسه العميقة لدى المؤمنين، ومشاعر العبادة الحلوة لدى العبّاد الصالحين، ومشاعر الفخر والاعتزاز بالأمجاد، ومشاعر الإحسان وفعل الخير، ومشاعر الأخوّة والصدق والوفاء، ومشاعر الأبوَّة والأمومة وسائر القرابات، ومشاعر العطف على الأيتام، ومشاعر التوبة والندم والرجعة إلى الله، ومشاعر الزهد في الدنيا والتطلُّع إلى النعيم المقيم في الآخرة، ومشاعر التضحية والبطولة والفداء، ومشاعر الإيثار، ومشاعر البرّ والتّقوى، ومشاعر التحدِّي والصمود وآمال النصر على الطغاة والبغاة وعُبَّاد الشيطان.

وما أوفر المعاني التي تحرِّك هذه المشاعر الحلوة لدى الدّعاة إلى سبيل الله، وما عليهم إلاَّ أنْ يُحْسِنُوا الاستفادة منها.

ثمّ إنّ المشاعر النّفسيّة والوجدانيّة منها ما هو ساذج بسيط، ومنها ما هو مركَّب متفاصل، ومنها ما هو مركَّب متداخل معقّد.

ويرتقي مستوى الكلام الأدبـي لدى عِلْية الأدباء، ولدى العامّة أيضاً، بقدر ارتقاء المشاعر التي يأتي التعبير عنها ولو بطريقة مباشرة.

ويصلح مثالاً لهذا سموُّ المشاعر في قول المتنبِّي لسيف الدولة:

إنْ كَـانَ سَـرَّكُمُـو مَـا قَـالَ حَـاسِـدُنَـا ... فَمَـا لِجُـرْحٍ إذَا أَرْضَـاكُمُـو أَلَـمُ

يَـا مَـنْ يَعِـزُّ عَلَيْنَـا أَنْ نُفَـارِقَهُـمْ وِجْـدَانُنـا كُـلَّ شَـيْءٍ بَعْـدَهُـمْ عَـدَمُ

ومركب المشاعر في قوله له:

يَـا أَعْـدَلَ النَّـاسِ إلاَّ فِـي مُعَـامَلَتِـي فِيكَ الخِصَامُ وَأَنْتَ الْخَصْمُ وَالْحَكَمُ

المشاعر الوجدانيّة والنّفسيّة في الدّعوة إلى الله:

وإذا كان للمشاعر الوجدانيّة والنّفسيّة هذا الأثر في ارتقاء مستوى الكلام الأدبـيّ، وفي تأثيره القويّ على النّفوس، فإنّ لدى الدّعاة إلى الله كنزاً عظيماً من المشاعر التي يتيسّر لهم الانتفاع منها في تحقيق أهداف الدّعوة، وفي رفع مستوى كلامهم الأدبـيّ.

ولكن لا بدّ من أنْ نُنَبِّه على عنصر مهم جدّاً، ألاَ وهو أنّ يكون المتكلِّم منفعلاً حقّاً في عمق وجدانه ونفسه، بالمشاعر التي يريد التعبير عنها، ويحرص على تحريكها في أعماق سامعيه أو قارئيه.

إنّه كلّما كانت مشاعر الداعي حول ما يدعو إليه من دين الله أعمق، وكان إحساسه بها أعنف وأوضح، كان تأثيره في سامعيه أكثر وأعمق، ولذلك نجد تأثير المخلِصين عظيماً.

وحين تقترن بهذه المشاعر الصادقة العميقة قدراتٌ أدبيّة على البيان، وتجارب مختلفات في ميادين التعبير الأدبـي عن الأفكار وعن الأحاسيس والمشاعر النفسيّة أو الوِجْدَانيّة، فإنَّ القدرة على التعبير عن هذه المشاعر تكون أكمل وأوفى، ثم يكون الكلام أكثر نفاذاً إلى أعماق سامعيه أو قارئيه، وأكثر تحريكاً لمشاعرهم.

ويرتقي الدّاعي إلى سبيل الله في تعبيراته الأدبيّة البليغة ضمن دعوته بمقدار ارتقاء تجاربه الإيمانيّة، وتجاربه الوجدانيّة، ومشاعره النّفسيّة الحلوة، في مجالات

الصّلة بالله، والطاعة له، والتوبةِ والنَّدَمِ، وعطاءات الخير، والتطبيقات الإسلاميّة المسعدة للنفوس، والمريحةِ للضمائر، والْمُمِدَّةِ للقلوب بالطمأنينة . . .

* * *

منثورات في عناصر الجمال الأدبـي

أوّلاً ــ الأسلوب البياني :

من عناصر الجمال الأدبـي في الكلام ملاءمة أسلوبه البياني للأمور التالية :

(أ) للهدف العام من الكلام .

(ب) للمضمون الفكري في الموضوع العامّ الذي يجري فيه الكلام، وفي الفكرة الخاصّة التي يَتَحَدَّث عنها .

(ج) لوضع المخاطب وحالته الفكريّة والنّفسيّة والاجتماعية .

(د) لِلْمُنَاخ النفسيّ العام الذي يُلقىٰ فيه، أو يوجَّه له، فالمناخات النفسيّة كثيرة، ولكلٍّ منها أسلوب بياني يلائمه .

وللتوصّل إلى الملاءمة المطلوبة التي هي عنصر مهمٌّ جداً من عناصر الجمال الأدبـي لا بدّ من ملاحظة الأمور التالية بعناية ودقّة :

(١) ملاحظة حال المخاطبين أو الّذين يُوَجَّه لهم الكلام وذلك بصفة عامّة .

ويدخل في هذا ملاحظة بيئتهم العامّة، ومفاهيمهم السائدة بينهم .

(٢) ملاحظة الحالة النّفسيّة والفكريّة والاجتماعية التي يكون عليها المخاطبون بصفة عامّة .

ويدخل في هذا ملاحظة حالات السلم والحرب والأمن والخوف، وسعة الرزق والجوع، والنّصر والهزيمة، والإيمان والكُفر والنِّفاق، والطمع واليأس،

والمسرّة والحُزْن، والصفاء والكَدَر، ونحو ذلك من الأحوال النفسيّة الخاصّة، التي يستدعي كلٌّ منها ما يلائمه من أساليب البيان.

ويدخل في هذا أيضاً ملاحظة حالات الذّكاء والغباء، وطمأنينة الفكر واضطرابه، والعلم والجهل، ونحو ذلك من الأحوال الفكريّة التي يستدعي كلٌّ منها ما يلائمه من أساليب البيان.

ويدخل في هذا أخيراً ملاحظة الحالات الاجتماعيّة، كالبداوة والتحضُّر، والرفعة والضِّعة، والقوَّة والضعف، والقيادة والانقياد، ونحو ذلك من الأحوال الاجتماعية التي يستدعي كلٌّ منها ما يلائمه من أساليب البيان.

(٣) ملاحظة الظرفين الزماني والمكاني اللّذين يُقَالُ فيهما أو يُعدُّ لهما الكلام.

فمن الأساليب البيانيّة ما يلائم ظرفاً من الظروف الزمانيّة أو المكانيّة، في حين أنّه قد لا يلائم ظرفاً آخر.

إنّ ما يلائم في مواسم الأعياد، قد لا يلائم في أوقات التحريض على الجهاد، وما يلائم في مكان الفرح، لا يلائم في مكان التَّرَح، وما يلائم في مواطن تأدية النُّسُك، قد لا يلائم في أسواق البيع والشراء، وكذلك العكس، وقس على هذه المتخالفات.

(٤) ملاحظة الْمُنَاخ النفسيّ العام، فالمناخات النّفسيّة كثيرة، ولكلٍّ منها أسلوب بيانيّ يلائمه.

ومنْ أمثلة الْمُنَاخات النّفسيّة: المناخ الخطابـي، الْمُناخ الحربـي، المناخ العاطفي، مناخ السفر، مُنَاخ الحضَر، مُنَاخ الخوف، مناخ الطمَع، مناخ القلق، مناخ الهدوء والسكينة، مناخ الغضب، مناخ الرِّضا، مناخ التربية والتعليم، مناخ الموعظة والإرشاد، مناخ الخصومة والجدل، مناخ الطلب والاستجداء، مناخ الدُّعاء، وهكذا إلى مُنَاخات كثيرة أخرى.

الشـرح:

منَ المعلوم أنّ المتكلّم الحكيم لا بدَّ أنْ يكون ذا هدف من كلامه، وللوصول إلى الهدف المقصود من القول أساليب بيانيّة كثيرة، ولكل هدف أساليب تناسبه.

وملاءمةُ الأسلوبِ البيانيّ للهدف من الكلام هي فيما أرى رُكن أساسي وجوهري لارتفاع مستوى الكلام الأدبـي البليغ.

- فحين يكون غرض الكلام مثلاً أنْ يُحْدِث تأثيراً إقناعياً، يكون الأسلوب البياني الأكثر إقناعاً وتأثيراً في هذا المجال هو الأكثر أدباً، والأرفع منزلة في هذه الحالة.

- وحين يكون غرض الكلام أنْ يُحْدِث انفعالاً حماسيّاً، ويستثير خلق الشجاعة والبسالة والإقدام، يكون الأسلوب البياني الأكثر إثارة للحماسة واستثارة للبسالة والشجاعة والإقدام هو الأكثر أدباً، والأرفع منزلة في هذه الحالة.

- وحين يكون غرض الكلام أنْ يُثِير الغضب أو يُحْدِث الغيظ، يكون الأسلوب البيانيّ الأكثر إثارة للغضب أو إحداثاً للغيظ، هو الأكثر أدباً، والأرفع منزلة في هذه الحالة.

فمن أرفع الأدب في هذا المجال قول الله تعالى في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) بشأن المنافقين الّذين إذا خلَوا عضُّوا أناملَهم غيظاً من المؤمنين:

﴿قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾.

وقول الله تعالى بشأن المشركين الذين يَكْرَهُوَن ظهور الإسلام وانتصاره في سورة (الصف/ ٦١ مصحف/ ١٠٩ نزول):

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾.

ولكنّ الإسلام قد عزل السباب والشتائم عن أدبه، وأوصى المسلمين بذلك، فقال الله تعالى في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۗ . . . ﴾ [الآية ١٠٨].

كما عزل عن أدبه ما يسمّى بالأدب المكشوف أو أدب الفراش، وسَتَرَ القرآن عوراتِ هذا المجال بالكنايات والعمومات، مثل:

﴿ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ ﴿ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ﴿ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ﴾ ﴿ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ ﴾ ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا ﴾ ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ ﴾.

● وحين يكون غرض الكلام تحقير من يوجّه الكلام ضدّه، أو السخرية منه، يكون الأُسلوب البيانيّ الأكثر تحقيقاً لهذه الغاية هو الأكثر أدباً، والأرفع منزلة في هذه الحالة، بشرط أن لا يعكس الأثر على موجِّه الكلام.

● وحين يكون غرض الكلام أنْ يستعطف من يُوَجَّهُ له، فيحرِّك لديه عاطفة الشفقة، أو الرحمة أو يحرِّك لديه خُلُق الجود، أو نحو ذلك، يكون الأسلوب البياني الأكثر تحقيقاً لهذه الغاية هو الأكثر أدباً، والأرفع منزلة في هذه الحالة.

● وحين يكون غرض الكلام التودّد والتحبّب لمن يوجّه له الكلام، يكون الأسلوب البياني الأكثر تحقيقاً لهذه الغاية هو الأكثر أدباً والأرفع منزلة في هذه الحالة.

● وحين يكون غرض الكلام استرضاءَ مَنْ يُوَجَّهُ له الكلام صراحة أو ضمناً، في دافع من دوافع نفسه، كالكِبْر، أو العُجْبِ بالنّفس، في جمالٍ، أو علمٍ أو حَسَبٍ، أو نَسبٍ، أو مكانةٍ اجتماعية، أو قُدْرَةٍ إداريّة، أو حِكْمَةٍ أو حُنْكَةٍ، أو غيرِ ذلك، يكون الأسلوب البياني الأكثر تحقيقاً لهذه الغاية هو الأكثر أدباً والأرفع منزلة في هذه الحالة.

وهكذا في سائر أغراض الكلام.

ولكلّ غرض من أغراض الكلام أساليبُ تُناسبه، فما يصلح في مجال الحماسة لا يصلح في مجال الإقناع، وما يحلو في الخطابة لا يحسن في مقام التعزية، وما يحسن في الجدل لا يحسن في مقام الاعتذار، وما يلائم بثّ الوَجْد، قد لا يلائم اسْتِجْدَاءَ الرِّفْد، وما يُنَاسِبُ المدح قد لا يناسب الهجاء.

وذوق الأديب البليغ يُحِسُّ بوجوه الملاءمة أو عدمها بين أساليب الكلام وبين الأهداف منه، فيتحَرَّىٰ أفضل الأساليب مُلاَءَمَةً للهدف الذي يقصده من كلامه.

ولا غَرْوَ أنَّ بعض الأساليب الملائمة للهدف أكثر ملاءمة وأعظم تأثيراً من بعض.

ثمّ لكل صنف من أصناف المخاطبين، ولكلّ حالٍ من أحوالهم الفكريّة والنفسيّة والاجتماعية أساليبُ ملائمة، وأساليبُ غير ملائمة، وعلى المتكلِّم البليغ أنْ ينظر في صنف من يريد توجيه كلامه له، وأنْ ينظر في حالته الفكرية والنّفسيّة والاجتماعية، ويُحسن اختيار الأسلوب الكلامي الذي يُلائمه ويؤثّر فيه فرداً كان أو جماعة.

فمن أصناف النّاس: عامّة وخاصّة، وجاهلون وعلماء، وأغبياء وأذكياء ودَهْمَاء وأمراء، وبُدَاة جفاةٌ ومتحضِّرون، وأهلُ حِلْم وعقل، وأهلُ خِفّة وطَيْش، ومنهم من يُمْلَكُ من طريق عاطفته، ومنهم من يُمْلك من طريق عقله.

وهكذا تختلف أصناف النّاس اختلافاً كثيراً، ولكل صنف منهم أساليب من القول تلائمه، وتكون أكثر تأثيراً فيه من أساليب أخرى.

ونظير اختلاف النّاس اختلاف أحوالهم الفكرية والنّفسيّة والاجتماعية، فما يلائم الإنسان وهو هادىء الفكر قد لا يلائمه وهو مشوّش الفكر مضطربه، وما يلائمه وهو في حالة الرضا قد لا يلائمه وهو في حالة الغضب، وما يلائمه وهو

فقير ذليل قد لا يلائمه وهو في سَعَة من المال وعِزّ، وما يَصْلُح له من الخطاب وهو وحده قد لا يصلح له وهو بين النّاس.

وهكذا إلى سائر اختلاف الأحوال، ولكل حال أساليبُ من القول مناسبة، وبعضها أكثر مناسبة وملاءَمة وتأثيراً من بعض.

وفي هذا المجال الذي تختلف فيه أهداف الكلام، وتختلف فيه أصناف المخاطبين، وتختلف فيه أحوالهم، تتفاوت مراتب البلغاء والبيانيِّين.

ما هو المراد من الأسلوب البياني؟

قد لا نستطيع حصر الأساليب البيانيّة وإنْ حاولنا ذلك، ولكنّنا نستطيع توضيح المراد من الأسلوب البياني بذكر طائفة من الأساليب الكلاميّة التي إذا كانت ملائمة للغرض العام من الكلام، والوضع العام للمخاطب، والحال الخاص له، والْمُنَاخ النفسيّ العامّ، كانت أسلوباً بيانياً مُرْتَقِياً في معارج البلاغة الراقية، والأدب الرفيع.

فمن الأساليب الكلاميّة ما يلي:

(١) أسلوب الْعَرَضِ المباشر الصريح للفكرة المراد الإعلام بها، أو العرض الملامس بساتر.

(٢) أسلوب العرض غير المباشر الذي يُعْتَمَدُ فيه على مقدار ذكاء المخاطب، ويدخل في أسلوب العرْض غير المباشر التعريضُ والتَّلمِيح، ومعاريض الأقوال، والإشارةُ الخفيّة، وفحوى الكلام، ولهذا الأسلوب صُوَر كثيرة جداً.

(٣) أسلوب الإطناب وعرض الفكرة مبسّطة موضّحة من كل جوانبها، ولهذا الأسلوب مراتبُ وصُوَر كثيرة، وهذا الأسلوب يناسب أصنافاً من النّاس، وأغراضاً معيّنة من الكلام، وأحوالاً خاصّة للمخاطبين.

(٤) أسلوب الإيجاز والاختصار، ولهذا الأسلوب أيضاً مراتب وصُوَر كثيرة، وأسلوب الإيجاز والاختصار يناسب أصنافاً من النّاس، كالأذكياء، والأمراء، وأهدافاً معيّنة من الكلام، وأحوالاً خاصّة للمخاطبين.

(٥) أسلوب الترغيب، وله مراتب وصُوَر كثيرة، وهو في الغالب يلائم معظم النفوس الإنسانيّة، لما أودع الله فيها من مطامع.

(٦) أسلوب الترهيب، وله أيضاً مراتب وصوَر، وهو كأسلوب الترغيب يلائم في الغالب معظم النّفوس الإنسانيّة، لما أودع الله فيها من حذر وخوف.

(٧) أسلوب العُنْفِ والقسوة، وهو يلائم بعض النّاس وفي بعض الأحوال.

(٨) أسلوب الرِّقَّة واللّين.

(٩) أسلوب الإثارة للعواطف والانفعالات، وكثيراً ما يكون هذا الأسلوب نافعاً ومجدياً في الحماسة والخطابة.

(١٠) أسلوب الإقناع الفكري الهادىء.

(١١) أسلوب الجدل.

(١٢) أسلوب الكتابة التَّقْنِينِيَّة، والكتابة العلميّة المحرّرة، والمحدِّدَة للمقاصد بنصوص بعيدة عن الاحتمالات الأخرى.

وهكذا تختلف أساليب الكلام، وكلٌّ منها يناسب أهدافاً معيّنة، وأصنافاً معيّنة من النّاس، وأحوالاً خاصّةً للمخاطبين، ومُنَاخَاتٍ نفسيّةً عامّة، وقد يجتمع عدد من أساليب الكلام في كلام واحد حينما لا تكون متنافية، أو حينما يلائم بعضها بعضاً.

مثال:

ولتقريب فكرة اختلاف الأساليب البيانيّة التي يُتوخَّىٰ منها تحقيق الغرض من

الكلام، ويُرَاعَىٰ فيها أوضاع المخاطَبين وأحوالهم، نضرب المثال التالي:

نضع في هذا المثال مطلباً من المطالب التي قد يراد الإعلام بها، بغية تحقيقها، ثم ننظر إلى طائفة من الأساليب الكلاميّة التي يمكن أنْ يُتَوَصَّل بها إلى الإعلام بالمطلوب.

وهنا لا بدّ أنْ نرى من الأساليب ما هو ساذج صريح، يتناول الطَّلب مباشرة، ثمّ نرى من الأساليب ما يدلّ على المطلوب دلالة غير مباشرة، ويُعْتَمَدُ فيها على ذكاء المخاطَب وقُدرَتِه على إدراك المطلوب من خلال إشارات القول ومعاريضه.

ومن المسلَّم به أنّه كلّما كان المخاطب أكثر ذكاء ورغبةً في تَلْبية الطلب، كان إخفاء الإشارة إلى الطلب في أسلوب القول الدّال عليه لدى مخاطبته أعلى منزلة من الناحية البيانيّة، وأكثر بلاغة، هذا في غير النّصوص التي يُقصد منها تثبيت أحكام بعيدة عن الاحتمال الذي قد يُفهم منه غير المراد.

وهنا تتكاثر الأساليب التي تشير في خفاء إلى المطلوب، وبعضها أرقى من بعض، أو أعذب وأحلى، أو أبدع أو أكثر نفعاً وتأثيراً.

ولنفرض أنَّ عدداً من النّاس كلُّ واحد منهم يُرِيدُ الحصول على كأس ماء يروي ظمأه، وهم متفاوتون في قدراتهم البيانيّة، وحاول كل واحد منهم الإعلام بما يريده.

أمّا الساذج منهم فيأمر أمراً بإحضار كأس الماء الذي يريد بطريقة لا لِينَ فيها ولا حِلْيَة، وقد يكون هذا الأسلوب هو الأبلغ في مخاطبة بعض النّاس، وفي بعض الأحوال والأوضاع، لا سيما في طلب الأكبر من الأصغر، فالأسلوب البياني الأبلغ حينئذٍ هو الطلب بالأمر المباشر، والأوامِرُ العسكرية من القادة إلى الجنود قد لا ينفع فيها إلاَّ مِثْلُ هذا الأسلوب المباشر الجاف، لمقتضيات التدريب على الانضباط العسكري، وكذلك شأن القرارات والمراسيم والأوامر التي توجّهها

سلطات الحكم، ومن هذا الباب التكاليف الشرعية التي فيها أوامرُ ونواهٍ، مثل: «أقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وافعلوا الخير، ولا تقتلوا النّفس التي حرّم الله إلاّ بالحق، ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل، ولا تسرقوا، ولا تزنوا» ومع ذلك فإنّنا نلاحظ معظم التكاليف الشرعية تقترن بتَطْرِيةِ الترغيبِ والترهيب، وبيانِ الحكمة، والتمهيد بالمقدِّمات، والتلطّف بالنداء التكريمي، مثل: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا﴾ ومثل: ﴿يا عبادي﴾.

وترتقي من فوق الأمر المباشر الجافّ أساليبُ الإعلام بالطلب، فيأتي أسلوب الطلب المقترن بما يشعر بتكريم المخاطب، ومن أمثلة ذلك في موضوع طلب كأس الماء «من فضلك أعطني ماء».

ثمّ يأتي فوقه أسلوب الشكر على تحقيق المطلوب قبل تحقيقه، ومن أمثلة ذلك: «أشكرك على كأس الماء الذي ستقدّمه لي».

ثمّ يأتي من فوق ذلك أسلوب التلميح والتعريض، ولهذا الأسلوب صور كثيرة، ودرجات بعضها أرقى وأعذب من بعض ومن أمثلة هذا الأسلوب:

(١) ماؤكم عذب لا يشبَعُ منه الشاربون.

(٢) الحرُّ شديد يورث الظمأ.

(٣) طعامكم طيِّب ولذيذ أكْثَرْنَا منه فألهب الأكباد.

وهكذا من أمثلة المعاريض التي لا تحصر.

أَلَسْنا نلاحظ أنّ الهدف المطلوب تحقيقه واحد في كلّ الأساليب السابقة، إلاّ أنّ الأساليب البيانيّة للإعلام بالهدف قد تفاوتت تفاوتاً كثيراً.

ومع تفاوت الأساليب البيانيّة وارتقاء بعضها فوق بعض، نؤكد أنّه ربّما كان الأدنىٰ منها أصلح وأجدى من الأساليب التي هي أرقى، مع بعض المخاطبين، أو في أوضاع وأحوال خاصّة، أو في موضوعات معيّنة أو بالنسبة إلى أهدافٍ

خاصّة من الكلام. وعندئذٍ يكون الأدنى في أسلوبه البياني هو الأبلغ لتحقيق الهدف، كشأن أساليب التربية.

ومن أجل ذلك لا بدّ من النّظر إلى الأسلوب البياني ومرتبته من جهة، وإلى ما يَقْتَضيه الهدفُ وإلى وضع المخاطب وحاله من جهة أخرى.

ومن هذا تبيّن لنا أنّ الأساليب البيانية تختلف أنواعها اختلافاً كثيراً، وأنّ الأهداف من الكلام، وأوضاع المخاطبين وأحوالهم، والموضوعات العامّة التي يجري فيها الكلام، والمضامين الفكرية التي يراد الدلالة عليها، والْمُنَاخات النّفسية والاجتماعية التي يوجّه فيها الكلام، تختلف اختلافاً كثيراً أيضاً.

والبليغ حقاً هو الذي يُحْسِنُ الملاءَمَة بين أسلوبه البياني وبين الهدف الذي يقصده، والموضوع الذي يتحدّث فيه، ووضع المخاطب الذي يُوَجِّهُ له كلامه، وحاله التي هو عليها، وسائر الأمور التي يمكن أن يُلائِمَها أسلوب من الكلام ولا يلائمها أسلوب آخر.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أنّ هذه المَلاءَمَة في الأسلوب البياني، ليست هي كلَّ شيء في تحديد الجمال الأدبي، بل توجد عناصر جماليّة أخرى كثيرة، قد يشتمل عليها الكلام أو لا يشتمل عليها مع مراعاة الملاءمة في الأسلوب البياني.

ونظرةٌ في مختلف الأساليب البيانيّة تجعلنا نمرُّ على أسلوب العرض المباشر الجاف، فأسلوب العرض المباشر المغلّف بما يلطِّفه ويخفّف جفافه، ونمرُّ على الأسلوب الساذج البسيط، فما هو قريب منه. وقد يلطِّف العرضَ المباشر التشبيهُ والتمثيلُ فيجعلُه ملموساً بساتر، والمحسِّنات اللّفظية، وأنواع من الزينة المعنوية، ودَعْمُ الخبر بالمؤكدات والشواهد، ودَعْمُ الطَّلَب بالمبرّرات والترغيب والترهيب.

ثمّ نمرّ على أساليب العرض غير المباشر التي يدخل فيها التعريض،

والتلميح، والكناية، والقصّة، وضرب الأمثال، وتَرْكُ صِيَغ الطلب إلى صيغ الْخَبَر الذي يراد منه الطلب، إلى غير ذلك من الأساليب البيانيّة الكثيرة التي لا يُعرض فيها المطلوب بشكل مباشر، وقد يقترن أسلوب العرض غير المباشر بما يؤكد الخبر الذي تضمّنه الكلام، أو بما يحرِّض على تحقيق المطلوب في الكلام، كالترغيب والرهيب.

وأصحابُ الذَوق البياني الرفيع يُحسنون استخدام الفنون البلاغيّة التي يذكرها علماء البلاغة، وفنوناً أخرى يبتكرونها، فالفنون البيانيّة لا تُحصر، والفكر الإنساني مؤهل لأن يبتكر فيها بدائع وروائع جديدة، تهديه إلى خصائص الإبداع الفنّي التي وهبها الله للإنسان.

والدعاة إلى الله مطالبون بتدريب أنفسهم لاكتساب هذا الذوق البياني، ولاكتساب المهارة في صناعة الكلام الرفيع، ثم هم مطالبون بتسخير أدبهم في دعوتهم إلى سبيل ربِّهم، اقتداءً بنبيّهم ورسولهم محمد ﷺ، واقتباساً من المنهج القرآني في بلاغته العظيمة.

ثانياً ــ التنويع والتنقّل والتلوين:

ومن عناصر الجمال الأدبـيّ الذي يزيد الجمال جمالاً، والحسن حسناً وبهاء، التنويع والتنقّل والتلوين بين الصور والأشكال الجماليّة في الكلام.

إنّ التزام الأديب لطريقة واحدة من الجمال الأدبـيّ يكرّرها باستمرار في كل كلامه أو في معظم كلامه، ممّا يجعل مشاعر سامعيه أو قارئيه تَتَبَلّد تجاه هذا اللون من الجمال، فتفقد ما كانت تحسّ به من استعذاب وحلاوة وطلاوة، ويدبّ السأم إليها، ولو أنَّ أدبه كان كالمنِّ والسلوى، لأمست مشاعرهم أمام التزامه الوتيرة الواحدة كنفوس بني إسرائيل.

لمّا أكثر طه حسين من استخدامه للون جميل في الكلام هو الاستفادة من

عكس الكلام للدلالة على فكرة أخرى، غدا هذا اللون بعد حين مادّة لتندّر بعض المقلّدين الساخرين.

وهذا العكس في الكلام هو ما كان على وزن العبارة المشهورة: «كلام الأمير أمير الكلام» ونقول في نظائرها:

«الجمال الأدبيّ وأدب الجمال» ــ «الطَّبْعُ الْحَسَنُ والْحُسْنُ المطبوع».

«شعراءُ العلماء وعُلَمَاءُ الشعراء» ــ «روائع النَّثْرِ ونَثْرُ الرَّوَائع».

ومن التزام الوتيرة الواحدة المملّة ما نجده في مقامات الحريري على الرّغْم من حلاوة بعضه لأوّل مرة، لكنّ التّنقّل في الألوان الأدبيّة، والتنويع في استخدام العناصر الجمالية في الكلام، من الأسباب التي تجدّد إثارةَ الانتباه للإحساس بالجمال، وتجدّد الاستمتاع بلذّة الأدب الجميل، وترفعه إلى مستوى الروائع، وتَمْنَعُ تسلُّل السأم والْمَلَلِ إلى نفوس المستمعين أو القرّاء.

إنّ التَّنَقُّل مثلاً في النَّثْر من المتوازنات القصيرة، إلى المتوازنات الطويلة، إلى المتفاوتات الرشيقة ضمن نسق معجب جميل، أَحبُّ إلى النّفوس الحضاريّة الذوّاقة للجمال من الثبات على وتيرة واحدة منها.

ثم إذا استطاع الأديب أنْ يُلاَئِمَ بين المضامين الفكرية وبين الأسلوب الذي اختاره كان ذلك أكثر إعجاباً وإبداعاً.

وكذلك التَّنقُّل من الخبر، إلى التساؤل، إلى الجواب، إلى التمنّي فإلى الخبر، فإلى الحوار والمناقشة، فإلى الْجَدَلِ، فالْحَماسة، فالمنطقيّة العقليّة، فالعاطفة، فالحديثِ الهادىء، إلى غير ذلك من ألوان وفنون بيانيّة، مع شرط الملاءمة، وعدم التنافر الجمالي.

ومع التنقّل ينبغي للأديب أنْ يكون قادراً على الإحساس بالتحوّلات النّفسيّة لدى من يُوَجِّهُ له كلامه، ليختار من أساليب القول ما يلائم الحالة النّفسيّة التي

وصل إليها. إنّ هذه القدرة على هذا الإحساس، مع القدرة على التكيُّف السريع والانتقال إلى الأسلوب الأدبيّ الجديد الملائم، هي الوسيلة البارعة الموصلة إلى امتلاك الألباب والقلوب والنّفوس بأدب رفيع.

ومهما كان الأديب أقدر على هذا التكيُّف، مع اختيار اللّون الأدبيّ الملائم، وأقدر على استخدام مختلف الأساليب في كلامه، والتَّنقُّل البارع بينها من غير تكلُّف ولا قفزات منفّرات، كان أكثر أدباً، وأرفع أسلوباً، وأقدر على امتلاك من يُوَجِّه له كلامه.

ولنا في هذا بكتاب الله العظيم أسوةٌ رائعة، فمن خصائص الإعجاز القرآني التنويع البديع الرائع في الأساليب، مع ملاءمة كلّ نوع من أنواع الأساليب للمضمون الفكري الذي يُرَادُ بيانه في النَّظْم القرآني المنزَّل.

* * *

ثالثاً ــ تزيين الأفكار المقصودة بالذات بأفكار أخرى:

ومن عناصر الجمال الأدبيّ تزيين الفكرة المقصودة بالذات بأفكار أخرى عن طريق التمهيد أو المقارنة أو التذييل.

(١) فالتمهيد يكون بعرض أفكار تمهّد للأفكار المقصودة بالذات، وتزيِّنُها وتجعلها مقبولة.

كالتمهيد بمَقُولة إقناعيّة تتضمّن ضرورة العناية بالصحة، والمحافظة عليها، قبل التّحذير من شرب الخمر، أو من شرب الدخان، أو نحو ذلك من الأمور الضارّة بالصّحة.

وكاستثارة عناصر الإيمان قبل توجيه التكليف.

وكالتمهيد بعبارات تشعر بتكريم المخاطب والتلطّف معه، بحسب مكانته

الاجتماعيّة بين قومه، ومن ذلك الديباجات التي يُقدِّم بها الناس خطاباتهم للملوك والعظماء والرؤساء.

وأمثلة هذا التمهيد كثيرة في القرآن العظيم ومنها:

(أ) قول الله لرسوله في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

فقول الله لرسوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ تمهيد حلو في ثناء وتكريم، لتحذير ضمني من شيء غير واقع حتماً، ألاَ وهو الفظاظة وغلظ القلب الذي جاء بصيغة: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾.

ثمّ نلاحظ أنَّ الجملتين معاً كانتا تمهيدين رائعين لتوجيه التكليف بقوله تعالى لرسوله: ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾.

(ب) قول الله تعالى في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

إنَّ هذه الآية بمضامينها قد كانت تمهيداً يهيِّىء نفوس المؤمنين لتقبّل تلويمهم على ما بَدر منهم من تذمُّر واستنكار لبعض المصائب التي أصابتهم في أعمالهم الجهاديّة، بأسباب من عند أنفسهم، وهو ما جاء في الآية التالية للآية السابقة:

﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾.

(ج) وقد علّم الله موسى أن يُمهِّد لفرعون بمقدِّمات العرض الرفيق جدّاً،

قبل أنْ يوجِّه له الدَّعوة المقصودة، وهي أنْ يتزكّى أي يتطهّر من الكفر والطغيان والظلم والعدوان.

فقال له كما جاء في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول):

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾.

فأدب الدعوة لعظيمٍ بلغ به الأمر إلى ادّعاء الربوبيّة، قد اقتضى اتّخاذ الحكمة في دعوته، بتقديم مقدمات العرض الرفيق المهذّب جدّاً، دلَّ عليها في النص: ﴿هل لك إلى أن﴾.

لقد كان يكفي أنْ يقول له: أدعوك أنْ تزكّى. أو يكرّمه قليلاً بصيغة العرض الاستفهامي: هل تتزكّى، أو يكرمه أكثر فيقول له: هل ترى أن تتزكّى، أو نحو ذلك.

لكنّ الله علّم موسى أنْ يفرش لفرعون مقدّمات تكريم أكثر تناسب مكانة فرعون في قومه، وقد جاء التعبير عن هذه المقدّمات الطويلة نسبيّاً بقوله: ﴿هل لك إلى أنْ تزكّى﴾.

فأطال المقدّمات بحسب عادات القوم، واختصر المطلوب الأساسي، فقال ﴿تزكَّى﴾ بدل ﴿تتزكّى﴾.

(٢) والمقارنة تكون بإلباس الفكرة المقصودة ثوباً من فكرة أخرى يتقبَّلها المخاطب أكثر من تقبُّلِه الفكرة المقصودة عارية مجرّدة.

وتطبيق ذلك يكون باستخدام الأساليب غير المباشرة التي سبق شرحها بتفصيل.

(٣) والتذييل يكون بعرض الأفكار المقصودة بالذّات أوّلاً، وإتباعها بما يُزيّنها ويجعلها مقبولة.

كالإتيان بالفكرة ثم بإتباعها بالاستدلال عليها استدلالاً برهانياً أو دون ذلك.
أو بإتباعها بالوعد المحبوب ترغيباً بها، أو بالوعيد المكروه ترهيباً منها وتحذيراً. أو بإتباعها ببيان دواعيها المنطقيّة، أو دواعيها الالتزاميّة، ومن الدّواعي الالتزاميّة التذكير بعهد الإيمان والإسلام، أو بسوابق الوعود والعهود، ونحو ذلك.

والأمثلة القرآنية على هذا النوع كثيرة جداً.

فمنها قول الله تعالى في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

فأَمَرَ الله عزّ وجلّ بالعفو والصفح، ثمّ أتبعه بعرضٍ فيه الوعد بالمغفرة لمن يعفو ويصفح. ونجد في القرآن آيات كثيرةً مختومة بنحو قوله تعالى:

﴿إنَّ الله يُحبُّ المتّقين﴾. ﴿إنَّ الله يُحبُّ المُحْسِنين﴾. ﴿إنَّ الله يُحبُّ المُقْسطين﴾. ﴿إنَّ الله لا يُحبُّ الخائنين﴾. ﴿إنَّ الله لا يُحبُّ المفسدين﴾. ﴿إنَّ الله لا يُحبُّ الكافرين﴾ ممّا يشير إلى الوعد أو الوعيد بعد بيان المطلوب من فعل أو ترك.

* * *

رابعاً ــ ضرب الأمثال:

ومن عناصر الجمال الأدبيّ الرفيع في الكلام ضرب الأمثال، بشرط أن تتوافر فيها الشروط الفنِّية للأمثال، وتستجمع الشروط الأساسيّة العامّة للكلام البليغ.

ويشترط في ضرب المثل أنْ يكون له غرض بيانيّ، لا أنْ يكون مجرّد عبث في القول.

ولدى تتبُّعي للأمثال القرآنيّة وجدْتُ أنَّ أهمّ الأغراض التي يحسن أنْ يقصدها البلغاء هي الأغراض الأخلاقية والتربوية التي هدَفَتْ إليها الأمثال القرآنيّة، وتتلخّص بالأغراض الست التالية[1]:

الغرض الأوّل: تقريب صورة الممثَّل له إلى ذهن المخاطب عن طريق المَثَل.

الغرض الثّاني: الإقناع بفكرة من الأفكار، وهذا الإقناع قد يصل إلى مستوى إقامة الحجّة البرهانيّة، وقد يقتصر على مستوى إقامة الحجّة الخطابيّة، وقد يقتصر على مجرّد لفت النّظر إلى الحقيقة عن طريق صورة مشابهة.

الغرض الثّالث: الترغيب بالتزيين والتحسين، أو التَّنفيرُ بكشف جوانب القبح، فالترغيب يكون بتزيين الممثّل له وإبراز جوانب حسنة، عن طريق تمثيله بما هو محبوب للنّفوس مرغوب لديها. والتنفير يكون بإبراز جوانب قبحه، عن طريق تمثيله بما هو مكروه للنّفوس أو تنفر منه.

الغرض الرابع: إثارة مِحْوَر الطّمع، أو مِحْوَر الخوف لدى المخاطَب، ففي إثارة محوَر الطمع يتّجه الإنسان بمحرّض ذاتيّ إلى ما يُرَادُ توجيهه له، وفي إثارة محور الخوف يبتعد الإنسان بمحرِّض ذاتيّ عما يُرَادُ إبعاده عنه.

الغرض الخامس: المدح أو الذّم والتعظيم أو التحقير.

الغرض السادس: شَحْذُ ذهن المخاطَب، وتحريكُ طاقاته الفكرية، أو استرضاء ذكائه، لتوجيه عنايته حتّى يتأمّل ويتفكّر ويصل إلى إدراك المراد عن طريق التفكُّر.

والأمثال التي يَدْفَعُ إليها هذا الغرض إنّما يُخَاطَب بها الأذكياء، وأهل التأمُّل والنَّظر والبحث العلمي، وكبراء القوم.

---

(١) انظر كتاب «أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع» للمؤلف.

أمّا الأغراض غير الأخلاقيّة فقد تجافت الأمثال القرآنيّة عنها، كالسخريّة في مَثَل ابن الرومي إذ قال:

قَصُرَتْ أَخَادِعُه وَطَالَ قَذَالُهُ فَكَـأَنَّـهُ مُتَـرَبِّـصٌ أنْ يُصْفَعَـا

ومـن شـاء أنْ يتعلّـم فـن ضـرب الأمثـال، فليهتـد بهـدي خصـائـص الأمثـال القرآنيّة.

ولدى تتبُّعي للأمثال القرآنيَّة اكتشفت من خصائصها الخصائص الست التالية:

الأولى: دقّة التصوير مع إبراز العناصر المهمّة من الصُّورة التمثيليّة.

الثانية: التصوير المتحرِّك الحيّ الناطق، ذو الأبعاد المكانيَّة والزمانيَّة، والذي تبرز فيه المشاعر النَّفسيّة والوجدانيّة، والحركات الفكرية، للعناصر الحيّة في الصورة.

الثالثة: صدقُ المماثلة بين الممثَّل به والممثّل له.

الرابعة: التنـويـع فـي عـرض الأمـثـال، مـرّة بـالتشبيـه، ومـرّة بـالعـرض المفـاجىء وبالتمثيل البسيط، وأخرى بالتمثيل المركّب الذي يـطابق كل جـزء منـه جزءاً من الممثَّل له، وأخرى بالتمثيل المركّب الذي يُنْتَزَع منه وَجْهُ الشبه بنظرة كليّة عامّة.

الخامسة: البناء على المثل والحكم عليه كأنَّه عين الممثَّل له، على اعتبار أنَّ المثل قد كان وسيلة لإحضار صورة الممثَّل له في ذهن المخاطب ونفسه، وإذْ حضرت صورة الممثّل له ولو تقديراً، فالبيان البليغ يستدعي تجاوز المثل، ومتابعة الكلام عن الممثَّل له، وتسقط صورة المثل لتبرز القضايا المقصودة.

السادسة: قد يحذف من المثل القرآني مقاطع اعتماداً على ذكاء أهل

الاستنباط، وقد تُحذف من الممثَّل له مقاطع أيضاً، ويبقى في دلالات الألفاظ أو لوازم المعاني ما يدلّ على المحذوف.

واجـب الدّعـاة:

وعلى الدُّعاة إلى سبيل الله بالحِكْمة والموعِظَة الحسَنَة أنْ ينتفعوا من هذا العنصر من عناصر الجمال الأدبـي، ويهتدوا بهَـدْي كتاب الله وهَـدْي سنّة رسول الله ﷺ في ذلك، فكم فيهما من أمثال رائعات.

وللقارىء أنْ يرجع إلى كتابـي: «أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع».

* * *

خامساً ــ السطح والعمق:

ومن عناصر الجمال والكمال الأدبـيّ الرفيع في الكلام أنْ يكون له سطح تفهمه العامّة دون غموض ولا ارتباك ذهنيّ، وأنْ يكون له مع ذلك عمقٌ تفهمه الخاصّة بالتأمّل والتعمُّق وإعمال الذكاء.

ولا يستطيع تقديم بيان رفيع مثل هذا البيان الذي له سطح وعمق إلاَّ نوابغ البلغاء الأذكياء.

والقُدوة الهادية لهؤلاء النوابغ بلاغة القرآن المعجز. إنّ المتدبِّر لكلام الله عزّ وجلّ في القرآن يلاحظ عجباً، إنّه ينظر إلى آية فيفهمها، ويأخذ منها دلالة صحيحة ينتفع منها انتفاعاً عظيماً.

ثمّ تأتيه نفحات في تدبُّر آخر، فيفهم من الآية معانيَ جديدة لم ينتبه إليها في التدبُّر الأول، وهذه المعاني لا تتعارض مع ما فهمه في التدبُّر الأوّل إذا كان تدبُّراً صحيحاً. بل تعطيه إضافات متمِّمة لما كان قد تدبَّره من قبل.

ثمّ كلّما تعمَّق في التدبُّر تواردت عليه مفاهيم جديدة تتكامل بها لديه المعرفة المتعلِّقة بدلالة الآية.

والعمق في الكلام يتكوّن من أسباب، منها ما يلي:

الأوّل: عدم الإشارة باللّفظ إلى الترابط المنطقي بين المعاني، أو إلى الترتيب الزماني أو المكاني بين الأحداث، أو غير ذلك من أمور مع إبقاء كل جملة في محلِّها الطبيعي.

ولوْ أنَّه جاءت الإشارة الصريحة إلى هذا الترابط، أو هذا الترتيب بلفظ دالٍّ، لخرج المعنى من العمق إلى السطح.

ولكن يفقد النّص بذلك عاملاً من عوامل جدّته في نفس القارىء عند كل تدبُّر.

الثاني: الكنايات البعيدة ذوات الدلالات المتتابعات.

الثالث: المحاذيف التي تُحْذَف للإيجاز، ويقتضيها معنى النّص، أو يستدعيها التوازن والتناظر والتكامل فيه، أو غير ذلك، ويبقى المعنى بعد حذفها صحيحاً، إلاَّ أنّه جزء من المعرفة التي يدلُّ عليها السطح والعمق معاً.

والعمقُ القرآنيّ عمقٌ معجز، لهذا سيظلّ في القرآن جديد يفهمه المتدبّرون المتعمّقون.

والسّطحُ والْعُمْقُ في القرآن شيءٌ غير الظاهر والباطن الذي تدّعيه الباطنيّة كذِباً وبهتاناً وافتراءً على الله ورسوله، إنَّ الذي يقولون به خرافةٌ يُقْصَدُ بها تحريف نصوص كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ.

ومن ميزة السطح والعمق في القرآن أن الْعُمْقَ يُكَمِّل السطح، ولا ينقضه، ولا يتنافى معه.

وشأن المتدبِّر في القرآن كشأن الباحث في سطح البحر وعمقه.

ومن بُلغاء البيان مَنْ يكون لبعض كلامهم سطح وعمق، إلاَّ أنّ العمق لديهم سهل الاستخراج وقد يتنافى مع السطح.

إنّ قول المتنبّي لكافور الإخشيدي:

«لقد كنت أرجو أنْ أراك فأطربا».

له سطح يمدح به كافوراً، لكنَّ له عمقاً يسخر به منه.

* * *

سادساً ــ أوجه النَّص:

ومنْ عناصر الجمال والكمال الأدبيّ الرفيع في الكلام أنْ يكون له عدّة أهداف، وهذه الأهداف كلُّها مقصودة به، ويظهر هذا بجلاء حينما يكون المخاطب بالكلام جماعة ذات فئات مختلفة، وعناصر متباينة.

فمن أمثلة النَّصّ ذي الهدف المزدوج أن يوجِّه ذو سلطان عام تهديده الشديد للّذين يخالفون أوامر مبعوث من قبله للقيام بمهمّة من المهمّات السلطانيّة، إنّنا نلاحظ في هذا النَّص التهديدي هدفين معاً:

أحدهما: تهديد الذين يخالفون.

وثانيهما: رفع معنويّة المبعوث، وشدُّ أزره وشحذُ همّته للقيام بما بُعِثَ به على أفضل وجه.

وقد يكون الكلام مثلّث الهدف، أو أكثر من ذلك، وكل صاحب علاقة يأخذ من النَّصّ ما يناسب حاله، ويكْثُر هذا في النُّصوص القرآنيّة، فقد يكون الكلام تهديداً وتوعُّداً للكافرين، ووعداً للمؤمنين، وتربيةً وتأديباً وتسلية للرسول صلوات الله وسلامه عليه.

ومن الأمثلة القرآنية على تَعَدُّد الهدف من النصّ قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩﴾.

ففي هذا النصّ هدف إلقاء الوهن في قُلوب الكافرين، ولو عظمت قوّاتُهم. وهدف رفع مستوى القوى المعنوية في قلوب المؤمنين، وشحذُ همّتهم لإعداد القوىٰ المادية التي يسبقون بها الذين كفروا تمهيداً للتكليف بإعداد المستطاع من القوة الذي جاء في الآية التالية لهذا النص.

* * *

سابعاً ــ الشعر وفنونه:

ومن عناصر الجمال في الكلام أنْ يُرضي الحسّ الموسيقي في الإنسان، ويدغدغه بإمتاع.

إنَّ للموسيقى وموازينها تأثيراً مستعذباً في النُّفوس، فإذا جاء الكلام موزوناً على بعض موازينها الحلوة المستعذبة اكتَسَبَ حلاوة مُحبَّبَة.

ثم إذا توافرت في الكلام مع ذلك عناصر متلائمة من عناصر الجمال والكمال الأدبي ازداد الكلام حُسناً وقوّة تأثير في النّاس.

إنَّ الأشياء الجميلة التي تلامس مشاعر الإنسان بمؤثراتها الحلوة من جانبين، هي أكثر تأثيراً فيه من التي تلامس مشاعره من جانب واحد. وكلّما ازدادت الجوانب ازدادت قوّة التأثير، حتّى تصل إلى محاصرة الإنسان من كل مشاعره الجسديّة والنفسيّة والفكرية والوجدانيّة، فيفقد عندئذٍ كل مقاومته، ويستسلم استسلاماً تامّاً، مستغرقاً في لذّات المشاعر الحُلوة.

إنَّه إذا اجتمع المنظر الجميل، والصوت الحَسَن، والرائحة الزّكيّة، والطعم اللّذيذ، والملمس الحُلو الممتع، والرّاحة النّفسيّة، وكان الحديث أدباً جميلاً رفيعاً، موضوعاً بقالب موسيقي شِعري، فقد حاصر الجمال معظم مشاعر الإنسان، وأخذَ يهيْمن عليها بمؤثراته الحُلوة، حتى يَسْلُبَها كل مقاوماتها، فتستسلم استسلاماً تامّاً.

ولمّا كانت النَّفس الإنسانيّة تَطْرَبُ للموسيقى، وترتاح لموازينها الحُلوة، وكان الشِّعر كلاماً يجري في بعض جداولها، وعلى بعض موازينها، كان للشعر تأثير حلو على النُّفوس الإنسانيّة، ويظهر هذا حتى على الأطفال الصغار، الذين يظهر شعرٌ طفليّ على بعض جملهم التي يردّدونها أو يغنُّون بها.

ويتفاوت النَّاس في مدى إحساسهم بهذا النَّوع من أنواع الجمال في الوجود، وفي تذوُّقهم له، لذلك نلاحظ أنَّ بعض النّاس يتأثّرون بالشِّعر أكثر من بعض، مع وجود أصل التأثّر عند كل النّاس إلاَّ نادراً.

وبعض النّاس لديه بالتكوين الفطري فِطْرَةُ نَظْم الكلام على ميزان شِعري.

وكلُّنا يعلم أنّ الكلام الموضوع في قالب ميزان شِعري أسرع إلى الحفظ، وأثبت في الذاكرة، وأسهل استدعاءً عند الحاجة.

فلا غَرْوَ إذن أنْ يكون الشِّعر عنصراً من عناصر الجمال في الكلام.

وهنا نقول: إنّ على أصحاب الأهداف النّبيلة والدّعوات الخيِّرة أنْ يُحسِنوا استخدام هذا اللَّون الجمالي من ألوان المؤثرات على النَّفس الإنسانيَّة، وأن لا يَدَعوا ساحته للشعراء الذين يتَّبِعهم الغاوون، الذين هم في كل وادٍ من أودية أهواء النَّفس وشهواتها، وأودية الضلال والفساد في الأرض يهيمون، والذين هم يقولون ما لا يفعلون.

إنَّ الشِّعر سلاح من أسلحة الأدب، وهو وسيلة حياديّة بذاتها، إنْ استُخْدِمت في الخير كانت خيراً، وإنْ استُخدِمت في الشرّ كانت شرّاً.

وبوسع المصْلِحين ودُعاة الخير ممَّن لديهم القدرة على كتابة الشِّعر الرفيع أنْ يَلْبَسوا درع قول الله تعالى في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾.

بعد أنْ وصف الله واقع حال معظم الشُّعراء بقوله تعالى فيها:

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾.

فالشعراء الذين يهيمون في كلّ وادٍ من أودية الضلال والهوى، والكذب والطعن في الناس ظلماً، والمدح لبعض الناس استجداء، والانتصار بغير حق، ويتبجّحون بشعرهم كذباً وزوراً، فيصفون أنفسهم بالشجاعة وهم الجبناء، وبالكرم وهم البخلاء، وبالعقل وهم السفهاء، وبالعفّة وهم الفُسّاق، ويتحدَّثون عن مغامرات غراميّة لم تحدث، فيفضحون بأكاذيبهم محصنات عفيفات، ويفتخرون بالحَسَب والنَّسب وهم صعاليك لا حَسَب لهم ولا نَسَب، ويَعِدون ولا يَفُون، ويُعَاهِدُون ويَغْدُرون، ويُظْهِرُون صدق الحبِّ وهم الطامعون، فهم يقولون ما لا يفعلون.

هؤلاء بزخرف الشِّعر الذين يملكون القدرة على صناعته والتأثير بفنونه إنَّما يتَّبعهم من النَّاس الذين سَفِهوا نفوسَهم، فخدعتهم الكلمة المزخرفة ولو كانت باطلاً وزُوراً، ودَعْوةً إلى الشَّرِّ والفساد في الأرض.

ومن هؤلاء شعراء الحانات، والمواخير، والليالي الحمراء، وشعراء الإِباحيّة، وشعراء المذاهب الضالّة الهدّامة.

أمّا الشُّعراء الذين يَلْبَسُون درع الاستثناء القرآني فقد برز منهم في عصر الرسول ﷺ «حسّان بن ثابت ــ وعبد الله بن رواحة ــ وكعب بن مالك».

واتَّخذهم الرسول ﷺ أسلحة بيانيّة أدبيّة ضدّ شعراء أهل الكُفر والشّرك بالله، وكان يستحثُّهم أحياناً لمجاهدة الكافرين والمُشركين بشعرِهم.

وظهر في العصور الإِسلاميّة التالية شعر إسلامي كثير، ولكن ظلّت نسبة المبدعين من فحول الشّعراء في جانب الذين يَتَّبِعهم الغاوون هي النِّسبة الأكبر، أمّا

الذين لبِسوا درْعَ الاستثناء القرآني فقد كان فيهم موهوبون ذوو قدرات عالية تؤهِّلهم لأن يكونوا من فحول الشُّعراء، إلاَّ أنَّهم فيما أرى آثروا الإبداع في العلوم الإسلاميّة والاشتغال بها عن توجيه كل اهتمامهم للشِّعر، فلم يُبَرِّزوا به كما برّز الآخرون.

وفي ظنِّي لو أراد الإمام الشافعي أنْ يكون شاعراً لبزّ أبا نواس في الشِّعر. ولكنّه آثر أنْ يكون عالماً فقيهاً.

وقد تكون شدّة الحذر من الانزلاق بالشِّعر إلى فئة الّذين يتَّبعهم الغاوون قد كفَّت كثيراً من الذين يملكون في فطرتهم القدرة الشِّعرية العالية عن أن يخوضوا بحور فنونه، ويستخدموه للدّعوة ويبلغوا فيه إلى مستوى فحول الشُّعراء.

ثامناً ــ الغرض الفكري البياني من الصورة البلاغيّة المختارة:

ليس يكفي إيراد الكلام وفق صورة من الصُّوَر البلاغيّة التي يذكرها علماء البلاغة، بل لا بدّ من ملاحظة غرض فكريّ بياني تؤديه هذه الصورة المختارة.

إنَّ نسبة الجمال في الكلام ترتقي جداً حينما نُدرك أنّ الأديب قد اختار الصورة البلاغيّة التي أوردها في كلامه لغرض فكريّ زائد على مجرّد اختيار صورة جماليّة بلاغيّة يذكرها علماء البلاغة.

إنَّ الصورة البلاغيّة مهما كانت جميلة في ذاتها تغدو كجسد بلا روح إذا كانت خالية من غرض فكري بياني تهدف إليه في البيان، باستثناء عناصر الجمال اللّفظي أو الموسيقي، والزِّينات التي لا تحتمل أداء غرض فكريّ بيانيّ.

ولدى بحث أيِّ جانب بلاغي في كلام رفيع من كلام البلغاء ينبغي البحث لاستجلاء الغرض الفكري من الصورة البلاغيّة، فليس المهم مجرّد الإشارة إلى الصورة البلاغيّة، إنَّما المهم بعد ذلك هو استجلاء الغرض الفكري البياني من ورائها.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ إنَّ الصورة البلاغيّة في هذا النَّص تتلخَّص بإسناد السيلان إلى الوادي، مع أنّ المراد سيلان الماء فيه. فهل انتهينا من البحث؟.

إنَّ الذي يملك الحسَّ الأدبـي الرفيع يقول: لا. لأنَّه يتساءل: ولماذا أسند السيلان إلى الوادي بدل إسناده إلى الماء؟ وما الدَّاعي إلى ذلك وما هو الغرض منه؟.

وبالتأمّل يجد الجواب على تساؤله، إذ يرى أنَّ الغرض الفكري البياني من هذا الإسناد هو إعطاء السامع أو القارىء صورة تُشْعِرُ على سبيل التخيّل بأنَّ الوادي يسيل فعلاً لكثرة تدفّق الماء وارتفاع نسبته في جانبـي الوادي.

وهذه الصورة قد تحدث في وهم الإنسان أو في تخيّلاته حينما يشاهد هدير الماء الكثير الذي يغمر قدراً كبيراً من الوادي.

فالتعبير إذن تصوير صادق لما يَجْرِي في التخيُّل لدى مشاهدة الحدث المادي.

إذن ينبغي للأديب أن يراعي ذلك في كلامه، وعليه أن يلاحظ باستمرار أنّ كبار البلغاء حينما يعطفون في كلامهم عن مجراه إلى صُوَر بلاغيّة يختارونها إنَّما يفعلون ذلك لأغراض فكريَّة بيانيَّة يهدفون إليها، ولا يكتفون باختيار الصُّوَر البلاغيّة لمجرّد أنَّها صور بلاغيّة، وهذا ما يعطي كلامهم ارتقاء أدبياً عظيماً، وجمالاً مكثَّفاً مضاعفاً.

* * *

تاسعاً ــ الجمع بين الأشياء المتضادّة:

وقد يكون من عناصر الجمال الأدبـي في الكلام الجمع بين الأشياء المتضادّة في صورة كلاميّة متناسقة.

وذلك لأنَّ الأضداد سريعة التخاطر في الأذهان، فإيرادها قد يُحْدِثُ ارتياحاً جمالِيّاً في النّفس.

وفي الصُّوَر الحِسِّية مَشَاهِدُ للتضاد أمثال ذلك، فمن المشاهد الحسِّيَّة الجميلة مشهد جبل أجرد إلى جانب وادٍ أخضر فيه جنّات ألفاف. ومشهد قصر راسخ ثابت البنيان ضمن عاصفة هوجاء تقتلع ما على الأرض من أشجار وأكواخ وأشياء كثيرة. ومشهد سفينة ثابتة كالطَّوْد في خِضمّ بحرٍ هائج وعاصفة بحريّة ثائرة. ومشهد وجه منير كالبدر ضمن شعر منسابٍ كالليل.

والحسّ الذوّاق للجمال يتحكّم بإدراك التناسق أو التنافر في الصورة التي تجمع بين المتضادّات، إذ ليس كلّ جمع بين المتضادّات يُحْدِثُ هذا الارتياح النَّفسي.

فمثلاً: لا ترتاح النُّفوس لدى ذكر ما يثير تقزّزها ونفورها، وإن كان ذلك في مقابل ذكر ضدّه أو نقيضه، إنّ ذكر المُحْزِنات لدى ذكر المُفْرِحات أمرٌ مستنكر تنفر منه الطباع، ما لم يكن عَرْضاً لمبادىء عامّة لها طابع التأمّل الفلسفي، وإنّ ذكر المستقذرات في مقابل ذكر الطيِّبات أمرٌ مستهجن تنفر منه النُّفوس ولا ترتاح له. وهكذا.

فمن أمثلة الكلام المزدان بعنصر الجمع بين الأضّداد الذي يُحدث إعجاباً وارتياحاً في النُّفوس، ولا يُحدث نفوراً ولا انزعاجاً ولا تقزّزاً، ما يلي:

(١) قول الله تعالى في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول):

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾.

(٢) وقول الله تعالى في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ ﴾.

(٣) وقول الله تعالى في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾.

(٤) وقول الله تعالى في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول):

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾.

* * *

عاشراً ـــ مسايرة المخاطب في تداعي أفكاره:

وقد يكون من عناصر الجمال الأدبيّ في الكلام مسايرة المخاطب في تداعي أفكاره، بالمقدار الذي يُحْدِثُ الارتياح ولا يُورِثُ الملل.

إنَّ ممّا يُحْدِثُ المسرّة والارتياح في الكلام أنْ يُتَابِعَ الأنفس فيما تسترسل به من أفكار تتداعى، ويَجْلُبُ بعضها بعضاً، ويُمْسِكُ بعضها بأعناق بعض، بشرط عدم الاسترسال المملّ. إنّ الملَلَ متى بدأ يدبّ إلى النَّفس بالاسترسال مع أفكارها المتعانقة، كان قطع هذا الاسترسال والانتقال إلى عنصر المفاجأة هو الأرفع أدباً والأكثر تأثيراً، لأنّه يقدّم صورة جماليّة جديدة، بشرط أن تكون المفاجأة حُلْوَةً، لطرافتها أو غرابتها أو بُعد خطورها في الأذهان، أو غير ذلك.

وكثيراً ما يكون قطع الاسترسال وترك النَّفس لتستكمل بذاتها بقيّة العناصر هو الأجمل لديها، والأحبّ لمشاعرها.

والأديب ذو الحسّ المرهف يستطيع أن يُدْرِكَ متى يحسن الاسترسال مع تداعي أفكار المخاطب أو القارىء، ومتى يحسن قطع الاسترسال، ومتى يحسن الانتقال لأمر مثير بالمفاجأة الحلوة المعجبة.

فمن أمثلة المسايرة الحلوة لتداعي الأفكار قول الله تعالى في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾.

إنّ الحديث عن اختلاف الألوان في الثمرات يستدعي في الأفكار تصوّر اختلاف الألوان في الجبال، لأنَّها هي التي تبرز في اللّوحة الفنيّة أوّلاً بعد النّظر إلى الثمار في أشجارها، فيخطر اللّون الأبيض منها على اختلاف درجاته، فالأحمر على اختلاف درجاته، ثمَّ الأسود، ثمّ ينتقل الذهن بالتداعي الفكري إلى الألوان في الدوابّ والأنعام. هذا هو الأمر الغالب بالنسبة إلى واقع أحوال النَّاس.

ولا يخفى أنّ متابعة الأفكار في تداعيها الذاتي كثيراً ما يكون مريحاً للنُّفوس، ومُعْجباً لها، فهو إذن من عناصر الجمال الأدبي، إذا استوفى شروطه، وخلا من المنفِّرات أو المزعجات، ولم يَطُلْ حتى يُحْدِثَ الْمَلَلَ والسّأَم.

ومن الأمثلة أيضاً قول الله تعالى في سورة (الغاشية/ ٨٨ مصحف/ ٦٨ نزول):

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾.

ففي هذه الآيات تصوير للوحة فنّية متحرِّكة، تبدو بالتتابع كما هي في النَّص، بالنسبة إلى الناظر الجالس في الصحراء، إذا مرّت بعيداً عنه قافلة من الإبل.

إنّ أوّل ما يلفت نظره لدى مشاهدة هذه اللَّوحة من مشاهد الطبيعة، أنْ يتركَّز انتباهه في مشاهدة قافلة الإبل، وتكون القافلة بالنسبة إليه هي بؤرة المشهد، لأنَّها

هي المتحرِّك الآسر الجالب للانتباه، وتلقائيّاً ينتقل نظره بعد ذلك إلى الأفق، من مستوى نظره إلى أسنمة الجمال إلى الأفق، حتّى إذا ملأ نظره من الأفق نزل ليرى الجبال من بعيد، ثمّ بعد ذلك ينخفض نظره ليركّز انتباهه في مشاهدة الأرض المنسطحة.

وعلى وفق هذا المشهد الذي يتكرّر لدى كثير من سكان الصحراء في خيامهم ولدى عابريها جرى تصوير الصورة الكلاميّة، وقد وافق التسلسل فيها التسلسل الذي يَحْدُثُ غالباً عند النَّاس، لدى مشاهداتهم لمثل هذه اللوحة في الصحراء.

وهذا من عناصر الجمال الفنِّي لا محالة.

* * *

حادي عشر ــ نقل الأسماء أو الصِّفات من مواضعها الطبيعيَّة وإضفاؤها على غيرها:

● قد يكون من عناصر الجمال الأدبيّ في الكلام نقل الأسماء أو الصِّفات من مواضعها الاصطلاحيّة أو الطبيعيّة وإضفاؤها على غيرها، لوجود ما يستدعي في التخيّل هذا النقل، وإن لم يكن في الواقع كذلك.

فمن ذلك نقل صفة الحالّ في الشيء وإضفاؤها على ذلك الشيء كقولنا: «جرى النهر» مع أنّ الجريان هو للماء في النّهر، ولكنّ التخيّل ربَّما أحسّ لدى مشاهدة جريان الماء في النّهر أنّ النّهر يجري أيضاً مع الماء.

ومن بديع هذا النَّقل قول الشاعر:

وسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الأَبَاطِحُ

فقد أضْفَىٰ صفة السيلان على الأباطح، وهي لما يمرّ فيها، بعد أنْ أضفاها على أعناق المطيّ وهي للماء، لأنّ التخيّل يلحظ صفة سيلان الماء حينما يشاهد أعناق الإبل تتموّج وهي تسير على الأباطح.

ومن بديع هذا النَّقل أيضاً قول الله تعالى: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ ففيه إضفاء السيلان على الأودية، وهي لماء السيول فيها، لأنَّ الأودية حينما تسيل فيها السيول العارمة تُوقِـعُ في خيال الْمُشَاهِد المندهش أنّ الأودية والجبال أنفُسَها تسيل مع حركة المياه الجارفة فيها.

ومن بديع هذا النَّقل أيضاً قول الرسول ﷺ:

«ومَنْ بَطَّأ به عمله لم يُسْرِعْ به نسبه».

ففيه إضفاء صفة التبطيء على العمل، وهي في الأصل صفة للكسل أو التقصير في العمل، ولكنّ التخيّل إذا رأى العامل المقصِّر الكسول تصوّر أنّ عمله هو الذي بطّأ به، إذ العمل هو الحركة المشهودة، أمّا الكسل أو التقصير فهما لا يُشَاهَدَان نظراً، وإنّما يُدْرَكَان فكراً. وفيه إضفاء صفة الإسراع أو عدمه على النَّسب! لأنّ النَّاس يتخيَّلون أنّ من لم ينَل السبق بعمله ربَّما ناله بنسبه، فيُعْطَىٰ ذو النَّسب الكريم مَنْزِلَ السبق لمجرّد نسبه.

ويدخل في هذا العنصر نقل صفة الحيّ وإضفاؤُها على الذي لا حياة له، ونقل صفة الذي لا حياة له وإضفاؤها على الحيِّ، لأنَّ التخيُّل يلاحظ في المنقول إليه لمحات من صفة المنقول منه، ومن هذا استنطاق الجماد الذي لا ينطق، ومخاطبته كأنَّه ناطق يتكلّم.

والأمثلة على ذلك كثيرة في أبلغ الكلام، ومنها الأمثلة القرآنيّة التالية:

(١) قول الله تعالى في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾.

(٢) وقول الله تعالى في سورة (فصِّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾.

ففي هاتين الآيتين استنطاق الجماد ومخاطبته، وهذا من نقل صفة الحيّ وإضفائها على الذي لا حياة له.

(٣) وقول الله تعالى في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول) في سياق قصّة موسى والخَضِر عليهما السلام:

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ ﴾.

ففي هذا نقل صفة الإرادة التي هي للحيّ المريد، وإضفاؤها على الجدار الذي لا حياة له ولا إرادة، لأنَّ صورة الجدار هذا تُحْدِثُ في تخيّل الناظر إليه أنّه كعجوز من النَّاس هَرِم، وهو يريد أن يستريح من قيامه ويسقط إلى الأرض انقضاضاً كانقضاض الطائر راكعاً أو ساجداً أو مستلقياً، فأعطاه صفة الإرادة وصفة انقضاض الطائر.

(٤) وقول الله تعالى بشأن المنافقين في سورة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول):

﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

ففي هذا النّص نقل صفة الجامد الذي لا حياة له عن طريق التشبيه الصريح، وإضفاؤها على المنافقين الأحياء الجالسين المستندين إلى جدار مجلس الرسول بأجسامهم الْمَهِيبَة، لأنّ حالتهم النّفسية المنصرفة كلّياً عمّا يجري حولهم تُوقِعُ في التخيّل أنّهم بمثابة الخُشُب المسنّدة.

● وقد يكون نقل الصفة لغرض الإيجاز، أو الإيجاز مع التعميم، كنقل الصفة من أهل المكان إلى المكان، ومن أهل الزمان إلى الزمان، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

(١) قول الله تعالى في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا . . .﴾ [الآية ٩٢].

أي: لتنذر أهل هذا البلد ومن حولهم من أهل الأرض.

(٢) وقول الله تعالى في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ [الآية ٣٦].

أي: وكم أهلكنا قبلهم من أقوام في قرون مضت هم أشدّ منهم بطشاً.

(٣) وقول الله تعالى في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول) حكاية لقول إخوة يوسف لأبيهم:

﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

أي: واسأل أهل القرية التي كنا فيها، وأصحاب العير التي أقبلنا فيها.

● من استعراض أمثلة هذا العنصر، والصُّوَر التي يمكن أن تدخل فيه، لا بدّ أن يظهر لنا أنّ ألواناً بلاغيّة كثيرة تدخل فيه، كأنواع التشبيه، والاستعارات، والمجاز العقلي، والمجاز المُرْسل، لأنَّها قائمة على نقل الأسماء أو الصِّفات من مواضعها، وإضفائها على غيرها، استناداً إلى أنّ خيال الأديب يَسْمَحُ له بهذا النقل، إمّا للشبه بين المنقول منه والمنقول إليه، أو للتّجاور، أو للارتباط السببي، أو لغير ذلك.

ولا بدّ أن نعلم بأنّه ليس كلّ نقل من هذا القبيل يقدّم صورة جماليّة تُزَيِّن الكلام، وترفع قيمته الأدبيّة، بل لا بدّ مع ذلك من أن تكون الصورة نَفْسُها برئيةً ممّا يُشَوِّه جمال النّقل، وأن يتضمّن النّقل فكرة تثير الإعجاب والارتياح النَّفسي،

وأن يكون ذا هَدَفٍ بلاغي، فالأعمال اللّفظيّة الشكلية الخالية من الأهداف البلاغيّة بمثابة رسوم ساكنة لا حياة فيها ولا حرارة.

* * *

ثاني عشر ـــ البراعة في إبراز وتصوير الأحاسيس والمشاعر النَّفسيّة:

ومن عناصر الجمال الأدبي في الكلام البراعة في إبراز وتصوير الأحاسيس والمشاعر النَّفسيّة والأفكار. وقد تكون هذه البراعة بتقديم الفكرة من خلال نظير حسّي، أو بالمبالغة في تصويرها، أو تصوير آثارها، أو غير ذلك.

أمـثـلـة:

(١) قول الله تعالى بشأن المنافقين في سورة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول):

﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ... ﴾ [الآية ٤].

ففي هذا إبراز بارعٌ جدّاً، وتصويرٌ بديع لحالة الذُّعر الشديد الذي يعانون منه في داخل أنفسهم، وقد دلّ على هذه الحقيقة المبالغة، لأنّ الخائف المذعور جدّاً قد يسمع صياح الْمُنْجِد له فيتصوّره صياحاً ضدّه.

(٢) وقول الله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) يصف حال أناس داهمهم مطر شديد فيه ظلمات ورعد وبرق:

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ١٩ ﴾.

ففي المبالغة بأنّهم يجعلون أصابعهم في آذانهم إبرازٌ لصورة حالتهم النَّفسية، التي تدفعهم إلى سدّ مسامعهم بكلّ أصابعهم، فلو أنّهم استطاعوا إدخال كلّ أصابعهم في آذانهم لفعلوا.

(٣) وقول الله تعالى في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) حكاية لقول زكريّا عليه السلام إذ نادى ربّه نداءً خفيّاً:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤﴾.

ففي تصوير تسارع انتشار الشيب في رأسه حتى عمّ الرأس بحالة الاشتعال الذي يسارع انتشاره في الهشيم، براعة تدلّ على الحالة النّفسيّة التي أخذ يعاني منها، والتي بدأت تكويه بنار اليأس التي أخذ لَهَبُهَا ينتشر شيباً في شعر رأسه.

(٤) وقول الله تعالى في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢﴾.

ففي هذا النّص تصويرٌ بارع يُبْرِزُ مشهدَ انصباب الماء من السماء، حتى كأنّ أبواباً فيها هي بمثابة سُدودٍ قد فتحت فانصبّ الماء المنحصر وراءها. ويُبْرِزُ مشهدَ تفجُّر الماء من مواضع لا تحصى من الأرض، حتّى لكأنّ الناظر إلى الأرض يرى أنّها كلّها قد صارت عيوناً يتفجّر الماء منها تفجّراً، ليلتقي في بحرٍ طامٍ خِضَمٍّ لا يُبْقِي ولا يذر.

ومن البراعة في إبراز وتصوير الأحاسيس والمشاعر النّفسية، والأفكار، تجسيدُها في أمثلة حسيّة ماديّة، كتمثيل العلم بالنور، والجهل بالظلمات. وكتمثيل الكفر بالعمى، والإيمان بالبصر. وكتمثيل القرآن بقلب المؤمن في هدايته بمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنّها كوكب درّي.

قال الله تعالى في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ

﴿تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾.

ففي هذه الآية ضرب الله مثلاً لنور القرآن المعنوي بمصباح أرضي من صنع النّاس، ذي نور صافٍ من أيّةِ شائبة، وهذا النّور يتلألأ كالكوكب الدرّي، والقرآن بالنسبة إلى سائر كلام الله كقطَرة من بحر، وكذلك نور المصباح بالنّسبة إلى سائر ما خلق الله من نور في الكون الكبير.

ومن تجسيد المعاني والمشاعر والأحاسيس في أمثلة حِسّيّة مادّيّةٍ ما في الاستعارات التالية: إعصار الهوى. عبير الوجدان. بَرْد اليقين. نار الحب. رياح العاطفة الشجيّة. حلاوة الإيمان... إلى غير ذلك من تعبيرات.

* * *

ثالث عشر ـــ احترام فكر المخاطب وتقديره بترك استخدام الأسلوب المباشر:

وقد يكون من عناصر الجمال الأدبي في الكلام احترامُ فكر المخاطب وتَقْدِيرُه بترك استخدام الأسلوب المباشر، اعتماداً على أنه لمّاحٌ تكفيه الإشارة الخفيفة والخفيّة، أو بترك الإطناب والشرح، واللّجوء إلى الإيجاز والرمزية.

ويدخل في هذا الكنايات، ورموز الأقوال، والتلميحات، والمعاريض، ونحو ذلك.

ولا ريب أنّ من احترام فِكر المخاطب وتقديره الإيجازَ له في الأشياء التي يمكن أن يفهمها بنفسه، إذا كان أهلاً لذلك، ويَحْسُنُ هذا الإيجاز جدّاً إلى حدّ الرمز في مواقف خاصّة، منها أنّ يتطلب الموقف إعلام المخاطب وحده، مع إخفاء الأمر عن حاضري مجلسه.

ومن روائع التلويح إلى المعاني بالإشارات التي لا تفهم إلاّ بذكاء لمّاح،

استعمال لفظة الكفّار المرادفة للفظة الزراع في قول الله تعالى في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾.

فقد استعملت هذه اللّفظة «الكُفّار» المرادفة في معناها هنا للفظة «الزرّاع» بدل استعمال لفظة «الزرّاع» تلويحاً بأنّ مقابل الزرّاع في المثل هم الكفّار في الممثَّل له، فالمعجبون بزينة الحياة الدُّنيا المغرورون بها هم الكفّار، ويقابِلُهُمْ في المثل الزرّاع الذين يعجبهم النّبات إذا نزل عليه الغيث فاخضرّ وأنبت.

ولمّا كانت تطلق في اللّغة لفظة «الكفّار» على «الزرّاع» لأنّهم بزرعهم يدفنون الحبّ في الأرض فيسترونه، والكفر في اللّغة هو الستر، اختيرت لفظة «الكفّار» هذه بالذّات، لتدلّ على الزرّاع في مكانها التي استعملت فيه، ولتلوّح بأنّ مقابِلَهُمْ في الممثَّل له هم الكفّار بيوم الدين.

ويزيدنا ثقّة بأنّ اختيار هذه اللّفظة هنا كان مقصوداً، لتَحْمِل هذا التلويح الذي لا يُتَنبّه له إلاّ بذكاء لمّاح اختيارُ كلمة «الزرّاع» في موقع آخر من القرآن، لأنّ ذلك الموقع لا حاجة فيه إلى مثل هذا التلويح، وهو ما جاء في وصف أصحاب محمد ﷺ في الإنجيل، كما روت لنا سورة (الفتح/ ٤٨ مصحف/ ١١١ نزول) إذ قال الله تعالى فيها:

﴿ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ ﴾ [الآية ٢٩].

فقد استعملت هنا لفظة «الزُّرَّاع» لأنّ مقابلها في الممثّل له ليسوا بكافرين، بخلاف «أَعْجَبَ الكفَّارَ نَبَاتُهُ».

* * *

رابع عشر ـ تقريب الصورة الغائبة بوضعها في صورة مشهودة النّظير أو متخيّلة:

ومن عناصر الجمال الأدبي في الكلام تقريب الصورة الغائبة، وذلك بوضعها في صورة مشهودة النظير، أو في صورة متخيَّلة في أذهان المخاطبين.

فمن تقريب الغائب بوضعه في صورة مشهودة النظير ما جاء في القرآن والسنّة من تمثيلٍ أو تسميةٍ لما في الدّار الآخرة من أحوال وأحداث ومكوَّنات.

ففي الصحيح عن ابن عباس أنّ النّبي ﷺ قال:

«لَيْسَ فِي الْجَنَّةِ مِمَّا فِي الدُّنْيَا إلاَّ الأَسْمَاء».

ومن تقريب الغائب بوضعه في صورة متخيلة في أذهان المخاطبين، وصف طلع شجرة الزقوم بأنّه يُشْبِهُ رؤوس الشياطين، وهو ما جاء في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) بقول الله عزَّ وجلّ فيها:

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾.

طَلْعُها: أي ثمرها.

ففي أخيلة النّاس صورةٌ بشعة مرعبة لرؤوس الشياطين، فجاء تقريب صورة طلع هذه الشجرة الخبيثة، بأنّه يشبه أبشع وأقبح صورة تتخيّلونها، وهي رؤوس الشياطين.

* * *

خامس عشر ـ الإتقان في إبراز دقائق الصورة:

ومن عناصر الجمال الأدبي في الكلام الإتقان في إبراز دقائق الصورة، ماديّةً كانت أو غير مادّية، وذلك لدى رسمها في الصورة الكلاميّة، مع استيفاء العناصر اللازمة لإبراز الحقيقة بشكل جميل وواضح.

ويزيد الصورة جمالاً تركُ جوانب فيها يُتَابعها الفكر وحده، ويستكملها الخيال بنفسه، مع إيجاد المنافذ أو الإشارات التي يُمْكِنُ الانطلاق منها إلى هذه الجوانب المتروكة، كالرمز، والإشارة الخفيّة، وما يستتبعه الكلام باللّزوم الذهني، وغير ذلك.

ونلاحظ هذا العنصر الجمالي في قول الله تعالى في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾.

القيعة: كالقاع وهو ما استوى من الأرض.

لُجِّيّ: أي عظيم عميق.

وفي قوله تعالى عقب النّص السابق بآيتين:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ ﴾.

يُزْجي: يَسُوق برفق.

رُكَاماً: أي: بعضه فوق بعض.

الوَدْق: المطر.

سَنَا: ضَوْء.

أَلَسْنا نلاحظ في هذه الأمثلة الثلاثة إتقاناً عجيباً في إبراز دقائق الصورة، مع استيفاء العناصر اللازمة لإبراز الحقيقة بشكل واضح وجميل، ومع ترك جوانب في الصورة يتابعها الفكر وحده، ويستكملها الخيال بنفسه.

فالصورة في المثال الأوّل قدّمت أعمال الكافرين على شكل سراب، يراه الظمآن السائر في الصحراء وهو بعيد عنه ماءً، فيسعى إليه ليشرب من مائه، ويُطْفِىءَ ظمأه، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، لأنَّه كان انعكاس أشعةٍ تُخيِّل للناظر إليه من بعيد أنّه ماء.

وكذلك حال الكافر الذي يقدِّم أعمالاً يَظُنُّ أنّها تُسعدهُ في دنياه، أو تنفعه في آخرته، وما هي في الحقيقة إلاَّ بمثابة سراب، وهو إذا وصل إلى موطن المحاسبة والجزاء على الأعمال، لم يجد أعماله شيئاً، لأنّها لم تكن ثمرة إيمان بالله واليوم الآخر، بل وجد الله عنده هو الذي له الحكم والأمر، وبيده الحساب والجزاء، فوفّاه حسابه بعدله وحكمته، فحاسبه على كفره، فسقط بالمحاسبة على الكفر كلُّ عمل صالح كان قد عمله، لأنّه لم يكن قائماً على أساس مقبول عند الله.

والصورة في المثال الثاني صوّرت الحالة النفسيَّة والفكرية والقلبية للّذين كفروا، بعد أنْ تركوا نور الهداية الربّانيّة، بحالة من هو في ظلماتِ قاعِ بحرٍ عميق، فوقه أمواج في العمق تزيد الظلمة، فوقها أمواج في السطح تضاعف الظلمة، فوقها سحاب يزيد الظلام ظلاماً، ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يقارب رؤيتها لشدّة الظلمة.

ومن كان كذلك فلا بدّ أن يسلك مسالك المهالك.

وكذلك حال الذين كفروا في أعمالهم، وفي تحديد الغاية من أعمالهم، وفيما يقرّرون من أسباب لذلك. إنَّهم يطلبون سعادتهم في الظلمات، فقلوبُهُمْ مظلمة بالكفر، ونُفُوسُهمْ تائهة في بحر لُجيّ من ظلمات الأهواء والشهوات، وأفكارُهُمْ تسبح في ظلمات أسباب لذّات الحياة الدنيا، وإراداتُهم تتخبّط تحت كلّ هذه الظلمات.

والصورة في المثال الثالث رسمت حركة السُّحب الخفيفة الموزّعة، وكيفية سوقها الرفيق، ثم رسمت التأليف بينها وتجميعها، حتّى تُغَطِّي ما فوقها من سماء، ثم رسمت تكديس بعضها على بعض حتى تتراكم وتكون كالجبال القائمة بين السماء والأرض.

ثم انتقلت الصورة إلى رسم خروج حبّات المطر من خلال السحاب المتراكم، وتركت للخيال سائر الظواهر التي تحدث، ليتمّها بنفسه من رعد وبرق ورياح.

ثم انتقلت إلى ظاهرة نزول البَرَد بدل المطر، وألمحت إلى أنّ السحاب المتراكم يكون في هذه الحالة بمثابة جبالٍ من بَرَدٍ اجتمع بعضه إلى بعض، إذْ قد جمَّدت البرودة وحدات مائيّة فيها فكانت بَرَداً.

ولمّا كان المطر أقرب إلى أن يكون ظاهرة رحمة، والبَرَد أقرب إلى أن يكون ظاهرة عذاب مع احتمال خلاف ذلك في كل منهما، رتّبت الآية على كُلٍّ منهما قوله تعالى:

﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾. أي: رحمةً كان أو عذاباً.

ثم رسمت الصورة لمحة من ظاهرة البرق، فقال تعالى:

﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾.

فكم في هذه الأمثلة من إتقان في إبراز دقائق الصورة، مع استيفاء العناصر اللآزمة لإبراز الحقيقة بشكل واضح وجميل، ومع ترك جوانب منها يستطيع الخيال أن يستكملها بنفسه دون عناء.

● ومن ترك ما يستكمله الفكر بنفسه في الكلام، ما نلاحظه في الأمثلة القرآنيّة التالية:

١ ــ قول الله تعالى في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الآية ٣١].

أي: لكان هذا القرآن. فقد ترك في هذه الآية جواب «لو» لأنّ المخاطب أو القارىء المتدبِّر سيستكمله بنفسه، إذ يعلم أنّ هذا القرآن العظيم هو أعظم كتاب أُنزل، وقد اشتمل على كلّ فضائل الكتب السابقة.

٢ ــ وقول الله تعالى في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: لو يعلمون ذلك ما كفروا. فقد ترك في الكلام جواب «لو» وبقي مكانه فارغاً، ليستكمله المخاطب أو القارىء المتدبّر بنفسه.

ووصفُهم بالكفر مع تلويمهم عليه في السياق وترتيب صُوَر العقاب عليه يومىء إلى ما يملأ هذا الفراغ في الكلام بالجواب المناسب.

٣ ــ وقول الله تعالى في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ. . .﴾ [الآية ٣٣].

أي: أفمن هو قائم على كلّ نفس بما كسبت كشركائهم الذين لا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم ضرّاً، أو يجلبوا لأنفسهم نفعاً!

فقد تُرك التصريح بهذا، وأبقي مكانه في النّص فارغاً لأمرين:

الأوّل: ليستكمله المخاطب أو القارىء المتدبّر بنفسه.

الثاني: لعدم استحقاق شركائهم الذكر والمقارنة بالله الخالق الحكيم، الذي هو قائم على كلّ نفس بما كسبت.

* * *

سادس عشر ـــ لفت النّظر إلى معانٍ دقيقة لا يَتَنَبَّهُ لها الذهن العادي من أوّل وهلة:

ومن عناصر الجمال الأدبي في الكلام لفت النَّظر إلى معانٍ دقيقة لا يتنبّه لها الذهن العاديّ من أوّل وهلة، لكنّه إذا لُفِتَ نَظَرُهُ إليها، أو انتبه لها بنفسه أُعْجِبَ بها، وربّما أحسّ أنه امتلك أمراً طريفاً لم يكن يخطر على باله.

ومن أمثلة هذا قول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح:

«ومن بطّأ به عمله لم يُسرع به نسبه».

وقوله ﷺ في الحديث الصحيح:

«لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ».

وقوله ﷺ في الحديث الصحيح:

«انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِماً أَوْ مَظْلُوماً» قيل: كيف أنصره ظالماً؟ قال: «تَحْجُزُهُ عَنِ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ».

فنبّه الرسول ﷺ في هذه الأقوال على أفكار طريفة قلّما يتنبّه لها الذهن العادي، وقلّما تَخْطُر على البال، لا سيّما ما جاء في بيان نصر الظالم، فمن المثير للاستغراب دعوة الرسول ﷺ إلى نُصْرَةِ إخواننا الظالمين، لكن من المريح والمثير للإعجاب تفسير ذلك بَحَجْزِهِمْ عن الظلم، وكفِّهِمْ عن ممارسته والقيام به، لئلاّ يوقعهم في المهالك.

ومن الأمثلة أيضاً قول المتنبّي:

يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَهُمْ وِجدَانُنَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَهُمْ عَدَمُ

إنّ صدر هذا البيت يشتمل على معنى مبذول، يتداوله النّاس، وتستعمله الخاصّة والعامّة.

لكن لما جاء عجز البيت: «وِجْدَانُنَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَهُمْ عَدَمُ». ارتقى الكلام ارتقاءً عالياً، إذ جعل حيازته لكل شيء بعد مفارقة ممدوحه عدماً أو بمثابة العدم، وهذا معنى دقيق قلّما يخطر على البال، فَنُدْرَةُ خُطُورِه على البال لدى معظم النّاس أَغْلَى قيمته الأدبيّة.

ونظير ذلك قوله في القصيدة نفسها:

إِنْ كَانَ سَرّكُمُو مَا قَالَ حَاسِدُنَا فَمَا لِجُرْحٍ إِذَا أَرْضَاكُمُو أَلَمُ

فالفكرة التي تتبادر إلى كلّ الأذهان، أن يقول المحبّ لمحبوبه: إنني أصبر على ألم الجرح الذي يَسُرُّك، لأنها هي التي تعبّر عن واقع حال معظم المحبين الصادقين في حبهم، لكن فكرة انعدام وجود الأَلَم كُلّيّاً، بتأثير سرور المحبّ بما يُسَرُّ به محبوبه فكرةٌ تَقِلُّ خطوراً على البال، لأنّها نادرة الوجود في الواقع، فاكتسب النّص بذلك إضافة جماليّة أَغْلَى قيمته الأدبيّة.

* * *

سابع عشر ــ تصوير الواقع بالصورة المتخيّلة منه لدى مشاهدته:

ومن عناصر الجمال الأدبي في الكلام تَصْوِيرُ الواقع بالصورة المتخيَّلة منه لدى مشاهدته، ولو في بعض الأحيان، أو في بعض اللّمحات.

ففي هذا التصوير عنصر المبالغة الخياليّة في الدلالة على الحقيقة.

وفيه أيضاً التأثير النفسيّ على السامع أو القارىء، إذْ يُرْسَمُ له في التعبير الكلامي مِثْلُ ما أحسّ هو به، دون أنْ يُعبِّر عنه، أو دون أن يستطيع التعبير عنه، أو جاءه أمر طريف حلوٌ كان غافلاً عنه، فلمّا نُبِّهَ عليه أعجبه فتمثّل له في الخيال، ورأى أنّه كان ينبغي له أن يتخيّله.

وأستطيع أن أمثّل لهذا العنصر بما يلي:

(١) بقول الله تعالى في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿... فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا...﴾.

(٢) وبقول الشاعر:

«وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الأَبَاطِـحُ».

(٣) وبقول الله لنوح عليه السلام في شأن ولده الذي أَبَـى أن يركب معه في السفينة، كما قصَّ تعالى علينا في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿... إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ...﴾ [الآية ٤٦].

فالصورة التي قد تتركّز في الخيال لدى مشاهدة إنسان ليس له عمل صالح، أنّه كتلة من عمل غير صالح، وتنعدم الذات وسائر أعمالها، ولا يبقى في التَّخيُّل إلّا صورة العمل غير الصالح ومن كان كذلك فهو لا يستحقّ الشفقة عليه.

(٤) وبقول الله تعالى في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿... وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝﴾.

هامدة: أي ميّتة يابسة.

رَبَت: أي نمت وانتفخت.

بهيج: أي حسن يسرّ الناظرين.

ففي هذا النّص أسند الاهتزاز إلى الأرض مع أنّه للنبات، لأنّ الناظر إلى الأرض المنبتة إذا مرّت عليها الرياح فهزّت نباتها، قد يتخيَّل أنّ الأرض هي التي تهتزّ، مع أنّ المهتزّ هو ما نبت فيها، وربَا فوقها.

وكذلك «رَبَت» أي ربا النبات فيها.

* * *

ثامن عشر ـ حُسْنُ تركيب الجمل وانتقاءِ المفردات ذوات الدلالات الأدقّ:

ومن عناصر الجمال الأدبيّ في الكلام حُسْنُ تركيب الجمل، بتنظيم مفرداتها على وفق نَسَق متلائم لا تنافر فيه ولا تشاكس، كتنظيم حبّات عقد اللُّؤلؤ من قبل منظّم ماهر، وكتنظيم الجواهر على حلية نفيسة، من قبل صائغ بارع، مع العناية بالتزام أصول دلالات التراكيب التي نبّه عليها علماء المعاني.

وكذلك انتقاء المفردات الجميلة التي تحمل أقوى وأحلى وأدقّ دلالة على المعنى المراد، مع توافر عنصر الملاءمة بينها وبين مضمون الكلام بوجه عامّ، وحال المخاطبين به.

والقرآن الكريم كلّه هو النموذج الأعلى لذلك، ثم روائع أقوال الرسول ﷺ، ثمّ من بعد ذلك كلام كبار البلغاء والفصحاء.

* * *

تاسع عشر ـ احترام المخاطب بالتأدّب معه ورعاية مشاعره:

ومن عناصر الجمال الأدبيّ في الكلام احترامُ المخاطب بالتأدّب معه، ورعاية مشاعره، وذلك بالابتعاد عمّا يشمئزّ منه، وبِعَدَم مواجهته بالألفاظ الصريحة الدالّة على المستقذرات، أو المعاني التي يَجْمُلُ التستّر بها مع أنّها معلومة.

والأديب ذو الحسّ المرهف يُلْقِي على المعاني التي لا يجمل التصريح بها سِتْراً كلاميّاً، إذ يدلُّ عليها بالكنايات والإشارات والتلميحات ومعاريض الألفاظ.

ومن أمثلة ذلك ما يلي:

(١) قول الله تعالى في سورة (النِّساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾.

من الغائط: أي من المكان المنخفض الذي يذهب إليه عادةً من يريد قضاء حاجة الإنسان، والتعبير بقوله تعالى:

﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾. فيه كناية عن قضاء الحاجة الناقضة للوضوء.

أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ: فيه كناية عن الجماع وهو عمل يجب ستره وإن كان مباحاً، فَحَسُنَ في الكلام ستره بالكناية.

(٢) ما حُكي عن أم المؤمنين عائشة عن حالها مع الرسول في عدم النَّظر إلى العورات: «ما رأيت منه ولا رأى منِّي» تعني العورة المغلَّظة[١].

* * *

عشرون ــ تخصيص بعض المترادفات بما فيه خَيْرٌ وبعضها بما فيه شرّ:

ومن عناصر الجمال الأدبيّ في الكلام تخصيص بعض المترادفات ذات الدلالة اللّغويّة العامّة بما فيه خير ورحمة، وتخصيص بعضها الآخر بما فيه شرّ وعذاب.

وهذا من الأدب القرآني الرفيع، ومنه ما يلي:

(١) قول الله تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

(١) ما أعلم أنّ المحكيّ ثابت برواية صحيحة.

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾.

ففي جانب الشفاعة الحَسَنة استعملت كلمة «نصيب» وفي جانب الشفاعة السيِّئة استعملت كلمة «كِفْل» مع أنَّ الكِفْلَ والنصيب مترادفان في اللّغة، ويستعملان في الخير والشرّ، والرحمة والعذاب، ولكنّ تباين النصيبين في الحقيقة اقتضى في أدب اللّفظ التَّغَايُر في الكلمات الدّالّات على المراد ضمن النصّ الواحد.

فالتغيير هنا جاء بتغيير اللّفظة كلّها مادّة وصيغة.

(٢) وقول الله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ . . .﴾ [الآية ٢٨٦].

فاختار النّص كلمة «كَسَبَتْ» لجانب العمل الصالح، واختار كلمة «اكْتَسَبَتْ» لجانب العمل السيِّىء، مع أنَّ كلاًّ من اللّفظين يستعمل في كلٍّ من المعنيين، ولكنْ لما اجتمع المعنيان في نصٍّ واحد مفرّقين في موضعين منه، دعا الجمال الأدبي أنْ يُوجَدَ تفريق في اللّفظين، ولو في الصيغة فقط مع اتحاد مادة الكلمة. يضاف إلى ذلك ما في كلمة (اكتَسب) من معنى التكلّف الذي يُنَاسِبُ حَمْل الوزر.

وفي آيات أخرى اجتمع المعنيان، ولكن غير مفرّقين في موضعين من النّص، أو انفرد كلٌّ منهما في النّص بنفسه، فجاء التعبير تارة بكسب في العمل الصالح والعمل السيِّىء، أو في أحدهما، وتارة بـ«اكتسب» فيهما أيضاً أو في أحدهما.

والمتدبّر للقرآن عندئذٍ لا يلحظ في صيغة «اكتسبت» أكثر من زيادة معنى التكلّف، وأنّ العمل قد كان فيه عَطَاءٌ يَزِيدُ على العطاء في العمل العادي.

(٣) ومن ذلك ما جاء في القرآن من تخصيص لفظة «الريح» غالباً في التي تأتي بعذاب وهلاك. وتخصيص لفظة «الرياح» في التي تأتي بنعمة ورزق وخير.

فالتفريق هنا جاء بتغيير اللّفظة بين الإفراد والجمع، ومنه قول الله تعالى في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ [الآية ٥٧].

وقوله تعالى في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول):

﴿ . . . بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ ﴾.

وقد يكون للريح الواحدة أثر في التدمير والعذاب، بحسب تواترها وشدّتها، أمّا التي تأتي بُشْراً بين يدي رحمة الله، فإنّها قد تكون أنواعاً من الرياح تحمل الخير ويدفع الله شرّ بعضها ببعض. أو نقول: اختار الله عزّ وجلّ لفظ الجمع «الرياح» للتي تأتي بنعمة ورزق وخير لأنّها هي الأعظم والأكثر في واقع الحال، إذ رحمته سبحانه سبقت غضبه، واختار لفظ المفرد «الريح» للتي تأتي بعذاب، لأنها هي الأقلّ في واقع الحال، فدلّ على الكثرة بالجمع وعلى القلة بالإفراد. والله أعلم.

● ● ●

الفَصْلُ الثاني

الفَصَــاحَة

الفصاحة في اللّغة:

الفصاحة عند أهل اللّغة: البيان، والإفصاح: الإبانة. يقال لغة: فَصُحَ الرَّجُلُ فَصَاحَةً فَهُو فصيحٌ، إذا كانَ في كلامِهِ قادراً على أن يُبيِّن مُرَاده بوضوحٍ دون عَجْزٍ، ولا تَلكُّؤٍ، أو تعثُّرٍ، في نُطْقِ الألْفَاظ، أو في اختيار الكلمات الدالاَّتِ على ما يُريدُ إيضاحَهُ من المعاني للْمُتَلقّين.

ويُجْمَعُ «فَصيح» على فُصحاء، وفِصاحٍ وفُصُح. والأنْثَىٰ فصيحةٌ، وهُنَّ فَصَائح.

ويقالُ: كلامٌ فصيحٌ، إذا كان المرادُ منْهُ بيّناً واضحاً.

ويقالُ: لسانٌ فصيحٌ، إذا كان طَلْقاً في نُطْقِ الْكَلَامِ مُبِيناً لاَ يَتَعثَّر.

والرجلُ الفصيح هو المنطلق اللّسان في القولِ، الّذي يَعْرِفُ جَيِّدِ الكلام من رديئِه.

ويقالُ: أفْصَحَ الصُّبْحُ إذا بَدَا ضَوْؤُهُ واستبان. وأَفْصَح المتَحَدِّثُ عن مُرادِهِ إذا بيَّنَهُ ولم يُجَمْجِمْ.

وكُلُّ ما وَضَحَ فقد أفْصَح، وكُلُّ وَاضحٍ هو مُفْصِحٌ.

وفَصُحَ اللَّبَنُ إذا أُزِيلَتِ الرَّغْوَةُ من سطحه فبانَ وظهرَ.

الفصاحة في اصطلاح علماء البلاغة:

ذكر علماء البلاغة أنَّ الفصاحة تأتي وصفاً للكلمة الواحدة، ووصْفاً للكلام، ووصْفاً للمتكلّم، فيقال: كلمةٌ فصيحة، وكلامٌ فصيحٌ، ومتكلّم فصيح.

* * *

فصاحـة الكلمـة

أمّا الكلمة الفصيحة: فهي الكلمة العربية التي تَخْلُو من أربعة عيوب وهي: التنافر، والغرابة، ومُخَالفة القياس، وكراهة السَّمع لها.

أولاً:

شرح العيب الأوّل: وهو تنافر حروف الكلمة. التنافر في الكلمة صفةٌ فيها تجعلها ثقيلة على اللِّسان، يصعُبُ النُّطْقُ بها.

وهذا التنافرُ مِنْهُ ما هُو شديدٌ غايةٌ في الثّقل، ومنْهُ مَا هُو دون ذلِكَ، ويُحِسُّ به الذّوق السَّليم، ومن علامات التنافر في حروف الكلمة أنْ يصعُب على معظم ألسنة الناطقين بالعربيّة النُّطقُ بها.

ومن أمثلة ما هو شديد التنافر ما يلي:

● كلمة «صَهْصَلِق» يقال لغة: رجُلٌ صَهْصَلِقُ الصَّوْتِ، إذا كان ذا صوتٍ شديد، ويقالُ: امرأةٌ صَهْصَلِق وصَهْصَلِيق، أي: شديدة الصّوتِ صَخَّابة.

● كلمة «طَسَاسِيج» جمع «طَسُّوج» اسم للناحية، واسمٌ لمقدار من الوزن يعْدِلُ رُبْعَ دانِقٍ، فالدَّانِق أربعةُ طَسَاسِيج، وهو سُدْسُ الدّرهم.

● كلمة «اطْرَغَشَّ» يقال: اطرغَشَّ الْمريضُ، إذا بَرِىءَ من مرضه، وإذا قام وتحرّك ومشىٰ.

ومن أمثلة ما هو غير شديد التنافر ما يلي:

● كلمة «النُّقاخ» يقال لغة: ماءٌ نُقَاخٌ، إذا كان ماءً عذباً.

● كلمة «مُسْتَشْزِرَاتَ» بمعنى منفتلات، وقد جاءت في شِعْر امرىء القيس، إذْ قال:

وَفَرْعٍ يَزِينُ الْمَتْنَ أَسْوَدَ فَاحِمٍ أَثِيثٍ كَقِنْوِ النَّخْلَةِ الْمُتَعَثْكِلِ
غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إِلَىٰ الْعُلاَ تَضِلُّ الْمَدَارِي فِي مُثَنًّىٰ وَمُرْسَلِ

الْفَرْعُ: الشَّعَرُ التَّامُّ الَّذي لا نقص فيه. **الْمَتْنُ**: الظَّهْرُ. **الفاحِمُ**: الشَّدِيدُ السَّواد. **الأَثِيثُ**: الكثير. **قِنْوُ النَّخْلة**: عِذْقُها بما فيه من الرُّطب. **الْمُتَعَثْكِل**: الكَثِيرُ الشَّماريخ، وهي العيدان الحاملةُ للتّمر. **غَدَائِرُهُ**: أي: ذُؤاباتُه الْمَضْفُورة، مُفْرَدُها غديرة. **مُسْتَشْزِرَات**: أي: مُنْفَتِلَاتٌ، يقالُ: اسْتَشْزَرَ الحبلُ، إذا انْفتَل. **تَضِلُّ الْمَدَارِي**: أي: تَضِيعُ الْمَدَارِي، وهي جمعُ مِدْراة، والْمِدْراةُ ما يُعْمَلُ من حديدٍ أو خَشَبٍ على شكْلِ سِنٍّ مِنْ أسْنَانِ الْمُشْطِ، وأطول منه، يُسَرَّحُ بها الشَّعَرُ الْمُتَلَبِّدُ. **والْمُثَنَّىٰ**: الْمُنْعَطِفُ بَعْضُهُ عَلَىٰ بعض. **والْمُرْسَل**: المتروكُ على طَبِيعَتِه دُون ضَفْرٍ وَلاَ تَثْنِيَةٍ وَلاَ تَجْعِيد.

● كلمة «الْعَشَنْزَر» وهي بمعنى الشَّديد الْخَلْقِ العظيم من كلّ شيء، وَيقال: ضَبُعٌ عَشَنْزَرَة، أَيْ: سيِّئةُ الْخُلُق.

● كلمة «الابْرِغْشَاشِ» بمعنىٰ الْبُرْءِ من الْمَرَض.

● كلمة «اَلْخَنْشَلِيل» بمعنَىٰ الْمُسِنّ من الناس والإبل، وبمعنى الجيّد الضرب بالسيف.

* * *

ثانياً:

شرح العيب الثاني: «الغرابة» الغرابة في الكلمة كونُها غير ظاهرة المعنى ولا مألوفةِ الاستعمال عند فُصحاء العرب، وبلغائهم، في شعرهم ونثرهم، لا عند

المولّدين وَمن بعدهم، فأكثر الكلام العربـي الفصيح غريب عند غير فصحاء العرب وبلغائهم.

والغرابة إمّا أن تكون بسبب نُدْرة استعمال الكلمة عند العرب، وإمّا أن تكون بسبب أنّ التوصّل إلى المراد منها في الكلام يحتاج إلى تخريج مُتكَلَّف بعيد.

ومثَّلُوا للغريب النادر بما يلي:

- كلمة «مُسْحَنْفِرَة» بمعنى «متّسِعَة».
- وكلمة «بُعَاق» بمعنى «مطر».
- وكلمة «جَرْدَحْل» بمعنى «الوادي».
- وفُلانٌ جُحَيْشُ وَحْدِهِ، أي: عَيِـيُّ الرّأْي يَسْتَبِدُّ بِهِ، وهذا ذَمٌّ.
- وكلمة «مُشْمَخِرّ» إذا استعملتْ فِي النَّثْر، وهي بمعنى «العالي».

ومثَّلُوا للغريب الذي يحتاج إلى تخريجٍ مُتكلَّف بعيدٍ لمعرفةِ المقصود به، بقول رؤبة بْنِ العجّاج يصِفُ الأنْفَ بكلمة «مُسَرَّج» فقال ابْنُ دُرَيد: هو من قولِهِمْ للسُّيوف سُرَيجيّة، أي: منسوبة إلى حدّادٍ يُسَمَّىٰ سُرَيجاً، فهو يريد تشبيه الأنْفِ في دقَّتِهِ واستوائِه بالسَّيْفِ السُّرَيجيّ، وقال ابْنُ سِيدَه، صاحبُ المحكم: هو من السِّرَاج، فهو يريد تشبيهَ الأنْفِ في بريقه ولمعانه بالسِّراج.

أقـول: ويكثـر هـذا التكلُّـفُ الممجـوجُ عنـد كثيـر مـن الشعـراء والكتـاب المبتدئين، فلا يُعْرَفُ الْمُرادُ من مفرداتهم، إلاَّ بسؤالهم عَنْ مقاصِدهم منها.

* * *

ثالثـاً:

شرح العيب الثالث: «مخالفة الكلمة للقياس» أي: سوقُ الكلمة مخالفةً للقيـاسِ النحويّ أو الصّرفيّ، ومن أمثلة ما هو مخالف للقياسِ في الكلمة فكُّ

الحرف المضعّف في الكلمة التي يقتضي القياسُ فيها إدْغامَهُما بحرفٍ مُشَدَّدٍ، نحو:

● كلمة «الأجْلَلِ» والقياسُ أَنْ يُقَالَ فيها الأجَلّ.

ومنه قول أبـي النّجم بن قُدامة:

الْحَمْـدُ لِلّـهِ الْعَلِـيِّ الأَجْلَـلِ أَنْتَ مَلِيكُ النَّاسِ ربّاً فَاقْبَلِ

وممّا هو مخالف للقياس جمع «فاعل» وصفاً لمذكر عاقل على «فَواعل» قالوا: ومنه استعمال الفرزدق نواكس جمعاً لناكسٍ وصفاً لمذكّر عاقل في قوله:

وإِذَا الرّجَالُ رَأَوْا يَزِيدَ رَأَيتَهُمْ خُضْعَ الرِّقَابِ نَوَاكِسَ الأَبْصَارِ

أقول: ما في شعر الفرزدق ليس مخالفاً للقياس، لأنه يريد أَنْ يصف الأبصار بالنواكس، أي: هي منكسرة ذليلة، لا أَنْ يصف الذكورَ العقلاء، عَلَىٰ أن جمع ناكس على نواكس، ممّا اسْتُعْمِل شاذاً عن القياس عند العرب، كما قالُوا في فَارسٍ فوارس، وفي هالِكٍ هَوَالِكَ.

وممّا هو مخالف للقياس استعمال هَمْزَةِ القطْع بدلَ همزة الوصْل، واستعمال همزة الوصل بدل همزة الْقَطْعِ، ويكثرُ مثْلُ هذَا في الشِّعْرِ لِمُرَاعَاةِ الوزن.

ومنه قول جميل:

ألاَ لاَ أرَى «إِثْنَيْنِ» أحْسَنَ شِيمَةً عَلَىٰ حَدَثَانِ الدَّهْرِ مِنِّي وَمِنْ جُمْلِ

فقطع همزة «اثنين» مع أنّها همزة وصْل، وحدَثان الدهر نوائبه، وأراد بِكَلِمَةِ «جُمْلِ» فَرَسَهُ أو جَمَلَه.

* * *

رابعـاً: شرح العيب الرابع: «كون الكلمة مكروهةً في السمع» أي: كونُها ممجوجةً في الأسماع، تأنف منها الطّباع، خشنَةً وَحْشِيَّةً.

ومثَّلوا لهذا العيب، بنفور السمع عن كلمة «الْجِرِشَّىٰ» بمَعْنَىٰ «النفس» فعابوا على أبـي الطيّبِ المتنبّـي استعمالَها في قَوْلِهِ يمدحُ سيف الدولة:

مُبَـارَكُ الاسْـمِ أغَـرُّ اللَّقَـبْ   كَرِيمُ الْجِرِشَّىٰ شَرِيفُ النَّسَبْ

كَرِيمُ الجِرِشَّىٰ: أي: كريمُ النفس.

أقوال مأثورة اشتملت على مفرداتٍ غير فصيحة لِعَيْبٍ ما فِيها:

(١) كتب بعض أُمَراء بغداد رُقْعةً طرحها في المسجد الجامع حين مَرِضَتْ أُمُّهُ، جاءَ فيها:

«صِينَ امْرُؤٌ وَرُعِي، دَعَا لِامْرَأَةٍ إِنْقَحْلَةٍ مُقْسَئِنَّةٍ، فَقَدْ مُنِيَتْ بِأَكْلِ الطُّرْمُوخِ، فَأَصَابَهَا مِنْ أَجْلِهِ الاسْتِمْصَالُ، أَنْ يَمُنَّ اللَّهُ عَلَيْهَا بِالاطْرِغْشَاشِ والابْرِغْشاشِ».

إِنْقَحْلَة: أي: مُسِنَّةٌ هَرِمَةٌ يَبِسَ جلْدُهَا وسَاءَ حَالُها.

مُقْسَئِنَّة: أي: كبيرة السّنّ، ليس لها قدرة على الحركة.

الطُّرْمُوخ: الْخُفَّاش.

الاسْتِمْصَال: إسهالُ الطبيعة.

الاطرِغْشَاش والابرِغْشَاش: كلاهما بمعنى البرء من المرض.

(٢) جاء في خُطْبَةٍ لابْنِ نُبَاتة، يَذْكُرُ فيها أَهْوَالَ يَوْمِ القيامة، قولُه:

«اقْمَطَرَّ وَبَالُهَا، واشْمَخَرَّ نَكَالُهَا، فَمَا سَاغَتْ وَلاَ طَابَتْ».

اقْمَطَرَّ وَبَالُهَا: أي: اشتَدَّ وعَظُمَ ثِقَلُها.

واشْمَخَرَّ نَكَالُهَا: أي: اشْتَدَّ وارتَفَعَ وعَظُمَ عِقَابُهَا.

فَمَا سَاغَتْ وَلاَ طَابَتْ: أي فَمَا سَهُلَتْ ولاَ كانَتْ طيّبَة.

(٣) قال امرؤ القيس حين أَدْركتْهُ المنيّةُ، وَكان قَدْ ذَهَبَ إِلى مَلِكِ الرُّومِ يَسْتَنْجِدُهُ عَلَىٰ قَتَلَةِ أَبيه:

«رُبَّ جَفْنَةٍ مُثْعَنْجِرَةٍ، وَطَعْنَةٍ مُسْحَنْفِرَةٍ، وَخُطْبَةٍ مُسْتَحْضَرَةٍ، وَقَصِيدَةٍ مُحَبَّرَةٍ، تَبْقَىٰ غداً بِأَنْقِرَةٍ».

رُبَّ جَفْنَةٍ مُثْعَنْجِرَةٍ: أي: رَبَّ قَصْعَةِ طَعَامٍ مَلأَىٰ.

وطَعْنَةٍ مُسْحَنْفِرَةٍ: أي: ورُبَّ طَعْنَةٍ بِرُمْحٍ في الْقِتَالِ واسِعَةٍ.

(٤) رُوي أنَّ أُمَّ الهيْثَمِ الأَعْرَابِيَّةَ قَالت لِأَبـي عُبَيْدَة الرَّاوِية، حِينَ عَادَهَا فِي علَّةٍ أصابَتْها:

«كُنْتُ وَحْمَىٰ سَدِكَةً، وَشَهِدْتُ مَأْدُبَةً، فَأَكَلْتُ جُبْجُبَةً مِنْ صَفِيفِ هِلَّعَةٍ، فَاعْتَرَتْنِي زُلَّخَةٌ».

فَقِيلَ لَهَا: أيَّ شَيْءٍ تَقُولِينَ؟

فقالَتْ: أَوَ لِلنَّاسِ كَلامَانِ، واللَّه مَا كَلَّمْتُكُمْ إلاَّ بالْعَرَبـيِّ الْفَصِيح.

كُنْتُ وَحْمَىٰ سَدِكَةً: وَحِمَتِ الْحُبْلَىٰ، إذا اشْتَهَتْ شيئاً عَلَىٰ حَبَلِهَا، فَهِي وَحْمَىٰ. سَدِكَةً: أي: مُولَعَةً بِنَوْعِ طَعَامٍ لِوَحَمِهَا. وَشَهِدْتُ مَأْدُبَةً: المَأْدُبَةُ: الطَّعَامُ الَّذِي يُصْنَعُ لِدَعْوَةٍ. جُبْجُبَةً: الْجُبْجُبَةُ: الكَرِشُ يُجْعَلُ فيها اللّحم المقطَّعُ، ويُغْلَىٰ ثُمَّ يُقَدَّدُ. من صَفِيفِ هِلَّعَةٍ: الصّفِيفُ: رقائقُ اللَّحْمِ تُشْوَىٰ. والْهِلَّعَةُ: الأنْثَىٰ مِنْ أولاد المعز والغنم. فاعْتَرَتْنِي زُلَّخَةٌ: الزُّلَّخَةُ: داءٌ يأخُذُ فِي الظَّهْرِ والجنب.

* * *

فصاحة الكلام

وأمَّا الكلامُ الفصيح: فهو عند علماء البلاغة ما كان سهْلَ اللفظ، واضح المعنى، جيّد السَّبكِ، متلائم الكلمات، فصيح المفردات، غير مُسْتكْرَهٍ ولا مَمْجوجٍ ولا مُتكَلَّف، ولا مخالفٍ لقواعد العرب في نحوها وصرفها، وغير خارج عن الوضْعِ العربـي في مفرداته وتراكِيبِه، وليس في كلماته تنافر، وليس فيه تعقيدٌ لفظيٌّ، ولا تعقيدٌ معنويّ.

قالوا: ولا بُدَّ لكون الكلام فصيحاً من أن يكون خالياً مِنْ أربعة عيوب، مع شرط فصاحة مفرداته، وهي:

العيبُ الأول: تنافر الكلمات عند اجتماعها، ولو كانت مفرداتها فصيحة.

العيبُ الثاني: ضعف التأليف.

العيبُ الثالث: التعقيد اللفظي.

العيبُ الرابع: التعقيد المعنويّ.

أوّلاً:

شرح العيب الأول: «تنافر الكلمات عند اجتماعها» وهو وصفٌ يعرض للكلام من جرّاء اجتماع كلماتٍ فيه تجعل النُّطْقَ بها ثقيلاً ممجوجاً حال اجتماعها، مع كون كلّ كلمةٍ منها ليّنةً سهلة النطق بها.

ويُحِسُّ بهذا الثِّقَل الممجوج أصحابُ الذوق السليم في نُطْق الكلام العربي، ومن علامات التنافر في الكلام أن يَصْعُب على معظم ألسنة الناطقين بالعربية النُّطقُ به.

الأمثلة:

(١) من الأمثلة الّتي ذكروا أنّ فيها هذا العيب بشدّة، ما أورده عَمْرو بن بحر الجاحظ من شعر بشأن قَبْر حَرْب بن أميّة بن عبد شمس:

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرُ ... وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

رُفع لفظ «قَفْر» مع أنه نعتٌ للفظ «مكانٍ» لضرورة الشعر، وخرّجوه على أنّه من قبيل الصفة المقطوعة عن موصوفها.

وقد جاء الثقل من تكرار الراء والباء في البيت.

(٢) ومن الأمثلة الّتي ذكروا أَنَّ فيها هذا العيب دون شدَّة، قولُ أبي تمّام:

كَرِيمٌ مَتَىٰ أَمْدَحْهُ أَمْدَحْهُ والْوَرَىٰ   مَعِي وَإِذَا مَا لُمْتُهُ لُمْتُهُ وَحْدِي

وقد جاء ثِقَلُهُ من تكرير لفظ «أَمْدَحْهُ» بما فيه من حاء وهاء.

وكذلك قول أبـي الطيّب المتنبّـي:

أَتُـــرَاهَـــا لِكَثْـــرَةِ الْعُشَّـــاقِ   تَحْسَـبُ الـدَّمْـعَ خِلْقَـةً فِـي الْمَـآقِـي
كَيْـفَ تَـرْثِـي الَّتِـي تَـرَىٰ كُـلَّ جَفْـنٍ   رَاءَهَـــا غَيْـــرَ جَفْنِهَـــا غَيْـــرَ رَاقِـــي

«راءَهَا» أي: رآها، قَدَّم وأخَّرَ لضرورة الشِّعر.

«راقِي»: اسم فاعل من رَقَأَ الدَّمْعُ إذا انْقطع.

ومعنى البيت الثاني: كيف تَرْحَمُ هٰذِهِ الْمَعْشُوقَةُ عَاشِقَهَا وهِي تَرَىٰ كلَّ الأَجْفَانِ باكيَةً غيْرَ جَفْنِها، فتحسبُ أَنَّ العيون تذرف الدمع بالْخِلْقَةِ لاَ من العشق، لذلك فلا تُسْتثارُ فيها الرحمةُ على العشّاق.

وفي هذا البيت مع عيب الضرورة عيب تكرير الجيم والراء في كثير من كلماته، الأمر الذي أكسبَهُ بعض الثقل.

(٣) ومن الأمثلة التي ذكروا فيها عيبَ التنافُرِ في الكلام، أو ثِقَلَ النُّطْقِ بِهِ، أَوْ مَجَّ الذَّوْقِ له، قول عبد السَّلام بْنِ رُغْبَان المعروفِ بديكِ الجنّ:

أُحْلُ وٱمْرُرْ وضُرَّ وانْفَعْ وَلِنْ وَاخْشَنْ وَأَبْرِرْ ثُمَّ انْتَدِبْ لِلْمَعَالِي.

وعِلَّتُه تكرُّرُ أفعالِ الأَمْرِ فيهِ.

وأشدّ من هذا قول أبـي الطيّب المتنبّـي إذْ جَمَعَ أَفْعالَ أمْرٍ دون عاطفٍ بينها، من قصيدة يمدح فيها سيف الدولة:

أَقِلْ أَنِلْ أَقْطِـعِ ٱحْمِلْ عَلِّ سَلِّ أَعِدْ   زِدْ هِـشَّ بِـشَّ تَفَضَّـلْ أَدْنِ سُـرَّ صِـلِ

دفعه إلى هذا ولَعُه بالإغْرابِ والإبداع.

أَقِلْ: فعل أمرٍ من الإقالَةِ. أَنِلْ: من الإنالَة وهي العطاء. أَقْطِعْ: من الإقْطاعِ بمَنْحِ الأرض. احْمِلْ: من قولهم: حملتُهُ على فَرَسٍ. عَلِّ: من التَّعْلِيَةِ وَالرَّفْع. سَلِّ: من التَّسْلِيَة والترويح عن النفس. أَعِدْ: من الإعادة، أي: في العَطاء. زِدْ: من الزّيادة في العطاء الثاني. هِشَّ: من قولهم: هَشَشْتُ إلى كذا أَهِشُّ. بِشَّ: من البشاشة وهي طلاقة الوجه. تَفَضَّلْ: من الإفْضَالِ وهو عطاء الفضل. أَدْنِ: من الإدناء وهو التقريب. سُرَّ: أي: افعلْ ما يَسُرُّ. صِلِ: من الصِّلَةِ، وهي العطيَّة.

وهذا أشبَهُ بمنْظوماتِ مُتُونِ الْعِلْم، وعلّتُه تَكَرُّرُ أفعالِ فيه دون حرف عطف بينَها، فزاده ثقلاً.

(٤) ومن الأمْثِلَةِ أيضاً، قول أبـي الطيّب المتنبّي، في قَصِيدَة يَمْدَحُ فيها عُبَيْدَ الله بْنَ خراسان الطرابلسيّ:

دَانٍ بَعِيـدٍ مُحِـبٍّ مُبْغِـضٍ بَهِـجٍ أَغَـرَّ حُلْـوٍ مُمِـرٍّ لَيِّـنٍ شَـرِسِ

شَرِس: الشَّرِسُ في اللّغة الْعَسِرُ السَّيّـِءُ الْخُلُق، ويريد أنَّه عَسِرٌ غير ليّن بالنسبة إلى الأعداء في الحرب.

بعض هذه الصفات يُعامل بها أولياءَه، وأضدادها يعامل بها أعداءه.

وعلّته إيراد صفاتٍ متعدّدات على نَسَقٍ واحدٍ.

(٥) ومن الأمثلة أيضاً، قول أبـي تمّام يصِفُ مَمْدُوحَهُ:

كَـأَنَّـهُ فـي اجْتِمَـاعِ الـرُّوحِ فِيـهِ لَـهُ فِـي كـلِّ جـارحَـةٍ فـي جِسْمِـهِ رُوحُ

أي: هو يقظ دواماً بكلّ جوارحه.

وعِلَّتُه تَعَاقُبُ الأَدواتِ فيه.

ونظيره قول أبـي الطيب المتنبّـي يصفُ فرساً:

وتُسْعِـدُنـي فِـي غَمْـرَةٍ بَعْـدَ غَمْـرَةٍ سَبُـوحٌ لَهَـا مِنْهَـا عَلَيْهَـا شـواهـد

في غَمْرَة: أي: في شِدَّة. **سَبُوح**: أي: فرسٌ شدِيد الجري. **لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شواهِدُ**: أي: لَها عَلَىٰ كرمها شَوَاهِدُ مِنْ صفاتها. على أن تعاقب الأدوات قد لا يكون ثقيلاً مستكرهاً، والحكَمُ ذوق الفصحاء.

(٦) ومن الأمثلة أيضاً قولُ ابْنِ بابك:

حَمَامَةَ جَرْعَىٰ حَوْمَةِ الْجَنْدَلِ اسْجَعِي ... فَـأَنْـتَ بِمَـرْأَىٰ مِـنْ سُعَـادَ ومَسْمَـعِ

يخَاطِبُ الشَّاعِرُ حَمَامَةَ جَرْعَىٰ حَوْمَةِ الْجَنْدَلِ، فَيَطالِبُهَا بأن تَسْجَعَ لِتَسْمَعَها مَعْشُوقَتُهُ سُعاد، والسَّجْعُ هديل الحمام.

جَرْعَىٰ: مُؤنَّثُ أَجْرَع، وهي رَمْلَةٌ لاَ تُنْبتُ. **حَوْمَةِ**: مُعْظم. **الجندل**: الحجارة.

وَعِلَّتُه تَوالي الإضافات، إذْ أضاف أولاً حمامة إلى جَرْعَىٰ وأضاف أيضاً جَرْعَىٰ إلى حَوْمَة التي أضافها إلى الجندل، فتوالت الإضافات، ومن هنا كانت علّة الاستكراه، على أن توالي الإضافات قَدْ لا يكون مستكرهاً.

* * *

ثانيـاً:

شرح العيب الثاني: «ضعفُ التأليف» وهو أنْ يكون تأليف الكلمات في الجمل أو إجراؤُها الإعْرَابـي على خلاف المشهور المتَّبَع من قواعد النحو، أو فيه لحْنٌ نحويٌّ أو صرفي، واللّحْنُ في اللّغة ليْسَ من فصيحها، بل هو من عامّيها، أو من نطق الدخلاء على أهلها ممن ليسوا منها، أو من نطق أطفال الأمة الذين لم يتمرّسوا بقواعد لغتهم، ومن أمثلة ما فيه ضعف التأليف:

- عوْدُ الضمير علَىٰ مُتأخِّرٍ لفظاً ورُتبةً، بينَما الأَصْلُ أن يعودَ الضميرُ علَىٰ مُتَقَدّمٍ في اللفظ أو الرتبة.

• استعمـال الضميـر المنفصـل مـع إمكـان استعمـال الضميـر المتّصـل، واستعمال الضمير المتّصل في حالِ وُجوبِ استعمال الضمير المنفصل.

• نصْبُ الفعل المضارع أو جزمُهُ بدون ناصبٍ أو جازمٍ.

تقديم غير الأَعْرَف في الجملة الاسميّة على الأعْرَف.

• تقديم المعمول على عامله مع عدم جواز ذلك، أو مع عدم وجودِ مقتضٍ لَهُ بلاغياً.

• مجيء الضمير المتَّصِل بعد أداةِ الاستثناء «إلاَّ».

الأمـثـلـة:

(١) قول حسّان بن ثابتٍ يرثي مُطْعِمَ بْنَ عَدِيّ أحد رُؤساء المشركينَ، وكان يُدَافع عن الرسول ﷺ:

وَلَـوْ أَنَّ مَجْـداً أَخْلَـدَ الـدَّهْـرَ وَاحِـداً   مِنَ النَّاسِ أَبْقَىٰ مَجْدُهُ الدَّهْرَ مُطْعِماً

فأعاد الضمير في «مَجْدُهُ» على متأخّرٍ لفظاً ورُتبة وهو «مُطْعِماً» على خلاف قانون التأليف المتّبع المشهور في العربيّة، وهذا من العيوب المخلّة بالفصاحة.

والمعنى: ولو أنّ مجداً مهما كان عظيماً جعل من يتّصف به يخلُد طَوال الدَّهر، لكان مَجْدُ مُطْعِم بن عديّ جعله خالداً.

(٢) قول زياد بن حَمَل التميميّ:

وَمَـا أُصَـاحِـبُ مِـنْ قَـوْمٍ فَـأَذْكُـرَهُـمْ   إلاَّ يَـزِيـدُهُـمُـو حُبّـاً إِلـيَّ هُـمُ

أي: وما أصاحبُ من قومٍ بعْدَ قومي فأذكُر لهم قومي، إلاَّ بالَغُوا في الثناء عليهم حتّى يَزِيدُوهُمْ حُبّاً إِلَيَّ.

فلم يأتِ بالضمير المتّصل الذي هو «واو» الجماعة في: «يَزِيدُونَهُمْ» بل

فصله، وجاء به ضميراً منفصلاً في آخرِ البيت، لضرورة الشعر، وهو لفظ «هُمُ» وهذا من العيوب المخلّة بالفصاحة.

(٣) قول الفرزدق:

بِالْبَاعِثِ الْوَارِثِ الأَمْواتِ قَدْ ضَمِنَتْ إِيَّـاهُـمُ الأَرْضُ فـي دَهْـرِ الـدَّهَـاريـرِ

فجاء بالضمير المنفصل «إيّاهُمْ» مع إمكان مجيء الضمير المتصل، لضرورة الشعر، وهذا من العيوب المخلّة بالفصاحة.

والمعنى: أحلف بالله الباعث الوارث الأموات قد ضَمِنَتْهم، أي: احتوتْهُمُ الأرض في دهْرِ الدّهارير.

في دَهْرِ الدَّهَارير: أي: في سالف الأزمان، كلمة «الدهارير» تأتي بمعنى أوّل الدهر في الزمان الماضي «لا واحد لها من لفظها».

(٤) قول أبـي الطيّب المتنبـي، يمدحُ بدر بن عمّار:

خَلَتِ الْبِلَادُ مِنَ الْغَزَالَةِ لَيْلَها فَأَعَاضَهَاكَ اللَّهُ كَيْ لَا تحْزَنَا

الغزالة: الشمس.

يقول المتنبّي لممدوحه: خَلَت البلاد من الشمس في وقْتِ لَيْلِها، فجَعَلَكَ اللَّهُ لهَا عِوَضاً عن الشَّمس، لكيلا تحزن البلاد على فراق ضوءِ الشمس.

قال النحاة: إذا اجتمع ضمير المخاطب والغائب فالواجبُ تقديم ضمير المخاطب على ضمير الغائب، وهذا ما نصّ عليه سيبويه.

وكان على المتنبـيّ أن يقول: «فأعاضَكَها» بدل «أعَاضَهَاكَ» ولكن ضرورة الشعر ألجأته إلى ما قال.

بيد أنَّ العبّاس محمّد بن يزيد المبرَّد يجيز ما فعل المتنبّي.

(٥) قول الشاعر:

أَنْظُـرَا قَبْـلَ تَلُـومَـانِـي إِلَـىٰ   طَلَـلٍ بَيْـنَ النَّقَـا والْمُنْحَنَـىٰ

فحَذَفَ «أن» النّاصبة لفعل «تَلُومَاني» وأبْقَىٰ النّصْبَ في الفعل، إذْ حذف النون.

الطَّلَل: ما بقيَ من آثار الدّيار.

النَّقَا ــ والْمُنْحَنَىٰ: اسْمانِ لِمَوْضِعَيْن.

(٦) قول الشاعر:

وَمَا نُبَالِي إِذَا مَا كُنتِ جارَتَنَا   أَلاَّ يُجَـاوِرَنَـا إِلاَّكِ دَيَّـارُ

فجاء بالضمير المتّصل بعد «إلاّ» والأصل أن يقول: إلاّ إيّاك، ولكن خالف القاعدة لضرورة الشّعر.

* * *

ثالثاً:

شرح العيب الثالث: «التعقيد اللفظي» ويكون بجعل الكلمات في جملة الكلام مرتَّبةً على غير الترتيب الذي يقتضيه نظام الكلام وتأليفُه في اللّسان العربيّ.

كتقديم الصفة على الموصوف، والصلة على الموصول، وكالتشتيت في الروابط بين عناصر الجملة الواحدة، أو بين عناصر الْجُمَل في الكلام الواحد.

وهذا العيب أشدّ نكارةً وبعداً عن فصيح الكلام من عيب «ضَعْفِ التَّأْليف» ولا يُغْني عن ذكره وبيانه ذكْرُ عيْبِ «ضَعْفِ التَّأْليف» وَإِنْ كان الصنفان يلتقيان في كون كُلٍّ منهما يخالِفُ نظام الكلام في اللّسان العربيّ، لأنّ ضعْف التأليف قلّما يؤدي إلى ما يُسِيءُ في الدلالة، بل هو مُجرَّد خروجٍ عن المشهور من فصِيحِ كلامِ العرب.

أمّا التعقيد اللفظيُّ ففي الغالب يؤدّي إلى الإلْغازِ، أو الغموض، أو التشويش، أو الدلالة على معانٍ غَيْرِ مرادةٍ.

والكلام الْمُعَيبُ بعَيْبِ «التعقيد اللّفظي» مرفوضٌ غَيْرُ مقبولٍ عند أهل البيان، لأنّه يُفْضِي إلى اختلال المعنى المراد واضطرابه، وذلك مُبَاينٌ للفصاحة الّتي تقومُ على الإبانةِ وتوضيح المعاني المرادة.

قال العتّابي[1]: «الألفاظُ أَجْسَادٌ، والْمَعَانِي أرواح، وإنّما نَراها بَعَيْنِ الْقُلُوب، فَإذا قَدَّمْتَ مِنْهَا مُؤَخَّراً، أَوْ أَخَّرْتَ مِنْهَا مُقَدَّماً، أَفْسَدْتَ الصُّورَةَ، وغَيَّرْتَ الْمَعْنَىٰ، كَمَا لَوْ حُوِّلَ رَأْسٌ إلَىٰ مَوْضِعِ يَدٍ، أَوْ يَدٌ إلَىٰ مَوْضِعِ رِجْلٍ، فإنَّ الْخِلْقَةَ تَتَحَوَّلُ، والْحِلْيَةَ تَتَغَيَّرُ».

قالوا: والفرزدق أكثر من استعمل التعقيد اللفظيّ في شعره، وكأنّه كان يَقْصِدُ إلىٰ ذَلِكَ، لأنّه لا يجري على لسانٍ عربي إلّا متكلَّفاً مَصْنُوعاً، والفرزدقُ عربيٌّ أصيلٌ لا يشكو من عجمة حتّى تؤثّر عليه.

الأمـثـلـة:

(١) من أمثلة التعقيد اللّفظيّ قول الفرزدق، يمدحُ إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي خالَ هشام بن عبد الملك:

وَمَا مِثْلُهُ في النَّاسِ إلَّا مُمَلَّكاً ... أَبُـو أُمِّـهِ حَـيٌّ أَبُـوهُ يُقَـارِبُـهُ

أي: وما مِثْلُ إبراهِيمَ في النَّاسِ حيٌّ يشبهه في فضائله غير مَلِكٍ أَبُو أُمِّهِ أبوه.

أَصْلُ ترتيب الكلام: وما مثله في الناس حيٌّ يقاربُه إلّا مملَّكاً أَبُو أُمِّهِ أَبُوه، فقَدَّمَ وأَخَّرَ في الكلمات، فألْغَزَ إلْغازاً سَيِّئاً.

---

(١) هو كلثوم بن عمرو بن أيوب التغلبي متوفى «٢٢٠هـ» له عدة مصنفات، منها: «فنون الحكم» و «الآداب» و «الألفاظ».

(٢)وقولُ الْفَرَزْدَق أيضاً يمْدَحُ الوليد بن عبد الملك:

إِلَىٰ مَلِكٍ مَا أُمُّهُ مِنْ مُحَارِبٍ أَبُوهُ وَلَا كَانَتْ كُلَيْبٌ تُصَاهِرُهُ

يريد: إلى مَلِكٍ أَبُوه ليستْ أُمُّه مِنْ مُحَارِبٍ، فقدّم وأخّرَ فأبْهَمَ المعنى وألْغزَ وأفْسَد.

(٣) ومن أقبح أمثلة هذا التعقيد اللفظي، قول أحدهم يصِفُ دياراً درَسَتْ وعفَتْ آثارُها:

فَأَصْبَحَتْ بَعْدَ خَطَّ بَهْجَتِهَا كَأَنَّ قَفْراً رُسُومَهَا قَلَماً

أي: فأصبَحَتْ بعد بَهْجَتِهَا قَفْراً، كأنَّ قَلَماً خطَّ رُسُومَها.

ويبدو أنّ هذا البيت مصنوعٌ لإبراز قباحة التعقيد اللفظي، إذْ ليس من المعقول أن يقوله ناطق عربـي له فكرٌ ما.

* * *

رابعـاً:

شرح العيب الرابع: «التعقيد المعنوي» ويكون باستخدام لوازم فكرية بعيدة، أو خفيّةِ العلاقة، أو استخدام كنايات من الْعَسيرِ إدراكُ المراد منها، لعدم اقترانها بما يشير إلى دَلالاتها المرادة، فَيَنْجُم عَنْهُ خفاءُ دلالة الكلام، وصعوبَةُ التوصُّلِ إلى معرفةِ المراد منه من قِبَلِ أهلِ الفكر والاستنباط، أو منْ قبَل المخاطبين به إذا كان المخاطبون به دون مستَوىٰ أهْلِ الفكر والاستنباط.

الأمـثـلـة:

(١) ذكروا من الأمثلة على التعقيد المعنويّ قولَ العبّاسِ بن الأحنف:

سَأَطْلُبُ بُعْدَ الدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ الدُّمُوعَ لِتَجْمُدا

أي: سأطْلُبُ بُعْدَ الدّار عنكم وأتحمَّلُ آلامَ الفراق وأصْبِرُ عليه، لأنّ عاقبة

الألم والصبر الفرجُ، وحين يأتي الفرجُ يكون قُرْبٌ دائم، ووصلٌ مستمرٌّ مصحوبٌ بسرور لا ينقطع، وقد أبعد في هذِه الكناية لكثرة لوازمها الذهنيّة التي لا تُدْرَكُ إلاَّ بإجْهادٍ ذهْنِيّ، على أنّ هذا المعنى حَسنٌ طرقَهُ الشعراء والأدباء وأهل الفكر، ومنه ما أجاب به الربيع بن خيثم، وقد صلّىٰ ليلةً حَتّى أصْبَح، إذْ قيل له: أتْعَبْتَ نفْسَكَ. فقال: راحَتَهَا أطْلُبُ. أي: أطلبُ راحَتَها الدائمة يوم الدين بإتْعَابِها في العبادة في الدنيا.

ونظيره في المعنى، قول أبـي تَمّام:

أَآلِفَــةَ النّحِيــبِ كَــمِ افْتِــرَاقٍ ... أَلَــمَّ فكَــانَ داعِيَــةَ اجْتِمَــاعِ

وقولُ عُرْوَة بن الورد:

تَقُولُ سُلَيْمَىٰ: لَوْ أَقَمْتَ بِأَرْضِنَا ... وَلَـمْ تَـدْرِ أَنِّـي لِلْمُقَـامِ أُطَـوِّفِ

لكنّ العبّاس بن أحنف عبّر بعد ذلك بجمُود الْعَيْن كنايةً عن حالَةِ السُّرُور التي سَيَنالُها حينما يأتي الْفَرَجُ بالوصْل بَعْد كثرة البكاء، في حين أنّ جُمَودَ العين يُعبَّرُ بِهِ كنايةً عن شُحِّهَا بالدُّموع عنْدَ حَاجةِ النفس إلى البكاء، ليكون في البكاء تخفيفٌ مِنْ آلَام النفس بالفراق، أو مِنْ الحزن والكَمَد والتَّعَبِ والنّصب، فالشُّحُّ بالدمع يزيد في آلام النَّفس، ولَيْس من العلامات الدّالاّت على سرورهَا حتَّى يُكنَّىٰ به عنه، ومن هُنَا رَأَوْا أنّ في كلامِهِ تعقيداً معنويّاً.

(٢) ويُمْكن أن نُمثِّل للتعقيد المعنويّ بأن نقول: فَتَح السلطانُ أَبْوابَ السُّجُون.

ونحن نقصد بهذه العبارة أنّه نَشَر جُنْدهُ لملاحقة خصومه حتى يُودِعهم في السجون، مع أنّ المتبادر المتعارف في مثل هذه العبارة، أن تُقالَ لتكونَ كنايةً عن أنّه أخرج المساجين منها بإصدار عفوٍ عامٍّ عنهم، فاعتبارُهَا كنايةً عن المعنى المضادّ لهذا المعنى تعقيدٌ معنوي.

وقِسْ على هذا.

* * *

فصاحـة المتكلـم

المتكلّم الفصيح هو من كان كلامه فصيحاً، وكان ذا ملكةٍ يقتدر بها على التعبير عن مقصوده بكلام فصيح، دون تَلَعْثُم، ولا تلكُّؤٍ، فما شاء من معنى استطاع التعبير عنه بيُسْرٍ وسُهولةٍ، وبكلام فصيح المفردات، وفصيح الْجُمَل والتّراكيب.

ومع الهبة الفطريّة لا يكون المتكلم فصيحاً في اللّسانِ العربيّ، حتّىٰ يكون مُلمّاً باللّغة العربيّة، عالماً بقواعد نحوها وصرفها، واسع الاطلاع على مفرداتها ومعانيها الدقيقة، كثير النظر في كتب الأدب، مطّلعاً على أقوال كبار الفصحاء، له درايةٌ بأساليب العرب في شعرهم ونثرهم وأمثالهم وكناياتهم ومجازاتهم، حافظاً لطائفةٍ جَمَّةٍ من عيون كلام فصائحهم وبلغائهم من أهل النثر وأهل الشعر، وأن يمارس موهِبَتَهُ بالتطبيقات العمليّة، حتَّىٰ يكتسب مهارة التعبير عن مقاصده وما يجول في نفسه من معانٍ بكلامٍ فصيح.

• • •

الفَصلالثالث

البَـــلاَغَة

البلاغـة في اللّغـة:

البلاغة عند أهل اللّغة هي حُسْنُ الكلام مع فصاحته وأدائه لغاية المعنىٰ المراد.

والرجل البليغ هو من كان فصيحاً حسَنَ الكلام يَبْلُغُ بعبارة لسانه غايةَ المعاني الّتي في نفسه، ممّا يُرِيد التعبير عنه وتوصيلَهُ لمن يُرِيد إبلاغه ما في نفسه.

وأصل مادّة الكلمة في اللّغة تدور حول وُصُولِ الشيء إلى غايته ونهايته، أو إيصال الشيء إلى غايته ونهايته.

تقول لغةً: بلغَ الشّيءُ يَبْلُغُ بُلوغاً وبلاغاً، إذا وصل وانتهىٰ إلى غايته.

وتقول: أبلغْتُ الشيءَ إبلاغاً وبَلاَغاً، وبلَّغتُهُ تَبْليغاً، إذا أوصلته إلى غايته ونهايته.

وبَلَغَ الْغُلاَمُ وبَلغت الجارية، إذا وصَلا إلى انتهاء مرحلة ما دون التكليف، ودخلا في مرحلة التكليف، ويكون ذلك باحتلام الغلام وحيض الجارية، ويُقَال: ذكَرٌ بالغ، وأنثىٰ بالغٌ وبالغة.

والأمر البالغ، هو الأمر الذي وصل إلى غايته فكان نافذاً.

والبلاغَةُ تكون وصفاً للكلام، ووصفاً للمتكلّم.

بلاغة الكلام في الاصطلاح:

هي مطابقة الكلام لمقتضىٰ حَال من يُخَاطبُ به مع فصاحة مفرداته وجُمَله.

فيشترط في الكلام البليغ شرطان:

الشرط الأول: أن يكون فصيح المفردات والجمل.

الشرط الثاني: أن يكون مطابقاً لمقتضىٰ حال من يُخَاطبُ به.

ولمّا كانت أحوال المخاطبين مختلفة، وكانت كلُّ حالةٍ منها تحتاج طريقةً من الكلام تلائمها، كانت البلاغة في الكلام تستدعي انتقاء الطّريقة الأكثر ملاءمة لحالة المخاطب به، لبلُوغ الكلام من نفسه مبلغ التأثير الأمْثل المرجوّ.

الأحوال التي تستدعي اختلافاً في طرائق الكلام وأساليبه:

أمّا الأحوال التي تستدعي اختلافاً في طرائق الكلام وأساليبه، فتكادُ لا تُحْصرُ.

- فمنها ما يستدعي من الكلام إيجازاً.
- ومنها ما يستدعي من الكلام بَسْطاً متوسّطاً.
- ومنها ما يستدعي من الكلام بَسْطاً مطوّلاً.
- ومنها ما يستدعي خطاباً بصورة مباشرة.
- ومنها ما يستدعي خطاباً بصورة غير مباشرة.
- ومنها ما يستدعي تنكيراً، أو يستدعي تعريفاً.
- ومنها ما يستدعي إطلاقاً، أو يستدعي تقييداً.
- ومنها ما يستدعي ذِكراً، أو يستدعي حذفاً.
- ومنها ما يستدعي وصلاً بحرف العطف، أو يستدعي فصلاً.

- وخطاب الذكيّ يُخَالف خطاب الغبـيّ.
- وحال الوعظ يستدعي خطاباً غير حال البيان العلمي.
- وحال الدعاء والتماس مطلوب، يستدعي خطاباً غير حال التكليف من ذي سلطان.
- وخطاب أهل العلم والمعرفة يخالف خطاب الذين لا علم لديهم.
- وخطاب الملوك والأمراء والرُّؤساء يخالف خطاب العامّة.
- وخطاب أهل الحضر يُخَالف خطاب أهل البداوة وأهل المدَر.
- ولكل أهل صنعة خطابٌ يُلائم صناعتهم.
- والصغارُ وأحْداثُ الأسنان لَهُم ألوان من الخطاب تلائم حداثتهم، وصِغَر أَعْمَارِهم.
- إلى غير ذلك من أصناف المخاطبين، وأحوالهم النفسيّة والاجتماعية، وأحوال المتكلّم وظروف الكلام.

واختيار الأسلوب من الكلام الملائم للمخاطب، أو الأكثر ملاءمة له يحتاج فطنةً عاليةً، وذكاءً حادّاً، وخبرات كثيرات بخطاب الناس.

ويُلْحَقُ بمطابقة الكلام لمقتضى حال المخاطب وجوهٌ أُخَرُ كثيرةٌ تورثُ الكلامَ حُسْناً.

وَكُلَّما كان الكلام مع فصاحة مفرداته وجمله أكثر مطابقة لحال المخاطب وتأثيراً في نفسه، كانَ أعلَى حُسْناً، وأرفَعَ منزلةً في مراتب البلاغة ودرجاتِها.

وتتنازلُ الدرجات وتنحطُّ بمقدار بُعْدِ الكلام عن مطابقته مقتضىٰ حال المخاطب، وضَعْفِ تأثيره في نفسه.

وللكلام البليغ حدٌّ أعْلَىٰ رفيعٌ، وهو حدُّ الإعجاز، وما يَقْرِبُ منه. ولَهُ حدٌّ أسْفَلُ مُنْحطٌّ إذا نزلَ عنْهُ درجَةً واحدةً الْتحقَ عند البلغاء بأصواتِ الحيوانات.

وبين الحدّ الأعلىٰ والحدّ الأسفل مراتب ودرجاتٌ كثيراتٌ يتعذّرُ على الناس إحصاؤها.

بلاغة المتكلّم في الاصطلاح:

هي ملكَةٌ «أي: صفةٌ ثابتةٌ مستقرّة في ذاتِ المتكلّم» يستطيع بها تأليف كلامٍ بليغ.

ولمّا كان كلُّ كلام بليغٍ لا بدّ أن يكون فصيح المفردات والْجُمَل كان كلُّ كلامٍ بليغٍ كلاماً فصيحاً، وَكانَ كلُّ متكلِّمٍ بليغٍ متكلّماً فصيحاً.

لكن قد يكون الكلام فصيحاً وَلا يكون بليغاً، لأنّ الفصاحة أعمُّ، والبلاغةَ أخصُّ دائماً، فكلُّ بليغٍ فصيحٌ، كلاماً أَوْ متكلّماً، وليْسَ كلُّ فصيحٍ بليغاً[(١)]، فالكلام الفصيح لا يكونُ كلاماً بليغاً حتّى يكون مطابقاً لمقتضىٰ حالِ المخاطب به.

عناصر البلاغة في الاصطلاح:

ممّا سبق يتبيّن لنا أنّ البلاغة ترجع في أصولها العامة إلى تحقّق العناصرالسّتّةِ التالية:

العنصر الأول: الالتزام بما ثبت في متن اللّغة وقواعد النحو والصرف، واختيارِ الفصيح من المفردات والْجُمَل والقواعدِ.

العنصر الثاني: الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد.

العنصر الثالث: الاحتراز عن التعقيد في أداء المعاني المرادة، سواء من جهة اللّفظ أو من جهة المعنى.

---

(١) بين الفصاحة والبلاغة عمومٌ وخصوصٌ مُطْلَقٌ، بحسب اصطلاح علماء المنطق.

العنصر الرابع: انتقاء الكلمات والعبارات الجميلة، الّتي يُدْرِكُ جمالَها الحسُّ المرهف، والذّوْقُ الرفيع لدى البلغاء.

العنصر الخامس: تصيُّد المعاني الجميلة، وتقديمها في قوالب لفظيّةٍ ذاتِ جمالٍ.

العنصر السادس: تزيين الكلام بالمحسِّنَات التي تَسْتَثِيرُ إعجاب المخاطَبِين.

والمحسّنَاتُ التي تُزَيّنُ الكلامَ وتَزِيدُه جمالاً لا تُحْصَرُ، وباستطاعة الموهوبين أن يبتكروا فيها دواماً أشياء جديدةً لم يتوصَّلْ إليها البلغاء السّابقون من الناس.

• • •

عِلْمُ المَعَـــانِي

وفيه خمسة أبواب:

الباب الأول : مدخل إلى علم المعاني.

الباب الثاني : أحوال عناصر الجملة من الذكر والحذف، والتقييد وعدمه، والتعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، ومخالفة مقتضىٰ الظاهر في التعبير.

الباب الثالث : الْقَصْر.

الباب الرابع : الْفَصْلُ والْوَصْل.

الباب الخامس : الإِيجاز والإِطناب والمساواة.

البَابُ الأوَّل

مدخل إلى علم المعاني

وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول : مقدّمات حول الكلمة والجملة العربيّة، ونشأة علم المعاني.

الفصل الثاني : بناء الجملة في اللّسان العربـي وتقسيمها.

الفصل الثالث : الجملة الخبرية وأحوالها.

الفصل الرابع : الجملة الإنشائية وأقسامها.

الفَصلُ الأوّل

مقدمات حول الكلمة والجملة العربيّة ونشأة علم المعاني

(١)
مقدمة

● النحويّ يبحث في الكلام العربـي من جهة إعراب مفرداته وجُمَله، وما يجب في تراكيب الجمل البسيطة والْمُرَكّبَةِ كجُمَلِ الشرط، وما يجوز فيها من تقديم أو تأخير، وما يجوز في الكلام من ذكر أو حذف أو نيابة، مع تحديد أصول المعاني التي تدلُّ عليها صِيَغُ الأسماء والأفعال ومشتقّاتها، ومتعلقات الفعل، وأصول المعاني التي تدلُّ عليها حروفُ المعاني.

● والصَّرْفيّ يبحث في الكلمة العربيّة من جهة بنائها وضوابطه في اللّسان العربـي، وفي المعاني الأصول التي وُضعت صِيغُ الكلمات للدَّلالة عليها.

● ويشارِكُ النّحْويُّ الصرفيَّ في بعض ما هو مختصٌّ به، وقد يشارك الصّرْفيُّ النحويّ في بعض مسائله الخاصة به.

● أمّا عالم البلاغة فيوجّه اهتمامَه حَوْلَ الكلمة والجملة العربية للمعاني التي تدلُّ عليها صِيَغُ الكلمات، وأُصُول التراكيب وفروعها، وللمعاني الّتي يَدُلُّ عليها التقديم والتأخير في مواضع الكلماتِ عمّا هو الأصْلُ في التراكيب، وللمعاني التي

يَدُلُّ عليها الذِّكْرُ والحذف، والاقتصارُ، وَوَضْعُ نوع من الكلام بدَلَ نوعٍ آخر، كظاهر بدل مضمر، ومُضْمَرٍ بدَلَ ظاهر، واسْمِ موصول بدل اسم جنس، أو اسْـمِ عَلَمٍ، وغير ذلك ممّا فيه دلاَلَةٌ على معنىً يمكن بحسب الاستعمال العربـيّ أنْ يُدَلَّ به عليه، ممّا قَصَد به بُلَغاءُ أهل اللّسان الدلالةَ به عليه.

وقد وجّه علماء البلاغة اهتمامهم لهذه الأمور ضِمْن أمور أخرى احتفلوا بها، بغية التنبيه على معالم المنهج الأمثل للناطق العربـي، كَيْما يُحْسِنَ تدبُّر النصوص الرفيعة، وفَهْمَ صُوَرِ الآداب الراقية ونقْدَها، وكيْمَا يتدرّبَ المؤهَّلُ للارتقاء في إنْشاء وارتجال الكلام الفصيح البليغ الراقي بعناصره الأدبيَّة، حتى يكون أديباً فصيحاً بليغاً منضبطاً مع أساليب اللّسان العربـيّ، في الذكر والحذف، والتقديم والتأخير، والإظهار والإضمار، واختيار نوع دون غيره من أنواع الكلام، وانتقاء المفردات بعناية، وتجويد التراكيب وتَحْسِينها، وتصفيف الكلمات والْجُمَل بدقة، لتَبْلُغَ الْمَبْلَغ المطلوبَ من التأثير في الّذين يَتَلَقَّوْنَ كلامه، معَ دلالته على ما يريد من معانٍ بحسَب قواعد دلالاتها الصريحة أو الضمنيّة أو اللُّزومية، حتَّى مُسْتَوىٰ الإشارَةِ والرّمْزِيّة.

ومن هذا نشأ عند البلاغيين ما يسمَّىٰ بعلم المعاني.

* * *

(٢)
تعريف علم المعاني

هو علْمٌ يعرف به أحوال الكلام العربـيّ التي تهدي العالمَ بها إلى اختيار ما يُطَابقُ منها مقتضى أحوال المخاطبين، رجاء أن يكون ما يُنْشِىءُ من كلامٍ أدبـيٍّ بَلِيغاً.

ويدور هذا العلم حول تحليل الجملة المفيدة إلى عناصرها، والبحث في أحوال كلّ عنصر منها في اللّسان العربـيّ، ومواقع ذكره وحذفه، وتقديمه وتأخيره، ومواقع التعريف والتنكير، والإطلاق والتَّقْيِيد، والتأكيد وعدمه، ومواقع الْقَصرِ وعَدَمه، وحَوْلَ اقتران الجمل المفيدة ببعضها، بعطف أو بغير عطف، ومواقع كلٍّ منهما ومقتضياته، وحول كون الجملة مساوية في ألفاظها لمعناها، أو أقلَّ منه، أو زائداً عليه، ونحو ذلك.

• • •

الفَصْل الثاني

بناء الجملة في اللّسان العربـي وتقسيمها

(١)
تعريـف الجملـة

الجملة المفيدة كلامٌ تامٌ يَدُلُّ على معنىً أقلُّه نسبةُ شيءٍ إلى شَيْءٍ إثباتاً أو نفياً، أو إنْشاءُ ربْطٍ بينَ شيءٍ وشيءٍ آخَرَ يكفي لإنشائِهِ الْقَوْلُ، مثل أمْر التكوين، أو الأمْرِ بفعلٍ ما.

والجملة المفيدة تسمَّى عند علماء المنطق «قضيّة» وأقلُّ مَا تتألف منه الجملة عنصران يُعَبَّرُ عَنْهُما باللفظ، وهما:

(١) مُسْنَدٌ إليه، ويُسَمَّى محكوماً عليه، ويُسمّىٰ عند علماء المنطق موضوعاً.

(٢) ومُسْنَدٌ، ويُسمَّىٰ محكوماً به، ويُسمَّىٰ عند علماء المنطق محمولاً.

ويلاحظ بين المسند إليه والْمُسْنَدِ شيءٌ ثالثٌ هو الإسنادُ، وهو الرابط المعنويُّ بينهما، وقد يُوجد في اللفظ ما يدلُّ علَيْهِ، كحركة الإعراب، وكضمير الفصل بين المبتدأ والخبر.

(٣) ويُلْحَقُ بالجملة المفيدة توابعُ المسند إليه والْمُسْندِ إنْ وُجدَتْ، فمنها المفاعيل، والأدواتُ، وما يَدُلُّ عَلىٰ القيود لأرْكان الجملة، كالصفات والأحوال والقيودِ الزمانيّة والمكانيّة.

ولا تتم جملةٌ مفيدةٌ بأقَلَّ من مُسْنَدٍ، ومُسْنَدٍ إليه، وإسنادٍ يُلاحظُ ذهْناً بينهما.

* * *

(٢)

تحليل بناء الجملة على اختلاف وجوهها

الجملَةُ الكلاميَّةُ بناءٌ من كلمتين فأكثر من أصول الكلمات الثلاث: «الاسم والفعل والحرف ذي المعنى».

ودلالة الكلمة في بناء الجملة تكون بواحد من الأمور التالية:

الأول: الوضع اللُّغوي الأوّل، أو الوضع الاصطلاحيّ كمصطلحات العلوم.

الثاني: ما تَطَوَّر إليه الوضع باستعمال أهل اللّغة، أو في العرف العام.

الثالث: ما يجري في الكلمات من استعارات ومجازات جرىٰ بها أو بنظائرها لسانُ أهل اللّغة.

الرابع: ما تَحْمِلُهُ الكلماتُ من دلالات لزوميّة ذهنية، تُدْرِكُ بالذهن من معانيها، كالأمر بالعلم الذي يستلزم ذهناً اتّخاذ وسائله.

الخامس: ما في الكلام المذكور من إشارات تدلُّ على محذوفٍ يقتضيه الكلام، كحرف عطف ليس في الكلام المذكور ما يُعْطَفُ به علَيْه.

السادس: نيابة مذكور عن محذوف، بدلالة قرينةٍ ذهنيَّةٍ أو لفظيّة، كنائب الفاعل مع قرينةِ بناء الفعل على الصيغة الخاصّة بما لم يُذْكَرْ فاعِلُه.

السابع: اقتران كلمة بكلمة مع حركة إعرابٍ ظاهرة أو مقَدَّرة، كحال المبنيّات من الأسماء، أو دون حركة إعراب كحال الحروف التي لا محلَّ لها من الإعراب، عاملةً بغيرها أو غير عاملة.

* * *

(٣)

أصول المعاني التي يُدَلُّ عليها بالألفاظ في الجملة الكلامية

بعد ملاحظة إرادة التعبير في الجملة الكلاميّة عن ربط شيءٍ بشيء لعلاقةٍ ما قامت بينهما، كالأكل والآكل، والنوم والنائم، والجمالِ والجميل، والْقِدَمِ والْقَدِيمِ، والحدوثِ والحادث، والوجود والموجود، والعدم والمعدوم، وأيّةِ صفةٍ والموصوف بها، وأيِّ حدثٍ ومَنْ فعله أو قام به، وزمانِ الحدث، ومكانِه، وآلته، وسببه، والباعث إليه، والغاية منه، وحُدود كلّ شيءٍ يُشار إليه بالعبارة الكلاميّة من كلّ ذلك، وقيودِهِ الوصفية الثابتة والمتحوّله، تظهر لنا مِنْ أصول المعاني التي يرادُ الدّلالة عليها بالألفاظُ طائفة يَسْهُلُ تمييزها وإحصاؤها، وتَبْقَىٰ طائفةٌ أخرى يصْعُبُ وضْعُها في مواضِعِها من الشجرة الفكريَّة لأصول المعاني.

وأكتفي هُنَا بتوجيه نظرات تحليليّة لبعض أصول هذه المعاني، وتفرُّعها من شَجَرَتِها الفكريّة.

وأرى أنّها تبدأ من تلاقي زَوْجين: الشيء الّذي يُتَصَوّرُ أنَّهُ يقوم بنفسه، وهو ما يطلق عليه في اصطلاح الفلاسفة «الجوهر» والوصف الذي يُتَصَوَّرُ أنّه لاَ يقوم بنفسه، وهو ما يُطْلق عليه في اصطلاح الفلاسفة «الْعَرَض».

وتدعو الحاجة في الكلام إلى أن يُعَبَّر به عن الشيء والوصف الذي قام به، أو عن الوصف والموصوف به، وهنا تظهر لنا أدنىٰ النِّسبِ التي يُعَبَّر عنها بالكلام، فذكر شيء ما يستدعي ذكر الصفة الّتِي دعت إلى ذكره، وذكر وصفٍ ما يستدعي ذكر الموصوف به.

فظهر لنا بهذا عنصران أساسان هما من أصول المعاني التي يُعَبَّر عنها بالكلام.

● الشيء. « = الجوهر » وهو يشمل الفاعل والمفعول به من حيث المعنى.

● ووصفه. « = العرض ».

ويتمّ ربط العلاقة بينهما بإسناد أحدهما إلى الآخر في الجملة الكلامية، وهذه هي أدنىٰ النِّسَبِ الّتي يُعَبَّرُ عنْها بالكلام.

ثمّ قد تدعو الحاجة البيانيّة إلى تحديد الشيء « = الجوهر » بالقيود الّتي تُميِّزُه عن غيره قَبْلَ أو مع إسناد الوصف إليه، لتُعْرَف حقيقة الموصوف، وكذلك قد تدعو الحاجة البيانية إلى تحديد الوصف « = العرض » بالقيود التي تميِّزُه عن غيره.

فظهر بهذا ما يُعْرَفُ بقيود المسند إليه، كالوصف، والحال، والتمييز ونحو ذلك.

وظهر أيضاً ما يُعْرَفُ بقيودِ الْمُسْنَدِ، فعلاً كان، أو خبراً أو نحوهما، كالحال، وقيود الزمان والمكان.

ثم نلاحظ أنّ الوصف « = العرض » قد يكون ملازماً للموصوف « = الجوهر » وقد يكون حَدَثاً طارئاً، كالحركة والسكون، والحرارة والبرودة، والحدث لا بدّ له من ظرف زمانٍ حدَث فيه، أو يَحْدُث فيه، ومفاصل الزّمن الكبرىٰ التي يُعبَّر عنها بصِيَغِ الأفعال هي: «الماضي والحاضر والمستقبل» وهنا ظهرت الحاجة في الكلام إلى بيان الظرف الزماني بصيغة الكلمة، كالفعل الماضي والمضارع.

وظهرت الحاجة أيضاً للتعبير عن الزمان بمادة الكلمة، كالزمان، والحين، والدهر، والساعة، واليوم، والشهر، ونحو ذلك.

ثم نلاحظ أنَّ كل شيء من الأشياء المخلوقة ومعها أوصافُها القائمة بها، والأحداث الجارية فيها أو الصادرة عنها، لا بدّ أن تكون في ظرفٍ مكاني. وهنا ظهرت الحاجة في الكلام إلى بيان الظرف المكاني.

وبالظرف الزمانيّ والظرف المكانيّ وُجد في الكلام ما يُسمَّىٰ المفعول فيه زماناً أو مكاناً.

ثم نلاحظ أنّ إحداث الحدث قد يكون بسبب أو بآلَة، وبهذا ظهرت الحاجة في الكلام أحياناً إلى بيان السبب أو الآلة، ومِن ثَمَّ جاء في الكلام ما يدلُّ على السبب والآلة.

ونلاحظ أيضاً أنّ الحدث المقصود إنّما يكون بباعثٍ ولغايَةٍ، ومن هذا ظهرت الحاجة في الكلام أحياناً إلى بيان الباعثِ للحدث، والغاية منه، فجاء في الكلام ما يدلُّ على ذلك، ومنه ظهَرَ في الكلام ما يسمَّىٰ «المفعولَ لأجله».

ونلاحظ أنه قد يقترن الحدث بحدث آخر، وقد تدعو الحاجة أحياناً في الكلام إلى بيان الحدث المقارن للحدث المراد بيانه أصلاً، ومن هذا ظهر في الكلام ما يُسمَّىٰ «المفعول معه».

وتنفعل النفس الإنسانية بأحاسيس مختلفة يُرِيدُ الإنسان التعبير عنها بالكلام، فظهر في الكلام ما يدلّ على بعض هذه الأحاسيس الأصول، مثل: التَّوَجُّع، التَّفَجُّع، التَّعَجُّب، الْمَدْح، الذَّمّ، التَّحْذِير، الإغْراء، الاسْتِفْهَام، الإثبات، النفي، التأكيد.

إلى غير ذلك من أحاسيسَ ومعانٍ أصولٍ يرادُ التعبير عنها بصيغٍ خاصّة، أو كلماتٍ خاصّة، كعبارات التوجع والتفجُّع، وفِعْلَي التعجّب، وأفعال المدح والذّم، وصيغ التحذير والإغراء، وأدواتِ الاستفهام، وأدوات النفي، والمؤكّدات.

* * *

(٤)

ترتيب الجملة في اللّسان العربـي

إذا أردْنا أن نصوغ جملة نبيّن فيها طلوع القمر أو عدمه، وجدنا أنفسنا أمام عَددٍ من الاحتمالات، مثبتين أو نافين:

(١) طلَعَ القمر، ما طلع القمر.

(٢) القَمَرُ طَلَع، القمَرُ ما طلع.

(٣) القَمَرُ طَالِـعُ. القمر غير طالع، ليس القمر طالعا.

(٤) ما طالعٌ القمر.

ولكن هل هذه الصيغ تقع في درجةٍ واحدةٍ من البيان، أم هي مختلفة، مع جوازها جميعاً في اللّسان العربـي؟

يقول النحويّ هذه كلّها جائزة، ولكلٍّ منها عندي تخريجٌ إعرابـي.

لكنّ البلاغيّ يقول: إن صِيَغَ «طَلَعَ القمر ــ ما طَلَع القمر ــ ما طالعٌ القمر» تقال في مقام الإخبار الابتدائي الذي لا حاجة فيه إلى تأكيد، أما صِيَغ «القَمَرُ طَلَع ــ القمرُ ما طَلَع ــ ليس القمرُ طَالعاً» فتقال في مقامٍ يحتاج فيه الخبر إلى نوع تأكيد، فإذا لم تكن حال المخاطب تقتضي تأكيداً فلا داعي لاستخدام هذه الصّيغ، إذْ جاء فيها إسناد الطلوع إلى القمر مرّتين، فالقمر فيها مبتدأ أو أصله مبتدأ، وفعل طَلَع مُسْنَدٌ إلى ضمير يعود على المبتدأ، والجملة هي خبر المبتدأ، واسم الفاعل «طالعاً» كالفعل يحمل ضميراً يعود على القمر.

فتغيير الترتيب في أركان الجملة نَجَمَ عَنْه إضافَةُ دلالة، فَعَلَىٰ الْبَلاَغِيّ أن يُلاحظها لدى إنشاء الكلام، ولدى فهم النصوص البليغة الرّفيعة.

ولركني الإسناد الرئيسين في الجملة الكلاميّة توابع، منها المفعول به،

وموضعه الأصليّ في الجملة العربية بحسب ترتيب الكلام المعتاد يأتي بعد الفاعل، على الوجه التالي:

(١)	(٢)	(٣)
فعل	**فاعل**	**مفعول به**
مثل: أكل	الذئبُ	الحَمَلَ

قال النحاة: ويجوز تقديم المفعول به على الفاعل، ويجوز تقديمه أيضاً على الفعل، إلاَّ عند اللَّبْس.

فيقال: أكَلَ الْحَمَلَ الذّئبُ.

ويقال: الْحَمَلَ أكَلَ الذئبُ.

ويقال: رفَعَ سعيدٌ طناً من الحديد.

ويقال: طناً من الحديد رفع سعيد.

لكنّ البلاغيين قالوا: إنّ مخالفة الأصل في ترتيب بناء الجملة، واستخدامَ ما يجوز فيها بحسب استعمال العرب، هو في الغالب لغرض تأدية معنىً من المعاني، لا لمجرَّدِ استخدام احتمالات جائزة، باستثناء حالة الضرورة الشعريّة، أو حاجة توازن الجمل وتناسُقِها، ومراعاةِ السَّجْع أو القوافي، ضمن أغراضٍ جماليّةٍ في الكلام.

فتقديم المفعول به عن رتبته، ولا سيّما تقديمُهُ على الفعل الذي هو صَدْرُ الجملة الفعليّة ينبغي أن يكون لغرض، وهو الدّلالة على معنىً ما، كالتخصيص، أو الحصر، أو بالغ الاهتمام، أو نحو ذلك.

ورُتَبُ عناصر الجملة تشبه رُتَب جلساء رئيس القوم، فإذا قدَّم الرئيس إلى جواره من هو في العادة يجلس بعيداً عنه بحسب رتبته، فإنما يُقَدِّمه لغاية يفهمها الفطناء، فإذا وضعه في موضع وزيره الأول، أدرك أهل الفطانة أنّه مُهْتَمٌّ به وبتكريمه، أو أنّه سوف يستوزره.

(٥)

معالم الترتيب في عناصر الجملة عند النحاة

قال النحويون:

الأصل في الفاعل أن يتّصل بفعله لأنّه كالجزء منه، ثم يأتي بعده المفعول به، وقد يُعْكَسُ الأمر، وقد يتقدّم المفعول به على الفاعل والفعل معاً، وكلٌّ ذلك: إمّا جائزٌ، وإمّا واجب، وإمّا ممتنع.

● فيجوز تقديم المفعول به على الفاعل وتأخيره عنه في نحو: «كتب زُهيرٌ الدرسَ ـ كتبَ الدّرْسَ زُهَيرٌ».

● ويجب تقديم أحدهما على الآخر في خمسة أحوال:

(١) إذا خُشِي الالتباسُ والوقوعُ في الشّكّ، بسبب خفاء الإعراب، مع عدم قرينة، فلا يُعْلَم الفاعل من المفعول به، فيجب تقديم الفاعل، مثل: «علَّمَ مُوسَىٰ عيسَىٰ ـ أكْرَمَ ابني أخي ـ غَلَبَ هٰذَا ذَاكَ».

فإذَا أُمِنَ اللَّبْس لقرينة دالّة جاز تقديمُ المفعول به، مثل: «أكْرَمَتْ مُوسَىٰ سَلْمَىٰ ـ أضْنَتْ سُعْدَى الْحُمَّى».

(٢) أَنْ يتصل بالفاعل ضمير يعود على المفعول به، فيجب تأخير الفاعل وتقديم المفعول به، مثل: «أكرَمَ سعيداً غُلامُه ـ وإِذِ ابْتَلَىٰ إبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ـ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ».

وما ورد على خلاف ذلك فضرورة شعريّة.

(٣) أن يكون الفاعل والمفعول به ضميريْن، ولا حَصْر في أحدهما، فيجب تقديم الفاعل وتأخير المفعول به، مثل «أطعمتهُ وسقيته».

(٤) أن يكون أحدهما ضميراً متّصلاً والآخر اسماً ظاهراً، فيجب تقديم الضمير منهما.

- فيُقَدَّمُ الفاعل وُجوباً في نحو «أكرمت عليّاً».
- ويُقدَّمُ المفعول به وجوباً في نحو «أكرمَني عليٌّ».

(٥) أن يكون أحدهما محصوراً فيه الفعل بحرف «إلاّ» أو بحرف «إنّما» فيجب تقديم ما حُصِر فيه الفعل، سواءٌ أكان مفعولاً به، أَمْ فاعلاً، مثل: «ما أكرمَ سعيدٌ إلاّ خالداً ــ ما أكرمَ خالداً إلاّ سعيدٌ ــ إنّما أكرم سعيدٌ خالداً ــ إنّما أكرمَ خالداً سَعِيدٌ».

* * *

وقال النحويون:

يجوز تقديم المفعول به على الفعل والفاعل معاً، في نحو: «عَلِيّاً أكْرَمْتُ» ومنه قول الله تعالى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

ويجب تقديمه عليهما في أربعة أحوال:

(١) أن يكون المفعول به اسمَ شرط، مثل: أَيَّهُمْ تكْرِمْ أكرم ــ ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرعد: ١٣].

أو مضافاً إلى اسم شرط، مثل: هَدْيَ مَنْ تَتْبَعْ يَتْبَعْكَ بَنُوكَ. والسبب أنّ اسم الشرط له الصدارة في الجملة.

(٢) أنْ يكون المفعول به اسمَ استفهام مثل: مَنْ أَكْرَمْتَ؟ ــ مَا فعلْتَ؟ ــ كَمْ كتاباً اشترَيْتَ؟ ــ ﴿فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾ [غافر: ٤٠].

أو مضافاً لاسم استفهام مثل: كِتَابَ مَنْ أَخَذْتَ؟

والسبب أنّ اسم الاستفهام له الصدارة في الجملة.

(٣) أن يكون المفعول به لفظ «كم» أو «كأيّن» الخبريَّتَيْن، مثل: «كَمْ كتاب ملكتُ ـ كَمْ عِلْمٍ حَوَيْتُ ـ وكَمْ عُلَماءَ تخرجُوا في مَدْرَسَتِي ـ وكأيّنْ من قصيدَةِ شعْرٍ كَتَبْتُ».

أو مضافاً إلى «كم» الخبريّة، مثل: «ذَنْبَ كَمْ مُذْنِبٍ غَفَرْتُ».

(٤) أن ينصب المفعولَ به جوابُ «أمَّا» وليسَ لجوابها منصُوبٌ مُقَدَّمٌ غيْرُهُ، مثل: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ـ وأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾.

وإنّما وجب تقديمُهُ في هذه الحالة ليكون فاصلاً بين «أمّا» وجوابها، فإذا وُجد فاصلٌ غيره فلا يجب تقديمه، مثل:

لَقَدْ كُنَا نَخَافُ عَصَاكَ يَوْماً   فَأَمَّا الْيَوْمَ فَافْعَلْ مَا بَدَا لَكْ

* * *

وقال النحويون:

إذا تعدّدت المفاعيل في الكلام فَلِبَعْضِهَا الأصالة في التقدُّمِ على بعض.

- إمّا بسبب كونه مبتدِأً في الأصل، كما في باب «ظنّ».
- وإمّا بسبب كونه فاعلاً في المعنى، كما في باب «أعطى».

فمفعولا «ظنّ» وأخَوَاتِها، أصلُهُما مبتدأ وخبر، فإذا قلت مثلاً: «عَلِمْتُ اللَّهَ رَحيماً» فالأصل: «اللَّهُ رحيم».

ومفعولا «أعْطَىٰ» وأخواتها ليس أصلهما مبتدأً وخبراً، غير أن المفعول به الأول هو فاعل في المعنى، فإذا قلتَ مثلاً: «ألبَسْتُ الفقير ثوباً» فالفقير فاعلٌ في المعنى، لأنَّهُ هو الذي لَبِسَ الثوبَ، والثوبُ ملبوسٌ.

بناءً على هذا فالأصْلُ تقديم ما أصله المبتدأ في باب «ظنّ» وما أصله الفاعل

في باب «أعْطَىٰ» مثل: «ظَنَنْتُ الْبَدْرَ طالعاً ــ أعطيت سعيداً الكتاب ــ كَسَوْتُ الفقِيهَ جُبَّةً».

قالوا: ويجوز العكسُ إنْ أُمِنَ اللَّبْسُ.

ويجب تقديم أحد المفعولين على الآخر في أربعة أحوال:

(١) أنْ لا يُؤْمَنَ اللَّبْسُ، فيجب تقديم ما حقُّه التقديم، وهو ما كان مبتدأ أو فاعلاً في المعنى، مثل:

● «ظننتُ سعيداً خالداً» إذا كان سعيدٌ هو المظنون أنه خالد، وإلاَّ وجب تقديم خالد. «وهو من باب ظنّ».

● قول ذي السلطان: وهبتُ الأَبَ ابْنَهُ، إذا كان الابن هو مستحقّ العقاب فعفا عنه من أجل أبيه، وإذا كان الأب هو مستحقّ العقاب، قال: وهبتُ الابْنَ أباه. «وهو من باب أعطى».

(٢) أن يكون أحد المفعولين ضميراً والآخر اسماً ظاهراً، فيجبُ تقديمُ ما هو ضميرٌ وتأخيرُ ما هو ظاهر مثل: «أعطيتُكَ فرساً ــ فرساً أعطيتُهُ سعيداً».

(٣) أن يكون أحد المفعولين محصوراً فيه الفعل، فيجب تأخير المحصور سواءٌ أكان المفعولَ الأوّلَ أم الثاني، مثل: «ما أعطيت سعيداً إلاَّ دِرْهماً ــ ما أعطيتُ الدّرْهَمَ إلاَّ سعيداً».

(٤) أن يكون المفعول الأوّل مشتملاً على ضميرٍ يعودُ على المفْعول الثاني، فيجب تأخير الأوّل وتقديم الثاني، مثل: «أعْطِ الْقَوْسَ بَارِيَهَا».

إذْ لو قُدّم المفعول الأوّل في هذه الحالة لعاد الضمير على متأخّر لفظاً ورُتبةً، باعتبار أنّ المفعول الثاني رتبتُه التأخير عن المفعول الأول.

ولا يصحُّ في اللّسان العربـي عوْدُ الضمير على متأخّر لفظاً ورتبةً معاً، إلاَّ في نحو ضمير الشأن والقصة.

هذه مقرّرات علماء النحو بالنسبة إلى ترتيب عناصر الجملة فيما يتعلّق بالفعل والفاعل والمفاعيل.

* * *

وقال النحويّون:

يجب تقديم المبتدأ في ستة أحوال:

(١) أن يكون المبتدأ من الأسماء التي لها صدْرُ الكلام، مثل:

- أسماء الشرط.
- أسماء الاستفهام.
- «ما» التعجبيّة.
- «كَمْ» الخبرية.

(٢) أن يكون المبتدأُ مُشَبَّهاً باسم الشرط، مثل: «الذي يجتهد فَلَهُ جائِزَةٌ ــ كلُّ تلميذٍ يَجْتَهِدُ فَهُو مؤهَّلٌ للنجاح».

(٣) أن يضافَ المبتدأ إلى اسم له صَدْرُ الكلام، مثل «غُلاَمُ مَنْ هُو؟ ــ زِمَامُ كَمْ مَدْرَسَةٍ في يَدِ وزير التربية؟».

(٤) أن يكون المبتدأ مقترناً بلام التأكيد، وهي لام الابتداء، مثل: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢١].

(٥) أن يكون كلٌّ من المبتدأ والخبر معرفةً أو نكِرَةً، ولا تُوجَدُ قرينة تُعَيِّنُ أحَدَهُمَا، فيجب تقديمُ المبتدأ خشية التباس الْمُسْنَد بالْمُسْنَدِ إليه، لأنّ الأصل في ترتيب المبتدأ أن يكون قبل الخبر، مثل:

- «أخوك عليٌّ» إذا أردتَ الإخبار عن الأخ.

● «عليٌّ أخوك» إذا أردتَ الإخبار عن عليّ.

(٦) أن يكون المبتدأ محصوراً في الخبر، مثل:

● ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ . . . ﴾[آل عمران: ٣/ ١٤٤].

● ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [هود ١١/ ١٢]، أي: ما أَنْتَ إلاّ نَذِيرٌ.

فالمبتدأ في المثالين محصورٌ في الخبر.

* * *

وقال النحويّون:

يجب تقديم الخبر على المبتدأ في أربعة أحوال:

(١) إذا كان المبتدأُ نكرةً غير مفيدةٍ ومُخْبَراً عنْها بظرْفٍ أو جارٍّ ومَجْرُورٍ، مثل: «في الدار رجُلٌ ــ عندكَ ضيفٌ ــ لَدَيْنَا مَزِيدٌ ــ على أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ».

(٢) إذا كان الخبرُ اسْمَ استفهام، مثل: «كيفَ حَالُكَ؟» أو مضافاً إلى اسم استفهام، مثل: «ابنُ مَنْ أَنت؟ ــ صبيحةَ أيِّ يَوْمٍ سَفَرُكَ؟».

(٣) إذا اتّصَل بالمبتدأ ضمير يَعُودُ على شيءٍ من الخبر، مثل: «في الدار صاحبُها ــ مِلْءُ عَيْنٍ حَبِيبُها ــ أَمْ عَلَىٰ قُلوبٍ أقْفَالُها».

(٤) أن يكون الخبر محصوراً في المبتدأ، مثل:

● «مَا خالقٌ إلاَّ الله».

● «إنّما محمودٌ مَنْ يَجْتَهِد» أي: ما محمودٌ إلاَّ مَنْ يجتهد.

● «إنّما الخالقُ الله» أي: ما الخالقُ إلاَّ الله.

هذه مقررات النحويّين بالنسبة إلى ترتيب عنصري الجملة الاسمية.

* * *

وقال النحويّون:

الأسماءُ التي لها الصدارة في الجملة، فلا يتقدَّمُها إلاَّ جارٌّ لها، أو مضافٌ إليها، أو حُروفُ العطف؛ هي:

(١) أسماء الاستفهام.

(٢) أسماء الشرط.

(٣) «ما» التعجبيَّة.

(٤) «كم» الخبرية.

* * *

وقال النحويّون:

إذا اجتمعت التوابع في جملة واحدة قُدِّمَ منها:

(١) النعـت.

(٢) فعطف البيان.

(٣) فالتوكيـد.

(٤) فالبـدل.

(٥) فعطف النَّسَق، وهو ما كان بحرف عطف.

مثل: «بعثَ اللَّهُ الرَّسُولَ العربـيّ محمّداً نَفْسَه أخَا بَنِي إسْحَاقَ والرَّسُلَ والنبيّينَ مِنْ قَبْلِه».

* * *

(٦)

نظر الأديب البليغ حول مراعاة ترتيب عناصر الجملة

إذا كان نظر علماء النحو إلى ترتيب عناصر الجملة هو على النحو الذي سبق بيانه، فإن نظر الأديب البليغ لا يكتفي بالتقيُّد بما يجوز في التراكيب العربيّة،

فيستخدمُها كيفما اتفق، بَلْ يَنْظُر إلى دَلالاتها، وإلى المعاني التي تُؤدّيها مُخْتَلِفَاتُ التراتيب، والتركيبات، فيستَخْدِمُ منها ما يدُلُّ على ما يُرِيدُ التعبير عنه في كلامِهِ بأخْصَرِ عبارة، ويُحاوِل دواماً أن يطابِقَ بين اختياره منها وما يُرِيدُ التعبير عنه.

* * *

(٧)

دوائر عطاء الجملة الكلامية

الدائرة الصغرى:

أصغر دائرة عطاءٍ بيانيّ تقدّمه الجملة الكلامية يظهر بنسبة شيءٍ إلى شيءٍ.

- كنسبة الوجود إلى الأرض، فنقول: الأرض موجودة، أي: لها صفة الوجود، ففي هذه الجملة نَسَبْنَا الوجود إلى الأرض.

- وكنسبة العدم إلى شريك الباري، فنقول: شريك الباري معدوم، ففي هذه الجملة نسبنا العدَمَ إلى شريك الباري.

- وكنسبة الطلوع أو الأفول إلى القمر، فنقول: طَلَع القمر ـ أفل القمر.

- وكنسبة الموت إلى إنسان كان حيّاً فمات، فنقول: مات فيصل.

من هذه الأمثلة نُلاحظ أنّ ركناً من رُكْنَي كُلِّ جملةٍ فيها يتضمَّن معنىً هو شيءٌ منسوبٌ، وأنّ الركْنَ الآخر من ركنيها يتضمن معنىً هو شيءٌ منسوبٌ إليه معنى الركن الأول، وأنّ الألفاظ دوالُّ على المعاني.

فبالتحليل يظهر لنا ثلاثة عناصر:

الْعُنْصُر الأول: مَنْسُوبٌ.

العنصُر الثاني: منسوبٌ إليه.

العنصُر الثالث: نسبةٌ بينهما ذهنية، وقد يُدَلُّ عليها بلفظ، أو بحركة، وهذه النسبة هي الرابطة بين رُكني الجملة الكلامية.

والنسبة في الجملة قد تكون بالإثبات كالأمثلة السابقة، وقد تكون بالنفي، وذلك حين تدخل على الجملة أداةٌ من أدوات النفي، فنقول مثلاً: ما طلع القمر، وما مات إبليس، وصوت الحمار ليس جميلاً، ولاَ يَمْشِي الجماد.

وللتفريق بين رُكْنَي الجُمْلَةِ الرّئيسَيْنِ والنسبة الرابطةِ بينهما ظَهَرَتْ عدّة مصطلحات عند العلماء على اختلاف تخصُّصاتهم.

فـقـالـوا:

(١) المسند: وهو الخبر أو ما يَسُدّ مَسَدَّه في الجمل الاسمية، والفعل في الجمل الفعلية، أو مايَعْمَلُ عَمَلَه.

(٢) المسند إليه: وهو المبتدأ في الجمل الاسمية، أو ما أصله المبتدأ، والفاعل أو ما ينوب عنه في الجمل الفعلية.

(٣) الإسناد: وهو الرابطة الذهنيّة بين المسند والمسند إليه، وقد يُدَلُّ على الرابطة بنحو ضمير الفصل وحركة الإعراب.

ويوجد هذا الاصطلاح لدى علماء اللّغة العربيّة.

* * *

وقـالـوا:

(١) محكوم به «أي: مسند».

(٢) محكوم عليه «أي: مسند إليه».

(٣) والنسبة الحكمية «أي: الإسناد» وثمرة الجملة «الحكم» ويوجد هذا الاصطلاح لدى علماء أصول الفقه.

* * *

وقـالـوا:

(١) موضوع «أي: مسند إليه».

(٢) محمول «أي: مسند».

(٣) النسبة بينهما «أي: الإسناد».

والجميع «قضيّة» وثمرة القضية «الحكم» إيجاباً أو سلباً. ويوجد هذا الاصطلاح لدى علماء المنطق.

هذه مصطلحات متعدّدة ومُؤَدَّاها لدى الجميع واحد.

ومن الْجُمل في حدود هذه الدائرة الصغرى ما يكون المسند فيها باعتبار مادته لا يتحقق إلاَّ باجتماع مُسْنَدٍ إليه متعدّد، مثل:

«اشْتَرَكَ زَيْدٌ وَعَمْرو ـ اجتمع خالد وسعيد ـ جُمِـع الشَّمْسُ والقمر ـ تقاتل المسلمون والمشركون».

وهكذا كلُّ ما يقتضي بمادّته المشاركة بين فريقين من أفعالٍ وغيرها.

الدائـرة الثانيـة:

وهي الجملة التي تشتمل على دائرة عطاءٍ بياني يظهر بنسبة شيْءٍ إلى شيْئَيْن، أَحَدُهُمَا هو الذي اتّصفَ بالشيءِ من جهة كونه مُؤَثِّراً به «أي: فاعلاً». والآخر هو الذي اتّصفَ بالشيء من جهة كونه متأثّراً به (أي: مفعولاً به)، مثل: «ضرَبَ زيدٌ عَمْراً».

دلّت هذه الجملة على نِسْبة الضّرب إلى زيدٍ ووصفه به من جِهَةِ كونِه مؤثِّراً بالضّرْب (أي: ضارباً) ونِسْبَة الضرب نفسه إلى عَمْروٍ ووصفه به من جهة كونه مُتَأَثِّراً بالضرب (أي: مَضْروباً).

فبالتحليل الفكريّ يظهر لنا أنّ الضَّرْبَ ذو نسبتين:

(١) نسبته إلى فاعله المؤثِّر به فهو ضارب. «لذلك سمّوه فاعلاً».

(٢) نسبته إلى الواقع عليه المتأثِّر به فهو مضروب «لذلك سمَّوْهُ مفعولاً به».

ومثل: «خلق الله عزّ وجلّ الكونَ» فالخلق ذو نسبتين:

(١) أمّا فاعله والمؤثِّرُ به فهو الله عزّ وجَلَّ. «وهو الخالق».

(٢) وأمّا الواقِعُ عليه والمتأثِّرُ به فهو الكون. «وهو المخلوق».

هذا تحليل قول علماء العربيّة: الفعل قد يتعدّى إلى المفعول به. وأضيف أنّه لا فرق من جهة المعنى بمقتضى هذا التحليل أن يكون تَعَدِّي الفعل بدون وساطة، أو بوساطة حرف جرٍّ، مثل: عَلِمَ فلانٌ المسألة، وعَلِمَ بها.

الدائـرة الثالثـة:

وهي الجملة التي تشتمل على دائرة عطاءٍ بيانيّ يظهر بنسبة شيءٍ إلى ثلاثة أشياء.

الأوّل: هو الذي اتّصف بالشيء من جهة كونه مؤثراً به (أي: فاعلاً).

الثاني والثالث: هما اللّذان اتّصَفَا بالشيءِ من جهة كون كلٍّ منهما متأثِّراً به «أي: مفعولاً به» مع اختلاف صفة التأثّر.

مثل: «كَسَىٰ الأبُ ولَدَهُ ثَوْباً» فالكَسْوُ ذو ثلاثِ نِسَب:

(١) نسبتُه إلى فاعله المؤثِّر به فهو كاسٍ.

(٢) نسبته إلى الواقع عليه المتأثِّر به فهو مَكْسُوٌّ، وهذا المكسوّ له جهتان مختلفتان:

الجهة الأولى: كون المكسُوِّ آخذاً لِلْكُسْوة، لابساً لها.

الجهة الثانية: كون المكْسُوِّ مأخوذاً، مَلْبُوساً، وهو نفسه الكُسوة.

فصار بهذا للكَسْوِ في الجملة ثلاثُ نِسَبٍ مَقْصُودَةٍ بالبيان.

وقِسْ على هذا المثال أشباهَهُ، مثل «علَّمَ الأُسْتاذُ تلميذَهُ عِلْمَ النحو ــ أعطَى الْمُحْسِنُ الفقيرَ صَدَقَةً ــ وهَبَ الله أَيّوبَ أَهْلَهُ ومِثْلَهُم مَعَهُمْ».

الدائـرة الرابعـة:

وهي الجملة التي تشتمل على دائرةِ عطاءٍ بيانيّ يظهر بنسبة شيءٍ إلى أربَعَةِ أشياء.

الأول: هو الذي اتّصَفَ بالشيءِ منْ جهة كونه مؤثراً به (أي: فاعلاً).

الثاني والثالث والرابع: هي الأشياء الّتي اتَّصَفَتْ بالشيء منْ جهة كون كلٍّ منها متأثّراً به «أي: مفعولاً به» مع اختلاف صفة التأثُّر في كلٍّ منها.

مثل: «أَعْلَمَ اللَّهُ النَّاسَ مُحمّداً رَسُولاً» فالإعلام في هذه الجملة ذو أَرْبَعِ نِسَب:

(١) نِسْبَتُهُ إلى فاعله المؤثّر به، فهو مُعْلِمٌ بكَسْرِ اللام.

(٢) نسْبَتُهُ إلى الواقعِ عليه المتأثِّرِ به فهو مُعْلَمٌ بفتح اللاّم، وهذا المعلَمُ لَهُ ثلاث جهاتٍ مختلفات:

الجهة الأولى: كَوْنُ الْمُعْلَمِ مُسْتَفِيداً كاسباً لِلْعِلْم.

الجهة الثانية: كَوْن الْمُعْلَم أَحَدَ رُكْنَي القضيّة الّتي جرى الإعلام بها، وهو فيها مُسْنَدٌ إليه، وهو: «مُحَمّداً».

الجهة الثالثة: كون الْمُعْلَمِ أَحَد رُكْنَي القضيّة الّتي جرى الإعلام بها، وهو فيها مُسْنَدٌ، وهو: «رَسُولاً».

وأصلُ القضيّة التي جرى الإعلام بها هي: «مُحَمّدٌ رَسُولٌ».

فظهر بهذا التحليل أنّ الإعلام ذو أربع نِسَب.

* * *

الاقتصار على بيان بعض النسب:

بعد بيان هذه الدوائر الأربع لعطاء الجملة الكلاميّة، نلاحظ أنّه قد لا يستدعي موضوع الجملة أكثر من الدائرة الأولى، وقد يستدعي موضوعُها الدائرة الثانية، أو الدائرةَ الثالثة، أو الدائرة الرابعة.

ومع استدعاء موضوع الجملة أكثر من الدائرة الأولى، فقد يتعلّق غرضُ المتحدّث بالاقتصار على بعض النِّسَب وإغفال بيانِ ما يتعلّق بالنِّسَبِ الأُخرىٰ، وله ذلك متى أفاد بحديثه ما يريد إبلاغَهُ من الإِسناد، وأدناه الدائرة الأولى، ويكون فيها إسنادُ شَيْءٍ إلى شيءٍ بجملةٍ تُقَدِّمُ فائدةً ما. ودون ذلك يكون الكلام ناقصاً ولَغْواً.

ولا بُدَّ من ملاحظة أنَّ المحذوف المقدَّر الذي يُمْكن إدْراكُهُ وتصوُّرُهُ ذهْناً لوجود قرينة تدلُّ عليه لفظيّةٍ أو غير لفْظيّة، هو كالمذكور، ولدى علماء العربية والبلاغيّين ضوابط لذلك.

* * *

(٨)

نظرة حول ما يُسَمَّى فضلةً في الجملة عند النحويين

لعلّ ما يَصِفُه النحويون في الجملة الكلاميّة بأنه فضلَةٌ يقْصِدونَ به أنَّهُ عطاءٌ فكريٌّ زائدٌ على أصغر دوائر الجملة الكلاميّة المفيدة.

فالّذي أرَاه أنَّه لا تُوجَدُ في الجملة الكلامية كلمةٌ تُؤدّي معنىً مقصوداً بالبيان، لا تؤدّيه كلمةٌ أخرى غيرها تأديَةً مباشرةً، يَصِحُّ أن تُسَمَّىٰ لدى التحقيق فضلةً في علم المعاني، لأنّ الفضلةَ يَنْبَغي أنْ تُطْلَق على ما في الكلام من ألفاظٍ تدلُّ على معنىً هو زائدٌ على المطلوب بيانُه والتَّعْريفُ به.

فإذا قال النحويّون أو البلاغيّون تبعاً للنحويّين: إنّ ما زاد على رُكْنَي

الإسناد «المسند والمسند إليه» في الجملة الكلامية هو فضلة، كالمفاعيل وسائر متعلّقات الفعل، فَقَصْدُهُمْ من ذلك فيما أرىٰ أنّ الجملة المفيدة لا بُدَّ فيها حَتْماً مِنْ رُكْنَيْ الإسناد، وإلاّ كان الكلام غير مفيد، فما زاد على ذلك يعتَبَرُ زائداً على أدْنَى ما يَجبُ أَنْ تُبْنَىٰ بِه جملةٌ كلاميّةٌ مفيدة، لا أنّه زائد على ما يَقْصِدُ المتكلِّمُ بيانه.

إذْ كُلُّ فِكْرَةٍ دلَّ عليها لفظٌ في الكلام ــ مهما دقَّتْ هذه الفكرة ــ إذا كانت مقصودة بالبيان، فإنَّه يُمْكِنُ أن تُصَاغَ لأَجْلِها جُمْلَةٌ مفيدة من «مُسْنَدٍ ومُسْنَدٍ إلَيْه» وأن تكون هذه الجملةُ منفصلة مستقلّة، إلاَّ أنّ الاقتصادَ في التعبيرَ جعل الْجُمْلَةَ تَسْتَوْعِبُ بتعلّقاتِ الإسناد في المفاعيلِ، وبقيود الإسناد، وقيودِ الْمُسْنَدِ، وقيودِ الْمُسْنَدِ إليه عِدَّةَ جُمَلٍ، وهي لَوْ حُلِّلَتْ وَفُصِّلَتْ لكانت في بعضها جملتين، ولكانت في بعضها ثلاثَ جُمَلٍ، وفي بعضها أرْبعَ جمل، وخَمْسَةً وسِتَّةً وأكثر من ذلك، بعَدَدِ المتعلّقاتِ والقيود.

بهذا البيان التحليلي لا يصِحُّ أنْ نعتبر في مثل عبارة: «ضَرَبَ زَيْدٌ عَمْراً» أنَّ «عَمْراً» فضلة، لأنّ فكرةَ وقُوعِ ضَرْبِ زيْدٍ على عَمْروٍ فكرةٌ مقصودةٌ بالبيان، تُصَاغُ لَهَا جُمْلَةٌ خاصَّةٌ مفيدة، نَقُولُ فيها: «ضُرِبَ عَمْروٌ» أو «عَمْروٌ مَضْرُوبٌ»، وهكذا سائرُ متعلّقاتِ الجملة الكلاميّة وقيودُها.

أمّا الفضلة الحقيقيّة فهي الكلمة التي لا تُضِيفُ إلى معنى الجملة معنىً مقصوداً بالبيان، كالمترادفات المتتابعات في الجملة، وكزوائدِ التأكيد في الجملة التي لا يُرْفَعُ بِذكْرها تَوَهُّمُ المجاز أو الْغَلَطِ وسَبْقِ اللّسان، كأن تقول: «جاء القومُ أجمعون أكتعون أَبْصَعُون» فالمترادفاتُ الإطنابية، والمؤكّدات الإطنابيّة زوائد لم تُضِفْ جديداً، ولم ترفَعْ توهُّماً.

* * *

(٩)

مشجَّرات تحليليّة للجملة الكلاميّة

(أ)

الجملـة الكلاميّـة

الْمُسْنَد

ويأتي المسند في الجملة على وجوه:

- فعل.
- أو ما يقوم مقام الفعل.
- اسم مفرد أو ما يؤول به.
- جملة اسمية أو فعلية.
- شبه جملة (ظرف أو جار ومجرور).
- كلّ ما يقوم مقام ما تقدّم

وقد يتعدد المسند والمسند إليه واحد، فَيُسْتَغنىٰ بحرف العطف عن إنشاء جملة جديدة أو أكثر، مثل: «أكلَ وشرب ونام الأسد».

الإِسناد

وهو الربط بين ركْني الجملة بالاقتران مع علامة إعراب ظاهرة أو مقدرة، أو بضمير الفصل أحياناً.

وقد يظهر هذا الرابط في غير العربية بما يُسمَّى فعل الكون

الْمُسْنَد إليه

ويأتي المسند إليه في الجملة على وجوه:

- فاعل.
- مبتدأ.
- اسم كان وأخواتها.
- اسم إنّ وأخواتها.
- نائب الفاعل.
- كلّ ما يقوم مقام ما تقدم.

وقد يتعدّد المسند إليه والمسند واحد، فيُسْتَغْنى بحرف العطف عن إنشاء جملة جديدة أو أكثر، مثل: «أكل الأسد والذئب والثعلب والنَّسْرُ».

وقد يتعدَّد كلٌّ من المسند والمسند إليه مع تماثل النسبة في الإِسناد، فَيُسْتَغْنَىٰ بالعطف في كلٍّ منهما عن إنشاء جُمَلٍ متعدّدة، مثل: «أكلَ وشرب ونام الأسدُ والذئبُ والثعلبُ والنَّسْر».

(ب)

تابع تقسيمات الْمُسْنَد

المسند بحسبِ نسَبِه

- **لازم:** وهو ذو نسبة واحدة. فليس له إلاَّ فاعل أو ما يقوم مقامه.
- **متعدٍّ ذو نسبتين:** فله فاعل ومفعول به أو ما يقوم مقامهما.
- **متعدٍّ ذو ثلاث نِسَب:** فله فاعل، ومفعول به أول، ومفعول به ثان، أو ما يقوم مقامها.
- **متعدٍّ ذو أربع نِسَب:** فله فاعل، ومفعول به أول، ومفعول به ثان، ومفعول به ثالث، أوْ ما يقوم مقامَها.

ما ينوب مناب المسند

- **ما يعمل عمل الفعل:**
  - **كالمصدر**، مثل: «ضربي العبد مسيئاً»
  - **واسم الفعل**، مثل: «هيهات لما تُوعدون».
- **الظرف:** مثل: «الجزاء الأمثل يومَ الدين».
- **الجار والمجرور:** مثل:
  - «زيد في الدار».
  - «إبليس من الجنّ».
  - «منّا الصالحون ومنّا دون ذلك».

المسند بحسب إطلاقه وتقييده

- **مطلق:** مثل: «مرض الحصان».
- **مقيد بالوصف:** مثل:
  - «مرض الحصان مرضاً شديداً».
  - «نام الأرنب نوماً عميقاً».
- **مقيد بحرف الجرّ:** مثل:
  - «مرض الفاسق بمرض الزهري».
  - «قتل القاتل بالسيف».
  - «أكل الرسول بيده».
  - «انطلق المسافرون من محطة القطار».
  - «تجاوز الله للعاصي عن سيئاته الصغرى».
- **مقيد بقيد الغرض في المفعول لأجله:** مثل: «حضرتُ إكراماً لك». أي: حضوري مقيّد بأنه لأجل إكرامك.
- **مقيد بقيد الظرف الزماني أو المكاني:** مثل: «وُجدَ في داره يومَ السبت صباَحاً».

(ج)
تابع تقسيمات المسند إليه

مطلق:
مثل:
- «مرّت سحابة».
- «في الدار رجل».
- «داهَمَ سيل».

مقيّد بقيد الوصف:
مثل:
- «مرّت سحابة ثقيلة».
- «في الدار رجُلٌ فاضل».
- «داهم سيلٌ يملأ الوادي».

مقيَّدٌ بقيد الحال:
مثل:
«عاد الجيش منتصراً».

مقيّد بالاستثناء:
مثل:
«رجع حُجّاج المدينة إلاَّ سبعة».

مقيد بقيد الإضافة:
مثل:
«هلك قوم نوحٍ».

مقيّد بالتمييز:
مثل:
«ذبح لضيوفه عشرينَ خروفاً».

مقيّد بواو المعية:
مثل:
«سارت القافلة وَسَاحلَ البحر».

قد ينوب عن المسند إليه جملة تُؤول بمصدر.
مثل:
- ﴿وأن تصوموا خير لكم﴾.
أي: صيامكم خير لكم.
- «أن تفعلوا الخير أحبُّ إلى الله وأرجىٰ ثواباً عنده».
أي: فعلُكم الخير أحبُّ إلى الله.

الضمائر: هي اختصار يُكَنَّىٰ بها، فتغني عن تكرار المسند إليه، وعن ذكر الاسم الظاهر.

أسماء الموصول:
مبهمات يتوصّل بها إلى وصف المسند إليه بجملة كلامية.
فيُسْتَغْنَىٰ بذكر الوصف عن ذكر الاسم الخاص، للجهل به، أو لغرض بياني.

أسماء الإشارة:
يشار بها إلى المسند إليه، فتقع في الكلام موقع اسمه.

قد يتوصّل إلى المسند إليه بحرف الجرّ:
مثل: «احتفل القوم بعالمهم».
فعبارة «بعالمهم» مسنَدٌ إليه من رتبة المفعول به الأول.

(د)

تابع تقسيمات الإسناد

النسبة بين المسند والمسند إليه
مطلقة ومقيدة

المطلقة

هي التي لا تقترن بقيْدٍ يقيدها.

مثل:

- «الله موجود».
- «الكون مخلوق».

المقيدة

مقيدة بقيد الزمن الماضي

المطلق

مثل:

- «جاء سعيد».
- «مات أهل القرون الأولىٰ».

المحدّد

مثل:

- «جاء سعيد أَمْسِ».
- «يجب الصوم في شهر رمضان».

مقيدة بقيد الزمن الحاضر مع التجدّد

مثل: «يسير القطار ــ الشمس تجري ــ السحاب يسير ــ الأرض تدور».

مقيدة بقيد الزمن المستقبل

المطلق

مثل:

- «سيبعث الله الموتى».
- «لتعلمُنَّ نَبَأَه بَعْد حين».

المحدّد

مثل:

- «سيحضر الرئيس يوم الخميس القادم».

مقيدة بغير ذلك من القيود

(١) كقيد المكان:

مثل:

- «زيد موجود في الدار».
- «ينبت الشجر في الأرض».

(٢) وكقيد الحال:

مثل: «جاء الأمير راكباً».

أي: حصل مجيئه وهو راكب.

(هـ)

الأسماء التي لها الصدارة في الجملة

توجد في اللّسان العربـيّ أسماء لها الصدارة في الجملة العربية، فلا يصحّ أن يتقدّمَ عليها إلاَّ جارٌّ لَهَا، أو مضاف إليها، أو حروف العطف، وهي:

أسماء الاستفهام

مثل:

- «كيف حالك».
- «أين أبوك؟».
- «متىٰ يأتي موسم الحصاد؟».
- «من أوّل من بنىٰ الكعبة؟».
- «حتّىٰ متىٰ نَظَلُّ في حَالة الضعف؟».
- «مَا لَوْنُها؟».
- ﴿لِمَ تقولون ما لا تفعلونِ؟﴾.
- «كَمْ سورةٍ حَفِظْتَ؟».

أسماء الشرط

مثل:

- «من يعملْ خيراً يجزَ به».
- «أينما تكونوا يدرككم الموت».
- «حيثُما تَسْتَقِمْ يُقَدِّرْ لَكَ اللّهُ نجاحاً في غابر الأزمان».
- «ما تفعلوا من خير يَعْلَمْهُ الله».

«ما» التعجبيّة

مثل:

- «ما أَحْسَنَ خَلْقَ الله!».
- «ما أَحْمَقَ مَنْ يتطاول على بارئه».

«كم» الخبريّة

مثل:

- «كمْ عَمَّـةٍ لَكَ يَا جَرِيرُ وخالةٍ».
- ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كثيرةً بإذْنِ الله﴾.

(١٠)

تقسيم الجملة إلى خبريّة وإنشائيّة

استقرّ رأي الحذّاق من النحويّين وعلماء أصول الفقه وغيرهم، وعلماء البلاغة، على أنّ الكلام ينحصر في قسمين: «الخبر، والإنشاء» وأنّه ليس له قسمٌ ثالث.

وقبل استقرار الرأي على هذا التقسيم كان للباحثين في هذا الموضوع أقوال، فقيل: أقسامُ الكلام عشرة، وقيل: تسعة، وقيل: ستّة، وقيل: خمسة، وقيل: أربعة، وقيل ثلاثة، على اختلاف وجهات أنظار أصحاب هذه الأقوال.

والدليل على انحصار الكلام المفيد في الخبر والإنشاء، أنّ الكلام:

● إمّا أن يحتمل لِذات الكلام لا لمقتضياتٍ أخرىٰ ــ أن يُقالَ فيه هو مطابق للواقع أو غير مطابق للواقع، فهو الخبر.

● وإمّا أن لا يحتمل أن يقال فيه ذلك باعتبار منطوقه، لا باعتبار دلالاته اللّزُوميّة، فهو إنشاء.

فالجملة المفيدة تنقسم إلى قسمين:

القسم الأوّل: الجملة الخبرية، وهي الجملة الّتي اشتملت على خَبَرٍ مَا، فَمَضْمُونُها إخبارٌ عن أَمْرٍ ما، إيجاباً أوْ سَلْباً.

والقصدُ منها الإعْلَامُ بأنَّ الْحُكْمَ الّذي اشتملت عليه له واقعٌ خارجَ العبارة الكلاميّة مطابقٌ له.

القسم الثاني: الجملة الإِنشائيّة، وهي الجملة الّتي لم تشتملْ على خَبَرٍ، وإنَّما أنشأَ النُّطْقُ بِهَا حدَثاً ما، كإنْشاءِ طَلَبِ الفعل، إذا قُلْتَ لابْنِك: اسْقِنِي، أو قُلْتَ لَهُ: اجْتَهِدْ، أو لا تَكْسَلْ، وكإنْشاء طلَبِ الْفَهم، إذا قلْتَ للفقيه: هلْ يجوز أن أفعل كذا؟ أو ما حكمُ كذا شرعاً؟ ونحو ذلك.

فليس القصد من الجملة الإِنشائيّة الإِعلامَ بنسبةٍ حكميّةٍ تحقَّقَتْ أَوْ لم تتحقَّقْ في الواقع، وإنْ كان يلزم عقلاً منْ إيراد الجملة الإِنشائيّة فَهْمُ قضايا وجُمَلٍ خبريَّةٍ أُخْرَىٰ لا تَدُلُّ عليها الجملة الإِنشائيّةُ بمنطُوقِها دَلالَةً مُبَاشِرة، بل تَدُلُّ عليها باللُّزوم الذهني.

كدلالة الجملة الاستفهاميّة على أنَّ المستَفْهِمَ جاهلٌ يطلبُ الفهمَ، وكدلالة جملة التَّمَنِّي على أنّ من أنشأها يتمنّى في نفسه ما دَلّت عليه عبارَتُه، وكدلالة جملة المدح على أنّ المادح بها يُعَبِّرُ بصِدْقٍ عمّا في نفسه.

إلى غير ذلك من دلالات خبريّة تُستفاد باللّزوم الذهني من الْجُمَلِ الإِنْشَائيّة.

تعريف الخبر:

الخبر: هو الكلام الذي يحتمل الصِّدْق والكذبَ، باعتبار كونه مجرّد كلام، دون النظر إلى قائله، ودون النظر إلى كونه مقترناً بما يدُلُّ على إثباته حتماً، أو نَفْيِه حتماً، ومَدْلُولُه لا يتوقّف على النُّطْق به، ويدخُلُ فيه الوعْدُ والوعيد، لأنهما خبران عمّا سيفعله صاحب الوعد والوَعِيد.

مثل: طلَعتِ الشَّمْس ـ نَزَلَ الغيثُ ـ بعثَ الله محمّداً رسُولاً ـ سيأتي الدّجالُ في آخر الزمان ـ سينزل عيسَىٰ ويَقْتُلُ الدّجال ـ سَنُلْقِي في قلوب الذين كفروا الرعب ـ وَعَدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لَيَسْتخلفنّهم في الأرض ـ والكافرون لهم عذابٌ أليم.

تعريـف الإنشـاء:

هو الكلام الذي لا ينطبق عليه تعريف الخبر، ولدى تحليل حقيقته أقول: هو الكلام الذي يَتَوقَّفُ تحقُّقُ مدلوله على النُّطْقِ به، كالأمْرِ والنهي، والدّعاء، والاستفهام، والمدح والذّم، وإنشاء العقود الّتي يتمّ تحقُّقُها بالنُّطق بالْجُمَل الّتي تَدُلُّ عليها، مثل: بِعْتُك ـ اشتريتُ منك ـ زوَّجتُك ـ أنْتِ طالق ـ أعتقتُكَ.

* * *

(١١)

هل التعجّب من الخبر أو من الإنشاء؟

اختلف العلماء في التعجب هل هو من أقسام الخبر أو من أقسام الإنشاء، ورجّح الكثيرون أنّه من أقسام الخبر، لأنّه إخبارٌ عن حالة التَّعجُّب القائم في النفس.

والقائلون بأنّه من أقسام الإنشاء لاحظوا أنّه صيغةٌ كلاميّةٌ يُطْلَبُ بها تعظيم الأمر في نفس السَّامع.

وللعلماء في تعريف التعجّب أقوال:

قال ابْنُ فارس: هو تفضيلُ شيءٍ على أضْرابه.

وقال ابن الصائغ: هو استعظام صفةٍ خرج بها المتعجَّبُ منه عن نظائره.

وقال الزمخشري: معنى التعجُّب تعظيم الأمر في قلوب السامعين، لأنّ التعجُّبَ لا يكونُ إلاَّ من شيءٍ خارجٍ عن نظائره وأشكاله.

وقال الرّماني: المطلوبُ في التعجُّب الإبْهام، لأنّ من شأن الناس أن يَتَعَجَّبُوا ممّا لا يُعْرَفُ سَبَبُهُ، فكلّمَا اسْتَبْهَمَ السَّبَبُ كان التَّعجُّبُ أحْسَنَ. . . وأصْلُ التعجُّب إنّما هو للمعنَىٰ الذي خَفِيَ سببُه، والصيغة الدّالة عليه تُسَمَّىٰ تَعَجُّباً

مجازاً. . . ومن أجْلِ الإبهام لم تَعْملْ «نِعْمَ» إلاّ في الجنْسِ، من أجْلِ التفخيم، ليقَعَ التَّفْسِيرُ على نَحْوِ التَّفْخِيم بالإِضْمارِ قَبْلَ الذِّكر.

والتعجُّبُ يكون بصِيَغٍ تَدُلُّ عليه من لفظ المتعجَّب منه، وبصِيَغٍ أُخْرَىٰ منْ غير لفظه:

فالصِّيَغُ الّتي يُتَعجَّبُ بهَا من لفظ المتعجّب منه تأتي على وِزانٍ: «مَا أَفْعَلَهُ» مِثْل: ما أَكْرَمه ـ ما أَحْسَنَهُ ـ مَا أشجعَهُ. وعلى وِزان: «أَفْعِلْ به» مثل أَكْرِمْ به ـ أَحْسِنْ به ـ أَشْجِعْ به.

ومنها:

- قول الله عزّ وجلّ في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٣٧ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا. . . ﴾.

أي: ما أشدَّ سَمْعَهُمْ وما أشدَّ بَصَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ.

- قول الشاعر:

مَا أَحْسَنَ الدِّينَ والدُّنْيَا إِذَا اجْتَمَعَا ... وأَقْبَحَ الْكُفْرَ والإِفْلَاسَ بِالرَّجُلِ

- قولنا: ما أجمل الصّدق ـ أَكْرِمْ بالعفيفِ الشريف.

استخدام الاستفهام للتعجّب:

وقد يُسْتَخْدَمُ الاستفهامُ للتَّعَجُّبِ، مثل قول الله عزّوجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٨ ﴾؟!

أي: كُفْرُكُمْ مع هذه الأدلة الداعِيَة إلى الإيمان أَمْرٌ مستغربٌ يُنْشِىءُ التعجُّبَ مِنْهُ.

استخدام عبارات مختلفات في التعجب:

وتُسْتَخْدَم عباراتٌ أُخرىٰ في التعجّب، مثل:

«سُبْحَانَ الله ــ لله دَرُّ فلان ــ ما أَدْرَاكَ ماهِيَه».

لفظة «كَبُر» مثل:

- قول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥ ﴾.

- وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الصف/ ٦١ مصحف/ ١٠٩ نزول):

﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾.

وتُسْتَعْمَلُ في التعجُّب كلمةُ: «وَيْ» وهي كناية عن جُمْلَةٍ تَعجُّبيَّة.

وتُسْتَعْمَل أيضاً كلمة: «واهاً» في التعجُّب من طيب الشيء، فهي بمعنىٰ: «ما أَطْيَبه».

وتُسْتَعمل أيضاً كلمة: «هَيْتَ» في التعجب، تقول العرب: «هَيْتَ للْحلْم» و «هِيْتُ لَكَ».

عبارات التعجب الواردة في كلام الله:

قال المحقّقون: إذا ورد التعجّبُ في كلام الله صُرِفَ إلى المخاطبين، ولهذا يُعَبِّر بعض العلماء بالتعجيب بدل التعجُّب، أي: هو تعجيب من الله للمخاطبين.

- قول الله عزّ وجلّ بشأن أهل النار في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ۝١٧٥ ﴾.

أي: هؤلاء ينبَغِي أنْ تتَعَجَّبُوا من شدّة صَبْرِهِمْ على عذاب النار.

- وقول الله عزّ وجلّ السابق آنفاً: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾.

أي: تَعَجَّبُوا من شدّة سَمْعِهِمْ ومِنْ شِدَّةِ بَصَرِهِمْ.

● ● ●

الفَصْل الثالث

الجملة الخبرية وأحوالها

(١)

الصّادق والكاذب من الْخَبر والْمُخْبِر به

لا بد من التفريق بين الْخَبَرِ والمخْبِرِ به، من جهة الصدق والكذب، لتنحلَّ إشكالات قد تُوجَّه للتعاريف وبعض النصوص.

أولاً: الخَبَرُ الصّادِقُ، أو الْخَبَرُ الصِّدْقُ، هو ما كان من الكلام مطابقاً للواقع في حقيقةِ الأَمْرِ.

ثانياً: والْخَبَرُ الكاذبُ، أو الْخَبَرُ الكَذِبُ، هو ما كان من الكلام غَيْرَ مطابقٍ للواقع في حقيقة الأَمْرِ.

ثالثاً: أمّا الْمُخْبِرُ الصّادقُ فهو الْمُخْبِرُ بخَبَرٍ يدّعي أنّه صادقٌ فيه، وهو يَعْتَقِد أنّه حَقٌّ وصِدْقٌ، ولَوْ كان ما أَخْبَرَ به كذباً غَيْرَ مُطابقٍ للواقع في حقيقة الأمْر. وحين يَنْفِي الحقَّ وهو يَعْتَقِد صحَّةَ ما يقولُ فإنَّه يُسَمَّى نافياً، وَلا يُسمَّىٰ جاحداً للحق، إذ هو يقول ما يعتقد.

رابعاً: وأمَّا الْمُخْبِرُ الكاذبُ فهو الْمُخْبِرُ بِخبرٍ يدّعي أنّه صادقٌ فيه، وهو يَعْتَقِدُ أنّه باطلٌ وكَذِبٌ، ولو كان ما أَخْبَر بِهِ صدْقاً مطابقاً للواقع في حقيقة الأمْرِ، ونفيُهُ للحقِّ يُسمَّىٰ جَحْداً وجُحُوداً، فالذي ينفي أمْراً وَهو يَرَىٰ أنه أمرٌ ثابت هُوَ جاحد، ويقالُ له نافٍ بمقتضى الإطلاق العام.

فالمنافق الذي يقولُ بلسانه: «مُحَمَّدٌ رسولُ الله» هو كاذبٌ في قوله، لأنّه يقولُ خلافَ ما يَعْتقِد، وكلامُهُ حَقٌّ وصدْقٌ، لأنّه مطابقٌ للواقع، وقد دلّنا الله عزَّ وجلَّ على هذا التفريق في قوله في سورة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول):

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾.

وبهذا التفريق بين الخَبَر والمخبِر به تنحَلُّ إشْكَالاَتٌ واعتراضاتٌ مُوَجَّهةٌ على التعاريف التي ذُكِرَتْ للصّدْقِ والكذب[1].

وفي بيان أنّ النافيَ المستيقن من الأمر جاحِد قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

ووصف الله بالجحود الذين يُذْركون آيات الله ثم ينكرون دَلاَلاتِها الدامغات، ومن ذلك قوله تعالى في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

* * *

---

(١) انظر بحث «الصّدق» في كتاب «الأخلاق الإسلامية وأسسها» للمؤلف. الجزء (١) ص ٥٢٦ الطبعة الثانية.

(٢)

أغراض توجيه الخبر

(١) الأصل في توجيه الكلام الذي يَتَضمَّن خبراً ما أن يكون الغرض منه الإعلامَ بالخبر الذي دلَّ عليه الكلام، أي: إفادة المخاطب الحكْمَ الّذِي تضمَّنَتْهُ الجملةُ أو الْجُمَلُ الخبريَّة.

ويُسمَّىٰ هذا عند عُلماء البلاغة «فَائِدَةَ الْخَبَر».

(٢) وَقَدْ يُرادُ من توجيه الكلام الّذي يتضمَّنُ خبراً مَا، إعْلَامَ المخاطَبِ بأنّ المتكلِّمَ عالمٌ بالحكْمِ الذي تضمَّنَتْهُ الجملةُ الخبريَّة، ولا بُدّ عندئذٍ من أن يكون المخاطَبُ عالماً به.

ويسمَّىٰ هذا عند علماء البلاغة «لَازِمَ الفائدة».

(٣) وقد يُنزَّل العالم بالخبر منزلةَ الجاهل به لأنه لا يعمَلُ بمقتضى عِلْمِه.

(٤) وقد يراد من توجيه الخبر إعلانُ الفخر بما تضمّنَه الخبر، كقول الشاعر:

أنَا الْقَائِدُ الْحَامِي الذِّمَارَ وإنَّما ... يُدافِعُ عَنْ أَحْسَابِهِمْ أَنَا أَوْ مِثْلِي

الذِّمارُ: ما تجب حمايته، كالأهل والعِرْض.

الأحْسَاب: مَا يَعُدُّهُ المرءُ من مَناقبِ وشَرفِ الآباء.

(٥) وقد يرادُ منه المدح والثناء، مثل أن نقول: اللّهُمّ أنْتَ خالق السماوات والأرض العليم القدير الحكيم الرحيم الغفار، ناصيتي بيدك، أنت قيّوم السماوات والأرض الذي لا تأخذه سنة ولا نوم.

(٦) وقد يُرادُ منه التحسُّرُ والتّأسّف، كقول الشاعر:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ في أَكْنَافِهِمْ ... وبَقِيتُ في خَلْفٍ كَجِلْدِ الأَجْرَبِ

(٧) وقد يُرادُ منه الاسترحامُ والاستعطاف، كقول الشاعر:

رَبِّ إِنــيّ لاَ أَسْتطِيــعُ اصْطِبَــاراً   فَاعْفُ عَنِّي يَا مَنْ يُقِيلُ الْعِثَارَا

(٨) وقد يرادُ منه إظهارُ الضَّعْف، كقول الشاعر:

قَدْ كُنْتَ عُدَّتِيَ الَّتِي أَسْطُو بِها   وَيَدِي إذَا اشْتَدَّ الزَّمَانُ وسَاعِدِي

(٩) وقَدْ يُرادُ مِنْهُ التوبيخ، كجواب المؤمنين للمنافقين في موقفِ الحشر بَعْدَ أن يُضْرَبَ بيْنَ الفريقين بسورٍ له بابٌ، باطِنُهُ فيهِ الرَّحْمَةُ وَظاهره مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَاب، في الحوار بَيْنَهما الذي عرضَهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾.

وكالمقالة الَّتي تُوجّه للذّين يكنزونَ الذّهَبَ والفِضّه حين يُعَذّبُونَ بصَفَائِحِهَا الْمَحْمِيَّةِ في نار جهَنَّمَ، إذْ يُقَالُ لَهُمْ كَمَا جاءَ في سُورَةِ (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿. . . هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

(١٠) وَقد يُراد منه إظهار الفرح، كقولِ أَهْلِ الجنَّةِ مظهرين الفرحَ من خلال ثنائِهِمْ عَلَىٰ الله بمَا آتاهُمْ مِنْ فَضله، كما جاء في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

(١١) وقد يراد منه الوعظ، بتحريك النّفسِ من مَحَاوِر مطامعها ومخاوفها، كاستعراض نعيم الجنَّةِ لاستثارة مطامع النفس، واستعراض عَذَاب النار لاستثارة مخاوف النفس، حتى تلتزم صراط التقوى.

(١٢) وقد يُراد منه الشتيمة، كأن يُقَال للَّقِيط: أنْتَ وَلَدُ زِنَا.

(١٣) وقد يُرادُ منه التذكير، كأن يُقَالَ عنْدَ المحتَضَر: أَشْهَدُ أنْ لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله.

(١٤) وقد يراد منه إعلامُ غير المخاطب، على طريقة: إيَّاكِ أخاطبُ واسْمَعي يا جَارَة.

إلى غير ذلك من أغراض.

* * *

(٣)

خروج الخبر عن أصل معناه للدلالة على الأمر والنهي والدّعاء

قد يَخْرُج الخبر عن أصل المعنى الذي وُضِعَتْ له صِيَغُه، فَيُدَلُّ به على الأمر والنَّهْي والدُّعَاء.

(١) فقد يُرَادُ من الخبر في الجملة الخبريّةِ الأمْرُ، ومِنْهُ:

● قولُ الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ ۞وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ . . . ﴾ [الآية ٢٣٣].

أي: ولْيُرْضِعِ الوالداتُ أَوْلاَدَهُنَّ.

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾.

أي: ليكُن المؤمنون والمؤمناتُ بعضُهم أولياءَ بعضٍ. . . إلى آخر الآية.

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ. . .﴾ [الآية ٢٢٨]. أي: ليتربَّصْنَ.

أقول: والسبب في دلالة الجملة الخبرية على الأمر أحياناً بمساعدة القرائن، ليس من استخدام الصيغة الخبريّة في معنى الأمر، ولكنَّ هذه الدّلاَلة آتيةٌ من دلالة اللّزُومِ الفكري.

فوصف الله المؤمنين بأنّ بعضَهُمْ أولياءُ بعْضٍ، وبأنهم يأمُرونَ بالمعروف وينهون عن المنكر، إلى آخر ما جاء في الآية، يدُلُّ باللُّزوم الفكريّ على أنّهم لا يَتَحَلَّون بهذه الصفاتِ إلاَّ بدافعٍ من إيمانِهِمْ وخوفهم من ربّهم، وحرصهم على طاعته فيما أمرهم به، ولو لم تكن هذه الصفاتُ ممّا أمَرَ الله به لمَا كانَتْ أثراً من آثار إيمانهم الصادق.

ثم إنّ مثلَ هذه الصيغةِ الخبريَّةِ الواردة في الآية والمحفوفة بالقرائن، تدُلُّ على أنّ الأمْر بما جاء فيها من صفاتٍ للمؤمنين، قد كان أَمْراً بالغَ الشّدّةِ والْجَزْمِ، فلم يَكُنْ في وُسْعِ المؤمنين الصادقين إلاَّ الالتزامُ بطاعة اللّهِ فيه.

(٢) وقد يُراد من الخبر في الجملة الخبريَّة النهيُ، ومنه:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ. . .﴾ [الآية ١٩٧].

أي: فَمَنْ فَرَضَ فيهِنَّ الحجّ فَلاَ يَرْفُثْ ولاَ يَفْسُقْ ولا يُجَادِلْ في الحجّ.

وأقول هنا نظير الذي قُلْتُه في دلالة الخبر على الأمر إذا حُفَّ بما يُخْرجه عن الخبريَّةِ من قرائن.

وَرأَىٰ ابْنُ العربـي أنّ ما ذُكِرَ من خروج الخبر إلى النَّهْيِ غَيْرُ مقبول، لاحتمال حَمْلِ الكلام على معنى آخر غير ما ذكروا.

فقال في قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ...﴾ ليس نفياً لوجودِ الرَّفَثِ، بل هو نفيٌ لمشروعيَّته، فإنّ الرَّفث يوجَدُ من بعض الناس، وأخبارُ الله تعالى لا يجوزُ أن تقع بخلاف الواقع، وإنما يَرْجِـعُ النفيُ إلى وُجوده مشروعاً، لا إلى وُجوده مَحْسُوساً، قال: وهذه هي الدفينة التي فاتت العلماء فقالوا: إنّ الخبر يكون بمعنى النهي، وما وُجد ذلك قطُّ، ولا يصحُّ أن يُوجَد، فإنّهما مختلفان حقيقةً، ويتباينان وصفاً.

أقول: ما ذكر ابْنُ العربـيّ وجْهٌ يُمْكن أنْ يُقْصَد، لكن استعمالَ النّفي بمعنى النَّهْي أمْرٌ متدَاولٌ بين الناس، ويدعو إليه عدّة دواعٍ بلاغيّة، منها التلطّفُ بالمخاطب[1].

(٣) وقد يراد من الخبر في الجملة الخبريّة الدعاء، وهذا كثير، منه:

● قولنا: يَرْحَمُ اللَّهُ موتانا ويَغْفِرُ لهم.

أي: اللّهم ارحمهم واغفرْ لهم.

وفي استخدام الخبر في الدّعاء معنى التفاؤُلِ باستجابة اللَّهِ الدعاء، وتحقُّقهِ في الواقع حتَّىٰ يكون خبراً.

● قولُ يوسف عليه السلام لأخوته فيما حكى الله في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول):

---

(١) كأن يقول صاحبُ الدار لضيوفه: لا نَوْمَ على الأرائك (= الكَنَب) ولا طعام إلاَّ في غرفة الطعام، ولا دخول بالأحذية إلى الغرف المفروشة، إنّه ينْهَىٰ ولكن بأسلوب الخبر ترفُّقاً وتلطُّفاً بضيوفه. ويقول حاجبُ الأمير: لا دُخولَ على الأمير اليوم، أي: لا تدخلوا عليه فقد منع من الدّخول عليه.

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ .
يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ: جملةٌ خَبَرِيَّةٌ أُرِيدَ منها الدُّعَاءُ لهم بأَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ .

● وكان من دعاء الرَّسُولِ ﷺ لبعضِ أصحابه: «غَفَرَ اللَّهُ له» بأسلوب الخبر، والمعنى: اللّهم اغفرْ له، وكان هذا الدّعاءُ مشعراً بقرب وفاة من دعَا الرَّسُولُ له به.

* * *

(٤)

التأكيد وعدمه في الجملة الخبرية

الإخبـار الابتدائـي:

الأصل في الجملة الخبريّة مُثْبتةً كانت أو مَنْفِيَّةً أنْ يؤتى بها خاليةً من المؤكّداتِ، حينَ لَا يكونُ حالُ المخاطَب يَسْتَدْعِي تأكيدَ الخبر لَهُ، وذلك إذا كان خالِيَ الذّهْنِ، ليْسَ في نفسِه ضِدَّ مُقَدِّم الخبرِ عواملُ شَكٍّ أو إحجامٍ عن قَبُولِ أخباره.

ويَحْسُنُ في ابْتِدَاءِ الإِخْبار بِالْخَبرِ إيرادُهُ غيْرَ مُقْتَرِنٍ بأيَّةِ مؤكِّداتٍ، ومن الأمْثِلةِ قولُ اللّهِ عزَّ وجلَّ لرَسُولِهِ في أوّلِ ما أنزل علَيْه من تنزيل في سورة (العلق/ ٩٦ مصحف/ ١ نزول):

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ .

فالجملُ الخبريَّةُ في هذا النّصّ خاليةٌ مِنَ المؤكّداتِ، لعدم وجود الدّاعي إلَىٰ اقترانِها بما يقتضي تأكيدها.

الإخبـار الطّلَبـي:

وحين يكونُ لدىٰ المخاطَبِ شَكٌّ في الخبر، أَوْ عواملُ شَكٍّ أوْ إحجامٍ عن قبول الخبر، فإنّ حالَه تكونُ حالَ طالب يسأل عن صحة الخبر، فيَحْسُن أن يُؤتَىٰ لَهُ بالجملة الخبريّةِ مُقْتَرِنَةً بمَا يُؤَكِّدُ صحّةَ مَضْمُونِ الْخَبَر، ويؤتَىٰ فيها بمقدارٍ من المؤكّدات يُلائِمُ نِسْبَةَ التَّشَكُّكِ لديه وعَوامِلِ الإحْجَامِ عَنْ قبوله الخبر.

فإذا كانَتْ عواملُ الشَّكّ والإحجامِ غَيْرَ قويّةٍ حَسُنَ في الْكَلَامِ إيرادُهُ مقترناً ببعضِ المؤكّداتِ من درجَةٍ دُنْيَا.

- وكلّما زاد الشَّكُّ وقويت عوامل رفضِ قبولِ الخبر، كان من بلاغة الكلام الخبريّ زيادَةُ المؤكّداتِ فيه، بمقدار حالة نَفْس الْمُخَاطَبِ.

وقد يُنَزَّلُ غيرُ الشّاكّ مَنْزِلَةَ الشّاكّ إذا بدَتْ علَيْه أماراتُ الشّكّ منذ بداية التلويح له بالخبر.

الإخبـار الإنكـاري:

- وحين يصِلُ المخاطب إلى حالة الإنكار ورَفْض قبولِ الخبر، يكون من بلاغة الكلام الخبريّ وجوبُ اقترانِهِ بالمؤكداتِ التي تُلَائم حالة الإنكار والرَّفْضِ في نَفْس المخاطَبِ به ضعفاً وشدةً.

وقد يُنَزَّلُ غيرُ الْمُنْكِرِ منزلةَ المنْكِرِ إذا بدت عليه أماراتُ الإنْكار.

أمـثـلـة:

المثال الأول:

حذّر اللّهُ عزَّ وجلَّ الّذين كفروا من أن يُنْزِلَ بهم الإهْلَاكَ الشَّامِلَ الّذِي أنزلَهُ بكُفَّارِ أَهْلِ الْقُرُون الأولىٰ، مبيّناً لَهُمْ أَنَّهُ إنّما أهلكهم ضمْن مَجْرىٰ سنّتِه الثَّابِتَةِ في معاملة عباده.

● فكانَ البيان الإخباريُّ في أوّلِ الأمْرِ بأسْلوبِ التّساؤلِ عن إهلاكِ المكذّبين الأوّلين، لانتزاعِ الاعتراف بحصول المستَفْهَمِ عنه، فقالَ الله عزَّ وجلَّ في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول):

﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ﴾.

فإهْلاكُ المكَذِّبينَ الأولينَ لرسُلِ رَبّهم قضِيَّةٌ مَعْرُوفَةٌ لدى الناس الموجَّهِ لهم هذا السؤال، لذلك اكتفى النّص في بدْءِ الأمر بتوجيه السؤال لهم عن إهلاك الأوّلين.

● ثُمَّ جاء البيان الإخباريُّ مقْتَرِناً بمؤكّدٍ واحدٍ ابتدائيّ، فقال اللَّهُ عزَّ وجلَّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا . . . ﴾.

أي: هُمْ أشَدُّ بطْشاً من كُفّارِ أهْل مكَّة، وكان هَذَا في الرُّبْعِ الأوّل من العهد المكّيّ من نشأة الدّعوة المحمّديّة.

فجاء في هذه الآية جَرُّ تمييز «كم» الخبرية بحرف الجرّ «من» للتأكيد، مع أنّه يجوز مجيء هذا التمييز غير مجرور بمن.

● ثُمَّ جاء البيان الإخباريُّ حول الموضوع نفسه مقترناً بمؤكِّدَينِ اثْنَيْن، فقال الله عزَّ وجلَّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ ﴾.

فأضيفت في الجملة كلمة «مِنْ» داخِلَةً عَلَىٰ لفظ «قَبْلِهِمْ» مَعَ جرّ تمييز «كم» بحرف الجرّ «من» فهذه الزيادةُ في اللفظ قد جاءتْ لزيادةِ التَّأْكيد على ما جاء في سورة (قٓ).

● ثم جاء البيان الإخباريُّ حول الموضوع نَفْسِه مقترناً بتأكيد زائدٍ على

النَّصَيْنِ السَّابقين، فقال اللَّهُ عزَّ وجلَّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ . . . ﴾ [الآية ١٣].

فجاء الخبر في هذه الجملة مؤكّداً بثلاثة مؤكّدات:

(١) لام الابتداء في «لَقَدْ».

(٢) حرف «قد» الذي من معانيه التحقيق، ويؤتَىٰ به للتأكيد.

(٣) إدخال حرف «مِن» على لفظ «قَبْلهم» مع أنّ الكلام يتمّ بدونها[1].

المثـال الثانـي:

في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) قصّ الله عزّ وجلّ قصّةَ الرُّسُلِ الثلاثَةِ الّذِينَ أرسَلهم إلَىٰ أَهْلِ قَرْيَةٍ يُقالُ: إنَّها إنطاكيّة، ويقالُ: إنّ الرُّسُلَ الثّلاثَةَ هُمْ مِنَ الرُّسُلِ السَّبْعِينَ الَّذين أرْسَلَهُمْ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلاَمُ إلَىٰ الأقاليم، لِنشْرِ دينِ الله في الأَرْض.

فقال الله عزَّ وجلَّ فيها:

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ ﴾.

● ففي ابتداءِ الأَمْرِ عَرَضَ الرَّسُولاَنِ عَلَىٰ أصحاب هذِه الْقَرْيَةِ أَنَّهمَا رسُولاَنِ يُبَلِّغَانِ تعاليم الدين، فكان بيانهما من قبيل الإخبار الابتدائي غَيْرِ المقرون بمؤكّداتٍ لفظيّة.

---

(١) يرى الكوفيون والأخفش من البصريين أنّ حرف «من» يُزَاد للتأكيد دون تحقيق الشروط التي ذكرها البصريون لزيادته، وهي أن يكون مسبوقاً بنفي أو نهي أو استفهام بحرف «هل» وأن يكون مجرورها نكرة، وفاعلاً أو مفعولاً به أو مبتدأ. ويرى ابن مالك أن «مِنْ» الداخلة على «قبل» و «بعد» زائدة. والنظر في النصوص القرآنية يرجح رأي الكوفيين في هذه القضية.

• فلمّا كذَّبَهُما القومُ عزَّزَهُما اللَّهُ برسولٍ ثالثٍ، وقالُوا لهم: ﴿إِنَّا إليكُمْ مُرْسَلُون﴾ فجاء الإِخبارُ مؤكَّداً تأكيداً متوسطاً، لأنّ إنكار القومِ كانَ في بدايته.

والتأكيدُ في هذِهِ الجملة الخبريّةِ قد جاء بحرف التأكيد «إنّ» ويمكنُ أن نفهم من تقديم [إليكم] على عامله [مُرْسَلُون] تأكيداً آخر، لأنّ فيه معنى القصر، أو زيادةَ الاهتمام، وكلاهُمَا يفيد تأكيداً، والمؤكد الثالث كون الجملة جُملةً اسميّة.

• ولمّا أصرّ القومُ علَىٰ تكذيب الرّسُل الثلاثة، زاد الرُّسُل جملتهم الخبريّة تأكيداً، فقالوا: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُون﴾.

والمؤكدات في هذه الجملة هي:

(١) ﴿ربُّنا يَعْلَمُ﴾ فهذه العبارة بمثابة القسم.

(٢) «إنّ» وهو حرف تأكيد.

(٣) اللاّم المزحلقة للخبر في عبارة ﴿لَمُرْسَلُون﴾.

(٤) كون الجملة جملةً اسميّة.

مخالفة مقتضى الظاهر:

إذا أوردنا الخبر لخالي الذّهْنِ مجرّداً من المؤكدات، وللمتردّد الشاكّ مقروناً ببعض المؤكّدات استحساناً، وللمنكِر مقروناً بالمؤكدات بحسب درجة إنكاره وجوباً بلاغيّاً، كان إيرادُنا الخبر جارياً على مقتضىٰ الظاهر، وهذا يُسمَّى «إخراج الكلام على مقتضى الظاهر».

وقد تقتضي حالةُ المخاطب الخفيّة غيرُ الظاهرة تأكيد الخبر له، مع أنّ توجيه الخبر له كان بصورة ابتدائيّة لا تستدعي بحسب الظاهر تأكيد الخبر له، فحين نُؤكِّدُ له الخبر ملاحظين حالته الخفية، فإنّا نُوجّه له الخبر مؤكَّداً على

خلاف مقتضى الظاهر، وهذا يُسمَّىٰ: «إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر».

ولإخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر عدّة صور:

الصورة الأولى: أن يُنَزَّل خالي الذهن منزلة المتردّد السائل الذي يَطْلُبُ تأكيد الخبر له، وذلك إذا شَعَرَ من مقدّمات الكلام بما يُشير إلى مضمون الخبر، فاستشرفت نفسه وتتطلَّعَتْ تطلُّع المستغرب المتردّد في قبول الخبر، أو الطالب لما يُؤَكّده له.

● فمن أمثلة هذه الصورة قول الله عزّ وجلّ بشأن نوحٍ عليه السلام، في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

من الظاهر أنّ مُقدّماتِ الكلام تُشْعِرُ بأنّ الله عزّ وجلّ قضىٰ أنْ يُغْرِقَ مَنْ لَمْ يؤمنْ مع نوحٍ مِنْ قومه، إذ الإخبارُ بأنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِهِ إلاَّ من قدْ آمن، والأَمْرُ بصناعةِ الْفُلك الَّتي لا تتّسع إلاَّ لِلمُؤْمنين ولما يحتاجون في رحلتهم البحريّة، يدلُّ علَى أنّ سائر القوم مُغرقون، فاستشرفَتْ نفس نوح عليه السَّلام لطلَب تأخيرِ إهْلاكهم إمهالاً، أوْ صَرْفِ النظر عن إهلاكهم إهْلاكاً عامّاً شاملاً، فبادره الله عزّ وجلّ بقوله: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾. وَأَكَّدَ لَهُ مَا قَضَاهُ سبحانه من إهلاَكِهِمُ بالْغَرق، فقال له: ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾. فاشتملت هذه الجملة على مؤكّدين: «إنّ» و «الجملة الاسميّة».

● ومن الأمثلة قول الله عزّ وجلّ لرسوله في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) بشأن الّذِين اعترفوا بذنوبهم خَلَطوا عمَلاً صالحاً وآخر سيّئاً:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

وصَلِّ عَلَيْهِمْ: أي: وادْعُ لهم بالرّحْمَة، مُسْمِعاً دُعَاءَكَ لهم.

بعْدَ هذا الأمر للرسول بأن يُصَلّي عليهم، استشرفَتْ نفس الرسول ﷺ للسؤال عن فائدة هذِهِ الصَّلاة الَّتي يُسْمِعُهُمْ إيّاها، فقال الله له مؤكِّداً: ﴿ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾. فاشتَمَلَتْ هذه الجملة على مؤكّدين: «إنّ» و «الجملة الاسميّة».

● ومن الأمثلة قول بشار بن بُرْد:

بَكِّـرَا صَـاحِبَـيَّ قَبْـلَ الْهَجِيـرِ ... إنَّ ذَاكَ النَّجَـاحَ فِـي التَّبْكِيـرِ

الْهَجِيرُ: نصف النهار في القيظ عنْد شِدَّةِ الحرّ.

لمّا قدَّم الأمر بالتبكير كانت نفس المخاطب مستشرفَةً للسؤال عن السَّبب، طالبةً تأكيد مضمون الجملة التعليليّةِ التي تجيب على سؤالٍ يُلاحَظُ ذهنا، فقال: «إنّ ذَاكَ النجاحَ في التبكير». فأكَّد بمؤكِّدَيْنِ: «إنّ» و «الجملة الاسمية».

ونظيره قول بعض العرب يستحثّ على حُدَاءِ إبله لتُسْرِعَ في السّير:

فَغَنِّهَـا وَهْـيَ لَـكَ الْفِـدَاءُ ... إِنَّ غِنَـاءَ الإِبِـلِ الْحُـدَاءُ

الصورة الثانية: أنْ يُنزَّلَ مَنْ لا يُنْكِرُ ما سَيُقَدَّمُ لَهُ مِنْ خَبَرٍ مَنْزِلَةَ مَنْ يُنكِرُهُ، إذا ظهرت عليه بعْضُ أماراتِ الإنْكار في داخل نفسه.

● فَمن الأمثلة التي ذكرها البلاغيون لهذه الصورة، قول «حجل بن نضلة القيسيّ» بشأن ابْنِ عَمِّهِ «شقيق»:

جَـاءَ شَقِيـقٌ عَـارِضـاً رُمْحَـهُ ... إِنَّ بَنِـي عَمِّـكَ فِيهِـمْ رِمـاحٌ

مجيء «شقيقٍ» واضعاً رُمْحَهُ عَرْضاً يُشْعِرُ بأنَّهُ يُنَافِسُ بشجاعَتِهِ وسلاحه، فكأنّه يُنْكِرُ أنّ أبناء عَمِّه لديهم أسلحة وأنَّهُمْ شجعان، فاقتضَىٰ حالُهُ تأكيد الْخَبَر الْمُوَجّه له، فقالَ له ابْنُ عَمِّهِ مؤكّداً: «إنَّ بَني عَمِّكَ فِيهِمْ رِمَاحٌ».

فيهم رماح: أي: في حوزتِهم وفي ملكهم رماحٌ كثيرة.

الصورة الثالثة: أَنْ يُنَزَّلَ المنكِرُ منزلةَ غَيْرِ المنكر، فَلَا يُعْتَدَّ بإنكاره ولا يُلْتَفَتَ إليه، وذلك إذا كان لديه من الأدلّة الواضحة والبراهين القاطعة، ما يكفي لإقناعِ أهل الفكر المنصفين الذين يَنْشُدُون الحقّ.

● فمن الأمثلة على هَذِه الصورة، أن يأتي واحدٌ من صغار الملاكمينَ فيَتَطَاوَلَ علىٰ شخْصٍ لا يَعْرِفُه بذاته، ولكن يعرف اسْم الْبَطل العالمي للملاكَمَة، فَيَتَحَدَّىٰ هذا الملاكمُ الصَّغِيرُ هَذا الشخْص، فيقُولُ له: «أَنَا فُلان» دون أن يؤكّد كلامه بأيَّةِ مؤكّدات، عندئذٍ يَنْخَلِع قلْب الملاكم المتحدّي ويَنْهَزِم.

الصورة الرابعة: أنْ يُنَزَّلَ العالِمُ بفائدةِ الخبر وبلازم فائدتِهِ منزلة الجاهل بالخبر، وذَلِكَ لأَنَّهُ غَيْرُ عَامِلٍ بمقْتَضَىٰ عِلْمِهِ، فَيُقَدَّمُ له الْخَبَرُ كَما يُقَدَّمُ للجاهلين به.

● فمن الأمثلة على هذه الصورة المواعظُ الَّتِي تُقَدَّمُ على أَلْسِنَةِ الوعاظ للعالمينَ بِهَا، تنزيلاً لهم منزلة الجاهلين بها، لأنَّهم لا يعملون بمقتضى ما يَعْلَمون.

ويُسمَّى هذا تذكيراً، أوْ تَنْبِيهاً للمخاطَبِينَ من غفلاتهم.

* * *

(٥)

مؤكّدات الجملة الخبرية

التوكيد:

التوكيد في اللّغة: أَصْلُهُ شدُّ السَّرْجِ على ظهر الدابَّةِ بالسُّيُور حتّى لا يسقط، وتسمّى هذه السُّيُور تواكيد وتآكيد.

ثم استعمل التوكيد في توثيق العهود.

ومن هذا المعنى اللُّغوي أُخِذَ لِتَقْوِيَةِ صِدْقِ الكلام الخبريّ بما يوكّده من ألفاظِ اسْمُ «التوكيد».

والغرضُ من توكيد المتكلّم كلامَهُ، إعْلَامُ المخاطَبِ بأنّه يقول كلامه جازماً، قاصداً لما يَدُلُّ عليه كلامُهُ، مُتَثَبِّتاً مِنْه، لا يقولُه عن تَوَهُّمٍ أَوْ ثَرْثَرَةٍ أوْ تَضْلِيلٍ أو اختراعٍ أو نحو ذلك، كما يفْعَلُ صَانِعُو القِصَصِ باستعمالِ قُدْرَاتهم التخيُّليّة في تأليف قصصهم المخترعة.

والتوكيد في الجمل إنَّما يكون للإسناد «أي: الحكم» فيها، موجبةً كانت أو سالبة.

مؤكّداتُ الإسناد الخبريّ:

لكلٍّ من الجملة الفعليّة والجملة الاسميّة موجبةً كانت أَوْ سالبةً مؤكّداتٌ تُؤَكِّدُ إرادَةَ صِحّةِ وصِدْقِ الإسناد فيها، أو تُؤَكِدُّ تَحقُّقَ صِدْقِ الإسْنادِ فيها موجباً كان أو سالباً.

والأصل في بناء الجملة في اللّسان العربيّ الجملةُ الفعليّة، خاليةً ممّا يدُلُّ على إرادة تأكيد النسبة فيها، مثل:

«اقتربت السّاعة ــ وانشقّ القمر ــ وأهلك اللَّهُ المكذبين الأوّلين ــ ولا تخفىٰ عَلىٰ اللَّهِ خافية ــ وما انتصر أولياءُ الشيطان عَلىٰ أولياء الرحمن».

ويؤكَّد الإسنادُ في الجملة الخبريَّة بمؤكدات، قد ينفرد بعضُها، وقد يجتمع مع غيره بشروط، ويختص بعضها بالجملة الفعلية، وبعضها يختصّ بالجملة الاسمية، وبعضُها يؤكَّدُ به الجملتان الفعلية والاسمية.

وفيما يلي بيانٌ لما تمَّ إحصاؤُه منها:

المؤكّد الأول: تقديم ما هو فاعل في المعنى على فعله، مثل: ﴿واللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ ــ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الْفَاسِقين﴾.

وسبب إفادة هذا التقديم التأكيد، أنّ الْمُسْنَدَ إليه وهو الفاعلُ قد أُسْنِد إليه الفعلُ مَرَّتين.

الأولى: تظهر حينما نقول في نحو: «خالدٌ جاهَدَ في اللّهِ حقّ جهاده» **خالدٌ**: مبتدأ، وخبرُهُ جملة: «**جَاهَدَ**...».

والثانية: تظهر حينما نقول: «جاهَدَ» فعل ماضٍ، وفاعله ضمير مستتر يعود على «خالد».

فالجهادُ أُسْنِدَ إلى لفظ «خالدٍ» أوّلاً، وأُسند إلى ضميره ثانياً، واجتماع هذَيْنِ الإِسْنَادَينِ في الجملة هو بمثابة تكرير الجملة.

وتقديم ما هو فاعل في المعنى على فعله يجعل الجملة جملةً اسمية.

المؤكّد الثاني: اختيار الجملة الاسمية بدل الجملة الفعليّة ابتداءً، والسَّبَبُ في كون الجملة الاسمية تحمل تأكيداً لا تحمله الجملة الفعليّة، أنّ خبر الجملة الاسميّة يحمل في التقدير الذي يُلاحَظُ في ذهن العربيّ ضميراً يعودُ على المبتدأ، أوْ ما أصْلُه المبتدأ، فيكون حالُ الجملة الاسميّةِ دواماً مثل حال تقديم ما هو فاعل في المعنىٰ على فعله، قد جرَىٰ فيها الإِسنادُ إلى المسنَدِ إليه مرّتين:

الأولى: إسنادُه إلى الاسم الظاهر.

الثانية: إسنادُه إلى ضميره.

المؤكّد الثالث: كلمة «قَدْ» الحرفية، وتختصُّ بالدّخول على الفعل المتصرّف الخبريّ المثبَتِ المجرّدِ من ناصِبٍ وجازم، ومِنْ حرف تنفيس، وتكونُ معه كالجزء منه، فلا تُفْصل عنْهُ إلاّ بالْقَسَمِ أحياناً.

ولكلمة «قد» الحرفية خمسةُ معانٍ، هي: التوقُّعُ، وتقريبُ الماضي من الحال، والتقليل، والتكثير، والتحقيق.

هذا المعنى الأخير وهو التحقيق هو المقصودُ هُنا، مثل:

• ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ ﴾ [٩/ الشمس/ ٩١] أي: نُؤَكِّدُ إثْباتَ فلاح مَنْ زَكَّىٰ نفسه.

• ﴿ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ ﴾ [٤/ ق/ ٥٠] أي: نُؤكّد تحقُّقَ هذا الْعِلْم.

• ﴿ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ ﴾ [٣٣/ الأنعام/ ٦] أي: نُؤَكِّدُ تَحَقُّقَ حُصولِ عِلْمنَا بكلّ مَا يحْزُنُكَ حِيناً بعد حينٍ ممَّا يقولُ الكافرونَ.

• ﴿ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ ﴾ [٦٣/ النور/ ٢٤] أي: نُؤكّد تحقُّقَ حصول هذا العلم.

المؤكّد الرابع: الْقَسَم، مثل:

• واللّه لَفَعَلْتُ ــ والضحى واللّيل إذا سَجَىٰ ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وما قَلَىٰ ــ أُقْسِمُ لأَفْعَلَنَّ، بالنون الخفيفة أو الثقيلة ــ أَحْلِفُ باللّه لَفَعَلْتُ أَوْ لأَفْعَلَنَّ بالنون الخفيفة أو الثقيلة.

وقد يجتمع الْقَسَمُ وحرف «قد» مثل:

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤ ﴾ [التين ٩٥].

المؤكّد الخامس: نونا التوكيد الثقيلة والخفيفة، ويؤكِّدان الفعلَ المضارع، ويؤكدان فِعْلَ الأَمْرِ، مثل:

• ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ ﴾ [٤٠/ الحج/ ٢٢].

• ﴿ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝٣٢ ﴾ [٣٢/ يوسف/ ١٢] النون في «لَيُسْجَنَنَّ» هي نون التوكيد الثقيلة، وفي «لَيَكُوناً» هي نون التوكيد الخفيفة.

المؤكّد السّادس: لاَمُ الابتداء، وهي التي تقع في صدر الجملة، وتُفِيد توكيد مضمون الجملة، وتخليص المضارع للحال، ولا تدخُل إلاّ على:

(١) الاسم، مثل: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾[١٣/ الحشر/ ٥٩].

(٢) الفعل المضارع، مثل: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [٨٢/ المائدة/ ٥].

(٣) الفعل الذي لا يتصرَّف، مثل:

- ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [٦٢/ المائدة/ ٥].
- ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [٨٠/ المائدة/ ٥].
- ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٣٠/ النحل/ ١٦].
- ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾[٧٥/ الصافات/ ٣٧].

المؤكد السابع: اللاّم المزحْلَقَة، وهي لام الابْتداء حينما تُزحْلَقُ عن صَدْرِ الجملة.

وهِيَ تُزَحْلَقُ بَعْد «إنَّ» المكسورة عن صدر الجملة، فتدخُلُ علَىٰ الخبر، مثل: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [٣٩/ إبراهيم/ ١٤]. وتدخُل على معمول الخبر إذا كان صالحاً لدخول اللاّم عليه، مثل: إنَّ اللَّهَ لَكُلِّ شَيْءٍ يَعْلَمُ. وتَدْخُلُ على اسم «إنَّ» إذا كان مُتأخّراً عن خبرها، مثل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾ [٤٤/ النور/ ٢٤]. وتَدْخل على ضمير الفصل، مثل: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ [٦٢/ آل عمران/ ٣].

المؤكّد الثامن: «إنّ» و «أنَّ» بكسر الهمزة وفتحها، وهما من الأحرف المشبّهة بالفعل، لأنّها تَعْمَلُ فيما بَعْدَها شبيه عَمَل الْفِعل فيما بَعْدَه، وتدخلان على الْجُمَلِ الاسميّة.

وكُلٌّ منْهما ينْصِب المبتدأَ الذي لا يَلْزَمُ الصدارة دائماً، ويُسَمَّىٰ اسْمَها، وَيرفَعُ الْخَبَرَ غَيْرَ الطَّلَبـيّ والإنْشائي، ويُسَمَّىٰ خبَرَها. وتفيدان تأكيد النّسبة بيْنَ اسْمِها وخبرها، مثل:

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [٣٨/ الحج/ ٢٢].

● ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ [١٥/ طه/ ٢٠].

● ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾ [الشعراء/ ٢٦].

● ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الحج/ ٢٢].

المؤكد التاسع: «إنْ» المخفّفة مِنَ الثقيلة، وتَدْخُلُ على الجملتَيْنِ الفعليّةِ والاسميّة، مثل:

● ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يس/ ٣٦].

● ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ [١٤٣/ البقرة/ ٢].

● ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [٧٣/ الإسراء/ ١٧].

المؤكّد العاشر: ضمير الفصل، وهو الضمير الذي لا محلّ له من الإعراب، ويقع فصلاً بين المبتدأ والخبر، أو بين ما أصله مبتدأ وخبر، مثل:

● ﴿ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ ﴾ [٣٢/ الأنفال/ ٨].

● ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [١١٧/ المائدة/ ٥].

● ﴿ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [القصص/ ٢٨].

● ﴿ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [الكهف/ ١٨].

وضمائر الفصل تُفِيد التأكيد وتفيد الاختصاص أيضاً.

المؤكد الحادي عشر: «إنّما» و «أنّما» أَصْلهما «إنّ» و «أَنَّ» ضُمَّت إليهما «ما» الزائدة للتأكيد، فكفَّتْهما عن العمل، وهيّأَتْهما للدّخول على الجُمَل الفعليّة، فهما يدخلان على الجملتين الاسميّة والفعلية، وبِضَمِّ «ما» إليهما اجتمع في لفظيهما مؤكدان، إذْ أصلُهما يُفيد التأكيد، وزاد التأكيد بضمّ «ما» إليهما، مثل:

● ﴿ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [٢٣/ الأحقاف/ ٤٦].

• ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ ﴾ [الذاريات/ ٥١].

• ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ﴾ [٦٥/ ص/ ٣٨].

• ﴿ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٧٠ ﴾ [ص/ ٣٨].

المؤكد الثاني عشر: كلمة «أمّا» الشرطيّة، وهي حرف شرطٍ وتفصيل وتوكيد.

أمّا كونُها شرطيّة فيدلُّ عليه لزومُ الفاء بعدها. وأمّا كونُها تفصيليّة فهو الغالبُ من أحوالها. وأمّا كونُها مؤكّدة، فقد قال الزمخشري بشأنها كما ذكر ابن هشام: فائدةُ «أمّا» في الكلام أنْ تُعْطِيَهُ فضل توكيد، تقول: زيد ذاهب، فإذا قصدتَ توكيد ذلك وأنّه لا محالة ذاهبٌ، وأنّه بصَدَدِ الذهاب، وأنّه عزيمة، قُلْتَ: أمّا زيدٌ فذاهبٌ.

ويأتي بعدها المبتدأ، أو الخبر، أو جملة شرط، أو اسم منصوبٌ بالجواب.

ومن الأمثلة قول الله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا . . . ﴾ [الآية ٢٦].

المؤكّد الثالث عشر: أدوَات التنبيه، ومنها «ألا» التي تردُ للتنبيه في فاتحة الكلام، وتدخُل على الجملتين الاسميّة والفعليّة، مثل:

• ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ﴾ [يونس/ ١٠].

• ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ﴾ [٨/ هود/ ١١].

وقول لبيد:

ألا كلّ شيء ما خَلاَ اللّهَ باطل   وكـلُّ نعيـمٍ لا مَحَـالَـةَ زَائـلُ

ومنها «أما» الاستفتاحية، والتي تأتي بمعنى «حقاً» كقولِ أبي صَخْرٍ الْهُذَلي:

أَمَا وَالَّذِي أَبْكىٰ وَأَضْحَكَ والَّذِي أَمَاتَ وأَحْيَا والَّذِي أَمْرُهُ الأَمْرُ

المؤكد الرابع عشر: تكرير النفي، مثل قول الشاعر:

لَا. لَا أَبُوحُ بحُبّ بَثْنَةَ إِنَّهَا أَخَذَتْ عَلَيَّ مَواثِقاً وَعُهُوداً

المؤكد الخامس عشر: الأحرف التي تُضاف في الكلام، وتُسَمَّى «زائدة» ويدخل فيها كلُّ حرفٍ إذا حُذِفَ لم ينقص شيءٌ من المعنى المراد، فإيجاده في الكلام يكون لغرض التوكيد، ومنها:

- «مَا» بعد «إذا»، مثل:

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [١٢٧/ التوبة/ ٩].

- «مِنْ» الجارة، مثل:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأعراف/ ٧]. و ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [٣/ يونس/ ١٠].

- «الباء» الجارة، مثل:

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء/ ٤].

و ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [١٩٥/ البقرة/ ٢].

و ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [٣٦/ الزمر/ ٣٩].

المؤكد السادس عشر: السينُ وسوف الداخلتان على فعل دالٍّ على وَعْدٍ أو وَعيد، مثل:

• ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ۝٣١﴾ [الرحمن/ ٥٥].

• ﴿وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّٰكِرِينَ ۝١٤٤﴾ [آل عمران/ ٣].

• ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [١٥١/ آل عمران/ ٣].

• ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٤٦﴾ [النساء/ ٤].

• ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ [٥٦/ النساء/ ٤].

المؤكد السابع عشر: «لَكِنَّ» وهي حرف ينصب الاسم ويرفع الخبر، قال ابن عصفور هي للتوكيد، ويصحَبُ التوكيد معنَىٰ الاستدراك. وقيل: للاستدراك فقط، وقيل تَرِدُ تارةً للاستدراك وتارة للتوكيد، مثل:

• ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَٰلَمِينَ ۝٢٥١﴾ [البقرة/ ٢].

• ﴿وَلَٰكِنَّ الظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٣٣﴾ [الأنعام/ ٦].

وقول الشاعر الحماسي:

لَكِنَّ قَوْمي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي عَدَدٍ   لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

المؤكد الثامن عشر: «لَنْ» قال علماؤنا: وَلاَ تفِيدُ تَوْكيدَ النَّفْي وَلاَ تَأْبِيدَهُ خلافاً للزمَخْشَرِي.

أقول: أمّا التَّأْبِيدُ فلا تُفِيدُه حَتْماً، وأَمّا التوكيد فالظاهر أَنَّها تُفيدُه، لِأَنّ لفظ «لَنْ» زائدٌ على لفظ «لا» النافية، والزيادة في لسانِ العرب إنّما تكونُ غالباً لزيادة المعنى، وظاهر أنّ لفظ «لَنْ» مُشابِهٌ للفظ «لا» بزيادة نون ساكنٍ في آخرِه لزم من وجوده حذف الألف، لأنه ساكنٌ مَدّيٌّ ليّن، والنافي ابتداءً يقول: لا أفْعَلُ، فإذا أَلَحَّ عليه طالبُ الفعل قال: لَنْ أفْعَلَ.

* * *

(٦)

تقسيم الإِسناد في الجملة
إلى حقيقي ومجازي (وهو المجاز العقلي)

الإِسنـاد الحقيقـي:

إذا جعَلَ المتكلّمُ الإِسنادَ في جُمْلَتِهِ مبنيّاً على ما يعتقد أنّه هو له في الواقع فإسناده إسناد حقيقيٌّ لا مجاز فيه.

أمـثـلـة:

● كقول المؤمن المسلم: الله خالق كل شيء ــ وهو الذي يُنْبت الزّرع ــ وَيُدِرُّ الضَّرْعَ ــ ويُحْيِـي ويُميت.

● وكقول النصراني: أحْيا عِيسَىٰ الأموات ــ وخَلَقَ الطيورَ.

فإنّه يعتقد أن عيسىٰ هو فاعل هذا الإِحياء والخلْقِ باعتباره كما يعتقد أنّه أحد الأقانيم الثلاثة التي يتكوَّنُ مِنها الله «الأقانيم: هي في اعتقاد النصارى أشخاصٌ متفاصلة مع أنّها إلّه واحد».

● وكقول المشرك الوثني الذي لا يُلاحظُ أفعال الله فيما يجري في الكون من أحداثٍ ذواتِ أسباب، بل يرى الأسبابَ ذوات فِعْلٍ حقيقيّ في مُسَبَّباتها:

أنبتَ مَطَرُ السماء الزرعَ في الأرض ــ أنزلَ نَوْءُ كذا المطر ــ أشْعَلَتِ الرّيَاح السَّمومُ النار في الغابة فأحرقتها.

● وكقولك لفلّاح رأيتَهُ قد قام بأعماله بيديه: حَفَر بِئْرَهُ ــ وحَرَثَ أرْضَهُ ــ وغَرَسَ شَجَرَه.

الإِسْنـادُ المجـازيّ:

وإذا جَعَلَ المتكلّم الإِسنادَ في جملتهِ مبنيّاً على غَيْرِ ما يَعْتَقِد أنّه هو لَهُ في

الواقع، مُلاَحِظاً علاقَةً ما أو مُلاَبسَةً ما تَسْمَحُ لَهُ بأنْ يُسْنِدَ هذا الإسناد، دون أَنْ يتَّهِمَهُ أَحَدٌ بالكذِب، فهو إسنادٌ مجازيٌّ، ويُسمَّىٰ هذا «مجازاً عقليّاً» لأنّه وقَعَ في الإسناد، لا في الْمُسْنَدِ، ولا في الْمُسنَدِ إليه.

ويُلْحَقُ به كلُّ وَصْفٍ «صفة أو حال» إذا بنيت منه ومن الموصوف جملة مفيدة كان الإسناد فيها إسناداً مجازيّاً، كما سيأتي في الأمثلة.

الأمثلة:

● كقولنا: «رَبِحَتْ تِجَارَةُ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه» ففي هذه الجملة أُسْنِدَ الرّبْحُ إلى التجارة، مع أنّ الرابِحَ هو صاحبُها: «عبد الرحمن بن عوف».

وحين أسندنا الربح إلى التجارة لم نكن نعتقد أنّ التجارة هي التي ربحت، وإنّما الذي ربح هو صاحبها، ولكنْ أرَدْنَا أنْ نُعَبِّر تعبيراً مجازيّاً قائماً على ملاحظة أثَرِ الحركة التجاريّة الحكيمة الذّكيّة التي قام بها عبد الرحمن والّتي حقَّقَ بها الرّبْح، فصحَّ في تصوُّرنا أن نُسْنِدَ الرّبْحَ إلى التجارة نَفْسِها، للإشْعَارِ بقيمة المهارة التي اشتملت عليها تجارته.

وبما أنّ التجارة هي عَمَلُ عبد الرحمن فبينها وبينه مُلابَسَةٌ قويَّةٌ، وعلاقَةٌ واضحةٌ، هي علاقة العامل بعمله، أو نقول: هي علاقة الفاعل «وهو عبد الرحمن» بالمفعول به «وهي التجارة» إذ كان المفعول به سبباً في تحقيق الربح لعبد الرحمن «الفاعل».

● وكقولنا: «قَتَلَتِ الْمُتَهَوِّرَ حَمَاقَتُهُ» مع أَنَّه قَدْ قُتِلَ بِيَدِ خصومه الّذين نازلهم في تهوُّرِه بدون أن يحسب حساباً للنتائج.

ففي هذه الجملة قد أسندنا القتل إلى الحماقة، فجعلناها هي القاتلة، مع أنّ القاتل هو البطل الخصم الذي نازله، وهو غير كفءٍ لمنازلَتِه.

ولكنْ أردنا أنْ نُعَبِّر تعبيراً مجازيّاً قائماً على ملاحظة أثر الحماقَةِ الّتي دفعت المتهور، فجعلَتْه قتيلاً بِيَد قاتله البطل، فصحَّ في تصوُّرنا أن نُسْنِدَ الْقَتْلَ إلَىٰ الْحَمَاقة، للإشعار بكونها سبباً في قتله، مع الاختصار في العبارة، وأصل الكلام: قتَلَ البطَلُ مُنَازِلَهُ الّذي تهوَّر بسبب حماقته التي دفعته إلى منازلة البطل، وهو غير كُفْءٍ لمنازلته.

ونظير هذا أن نقول: قطَعَتِ السّرقةُ يَدَ السَّارق، إذْ نُسْنِد القطع إلى السّرقة، مع أنّ الّذِي قطع يد السَّارق مُنَفِّذُ حُكْمِ حدّ السّرقة.

أحوال المسند في الجملة المشتملة على مجازٍ عقلي:

الْمُسْنَدُ في الجملَةِ المشتملة على مجازٍ عَقْلِيٍّ قد يكون واحداً مما يلي:

● قد يكون فعلاً مَاضياً، أو فعلاً مضارعاً، أو فعل أمر، مثل: «بَنَى الأمير المدينة ـ يبني الأمير المدينة ـ يا هامانُ ابْنِ لي صَرْحاً».

● وقد يكون غَيْرَ فِعْلٍ، لكنَّهُ في معنى الفعل، وهو ستة أنواع، هي:

«١ ـ المصدر ٢ ـ اسم الفاعل ٣ ـ اسم المفعول ٤ ـ الصفة المشبّهة ٥ ـ اسم التفضيل ٦ ـ الظرف والجار والمجرور».

الأمـثـلـة:

أوّلاً ـ من المصدر:

● قولنا: «دوامُ الدولَةِ عَدْلُها» ففي هذا المثال أسندنا العدل وهو مصدر «عَدَلَ» إلى غير ما هو له، وهو دوام الدولة، فالعدلُ ليسَ هو دوامَ الدولة، لكنَّهُ سبَبٌ في دوامها.

● قول الخنساء من قصيدة ترثي بها أخاها صخراً:

فَمَـا عَجُـولٌ لَـدَى بَـوٍّ تُطِيـفُ بـه لَهَـا حَنِينَـانِ إِعْـلَانٌ وإِسْـرَارُ

أَوْدَىٰ بِـهِ الـدَّهْـرُ يَـوْمـاً فَهْـيَ مُـرْزِمَـةٌ   قَـدْ سَـاعَـدَتْهَـا عَلَـىٰ التَّحْنَـانِ أَظْـآرُ
تَـرْتَـعُ مَـا غَفَلَـتْ حَتَّـىٰ إِذَا ادَّكَـرَتْ   فَـإِنَّمَـا هِـيَ إِقْبَـالٌ وإِدْبَـارُ
يَـوْمـاً بِـأَوْجَـعَ مِنِّـي يَـوْمَ فَـارَقَنِـي   صَخْـرٌ ولِلْعَيْـشِ إِحْـلاَءٌ وإِمْـرَارُ

عَجُول: أي: ثَكْلَىٰ، ومُرَادُها: ثَكْلَىٰ من النوق.

بَوّ: جِلْدُ وَلَد الناقة يُحْشَىٰ تِبْناً ويُقَرَّبُ من أمّه الثكلَىٰ لتدر عليه.

تُطِيفُ به: أي: تَدور حوله.

أَوْدَىٰ به الدّهر: أي: أهلكه.

مُرْزِمَة: يُقالُ: أرْزَمَتِ الناقة، إذا صوّتَتْ حنيناً على ولدها.

أَظْآرُ: أي: نُوقٌ تُرْضِعُ غَيْرَ أَوْلادها من حنينها على أولادها.

وللعيش إِحْلاَءٌ وإِمْرَارُ: أي: وللعيشِ أحوال يُقَدّمُ بها حلاوة، وأخرى يقدّم بها مرارة.

والشاهد في قولها:

تَـرْتَـعُ مَـا غَفَلَـتْ حَتَّـىٰ إِذَا ادَّكَـرَتْ   فَـإِنَّمَـا هِـيَ إِقْبَـالٌ وإِدْبَـارُ

أي: هذه الثكْلَىٰ مِنَ النوق تَرْتَعُ (أي: ترعَىٰ) في أوقات غفلتها وسُلُوّها عن ولَدِها، حتَّىٰ إذا تذكَّرَت وَلَدَها ثار بها الحنين فصارت تُقْبِلُ وتُدْبِرُ علىٰ غير هُدىً، لكن الخنساء لم تَقُلْ هكذا، وإنما جعلَتِ الناقَةَ كُلَّها هي الإقبال والإدْبار، فقالت: «فإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وإِدْبارٌ».

الإقبال مصدَرُ «أقبل» والإدْبارُ مصدر «أدْبَر» ومرادُها الإشعارُ بأنّها صارت في التَّصَوُّر إقبالاً وإدْباراً، لطغيان هذين الوصفين على الذات وسائر الصفات.

● قولي صانعاً مثلاً:

يَرَىٰ السُّخَفَاءُ الْمُلْكَ عَرْشاً وَتَاجَهُ   وَمَا الْمُلْكُ إلاَّ الْعَدْلُ والْجُودُ والْحَزْمُ

أي: سبَبُ ظفر الْمَلِكِ بسُلْطانِهِ على شعبه واكتسابه الْمُلْكَ الحقيقي أن يقيم العدل، ويتخلّق بالجود وبالحزم.

● قول الشاعر:

سَيذْكُرُني قَومي إِذَا جَدَّ جِدُّهُمْ ... وفي اللّيلَةِ الظَّلْمَاءِ يُفْتَقَدُ الْبَدْرُ

فَنَسَبَ فعل «جَدَّ» إلى المصدر المضاف إلى ضمير قومه، أي: إذا جَدُّوا، والمرادُ الإشعارُ بأنْ أمرهم الجدَّ إذا انْضَمّ إليه جدٌّ آخرُ فوق المعتاد فأقْلَقَهُمْ وأحْوَجَهُمْ إلى معين، فإنَّهُمْ سَيَذْكُرُونني حينئذٍ.

ثانياً ــ من اسم الفاعل:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول) بشأن مَنْ أُوتي كتابه بيمينه:

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾.

راضية: اسم فاعل، وقد جاء في هذا التعبير القرآني إسناد الرّضا في كلمة «راضية» إلى العيشةِ، مع أنّ الراضي هو صاحبُ العيشة، إذْ يَرْضَىٰ عن عيشته الحسنة، فالعيشة في الحقيقة مرضيّة.

والعلاقة الّتي صحّحَت استخدام هذا المجاز العقلي كون العيشة محيطة بحياة صاحِبِها، ورضاهُ بها يُشيع الرّضا في كلّ ما يحيط به.

والتحليل النفسيّ لهذا يكْشِفُ أنّ من كان سعيداً فإنّه يرىٰ الدنيا كلّها من حوله سعيدة، ومن كان حزيناً فإنّه يرى الدُّنيا كلّها من حوله حزينة، وهكذا.

● قولهم: «طريق سائر» مع أنه مسيرٌ فيه، و«نَهْرٌ جارٍ» مع أنّه مجريٌّ فيه، للإشعار بأنّ التصوُّرَ يَرَىٰ الطريق يسير لامتلائه بمن يمشي فيه، وبأنّ حُفْرَةَ النَّهر تجري لامتلائها بالماء الجاري.

● قولهم: «نهارُهُ صائم» و «لَيْلُهُ قائم» فإسنادُ الصِّيام إلى النهار، والقيام إلى اللّيل، مع أنّ فاعل الصيام والقيام هو الرّجل المتعبّد بداهة، يَعْتَمِدُ على مَدٍّ في التصوّر للإشعار بأنّ النهارَ واللَّيْلَ يَصُومانِ ويقومان معه بمشاعره ووجدانه.

● ما جاء في دعاء الرسول ﷺ: «اللَّهُمَّ إنّي أحْمَدُكَ عَلَىٰ الْعِرْقِ السَّاكِنِ واللَّيْلِ النَّائم».

أي: على العافية والنومِ في اللَّيل، فجَاء وصف اللّيْل بالنوم مع أنه وصف لمن ينام فيه، والوصف اختصار لنسبةٍ بَيْنَ رُكْنَيْ إسنادٍ في جملة مفيدة.

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (العلق/ ٩٦ مصحف/ ١ نزول) بشأن الذي ينهىٰ عبداً إذا صلّى:

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

جاء في هذا النّصّ وصف الناصية باسم الفاعل: «كاذِبة وخاطئة» مع أنّ الكاذب والخاطىء هو صاحب الناصية، لكنّ الناصية جزءٌ منْهُ، فَجَذْبُهُ من ناصيته لإذْلاله وتعذيبه يكون بسبب كونه كاذباً وخاطئاً، والملابسة والعلاقة بين الناصية وصاحِبها من الأمور الظاهرة.

والوصف كما سبق هو اختصار لنسبة بين ركني إسنادٍ في جملة تامّة، إذْ يُقالُ في هذه الجملة: «ناصيةٌ كاذبة» و «ناصِيةٌ خاطئة».

لَـنَسْفَعَنَّ: أي: لنَقْبِضَنَّ وَنَجْذِبَنَّ.

ثالثاً ـــ من اسم المفعول:

● قولي ضارباً مثلاً:

دَارُهُ مَهْجُــــــورَةٌ مِـــــنْ حِبِّـــــه ونَعِيــمُ الْــوَصْــلِ لِلْكُــوخِ الْبَعِيــدِ

ففي هذا إسنادُ اسم المفعول وهو «مهجورةٌ» إلى الدّار، مع أنّ المهجور

صاحبها، ولكنّ الْمشَاعِرَ النفسيّة مَدّتْ أبْعَادَ الهجْرِ، فجعَلَتْ الدارَ كُلَّها مهجورة، مع أنّ المتكلّم يَعْلَمُ أنّ الهجْرَ هو لصاحب الدار، لا للدّار، فتجوَّزَ في التعبير لِيُشْعِرَ الآخرينَ بما شعَرَ هو به.

● وقولهم: سَيْلٌ مُفْعَمٌ، ففي هذا إسناد اسم المفعول «مُفْعَم» إلى السيل، مع أنَّ المفعَمَ (أي: المملوءَ) هو الوادي الذي جرى فيه السيل، أمّا السيل فهو «مُفْعِم» بكسر العين اسم فاعل.

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

الشهود: هو الحضور المصحوب بإدراك الحواس.

فجاء في هذا النصّ إسنادُ المشهوديّةِ للْيَوْم، مع أنَّ اليوْمَ اسْمٌ لزمَنٍ، وهو لا يُدْرَكُ بالْحوَاسّ، لكِنّ الذي يُشْهَدُ ويُدْرَكُ بالحواسّ هو ما يَحْصُل في اليوم من أشياء وأحداثٍ تُرى أو تُسْمَع أو تُلْمَسُ. ولمّا كان كلُّ شيءٍ في ذلك اليوم سيكونُ مشهوداً محضوراً غير غائب، كان إطلاق المشهوديَّةِ على اليوم دالّاً على هٰذِهِ المشهوديَّة الشّاملة لكلّ ما فِيه بأخْصَرِ عبارَة، فَهُو مِنَ المجاز العقليّ.

رابعاً ــ من الصفة الْمُشَبَّهَة:

● قولنا: فلانٌ رِداؤه شَريف، وإزارُه عفيف، ففي هذا القول إسناد الشرف إلى الرداء، والمراد أنه شريف الحسب والنسب، وإسناد العفّة إلى الإزار، والمراد أنّه ذو عفّةٍ في فرجه الواقع تحت الإزار، والملابسة واضحة.

كلمتا «شريف وعفيف» هما صفتان مشبهتان، والصفة المشبّهة، هي لفظ مصوغٌ من مصدر اللازم للدلالة على الثبوت، مثل: أحمر وحمراء، وعطشان وعطشىٰ، وحسَن، وشجاع، وجبان، وفَرِح، ونَجِس، وطاهر، وبخيل، وكريم.

● وقولنا: فلانٌ سَيْفُه جبان، وصُنْدوق ماله بخيل.

ففي هاتين العبارتين إسناد الْجُبْنِ إلى السيف وإسناد البخل إلى صندوق المالِ، والمراد صاحبُهما، والملابسةُ أو العلاقة كَوْنُ المذموم مالِكَهُما أو المتصرّفَ بهما.

● وكالوصف في: «الكتاب الحكيم» و «الأسلوب الحكيم» إذا قلنا: إن الحكمة صفة صاحب الكتاب والأسلوب.

خامساً ــ من أفعل التفصيل:

● قولنا: إزار فلانٍ أعَفُّ من إزار فلان، وسيفُهُ أشجع من سيفه، وصندوقه أكرم من صندوقه، ودارُه أكثر ترحيباً بالضُّيُوفِ من دارِه.

سادساً ــ من الظرف والجار والمجرور:

● قولنا: الشُّجَاعُ حينَ المبارزة، وعند اللّقاء، وفي ساحَةِ الوغَىٰ.

أي: تُعْرَفُ وتَظْهَرُ شَجَاعة الشُّجَاعِ في وقت المبارزة، ومكان اللّقاء، وفي ساحةِ الحرب.

علاقات المجاز العقلي:

أمّا علاقات المجاز العقلي فهي كلّ مُلاَبَسةٍ أو علاقة تُصَحّح التجوز في مفاهيم البلغاء والأدباء، في المجاز العقلي وفي المجاز المرسل الآتي بيانه في موضعه إن شاء الله.

وقد أحصى منها علماء البلاغة وعلماء أصول الفقه زائداً على عشرين علاقة، منها: «السببيّة ــ المسببيّة ــ إطلاق الكلّ على البعض ــ إطلاق البعض على الكلّ ــ إطلاق اللازم وإرادة الملزوم ــ إطلاق الملزوم وإرادة اللازم ــ إطلاق المطلق وإرادة المقيّد ــ إطلاق المقيد وإرادة المطلق ــ إطلاق العام وإرادة الخاص ــ إطلاق الخاص وإرادة العامّ ــ إطلاق الحالّ وإرادة المحل ــ إطلاق

المحلّ وإرادة الحالّ ــ إقامة المضاف إليه مقام المضاف ــ إقامة المضاف مقام المضاف إليه ــ علاقة الجوار ــ اعتبار ما كان عليه الشيء ــ اعتبار ما يؤول إليه الشيء ــ علاقة الآليّة ــ علاقة البدليّة والعوض ــ إطلاق المعرّف باللّام وإرادة واحدٍ منكر ــ إطلاق النكرة في الإثبات وإرادة العموم ــ علاقة التضادّ» إلى غير ذلك من علاقات.

ومن هذه العلاقات ما يصلح في المجاز العقلي، ومنها ما لا يصْلُحُ، وذوق البليغ هو الذي يُحْسِنُ تصيُّد العلاقة لما يصوغ من كلام يَتَجوَّزُ فيه عن ذكر الحقيقة إلى مُلابِسٍ من مُلَابِسَاتها.

* * *

(٧)

الجملة المفيدة بين الإثبات والنفي

تنقسم الجملة المفيدة من جهة الإثبات والنفي إلى قسمين:

القسم الأول: الجملة المثبتة، وهي الجملة الّتي خلَتْ من أداةٍ من أدوات النفي، فالإسنادُ فيها بين الْمُسنَدِ والْمُسْنَدِ إلَيْهِ (بين المحكومِ به والمحكُومِ عليه) إسنادٌ مُثْبَتٌ، ولو كان مضمون الجملة يمكن أنْ تُصَاغَ له جملة منفيّة.

مثل: «العنقاءُ طائرٌ مَعْدُومٌ».

هذه جُمْلةٌ مُثْبَتَةٌ، ويُمكن أنْ يُصاغ لمضمونها جملةٌ أخرى منفيّة نقولُ فيها: «لا وُجُودَ لطائر العنقاء».

القسم الثاني: الجملة المنفيّة، وهي الجملة التي دخلتْ عليها أداةٌ من أدواتِ النفي دلّتْ على نفي نِسْبَةِ الْمُسْنَدِ إلى الْمُسْنَدِ إلَيْهِ فيها، ولو كان مضمون الجملة يُمْكِنُ أن تُصَاغ له جملة مثبتة.

مثل: «لا وُجود لطائر العنقاء» و«لا يعلم الكفار أنهم إلى النار صائرون».

هاتان جملتان منفيتان، ويُمْكِنُ أن يُصاغ لمضمونهما جملتان أخريان مثبّتان نقول فيهما:

«العنقاء طائر مَعْدُومٌ»، و «الكفارُ يَجْهَلُونَ أَنَّهم إلى النار صائرون».

أدوات النفي التي تنفي الجمل:

أدوات النفي التي تنفي الجمل في اللّسان العربي ثمان، هي: «لَا ــ لاتَ ــ لَيْسَ ــ مَا ــ إنْ ــ لَمْ ــ لَمَّا ــ لَنْ».

وفيما يلي بيانٌ حولَ هذه الأدوات:

شرح الأداة الأولى: كلمةُ «لَا» وتأتي حرفَ نَفْيٍ على خمسة أوجه:

الوجه الأول: أنْ تكونَ عاملةً عملَ «إنَّ» تنصِبُ الاسْمَ وتَرْفَعُ الخبر، وذلِكَ إذا أُرِيدَ بها نفيُ الجِنْسِ على سبيل التنصيص، ومن أمثلة هذا الوجه قولُ أبـي الطيّب المتنبِّـي يمدح عليّ بن أحمد الخراساني:

ولاَ ثَوْبَ مَجْدٍ غَيْرُ ثَوْبِ ٱبْنِ أَحْمَدٍ ... عَلَـىٰ أَحَـدٍ إلاَّ بِلُـؤْمٍ مُـرَقَّـعُ

الوجه الثاني: قد تكونُ بِقلَّةٍ عاملةً عَمَلَ «لَيْسَ» تَرْفَعُ الاسم وتنصبُ الخبر، ومن أمثلة هذا الوجه قولُ الشاعر:

تَعَـزَّ فَـلاَ شَـيْءٌ عَلَـىٰ الأَرْضِ بَـاقِيَـا ... وَلاَ وَزَرٌ مِمَّـا قَضَـىٰ اللَّـهُ واقِيَـا

وقولُ أبـي الطيّب المتنبّـي:

إذا الْجُودُ لَمْ يُرْزَقْ خَلَاصاً مِنَ الأَذَىٰ ... فَلاَ الْحَمْدُ مَكْسُوباً وَلاَ الْمَالُ بَاقِيَا

الوجه الثالث: أن تكونَ عاطفةً بشروطٍ مبيّنة عند النحويين، مثل: «جَاءَنِي رَجُلٌ لَا امْرَأَة».

ومِنْ أمثلة هذا الوجه قولُ امْرِىءِ الْقَيْس:

كَـأَنَّ دِثَـاراً حَلَّقَـتْ بِلَبُـونِـهِ ... عُقَـابُ تَنُـوفَـىٰ لاَ عُقَـابُ الْقَـوَاعِـلِ

دِثار: اسْمُ راعٍ كان يرعىٰ الإبل.

حَلَّقَتْ: أي: ذهبت.

بلَبُونِهِ: أي: بنُوقِهِ ذَواتِ اللَّبَن.

الْعُقاب: طائر من كواسر الطير قويّ المخلب، ولفظه مؤنث، ويُجْمَعُ على «أَعْقُبٍ» و«عِقْبَان».

تَنُوفَىٰ: اسم جَبَلٍ عالٍ تَأْوِي إليه العِقْبان الشديدةُ القويّة.

الْقَوَاعِل: صِغَارُ الجبال التي تأوي إليها العِقْبانُ الصّغارُ والضِّعاف.

الوجه الرابع: أن تكون جواباً مناقضاً للجواب بلفظ «نَعَمْ» وهَذِه تُحْذفُ الْجُمَلُ بَعْدَهَا بكَثْرَةٍ.

الوجه الخامس: أن تكون على خلاف ما سبق:

فإن كان ما بعدها جملةً اسميّة صَدْرُها مَعْرِفَةٌ أو نكرة ولم تَعْمَلْ فيها، أو كان ما بَعْدَها فِعْلاً ماضِياً لفظاً أَوْ تَقْدِيراً وجب تكرارها، إلاَّ في الدّعاء، وإرادةِ المستقبلِ في الفعل الماضي.

ومن أمثلة هذا الوجه:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُون: أي: ولاَهُمْ عَنْ شُرْبِهِم لَهَا يَسْكَرُونَ حتَّىٰ تَذْهَبَ عُقُولُهُم، يُقَال لُغَةً: شَرِبَ خَمْراً فَأَنْزَفَ، أي: سَكِرَ أو ذهب عقله.

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول) بشأن الكافر:

﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ﴾.

* * *

شرح الأداة الثانية: كلمة «لاَتَ» وهي حرف نفي، قال جمهور النحويين: هي مؤلّفة من كلمتين: هما «لاَ» النافية، و «التاء» الَّتِي لتأنيث اللّفظة، كما في «ثمَّت» وَ «رُبَّت» وإنّما وجبَ تحريكُ التاء في «لاَتَ» لالْتِقاءِ السّاكنَيْن.

وقال جمهور النحويين: إنّها تَعْمَلُ عَمَل «لَيْس» وهي خاصَّةٌ بِنَفْي الْحِين، ولاَ يُذْكَرُ بَعْدَهَا إلاَّ أَحَدُ مَعْمُولَيْهَا.

ومن الأمثلة قول الله عزّ وجلّ في سورة (صٓ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ ﴾.

* * *

شرح الأداة الثالثة: كلمة «لَيْسَ» وهي فعلٌ لاَ يَتَصرَّف، ويدُلُّ على نَفْي الحالِ، ويَنْفِي غَيْرَهُ بقرينة، وهو يَرْفَعُ الاسْمَ ويَنْصِبُ الخَبَر، ومن الأمثلة:

● قول الله عزَّ وجلَّ خطاباً لرسوله بشأن الكافرين في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ... ﴾ [الآية ٢٧٢].

● قول المتنبّي في مَدْحِ طاهِرِ بْنِ الْحُسين:

فَشَرَّقَ حَتَّىٰ لَيْسَ لِلشَّرْقِ مَشْرِقٌ وغَرَّبَ حَتَّى لَيْسَ لِلْغَرْبِ مَغْرِبُ

* * *

شرح الأداة الرابعة: كلمة «ما» الحرفية، وتأتي حرْفَ نَفْيٍ، وتدخُلُ على الجملَتَيْن الاسميّة والفعليّة.

● فـإذا دخَلَتْ علـى الجملـة الاسميـة أعملهـا الحجـازيّـون والتهـاميُّـونَ والنَّجْدِيُّونَ عَمَل «لَيْسَ» بشروط.

● وإذا دخلت على الجملة الفعليّة لم تَعْمَلْ.

● وهـي تخلِّـص الفعـل المضـارع إذا دخلـت عليـه للحـالِ عنـد جمهـور النحويين، ما لم تُوجَدْ قرينةٌ تدُلُّ على الاستقبال.

* * *

شرح الأداة الخامسة: كلمةُ «إِنْ» وهي حرف.

فمن وجوه هذه الكلمة أن تأتي نافية، وتَدْخُل على الجملتين الاسميّة والفعلية، ولا يشترط أن يأتي بعْدها في الجملة «إلاّ» أو «لمَّا» حتَّى تكونَ نافية، وبعضهم اشترط ذلك.

ومن أمثلة استعمال «إِنْ» حرف نفي ما يلي:

● قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول):

﴿... إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: ما الكافرون إلاّ في غرور.

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (الطارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول):

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾.

أي: ما كُلُّ نَفْسٍ إلاّ عَلَيْها حَافِظٌ.

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾.

أي: ما عندكم من حُجَّةٍ ذَاتِ سُلْطَانٍ بِهذا الذي تقولونه.

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ (١٠٩) ﴾.

أي: وما أدري أقريبٌ أمْ بعيدٌ مَا تُوعَدُونَ.

* * *

شرح الأداة السادسة: كلمة «لم» وهي حرف نفي وجزْمٍ يجزم الفعل المضارع، ويقلبُ زمَنَهُ فيجعَلُهُ ماضياً.

الأمـثـلـة:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ . . . ﴾ [الآية ٢٨٣].

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (البينة/ ٩٨ مصحف/ ١٠٠ نزول):

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) ﴾.

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٨٤) ﴾.

● قول المتنبّي يمدح أبا عُبادَة بن يحيىٰ البحتري:

لَمْ أُجْرِ غَايَةَ فِكْرِي مِنْكَ فِي صِفَةٍ ... إِلَّا وَجَدْتُ مَدَاهَا غَايَةَ الأَبَدِ

* * *

شرح الأداة السابعة: كلمة «لَمَّا» وَهِي حَرْفُ نفي وجزم، يجزم الفعل المضارع، ويَقْلِبُ زمنَهُ فيجعله ماضياً مثل «لَمْ»، لكنَّ «لمَّا» تُفَارقُ «لَمْ» في خمسة أمور:

الأمر الأول: أنّها لا تقترن بأداة شرط، بخلاف «لم».

الأمر الثاني: أنّ منفيَّها مُسْتَمِرُّ النفي إلى زمان التكلّم، بخلاف «لَمْ» فقد ينقطع نفيُها في بعض أزمان الماضي، مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول):

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾.

أي: ثُمَّ كان شيئاً مذكوراً في الزمانِ الماضي.

الأمر الثالث: أنّ الغالب في منفيّ «لمَّا» أنْ يكون قرِيباً من الحال.

الأمر الرابع: قالوا: إنّ منفيّ «لمَّا» متوقَّعٌ ثُبوتُهُ بخلاف منفي «لم».

أقول: هذا مُعْتَرَضٌ عليه بقول الله عزّ وجلّ في سورة (عبَس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول):

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝٢٣﴾.

إذِ الآيةُ فيها زَجْرٌ يَوْم القيامة للعاصي الذي لمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ الله به، وقد صار أمراً غير ممكن الحصول، وغير متوقّع، بعد انتهاء زمن الابتلاء.

الأمر الخامس: أنّ منفيّ «لمَّا» جائز الحذف، فتقول: أنَا قاصدٌ الحجّ إلى بيت الله الحرام ولمَّا، أي: ولمَّا أَصِلْ. بخلاف «لم».

* * *

شرح الأداة الثامنة: كلمة «لَنْ» وهي حرف نفي ونَصْبٍ للفعل المضارع، واسْتِقبال.

قالوا: ولا تفيد توكيد النفي ولا تأبيده خلافاً للزمخشري.

أقول: أمّا أنّها لا تفيد التأبيد فهو حقٌّ، لأنّ في كثير من النصوص التي توجد فيها «لن» ما يدلُّ على أنّ التأبيد غير مدلولٍ عليه فيها.

وأمّا التأكيد فأرىٰ أنّها تُفِيده، لأن مَبْنَىٰ حرف «لن» فيه زيادة لفظية على مبنى حرف «لا» فهي آكَدُ منها.

* * *

رأيٌ لِلْحَوْفِي حول أدوات النفي

قال الْحَوْفِي[١]: أصل أدوات النفي «لا» و «ما» لأنّ النفي إمّا في الماضي، وإمّا في المستقبل، والاستقبال أكثر من الماضي أبداً. قال: و «لا» أخفّ من «ما» فوضعوا الأخفّ للأكثر، ثُمَّ إنّ النفي في الماضي إمّا أن يكون نفياً واحداً مستمراً، أو نفياً فيه أحكامٌ متعدّدة، وكذلك النفيُ في المستقبل، فصار النفي على أربعة أقسام، واختاروا له أَرْبَعَ كلمات: «ما» و «لم» و «لن» و «لا».

وأمّا «إنْ» و «لمَّا» فليسا بأَصْلَيْن.

فـ «ما» و «لا» في الماضي والمستقبل متقابلان، و «لم» كأنّه مأخوذٌ من «لا» و «ما» لأنّ «لم» نفي للاستقبال لفظاً، وللمضيّ معنىً، فأُخِذَ اللاَّمُ مِن «لا» الّتي هي لنفي المستقبل، والميم من «ما» التي هي لنفي الماضي، وجُمِعَ بينَهُما إشارةً إلى المستقبل والماضي، وقُدِّم اللاّم على الميم إشارة إلى أَنَّ «لا» هي أصل النفي، ولهذا يُنْفَىٰ بها في أثناء الكلام، فيُقالُ: لم يفْعَلْ زيْدٌ ولاَ عَمْرو.

وأمّا «لَمَّا» فتَرْكيبٌ بعْدَ تَرْكيب، كأنّه قَالَ: «لَمْ» و «ما» لتوكيد معنى النفي في الماضي، وتفيد الاستقبال أيضاً، ولهذا تُفِيد «لمّا» الاستمرار.

---

(١) الْحَوْفي: علي بن إبراهيم بن سعيد أبو الحسن الْحَوفي، نحويٌّ، من العلماء باللغة والتفسير.

أقول: كلامُ الْحَوْفِي رَأيٌ في تحليل الوضع اللّغوي، إلاَّ أنّ اللّغات يَصْعُبُ الجزم بتعليل أوضاعها، إلاَّ ما كان منها متبادراً لِلْفَهْم، أو خاضعاً لمقاييس تجريبيّة.

* * *

قضايا حول النفي في الجملة

القضيةُ الأولى: نفيُ الذَّاتِ الموصُوفة قَدْ يكونُ نَفْياً للصفة دون الذّات، وقد يكون نفياً للذّاتِ والصفة معاً.

(١) فمن أمثلة نفي الصفة دُونَ الذّات، قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) بشأن الرُّسُلِ من البشر:

﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

فالنفْيُ في هذه الآيَةِ مُسَلَّطٌ علَىٰ عدم أكلهم للطعام لا عَلَىٰ كَوْنِهِمْ جَسَداً، فهم جَسَدٌ وَيَأْكُلُونَ الطَّعَام.

(٢) ومن أمثلة نفي الذاتِ والصفة معاً:

- قولُ الله عزَّ وجلَّ بشأن الفقراء المتعففين عن المسألة في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ... ﴾ [الآية ٢٧٣].

أي: لَا يسألُونَ الناسَ مطلقاً فلاَ يَحْصُلُ منهم إلحافٌ في المسألة.

أقول: لا مانع من أن يسألُوا برفق دون إلحافٍ.

الإلحاف: الإلحاح في المسألة مع عدم الحاجة.

- قول الله عزّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) بشأن الظالمين يوم القيامة:

﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الآية ٢٧٣].

أي: لَا يَكُونُ لَهُمْ شَفِيعٌ مُطْلَقاً وبذلك ينتفي الشفيعُ ووصْفُهُ، وفائدة ذكر الوصف قَطْعُ طَمَعِهِمْ بأنَّ الَّذِينَ يَعْبُدُونَهُمْ من دُونِ اللَّهِ من الملائكة أو الصالحين سيشفَعُونَ لَهُمْ عِنْدَ رِبِّهِمْ، فلَوْ شفَعوا لهم لَمْ يَسْتَجب الله لشفاعتهم.

* * *

القضيّة الثانية: قد يُنْفَىٰ الشَّيْءُ كُلُّه لِعَدم كمالِ وصْفِهِ، أو لانتفاء ثمرته، فمن أكلَ طعاماً لم ينتفع منه يقول: مَا أكَلْتُ، ومَنْ شَرِبَ شراباً لم يستَمْتِعْ بهِ يقول: مَا شَرِبْتُ.

ومن الأمثلة على هذه القضيّة من القرآن، قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعلى/ ٨٧ مصحف/ ٨ نزول):

﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾.

فنفىٰ عنه الموت، لأنّ ما هو فيه لَيْسَ بموتٍ، ونَفَىٰ عنه الحياة لأنّ مَا هو فيه ليسَ حياةً طيّبةً ذاتَ راحةٍ من العذاب.

* * *

القضية الثالثة: نفيُ الأعمّ يَدُلُّ على نفي الأخصّ، وإثباتُ الأعمّ لا يدُلُّ على إثبات الأخَصّ. وإثباتُ الأخصّ يدلُّ على إثبات الأعَمّ، ونفي الأخصّ لا يَدُلُّ علَىٰ نفي الأعمّ.

ونفيُ المبالغة في الفعل لا يستلزم نفي أصْلِ الفعل.

الأمـثـلـة:

● إذا قلنا: «لا يوجد في الدار إنسان» فهو يدلُّ على أنه لا يوجد فيها امرأة، لأنَّ لفظ «إنسان» أعَمّ، يَشْمَلُ الرَّجُلَ والمرأة والطفل والطفلة.

● وإذا قلنا: «يوجد في الدار إنسان» فهو لا يدُلُّ على وجود رجلٍ حتماً، أو وجود امرأة حتماً، بل يمكن أن يكون الموجود واحداً غير مُعيَّن ممّا ينطبق عليه لفظ «إنسان» الذي هو أعم من لفظ «رجل» ومن لفظ «امرأة».

● وإذا قلنا: «يوجد في الدار إنسان» فهو يدلُّ على وجود حيوان فيها، لأنّ لفظ «إنسان» أخصُّ من لفظ حيوان، فالإِنسان هو حيوان ناطق.

● وإذا قلنا: «لا يوجَدُ في الدار إنسان» فهو لا يَدُلُّ على عدم وجود حيوان مطلقاً، لأنّ لفظ «حيوان» أعَمُّ من لفظ «إنسان» فقد يوجد فيها حيوان غير إنسان.

● وإذا قُلْنا: «ليْسَ فُلَانٌ ظلَّاماً» لم يَدُلَّ هَذا القولُ على أنَّه ليسَ ظالماً مطلقاً.

وأمّا قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [١٨٢/ آل عمران/ ٣]. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [٤٦/ فصلت/ ٤١]. ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[٢٩/ ق/ ٥٠].

فهو من دقَّة الأداءِ البيانيّ لإِجراءِ التقابُل بين أفراد الظلم، وأفراد العبيد، فلو أنّه تعالَىٰ ظَلَمَ كُلَّ واحدٍ من عباده أقلَّ ظُلْمٍ لكان بالنسبة إليهم جميعاً ظلَّاماً، لكنَّهُ لا يفْعَلُ ذلك فهو ليْسَ بظلّام.

فإذا قيل: فهل يظلم الله عزّ وجلّ بعضَ عبيده أقَلَّ ظُلْمٍ ولو شخصاً واحداً؟

فالجواب: أنَّ الله عزّ وجلّ نفى ذلك عن نفسه في نصوصٍ أخرىٰ، منها ما يلي:

● قول الله تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

● وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

- وقول الله عزَّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿ . . . وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾ ﴾ .

وبهذا تَكَامَلَتِ النُّصُوصُ في بيان كُلِّ عَناصِر الموضوع، من كلّ جوانبه، وهذا من وجوه إعجاز القرآن، فمِنْ أُسْلُوبِ القرآن تجزئةُ مَوْضُوعاتِه إلى عناصر جزئيَّةٍ، وتناوُلُ كلِّ عنصر منها ببيانٍ خاصٍّ يحيط به، ولدى جَمْعِ كلِّ البيانات حول الموضوع الواحد يكونُ الموضوع قَدْ أُحِيطَ بِهِ من كُلِّ جوانبه، وأَوْضَحَ البيان كلَّ عناصِره.

* * *

(٨)

دَلاَلاتُ الجملة الخبريّة بحسب أحوالها

لدى تقسيم الجملة إلى خبريّة وإنشائيّة عرفنا أنّ الخبر هو الكلام الذي يحتمل الصّدقَ والكذبَ، باعتبار كونه مجرّد كلام، دون النظر إلى قائله، ودون النظر إلى كونه مقترناً بما يدلُّ على إثباته حتماً، أو نفيه حتماً، ومدْلُولُهُ لا يتوقف على النطق به، وللجملة الخبرية أحوال ودلالات مختلفات:

أولاً

دلالات الجملة الخبرية الاسميّة

التي لا يكون خبرها جملةً فعليّة

الجملة الخبريّة الاسميّة الّتي لا يكون خَبَرُها جملةً فعليّة، تُفِيدُ بأصْلِ وضْعها الحكْمَ بإثبات أو نفي نسبة المسند (= المحكوم به) إلى الْمُسْنَد إليه (= المحكوم عليه) فقط، دون إفادة حدوثٍ ولا استمرارٍ ولا تَجَدُّدٍ، والأصل فيها التحدّث بها عن الواقع عنْد إنْشاء الجملة.

فإذا أَرَدْنَا الإِخْبار عن هذه النسبة في الماضي أضفنا إليها ما يدلّ على الزمن الماضي، أو جعلنا مع الكلام قرينة تدلُّ عليه.

وإذا أردنا الإخبار عن هذه النسبة في المستقبل أضفنا إليها ما يدُلُّ على الزمن المستقبل، أو جعلنا مع الكلام قرينة تدلّ عليه.

وإذا أردنا إفادة الاستمرار والدوام أضفنا إليها ما يَدُلُّ على ذلك، أو اكتفينا بالقرائن اللَّفظِيَّة أو الفكريَّةِ الدالَّةِ عليه.

فقولنا: «سعيدٌ قائم ــ سُعَادُ نائمة ــ اللَّهُ ربُّ العالمين ــ نوحٌ رسول الله ــ الجنَّةُ دار نعيم المتقين ــ النّار دار عذاب المجرمين ــ الشمس طالعة ــ الشمس غير طالعة ــ العنقاء لا وجود لها ــ النار محرقة».

كلُّ هذه الْجُمَلِ لا تدُلُّ بأصل وضعها على أكثر من إثبات النسبة أو نفيها بين رُكْني الإسناد.

والأصل فيها إرادة الحال عند إنشاء هذه الجمل، ويُمْكِنُ أن يُراد بها الدّوام بقرينةٍ عقليّة، في مثل: «الله ربّ العالمين» للعلم بأنَّه ليس للعالمين ربٌّ غَيْرُه، ولا بُدَّ للعالمين من ربٍّ دواماً أو بدلالةٍ لفظيّة صريحة في مثل: اللَّهُ رَبُّ العالمين دواماً، أو بقرينة لفظية غير صريحة.

ويَصْرِفُ عَنْ إِرَادَةِ الحال عند إنشاء الجملة قرينةٌ عقلية في مثل: «نوحٌ رسول الله» أي: كان رسول الله لقومه في زمانه، للعلم بأنّ نوحاً عليه السلام قد مات من آلاف السنين. وفي مثل: «الجنَّةُ دَارُ نَعيم المتقين» أي: ستكون دار نعيم المتقين بعد دخولهم فيها يوم الدّين، للعلم بأنّهم الآن لم يدخلوها مع أنّها معدَّةٌ لهم. أو دلالةٌ لفظيّة كأن نقول: «نوح عليه السلام رسول الله في زمنه الذي مضى» و «الجنَّةُ دار المتقين بعد الحساب وفَصْلِ القضاء يوم الدّين»، أو قرينة لفظية غير صريحة.

ومن القرائن التي تدلُّ على الدوام المدحُ أو الذمُّ أو تقديم الجملة على أنَّها حِكْمَةٌ يُسْتَرْشَدُ بها.

● ومن الأمثلة التي تدلُّ قرينة المدح فيها على الدوام والاستمرار قول الله عزّ وجلّ لرسوله في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٢ نزول):

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

● ومن الأمثلة التي تدلُّ قرينةُ الذّمّ فيها على الدوام والاستمرار، قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا . . .﴾ [الآية ٦].

فقد جاء هذا النص في معرض التحذير من الشيطان وذمّه.

● وسَوْقُ الْجُمْلَةِ مَسَاقَ حِكْمَةٍ يَحْسُنُ الاسترشادُ بها لِيَكُونَ قَرِينَةً على الدوامِ والاستمرار، نَجِدُ لَهُ أَمْثِلَةً كثيرة، منها:

«رَأسُ الحكمةِ مَخَافَةُ الله ــ الصّحَّةَ تَاجٌ على رُؤوسِ الأَصِحَّاء ــ في الْعَجَلَةِ النَّدامَةُ وفي التَّأَنِّي السَّلاَمَةُ ــ الْبَرَكَةُ فِي الْبُكُورِ».

* * *

ثانياً
دلالات الجملة الخبريّة المشتملة على فعل ماضٍ

ولا تفيد الجملة الخبريّة الإثباتِيَّةُ المشتملة على فعل ماضٍ أكثر من إثبات حدوث النسبة الحكميّة في الزمن الماضي، فلا تَدُلُّ على الاستمرار إلاَّ بمساعدة من القرائن اللفظيّة أو العقلية.

فإذا قُلنا: «خطبَ صالحٌ ابنةَ الشيخ عثمان ــ نام الخطيب عبد الرحمن على المنبر ــ صعد أبـي إلى غار حراء» فإنّ هذه الْجُمَل لا تفيد بحسب أصل الوضع

أكثر من حدوث النِّسَبِ الحكميّة الّتي دلَّت عليها في زمن مضىٰ، ويكفي لتحقيق صدقها أقَلُّ ما يُطْلَقُ عليه لفظ الفعل الماضي من معنىً يدلُّ عليه.

● لكنّ القرائن العقليّة قد تجعل الفعل الماضيَ دالاًّ على الاستمرار والدوام، وقد يكون ذلك من الأزل إلى الأبد، كفعل «كان» في الجمل التي تتحدّث عن ذات الله وصفاته مثل:

«وكان الله عليماً حكيماً ـــ إنَّ الله كان سميعاً بصيراً ـــ وكان الله غنيّاً حَمِيداً» أي: هو دواماً عليم حكيم سميع بصير غنيٌّ حَمِيد.

● ومن القرائن اللّفظيّة أن نقول: «ثَرْوَةُ بلادنا تَعْتَمِدُ على إنتاج الحبوب وقد كانت بلادنا تُنْتج الحبوب من قديم الزمان» أي: فهي ما زالت تنتجها.

❑ أمّا الجملة الخبريّةُ السّالبة المشتملةُ على فعلٍ ماضٍ أو مضارع منفي بحرف «لَمْ» أو حرف «لمَّا» فهي تَدُلُّ ذهْناً على استيعاب الزمن الماضي بمقتضىٰ النفي، لأنّه لو حدث المنفيّ فيها ولو مرَّةً واحدةً في الزّمان الماضي لما صَحّ النّفْيُ، لكن إذا وُجِدَ قيد يُحَدِّدُ قدْراً من الزّمَنِ الماضي أوْ قرينةٌ تدلُّ عليه، في غير نفي المضارع بحرف «لمّا» فالنفي عندئذٍ لا يَسْتَوْعِبُ كلَّ الزَّمَنِ الماضي.

أمّا نفي المضارع بحَرف «لمّا» فقد سبق أنّ المنْفِيَّ بها مُسْتَمِرُّ النفي إلى زمان التكلّم.

* * *

ثالثاً
الجملة الخبرية المشتملة على فعل مضارع

يقول النحويّون: الفعل المضارع يُسْتَعْمَل للدّلالة على وقتين: الحال والاستقبال، أي: لأحدهما أو لَهُما معاً، فإذا دخلت عليه «لم» أو «لمَّا» انقلب زمنه إلى الماضي، وإذا دخلت عليه «لام التوكيد» أو «ما» النافية تعيّن للحال، وإذا دخلت عليه «السين أو سوف» تعيّن للاستقبال.

أمّا علماءُ البلاغة فيرونَ أنّ الجملة الخبريّة المشتملة على فعل مضارع غيرِ مقلوب الزمن إلى الماضي، وغيرِ مُتَعَيِّنٍ بالأدوات للحال أو للاستقبال، تفيد تجدُّدَ حُدُوثِ النّسبة الحكميّة فيها، بمقتضىٰ دلالة الفعل المضارع، مع إفادة تتابع تَجَدُّد الحدوث، سواء أكانت الجملة مُثْبَتَةً، أم منفيّة، ما لم يَصْرِف عن هذه الدلالة صارف.

فإذا قال قائل: «تَعْمَلُ أُسْرَتُنَا، أو أُسْرَتُنا تَعْمَل: أنا أَعْمَل في التجارة، وابني يعمل في العمران، وبنتي تَعْمَلُ في الخياطة، وزوجتي تعمل في أعمال البيت». فظاهر هذا الكلام يدلُّ علىٰ أنّهم جميعاً يعملون في حركة متجدّدة تَمْلأُ بحَسَب المعتاد في عُرفِ الناس أوقاتَ العملِ الّتِي يعمل فيها الناس لكسب أرزاقهم وتأدية وظائفهم، والقيام بمطالب حياتهم.

وكذلك إذا قال: «لا يَعْمَلُ أَحَدٌ من أُسْرَتِنَا» فإنّه ينفي وُجُودَ العمل ذي الحركة المتجددة بتتابع، ولا ينفي وجود أيِّ عمل ما.

وإذا قال قائل يَصِفُ وَادِياً فيه رياضٌ غنَّاء: «النهرُ يَجْري، والزمانُ يَسِيرُ دُونَ مزْعِجَات، والرّيَاحُ تَعْبَثُ بالْغُصُون، والطُّيُورُ تَتَنَقَّلُ بين أَغْصَانِ الشَّجَر وَتُغَرِّدُ، ونحن نَسْتَمْتِعُ بأنواعِ الطّيبات» فإنَّهُ يَدُلُّ بصِيَغِ الفعل المضارع التي اسْتَعْمَلَهَا في الْجُمَلِ الّتي قالها على أَنَّ الأحداث الّتي أَخْبَر بها أحداثٌ متجدّدة متكرّرة في المكان والزمان اللّذَيْنِ تَحَدَّثَ عنهما.

وحين نقول: «الأرض تدور ــ والشمس تجري ــ واللَّيْلُ والنهار يتعاقبان ـ ولا يُوجَدُ شركاء لله في ربوبيّته ولا في إلٰهيته».

فإنّ هذه الجمل تدُلُّ على دَوام التجدّد دون ملاحظة نهاية، ما لم تدلَّ قرينة عقليّةٌ أو لفظيّةٌ أو نصٌّ صريح عليها.

هذا هو الذي يتبادر من الاستعمال في كلّ جملة خبرية تشتمل على فعل مضارع، سواء أكانت الجملة اسميّة أم فعليّة.

وعلى متدبّر كتاب الله أن يُلاحظ هذه الدلالة، حتّىٰ يكون على بصيرةٍ في تدبُّره.

أقول: يُلاَحَظُ في النُّصوصِ القرآنيّةِ كَثْرَةُ استعمال اسم الفاعل واسم المفعول دالَّين علَىٰ ما يَدُلُّ عليه الفعلُ المضارع من تَجَدُّد الحدوث وتكراره، ومنه قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بشأن «عاد» قوم الرسول «هود» عليه السلام، إذْ أَنْفَذَ الله قَضَاءَه بإهْلاَكهم ونَجَاةِ هُودٍ والَّذِينَ آمنوا معه:

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

أي: كَذَّبُوا فيما مَضَىٰ مِنْ عُمْرِهِمْ قبْلَ لحظة إهلاكهم بآياتِنا، وَمَا كانوا مُؤْمِنينَ بهَا مُسْتَقْبَلاً لوْ أَمْهَلْنَاهُمْ، فحالَتُهُمُ النفسيَّةُ حالةٌ مَيْئُوسٌ منها، إذْ وصَلُوا إلى دركة التَّعَنُّت والعناد والإصرار على الكفر، رغم وضوح الأدلّة والبراهين التي دمَغَتْهم، واستيقنتها قلوبهم.

* * *

رابعاً

الجملة الخبريّة المشتملة على شرط

قد تُؤَلَّفُ جُملَةٌ خبرية مُرَكَّبَةٌ من جملتين فأكثر، إذْ يعقد الشرْطُ بينهما أو بينها رابطاً لإثبات حُكْم أَوْ نفيه، وللشرط أدواتٌ تدلُّ عليه، فتصير كُلُّ جُملة مِنْ عناصر الجملة المركّبة بمثَابَةِ مفرد في جملة بسيطة.

والجملة الخبريّة الشرطيّة تنقسم إلى قسمين:

- الجملة الشرطيّة المتصلة.
- الجملة الشرطيّة المنفصلة.

الجملة الشرطية المتّصلة:

هي التي يكون الحكم في جملة جواب الشرط فيها مرتبطاً ارتباطاً شرطيّاً بالحكم في الجملة التي جُعِل حُكْمُهَا شرطاً، مثل:

١ ــ مَنْ ماتَ على الإيمان الحقِّ دَخَلَ الجنَّة.

هذه الجملة الشرطيّة المركّبةُ من جملَتَيْن بسيطتين انعقد بينهما ارتباط شرطي، دلَّت على قضيَّةٍ شرطيّةٍ واحدة، هي الحكم بدخول الجنة بشرط تحقُّق الموت على الإيمان الحقّ.

٢ ــ إذا كانت الرّوح حالَّةً فِي الجسد، كان الجسد حيّاً.

وهذه الجملة الشرطيّة كسابقتها، وقد دلّت أيضاً على قضيَّةٍ شرطيّةٍ واحدة، هي الحكم بحياة الجسد بشرط تحقُّقِ وجود الروح فيه.

الجملة الشرطيّةُ المنفصلة:

هي الجملة التي يكون الحكم فيها متردّداً بين احتمالَيْنِ فأكثر، وحين يلاحظ المتكلّم الذي يريد إصدار الحكم انحصار التردّد بين عـدَدٍ من الوجوه أو الاحتمالات، فإنّه يُعَبِّر عن ذلك بمثل قوله: إمّا أن يكون الأمر كذا، وإمّا أن يكُون الأمر كذا، أي: لا يخلو عن واحدٍ منهما، أو لا يخلو عنهما، مثل:

(١) إمّا أن يكون العدد زوجاً وإمّا أن يكون فرداً.

(٢) جَلِيس السُّوءِ إمّا أنْ يُغْوِيَك وَإمَّا أن يوقعَك في التهمة.

(٣) إمّا أَنْ تكون الشمس طالعة وإمّا أن تكون غاربة.

وإذا حلَّلْنَا الجمل الشرطيّة التي من هذا القبيل فإننا نجدها ترجع من جهة المعنى إلى جملتين شرطيتين فأكثر.

فقولنا مثلاً: «إمَّا أنْ يكون العدد زوجاً وَإمَّا أنْ يكون فرداً» ينحلّ من جهة المعنى إلى ما يلي:

إذا كانَ العدد زوجاً فهو غير فرد. وإذا كان العدد فرداً فهو غير زوج.

وإذا لم يكن العدد زوجاً فهو فرد. وإذا لم يكن العدد فرداً فهو زوج.

إذن: فهذه الجملة الشرطيّة المنفصلة بقوة أربع جمل شرطيّة متصلة من جهة المعنى.

وقولنا مثلاً: «جليس السّوء إمّا أن يُغْويَك وَإِمَّا أن يُوقِعَكَ في التُّهَمَة» ينحلّ من جهة المعنى إلى ما يلي:

إذا لم يُغْوِكَ جليسُ السوء أوقعكَ في التُّهمَة. وإذا لم يوقِعْكَ في التُّهمَةِ أغواك. أي: لا يخلو الأمر عن واحد منهما وربما يجتمع الأمران.

بهذا التحليل يتَّضحُ لنا أنَّ الجملة غير الشرطية تشتمل على حكم بين شيئين دون ارتباط بحكم آخر، فهي بسيطة، وأنّ الجملة الشرطيّة المتصلة تشتمل على حكم بين شيئين مرتبط بحكم آخر، فهي مركّبة تركيباً متوسّطاً، وأنّ الجملة الشرطيّة المنفصلة تشتمل على حكم متردِّدٍ بين شيئين فأكثر، فهي تنحلّ من جهة المعنى إلى جملتين شرطيّتين متصلتين فأكثر، فهي مركّبةٌ تركيباً أعلى.

وفي الجمل الشرطيّة إيجازٌ لا يوجد في غيرها لو أُرِيد التعبير عن مضمونها بجمل غير شرطيّة.

● ● ●

الفَصل الرابع

الجملة الإنشائية وأقسامها

وفيه ما يلي:

(١) مقدمة.

(٢) ومقولتان:

المقولة الأولى: شرح الإنشاء غير الطلبي، وهو خمسة أنواع:

النوع الأول: أمر التكوين.

النوع الثاني: إنشاء العقود وحلّها.

النوع الثالث: إنشاء المدح والذمّ.

النوع الرابع: إنشاء القسم.

النوع الخامس: إنشاء التوجع أو التفجّع ونحوهما.

المقولة الثانية: شرح الإنشاء الطلبي، وفيه ستة أنواع:

النوع الأول: الأمر والنهي.

النوع الثاني: التحذير والإغراء.

النوع الثالث: النداء.

النوع الرابع: التمني والترجي.

النوع الخامس: الدعاء.

النوع السادس: الاستفهام.

* * *

المقـــدّمَة

لدى تقسيم الجملة إلى خبريَّة وإنشائية عرفنا أنّ الإنشاء هو ما لا ينطبق عليه تعريف الخبر، ولدى تحليل حقيقته أقول:

هو الكلام الذي يتوقف تحقُّقُ مدلوله على النطق به، كالأمر والنهي والدعاء والاستفهام، وإنشاء العقود، وإنشاء المدح والذمّ، وأمر التكوين، والْقَسَم، ونحو ذلك.

وأضيف هنا أنّ الإنشاء في اللّغة هو الإبداع والابتداء، وكلٌّ من ابتدأ شيئاً فقد أنشأه.

والإنشاء في الجملة الإنشائية ينقسم إلى قسميْن:

القسم الأول: الإنشاء غير الطلبـي.

القسم الثاني: الإنشاء الطلبـي.

• • •

شرح الإنشاء غير الطّلبـي

تـعـريـفـه:

الإنشاء غير الطلبـي: هو ما لا يستدعي مطلوباً، إلاّ أنّه يُنْشِىءُ أمراً مرغوباً في إنشائه، وله أنواع وصيَغٌ تَدُلُّ عليه، ومنها الأنواع التالية:

النوع الأول: وهو أعلاها، وهو ما يمكن أن نُسَمّيَهُ «أمْرَ التكوين» وجملَة أمْرِ التكوين هي لفظ «كُنْ» كما قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

* * *

النوع الثاني: إنشاءُ العقود، وحلُّ المعقود منها، مثل عقود البيع، وعقود الزواج، وأوامر ضَرْبِ الرّق، وقرارات تعيين الموظفين، وقرارات الإقالة من الوظائف ممّن يملك ذلك، وكعبارات الطلاق والعتق، ومبايعة رئيس الدولة، وخلع البيعة عنه، ونحو ذلك.

وتأتي صِيَغُ العقود وصِيَغُ حلّها بعباراتٍ مختلفات من الجمل الفعليّة والاسميّة، وما يقوم مقامهما اختصاراً، مثل:

(١) إنشاء عقود البيع والشراء بما يدلُّ عليها اصطلاحاً من عبارات:

«كبِعْتُكَ، اشْتَرَيتُ منك ــ أبيعك، أشتري منك ــ بِعْني، بعْتُك ــ اشْتَرِ مِنّي، اشْتَرَيتُ منك» ونحوها.

(٢) إنشاء عقود الزواج بما يدلُّ عليها اصطلاحاً من عبارات: «كزَوّجتُك بنتي، قبلت زواجها ــ أُزَوّجُك ابنتي، تَزَوَّجتها ــ زَوّجْنِي ابْنَتَك، زوّجْتُكَهَا» ونحوها.

(٣) إنشاء عقد مبايعة أمير المؤمنين بما يدلُّ عليها من عبارات: «أبايعك على السّمع والطاعة ــ بايعتُكَ على السّمع والطاعة» ونحوها.

إلى غير ذلك من عباراتٍ تتضمَّن في عرف الناس إنشاء العقود، وهي جُمَلٌ، أو مختصراتٌ تتضَمَّنُ معنىٰ جُمَلٍ إنْشَائِيّة.

(٤) إنشاءُ الدخول في الإسلام بإعلان الشهادتين، فهو عَقْدٌ مع اللّهِ بالإِسْلَام له، مع عقد النيّة على هذا الدخول.

(٥) إنشاء الدخول في نحو عبادة الصلاة، أو عبادة الحج والعمرة، فالدخول في الصلاة يكون بعقد النيّة مع تكبيرة الإحرام، إذْ تكبيرة الإحرام تنوب مناب: عقدت الدخول في الصلاة وأنشأته، مع استحضار النيّة في النفس.

والدخول في عبادة الحج أو العمرة يكون بعقد النيّة مع التلبية، إذ عبارة «لبّيْكَ اللّهُمَ لبّيْكَ» تنوبُ مناب: عقدتُ الدخول في الحج أو العمرة وأنشأته، مع استحضار النيّة في النفس.

(٦) حلُّ العقود بعبارات تدلُّ عليه، مثل:

«فَسَخْتُ البيع ــ خَلَعْتُ الْبَيْعَةَ ــ قول الرجل لزوجته: طلَّقْتُكِ أو أنتِ طالق، أو نحو ذلك ــ قول مالك الرقيق لمملوكه: أعتقتك، أو أَنْتَ عَتِيقٌ، أو قوله له: كاتَبْتُكَ على كذا» ونحو ذلك.

النوع الثالث: إنْشاء المدح أو الذّم، ويأتي في أفعالٍ وصِيغ:

● فيأتي المدح بفعل: «نِعْم» مثل: «نِعْمَ الْعَبْدُ إنَّهُ أوّاب ــ ولَنِعْمَ دار المتَّقين ــ فَنِعِمَّا هِي».

● ويأتي الذَّمُّ بفعل: «بئْسَ» مثل: «بِئْسَ الشَّرَابُ ــ فَلَبِئْسَ مَثْوىٰ المتكبِّرِينَ».

● ويُحَوَّلُ الفعل الماضي الثلاثي عن وزْنِه فَيُصَاغُ على وَزْنِ «فَعُلَ، لازماً بضمّ العين، ويُسْتَعْمَلُ عندئذٍ قريباً من استعمال «نعم وبئس» للدلالة على المدح أو الذم، مثل: «وَحَسُنَ أولئِكَ رَفيقاً ــ حَسُنَتْ مُسْتقرّاً وَمُقاماً ــ إنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً ومُقَاماً ــ وسَاءَتْ مَصِيراً ــ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً ــ مُحْمُّدٌ عَظُمَ رَسُولاً، وكَرُمَ أصْلاً، وجَمُلَ خُلُقاً، وجَادَ عطاءً، وفَاقَ بَيَاناً».

أفْعَالُ «ساءَ وجَادَ وفاقَ» في هذه الأمثلة هي على تقدير تحويلها إلى وزنِ «فَعُل» وإن شابَهَ لفظُها الذي حُوِّلَتْ إلَيْهِ لَفْظَهَا الذي حُوِّلَتْ مِنْهُ، لأنّ لَفْظَها الّذِي حُوِّلَتْ إليهِ هو «سَوُءَ ــ جَوُدَ ــ وفَوُق» ولكن تحرّكتِ الواو وانْفتَحَ ما قَبْلَهَا فقُلِبَتْ ألفاً، فعادت إلى مثل ما حُوّلَتْ عَنْهُ في اللفظ.

ونُلاحِظُ أنّ عبارات إنشاء المدح والذمّ من بدائع الصِّيَغ والتركيباتِ في اللِّسَان العربي.

ويُمْكِن أن نُلْحِقَ الشتائم بإنْشاءِ الذّم.

* * *

النوع الرابع: إنْشَاءُ الْقَسَم، ولَهُ صِيَغٌ كثيرَة، منها: «أُقْسِمُ بالله لَفَعَلْتُ أَوْ لأَفْعَلَنَّ ــ أَحْلِفُ بالله لأَفعَلُ أو لتَفْعَلَنَّ ــ أَشْهَدُ لأَفعَلَنَّ ــ أُشْهِدُ اللّهَ لأَفْعَلَنَّ ــ عَلِمَ اللّهُ أو يَعْلَمُ اللّهُ لأفْعَلَنّ».

ويختصر العرب عباراتِ الْقَسَم فَيَحْذِفون منها فعل الْقَسَمِ، ويشيرون إليه بأداةٍ كحرف الْقَسَم، مثل: واللَّهِ ــ باللَّهِ ــ تَاللّهِ» أو بحركة إعرابٍ مثل: «اللّهِ لأفْعَلَنَّ» على تقدير وجود حرف القسم الجارّ، أو «اللَّهَ لأفْعَلَنَّ» أي: أَحْلِفُ اللَّهَ بالنصب، والنصب جاء على طريقة الحذف والإيصال، وهو حذف الجار ونصْبُ المجرور به على أنّه مفعولٌ به.

والغرضُ من إنشاء الْقَسَمِ تأكيد الجملة الخبريَّة كما سَبَقَ بيانه في مؤكداتِ الخبر.

* * *

النوع الخامس: إنشاء التوجّعِ أو التَّفَجُّعِ، أو التَّرَحُّمِ، أو التَّثْرِيب، أَوْ تَقْبيحِ الحال.

وتَدُلُّ على هذه المعاني عبارات هي في الحقيقة اختصارٌ لجمل أو رَمْزٌ لها من جهة المعنى.

- ففي التوجّع نلاحظ عبارات مثل: «يا عُمراه ــ واعُمَراهُ ــ وامُحمّداهُ ــ واحُزْنَاه ــ وافَجِيعَتاه».

ومثل: «آه ــ أَوّه».

- وفي الترحم أو التخوّف من وقوع مكروه، مثل «ويْحَهُ ــ وَيْسَه».
- وفي التقبيح والتثريب، مثل: «وَيْلَه ــ وَيْبَه» قالوا: وهما كلمتا عذاب، أي هما كلمتان لإنْشَاءِ التقبيح والتثريب بسبب استحقاق العذاب.

● ● ●

شرح الإنشـاء الطّلبـي

تـعـريـفـه:

الإنشاء الطلبـي: هو ما يستدعي مطلوباً غير حاصل في اعتقاد المتكلّم وقت الطلب، ويكون الإنشاء الطلبـي بأنواع من الكلام: «الأمر والنهي ــ التحذير والإغراء ــ النداء ــ التمنّي والترجّي ــ الدعاء ــ الاستفهام».

* * *

(١)

النوع الأول: الأمر والنهي

تعريف الأمر: هو طلَبُ تحقيق شيْءٍ ما، مادّيٍّ أو معنويّ، وتدُلُّ عليه صِيَغٌ كلاميّة أربع، هي:

«فعل الأمر ــ المضارع الذي دخلت عليه لام الأمر ــ اسم فعل الأمر ــ المصدر النائب عن فعل الأمر».

تعريف النهي: هو طلَبُ الكفّ عن شيءٍ ما، مادّيٍّ أو معنويٍّ، وتدلُّ عليه صيغةٌ كلامية واحدة هي: «الفعل المضارع الذي دخلت عليه (لاَ) الناهية».

أمثلة من الأمر:

(١) من صيغة «فعل الأمر»:

• ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا . . .﴾ [الآية ١٥٨ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

• ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧نزول).

• وقول أبـي الطيّب المتنبّـي:

عِـشْ عَـزِيـزاً أَوْ مُـتْ وَأَنْـتَ كَـرِيـمٌ   بَيْـنَ طَعْـنِ الْقَنَـا وَخَفْـقِ الْبُنُـودِ[1]

• وقَوْلُ الشاعر:

إِذَا لَـمْ تَخْـشَ عَـاقِبَـةَ اللَّيَـالِـي   وَلَـمْ تَسْتَحْـيِ فَـاصْنَـعْ مَـا تَشَـاءُ

(٢) مِنْ صيغة «المضارع الذي دخلَتْ عليه لاَمُ الأَمْرِ».

• ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول).

• وقول البحتري:

فَمَنْ شَاءَ فَلْيَبْخَلْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَجُدْ   كَفَانِي نَدَاكُمْ عَنْ جَمِيعِ الْمَطَالِبِ

• وقول المتنبـي في مدح سيف الدولة:

كَـذَا فَلْيَسْـرِ مَـنْ طَلَـبَ الأَعَـادِي   وَمِثْـلَ سُـرَاكَ فَلْيَكُـنِ الطِّـلاَبُ

• وقـول الشـاعر:

لِيَكُنْ بِرَبِّكَ كُلُّ عِزِّك يَسْتَقِرُّ ويَثْبتُ   فَإِذَا اعْتَزَزْتَ بِمَنْ يَمُوتُ فَإِنَّ عِزَّكَ مَيِّتُ

(٣) مِنْ صِيغَةِ «اسم فِعْلِ الأَمْرِ»:

---

(١) الْقَنا: الرّماح الْجَوْفاء، واحدتها القناة، وهي الرمح الأجوف.
والبنود: هي الرّايَات والأعلام، وخفقها تحرُّكُها بالرياح واضطرابها.

● ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ۝١٧﴾ (الطارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول).

رُوَيدا: اسم فعل بمعنىٰ «أَمْهِلْ».

● ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩﴾ (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول).

ها: اسم فعل أمر بمعنى «خذ».

● وقول المعرّي:

أَبَنَاتِ الْهَدِيلِ أَسْعِدْنَ أَوْعِدْ ... نَ قَلِيلَ الْعَزَاءِ بِالإِسْعَادِ
إِيهِ لِلَّهِ دَرُّكُنَّ فَأَنْتُنَّ ... اللَّوَاتِي تُحْسِنَّ حِفْظَ الْوِدَادِ

إِيهِ: اسْمُ فعل أمر، معناه طلب الزيادة.

الْهَدِيل: صوتُ الحمام ـ أو ذكر الحمام الوحشي.

فالمعري يطالِبُ بناتِ الهديل، وهي أنغام صوت الحمام، بأن تُسْعِدَه بما لديها من ترجيعٍ وترديدِ ألحان، وبأن تزيده من غنائها.

(٤) من صيغة «المصدر النائب عن فعل الأمر»:

● ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١﴾ (الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول).

فَسُحْقاً: أي فَبُعْداً شديداً، وهو مصْدَر «سَحُقَ» بمعنى: بَعُدَ أَشَدَّ الْبُعْد، وقد ناب عنْ فعل الأمر، والمعنى: «اسْحُقُوا» أي: ابْتَعِدوا ابتعاداً شديداً.

● قول قَطَرِيّ بن الْفُجَاءَة:

فَصَبْراً فِي مَجَالِ الْمَوْتِ صَبْراً ... فَمَا نَيْلُ الْخُلُودِ بِمُسْتَطَاعِ

فَصَبْراً: أي: فاصْبِرْ.

أَمْثِلَةٌ مِنَ النهي:

● ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا . . . ﴾ [الآية ١١٨] (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول).

بِطَانَةً: أي: أصْحاباً يُخالطونكم ويطلعون على أسراركم وبواطن أموركم.

لَا يَأْلُونكُمْ خَبَالاً: أي: لا يُقَصِّرُونَ في إفساد شؤونكم وخططكم وأفكاركم وأعمالكم.

● ﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا . . . ﴾ [الآية ٥] (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول).

● وقول المعرّي:

وَلَا تَجْلِسْ إِلَىٰ أَهْلِ الدَّنَايَا ... فَإِنَّ خَلَائِقَ السُّفَهَاءِ تُعْدِي

● وقول المتنبي في مدح سيفِ الدولة:

فَلَا تُبْلِغَاهُ مَا أَقُولُ فَإِنَّهُ ... شُجَاعٌ مَتَىٰ يُذْكَرْ لَهُ الطَّعْنُ يَشْتَقِ

● وقول أبي الأسود الدُّؤَلِي:

لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

دلالات صِيَغِ الأمْرِ والنهي:

(١) يُسْتَفادُ مِنْ صِيَغِ الأَمر التكليفُ الإلْزامِيُّ بالفعل.

(٢) ويستفادُ منْ صيغة النهي التكليف الإلزاميُّ بالترك وعدم الفعل.

وكلٌّ من صِيَغِ الأمْرِ وصيغةِ النهي قد تخرج عن دلالَتَيْهِما بقرائنِ حاليّة أو قوليّة إلى معانٍ كثيرة، منها ما يلي:

«الدعاء ــ الالتماس ــ الإرشاد ــ التمنّي ــ الترجّي ــ التيئيس ــ التخيير ــ التسوية ــ التعجيز ــ التهكّم والإهانة ــ الإباحة ــ التوبيخ والتأنيب والتقريع ــ

الندب ـ التهديد ـ الامتنان ـ الاحتقار والتقليل من أمر الشيء ـ الإنذار ـ الإكرام ـ التكوين ـ التكذيب ـ المشورة ـ الاعتبار ـ التعجّب أو التعجيب» إلى غير ذلك من معان.

أمـثـلـة:

(١) من الدعاء ويكون عادةً من العبد لربّه:

● ﴿. . . فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ. . .﴾ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

● ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول).

(٢) ومن الالتماس، ويكونُ عادةً من الإنسان لمن هو أعلىٰ منه، أو لمساويه:

● قول هارون لموسى عليهما السلام: ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

● وكقول الصِّديقِ لصَديقه: أَعِرْنِي كتابَكَ وَلاَ تُحْرِجْنِي أَنْ أُعِيدَهُ قَبْلَ أُسْبُوعٍ.

● وقول الشاعر:

لاَ تَطْوِيَا السِّرَّ عَنِّي يَوْمَ نَائِبَةٍ فَإِنَّ ذَلِكَ ذَنْبٌ غَيْرُ مُغْتَفَرِ

(٣) ومن الإرشاد، ويكونُ عادةً في مجال النُّصْح وإبْدَاءِ المشورة:

● ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ . . .﴾ [الآيــة ٢٨٢] (البقــرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول).

• وقَوْلُ المستَشار في نَصيحَتِه: تَزَوّجْ بِكْراً وَلاَ تَتَزَوَّجْ مَنْ تَعَدَّدَ عَلَيْهَا الأزْواج.

• وقول المعرّي:

لاَ تَحْلِفَــنَّ عَلَــىٰ صِــدْقٍ وَلاَ كَــذِبٍ ... فَــلا يُفِيــدُكَ إلاَّ الْمَــأْثَــمَ الْحَلِــفُ

(٤) ومن التَّمنِي، ويكون عادة في الميئوس من الحصول عليه، أو فيما هو بعيد المنال:

• تمنِّي أهل النّار أنْ يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ بالْمَوتِ وَهُمْ يائسونَ مِنْ ذلك:

﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ۝٧٧﴾ (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول).

• وطَلَبُهُم من أصحاب الجنة أن يفيضوا عليهم من الماء أو مما رزقهم الله.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ. . .﴾ [الآية ٥٠] (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

• وقولي واضعاً مثلاً:

أَمْطِــرِي يَــا سَمَــاءُ كُــلَّ صَبَــاحٍ ... فَــوْقَ بَيْتِــي مِــنَ الــدنــانِيــرِ أَلْفــاً

لاَ تَكُفِّــي مِــنْ فَيْــضِ جُــودِكِ عَنِّــي ... عَــادَتِــي لاَ أَسُــوءُ بِــالْقَبْــضِ كَفّــاً

(٥) ومن الترجّي، ويكونُ في المطموع فيه، والمترقّب الحصول عليه:

• قول امرىء القيس:

أَلاَ أَيُّهَــا اللَّيْــلُ الطَّــوِيــلُ أَلاَ انْجَلِــي ... بصُبْــحٍ ومــا الإصْبَــاحُ مِنْــكَ بَــأَمْثَــلِ

فالصبْحُ مَرْجُوٌّ قُدُومُه بعد اللَّيل الطويل.

(٦) ومـن التيئيـس:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) بشأن المنافقين:

﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ... ﴾ [الآية ٦٦].

(٧) وَمِـنَ التَّخييـر:

● قولُنا للطالب في الامتحان: أجبْ على أَحَدِ السؤالَيْن التاليين:

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول):

﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ ﴾.

● وقول المتنبـي:

عِـشْ عَـزِيـزاً أَوْ مُـتْ وَأَنْـتَ كَـرِيـمٌ   بَيْـنَ طَعْـنِ الْقَنَـا وَخَفْـقِ الْبُنُـودِ

القنا: الرماح. البنود: الأعلام.

(٨) ومـن التسويـة:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الطور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول) حكاية لما يُقال لأهل النار يوم الدين:

﴿ هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

● وقول الشاعر:

أَسِيئِـي بِنَـا أَوْ أَحْسِنِـي لَا مَلُـومَـةٌ   لَـدَيْنَـا وَلَا مَقْلِيَّـةٌ إِنْ تَقَلَّـتِ

تَقَلَّتْ: تَبَغَّضَتْ ــ أو تَمَلْمَلَتْ.

(٩) ومـن التّعجيـز:

● قولُ الله عزَّ وجلَّ في سورة (الرحمن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):

﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ ﴾.

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول): ﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

● وقول اللَّهِ عزَّ وجلَّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

(١٠) ومِنَ التهكّم والإهانة:

● ما يقال للمعذَّب في النار يوم الدّين، كما جاء في سورة (الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول):

﴿ خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾.

ففي الأمر بفعل [ذُقْ] تهكُّم به.

● وما يُقال جواباً لِمَنْ قُضِي عليهم بالخلود في النار حين يقولون:

رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْها فإنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظالِمُونَ، كما جاء في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

(١١) ومـن الإباحـة:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا . . . ﴾ [الآية ١٦٨].

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿ . . . وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ . . . ﴾ [الآية ٢].

(١٢) ومن التوبيخ والتأنيب والتقريع:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً لأهل الكتاب:

﴿ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤٢ ﴾.

(١٣) ومن الندب ويقابله في النهي الكراهَة:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤ ﴾.

دل على أنّ الأمر للنّدب قوله: ﴿لعلكم تُرْحَمونَ﴾ ففي هذا ترغيب لا ترهيب.

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ٣٧ ﴾.

(١٤) وَمِنَ التهديد:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (فُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٤٠ ﴾.

أي: فَسَتَلْقَونَ عِقابَ أعمالكم في النار.

(١٥) ومن الامتنان:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ .

ففي الأمر بعبارة (كلوا) امتنان من الله على عباده.

(١٦) ومن الاحتقار والتقليل من أمر الشيء:

● قول مُوسَىٰ عليه السلام للسَّحَرةِ: ﴿أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ كما جاءَ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ .

لقد احتقر موسىٰ عليه السلام وسائلهم واستهان بسحرهم، فقال لهم: أَلْقُوا. أي: قبلي.

(١٧) ومـن الإنـذار:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿ . . . قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾ .

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول):

﴿ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

(١٨) ومن الإكرام والتكريم:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

(١٩) ومـن التكويـن:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة(يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ .

(كُنْ): من الله أمْرُ تكوين.

(٢٠) ومـن التكذيـب:

● قولُ الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ . . . ﴾ [الآية ١٥٠].

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

(٢١) ومـن المشـورة:

● قول سيدنا إبراهيم لولده إسماعيل عليهما السلام كمَا حكَىٰ اللَّهُ في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

فقول إبراهيم لإِسماعيل عليهما السلام: ﴿فانْظُرْ مَاذَا تَرىٰ﴾ قول طالب مشورة في أمْرِ الرؤيا.

(٢٢) ومـن الاعتبـار:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ . . . ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

(٢٣) ومن التعجب والتعجيب:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ ﴾.

• وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

﴿... فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٣٧ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٨﴾.

ذَكَرهُ السَّكّاكِيُّ في استعمال الإِنشاءِ بمعنىٰ الخبر، والمعنَىٰ: ما أشدّ سمعهم وبصرهم يومئذٍ.

إلى غير ذلك من معانٍ أخرى، وعلى متدبّر النصوص القرآنيّة، ودارِس النصوص الأخرى أن يكون باحثاً درّاكاً للمراد من صِيَغِ الأَمْرِ والنهي، مستفيداً مِنْ قرائِنِ الأحوال وسِبَاقِ الكلامِ وسِيَاقِه.

* * *

(٢)

النوع الثاني: التَّحْذِير والإِغراء

التحذير والإِغراء هما في المعنى من فروع الأمر والنهي، وينطبق عليهما ما ينطبق عليهما.

• فعبارات التحذير هي في معنى: (احذر ــ أو تجنّبْ ــ أو تَوَقَّ ــ أو تَبَاعَدْ ــ أو لا تَقْرَبْ ــ أو لَا تَدْنُ».

أو نحو ذلك ممّا يُلائم حال الْمُحَذَّرِ منه.

• وعبارات الإِغراء هي في معنى: (افْعَلْ ــ أَو الْزَم ــ أو اطْلُبْ ــ أو أَقْبِلْ ــ أو تَقَدَّم ــ أَوْ خُذْ ــ » أو نحو ذلك مما يُلائم حال الْمُغْرَىٰ به.

أمثلة:

(١) من التحذير:

قول الشاعر:

وَإِيّاكَ والْمَيْتَاتِ لَا تَقْرَبَنَّهَا ... وَلَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ وَاللَّهَ فَاعْبُدا

وقولي صانعاً مثلاً:

إِيَّــاكَ والصَّبْــوَةَ إِنْ أقْبَلَــتْ   مُنْــذِرَةُ الشَّيْــبِ تَهَــادَىٰ إِلَيْــك
زَلَّتُــكَ الْيَــوْمُ وَأَنْــتَ الَّــذِي   قَدْ شِبْتَ تُرْدِيكَ وَتَقْضِي عَلَيْكَ

● وقول الشاعر:

فَلاَ تَصْحَبْ أَخَا الْجَهْلِ   وإِيَّــــــاكَ وَإِيَّــــــاهُ

(٢) ومـن الإغـراء:

● قول الشاعر:

أَخَاكَ أَخَاكَ إِنَّ مَنْ لاَ أخَا لَهُ   كَسَاعٍ إِلَى الْهَيْجَا بِغَيْرِ سِلاَحِ

● وقول الداعي إلى الصلاة: **الصَّلاَةَ** جَامعة.

* * *

(٣)

النوع الثالث: النداء

تعريف النداء: هو طلَبُ الإجابة لأمْرٍ ما بحرف من حروف النداء يَنُوبُ مَنابَ «أدعو».

وأدوات النداء ثمان: «أَ ــ أَيْ ــ يَا ــ آ ــ آي ــ أَيَا ــ هَيَا ــ وَا».

● أمّا «أَ ــ أَيْ» فلِنداء القريب.

● وأمّا «أَيَا ــ هَيَا ــ آ» فلنداء البعيد.

● وأمّا «يا» فالرّاجح أنّها موضوعةٌ لنداء البعيد حقِيقةً أو حكْماً، وقيل مشتركة.

● وتُسْتَعَمل «وَا» للنّدْبة، وهيَ الّتي يُنَادَىٰ بها المندوبُ الْمُتَفَجَّعُ عليه، وتُسْتَعْمَلُ في النُّدْبة أيضاً «يَا» عند أَمْنِ الالتباسِ بالنداءِ الحقيقي.

تصرُّف البليغ في استعمال أدوات النداء:

(١) قد يستعملُ البليغ أدوات النداء الّتي للقريب فينادي بها البعيد، لمعنىً يُريدُ الإشارة إليه، كأن يُريدَ الإشارةَ إلَىٰ أنَّ هذا البعيد في جَسَده هو قريب إلى قلبه ونفسه حاضر في تصوّره المستمر، وكأن يريد الإشارة إلى أنّه لشدّة سمعه وانتباهه وسرعة استجابته، كأنّه قريب، فهو لا يحتاج أن ينادى بأدوات نداءِ البعيد.

(٢) وقد يَسْتَعْمِلُ البليغ أدوات النداء الَّتي للبعيد فينادي بها القريب، لمعنى يُرِيدُ الإشارة إليه، كأنْ يُرِيدَ أنّه رفيع المنزلة عالي المقام، فهو لارتفاع منزلته وبعد مقامه بمثابة البعيد إلى الأعلى في جسده، فاللآّئق به أنْ يُنَادَىٰ بأدوات النداء التي للبعيد. وكأَنْ يريد أنَّه مُنْحَطُّ المنزلة جداً، فهو لانحطاط منزلته بمثابة البعيد إلى الأسفل في جسده، فاللآّئق به أن يُنَادىٰ بأَدَواتِ النّداءِ الّتي للبعيد. وكأن يُرِيدَ التعبيرَ عن حَالةِ تَلَهُّفِهِ وشدّةِ طلَبِه، فهو بمثابة المستغيث الذي يمدُّ صوته في النداء، فيستعمل أدوات النداء التي للبعيد لما فيها من مدِّ الصّوْت وَطُول النفس معه. وكأن يريد أنّ المنادَىٰ غافل شارد الذهن أو غير مستعدٍّ للاستجابة فهو بمثابة البعيد.

(٣) وقد يخرج النداء عن المعنى الأصليّ الموضوع له، فيُسْتَعْمَلُ لدى البلغاء وغيرهم في أغراضٍ أخْرىٰ غير النداء، وهذه الأغراضُ تُفْهَمُ من قرائن الحال أو قرائن المقال، فكلُّ حَرَكَةٍ نفسيَّةٍ ذات مشاعِرَ تَدْفَعُ الإنسان إلى التعبير عنها بنداء ما بطريقةٍ تلقائية، ولو لم يشعر بأنّ هذا النداء يحقق له مرجوّاً أو مؤمولاً أو يدفع عنه مكروها.

كأن يستعمل النداء في الزّجْر واللّوم، أو التحسّر والتأسّف والتّفجع والندم أو النُّدْبة، أو الإغراء، أو الاستغاثة، أو اليأس وانقطاع الرجاء، أو التمني، أو التذكر وبث الأحزان، أو التضجر، أو الاختصاص، أو التعجب، إلى غير ذلك.

(٤) وكثيراً ما تُحذَفُ أداة النداء ولا سيما في نداء الرّبّ ودُعائه، فتكون مقدَّرة ذِهناً، مثل: «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمناً ــ رَبّ اغْفِرلي وَلِأخي ــ رَبّ زِدْنِي عِلماً ــ رَبِّ انْصُرنِي بمَا كذَّبُونِ».

والأداةُ التي تُقدَّرُ عند الحذف هي: «يا» فيما ذكر النحاة.

أقول: إنّ حذف أداة النداء لَهُ دلالةٌ في نفس البليغ، وهي أنّ المنَادىٰ هو في أقرب منازل القرب من المنادِي، حتّىٰ لَمْ يحتج إلى ذكر أداة نداءٍ لَهُ لشدّةِ قُربِهِ، وهذا يليق بمقام دُعاءِ الرّبّ جلّ وعلا، فإذا قال الداعي «يَارب» فهو يعبّر بذكر أداة النداء عن شِدَّةِ حاجة نفسه لما يدعو به، أو يعبّر عن ألمه أو استغاثته أو ضيقِ صدره، أو نحو ذلك من المعاني.

لذلك وجدتُ في القرآن أنّ كلّ نداءٍ فيه دعاءٌ للربّ قد حُذِفَتْ منه أداة النداء، باستثناء نِدَاءَيْنِ نَادَاهُما الرسُول محمّد ﷺ، فقد ذكر فيهما أداةَ النداء «يا» تعبيراً عن حالة نفسه الحزينة من أجل قومه الذين اتّخذوا القرْآنَ مهجوراً بعد أن بلّغهم ما أُنْزِل عليه منه، وأسْمَعَهُمْ آياتِهِ، وأعادَهَا عليهم مَرّاتٍ ليفهموا دلالاتها، فأصرُّوا على كُفْرهم وعنَادهم حتَّىٰ رأىٰ أنَّهُمْ لا يُؤْمِنُون مَهْمَا ذكَّرَهُمْ وأقنعهم وحذَّرَهُمْ وأَنْذَرَهُمْ.

فالأول: ما جاء في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) بقول الله عزَّ وجلَّ فيها:

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴿٣٠﴾ ﴾.

فذكَر الرسول حرف النداء «يا» مع أنه يُنَادِي ربَّهُ الذي هو أقرب إليه من حبل الوريد، ليعبّر بمدّ صوته بأداة النداء عن حزنه منْ أجل قومه، وتلَهُّفِهِ لاستجابتهم، وحِرْصِه على نجاتِهِمْ من عذاب ربّهم في جهنم دار عذاب الكافرين يوم الدين.

والثاني: ما جاء في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

أي: تَصَلَّبُوا على العناد والكفر، فَهُمْ لَا يتحرَّكونَ حركة جديدةً يُشْعِرُون فيها باقترابهم من الإيمان، فعبّر بأداة النداء عن تلهُّفِهِ لإيمانهِم ونجاتهم، وتوجُّعِ قلبه من أجلهم.

فائدة:

قال الزمخشري: «كثُر في القرآن النداء بـ[يا أيُّها] دون غيرها لأنّ فيها أوجهاً من التأكيد، وأسباباً من المبالغة، منها:

(١) ما في «يا» من التأكيد والتنبيه.

(٢) وما في «ها» من التنبيه.

(٣) وما في التدرّج من الإبهام في «أي» إلى التوضيح.

والمقام يناسب المبالغة والتأكيد، لأنّ كلّ ما نادى الله له عباده من أوامره، ونواهيه، وعطائه، وزواجره، ووعده، ووعيده، ومن اقتصاص أخبار الأمم الماضية، وغير ذلك ممّا أنطق الله به كتابه، أمورٌ عظام، وخطوبٌ جسام، ومعانٍ واجبٌ عليهم أن يتيقظُوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها، وهُمْ غافلون، فاقتضى الحال أن يُنَادَوْا بالآكد الأبلغ».

* * *

أمثلة من استعمال أدوات النداء
على وفق أو على خلاف مقتضى الأصل من القرب والبعد

● نادى نوح عليه السلام ولده الذي كان في معزل عنه مستخدِماً أداة النداء الّتي للبعيد، دلّ على ذلك قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

فاستعمل أداة النداء الّتي تُسْتَعْمَلُ للبعيد وفْقَ مقتضى الأَصْلِ، إذْ كان بعيداً في معزلٍ عن أبيه.

● ونُلاَحِظُ أنَّ هارُونَ عليه السلام كانَ لَهُ مَوْقِفَانِ مَعَ أخِيهِ موسَى عليه السلام، تُجَاهَ مَا كَانَ مِنْ مُوسَىٰ إذْ أَخَذَ برأسِهِ يَجُرُّهُ إلَيْهِ:

أمَّا في المرّةِ الأُولَى فَحَذَفَ مِنْ عبارَتِهِ أَداةَ النداء لإشعارِه بأنَّه أكْثَرُ مِنْ قَريبٍ بالنسبة إليه، دلَّ عَلَىٰ هذه المرّة ما جاء في سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾.

فحذفَ أداة النداء مُسْتَعطِفاً، لأنّه كان قريباً منه جَسَدِيّاً، وأشْعَرَهُ بزيادة القرب منه نفسيّاً، إذْ هو ٱبْنُ أُمِّه.

وأمَّا في المرّة الأُخْرَى حِينَ أَخَذَ مُوسَىٰ عليه السلام برأسِ هارون ولحيته محاسباً، فقد ناداه بحرف النداء «يا» قائلاً لَهُ كما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾.

أي: ولم تَرْقُبْ قَوْلي السّابقَ لَكَ: إنَّ الْقَومَ اسْتَضعَفُوني وكادُوا يَقْتُلُونَنِي «هذا فيما أرى والله أعلم».

فأنزل هارون أخاه موسى في هذا النداء الثاني منزلة البعيد، لأنّه لم يَرْقُبْ قولَهُ السّابِق لَهُ، أي: لم يضعه موضع المراقبة ليعمل بمقتضاه.

● ونلاحظ في خطاب الله لعباده في القرآن أنّه يُنزِّلُهُمْ مَنْزِلَة البعيدين عنه،

فيناديهم بحرف النداء «يا» مع أنّه أقربُ إليهم من حبْلِ الوريد، مراعاةً لمقام الربوبيَّةِ الرفيع، في الأمر والنهي والتوجيه، إذْ هو سبحانه العليُّ الأعْلَىٰ.

فجاء في النصوص القرآنية: يا عبادي ــ يا معشر الجنّ والإنس ــ يا يَحْيَى ــ يا عِيسَىٰ ــ يا داود ــ يا زكريا ــ يا أيُّها الناس ــ يا أيُّها النبيّ ــ يا أيُّها المزّمل ــ يا أيُّها المدَّثِّر».

● وأنزل أبو العتاهية مخاطَبَهُ الذي يعظه منزلة البعيد، فناداه بأداة النداء التي للبعيد «أيَا» ليشير إلى أنه غافِلٌ لاهٍ في دُنياه، فهو بمثابة البعيد الذي يحتاج إلى أداة النداء التي يُنَادىٰ بها البعيد، فقال:

أَيَا مَنْ عَاشَ فِي الدُّنيا طَوِيلاً وَأَفْنَىٰ الْعُمْرَ فِي قِيلٍ وَقَالِ
وَأَتْعَبَ نَفْسَهُ فِيمَا سَيَفْنَىٰ وَجَمَّعَ مِنْ حَرَامٍ أَوْ حَلَالِ
هَبِ الدُّنْيَا تُقَادُ إِلَيْكَ عَفْواً أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَلِكَ لِلزَّوَالِ؟

● وخَاطَبَ سَوَارُ بْنُ المضَرَّب قلْبَهُ الذي هو منه، فناداه كما يُنادي البعيد، ليشير بذلك إلى غفلَتِه فكأنَّه بعيد، فقال:

يَا أَيُّهَا الْقَلْبُ هَلْ تَنْهَاكَ مَوْعِظَةٌ؟ أَوْ يُحْدِثَنْ لَكَ طُولُ الدَّهْرِ نسياناً

● وكتب والِدٌ لوَلَدِه البعيد عنه في سفر رسالةً قال له فيها ناصحاً:

أَحُسَيْنُ إِنِّي واعِظٌ وَمُؤَدِّبٌ فَافْهَم فَإِنَّ الْعَاقِلَ الْمُتَأَدِّبُ

فاستعملَ أداة النداء « أ » الّتي هي للقريب على خلاف الأصل، ليشير بذلك إلى أنّه حاضر في ذهْنِهِ لا يغيب عن باله.

● ونزَّل المتنبّي سيفَ الدولة منزلة البعيد مُشِيراً إلى ارتفاع منزلَته مع الإشارة إلى أنّه ابتعد عن معاملته بالعدل فناداه بحرف النداء «يا» في مخاطبته، فقال له مُعَاتِباً:

يَـا أَعْـدَلَ النـاسِ إلاَّ فـي مُعَـامَلَتـي ... فيكَ الخِصَامُ وَأَنْتَ الْخَصْمُ والْحَكَمُ
أُعِيــذُهَــا نَظَــراتٍ مِنْــكَ صَــادِقَــةً ... أَنْ تَحْسَـبَ الشَّحْـمَ فِيمَـنْ شَحْمُـهُ وَرَمُ

* * *

أمثلة من خروج النداء عن معناه الأصلي إلى معاني أخرى

الّـذي أراه أنّ النـداء بمعنـى رفـع الصـوت بحـرف « أ » أو «يـا» أو «وا» أو نحوها، عند تحرّك النفس بأيّ شعورٍ داخليٍّ هو من مظاهر الفطرة التلقائيّة الموجودة لدى الأطفال عند مطالبهم وأوجاعهم وأحزانهم وفرحهم وسرورهم وتعجُّبهم وغير ذلك من مشاعر على اختلاف هذه المشاعر التي تتحرّك في نفوسهم، وعلى تناقضها، فهم بالدافع الفطريّ يريدون التعبير عنها بأصواتهم، وقد يُسْتَدَلُّ على اختلاف المعاني باختلاف نغمات الأصوات، وما يقترن بها من بكاء أو ضحك أو مظاهر دهشة، أو تلَهُّفٍ لمطلوبٍ يريدونه، أو انزعاجٍ من أمرٍ يكرهونه، أو حركةٍ تدلُّ على أَلَمٍ يعانون منه.

وبقي لهذا المظهر من مظاهر التعبيرات الفطريّة التلقائيّة أثَرٌ في اللّغة، وبدأ المفكّر المعبّر بالكلمة يتصرّف باستخدام أدوات النداء في غير طلب الإجابة لأمْرٍ ما، كحالِ الطفلِ، إلاَّ أَنَّهُ خَصَّصَ بعض الأدوات لبعض المعاني، وجعلَ القرائن القولية والحالية تدلُّ على مشاعره النفسيَّةِ التي يريد التعبير عنها.

ونظر علماء اللّغة العربيّة، ثُمَّ علماءُ البلاغةِ إلى خروج أدوات النداء عن غرض طلب الإجابة لأمْرٍ ما، إلى معانٍ أخرى، فرأوا أنّه من الأساليب البلاغيّة التي يَحْسُن التَّنْبيه عليها في علم المعاني، وعرضُ طائفة من أمثلتها.

وهي فيما أرىٰ بمثابة الزُّجاج الشفاف الذي يتلَوّن بلون الأشعةِ المسلَّطة عليه أو المقارنة له، لا أنّ أدوات النداء تستعمل للدّلالة على هذه المعاني التي نفهمها من القرائن، ولسْتُ أقول: إنّها مُطْلَقُ أصواتٍ لا معنى لها، بل هي أصواتٌ تَظْهَرُ لَها مَعَانٍ بدلالاتِ القرائن القوليّة والحاليّة.

وتمشّياً مع مُدَوّناتِ البلاغيين أعرض طائفة من الأمثلة الّتي جاءت فيها أدوات النداء مستعملةً في غير طَلَبِ الإجابَةِ لأمْرٍ ما، الذي هو معناها الأصلي.

(١) ففي التحسُّر يُسْتَعْمَل النداء بمدّ الصوت تعبيراً عن تأوُّهٍ داخِلِيّ في النفس، فيقول المتحسّر مثلاً: «يَا حَسْرَتي ـ يَا حَسْرتا ـ يا حَسْرَتاه» ويرافق التحسُّرَ الندمُ والتمني غالباً إذا كان المتحسِّر يتحسَّر من أجل نفسه.

وجاء هذا الاستعمال في القرآن تعبيراً عن حالة المتحسّرين، جرْياً على طريقة أهل اللّسان العربـي في ذلك.

● في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) عبّر الله عزّ وجلّ عمّا يَشْعُر به الذين يتحسّرون من أجل أهل الكفر الذين يعرّضون أنفسهم بكفرهم لعذاب الله الشديد، فقال تعالى:

﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾؟!.

● وفي سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) وصف الله عزّ الله وجلّ حالة نفس الْمُسْرِفِ بالمعاصي، إذ تُنادِي بالْحَسْرَةِ على ما فَرَّطَتْ في جنْب الله، حين يَنْزِل بها العذاب الرّبّاني، فقال تعالى خطاباً للّذين أسْرَفُوا على أنْفُسِهم:

﴿ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

● وفي سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) وصف اللَّهُ عزّ وجلّ حالة الكافرِ يَوْمَ الدّين إذْ يُنادِي بالْحَسْرَةِ مُتَمَنّياً نادماً، فقال تعالى:

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

● وفي سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) وصف الله عزَّ وجلّ حالةَ المكذّبين بلقاء الله حينما تأتيهم الساعة بغتة، إذْ يُنادُونَ بالحسْرَة على أنفسهم، بسبب تفريطهم بما يجب عليهم تجاه لقاء الله وحسابِه يوم الدين، فقال تعالى:

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

(٢) وفي التَّمَنِّي يُسْتَعْمَلُ النّداءُ بمدّ الصّوتِ تَعْبيراً عنْ مشاعِرِ النفس المتمنّية أمْراً عَسِيرَ المنال أو مُتَعَذِّرَهُ.

أمثلة:

● نظر الذين يريدون الحياة الدنيا من بني إسرائيل في عَهْدِ موسَى عليه السلام، إلى ما آتىٰ اللَّهُ قارُونَ من مالٍ وزينَةٍ في الحياة الدنيا، فَتَمنَّوْا أَنْ يكونَ لَهُمْ مِثْلُ مالَهُ من ذلك، فقالوا كما ذكر الله عزّ وجلّ في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ ﴾.

فنادَوا مُتَمَنِّين قائلين: يَا لَيْتَ لنا، كأنّهم يُنادُونَ بِالأُمنية.

● وتمنَّىٰ الرَّجُلُ المؤمِنُ الّذي اسْتُشْهِد في سبيل الله من أصحاب القرية التي جاءها المرسَلُونَ الثلاثة، وهو يتقلّبُ في نعيم من نعيم الجنّةِ المرتّب للشهداء في سبيل الله، أَنْ يَعْلَمَ قومُه بما غفر له رَبُّهُ وبما جعله من المكرمين، فنادىٰ مُتَمنّياً، كما جاء في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

● وبَثَّ عَنْتَرَةُ بن شدّاد العبسيّ أحزانه مع الذكريات فنادَىٰ دار محبوبته «عَبْلَة» فقال:

يَـا دَارَ عَبْلَـةَ فِـي الْجَـواءِ تَكَلَّمِـي وَعِمِـي صَبـاحـاً دَارَ عَبْلَـةَ واسْلَمِـي

● وبثَّ أحدهم أحزانه على راحلٍ أخلى الدّيار فناداه قائلاً:

يَـا رَاحِـلاً أَخْلَـىٰ الـدِّيَـا رَ ـ وفَضْلُـهُ ـ لَـمْ يَـرْحَـلِ

(٣) وفي التّعجب وفي التأسّف يُسْتَعْمَلُ النداءُ برفْع الصوتِ تعبيراً عمَّا في النفس من حالةِ التَّعَجّب المثيرة أو حالة التأسف.

● ففي التعجّب من البشارة بالحمل لعقيم في سِنِّ اليأس قالَتْ «سارة» زوجة سيّدنا إبراهيم عليه السَّلام حين بشرتها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، كما جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾.

● وفي التّعجُّب والتأسّف من أحوال بعض الناس قال أبو العلاء المعرّي:

فَوَا عَجَباً كَمْ يَدَّعِي الْفَضْلَ نَاقِصٌ وَوَا أَسَفاً كَمْ يُظْهِرُ النَّقْصَ فَاضِلُ

وفي التَّعجُّب منْ طُولِ بقاء أبـي الْهَوْلِ أحَدِ الآثار الفرعونية عصوراً كثيرة، ناداه الشاعرُ مع حذف أداة النداء بقوله:

أَبَـا الْهَـوْلِ طَـالَ عَلَيْـكَ الْعُصُـر وبُلِّغْـتَ فـي الأَرْضِ أقْصَـى الْعُمُـر

(٤) وفي الرّثاء وَبثِّ الحزن يُسْتَعْمَلُ النداءُ برَفْع الصوت تَعْبِيراً عمّا في النَّفْسِ من مشاعِرَ تَنْدَفعُ إلىٰ بَثٍّ صَوْتِيٍّ.

● ففي رثاء مَعْنِ بن زائدة أَحَدِ أجواد العرب الشجعان الفصحاء، قال الشاعر مُنَادِياً قَبْرَهُ، تعبيراً عن مشاعر الحزن عليه:

فَيَـا قَبْـرَ مَعْـنٍ كَيْـفَ وَارَيْـتَ جُـودَهُ وَقَـدْ كَـانَ مِنْـهُ الْبَـرُّ والْبَحْـرُ مُتْـرَعـاً

وارَيْتَ: ستَرتَ واخفيْتَ.

مُتْرَعاً: مُمْتَلِئاً، يُقالُ لغةً: أَتْرَعَ الإِناءَ إِذا ملأَه.

● وَرَثَىٰ «حافظ إبراهيم» ابنة عزيزٍ عليه، فوصَفَها بأنَّها دُرّة، وَنَاداها، تعبيراً عن حُزْنه من أجل أبيها، فقال:

يَـا دُرَّةً نُـزِعَـتْ مِـنْ تَـاجِ وَالِـدِهَـا فَـأَصْبَحَـتْ حِلْيَـةً فِـي تَـاجِ رِضْـوَانِ

رضوان: خازن الجنة.

● ورَثَىٰ أحدُهُم أخاه، فَنَاداهُ تعبيراً عن حزنه عليه، قائلاً:

يَـا ابْـنَ أُمِـيّ وَيَـا حُبَيِّـبَ نَفْسِـي أَنْـتَ خَلَّفْتَنِـي لِـدَهْـرٍ شَـدِيـدِ

● وبَثَّ الشاعر أحزانه مع الذكريات فَنادَى منَازِلَ سَلْمَاهُ تعبيراً عن مشاعره تجاه محبوبته، فقال:

أَيَـا مَنَـازِلَ سَلْمَـىٰ أَيْـنَ سَلْمَـاكِ مِـنْ أَجْـلِ هَـذَا بَكَيْنَـاهَـا بَكَيْنَـاكِ

(٥) وفي التضجّر يُسْتَعْمَل النداء تعبيراً عن مشاعر النفس التي تُعَاني من الضجر.

● فقال امرؤ القيس متضجّراً من طول ليله:

أَلَا أَيُّهَـا اللَّيْـلُ الطَّـوِيـلُ أَلَا انْجَلِـي بِصُبْـحٍ وَمَـا الإِصْبَـاحُ مِنْـكَ بِـأَمْثَـلِ

أي: وليس الإصباح بأفضل حالاً منك ما دام لا يأتي بالمحبوب، وأداة النداء محذوفة مقدرة، أي: ألَا يَا أَيُّها اللّيل.

(٦) وفي الزجر والتلويم يُسْتَعمل النداء للإشعار بأن المخاطَبَ يُناسِبُهُ النداء، ولا يكفيه مجرّد الخطاب.

● فقال الشاعر ينادي فؤاد نفسه:

أَفُـؤَادِي مَتَـىٰ الْمَتَـابُ أَلَمَّـا تَصْـحُ وَالشَّيْـبُ فَـوْقَ رَأْسِـي أَلَمَّـا

(٧) وفي اليأس وانقطاع الرَّجاء يُسْتَعْمَلُ النداءُ تعبيراً عن مشاعر النفس اليائسة.

● فقال الشاعر:

فَيَا صَاحِبَيْ رَحْلِي دَنَا الْمَوْتُ فَانْزِلاَ ... بِـرابِيَـةٍ إِنّـي مُقِيـمٌ لَيَـالِيَـا

(٨) وفـي الاختصـاص يُسْتَعمـل النـداء مـن أجـل التنبيـه علـى تخصيـص المتحدّثِ عنه.

ومنه قولي:

إِنَّـا بَنـي الْعُـرْبِ على طُـولِ المـدىٰ ... لَـمْ نَكْتَسِـبْ فـي أَيّ عَصْـرٍ سُـؤْدَدَا
إلاّ بـإِسْـلاَمٍ حَمَـانَـا وهَـدَىٰ ... تَـارِيخُنَـا وَمَجْـدُنَـا لَقَـدْ بَـدَا
مُذا أَرْسَلَ اللّهُ لَنَا مُحَمّداً
صلَّى عليه الله

* * *

(٤)

النوع الرابع: التّمَنِّي والتّرجّي

ومن أنواع الإِنشاء الطلبـي التّمنّي والتّرجّي:

أما التمنّي: فهو طلب أمْرٍ محبوبٍ أو مرغوبٍ فيه، ولكن لا يُرْجَىٰ حصولُهُ في اعتقاد المتمنّي، لاستحالته في تصوُّره، أو هو لا يطمَعُ في الحصول عليه، إذْ يراه بالنسبة إليه متعذّراً بعيد المنال.

والأداة التي يُتَمنَّى بِها هي كلمة: «لَيْتَ».

وأمّا التّرَجِّي: فهو طلبُ أمْرٍ محبوبٍ أو مَرْغُوبٍ فيه، ممّا يَرَىٰ طالِبُهُ أنَّه مطموعٌ فيه، وهُو يترقَّبُ الظفر به، أو الحصول عليه، وقد ترد صيغته لمجرّد

التوقع، ولو كان توقُّعَ أمْرٍ محذورٍ منه، ويسمَّىٰ حينئذٍ إشفاقاً، مثل [لعَلَّ السّاعة قريب].

ويستعمل في الترجّي كلمتان هما: «لَعَلَّ» و «عَسَىٰ». وقد يُتَرَجَّىٰ بأداة الاستفهام «هَلْ» وبحرف «لو» فيما هو عزيز المنال مع إمكانه.

وعلى خلاف الأصل قد يُسْتعمل في التّمنّي: «هل» و «لَعَلَّ» و «عسَىٰ» لغرض بلاغي، وهو إبرازُ المتَمَنَّىٰ في صورة الممكن المطموع فيه، بغيةَ الإشعار بكمال العناية به، والتلهُّفِ على الحصول عليه، أو تحقيقه.

وقد يُسْتَعمل في التّمني حرف «لو» لإبراز المتمنَّىٰ في صورة الممكن إلاَّ أنّه عزيزالمنال يَصْعُبُ تحقيقه، إذْ حرفُ «لو» يُشْعِر بعزّةِ الأمْرِ المرجوّ المطموع فيه.

وقد يُسْتَعْمَل في الترجي لفظ «ليت» الذي للتمنّي، لغَرَضٍ بلاغيّ، هو إبراز المرجوّ في صورة المستحيل أو المتعذِّر الْبعيد المنال، للمبالغة في بيانِ بُعْدِ الحصول عليه أو تحقيقه.

ويُلاحظُ أَنّ مجيء عبارات الترجّي أو الدعاء في كلام اللّهِ عزّ وجلّ هو على معنىٰ أنّ مقتضىٰ الحال يلائمه من البشر الترجّي أو الدعاء، فقَوْل الله تعالى لموسى وهارون بشأن فرعون في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾.

ينبغي أن نفهم الترجّي فيه على معنىٰ: اذْهَبَا إلى فرعون راجِيَيْنِ وطامِعَيْنِ في أن يتذكّر أو يخشَىٰ، إذ لو ذهبا إليه وهما يائسَانِ من استجابَتِه، لَمْ تندفعْ أنفسهما للقيام بمهمّةِ رسَالَتِهما على الْوَجْهِ الأمْثَلِ المطلوب منهما.

أمثلـة وتطبيقـات:

● سبق في بحث النداء عرض طائفة من الأمثلة القرآنية التي فيها التّمنّي بأداة التمنّي «ليت» مسبوقةً بأداة النداء «يا».

● الذين اتّخدوا دينهم في الحياة الدنيا لهواً ولعباً، ونَسُوا كتاب الله تاركين له إذْ جحدوا به، وغرَّتْهُم الحياة الدنيا وزيناتُها، يَتمَنَّونَ يوم القيامة أن يكون لهم شفعاء فيَشْفعوا لهم، أو أنْ يُرَدّوا إلى الحياة الدّنيا، ليعملوا غير الذي كانوا يعملون ممّا يُرْضي ربّهم عليهم.

دلَّ على تمنِّيهم هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) حكاية لمقالتهم يوم الدين:

﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

جملةُ «فهل لنا من شفعاء» وجملة «أو نردّ فنعمل غير الذي كنّا نعمل» هما من قبيل الإنشاء الطلبـي، والمطلوب فيهما من نوع تمنّي أمْرٍ محبوبٍ مرغوبٍ فيه لا يطمعون في الحصول عليه.

والأداة المستعملة هي «هل» الاستفهامية، إذ الاستفهام هنا مستعمل في التمني، لأنّهم يعلمون أنّه لا يشفع أحدٌ يومئذٍ إلاَّ بإذن الله، ويعلمون أنّهم لا يُردّون إلى الحياة الدنيا، فقد طلبوا قبل ذلك الرجعة ساعة موتهم فزُجِروا ورُفِضَ طَلَبُهُمْ.

● ويتمنَّىٰ الضالون الأتباع الذين أضلّهم المجرمون وهم يُعَذَّبون في الجحيم، أن يرجعوا إلى الحياة الدنيا ليُؤْمِنُوا، لكنّهم يعلمون أنّ هذا المطلب ميؤوسٌ من تحقيقه.

دلَّ على هذا التمنّي ما جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) حكاية لقولهم:

﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

والأداة المستعملة في هذا التَّمنِّي حرف «لو»؛ إذْ لدى هؤلاء بعض أمَلٍ ضعيفٍ باستجابة طلبهم، أو أرادوا إظهاره في صورة الممكن عزيز المنال.

● وتمنَّىٰ ابْن الرُّومي أنْ يكون ليلُ رمضان شهراً، وأن يمرَّ نَهَارُه مرَّ السحاب، فقال:

فَلَيْــتَ اللَّيْــلَ فِيــهِ كــان شَهْــراً وَمَــرَّ نَهَــارُهُ مَــرَّ السَّحَــابِ

والأداةُ المستعملة في هذا التمني لفظ «ليت».

● وتمنَّىٰ جرير أن يُشْتَرَىٰ الشبابُ بالمال ليشتريه، أَوْ أنْ يرجع كَرَّةً أُخْرَىٰ، فقال:

ولَّــىٰ الشَّبَــابُ حَمِيــدَةً أيَّــامُــهُ لَــوْ كَــان ذَلِــكَ يُشْتَــرَى أَوْ يَــرْجِــعُ

والأداة المستعملة في هذا التمنّي حرفُ «لو» وغرض جرير أَنْ يُظْهِر أنّ عودة الشباب أمْرٌ ممكن إلاَّ أنّه عزيزُ المنال، لئلا يعيش في اليأس الكامل.

● وعرض أحدهم بأسلوبه التخيُّلي على طير القطا أن يُعيرهُ جناحه، مُتَمنّياً أن يطير به إلى محبوبه، فقال مخاطباً سِرْب القطا:

أسِرْبَ الْقَطَا هَلْ مَنْ يُعِيرُ جَنَاحَهُ؟ لَعَلِّـي إلـى مَـنْ قَـدْ هَـوِيـتُ أَطِيـرُ

القطا: واحدته «قطاة» وهو نوع من اليمام يؤثر الحياة في الصحراء، ويتخذ أُفحوصَهُ في الأرض، ويطير جماعات، ويقطع مسافات شاسعات، وبيضُه مرقّط.

والأداة المستعملة في هذا التمنّي لفظ «هل» في الجملة الأولى، ولفظ «لعلّ» في الجملة الثانية، وهاتان الأداتان تستعملان أصلاً في الترجّي، إلاَّ أنّ الشاعر استعملهما فيما هو متعذر، ليُظْهِرَ مطلوبه بأنه أمر ممكن مرجوّ في مشاعر نفسه.

● وتمنّىٰ الآخر أن تدنُوَ له الكواكب، لينظم منها عقود مدح لممدوحه فقال:

لَيْتَ الكَـوَاكِـبَ تَـدْنُـو لِـي فَـأَنْظِمَهـا عُقُـودَ مَـدْحٍ فَمَـا أَرْضَـى لَكُـمْ كَلِمِـي

والأداة المستعملة في هذا التمنّي لفظ «ليت» والتّمني في كلامه ظاهر.

● وتَرجَّىٰ الشاعر أن يُفرّج الله عنه الكرْب الضاغط عليه، فقال:

عَسَـىٰ الكَـرْبُ الَّـذِي أمْسَيْـتُ فِيـهِ يَكُـــونُ وَرَاءَهُ فَـــرَجٌ قَـــرِيـــبُ

هذا الكلام من قسم الإنشاء الطلبـي، وهو من نوع الترجّي، لأنّ الفرج أمْرٌ مترقّبٌ مطموع فيه.

وأداة الترجّي فيه كلمة «عَسَىٰ».

● وترجَّىٰ الشاعر الآخر أن تكون عاقبة العتب محمودة، فقال للذي عتَبَ عليه:

لعَـلَّ عَتْبَـكَ مَحْمُـودٌ عَـوَاقِبُـهُ ورُبَّمَـا صَحَّـتِ الأَجْسَـامُ بـالْعِلَـلِ

وأداة الترجّي في هذا القول كلمة «لَعَلَّ» وفق الأصل.

● وترجّىٰ البوصيري أن ينال من رحمة ربّه على مقدار معاصيه، فقال:

لَعَـلَّ رَحْمَـةَ رَبِّـي حِيـنَ يَقْسِمُهَـا تَأْتِي عَلَىٰ حَسَبِ الْعِصْيَانِ في الْقِسَمِ

وأداة الترجِّي الّتي استعملها كلمة «لعَلّ» وفق الأصل.

* * *

(٥)

النوع الخامس: الدعاء

الدعاء: هو في الأصل من النداء، يقال لغة: دَعا فلاناً إذا صاح به وناداه، فهو طلبُ إقبال المدعوِّ إلى الداعي. ويقال: دعا بالشيء، إذا طلَبَ إحضاره، ودعَا الميّتَ إذا ندَبَهُ، فقال مثلاً: وَاوَلَدَاه، واحَبِيبَتاه. ودعا فُلاَناً، إذا استعان به، ورغب إليه.

ودعا المؤمن رَبّه، إذا ناداه وطلبَ منه تحقيق نفع أو دفع ضرّ، من أمور الدنيا، أو أمور الآخرة.

ودعا الوثنيُّ مَعْبُودَه، إذَا نَادَاه، وطلبَ أمراً من أمور الدّنيا.

واشتهر الدُّعاء بأحد معانيه اللّغوية، وهو المعنى الدينيّ له، مع توسُّعٍ شمَلَ كلّ ذِكْرٍ لله عزّ وجلّ وثناء عليه بصفاته وأسمائه الحسنىٰ، لأنّ ذكْرَ الله يُرجَىٰ منه رضوان اللَّهِ وثوابُه، فهو ذو دَلَالَةٍ طلبيّةٍ، ويتضمَّن غالباً نداء اللَّهِ عَزّ وجلّ بحَمْدِه والثناء عليه.

روى الترمذي عن عَمْرو بن شُعَيْبٍ عن أبيه عن جدّه، أنّ النبـيّ ﷺ قال:

«خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْم عَرَفَة، وخَيْرُ ما قُلْتُ أَنَا والنَّبِيُّون مِنْ قبْلِي: لَا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ ولَهُ الْحَمْدُ وَهْوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

فمن دعاء الله ما هو مُطْلَقُ ذكْرٍ له، ومن دعاء اللَّهِ ما هو نداءٌ له بطلَبٍ يتضمَّنُ اسْتِجْداءَ تحقيقِ مرغوبٍ فيه من خيرات الدنيا، أو خيرات الآخرة، أو دفْع مكروهٍ من أُمور الدنيا أَوْ أمور الآخرة.

ويكون الدّعاء بصِيَغٍ كثيرة تَشْمَلُ صِيَغَ الأمر والنهي، وصِيَغَ الجمل الخبريّة، والأصلُ فيه النداء مع طلَبٍ بصِيَغِ الأَمْرِ أو النَّهْي، وكثيراً ما يُحْذَفُ حَرْفُ النداء، مثل: رَبِّ اغْفِرْ لي وارْحَمْنِي. وكثيراً ما يُدْعَىٰ بصيغَةٍ خَبَرِيَّة، مثل: رَحِمَ الله فلاناً وغَفَرَ له، أو يَرْحَمُ الله فُلاناً ويَغْفِرُ له.

والدعاءُ الموجَّه لله عزّ وجلّ من أجَلِّ العبادات، والدعاءُ وفْقَ المعنى الديني الموجّه لغير الله عزّ وجلّ شِرْكٌ بالله، والله لا يغفر أن يُشْرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

وقد يتأدّب الداعي مع ربّه، في طلب بعض حاجاته الدنيوية، كما فعل موسَىٰ عليه السلام، وهو عند ماءِ مَدْين، إذْ قال كما جاء في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾.

فاستجاب الله طلبه الذي ألمح إليه دون تصريح، فدَعَاه الشيخ والد المرأتين اللَّتَيْن سقا لهما إلى منزله، وبعد أن قصّ عليه قصة خروجه من مصر، عرض عليه أن يُنْكِحَهُ إحدىٰ ابْنَتَيْه، فتمّ ذلك.

وتأدّب رسولُ الله محمّد ﷺ مع ربّه، وفي نفسه أن يُحَوِّل الله القبلة إلى الكعبة المشرّفة، فجعل يقلّب وجْهَهُ في السّماء، فقال الله عزّ وجلّ له كما جاء في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾.

وتَأَدَّبَ أيضاً صلواتُ الله ه مع ربّه في دعائه الصريح، فلَمْ يَشْكُ ما يَتَعَلَّقُ بشَخْصِه من عداء قومه له، وتَدْبيرِهِمْ وسائل محاربته وقمعه، واقتصر على ما يتعلّق بأمْرِ تبليغ القرآن، ومُتَابعةِ تذكير قومه به، فقال كما جاء في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾.

فجاء الجواب الرّبّاني متعلّقاً بما كتمه الرسول ولم يُصَرِّح به، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

فبدأ العلاجُ القرآني بما كتمه الرسولُ ﷺ في دعائه ولم يُصَرِّحْ به[١].

* * *

(١) انظر تدبّر هذا النصّ في كتاب «تدبّر سورة الفرقان» للمؤلف.

(٦)

النوع السادس: الاستفهام

تـعـريـفـه:

الاستفهام: هو من أنواع الإنشاء الطّلبي، والأصل فيه طلَبُ الإفْهامِ والإعْلاَمِ لتَحْصِيلِ فائدةٍ علميّةٍ مجهولةٍ لدَىٰ الْمُستَفْهِم.

وقَد يُراد بِالاستفهام غيْرُ هذا المعنى الأصليّ له، ويُسْتَدلُّ على المعنى المراد بالقرائن القوليّة أو الحالية، كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

* * *

أقسام أدوات الاستفهام

للاستفهام طائفةٌ من الأدوات، وهي تقع في ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يُسْتَفْهَمُ به عن التصوُّر والتصديق، وهو «همزة الاستفهام» فقط، وهو حرفٌ لا يكون له محلٌّ من الإعراب في الجملة.

القسم الثاني: ما يُستَفْهَمُ به عن التصديق فقط وهو لفظ «هَلْ» وهو حرفٌ أيضاً، لا يكونُ له محلٌّ من الإعراب في الجملة.

القسم الثالث: ما يُسْتَفْهَمُ به عن التَّصَوُّر فقط، وهي سائر أدوات الاستفهام، وهٰذه جميعُها أسماء، وهي: «مَا ــ مَنْ ــ أَيٌّ ــ كَمْ ــ كَيْفَ ــ أَيْنَ ــ أَنَّىٰ ــ مَتَىٰ ــ أَيَّانَ».

التّصوّر: هو إدْراكُ المفرد، ويُطْلبُ بالاستفهام عن التصوّر إدْراكُ المسند إليه، أو إدْراكُ المسند، لتعيينه، ويكونُ الجوابُ بتعيينِ المسؤول عنه، مُسْنداً كان أو مُسنداً إليه. مثل:

- أضَرَبَ خالدٌ أَمْ أكل؟ والجواب: ضرب ــ أو ــ أَكل.

● أضُرِبَ زَيْدٌ أم عَمْرٌو؟ والجواب: عَمْرو ــ أو ــ زَيْدٌ.

● متى يُفْطِرُ الصّائم؟ والجواب: إذا غربتِ الشمس.

التصديق: هو إدْراك النسبة الحكميّة بين المسند والْمُسْنَد إليه، موجبةً كانت أو سالبة.

مـثـل:

● هل بُعِثَ خَاتم المرسلين؟ والجواب: نعم، بُعِث.

● هل ظهر المسيح الدجال؟ والجواب: لا، لم يظهر بَعْدُ.

ولكلّ أداة من أدوات الاستفهام صفاتٌ وخصائص، وفيما يلي بيان ذلك إن شاء الله.

* * *

شرح أدوات الاستفهام وبيان ما يتعلّق بكُلٍّ منها

الأداة الأولى: همزة الاستفهام « أ » ويُسْتَفْهم بها كما سبَقَ بيانُه عن التصوّر والتصديق، وهي أصل أدواتِ الاستفهام كلّها.

ويرى «سيبويْهِ» أن العرب تركوا النُّطق بهمزة الاستفهام مع سائر أدوات الاستفهام لأنّهم أَمِنُوا الالتباس، فاكتسبَتْ هذه الأدواتُ معنى الاستفهام بالتداول.

قال ابن مالك في «المصباح»(١):

«ما عدا الهمزة نائبٌ عنها، ولكونه «أي: الاستفهام» طلبَ ارْتِسَام صورةٍ ما في الخارج في الذهن، لزم أن لا يكون حقيقةً إلاَّ إذا صَدَرَ من شَاكٍّ مُصدِّقٍ بإمكان الإعلام، فإنّ غير الشاكّ إذا استفهم يلزمُ منه تحصيل الحاصل، وإذا لم يُصدّقْ بإمكان الإعلام انْتَفَتْ عنه فائدة الاستفهام».

---

(١) نقلاً عن السيوطي في «الإتقان في علوم القرآن».

● وتختصّ همزة الاستفهام عن سائر الأدوات بعدّة خصائص، هي الخصائص التالية:

(١) جواز حَذْفِها وتقديرها ذهناً، مثل ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) في حكاية قول فرعون لسحرته بعْدَ أنْ غُلِبُوا وأعلَنُوا إيمانهم:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ...﴾ [الآية ١٢٣]. أي: أآمنْتُمْ به؟

(٢) أنَّها أداةٌ يُطْلَبُ بها التصوّر، ويُطْلبُ بها التصديق، كما سبق بيانه.

ويكْثرُ في طلب التصوّر بها أن يُذْكَر للمسْتَفْهَم عنه معادلٌ بعد «أم» وتسمَّىٰ عندئذٍ همزة التسوية، مثل:

● أخالد بن الوليد فتح دمشق أم أبو عبيدة بن الجرّاح؟

● ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾؟ [البقرة/ ٢].

● ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾؟ [النمل/ ٢٧].

● ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [البقرة: ٢]. أي: سواءٌ عليهم إنذارُكَ وَعَدَمُه.

● ألَحْمَ عِجْلٍ أطْعَمْتنا؟

فإذا طُلِبَ بها التصديق (وهو إدراكُ النسبة الحكميّة في الجملة) امْتَنَع ذِكْرُ معادلٍ للمستفهم عنه بها، مثل:

● ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾ [الملك/ ٦٧].

● ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾ [العلق/ ٩٦].

● ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾﴾ [الضحى/ ٩٣].

• ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾ [١٣/ المجادلة/ ٥٨].

(٣) أنّها تَدْخُلُ على الإثبات، وتدخل على النفي، مثل:

• أدَرَسْتَ مادّةَ التفسير؟

• ألَمْ نَشْرَحْ لكَ صَدْرك؟

• أَبَعْدَ بَنِي عَمْرٍو أُسَرُّ بِمُقْبِلٍ مِنَ الْعَيْشِ أَوْ آسَىٰ عَلَىٰ إِثْرِ مُدْبِرِ

(٤) أنّها لا يَلِيها إلاّ المسؤول عنه، سواءٌ أكان مسنداً، أَمْ مُسْنداً إليه، أَمْ مفعولاً به، أم حالاً أم ظَرْفاً أم غير ذلك من متعلقات الفعل.

(٥) أنّ لها تمامَ الصدارة، فتُقَدَّم في الجملة حتّىٰ على حروف العطف، مثل:

• ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟. . .﴾؟ [١٨٥/ النحل/ ٧].

• ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟﴾؟ [٩/ الروم/ ٣٠].

• ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ. . .﴾؟ [٥١/ يونس/ ١٠].

أمّا سائر أدوات الاستفهام فتتأخَّرُ عن حروف العطف، وتتأخّر عن «أمْ» التي للإضراب، مثل:

﴿وَكيف تكفُرُون؟ ـ فَأَيْنَ تَذْهبُونَ؟ ـ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ؟ ـ فَهَلْ يُهْلَكُ إلاّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ؟ ـ فأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بالأَمْنِ؟ ـ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ؟ ـ أَمْ مَنْ يُجِيبُ المضْطَّرَّ إذا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ؟﴾.

إلى غير ذلك من خصائص ذكرها النحاة.

* * *

الأداة الثانية: كلمة «هل» وهي أداة يستفهم بها عن التصديق فقط، فلا يُذْكر مع الْمُسْتَفْهَمِ عنه بها معادل، بخلاف همزة الاستفهام، وهي «حرف» كالهمزة.

❑ والأصل في كلمة «هل» أن تدخُلَ على جملة فعليّة، فيَلِيَهَا فِعْلٌ لفظاً أَوْ تقديراً مثل:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ؟ . . . ﴾ [الآية ٣٣].

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ؟ . . . ﴾ [الآية ١٦].

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول):

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾؟ ﴾.

❑ فإذا عُدِل عن الجملة الفعليّة فأدخلت «هل» على الجملة الاسمية، فذلك لنكتة يلاحظها البُلَغاء، وهي جعل ما سيحصل كأنّه حاصل موجودٌ فعلاً، اهتماماً بشأنه، أو تأكيداً للرغبة بتحقُّقِ وُقُوعِهِ، مثل:

● قول الله عزّ وجلّ في معرض الحديث عن داوُد عليه السّلامُ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾؟.

أي: فهل ستكونُونَ حقّاً شَاكِرِينَ، أو هو استفهام تضمّن معنى الحضّ على الشكر.

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) بشأن الخمر والميسر، خطاباً للذين آمنوا:

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾؟!

أي: فَهَلْ سَتَنْتَهون، أو هو استفهامٌ تضمّن معنى الحضّ علىٰ الطاعة.

❑ ولا تدخل أداة «هل» علىٰ: [النفي ـ والمضارع الذي للحال ـ والشّرط ـ وحرف «إنّ» الذي ينصب الاسم ويرفع الخبر ـ وحرفِ العطف].

بخلاف الهمزة في كلّ ذلك.

* * *

الأداة الثالثة: كلمة «ما» وتأتي اسماً من أسماء الاستفهام، ومعناها «أيُّ شيء؟» وهي للاستفهام عن غير العقلاء، والمطلوب بها أحد أمور ثلاثة:

الأمر الأول: إيضاح الاسم وشرحه، مثل:

● ما النُّضار؟ وجوابه: الذهب. أو الخالِصُ من كلّ شيء.

● ما اللُّجَيْن؟ وجوابه: الفضّة.

● ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول).

في هذا النصّ نلاحظ أنّ سؤال فرعون عن ربّ العالمين هو سؤالٌ عن شرح الاسم، أي: ما معنَىٰ «رَبّ العالمين».

إنّه لا يجهل معنى كلمة «رَبّ» ولا معنى كلمة «العالمين» لكنّه سأل عن الاسم المؤلّف من «رَبّ العالمين».

فشرح له موسَىٰ عليه السلام بقوله: «رَبُّ السَّمَاواتِ والأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا».

فاتَّهَمَهُ فِرْعَوْنُ بالجنون، لأنّه ذكر أنّ السَّمَاواتِ والأَرْض وما بينهما خاضعةٌ لسلطان رَبٍّ واحد، وهو يتصوَّرُ أنّ الكائنات يتحكَّمُ بها أربابٌ مُتَعدِّدُون، وهو رَبُّ إِقليم مصر.

فتنزّل موسى عليه السلام إلى مستوى إدْراك فرعون، فقال له ولِمَلَئه: رَبُّ الْمَشْرِقِ والْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ.

أي: هو المتَصَرِّفُ بعمليّات الْخَلْق والتَّدْبِيرِ في هٰذِهِ الأَرْضِ من مَشْرِقِهَا إلَىٰ مَغْرِبها، ومن ذلك حدود سلطانك في مصر يا فرعون.

عندئذٍ اسْتكْبَر فرعونُ حِينَ فهم مراد موسَىٰ عليه السلام، فقال له: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

أي: لَئِنْ اتَّخَذْتَ مَعْبُوداً غيْرِي.

الأمر الثاني: بَيَانُ حقيقةِ الْمُسَمَّىٰ، مثل:

- ما الْحَسَد؟. وجوابُه مثلاً: تَمَنِّي زَوالِ النعمة عن المحسود.
- ما الكِبْرُ؟. وجوابُه: «بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النّاس»[1].

الأمر الثالث: بيان صفات المسؤول عنه وأحواله الخاصة أو العامة، مثل:

- ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول).
- أَنْ تَقُولَ لقادم عليكَ وأنت لا تعرف صفاته: **مَا أَنْتَ؟**
- قول المتنبّي في مَدْح سيف الدولة:

لَيْتَ الْمَدَائِحَ تَسْتَوْفِي مَنَاقِبَهُ ... فَمَا كُلَيْبٌ وَأَهْلُ الأَعْصُرِ الأُوَلِ؟

أي: فَمَا صفاتُ كُلَيْب بجانبِ صفاتِهِ، وكان العربُ يقولون: أعزُّ من كليب بن وائل. ومَا صفاتُ الملُوكِ الأوّلين بجانب صفاته ومناقبه، ومرادُه التعظيم من مناقبه وصفاته، والتقليل من صفات السّابقين من سادَة العرب.

(١) هكذا عرّفه الرسول ﷺ فيما روى مسلم عن عبد الله بن مسعود.

الأداة الرابعة: كلمة «مَنْ» وتأتي اسماً من أسماء الاستفهام، قالوا: ويُطْلَبُ بها تعيينُ أحد العقلاء، أو العلماء، مثل:

- ﴿قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ؟ . . .﴾ [الآية ٥٢] (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول).

- ﴿. . . وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ . . .﴾ [الآية ١٣٥]. (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول).

- قول الشاعر:

وَمَنْ ذَا الَّذِي تُرْضَىٰ سَجَايَاهُ كُلُّهَا؟ كَفَىٰ الْمَرْءَ نُبْلاً أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُه

* * *

الأداة الخامسة: كلمة «متَىٰ» وتأتي اسماً من أسماء الاستفهام، ويُسْتَفْهَمُ بها عن الزمان ماضياً كان أو مستقبلاً، فلها محلٌّ في الإعراب في الجملة، كسائر الأسماء، مثل:

- قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾.

- مَتَىٰ قَامَتِ الْحَرْبُ العالميّة الثانية؟

- متَىٰ يُفِيضُ الحاجّ من عَرَفَات يوم عرفة؟

- وقولي صانعاً مثلاً:

وَقَالُوا: مَتَىٰ شَمْسُ الْهِدَايَةِ أَشْرَقَتْ؟ فَقُلْتُ: بِعَامِ الْفِيلِ فِي الْحَرَمِ الْمَكّي

* * *

الأداة السّادسة: كلمة «أَيّانَ» وتأتي اسْمَ استفهام، ويستَفْهَمُ بها عن الزّمان،

مثل «متىٰ» ومعناها «أَيُّ حين» وتختصُّ بالاستفهام عن الزمان المستقبل، وتُسْتَخْدَمُ في الموضع الذي يَحْسُنُ فِيه التهويل والتعظيم، وتضخيمُ أمره، مثل:

- قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا؟ . . .﴾ [الآية ١٨٧].

- وقول الله عزّ جلّ في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول):

﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾﴾؟

- وقولي صانعاً مثلاً:

أَيَّــانَ يَــأْتِــي الْحَــدَثُ الْعَجِيــبُ ... وَيَــرْتَضِــي زَوْرَتَنَــا الْحَبِيــبُ؟

* * *

الأداة السابعة: كلمة «كَيْفَ» وَتأتي اسم استفهام، ويُسْتَفْهَمُ بها عن الحال، ويُطلَبُ بها تعيينُ الحال مثل:

- قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿. . . وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا . . .﴾؟ [الآية ٢٥٩].

- وقول الشاعر:

إِلَـىٰ اللَّـهِ أَشْكُـو بِـالْمَـدِينَـةِ حَـاجَـةً ... وَبِـالشَّـامِ أُخْـرَىٰ كَيْـفَ يَلْتَقِيَـانِ؟

* * *

الأداة الثامنة: كلمة «أَيْنَ» وَتأتي اسم استفهام، ويُسْتَفْهَمُ بِهَا عن المكان، وهي مبنيّةٌ على الفتح في كلّ حالاتها، مثل:

- قول الله عزّ وجلّ في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول):

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾﴾.

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

● قول الشاعر:

فَـأَيْـنَ إِلَـىٰ أَيْـنَ النَّجَـاةُ بِبَغْلَتِـي أَتَاكَ أَتَاكَ اللاَّحِقُون. احْبِسِ احْبِسِ

يخاطب نفسه بقوله: «أتاكَ أتاكَ».

* * *

الأداة التاسعة: كلمةُ «أَنَّىٰ» وَتأتي اسماً من أسماء الاستفهام بمعنى «مِنْ أيْنَ؟» وبمعنى: «كَيْفَ؟» وبمعنى «متى؟» وبمعنى «أيْنَ؟» فلها أربعة معانٍ.

أمثلة:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) بشأن مريم عليها السلام:

﴿. . . كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ﴾ [الآية ٣٧]؟.

أَنَّى لَكِ هٰذَا؟: أي: من أَيْنَ لَكِ هَذَا؟.

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) بشأن زكريّا عليه السلام:

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾.

أَنّىٰ يَكُونُ لِي غُلاَمٌ؟: أيْ: كَيْفَ يَكُونَ لي غُلاَمٌ؟

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ . . . ﴾ [الآية ٢٢٣]؟ .

فأتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُم؟ : أي : متى شِئْتم؟ ، وكيف شِئْتُمْ؟ ولكِنْ من مكان الْحَرْثِ الّذِي يُنْبِت الزَّرْع .

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول) بشأن المنافقين :

﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾؟ .

أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ : أي : أَيْنَ يُصْرَفُونَ وَيَذْهَبُونَ؟

* * *

الأداة العاشرة: كلمة «كم» وتأتي اسماً من أسماء الاستفهام، ويستفهم بها عن العدد، ويطلب بها تعيين العدد، ومعناها : أيُّ عَدَد، مثل :

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) :

﴿ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ ﴾؟ .

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول) في عَرْض قصة أهل الكهف :

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَـٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ . . . ﴾ [الآية ١٩] .

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) بشأن سؤال الْمَبْعُوثين يَوْمَ الْبَعْثِ عَنْ مُدَّةِ إقامتِهِمْ في الأرض موتىٰ :

﴿ قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ .

● وقولي صانعاً مثلاً :

قُلْتُ لِابْنِي: كَمْ زُرْتَنِي عَبْرَ عَشْرٍ مُنْذُ فَارَقْتَ مَنْزِلِي؟ قَالَ: عَشْراً

قُلْتُ: يَكْفِيكَ أَنْ يَزُورَكَ أَبْنَاؤُكَ فِي الْعَامِ مَرَّةً؟ قَالَ: عُذْراً

* * *

الأداة الحادية عشرة: كلمة «أيّ» وتأتي اسماً من أسماء الاستفهام، ويُسْتَفْهَمُ بها لتعيين أحد المتشاركين في أَمْرٍ يَعُمُّهُما، سواءٌ أكانَا شخصين مِمَّنْ يَعْقِلْ، أَم مِمَّا لَا يَعْقِل، أو زمانين، أو مكانين، أو حالَيْن، أو عددين، أو غير ذلك، وتكُونُ بِحَسَبِ ما تُضاف إليه، نحو: «أيّ الرجلين؟ ــ أي المرأتين؟ ــ أيُّ الزمانين؟ ــ أيُّ المكانين؟ ــ أيُّ الحالين؟ ــ أيّ العدَدَيْن؟».

أمثلة:

- قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ . . .﴾ [الآية ١٩].

- وقول لله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) في حكاية محاجّة إبراهيم عليه السلام لمشركي قومه:

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾؟.

- وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الرحمن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول) خطاباً للجن والإنس:

﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾؟ وهي مكرّرة فيها.

* * *

خروج الاستفهام عن أصل دلالته إلى معاني أخرى

كثيراً ما يخرج الاستفهام عن إرادة طلب الإِفْهامِ والإعلام إلى معانٍ أخرى

يُشَار إليها به، ويُسْتَدَلُّ علَيْهَا مِنْ قرائِنِ الحال أو قرائن المقال، إذْ يَسْتَغْنِي الْبُلَغاء بعبارات الاستفهام عن ذكر الألفاظ الدّالّة دلالةً صَريحةً علىٰ مَا يُريدون التَّعْبيرَ عَنْهُ مِنَ المعَاني، وبلاغةُ الدّلالة على هذه المعاني بأسْلُوبِ الاسْتفهام آتيةٌ من التعبير عنها بصورة غير مباشرة وهيَ دلالاتٌ تُتَصَيَّدُ بالذكاء.

قال شمس الدين ابن الصائغ في كتابه «روض الأفْهام في أقسام الاستفهام»[1]:

«وقد توسعت العرب، فأخرجت الاستفهام عن حقيقته لمعانٍ، أو أشربته تلك المعاني».

وقد أحصىٰ البلاغيّون معاني كثيرة خرج إليها الاستفهام عن حقيقته، إذْ تَنَبَّهُوا إليها لدى دراسة مُخْتَلِف النصوص، وهي ما يلي:

«١ ــ الإنكار ٢ ــ التوبيخ ٣ ــ التقرير ٤ ــ التعجّب أو التعجيب ٥ ــ العتاب ٦ ــ التذكير ٧ ــ الافتخار ٨ ــ التفخيم والتعظيم ٩ ــ التهويل والتخويف ١٠ ــ التسهيل والتخفيف ١١ ــ التهديد والوعيد ١٢ ــ التكثير ١٣ ــ التسوية ١٤ ــ الأمر ١٥ ــ التنبيه ١٦ ــ الترغيب ١٧ ــ النهي ١٨ ــ الدعاء ١٩ ــ الاسترشاد ٢٠ ــ التّمنّي والترجّي ٢١ ــ الاستبطاء ٢٢ ــ العرض ٢٣ ــ التحضيض ٢٤ ــ التجاهل ٢٥ ــ التحقير والاستهانة ٢٦ ــ المدح والذّم ٢٧ ــ الاكتفاء ٢٨ ــ الاستبعاد ٢٩ ــ الإيناس ٣٠ ــ التهكّم والسخرية ٣١ ــ الإخبار ٣٢ ــ التأكيد» إلى غير ذلك من معانٍ.

أقول:

من طبيعة الإنسان إذا لم يُرِد التصريح بالمعنى الذي يَقْصِده، فإنّه يتّخذ للإشعار به أسلوباً غير مباشر.

---

(١) نقلاً عن السيوطي في (الإتقان).

ومن الأساليب الذكيّة غير المباشرة أن يحاول جعل المخاطَب هو الذي يعبّر بنفسه عن المعنى، أو يُدْرِكُه بنفسه ولو لم يُعبِّر عنه بكلامه.

والطريق السهل للوصول إلى هذه الغاية، أن يطرح على المخاطب جملةً استفهاميَّةً موجّهةً توجيهاً خاصّاً، إذ يحيطها بقرائن تجعله يدرك المعنى بنفسه، سواء عبّر عنه بالجواب أو لم يُعَبِّر.

ولمّا كانت المعاني التي يمكن الإشارة إليها من طرفٍ خفيّ كثيرة جدّاً، ويُمْكنُ استدعاؤها إلى الذهن عن طريق طرح السُّؤال الذي لا يُصَرَّحُ فيه بالمراد، كان من الأمر الطبيعيّ في الكلام أن يُصَاغ فيه جُمَلٌ استفهاميّة محفوفةٌ بقرائن الحال أو المقال، بغيَةَ استدراج المخاطَب لإدراكها، وقد يُصَرِّح في جوابه بما أدرك من معنى، أو يكتفي بإدراك المراد، ويعلم أن السؤال قد طُرِح لمجرّد إفهامه الغرض من السؤال.

والمحققون من علماء البلاغة يَرَوْنَ أَنَّ معنى الاستفهام يبقَىٰ ولكن ينضم إليه ما يُستفاد منه من المعاني التي يُدَلُّ بِه عليها.

* * *

شرح المعاني التي يُدَلُّ عليها بالاستفهام مع الأمثلة

(١) شرح الاستفهام المستَعْمَل في الإِنْكار:

ويُسَمَّىٰ استفهاماً إنكاريّاً، ويُرادُ منه النفي، مع الإِنكار على المثْبِتِ كَيْفَ أَثْبَتَ مَا هو ظاهر النفي، وكان الواجب عليه أن يَنْفِي، أو مع الإِنكار على المخاطب قضيَّته، وهي باطلةٌ في تصوُّرِ مُوجِّه الاستفهام.

وقد يأتي بعدُه الاستثناء كما يأتي بعد المنفي بأداةٍ من أدوات النفي، وقد يعطفُ عليه المنفي.

وكثيراً ما يصحبُه التكذيب، وهو في الماضي بمعنىٰ «ما كان» وفي المستقبل بمعنى «لا يكون» وقد يُشْرَبُ الإنكار معنى التوبيخ والتقريع.

أمثلة:

• قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول):

﴿... بَلَٰغٌۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٣٥﴾.

أي: لَا يُهْلَكُ إهلاكاً عامّاً شاملاً بعقوبةٍ دُنيويَّةٍ معجَّلةٍ إلاَّ الْقَوْمُ الفاسِقُون، من مستوى فسق الظلم الكبير فلا يكونون فاسقين إلاّ وهُمْ ظالمون، وكذلك العكس، ولذلك جاء في (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٤٧﴾؟.

• وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٦ نزول) حكاية لمقالة قوم نوحٍ عليه السلام له:

﴿۞ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ۝١١١﴾؟.

أي: لَا يكونُ منّا إيمانٌ بكَ وَإسْلامٌ لَكَ والحالُ أنّه اتَّبَعك الأَرْذَلُون.

• وقول الله عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) حكاية لمقالة ثمود بشأن الرسول صالح عليه السلام:

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ۝٢٣ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ۝٢٤﴾.

أي: لا نَتَّبِـع بشراً منَّا واحداً لمجرّد ادّعائه أنّه رسولٌ من ربّه، إنّنا إذا اتّبعناه كُنَّا إذاً في ضلالٍ في مسيرتنا وجنونٍ في عقولنا.

• وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

أي: لَا أحد يحكم بالهداية لِمَنْ حكَمَ الله عليهم بالضّلال، ومَا لهم من ناصرين ينصرونهم فيدفعُون عنْهُمْ عذَابَ الله.

فجاء في هذه الآية عطف الجملة المنفيّة على الاستفهام الإنكاري، إذ معناه النفيُ.

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

أي: أفَآثَرَكم رَبُّكُمْ بِالبنين علىٰ نفسه..؟ والمعنى: ما فَعَلَ ذلك ولم يتّخذ من الملائكة إناثاً لنفسه.

● وقولُ الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) حكايةً لمقالة هود عليه السلام لقومه:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: لَا نجبرُكُمْ بِالإكْرَاهِ على اتّباعِ مَا جئتُكُمْ به، فاتّباع الدين لا يكون إلّا بإرادةٍ اختياريّة، إذْ لا إكْرَاهَ في الدين.

● وقول امرىء القيس:

أَيَقْتُلُنِي وَالْمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي ... وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَاب أغْوَال[1]؟

* * *

(١) المشرفي: سيف يجلب من مشارف اليمن، وهي بلاد كانت تُصْنع فيها السيوف. وَمَسْنُونَةٌ زُرْق: أي: سهام مسنونة حادّة النصال، صافية مجلوة فهي زرق من شدّة صفائها.

(٢) شرح الاستفهام المستعمل في التوبيخ والتقريع:

ويسمَّىٰ استفهاماً توبيخيّاً، أو تقريعيّاً.

التقريع: توجيه اللّوم والعتاب الشديد الموجع، وأصْلُ الْقَرْعِ الضَّرْبُ.

والاستفهام التوبيخي قد يُوجَّهُ للتوبيخ على فعل شيءٍ غير حَسَنٍ في نظر موجّه الاستفهام، أو تركِ فعْلٍ كانَ ينبغي القيامُ به في نظر موجّه الاستفهام.

أمـثـلـة:

● قول موسى لأخيه هارون بشأن اتّخاذ قومه العجل، فيما حكاه الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾﴾؟.

فَمُوسَىٰ عليه السلام يلوم أخاه بشدَّةٍ على أمْرٍ ظَنَّ أَنَّهُ ارتكَبَهُ، وَهُو معصيةُ أَمْرِه، لكنَّ هارُونَ عليه السلام اجْتَهَد وَلَمْ يَعْصِ، والمعنىٰ: مَا مَنَعَكَ عَنِ اتّباعي وحَمَلَكَ على ألاَّ تتَّبِعَني.

● وقول إبراهيم عليه السلام لقومه بشأن أصنامهم التي يعبدونها، فيما حكاه الله عزّ وجلّ في سورة (الصّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾؟.

فإبراهيم عليه السلام يوبّخهم على أنّهم يَعْبُدون أوثاناً ينحتونها بأيديهم، والله خلقهم وخلق أوثانهم التي يعبدونها، وهو الذي يجب أن تكون العبادة له وحده.

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً لبني إسرائيل:

﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾؟.

الشاهد في الآية قوله تعالى: [أفلا تعقِلُونَ؟] وفي ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ. . .﴾؟ معنىٰ التعجيب منْ فعلهم كما سيأتي إن شاء الله.

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾.

فالملائكة تُوبِّخُهُمْ وَتُقَرِّعُهُمْ لأنّهم لم يُهَاجروا من الأرضِ الّتي كانوا مستضعفين فيها، ورَضُوا بأن يكونوا ظالمي أنفسهم طاعةً للجبَّارين، مع أنّ أرض الله واسعة، وكان بإمكانهم أن يهاجروا إلى أماكن لا يُكْرَهُونَ فيها على مَعْصِية الله.

● قول العجّاج:

أَطَرَباً وَأَنْتَ قَيْسَرِيُّ والدَّهْرُ بِالإنْسَانِ دَوَّارِيُّ؟

الْقَيْسَرِيُّ: الشيخ الكبير، أي: أتطربُ وأنت شيخ كبير؟ ويُرْوىٰ «قِنَّسْرِيُّ» كما في اللّسان. وهو الشيخ الكبير أيضاً.

* * *

(٣) شرح الاستفهام المستعمل في التقرير:

ويُسمَّىٰ استفهاماً تقريريّاً، والمرادُ منه حَمْلُ المخاطَب على الإِقْرار والاعتراف بأمْرٍ قد استقرّ عنده العلْمُ به، أو هو أمْرٌ باستطاعته معرفته حِسِّيّاً أو فكْرِيّاً، موجباً كان أو سالباً.

فمن ادَّعَىٰ أنَّكَ جئْتَه وأنْتَ لم تأته، قد توجّه له استفهاماً تقريريّاً قائلاً: **هَلْ أَنَا جئتك؟ ومتَىٰ جئتُك؟ وَمَاذَا كَانَ** حين الْتَقَيْتُكَ، لتنزعَ منْه الإقرارَ والاعْترافَ بأنَّك لم تأْتِهِ.

ومن بَدا عليه أمارات إنكارِ أمْرٍ وقع، قَدْ توجّه له استفهاماً تقريرياً، قائلاً:

أَلَمْ يحدُثْ كذا؟ أَلَمْ أفعلْ كذا؟ أَلَمْ يكُنْ منْكَ كذا وكذا؟ لِتَنْتَزِعَ منه الإقرار والاعتراف بالأمر الذي قد حدث ووقع فعلاً.

أمـثـلـة:

● قول الله عزّ وجلّ لرسوله في سورة (الشرح/ ٩٤ مصحف/ ١٢ نزول):

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾.

● وقول الله له في سورة (الضحى/ ٩٣ مصحف/ ١١ نزول):

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾؟.

● وقول الله للمكذّبين بيوم الدّين في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول):

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ۝٢٣ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٤﴾.

● وقول إبراهيم عليه السلام لمشركي قومه بشأن أوثانِهم لانتزاع إقرارهم، فيما حكاه الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۝٧٣﴾؟.

فإذا لم يُقِرُّوا بألسنتهم بأنّ أوثانهم لا تَسْمَعُهم، فإنهم لا بُدَّ أنْ يُقِرُّوا بذلك في قلوبهم.

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول):

﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾؟.

الظاهر من الاستفهام في هذا النصّ أنّ الغرض منه انتزاع إقرار ذوي الفكر

والعلم والعقل بأن القسم بهذهِ الأشياء قسمٌ عظيم يثبت صدق وعيد الله، وأنّه بالمرصاد للمجرمين المفسدين في الأرض.

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ...﴾ [الآية ٣٦]؟.

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ...﴾ [الآية ١٧٢].

فَمِنَ الظَّاهر في هٰذِهِ الأَمْثلة أنّ الاستفهام فيها مُسْتَعْمَلٌ لاستِدعاء المخاطب إلىٰ الإِقْرار بقضيَّةٍ مُوجَبَةٍ أو سالبة جرىٰ حولها الاستفهام.

فالجواب المستدْعَىٰ في أمْثلة: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكْ؟ ـ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ؟ ـ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ؟ ـ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ؟ ـ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟ هو: «بَلَىٰ» وكلمة الجواب هذه تدلُّ على نقيض المستَفْهَم عنه، أي: شَرَحْتَ صدْرِي ـ وَجَدني يتيماً فآوى ـ خَلَقْتَنَا مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ـ اللَّهُ كافٍ عَبْدَهُ ـ أَنْتَ رَبُّنا.

والجوابُ المستدعىٰ في مثال: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ هو: «لا» إذ الأَوْثانُ المعنيَّةُ في الاسْتفهام لا تَسْمَعُ ولاَ تَنْفَعُ وَلاَ تَضُرُّ.

والجوابُ المستدعىٰ في مثال: ﴿هَلْ في ذلك قَسَمٌ لذي حِجْرٍ﴾ هو: «نعم» أي: من تفكَّر بعقلٍ حصيفٍ في هذهِ الأشياء التي أقْسَمَ الله بها وَجَدها مؤكَّدة حقّاً لمضمون الْمُقْسَم عليه، وذلك لأنَّ الأزمان الّتي أقْسَمَ الله بها هي أزمان إهْلاك الله الأُمَمَ السَّابقة، وظاهرٌ أنَّ القَسَمَ بأزمَانٍ خاصة هو قَسَمٌ بالأَحْداثِ العظيمة التي جرتْ فيها، وهذه الأحداث أدلّةٌ تجريبيّةٌ ماضية تؤكد صدق الخبر بحدوث أشباهها مستقبلاً عند وجود المقتضيات المماثلات للمقتضيات التي حدثت بسببها الأحداث الماضية، لأنّ سنة الله القائمة على حكمته سنة دائمة، لا تتغيّر ولا تتبدّل.

* * *

(٤) شرح الاستفهام المستعمل في التعجُّب أو التعجيب:

ويُسَمَّىٰ اسْتِفْهَاماً تَعْجُّبيّاً حين يكونُ صَادِراً مِنْ متعجِّبٍ فعلاً، ويُسَمَّىٰ اسْتِفْهَامَاً تَعْجِيبيّاً حينَ يكونُ الغرض من إيراده إثارَةَ الْعَجَب عنْد مَنْ يخاطَبُ بهِ أو يتلقَّاهُ، ومنه ما يكون صادراً عن الله عزّ وجلّ، إذْ ليْسَ من صفاتِهِ سبحانه أن يتعجَّب تَعَجُّبَ اسْتِغْرابٍ واستبعاد، نظراً إلى سابقِ علمه تعالى بكلّ ما يحدُثُ منْ عباده قبْلَ حدوثه، وعِلْمِهِ بخلقِه وَصفاتِهِمْ وخصائصهم النّفسيّة والسلوكيّة.

وما ورد في بعض الأحاديث النبويّة منْ نسبة العجب إلَىٰ الله عزّ وجلّ فهو بمعنىٰ الاستحسان المقتضي للرّضىٰ والمثوبة.

أمـثـلـة:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾؟!.

الاستفهام في هذه الآية استِفْهَامٌ تَعْجيبيٌّ فيه معنَىٰ التَّوْبيخ والتلْويم والتَّأْنيب والتَّقْريع، فَالْمَعْنَىٰ أَنَّ كُفْرَكُمْ باللَّهِ مَعَ كَوْنِكُم كُنْتُمْ أَمْواتاً فأَحْيَاكُمْ ولم تُحْيُوا أنتم أنْفُسَكُمْ، أمْرٌ ينْبَغِي أن تَعْجبُوا منه قبل غيركم، وأمْرٌ يتعجّبُ منه كلُّ العقلاء من أهل الرشد. فحالُكم يثير التعجُّب والاستغراب، كيف يصْدُرُ من ذوي عقول وأفكار؟!

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً لعلماء بني إسرائيل:

﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾؟!.

فالاستفهامُ في ﴿أَتَأْمُرونَ النَّاس بالْبِرِّ﴾ الذي يخاطب اللَّهُ به علماء بني إسرائيل استفهامٌ فيه معنى التَّعْجيب مِنْ حالِهِمْ مع التوبيخ والتَّلْويم والتقريع، إذْ

يأمُرونَ الناسَ منْ عَامَّةِ بني إسرائيل بالبرّ (أي: بالتَّوَسُّعِ في أعْمالِ الخير فوْقَ الواجبات) وأنْ يتركوا مَعَ ذَلك أنفُسَهم فلا يؤدّوا ما فرض الله عليهم وأَخَذَ عليهم به الْعَهْدَ من الإِيمان بالرسول الخاتم واتّباعه، وهم يتلون كتاب التوراة، وفيه تكليفهم أنْ يؤمنوا بالرَّسول النبيِّ الأُمّيِّ الّذي يأْمُرُهُمْ بالْمَعْرُوف ويَنْهَاهم عن المنكر، ويُحِلُّ لهم الطَّيباتِ ويُحَرِّمُ عليْهِمُ الخبائث، ويَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُم والأَغْلَالَ الّتِي كانت عليهم.

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (النَّمْل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) في حكايةِ تفقُّدِ سُليمانَ عليه السلام الطَّيْرَ واسْتِفهامه عن الْهُدْهُد إذْ لم يَرَهُ بينها:

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

فالاستفهامُ في ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾؟ اسْتِفْهَامٌ تَعَجُّبِـيٌّ، إذْ تعجَّب سليمانُ عليه السَّلام مِنْ عدم رؤيته الْهُدهُدَ مع أَنواع الطَّيْرِ وليْسَ من عادته أن يتخلَّف.

● قول الشاعر:

مَـالِـي أَرَاكُـمْ تُنْكِـرُون مَكَـانَتِـي؟! الشَّمْـسُ لاَ تَخْفَـىٰ مـعَ الإِشْـرَاقِ

● قول أبـي تمَّام:

مَـا لِلْخُطُـوبِ طَغَـتْ عَلَـيَّ كَـأَنَّهَـا جَهِلَـتْ بِـأَنَّ نَـدَاكَ بـالْمِـرْصَـادِ؟!

الْخُطُوب: مُفْرَدُهَا «خَطْبٌ» وهو الأَمْرُ الشّديد الذي يكثُر فيه التخاطب.

فأبو تمَّام يُبْدِي عجَبَهُ منْ طُغْيانِ الشدائِد عليه مع أنَّ ممدوحه قائم بالمرصاد لها يدفعها عنه بنداه، أي: بعطاياه.

● قول المتنبّي في سيف الدولة وهو يعودُه منْ دُمَّلٍ كَانَ فيه:

وَكَيْـفَ تُعِلُّـكَ الـدُّنْيَـا بِشَـيءٍ وأَنْـتَ لِعِلَّـةِ الـدُّنْيَـا طَبِيـبُ؟!
وَكَيْـفَ تَنُـوبُـكَ الشَّكْـوَىٰ بِـدَاءٍ وَأَنْـتَ الْمُسْتَغَـاثُ لِمَـا يَنُـوبُ؟!

أي: إنّ هذا لأمْرٌ يستَحِقُّ أَنْ يُتَعَجَّبَ مِنْهُ.

● قولُ إحْدىٰ نِسَاءِ الْعَرب تَشْكُو ابْنَها وتُظْهر التعجُّبَ مِنْ عَمَله:

أَنْشَــا يُمَــزِّقُ أَثْــوابِــي يُــؤَدِّبُنِــي　　أَبَعْـدَ شَيْبِــيَ يَبْغِي عِنْـدِيَ الأَدَبَـا؟!

أي: إنّ تأديبَ مَنْ شاب من العجَبِ الْعُجَاب.

* * *

(٥) شرح الاستفهام المستعمل في العتاب:

العتاب: أخفّ أنواعِ إظْهارِ عدم الارتياح لسلوكٍ ما، فعلاً كان أو تركاً، وقد يُسْتَخْدَمُ للدلالة عليه أسلوبُ الاستفهام للتخفيف من توجيهه، والتَّلَطُّفِ بنفس الموجّه له.

أمـثـلـة:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحديد/ ٥٧ مصحف/ ٩٤ نزول):

﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾؟.

أَلَمْ يَأْنِ؟: أي: أَلَمْ يَحِنِ الْوَقْتُ؟ يُقَالُ لُغَةً: أَنَىٰ يَأْنِي أَنْياً وَإِنىً وأَنَاةً، إذا حَانَ وَقَرُبَ.

الاستفهام في هٰذا النصِّ يتضَمَّن عِتَاباً لطائفَةٍ مِنَ الْمُؤْمنينَ مرَّتْ عَلَيْهِمْ بعد إيمانهم مُدَّةٌ كافيةٌ، كَانَ يَنْبَغي أن يَرتَقُوا فيها من دَرَجَةِ إيمانِ الْوَجِلِ إلىٰ دَرَجَةِ إيمانِ الخاشع.

الوجَلُ: هو الخوف، والخوفُ يرافقُه قلَقٌ واضطرابٌ في القلب.

الخشوع: هو الخضوع مع سُكُونِ القلب، وهو درجةٌ في الإيمان أعلَىٰ من درجة الوجَلِ.

وفوقهما درجة الطَّمَأْنينة.

أخرج الحاكم بسنده عن ابن مسعود قال: ما كان بين إسلام هؤلاءِ وبين أن عُوتِبُوا بهذِهِ الآية إلاَّ أربَعُ سِنين.

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ بشأنِ إِذْنِهِ لطائفةٍ من المنافقين عن الخروج معه إلى غزوة تبوك:

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾؟.

فقول الله له: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾؟ من أَلْطَفِ صُوَرِ العتاب.

● قول الحطيئة معاتباً:

أَلَمْ أَكُ جَارَكُمْ وَيَكُونَ بَيْنِي ... وبَيْنَكُمُ الْمَوَدَّةُ والإِخَاءُ؟

● ويُفْهَمُ العتابُ من قول الشريف المرتضىٰ لِمَنْ يَهْجُره:

أَتَبِيتُ رَيَّان الْجُفُونِ مِنَ الْكَرَىٰ ... وَأَبِيتَ مِنْكَ بِلَيْلَةِ الْمَلْسُوعِ

* * *

(٦) شرح الاستفهامِ المستَعْمَلَ في التذكير:

قد يستخدم الاستفهام للتذكير بقولٍ أو فِعْلٍ أو حادثةٍ جرَتْ، وقد يُقْتَصَرُ فِيهِ على بعض ما يُسْتَدْعَىٰ بالاستفهامِ تَذكُّره، فتحصل به فائدةُ الإيجاز في القول.

أمثلة:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول) في حكاية قصّة يوسف عليه السلام وإخوته:

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾؟.

فيوسف عليه السلام يُذَكِّرُ إخوته بما سَبَقَ أَنْ فَعَلُوا بِهِ وبأخيهِ «بنيامين» بأسلوب الاستفهام، وتُفْهَمُ مع هذا التذكير معانٍ أخرى كالعتاب أو التلويم.

وقول اللَّهِ عزّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً للملائكة بعد أن أثبت لهم تفوّق آدم عليهم بمعرفةِ الأسماء الَّتي علّمهُ إيّاها، وبعد أن أعلنوا جهلهم بها:

﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾؟.

* * *

(٧) شرح الاستفهام المستعمل في الافتخار:

ذكروا أنّ الاستفهام قد يُسْتعمل في الافتخار، ومثَّلُوا له بقول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦١ نزول) حكاية لنداء فرعون فِي قومه:

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾؟.

قالوا: إنّ الاستفهام في قوله: ﴿أَلَيْسَ لي مُلْكُ مِصْرَ﴾؟ خرج عن معناهُ إلى معنى الافتخار بما يملك في مصر.

أقول: إنّ فرعون خاف على قومه أن يتأثّروا بدعوة موسى ويتّبعوه، بعد أن جاءهم بآياتٍ ذواتِ عدد، وبعد أن دعا ربّه فكشَفَ عنهم ما أرسَلَ عليهم من رجز، فأراد فرعون أن يُقْنع قومه بتفوّقِهِ علَى مُوسَىٰ بأنّ لَهُ مُلْكَ مصر، وبأنّ موسى لا مُلْكَ له ولا سلطان، وبأنّه إذا أراد أن يتكلّم فإنّه لا يكاد يُبين عن مراده، وعلى هذا فالاستفهام في كلامه مستعمل لانْتزَاع إقرار قومِهِ في جماهيريَّة غوغائيّة بتفوّقه على مُوسَىٰ، وَلِلَفْتِ أنظارهم إلى عناصر التفوّق التي يُريد أن يخدعهم بها عن الحقيقة، ولَيْسَ لمطلق الافتخار، وقد يكون فيه رائحة افْتِخَار.

وقد يُفْهَم الافتخار من بعض أمْثِلَةِ الاستفهام كمَقْصَدٍ أوّل، وقد يكون أحد لوازم المقصد الأوّل منه، كقولي مفتخراً بأمجاد أُمَّتنا الإسلامية:

أَمـا نَحْـنُ الَّـذِيـنَ غَـدَوْا شُمُـوسـاً   عَلَـىٰ الـدُّنيَـا وَعَـمَّ بِنَـا الـرَّخَـاءُ؟

* * *

(٨) شرح الاستفهام المستعمل في التفخيم والتعظيم:

تندفع نفس المتكلّم حين يرىٰ شيئاً عظيماً فخماً للتعبير عن عظمته وفخامته، بأسلوب التّعجُّبِ أحياناً، وبأسلوب الاستفهام أحياناً أخرى، فإذا رأىٰ قصراً عظيماً فخماً قال: مَا هذا القصر؟. كيف بُنِي هذا القصر؟. مَنْ بنىٰ هذا القصر؟. وإذا سمع شاعراً مُبْدعاً قال: ما هذا الشاعر؟. من أين له بهذا الشعر البديع؟ وهو لا يريد الإجابة على استفهاماته، إنّما يريد التعبير عن عظمة ما رأىٰ، أَوْ سَمع.

أمـثـلـة:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول) بشأن استعظام المجرمين يوم الدّين كتاب أعمالهم، الذي لم يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلاَّ أحصاها:

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾.

مَالِ هذا الكتاب؟: استفهامٌ يرادُ به تعظيمُ وتفخيم شأنه، وليس استفهاماً يطلب له الجواب.

- قول الشاعر:

ومَنْ ذَا الّذي تُرْضى سَجَايَاهُ كُلُّها   كَفَـىٰ الْمَـرْءَ نُبْـلاً أَنْ تُعَـدَّ مَعَـايِبُـهُ؟

أي: إنّ الذي تُرْضَىٰ سجاياه كلُّها رَجُلٌ عظيم.

- قول المتنبّي يمدح كافوراً:

وَمَنْ مِثْلُ كَافُورٍ إِذَا الْخَيْلُ أَحْجَمَتْ؟ وَكَـانَ قَلِيـلاً مَـنْ يَقُـولُ لَهَـا اقْـدُمِـي

أي: هو عظيم قليل النظير في الحثّ على وُرُودِ المعارك، فأورد الاستفهام والغرض منه التعظيم، والقرينة المدْحُ.

● قول الشاعر:

أَضَـاعُـونـي وَأَيَّ فَتـىً أَضَـاعُـوا؟ لِيَـوْمِ كَـرِيهَـةٍ وَسَـدَادِ ثَغْـرِ

وأَيَّ فَتىً أضَاعُوا؟: أي أضاعوا فَتىً عظيماً، فالشاعر يعظم من أمْرِ شجاعته.

الكريهة: الشدّة المكروهة في الحرب.

وسَدَادِ ثَغْر: أي: وَسَدِّ ثَغْرَةٍ مِنْ ثُغُورِ البلاد لحمايتها من الْعَدُوّ.

● قول ابن هانىء الأندلسي:

مَـنْ مِنكُـمُ الْمَلِـكُ الْمُطَـاعُ كـأَنَّـهُ تَحْـتَ السَّـوَابِـغِ تُبَّـعٌ فِـي حِمْيَـرِ؟

* * *

(٩) شرح الاستفهام المستعمل في التهويل والتخويف:

وإذا كان المعظَّم شيئاً مُخِيفاً مَهُولاً، كان تعظيمه بالاستفهام فيه مَعْنَىٰ التَّهْوِيل والتخويف.

أمـثـلـة:

● قول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (الحاقّة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول) يخوّف من يوم القيامة وأهْوَالها:

﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾؟.

فالاستفهام هنا للتخويف والتهويل.

ونظيره قول الله عزّ وجلّ في سورة (القارعة/ ١٠١ مصحف/ ٣٠ نزول):

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ ﴾؟.

* * *

(١٠) شرح الاستفهام المستعمل في التسهيلِ والتخفيف:

وقد يُعبّر المتكلّم عمّا يراه أمراً سَهْلاً هيّناً خفيفاً بأسلوب الاستفهام، وتدلُّ قرينة الحال أو قرينة المقال على ما أراد التعبير عنه.

كأن يقول قائل لشابّ رياضيٍّ معتادٍ صعود الجبال: أتستطيع أنْ تصعد هذا الجبل؟

فيقول له: وماذا في صعوده؟

ويقول قائل لخطيب مفوّهٍ معتادٍ أن يقف بين الجماهير خطيباً مرتجلاً، ويأسرهم بكلامه: أتستطيع أن تخطب لنا خطبةً في هذا الحفل؟

فيجيبه بالْمَثَل: أو للبطّ تُهَدِّدِينَ بالشَّطّ.

أمـثـلـة:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ۝٣٩ ﴾.

أي: إنّ الإيمان أمْرٌ سَهْلٌ يَسيرٌ هيِّنٌ لاَ ثِقَلَ فِيه عَلَىٰ النفوس.

● قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ... ﴾؟ [الآية ٥٢].

أي: هَلْ تَنتظِرُون أَنْ يَنالَنا إلاّ إحْدَىٰ الْحُسْنيَيْن: الشَّهادَة وهْي سَهْلَةٌ عَلَيْنا، أو النَّصْر وهو حبيبٌ إلينا.

* * *

(١١) **شرح الاستفهام المستعمل في التهديد والوعيد:**

وقد يُهدِّد المتكلّم باستخدام أسلوب الاستفهام، وقَدْ يَتوعَّدُ به.

كأن يقول السُّلْطان لطائفةٍ منَ المجرمين الّذين لم تَثْبُتْ بَعْدُ إدانتُهم بجرائمهم: ألَمْ تَعلَمُوا أنّنا قَطعْنَا أيدي الّذِينَ ثبتَتْ عليهم جريمة السّرقة؟. ألَمْ تَعْلَموا أنّنا قتلْنَا من ثبتت عليهم جريمة القتل عمداً وعُدْواناً؟ ألم تَعْلَمُوا أنّنا عاقبنا من ثبتت عليهم جريمة الحِرابة بتقطيع أيديهم وأرجُلهم من خلاف، وبقتل القتَلة منهم؟.

أمـثـلـة:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول):

﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦ ﴾؟.

أي: كما فعلنا بالمجرمين الأولين من مكذّبـي القرون الأولى سنفعل بأمثالهم من الأمم اللاّحقة.

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) يتوعّد الكافرين بما في يوم الدين:

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٢١٠ ﴾؟.

● قول الله عزّ وجَلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) يُهَدِّدُ المشركين:

﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ ... ﴾؟ [الآية ١٠٢].

* * *

(١٢) شرح الاستفهام المستعمل في التكثير:

وقد يعبّر المتكلم عن الكَثْرَة بأسلوب الاستفهام، والأداة المستعملة في هذا غالباً كلمة «كم» وتخرج حينئذٍ عن الاستفهام وتسمّى «كم» الخبرية التي يُعبَّرُ بها عَنِ الكثرة.

وَيمكن أن يستعمل غيرها من الأدوات للدلالة على التكثير، كأن تقول الأم لابنها الذي يريد أن تحمله مع أن كبدها تذوب من توالي حمله:

أَلَيْلَـــــــــةً وَاحِـــــــــدَةً أَرَّقْتَنَـــــي يَـــا وَلَـــدِي؟
تُـــرِيـــدُ حَمْـــلاً وأنَـــا تَـــذُوبُ مِنْـــهُ كَبِـــدِي

أمـثـلـة:

- قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾﴾؟.

أي: كثيرٌ من الْقُرى أهْلَكْنَاها.

- قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ...﴾ [الآية ٢١١]؟.

أي: آتيناهم آياتٍ بيّنَاتٍ كثيرات.

- قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾؟.

أي: أنبتنا فيها أصْنافاً كثيرة.

- قول أبـي العلاء المعرّي:

صَاحِ هـذِي قُبُـورُنَـا تَمْـلأُ الـرَّحْـ ـــبَ فَـأَيْـنَ الْقُبُـورُ مِـنْ عَهْـدِ عَـادِ؟

أي: فقبورٌ كثيرة من عَهْدِ عاد.

* * *

(١٣) شرح الاستفهام المستعمل في التسوية:

ويكون في الاستفهام الداخل على جملة يصحُّ حلول المصدر محلّها، ويأتي بعْدَها معادلٌ.

أمـثـلـة:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾؟.

أي: استوى إنذارهُمْ وعَدَمُهُ.

● قول المتنبـي:

وَلَسْـتُ أُبَـالِـي بَعْـدَ إِدْرَاكِـيَ الْعُـلاَ ... أَكَـانَ تُـرَاثـاً مَـا تَنَـاوَلْـتُ أَمْ كَسْبَـا

* * *

(١٤) شرح الاستفهام المستعمل في الأمر:

كثيراً ما يتلطَّفُ المتكلم بالمخاطب فيوجّه له الأمر بأسلوب الاستفهام، والأمْرُ يَشْمَلُ كُلَّ مَا تُسْتَعْمَلُ له صيغة الأمْرِ من تكليف، أو نصيحة، أو موعظة، إو إرشادٍ، أو دُعاءٍ، أو التماسٍ، أو غير ذلك.

فإذا قدّم له طعاماً مثلاً قال له: أتأكل؟ ألاَ تأكُل؟. وإذا أراد أن يأمُرَه بالصَّلاةِ وقد حانَ وقْتُها قالَ له: أَتُصَلّي؟ ألاَ تُصَلِّي.. وهكذا.

أمـثـلـة:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾.

أَأَسْلَمْتُمْ؟: أي: أَسْلِموا.

- قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾؟.

فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ؟: أي: انْتَهُوا.

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَۗ... ﴾ [الآية ٢٠]؟.

أَتَصْبِرُونَ؟: أي: اصْبِرُوا.

- قول الشاعر:

أَلَا ارْعِـوَاءَ لِمَـنْ وَلَّـتْ شَبِيبَتُـهُ وآذَنَـتْ بِمَشِيـبٍ بَعْـدَهُ هَـرَمُ؟

أي: فلْيَرْعَوِ عن المعاصي والقبائح وفعل السّيّئات.

* * *

(١٥) شرح الاسْتِفْهَام المستعمل في التّنبيه:

التنبيهُ في الحقيقة هو من أقسام الأمر، ومن المعاني الّتي تُستعمل فيها صيغة الأمر.

أمـثـلـة:

- قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾.

أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ؟: أي: انظر وتفكّر وتنبَّهْ إلى هذه الآية من آيات الله.

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول) بشأن القرآن المجيد:

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ؟: أي: انْتَبِهُوا، ولاَ تَذْهَبُوا بعيداً منصرفين عن إدْراك الحقيقة.

● قول الشاعر:

أَلَمْ تَسْمَعِي أيْ عَبْدَ في رَوْنَقِ الضُّحَىٰ ... بُكَـاءَ حَمَـامَـاتٍ لَهُـنَّ هَـدِيـرُ؟

أي: انتبهي لبكائِهِنّ، فإنّك عندئذٍ تذكرين بُكَاء عَاشقك.

* * *

(١٦) شرح الاستفهام المستعمل في الترغيب:

الترغيب في الحقيقة من المعاني التي تُسْتَعْمَلُ للدَّلالة عَلَيْها صيغة الأَمْر، فكما يستعمل الاستفهام في الأمر يمكن أن يُسْتَعمل في الترغيب.

أمـثـلـة:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾.

أي: ارغبوا في هذا الثواب العظيم فأقْرِضوا الله قرضاً حسناً.

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الصف/ ٦١ مصحف/ ١٠٩ نزول):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾﴾.

أي: ارغَبُوا في هذِهِ التجارة العظيمة الرابحة.

* * *

(١٧) **شرح الاستفهام المستعمل في النهي:**

استعمال الاستفهام في النهي نظير استعماله في الأَمْر، لأنَّ الأمر بالشيءِ نهْيٌ عن ضدّه، وبالعكس.

أمـثـلـة:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) بشأنِ الحث على قتال أئمة الكُفر:

﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣﴾؟.

أي: لا تخشوهم، لأنّ الله ناصركم عليهم.

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة(الانفطار/ ٨٢ مصحف/ ٨٢ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧﴾.

أي: لا تغترَّ بربّك.

● قول الشاعر:

أَكُــلَّ امْــرِىءٍ تَحْسَبِيــنَ امْــرأً ... وَنَــارٍ تَــوَقَّــدُ فــي اللَّيْــلِ نَــاراً؟

أي: لَا تَحْسَبـي ذلك.

* * *

(١٨) **شرح الاستفهام المستعمل في الدّعاء:**

استعمال الاستفهام في الدعاء نظير استعماله في الأمْرِ والنهي، فالدعاء تستعمل للدلالة عليه صيغتا الأمر والنهي، والدعاء يكون عادة من الأدنىٰ إلى الأعلى، والحقّ أَنْ لا يكون إلاّ من العبد لربّه عزَّ وجلَّ.

أمثلة:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ ...﴾ [الآية ١٥٥]؟.

أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا؟: أي: لاَ تُهْلِكْنَا بِمَا فعلَ السُّفَهَاءُ منا.

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بشأن المشركين وتكذيبهم بالقرآن:

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ (٢٠٣)﴾؟.

هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ: أي: أَنْظِرْنَا رَبَّنا، يدعون بأسلوب الاستفهام لأنّهم يَعْلَمُونَ أَنَّهم مُذْنِبُون لا يستجاب لهم، فقد انتهت مدّة ابتلائهم.

* * *

(١٩) شرح الاستفهام المستعمل في الاسترشاد:

قد يطرح المتكلم سؤالاً استفهامياً ظاهره يُشْعر بالاستشكال أو الاعتراض، وغرضه الاسترشاد، ويمكن أن نعتبر من الأمثلة على هذا أسئلة موسى للخضر في اعتراضاته على تصرّفاته، كما أبان الله لنا في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا (٧١)﴾؟.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا (٧٤)﴾؟.

إِمْراً: أَيْ: عجيباً مُنْكَراً لاَ يَتَّفِقُ مع أحكام الشريعة فيما أَعْلَم.

نُكْراً: أيْ: مُنْكراً لاَ يتَّفِقُ مع أحكام الشريعة فيما أعلم.

لَقَدْ تعجَّلَ موسىٰ عليه السّلامُ سؤال الاسترشاد، مع أَنَّ موافقة الخضر على مصاحبته له كانت مشروطةً بِأَنْ يَصْبِرَ حتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُ أسبابَ تصرُّفاتهِ الَّتِي لم تكُنْ في الحقيقة مخَالِفةً لمقتضياتِ شَرْعِ الله، إذْ عَلِم الْخَضِر من الحقيقة ما لَمْ يَعْلَمْهُ موسَىٰ عليهما السلام.

ومثَّلُوا لسؤال الاسترشاد الذي من هذا القبيل بسؤال الملائكة إذْ قَالُوا لربّهم كما جاء في سورة (البقرة/ ٢ مص حف/ ٨٧ نزول):

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾؟.

* * *

(٢٠) شرح الاستفهام المستعمل في التمنِّي والترجي:

يتمَنَّىٰ الْمُتَمَنِّي أمراً يرى أنَّه متعذّر الحصول أو بعيد المنال، وقد يعبّر عن تَمَنِّيهِ بأسلوب الاستفهام، كأنّ يتمنَّىٰ بعضُ أصحاب الأوهام أنْ ينام ليلة فيصحوَ وقد حفظ القرآن عن ظهر قلب، أو صار عالماً من كبار العلماء، أو ألقي إليه من السماء كنز من الذهب أو نحو ذلك، فيقول: هلْ يَحْصُلُ لي كذا وكذا؟ وكذلك الترجّي.

أمـثـلـة:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بشأن تمنّي الكافرين يوم الدّين أن يكون لهم شفعاء يشفعون لهم:

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ

﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

أي: نَتَمنَّىٰ أنْ يكون لنا شفعاء، أو نُرَدَّ إلى حياة الابتلاء لنعمل غير الذي كنّا نعمل، لكنّ أمانيَّهُمْ ضائعة ومطالبهم بها مرفوضة.

● قول الشاعر:

هَــلْ بــالطُّلُــولِ لِسَــائـلٍ رَدُّ؟ أَمْ هَــلْ لَهَــا بِتَكَلُّــمٍ عَهْــدُ؟

● قول أبـي العتاهية يمدح الأمين:

تَـذَكَّـرْ أَمِيـنَ اللَّـهِ حَقِّـي وَحُـرْمَتِـي وَمَـا كُنْـتَ تُـولِينِـي لعلَّـكَ تَـذْكُـرُ
فَمَـنْ لِـيَ بـالْعَيْـنِ الَّتِـي كُنْـتَ مَـرَّةً إِلَـيَّ بِهَـا فـي سَـالِـفِ الـدَّهْـرِ تَنْظُـرُ؟

أي: أتمنَّىٰ أَنْ تعودَ لي تلك العين التي كنت تنظرُ إليَّ بها، أو أرجو.

● قول الشاعر:

مَضَىٰ زَمَنٌ والنَّاسُ يَسْتَشْفِعُونَ بـي فَهَـلْ لِـي إلَـىٰ لَيْلَـىٰ الْغَـدَاةَ شَفِيـعُ؟

فهو يتمنى أو يرجو.

* * *

(٢١) شرح الاستفهام المستعمل في الاستبطاء:

يستبطىء الموعود بوعْدٍ حدوث الموعود به، وقد يعبّر عن استبطائه له بأسلوب الاستفهام، فيقول لمن وعده بزيارته له: متَىٰ تأتينَا؟. متى تزورنا؟ حتَّىٰ متَّىٰ تعِدُنا وَلا تفي بوعدك؟

أمـثـلـة:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً للمؤمنين:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾.

مَتَىٰ نَصْرُ الله؟: أي: تأخَّرَ النَّصْرُ الْمَوْعود به، وهكذا حالُ البشر يستعجلون، وحكمةُ الله لا تُسَايرُ مطالب المستعجلين.

● قول أبـي العلاء المعرّي:

إلاَمَ وفِيـــمَ تَنْقُلُنَـــا رِكَـــابٌ ... وَتَـــأْمُـــلُ أَنْ يَكُـــونَ لَنَـــا أَوَانُ؟

أي: إلى متى تسير مطايانا وترجو أن يكون لنا وقتٌ نجزيها فيه على إحسانها بنا.

* * *

(٢٢) شرح الاستفهام المستعمل في العرض:

ويتلطّف الآمر، أو الناصح، أو الداعي، أو طالب أيّ مطلب، فَيَعْرِضُ ما يطلبه أو يدعو إليه عرضاً بأسلوب الاستفهام، والصيغة الأصلية التي تُسْتَعْمَل في ذلك صيغة الأمر، أو صيغة النهي.

أمـثـلـة:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿ . . . وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

أي: إنْ عفوتم وصفحتُمْ غفر الله لكُم.

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول) يعلّم موسَىٰ عليه السّلام كيف يَعْرِضُ دَعْوته على فرعون:

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾؟.

• قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الذاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول) بشأنِ دعوة إبراهيم عليه السلام ضيوفه ليأكلوا ما أَعدَّ لهم من طعامٍ، وكان عِجْلاً مَشْوِيّاً:

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾؟.

* * *

(٢٣) شرح الاستفهام المستعمل في التحضيض:

ويريد المتكلم حَضَّ مَنْ يخاطبه على فعل أمرٍ أو تركِ أمْرٍ، وقد يجد استعمال أسلوب الاستفهام أوقع في نفسه، وأكْثَرَ تأْثيراً، إذا كانت القرينة القولية أو الحالية تشعر بالتلويم على عدم الاستجابة.

أمثلة:

• قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) يحضُّ على قتال المشركين:

﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخْشَوْنَهُمْۚ ... ﴾ [الآية ١٣]؟.

• قولي صانعاً مثلاً:

أَلاَ قُمْتُمُو يَا رِجَالَ الْهُدَىٰ لِنُصْرَةِ دِينِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ؟

* * *

(٢٤) شرح الاستفهام المستعمل في التجاهل:

قد يتجاهل العارف بالأمر أو بالشخص أو بصفاته لأغراضٍ بلاغيّة، منها استزادة المعرفة، ومنها انتزاع الاعتراف، ومنها تحقيره والتقليل من شأنه حتّى كأنه غير معروف، ومنها الإثارة لإفاضة البيان حوله من بعض حاضري المجلس للتعريف به مدحاً أو ذمّاً، إلى غير ذلك من أغراضٍ بلاغية، ويستعمل في التجاهل أسلوب الاستفهام.

ويمكن أن نعتبر من أمثلة الاستفهام المستعمل في التجاهل ما جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) ضمن عرض قصة إبراهيم عليه السلام لمّا حطّم أصنام قومه إذْ تخلف عنهم يوم خرجوا ليلهوا في عيد لهم، قال الله عزَّ وجلَّ فيها:

﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾؟.

(٢٥) شرح الاستفهام المستعمل في التحقير والاستهانة والاستهزاء:

وقد يستعمل الاستفهام أسلوباً من أساليب تحقير المستَفْهَم عنه والاستهانة به، لأنّ الاستفهام يشعر بأنّ المستَفْهِمَ غيرُ مهتَمٍّ بما يَسْتَفْهِمُ عنه، ولا مكترثٍ له لحقارته في نفسه، واستهانته به، ثم صار الاستفهام يدلُّ على التحقير والاستهانة بمساعدة قرائن الحال أو المقال:

أمثلة:

- قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) في بيان بعض مواقف الذين كفروا من الرسول ﷺ:

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾؟.

- وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) في ذلك أيضاً:

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾؟.

لقَدِ احتقروه واستهزؤُوا به أوّلاً إذْ بعثه الله رسولاً، فسورة الفرقان قد نزلت قبل سورة الأنبياء، ثم احتقروه واستهزؤوا به دفاعاً عن أوثانهم بعد أنْ أبَانَ أنَّها حجارةٌ لا تضرُّ ولا تنفعُ.

● قول الشاعر:

فَدَعِ الْوَعِيدَ فَمَا وَعِيدُكَ ضَائِرِي أَطَنِينُ أَجْنِحَةِ الذُّبَابِ يَضِيرُ؟

* * *

(٢٦) شرح الاستفهام المستعمل في المدح أو الذمّ:

وقد يُسَاقُ الاستفهام للدلالة على مدح المتحدّث عنه والثناء عليه، أو للدلالة على ذمّه وكشف مثالبه، والقرائن القولية أو الحالية كواشف.

أمثلة:

● قول جرير في مدح عبد الملك:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَىٰ الْعَالَمِين بُطُونَ رَاحِ؟

● قول المتنبي حينما صَرَعَ بدْرُ بن عمّار أسداً بسوطه يمدحه:

أَمُعَفِّرَ اللَّيْثِ الْهِزَبْرِ بِسَوْطِهِ لِمَنِ ادّخَرْتَ الصَّارِمَ الْمَصقُولاَ؟

● قول الشاعر:

أَرَأَيْتَ أَيّ سَوالِفٍ وَخُدُودِ بَرَزَتْ لَنَا بَيْنَ اللِّوَىٰ فَزَرُودِ؟

● قول ابن الرومي في المدح:

أَلَسْتَ الْمَرْءَ يَجْبِي كُلَّ حَمْدٍ إِذَا مَا لَمْ يَكُنْ لِلْحَمْدِ جَابِ؟

جَابٍ: أي: مَنْ يَجْبِي بمعنى يجمع.

● قول الشاعر في الاستفهام المعبّر عن الذمّ:

فَقَالَتْ: أَكُلَّ النَّاسِ أصْبَحْتَ مَانِحاً لِسَانَكَ كَيْمَا أَنْ تَغُرَّ وتَخْدَعَا؟

* * *

(٢٧) شرح الاستفهام المستعمل في الاكتفاء:

وذكروا أنّ الاستفهام قد يستعمَلُ لبيان الاكتفاء، ومثلوا له بقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾؟.

● وبقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾؟.

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾؟.

أي: يكفيهم عقاباً لَهُمْ مَثْواهُمْ في جَهَنَّمَ يوم الدين.

أقول: الأقرب اعتبار هذه الأمثلة من الاستفهام المستعمل في التهديد والوعيد والترهيب.

* * *

(٢٨) شرح الاستفهام المستعمل في الاستبعاد:

وَكثيراً ما يُسْتَخْدمُ الاستفهام للدلالة على استبعاد المستفهم عنه، والتشكُّك في حدوثه.

أمـثـلـة:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول) بشأن الدخان الذي هو أحد أشراط السّاعة:

﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ﴿١٤﴾ ﴾.

أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ؟: أي: تَذَكُّرُهُمْ واتِّعاظُهُمْ أَمْرٌ مُسْتَبْعَد.

● قول الشاعر:

أَتُقْـرَحُ أَكْبَـادُ الْمُحِبِّيـنَ كَـالَّـذِي ... أَرَىٰ كَبِـدِي مِـنْ حُـبِّ مَيَّـةَ تُقْـرَحُ؟

أي: أستبعد ذلك.

* * *

(٢٩) شرح الاستفهام المستعمل في الإيناس:

ويريد المتكلم أن يؤانِسَ من يخاطبه، فيطرح عليه أسئلة يَجُرّهُ بها إلى المحادثَة، مع أنّ المتكلم عالم بجواب أسئلته.

أمـثـلـة:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) مبيّناً ما كلّم الله به مُوسَىٰ في رحلة التكليم:

﴿ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾.

● قول الزوج في ليلة عرسه لعروسه: مَنْ أهْداكِ هذا العقد النفيس؟ مِنْ أيْنَ جئتِ بهذا الشعر الذهبـي الجميل؟ مَاذَا تُحبّين أنْ يكون بِكْرُكِ؟ أذكراً أم أنْثَىٰ؟

* * *

(٣٠) شرح الاستفهام المستعمل في التهكُّم والسخرية:

ويستعمَلُ الاستفهام عند إرادة التهكُّم أو السخرية، ومن الأمثلة مقالة قوم

شعيب عليه السلام له، كَما حكى الله عزَّ وجلَّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾؟.

ومقالة إبراهيم عليه السّلامُ لآلِهَةِ قَوْمِه مِنَ الأَوْثَانِ كما حكَىٰ الله عزَّ وجلَّ في سورة (الصّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾؟.

أَلاَ تَأْكُلُونَ؟: استفهامٌ تهكُّمِيٌّ سَاخِر. وكذلك: **مَالَكُمْ لاَ تنطقُونَ؟**

* * *

(٣١) شرح الاستفهام المستعمل في الإخبار:

وقد يستعمل الاستفهام أسلوباً من أسَالِيب الإخبار، وهو يدخل في طريقة الإعلام غير المباشر.

أمـثـلـة:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) بشأنِ طائفةٍ من المنافقين:

﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

أفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا: أي: هم فريقانِ، فريقٌ في قلوبهم مرض النفاق، وفريق دخل إلى قلوبهم الرّيبُ.

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول):

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾.

أي: قَدْ أتىٰ عليه هذا الحين.

* * *

(٣٢) شرح الاستفهام المستعمل في التأكيد:

وقد يأتي الاستفهام تأكيداً لاستفهام قبله، حين تدعو الحاجة البيانيّة الرفيعة لذلك، ومن الأمثلة على هذا قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ۝١٩﴾؟.

قال الموفّق عبد اللطيف البغدادي: «أي: مَنْ حقّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ فإنَّكَ لاَ تُنْقِذُهُ، فـ «مَنْ» للشَّرْطِ، و «الفاء» جواب الشرط، و «الهمزة» في: ﴿أَفَأَنْتَ؟﴾ دخلَتْ مُعَادَةً لطولِ الكلام، وهذا نوعٌ من أنواعها».

قال الزمخشري: «الهمزة الثانية هي الأولَىٰ كُرِّرَت لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد».

* * *

خاتمة:

قد نلاحظ معاني أخرى في بعض أمثلة الاستفهام غير التي ذكرها مُحْصُو المعاني السابقة، كالاستعطاف والاسترحام، والتيئيس وقطع الرجاء، والشكوىٰ، والتشوّق، والغيرة، والتفجّع والهلع.

● فمن الاستعطاف قول الشاعر:

أَلَـمْ أَكُ جَـارَكُـمْ وَيكُـونَ بَيْنِـي ... وَبيْنَكُـمُ الْمَـوَدَّةُ والإِخَـاءُ؟

ومن التيئيس وقطع الرجاء قول الشاعر:

قَدْ قِيلَ مَا قيلَ إِنْ صِدْقاً وَإِنْ كَذِباً ... فَمَا اعْتِذَارُكَ مَنْ قَوْلٍ إِذَا قِيلَ؟

ومِنَ الشكوىٰ قولُ الشاعر:

أَلاَ تَسْأَلاَنِ الدَّهْرَ مَاذا يُحَاوِلُ؟ ... أَنَحْبٌ فَيُقْضَىٰ أَمْ ضَلاَلٌ وَبَاطِلُ؟

ومن التشوّق قولُ الشاعر:

فَقُمْتُ للطَّيْفِ مُرْتَاعاً فَأَرَّقَنِي ... فَقُلْتُ: أَهْيَ سَرَتْ أَمْ عَادَنِي حُلُمُ؟

ومن الغيرة قول مجنون ليْلَىٰ:

بِرَبِّكَ هَلْ ضَمَمْتَ إِلَيْكَ لَيْلَىٰ ... قُبَيْلَ الصُّبْحِ أَوْ قَبَّلْتَ فَاهَا؟

● وأرى من الهلع والجزع قول موسى عليه السلام في ميقاتِ المناجَاةِ الثاني لربه، كما جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿... أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ...﴾؟ [الآية ١٥٥].

● ● ●

الباب الثاني

أحوال عناصر الجملة

وفيه ستة فصول:

الفصـل الأول : مقدّمـات عامّـة .

الـفـصل الثاني : الذكـر والحذف .

الفـصـل الثالث: التقديم والتأخير .

الفصـل الرابـع : التنكير والتعريف .

الفصل الخامس: التقييد وعدمه .

الفصل السادس : الخروج عن مقتضىٰ الظاهر .

الفَصل الأول

مُقَدّمَات عَامّة

المقدمة الأولى:

الأصل في الكلام ذكر ما يدُلُّ على العنصر المراد بيانُه من عناصر الجملة، إلاَّ أنّ أهل اللّسان اعتادوا أن يحذفوا من الجملة عناصر يفهمون معانِيَها دون ذكر ألفاظها، لكثرة الاستعمال، أو لورود الجملة على طريقة الأمثال، أو لوجود قرينة تدُلُّ عليها من قرائن الحال أو قرائن المقال.

فما اعتاد أهل اللّسان أو اعتاد البلغاء منهم على حذفه، أو هو ممّا يمكن إدراكُه بسهولة إذا حُذِف، فإنّ ذكره يُعْتَبر إسرافاً في التعبير يتحاشاه البلغاء، وحين يَعْمَدُ البليغ الذوّاق للأدب الرفيع إلى ذكره فإنَّما يَفْعَلُ ذلك لغرضٍ بلاغيٍّ يقْصِدُه.

* * *

المقدّمة الثانية:

ويتعرّض كلُّ عُنْصرٍ من العناصر الأساسيّةِ التي تُبْنَىٰ منها الجملة المؤدّية لما يَقْصِد المتكلّم بيانَهُ، لاحتمال تقييده بالوصف أو غيره من القيود، كالحال، والبدل، وعطف البيان، والتأكيد، والظرف الزماني أو المكاني، والجارّ والمجرور به، وغير ذلك، ويتعرّض أيضاً لاحتمال إطلاقه وعدم تقييده.

والبليغ الذّوّاق للأدب الرفيع يختار من احتمالي التقييد وعدمه، ما يَراهُ مُحقّقاً لغرضٍ بلاغيٍّ يقْصده، أو يَراهُ أَوْفَىٰ بتحقيقه ممَّا يطابقُ به مقتضَىٰ حال من يُوَجّه له بيانه، فرداً كان أو جماعة.

* * *

المقدمـة الثالثـة:

وكلُّ ما يُمْكن في الجملة الكلاميّة إيرادُه من الأسماء معرفةً أو نكرة، فإنّ على البليغ الذّوّاق للأدب الرفيع أن يختار من الاحتمالات الممكنة ما يُحَقِّق به غرضاً بلاغيّاً يقصِدُهُ، أو يراه أَوْفَىٰ بتحقيقه، ممّا يطابق به مقتضىٰ حال من يوجّه له بيانه، فرداً كان أو جماعةً.

ويَتحقَّقُ باختيار الاسم النكرة أغراضٌ بلاغيّة متعدّدة، تقتضيها أحوال المخاطبين، ويُسْتَدَلُّ على المراد من هذه الأغراض بقرائن الحال، أو قرائن المقال.

ويتحقَّقُ باختيار الاسم المعرفة أغراضٌ بلاغيّةٌ مُتَعَدِّدةٌ أيضاً تقتضيها أحوال المخاطبين، ويُسْتَدَلُّ على المراد من هذه الأغراض بقرائن الحال، أو قرائن المقال، وذلك بحسب نوع المعرفة، إذ الاسم المعرفة ينقسم إلى ستة أنواع، وهي الأنواع التالية:

النوع الأول: ما يكون تعريفه بسبب كونه ضميراً.

النوع الثاني: ما يكون تعريفه بسبب كونه عَلَماً.

النوع الثالث: ما يكون تعريفه بسبب كونه اسم إشارة.

النوع الرابع: ما يكون تعريفه بسبب كونه اسم موصول.

النوع الخامس: ما يكون تعريفه بسبب كونه محلًّى بالألف واللاّم.

النوع السادس: ما يكون تعريفه بسبب كونه مضافاً إلى واحدٍ ممّا سبق.

قالوا: وأعْرَفُ هذه الأنواع الضمير، ويليه في الرُّتْبَة الْعَلَم والمضاف إلى الضمير، فرتبةُ اسم الإشارة، فرتبة اسم الموصول، فرتبة المحلَّى بالألف واللاّم، فرتبة المضاف إلى أحد المعارف غير الضمير.

ولمّا كان مُنْشِىء البيان الكلاميّ أمام احتمالاتٍ وصُورٍ متعدّدة من كلّ ما سبق، وكان عليه أن يختار لبيانه واحداً منها.

ولمّا كان كلُّ احتمال يُمكن أن يَقْصِدَ بِه البليغ معنىً بلاغيّاً يطابق مقتضىٰ الحال، وهذا المعنى لا يتحقّق بغيره من الاحتمالات.

ولمّا كانت مقتضيات أحوال المخاطبين مختلفات، فما يطابق مقتضىٰ حال بعضهم قد لا يطابق مقتضى حال غيره.

لمّا كانت كلُّ هذه الأمور مُجْتَمِعةً في وقت واحد، كان على البليغ أن يختار بلاغيّاً لبيانه ما هو الأبلغ والأَجمل المطابق لمقتضىٰ الحال، وكان مسؤولاً عن هذا الاختيار.

لكنَّ مراتبَ أذواقِ الْبُلَغاء متفاوتة متفاضلة، ومراتب الاختيارات الجماليّة متفاوتة متفاضلة أيضاً، لذلك كان لا بُدَّ أَنْ تتفاوت بلاغة الكلام، وتتفاضَل نِسَبُ الجمال فيه، بحسب تَفَاوُتِ الاختيارات، وتفاضل مستوياتها.

* * *

المقدمـة الرابعـة:

وللجملة في اللّسان العربـيّ نظامٌ أصليٌّ ينبغي ملاحظته لدىٰ ترتيب عناصرها، واحتمالاتٌ فرعيّة جائزة يتمُّ بها تقديم ما حقُّه الأصليُّ التأخير، لأغراضٍ بلاغيّةٍ أو جماليّة.

لذلك كان على البليغ الذّوّاق للأدب الرفيع أن يتقيّد بنظام ترتيب عناصر الجملة، ولا يلجأ إلى الاحتمالات الفرعيّة الجائزة إلاَّ لأسباب بلاغيّةٍ أو جمالية دَعَتْهُ إلى ذلك.

والباحثُ البلاغيُّ يُنَبِّهُ على طائفةٍ من الأغراض البلاغيّة أو الجمالية الداعية إلى مخالفة النظام الأصلي في ترتيب عناصر الجملة الكلاميّة، حتَّى يهتدي بها

منشىء البيان الكلامي، ويَتَحرَّى فيما ينشىء من قول ما هو الأبلغ والأجمل دواماً، قدر استطاعته وتذوُّقِه لدقائق المعاني ومستويات الجمال.

* * *

المقدمـة الخامسـة:

ولدىٰ إنشاء الكلام ومتابعة بناء بعضه على بعض، ورصْفِ بعضه إلى جانب بعض، يلاحظ كلُّ ذي فكرٍ متذوّقٍ لأساليب الكلام، أنّه تُوجَدُ طرائق وأساليب يقتضيها ظاهر النَّسّق، فالمتكلّم يتابعها بتلقائيّة، كتتابع الماء في مَجرىً متماثل الأجزاء، ليس فيها انحرافٌ ولا دورانٌ ولا الْتِوَاء، وليس فيها صَواعِد ولا نوازل.

ولكِنْ قد تدْعو دواعي بلاغيّة أو جمالية إلى مخالفة مقتضىٰ الظاهر في الكلام، كما تدعو دواعي نفعيّة لعطف مجرى الماء عن نَسَقه المتماثل، أو تدعو دواعي جماليّة لإيجاد دوائر ومنعطفات، وصواعد ونوازل في مجرى الماء، لإحْدَاث مشاهد جماليّة بديعة لا تتحقّق بمتابعة النَّسَق المتماثل.

والباحثُ البلاغيُّ يُنَبِّهُ على طائفة من الأغراض البلاغيَّةِ أو الجماليّة الداعية إلى مخالفة مقتضى ظاهر النسق الكلامي، ليهتَدِيَ بهَدْيِها مُنْشِىءُ البيان، ويتحرَّى فيما ينشىء من قولٍ ما هو الأبلغ والأجمل دواماً قدر استطاعته، وتذوُّقِه لدقائق المعاني، ومستويات الجمال.

* * *

خـاتـمـة:

هذه الأحوال التي تَقَدَّم الحديث عنها مجملاً في المقولات الخمس السابقات، تتطلّبُ دراسة تفصيليّة مُدَعَّمَةً بالأمثلة والشواهد المقرونة بالتحليل، ليستفيد منها دارس علوم البلاغة وفنونِها في تحقيق أربع غايات، وهي ما يلي:

الغاية الأولى: حُسْنُ تَفَهُّم وتَدَبُّر النَّصوص البليغة الرفيعة من القرآن المجيد، وأقوال الرسول ﷺ، وكلام أساطين البلغاء والشعراء.

الغاية الثانية: اكتساب القدرة على نقد النصوص المشتملة على ما هو سمين وغثٌّ من الكلام، وبيان ما في النصوص التي يَنْقُدُها من محاسن وعيوب بلاغيّة وأدبيّة.

الغاية الثالثة: اكتسابُ الذوق الرفيع الذي يُحِسُّ بمواطن البلاغة والجمال الأدبيّ.

الغاية الرابعة: الاهتداءُ بهَدْي ما أعطَتْهُ الدراسة، لدى إنشاء الكلام، وكتابةِ المقالات والخطب والرسائل والمؤلفات، واكتسابُ الدافع الذّاتي لِتَحَرِّي ما يَرَاه الأَبْلَغَ والأَجْمَل فيما يُنْشِىءُ من بيان، ولا سيما حينما يقوم بوظيفة الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والأَمْرِ بالمعروف والنّهي عن المنكر.

ولا يَفُوتُنا أخيراً ملاحظةُ أَنَّ حظوظ الناس فيما يستفيدونه من دراساتهم متفاوتة متفاضلة، وهي تكون بحسب هِبَاتِهم الفطريّة، من الاستعداد لتَذَوُّق البيان الرفيع، وصناعَةِ الكلام البليغ وصياغته.

• • •

الفَصْلُ الثاني

الذكـر والحـذف

(١)

مـقـدمـة

● كل ما يُرادُ الإعلامُ به من عناصر الجملة في اللّسان العربـيّ، فالأصل السّاذَجُ بالنِّسْبَةِ إليه أنْ يُذْكر ولاَ يُحْذَفَ، لأنَّ ذِكْره دليلٌ على إرادة الإعْلامِ به، أمّا حَذْفُه فهو دليلٌ على عدم إرادة الإعْلامِ به.

● هذا هو الأصلُ في الآليَّة المادّيّة لبناء الكلام الدّالِّ على المعاني الّتي يرادُ الإعلامُ بها، إذا عَزَلْنا قُوىٰ الإدْراكِ اللَّمْحِيّ والإشاريّ، وقُوىٰ الاستدلالِ بقرائنِ الأحوال وقرائن الأقوال، لدَىٰ مُتَلقِّي الخطاب، ولا سيما أهلُ الفطانة والذّكاء وأهل الخبرة في حِيَلِ المعبِّرين عمّا في نفوسهم بأساليبِ وطرائق الكلام المختلفة، فهؤُلاءِ يكفيهم الرّمز وتُقْنِعُهم الإشارة عن صريح العبارة.

وقديماً قال العرب في أمثالهم: «تُقْرَعُ العصا لذي الْحِلْمِ» أي: يُدْرك ذو العقل الراجح والفطانة اللَّماحة الْمُرَادَ من قرع العصا على الأرض، فيستخرج منها رُمُوزاً ودلالات يقصِدُها قارعُها، كما ورد في قصّة مَضْرِب هذا المثل.

ورَمزَ وفْدُ الرسول ﷺ إلى بني قريظة في غزوة الخندق، بقولهم له: «عضَل والقارة» أي: غَدَرَ بَنُو قريظة كما غدرت من قبلُ «عَضَلٌ والقارة».

وحين دخل داهية العرب أَمِيرُ جيش المسلمين عمرو بن العاص، على

الداهية العجمي «أرطبون» حاكم القدس، مُدَّعِياً أنه رسول أمير جيش المسلمين إليه.

وفَطِن «أرطبون» أنّ مثل هذا الرسول لا بدّ أن يكون هو أمير جيش المسلمين، فأمَرَ خاصَّتَهُ بأن يقتلوه قبل أن يخرج من المدينة، ووصل الخبر إلى عَرَبـيٍّ في القدس يَعْرِف عمرو بن العاص، فقال له بعد أن خرج من قصر «أرطبون»: يَا عَمْرو أحسنْتَ الدُّخول فأحْسِنِ الخروج.

ففطن عمرو بن العاص رضي الله عنه، أنّ أَرْطَبون شكّ في أمْرِه فأمَرَ سِرّاً بقتله، فعاد إلى «أرطبون» وزعم له أنّه واحدٌ من عشرةٍ هم أَهْلُ مشورة أمير جيش المسلمين، فإنْ رأيْتَ أن آتيكَ بهم ليسمعوا منك الذي سَمِعْتُه أنا منك، فتكون موافقتهم أوثق للأمر الذي تفاوضنا فيه، فطمع «أرطبون» بقتل العشرة فأَمَر سرّاً بعدم قتله، حتّى يأتيه ببقيّة أهل مشورة الأمير كُلِّهم فيقتلهم، ونجا عمرو بن العاص بهذه الحيلة الذكيّة.

● ونلاحظ أنّ في كثيرٍ من الجمل العربيّة محاذيفَ واجبَة الحذف أو جائزَته، قد لوحظ فيها أن المحذوف هو من الأكوان العامّة الّتي تُفْهَمُ بالْفِطْنَة دون أن تُذكَر، أو من الضمائر التي يُوجَدُ في الملفوظ من الكلام ما يَدُلُّ عليها، أو ممّا يسْهُلُ إدْراكُه ولو لم يُوجدْ في الكلام لفظ خاصٌّ يَدُلُّ عليه.

وقد اعتاد أهل اللّسان العربـيّ على حَذْفِها دواماً، أو أحياناً، لأنّ اللّسان العربـيَّ مَبْنِيٌّ في مُعْظَم تعبيراته على الإيجاز، وحذْفِ ما يُعْلَم ولَوْ لَمْ يُذكر، وهذا من مزايا اللّغة العربيّة.

● وحينما يكون المتكلّم العربـيّ الْبَلِيغُ أمام احتمالَيْنِ جائزيْنِ في اللّسان العربـي كالذِّكْر والحذف، ويَرَىٰ أنّ كُلاًّ منهما يُحَقِّق توصيل ما يُريدُه من المعاني، إلاّ أنّ أحدهما أكْثَرُ تأثيراً في المخاطب بحسب حاله، أو أكثر جمالاً لدى ذوّاقي

الجمال في الكلام، أو يراه يُحَقِّق له غرضاً بلاغيّاً لا يحقِّقُه له الاحتمال الآخر، فإنّ عليه أن يكون دقيق الملاحظة في خصائص الاحتمالات وفُروقِ دلالاتها، ويُحَدِّد منها ما يدعوه إلى ما يختار من ذكر العنصر من عناصر الجملة التي يُنْشِئُها أو حذفه.

فإذا ذَكَرَ العنصُرَ وكان بالإمكان إدْراكُ المخاطب معناه لو لم يَذْكُرْه، فينبغي أن يكونَ ذكره له مستنداً إلى داعٍ بلاغيٍّ رجَّحَ لَدَيْه ذكْره.

وإذا حذَفَ الْعُنْصُرَ الذي يُمْكن إدْراكُ المخاطب معناه لو لم يذكُرْهُ، فينبغي أن يكون حذفُه له مستنداً إلى داعٍ بلاغيٍّ رجّح لَدْيه حَذْفه، وأدنَىٰ ذلك الرغبةُ في الإيجاز والاقتصادِ في القول، والْبُعْدِ عن الإسراف فيه، وإيثار جِسْمٍ للعبارة مُكْتَنِزٍ مُضمَّرٍ، على جِسْمٍ مُتَرَهِّلٍ مُنْتَفِخٍ لا رصانة فيه ولا قُوّة ولا جزالة.

فلكلٍّ من الذكر والحذف مقامٌ ينَاسِبُه، وحالٌ تقتضيه.

● وقد نبَّه البلاغيُّونَ على طائفةٍ من دواعي الذكر، وطائفةٍ أخرى من دواعي الحذف، وأشاروا إلى أنّ ما ذكروه من ذلك لا يُمَثِّل إحصاءً شاملاً لكلِّ الدواعي، وإنّما يُقَدِّم صُوراً ونماذج يمكن أن يهتدي بهديها الباحثون، ويَحْذوا حذوها، وأن تكون لديهم منطلقاتٍ للبحث الذكيِّ الفطن اللّماح في هذا المجال.

* * *

(٢)
دواعي ذكر العنصر
مع إمكان إدراك معناه لدى حذفه

ذكر البلاغيّون طائفةً من دواعي ذكر العنصر الذي يُراد الإعلام به من عناصر بناء الجملة، مع إمكان فهم معناه العامّ لدى حذفه، وهذه الدواعي تُحَقّق أغراضاً بلاغيّة يَهْدِفُ إليها المتكلمّ البليغ.

وقد ظهرت لي بعض دواعي أخرى لم يُصَرِّحوا بها، وهي تحقّق أغراضاً بلاغيّة، وهذه الدواعي الَّتي ظهرت لي تُقاس على ما ذكروا وهي ممّا يقع في نفوس المتكلمين البلغاء، وله تأثيرٌ ما في المخاطبين.

وأُأكّد أنّه يَعْسُر إحصاءُ كلّ الدواعي الّتي تقوم في نفوس المتكلمين البلغاء لذكر ما يمكن حذفه، لذلك رأيتُ أن أعرض للدارسين ما ذكره البلاغيون، وأضيفَ إليه ما ظهر لي، وهي بمجموعها الدواعي السّتةَ عشر التالية:

الداعي الأول: الاحتياط بذكر العنصر، لضعف التعويل على القرينة فيما لو حُذِف، إذْ تكون القرينة غير كافية للدلالة عليه، ويخشىٰ المتكلّم أن يَلْتَبِسَ المرادُ على المتلَقِّي إذا حذفه تعويلاً على القرينة التي يمكن أن تدُلَّ عليه.

الداعي الثاني: الإشعار بغباوة المخاطب، وأنّه ليس من الّذين يُدْرِكون المراد بالقرائن، بل لا بدَّ من إعلامه باللّفظ الخاصّ الصريح الدّال على العنصر.

الداعي الثالث: إرادة زيادة الإيضاح والتقرير، وذلك حين يكون الموضوع يقتضي ذلك، كأمور العقائد، وأحكام الحلال والحرام، والصِّيغ القانونيّة التي قد يتلاعبُ بمعانيها أصحاب الأهواء، ولا تكفي القرائن لإلزامهم بالمعاني المرادة.

ويَحْسُنُ هذا الإيضاح والتقرير في مجال تعليم مسائل العلوم، وفي الوعظ والإرشاد، وفي مقام إثارة الحماسة وسائر العواطف، وفي البيانات والبلاغات العامّة للجماهير.

الداعي الرابع: إرادة التعظيم والتفخيم، ويظهر هذا في نحو الأسماء والألقاب التي يُشْعِر ذكْرُها بعظمة أصحابها وفخامتهم، وفيما يُثِير ذكرُه في النفوس المهابة أو الإجلال.

الداعي الخامس: إرادة الإهانة والتحقير، ويظهر هذا في نحو الأسماء

والألقاب، التي يُشْعِرُ ذكرها بمهانة أصحابها وحقارتهم، وفيما يُثيرُ ذكْرُهُ في النفوس الاحتقار والاستهانة.

الداعي السادس: إرادة التهويل، ويظهر هذا فيما يُثيرُ ذكرُه في النفوس مشاعر الخوف والرهبَة.

الداعي السابع: إرادة استثارة ما في نفوس المتلقّين من كوامن المشاعر، كإثارة شوق المخاطب بذكر اسم محبوبه، وإثارة الشوق إلى الوطن، بذكر اسمه لدىٰ المسافر البعيد عنه، المشوق إلى العودة إليه.

الداعي الثامن: إرادة التلَذُّذ، ويظهر هذا الداعي في الألفاظ الّتي يُحبُّ المتكلّم أن يُرَدِّدَها على لسانه، لأنّه يحبُّ مسمَّيَاتها، كاسم المعشوقة عند العاشق، واسم الذهب عند عشاقه.

ويقول الناس: من أحبّ شيئاً أكثر من ذكره.

الداعي التاسع: إرادة التبرُّك، أو العبادة، ويظهر هذا في الأدعية، والأوراد، والأذكار.

الداعي العاشر: إرادة ترسيخ ما يدُلُّ عليه اللّفظ في نفوس المتلقِّين، كألفاظ الأذان التي تعاد وتكرّر.

وكما يفعل مُرَدِّدو الشعارات، بغية ترسيخها في نفوس الجماهير، حتى تكون معانيها جزءاً من مفاهيمهم الثابتة، ففي خطبة واحدة يُرَدِّدُ زعيم اشتراكيٌّ مثلاً لفظ «الاشتراكية» مئة مرّة، ولا يكتفي بأن يدُلَّ عليها بالضمائر.

الداعي الحادي عشر: إرادة بسط الكلام في المقام الذي يحسُنُ فيه بسط الكلام، كمقام الافتخار، أو المدح، أو الذمّ والتشنيع والتوبيخ، وكمقام التعليم، أو الترويج لفكرةٍ ما، أو الترغيب فيها، أو الترهيب منها.

ويُراد بسْطُ الكلام لإطالة وقت المحادثة والمحاورة، بغية التشرُّف، أو التبرّك، أو الاستئناس، أو الاستمتاع والتلذّذ.

وقد يُراد بسط الكلام بغية استدراج المخاطب للإفاضة عمّا في نفسه، إذْ يُفْصِحُ في حالة الإفاضة عن أشياء يَحْرِصُ في العادة على كِتْمانِها وعدم الإعلام بها.

الداعي الثاني عشر: إرادة التسجيل على المخاطب حتَّىٰ لا يتأتَّىٰ له الإنكار.

الداعي الثالث عشر: إرادة تأكيد الرّدّ على المخاطب إذا كان يُنْكِرُ صحة ما يقال له، مثل قوله الله عزَّ وجلَّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

لقد كان يمكن فهم المراد دون ذكر [يُحْيِيها] لكن اقتضَىٰ الردُّ على سؤالِ منكر البعث بإحياء العظام وهي رميم، بأنْ يُقالَ له: يحييها الذي أنشأها أوّل مرّة.

الداعي الرابع عشر: كونُ المختار للذكر نوعاً من الكلام يُفِيدُ معنىً خاصّاً مراداً لا يُسْتفاد هذا المعنى عند حذفه، ولو كان أصل المعنى قد يُفْهَم، ولكن بوجه عامّ، أو على وجه الإجمال، فَيُقْصَدُ التعيين بالذكر.

ويظهر هذا في نحو دلالة الفعل المضارع على التجدّد، ودلالة الاسم على مطلق الثبوت، والدلالات الخاصّة لأسماء الموصول، وأسماء الإشارة، وغير ذلك.

الداعي الخامس عشر: إرادةُ تكوين جُمَلٍ مستقلّة في الكلام، حتَّىٰ يتَهَيّأَ إمكان سَوْقِ كلٍّ منها منفردةً في المقام الملائم لها عند الحاجة.

ويكثُرُ هذا في الْجُمَلِ القرآنيّةِ التي يصلُح الاستشهاد بها في المواضع الملائمة

لها، فإذا حُذِفَ منها ما يمكن فهمه مع حذفه ضمن جُمَلِ الآية وهي مجتمعة، لم يتيسَّر الاستشهاد بالواحدة منها بصورة منفردة عند المناسبة الداعية إلى الاستشهاد بها، مثل قول الله عزّ وجل في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾.

فلو حذف لفظ الجلالة الذي بعد [وكان] لما نقص من المعنى شيء، ولكن لا يَحْسُنُ عندئذٍ اقتطاعُ جملةِ: «وكانَ بكلّ شيء محيطاً» والاستشهاد بها منفصلةً عن الجملة السابقة لها.

الداعي السادس عشر: إرادة إظهار التعجّب والاستغراب، كأن يقول قائل بشأن شخص حذّاء اسمه «مسرور» لم يُعرَف عنه أنّه خطب بين الناس خُطبةً ما: لقد خطب اليوم مسرورٌ الحذاء خطبةً عصماء أَسَرَتِ الجماهير، وأثَّرَتْ فِي عَواطفهم تأثيراً عظيماً، فيقول المخاطَبُ مُتَعَجِّباً: أمسرورٌ الحذاء هو الذي خطب هذه الخطبة العصماء؟!

وقد كان يكفي أن يقول: أحقّاً خطب هذه الخطبة، ولكنَّه أعاد ذكر اسمه متعجّباً، ومستعيداً تذكّر صفاته التي لم يكُنْ يَتَخَيَّلُ معها أن يكونَ خطيباً، فضلاً عن أن يخطب خُطْبَةً عصماءَ.

* * *

أمثلـة وتطبيقـات

المثـال الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بشأن المتقين:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾.

في تكرير المسند إليه وهو اسم الإشارة في الجملة الثانية مع فهم المراد دون

ذكره غرض بلاغيّ، وهو زيادة الكشف والإيضاح بالتنبيه على أنّهم كما تحقّق منهم أنّهم متمكّنُونَ من تحقيق الْهُدَىٰ الذي جاءهم من عند ربّهم بأعمالهم الصالحة، فقد ثبت لهم أنّهم هم المفلحون عند ربهم يوم الدّين، أي: هم الظافرون بما يريدون والفائزون بجنّات النّعيم.

وفي هذه الإعادة أيضاً فائدة جعل كلّ جملة من الجملتين وحدةً مستقلة، ولو انفردت كُلُّ جملةٍ منها لكانت كافية للدّلالة على الأخرى منهما عن طريق اللّزوم الفكري، لأنّ من كان على هدى من ربّه لا بُدّ أن يكون مُفْلِحاً، ومن كان من المفلحين فلا بدّ أنه قد كان على هُدىً من رَبّه، ففي استقلاليّةِ كُلٍّ من هاتين الجملتين تأكيد لمعنى كلّ منهما عن طريق دلالة ما في الأخرى من اللُّزوم الفكري.

ونظيره قول الله عزّ وجلّ بشأن الّذِين كفروا في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥ ﴾.

ويكثر في القرآن ذكر المسند إليه أو المسند مع إمكان حذفه أو حذفهما لتكون الجمل مستقلّة، قابلةً لأن يُسْتَشْهد بها منفردة في المناسبات الداعيات إلى الاستشهاد بها، ومن ذلك قول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ۝١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ۝١٧٤ ﴾.

لقد كان من الممكن الاستغناء بالضمير في «من الله ــ رضوان اللّهِ ــ واللّهُ ذو» لكن إعادة ذكر اسم الجلالة في هذه الجمل يجعل كلاًّ منها جملةً مستقلّة، مع

ما في ذكر لفظ الجلالة من تربية الإجلال والإعظام في القلوب، وإمكان الاستشهاد ببعضها منفردةً عن سائرها.

ومن ذكر المسند والمسند إليه مع إمكان حذفهما قول الله عزّ وجلّ في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [الآية ٣٤].

فقد كان من الممكن أن يقال: ولا بأيّ أرض تموت.

المثـال الثانـي:

ما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) بشأن تكليم الله موسَى عليه السلام:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى ﴿١٩﴾﴾.

في هذا النَّصّ نلاحظ ذِكْرَ كلماتٍ كان من الممكن حَذْفُها دونَ أن يُؤَثِّرَ علىٰ المعنىٰ شيئاً.

لقد كان يكفي أن يقول موسى عليه السلام في جواب سؤال ربّه: «عَصَايَ» دون أن يقول: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾.

وكان من الممكن أن يقتصر على بيان أنها عصاه، دون أن يشرح أعماله فيها بقوله: ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴿١٨﴾﴾.

وكان من الممكن أن يقول الله عزّ وجلّ له: ﴿أَلْقِهَا﴾ دون أن يناديَهُ ﴿يَا مُوسَى﴾.

لكن دعَا إلى بسط الكلام وإطالةِ الحديث رغبةُ الإيناسِ مِنَ الرَّبّ عزّ وجلّ، ورغبةُ التشرّف والاستئناس والتلذّذ بطول المحادثة من موسىٰ عليه السلام.

* * *

المثـال الثالـث:

في قصّة إبراهيم عليه السّلام وتحطيمه أصنام القوم التي كانت على أشكال الناس، إلاّ كبيراً لهم، وذلك حين خرج القوم من بلدتهم لعيدٍ لهم ولم يخرج معهم إبراهيم عليه السلام، جاء فيها بيانُ سؤال قومه له عمّن حطّم أصنامهم، فأجابهم عليه السلام جواباً فيه تعريض بغباوتهم، إذْ ذَكَرَ في كلامه ما يُمْكن فَهْمُه لو حذفه، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

لَقَدْ كَان يكفي أن يقول لهم: «بل فعله كبيرهم» أو يقول لهم: «بل فعله هذا» لكنّه شعر أنّهم أغبياء إذْ يُدَافعونَ عن آلهتهم من الأصنام التي حُطِّمَتْ ولم تستطِعْ أن تُدَافع عن أَنْفُسِها، ولم يُقْنِعْهم تحطيمها بأنّها لو كانت تملك لأنفسها أو لغيرها نفعاً أو ضرّاً لحمت أنفسها من التحطيم، ولمنَعتْ مُحَطِّمَها من أن يجعلَهَا جُذاذا.

ومن كان بمثل هذا الغباء فإنّه يُناسبُه أن لا يُحْذَفَ له من الكلام ما يُمْكن أن يفهمه أَقَلُّ النَاس ذكاءً وإدراكاً لدلالات القول.

* * *

المثـال الرابـع:

جاء في المأثور من الأقوال، ويُرْوى عن عليّ بن أبـي طالب رضي الله عنه:

«اعمل لدُنْياك كأنّكَ تعيشُ أبداً، واعْمَلْ لآخِرَتِكَ كأنكَ تَمُوتُ غداً».

نلاحظ في هذا القول تكرير عبارة «اعمل» في الجملة الثانية، مع إمكان فهمها لو حُذفت، والغرض إرادة زيادة التقرير والإيضاح، مع جعل كلّ جملة وحدةً مستقلّة.

* * *

المثال الخامس:

قول الشاعر الجاهلي «عمرو بن كلثوم» في معلقته يفاخر بقومه فيكرّر المسند إليه فيقول «وأنّا» مع كلّ منقبة يَصِفُ بها قومه:

وَقَدْ عَلِمَ الْقَبَائِلُ مِنْ مَعَدٍّ ... إِذَا قُبَبٌ بِأَبْطَحِهَا بُنِينَا
بِأَنَّا الْمُطْعِمُونَ إِذَا قَدَرْنَا ... وَأَنَّا الْمُهْلِكُونَ إِذَا ابْتُلِينَا
وأَنَّا الْمَانِعُونَ إِذَا أَرَدْنَا ... وأَنَّا النَّازِلُونَ بِحَيْثُ شِينَا
وأَنَّا التَّارِكُونَ إِذَا سَخِطْنَا ... وأَنَّا الآخِذُونَ إِذَا رَضِينَا
وأَنَّا الْعَاصِمُونَ إِذَا أُطِعْنَا ... وأَنَّا الْعَازِمُونَ إِذَا عُصِينَا
ونَشْرَبُ إِنْ وَرَدْنَا الْمَاءَ صَفْواً ... وَيَشْرَبُ غَيْرُنَا كَدِراً وَطِينَا

قُبَب: جمع قُبَّة، وهي بناءٌ معروف، وقد تكون من بيوت العَرَبَ الرُّحّل من الأقْمشَة والجلود.

بأَبْطَحِها: الأَبْطَحُ: الأرض الخلاء الواسعة.

إِذَا ابْتُلِينَا: أي: إذا امتحنَّا بالقتال.

ويصف قومه بأنهم أعِزَّاء يَمْنَعُون ما يريدون مَنْعَه فلا أحَدَ من الناس يُكْرِهُهُمْ على بذل شيءٍ لا يريدون بذله، ولا أحد من العرب يستطيع منعهم من أن ينزلوا بأيّ أرضٍ يريدون النزول فيها.

ويصف قومه بأنّهم إذا سخطوا على إنسان مهما علت مكانته فإنهم يرفضون عطاياه ويتركونها، وإذا رَضُوا عنه فإنّهم يقبلون هداياه.

ويصف قومه بأنّهم يَعْصِمُون بالحماية والحفظ من يطيعهم، وأنّهم أهل عَزْمٍ وجِدٍّ وقُوّةٍ في تأديب من يعصيهم.

ألا تُلاحظُ أنّه كرّر عبارة «وأنَّا» مع كلّ منقبة ذكرها لقومه مفاخراً، وغرضه

إلصاق المنقبة في قومه بذكرهم عند ذكرها، وإبرازُها في جملة مستقلّة، وكان بإمكانه أن يعطف المناقب دون تكرير المسند إليه.

ومن هذا القبيل قول الرسول ﷺ مفاخراً في إحدى الغزوات: أنا النبيُّ لا كذِب، أنا ابْنُ عَبْدِ المطلّب.

* * *

المثال السادس:

ما جاء في شعر الشاعرة الخنساء، تُمَاضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد، من بني سُلَيم، مُضَرِّية من أهل نجد، أشعر شواعر العرب، أدركت الجاهلية والإسلام، ووفدت مسلمة على رسول الله ﷺ مع قومها بني سليم، ومن شعرها قولُها في رثاء أخيها صخر:

أَعَيْنَيَّ جُودَا وَلاَ تَجْمُدا ... أَلاَ تَبْكِيَانِ لِصَخْرِ النَّدَىٰ

أَلاَ تَبْكِيَانِ الْجَوَادَ الْجَمِيلَ ... أَلاَ تَبْكِيَانِ الْفَتَىٰ السَّيِّدا

قالت هذا وهي في موقف الحزن، فَحَسُنَ في حِسِّها الملتهب بالمشاعر، وهي من أشعر الشواعر، أن تكرّر قولَها تخاطب عينيها: «أَلاَ تبكيان» مع أن العبارة الأولى كانت كافيةً للدلالة على المقصود، حتى العبارةُ الأولى كان بالإمكان فهمُ أصل المراد منها من قولها في الشطر الأول: «أعينيَّ جودا ولا تجمدا» لكن في عبارة الاستفهام من أغراضٍ بلاغية ما ليس في عبارتي الأمر والنهي، وفي فعل «تَبْكِيان» من دلالة على تجدِيد البكاء المتتابع ما ليس في «جُودا ولا تجمُدا» فقصدت إلى تعيين نوع البكاء، وأنّه ينبغي أن يكون بكاءً متجدّداً، فاستعملت الفعل المضارع الدالّ على هذا المعنى.

وبكت أخاها صخراً في شعرها، فجعلتها شاعريَّتُها تكرّر في مقام رثائها لأخيها وفجيعَتِها به عبارةَ «وابكي أخاك» تخاطب نفسها على طريقة التجريد:

وَابْكِــي أَخَــاكِ وَلاَ تَنْسَــيْ شَمَــائِلَــهُ وابْكِـي أَخَـاكِ شُجَـاعـاً غَيْـرَ خَـوَّارِ
وابْكِــي أخَــاكِ لِأَيْتَــامٍ وأرْمَلَــةٍ وابْكِـي أَخَـاكِ لحَـقِّ الضَّيْـفِ والْجَـارِ

لقد كان من الممكن أن تُعَدِّدَ ما تُرِيدُ من شمائل أخيها، دون أن تكرّر عبارة «وابْكِي أخاكِ» لكنّها في مقام التوجّع والتفجُّعِ والرّثاء والنحيب، وفي هذا المقام الملتهب بمشاعر الحزن الحارّ، يحلو في أَنْفُسِ ذواتِ الحزن التكرار، كما يَشْفِي تكرار تدفُّق الدموع.

المثـال السابـع:

هجا جرير قبيلة «سدوس» وذمَّهَا، فكرّر في هجائه ذكر اسمها مع كلّ صفة ذمّ ذكرها لها، إمعاناً منه بإلصاق المثالب التي ذكرها بها إلصاقاً يُصاحِبُهُ التشهير، والإذاعةُ بالتكرير، مع أنّه كان يكفي العطفُ في ذكر الصفات، دون إعادة ذكر اسم القبيلة التي يذُمُّها، فقال في هجائه:

أَخِــلاَّئِــي الْكِــرَامُ سِــوَىٰ سَــدُوسٍ وَمَــالِــي فِــي سَــدُوسٍ مِــنْ خَلِيــلِ
إِذَا أَنْــزَلْــتَ رَحْلَــكَ فِــي سَــدُوسٍ فَقَــدْ أُنْــزِلْــتَ مَنْــزِلَــةَ الــذَّلِيــلِ
وَقَــدْ عَلِمَــتْ سَــدُوسٌ أَنَّ فِيهَــا مَنَــارَ اللُّــؤْمِ واضِحَــةَ السَّبِيــلِ
فَمَــا أعْطَــتْ سَــدُوسٌ مِــنْ كَثِيــرٍ وَلاَ حَــامَــتْ سَــدُوسٌ عَــنْ قَلِيــلِ

ففي البيت الأوّل يذكر جرير أنّه اتّخذ أخلاءه الكرام من غير سدوس، وأنّه لم يتخذ منها خليلاً واحداً، مشيراً إلى انعدام الكرام فيها.

وفي البيت الثاني يخاطب نفسه وكلّ مسافر بأنّه إذا أنزل رحله في أرض سدوس لم يجد لديهم مقاماً كريماً، بل يجد نفسه قد أُنْزِل منزلة الذليل، لأنّ سدوساً أذلاء لا عزّة لهم وَلا مَنَعة عندهم.

وفي البيت الثالث يذكر أنّ سدوساً تَعْلَم من أنفسها أنّها منار اللُّؤم بين القبائل.

وفي البيت الرابع يصفُ سدوساً بأنّها غاية في البخل، وغاية في الضعف والجبن، فهي لا تعطي شيئاً حينما يكون لديها الكثير لبُخْلِها، وهي لا تحمي الشيء القليل الذي لديها، لضعفها وجُبْنِهَا إذا لم يكن عندها إلاَّ القليل، وهي مضطرة إليه.

* * *

المثال الثامن:

يحرّك الله عزّ وجلّ في أهل القرى «وهي كلُّ مجمّع سكني ولو كان من المدن الكبرى» الذين كذّبوا رُسل رَبّهم المخاوف من مفاجأة نقمة الله وعذابه ليلاً أو نهاراً، فيقدّم لهم التنبيهات المتتابعات، مع تكرير ما يمكن أن يُفْهَم لو حذف، لأنّ تكرار الذكر يساعد على عدم شرود الذهن عن إدراك ما جاء في عبارات الترهيب، بخلاف الحذف فإنّه يساعد على شرود المقصودين بالخطاب، نظراً إلى أنّهم كافرون قد انصرفت أذهانهم عن سماع عبارات الإنذار والترهيب، بسبب كفرهم، فهي تحتاج إلى دقّاتٍ متواليات كدقّات الناقوس، أو أصوات البوق المتواليات المنذرات بالخطر.

فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

المقامُ مقامُ تهديدٍ ووعيدٍ واستثارة لمخاوف أهل القرى، فاقتضىٰ هذا المقام إعادةَ ألفاظٍ كان يمكن فهم معناها بِدون إعادتها، لأنّ هذه الإعادة هي بمثابة الدّقّات المتواليات التي تثير الانتباه بسبب مخالفتها لما يقتضيه المألوفُ في الأسماع.

* * *

المثال التاسع:

رثت ابنة النعمان بن بشير الأنصاري الصحابي زَوْجَها مالكاً، فعبّرت في رثائها عن فاجعتها بزوجها، فكرَّرتَ عبارة من الممكن فهمها بداهة ولو لم تكرّرها، لكنَّ التفجُّع في الحُزنِ الحارّ يَحْسُنُ معَهُ التكرار، فقالت:

وحَدّثَني أَصْحَابُهُ أَنَّ مَالِكاً ... أَقَامَ ونَادَىٰ صَحْبُهُ بَرِحِيلِ
وحَدَّثَني أصْحَابُهُ أَنَّ مَالِكاً ... ضَرُوبٌ بِنَصْلِ السَّيْفِ غَيْرُ نَكُولِ
وحَدَّثَني أَصْحَابُهُ أَنَّ مَالِكاً ... صَرُومٌ كَمَاضِي الشَّفْرَتَيْنِ صَقِيلِ

ضَروبٌ: أي: كثير الضرب.

غَيْرُ نكُولِ: أي: غيرُ ضعيفٍ ولا جبانٍ.

صَرُوم: حادٌّ شديد المُضَاء قاطع.

كماضِي الشفرتين: أي: كسيفٍ ذي حَدَّيْنِ وَهو فيهما ماضٍ حادٌّ قاطع.

صَقِيل: أي: مجلوّ يتلامع من شدّة جلائه.

المثال العاشر:

مدحت الشاعرة «ليلى الأخيلية» من بني عامر بن صعصعة، الحجّاجَ، فقد وفدت عليه مرّات، فكان يُكرمُها ويُقَرِّبُها، فكرَّرتْ بعض العبارات في مدحها له بفنّية جمالية بارعة، لتبني على ما تكرّره تفصيلات يحْسُن لدى ذكرها تكرير العبارة التي تريد أن تبني عليها تفصيلاتها، فقالت:

إذا هَبَطَ الحجَّاجُ أَرْضاً مَرِيضَةً ... تَتَبَّعَ أَقْصَىٰ دَائِهَا فَشَفَاهَا
شَفَاهَا مِنَ الدَّاءِ الْعُضَالِ الّذي بِها ... غُلامٌ إذَا هَزَّ الْقَنَاةَ سَقَاهَا
سَقَاهَا فَرَوَّاهَا بِشُرْبِ سِجَالُهُ ... دِمَاءُ رِجَالٍ حَيْثُ مَالَ حَشَاهَا
إذَا سَمِعَ الْحَجَّاجُ رَزَّ كَتِيبَةٍ ... أَعَدَّ لَهَا قَبْلَ النُّزُولِ قِرَاهَا
أَعَدَّ لَهَا مَسْمُومَةً فَارِسِيَّةً ... بِأَيْدِي رِجَالٍ يَحْلِبُونَ صَرَاهَا

أرضاً مَرِيضَةً: تريد أرضاً فيها خارجون على مُلْك بني أميّة، فبخروجهم صارت أرضاً مَرِيضةً «على سبيل الاستعارة».

الدّاء الْعُضَال: هو الداء الشديد الذي لا طِبَّ له.

سِجَالُه: السجال جمع «السَّجْل» وهي الدلو العظيمة.

حشاها: ما في بطونها من أحشاء.

رَزّ كتيبة: أي: صوت كتيبة مقاتلة.

صَرَاهَا: أي: ما جمعتْ في ضرْعها.

يلاحظ أن معظم عباراتها اعتمدت على الاستعارة، فقد استعارت الشفاء لقتال الخارجين على سُلْطة بني أميّة واستئصالهم، واستعارت «السقيا» لاصطباغ الرماح بدماء الخارجين، إذ شبَّهتْها بالظامىء، لكنها ظامئة لدماء أهل الْحِرابة، وشبَّهت عمل جنود الحجّاج بمن يحلب الضروع المصرّاة حين يمسحون الدماء عن نصالها.

المثال الحادي عشر:

وقف الجاهليّ امرؤ القيس على أطلال صاحبته «سلْمَىٰ» وحيّاهُ تحيّة الجاهليّة، ثم توارَدَتْ عليه الذكريات، وأيْأسَهُ ما رأىٰ من واقع عفاء الدّيار، وخلوّها من ساكنيها فقال مكرّراً عبارة: «وتحسبُ سَلْمَى لا تزال» استئناساً بإعادة الاسم، عند فقد المسمَّىٰ:

وتَحْسَبُ: سَلْمَىٰ لاَ تَزَالُ تَرَىٰ طَلاَ ... منَ الْوَحْشِ أَوْ بِيضاً بِمَيْثَاءَ مِحْلالِ
وتَحْسَــبُ: سَلْمَــىٰ لاَ تَـزَالُ كَعَهْـدِنـا ... بِوَادِي الْخُزَامَىٰ أَوْ عَلَى رَأْسِ أَوْ عَال

تَرىٰ طلاً: الطَّلا: الصغير من كلّ شيءٍ، وولد الظبيَةِ، والصغير من الوحش منذ ولادته حتىٰ يشْتَدَّ.

أو بِيضاً: البيض جَمْعُ أبْيضَ، ولعلّهُ يقْصِدُ ولداناً بيضاً، لأنّ الذكريات عن العهود الغوابر يبرزُ منها ما فيها من صُوَرٍ جماليّة، وأجملُ ما يثبتُ في الذكريات الصغارُ من النَّعَمِ والوحش، والولدان البيض في ملاعبهم.

بِمَيْثَاءَ: الميثاءُ الرَّمْلَةُ السهلة، والرابية الطيِّبَة، والتَّلْعَةُ العظيمة.

مِحْلاَل: يقال لغةً: مكانٌ مِحْلاَلٌ إذا كَانَ كثير الزُّوَّاد، ولاَ يكون كذلك إلاَّ لما فيه من صفاتٍ تُرَغِّبُ فيه.

بِوَادِي الْخُزَامَىٰ: أي بالوادي الذي يكثر فيه نبات «الخُزَامَىٰ» في دِيارِ سَلْمَىٰ التي صارت أطلالاً خالية من ساكنيها الغابِرينَ.

أو على رأس أَوْ عَالِ: أي: أو على رأسِ صُخُورٍ مُشْرِفَةٍ فوق القِمَم، شُبِّهَتْ هذه الصُّخور بالأوعال جمع «وَعِل» وهو تَيْسُ الجبل، لأنّ الأوعال تَصْعَدُ رؤوس التلال والجبال، وتُشْرِف برؤوسها، وتوجد في المرتفعات صخور تُشْبِهُها، يَصْعَدُ إليها المتنزّهون، ويجلسون عليها، مستمتعين بالارتفاع والمشهد والحديث، وكان لامرىء القيس مجالس هنا لك مع صاحبته سلْمَىٰ.

هذه طائفة من الأمثلة اكتشفنا فيها بعض أغْراض ذكر العنصر الذي يمكن فهمه بوجه عامّ فيما لو حُذِف من الكلام، لكنَّ الداعيَ البلاغِيّ رجَّحَ في ذَوْقِ الأَديب البليغِ ذكره على حذفه، لإفادة المعنى البلاغيّ الذي قصده.

والدواعي التي لم أورد أمثلة لها من أقوال البلغاء والفصحاء، ليس من الصّعْب وضْعُ أمثلة لها، أو اكتشاف أمثلة لها لدى الاطلاع على النصوص البليغة من النثر والشعر.

فعلى مُحَلّل النصوص الأدبيّة البليغة أن يكون على بصيرة بمختلف الأغراض البلاغيّة، حتى يكون شرحُهُ الأدبـيُّ البلاغيُّ للنصوص كاشفاً بِدِقَّةٍ أغراضَ البلغاء.

* * *

(٣)

دواعي الحذف في الكلام

مقدمة:

قد يرى المتكلّم البليغ الذّوّاقُ للأدب الرفيع أن يحذف من كلامِه الذي يُرِيدُ توصيلَ معناه لمَنْ يتلَقَّىٰ كلامه، مَا يمكِنُ أن يفهمه المتلَقّي بقرائن الحال، أو قرائن المقال، أو باللّوازم الفكرية الجليّة، أو باللّوازم الفكرية الخفية وبالإشاراتِ الّتي تُدْرَكُ بالذكاء اللّمَّاح، ومن المعلوم أنّ الأذكياء يكفيهم الإلْماح، لأنهم يدركون المقاصدَ باللّمح.

وقد اهتمّ علماءُ البلاغة، والباحثون في إعجاز القرآن بدراسة ما في كتاب الله من محذوفات، وبدراسة أقوال كِبَارِ البلغاء والفصحاء، وما فيها من عناصر محذوفة مع إرادة توصيلِ معانيها للمخاطبين بها، فاكتشفوا أنّ الحذف من صريح البيان، والاكتفاء بدلائل قرائن الأحوال أو قرائن الأقوال، أو دلائل اللّوازم الفكرية، وما في الأقوال المذكورة من إشارات، قد يكون أبلَغَ وأبدَعَ وأكْثَرَ جَمالاً، إذَا كان المتلَقِّي ممَّنْ تقتضي حالُه أنْ يُخَاطَبَ بمثل ذلك، اعتماداً على ذكائه وفطنته، أو كان في المتلقّين من هم كذلك، وهؤلاء يكشفون لسائر المخاطبين ما فهموه من الكلام الموجّه للنّاس بوجهٍ عامٍّ، فَيُغْنِي إفهام أهل البحث والعلم والفطنة بكلام يُلاَئمُ مقتضىٰ حالِهم، إذْ هم مُكَلَّفُونَ إِفْهَامَ الآخرين وتعليمَهُم، ولا حاجة في كلّ الكلام أَنْ يلائم أحوال متوسطي الذكاء فمن دونهم، إذا كان الكلام موجّهاً للناس بوجه عامّ.

ولذلك نجدُ في كتاب الله الموجّه للناس أجمعين ما يمكنُ أَنْ يفهمه بسهوله كلُّ المخاطبين، ونجد فيه ما يحتاج فهمه إلى ذكاءٍ متوسّطٍ أو فوق المتوسط، ونجد فيه ما يحتاج فهمه إلى ذكاءٍ فائقٍ وفطنةٍ رفيعة عالية، ليشرح هؤلاء ما فهموه من كتاب الله، ويقدّموه لسائر الناس بما يفهمون من بيان.

وَإذْ أحسَّ أستاذُ علوم البلاغة «عبد القاهر الجرجاني» أَنَّ حذفَ ما يُمْكن أن يُدركَهُ أهل الذكاء والفطنة بالقرائن أو الإشارات، ممّا يرفع مستوى الكلام إلى مراتب عاليةٍ في البلاغة والإبداع والجمال البياني، قال كما جاء في كتابه «دلائل الإعجاز» بشأن الحذف:

«هذا بابٌ دقيقُ الْمَسْلَكِ، لطيفُ المأخذ، عجيبُ الأَمْر، شبيهٌ بالسِّحْر، فإنَّك ترىٰ به تركَ الذّكر أفْصَح من الذكْر، والصَّمْتَ عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجِدُكَ أنْطَقَ ما تكونُ إذَا لَمْ تَنْطِقْ، وأتمَّ ما تكونُ بياناً إذا لَمْ تُبيِّنْ، وهذه جُمْلةٌ قدْ تُنْكِرُها حتَّىٰ تَخْبُر، وتَدفَعُهَا حتَّىٰ تَنْظُر».

وممّا سبق ندرك أنّ من شرط حَذْفِ ما يُرادُ الدلالة على معناه، أن يمكن إدراكُهُ بقرائن الحال أو قرائن المقال، أو اللّوازم الفكرية، أو إشارات المذكور من القول، وإلاَّ كان تَعْمِيَةً لا تليق بذي بيان بليغ.

ومن علامات الحذف البليغ الذي يرفع قيمة الكلام، أنَّه إذا أُظْهِرَ المحذُوف زالَ ما في الكلام من بهجة وطلاوة وجمالٍ فنّي وإبداع.

* * *

أقسام الحذف:

لدى استقرار صور الحذف في الكلام العربي البليغ يظهر لنا أنّه يدور حول حذف جُزْءٍ من الكلمة أو ما يُنَزَّلُ مَنْزِلَة جزئها، كأداة النداء وياء المتكلّم. وحذف جُزْءٍ من الجملة كحذف المسند أو حذف المسند إليه أو حذفهما، أو حذفِ شيءٍ من متعلّقاتِ الفعل أو ما يَعْمَلُ عمله. وحذف جملة كاملة. وحذف أكثر من جملة.

فالحذف إذَنْ يقع في أربعة أقسام:

القسم الأول: حذفُ جُزْءٍ مِن الكلمة أو ما يُنَزَّلُ منزلة جُزْءِ الكلمة، ولم

يوجّه البلاغيون عناية لهذا القسم، لكن تنبَّهَ إلى بَعْضِهِ «الأخفش» من علماء العربيّة، وحاول تعليله وفق مناهج النحاة والصرفيين، لا وفق مفاهيم البلاغيّين والأدباء، وذلك في قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول):

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤﴾.

بحذف «الياء» من «يَسْرِي» مراعاة لرؤوس الآيات، دون أن يُوجَدَ مقتضٍ نحويٌّ لهذا الحذف.

وتنبَّهَ إلى هذا القسم وأضافه اقتراحاً إلى أقسام الحذف البلاغي من المعاصرين «د. محمد أبو موسى» في كتابه «خصائص التراكيب» وقد أحسن صُنْعاً.

وأقول في شرح هذا القسم: إنّ العربيّ قد اعتاد أن يختصر من الكلمة إيجازاً في نُطْقِه وتخفُّفاً، وذلك في بعض كلامه ممّا يكثر تداوله، فيحذف بعض حروف الكلمة، وأن يختصر أيضاً فيحذف بعض ما يُنَزَّلُ مَنْزِلَة جُزْءِ الكَلمة، كالجزء الثاني من المركب تركيباً مَزْجِيّاً، وكالمضاف إليه، وكياء المتكلم، وأداة النداء.

ويظهر لنا هذا في بعض أنواعٍ من الكلام العربي، ومنه ما نجده في الأبواب التالية:

فمنه ما يُسمَّىٰ الترخيم في باب النداء، فقد يحذف العربيُّ في النداء آخرحرف في الكلمة، أو الحرفين الأخيرَيْن منها، وقَدْ يَحْذِفُ الجزءَ الثانِيَ من جزئي الكلمة المركّبة تركيباً مزجيّاً، وقد يحذف في الترخيم المضاف إليه.

ومن دواعيه إلى ذلك الإيجاز، والتحبُّبُ لِلْمُنَادىٰ أحياناً، ومراعاة جمال فنّيٍّ في نَسَقِ الكلام، وإيثار اللفظ الأخف على اللّسان، إلى غير ذلك.

الأمثلة:

(١) قول امرىء القيس:

أفَاطِمُ مَهْلاً بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّلِ   وَإِنْ كُنْتِ قَدْ أَزْمَعْتِ صَرْمِي فَأَجمِلِي

أي: أفاطمةُ، وفي هذا الترخيم يظهر معنى التحبُّب مع إرادة سلامة الوزن الشعريّ.

(٢) قول الْعَجَّاج يخاطِبُ امرأته «جارية» وهو يُعِدُّ رحل ناقته للسَّفر، فقالت له: «ما هذا الذي تَرُمُّ» أيْ: تُعِدُّهُ من أمْرٍ رغبةً في الارتحال: فقال لها:

جَارِيُ لاَ تَسْتَنْكِرِي عَذِيرِي   سَعْيِي وإشْفَاقِي عَلَىٰ بَعِيرِي

فحذَفَ حرفَ النداء ورَخَّمَ، وأصلُ الكلام: «يَا جاريَةُ» ومعنَىٰ «عَذِيري»: حالي، وما أحاول من سَفر، فعذيرُ الرَّجل ما يرومُ وما يُحَاول مما يُعْذَرُ عليه إذا فعله.

(٣) قول الفرزدق، يخاطب مروان بن عبد الملك:

يَا مَرْوَ إِنَّ مطيّتِي مَحْبُوسَةٌ   تَرْجُو الحِبَاءَ وَرَبُّهَا لَمْ يَيْأَسِ

أي: يا مروان، فحذف الحرفين الأَخيرين من «مروان».

(٤) قول لبيد:

يَا أَسْمَ صَبْراً عَلَىٰ مَا كَانَ مِنْ حَدَثٍ   إِنَّ الْحَوَادِثَ مَلْقِيٌّ وَمُنْتَظَرُ

أي: يَا أسماء، فحذف بالترخيم الحرفين الأخيرين من «أسماء».

(٥) وقالوا مُرَخّمين في نداء نحو «حضر موت» وفي نداء نحو «مَعْدِ يكرب»: يا حَضْرَ ــ يَا مَعْدِ.

(٦) وكثيراً ما يحذف العرب أداة النداء، وياء المتكلم التي يضاف إليها المنادىٰ، مثل: «يَارَبِّ ــ يَا أَبَتِ ــ يا ابْنَ أَمَّ ــ يَا عبادِ ــ يَا غلامِ».

● ومنه حذف ياء المتكلّم.

الأمـثـلـة:

(١) قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٤٥﴾؟.

أي: فَكَيْفَ كَانَ إِنْكَارِي، فحذف من «نكير»، ياء المتكلم، والداعي النَّسَقُ الجمالي في رؤوس الآيات في السورة.

ونظيره في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥﴾.

أي: فكيف كان عقابـي.

وكذلك في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) في عدة مواضع منها:

﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٦﴾.

أي: فكيف كان عذابـي ونُذُرِي، والداعي في كلّ ذلك مراعاة النسق الجماليّ في رؤوس الآيات.

● ونظير حذف ياء المتكلم حذف حرف العلة في آخر الفعل دون مقتضٍ إعرابـي، رعايةً للنسق الجمالي، ومنه قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول):

﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ۝٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤﴾.

الأصل: «واللَّيْلِ إذا يَسْرِي» فحذفت الياء من «يسري» رعاية للنسق الجمالي في رؤوس الآيات ولو لم يُوجَدْ جازم يَقتضي حذفها إعرابيّاً.

* * *

القسم الثاني: حذف جزءٍ من الجملة، ويكونُ بحذف المسند إليه، أو حذف المسند، أو حذفهما والاكتفاء بمتعلّقَاتِ الفعل أو ما في معنى الفعل كالمصدر واسم الفاعل، أو حذف غير ذلك من عناصر الجملة، استغناء بما يدلُّ على المحذوف.

وقد ذكر ابن هشام في كتابه «مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب» زيادةً على ثلاثين نوعاً من أنواع الحذف في اللّسان العربـي، واستشهد على كثير منها بأمثلة قرآنيّة، ومعظم هذه الأنواع يرجع إلى حذف جزء من الجملة، وتجد تفصيلاً لأنواع الحذف مع أمثلتها في القاعدة (١٤) من كتابـي «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عزَّ وجلَّ»[(١)].

ومن أنواع حذف جزء الجملة ما يلي:

(١) حذف الاسم المضاف.

(٢) حذف المضاف إليه.

(٣) حذف اسمين مضافين.

(٤) حذف الموصول الاسمي.

(٥) حذف الموصوف.

(٦) حذف الصفة.

(٧) حذف المعطوف.

(٨) حذف المعطوف عليه.

(٩) حذف المبْدَل منه.

(١٠) حذف المبتدأ.

(١١) حذف الخبر.

---

(١) انظر المقولة الثانية منها ففيها أمثلة لكلّ أنواع الحذف.

(١٢) حذف الفعل.

(١٣) حذف المفعول.

(١٤) حذف الحال.

(١٥) حذف التمييز.

(١٦) حذف «لا» النافية وغيرها.

(١٧) حذف لام التوطئة.

(١٨) حذف الجار، ويطّردُ مع «أنَّ» و «أَنْ».

(١٩) حذف لام الطلب.

* * *

القسم الثالث: حذف جملة كاملة استغناءً بما يدلُّ عليها، أو اعتماداً على إمكان فهمها ولو لم تُذْكر.

● فمنه حذف جملة القسم، مثل قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) في حكاية قصّة سليمان:

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾.

أي: أُقسِمُ باللّهِ لأَذْبَحَنَّهُ.

● ومنه حذف جواب القسم، مثل قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول):

﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ ﴾.

أي: لَنَبْعَثُنَّهُمْ ولَنُحَاسِبَنَّهُمْ.

● ومنه حذف جملة جواب الشرط، مثل قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ . . . ﴾ [الآية ٣٥].

أي: فإن استطعْتَ ذَلِكَ فَافْعَل.

وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ . . . ﴾ [الآية ٣١].

أي: لكان هذا القرآن المنزّلُ على محمد.

● ومنه حذف جملة الشرط، مثل قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾.

أي: فإنْ لم يتأتَّ لكُمْ إخلاصُ العبادة لي في هذه الأرضِ فإيَايَ فاعْبُدُوني في غيرها.

* * *

القسم الرابع: حذف أكثر من جملة استغناءً بما يدلُّ على المحذوف، ومن أمثلته الكثيرة قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

أي: فقلنا اضربوا القتيل ببعض البقرة المذبوحة، فضربوه ببعضها، فصار القتيل حياً فأَخْبَرَ عنْ قاتِله . . .

* * *

دواعي الحذف البلاغية:

ذكر البلاغيون طائفة من دواعي الحذف مُوزَّعةً في بحوث حذف المسند

إليه، وحذف المسند، وحذف بعض متعلقات الفعل، وقد انتقيت منها وأضفت إليها، فاجتمعتْ لديّ الدواعي التالية، وأُأكد أنّه يَعْسُر إحصاءُ كلّ الدواعي التي تقوم في نفوس البلغاء للحذف، وما ذكرته منها يرشد إلى ما فاتني أن أذكره.

الداعي الأول: الاحتراز عن العَبَثِ بناءً على الظاهر، إذا كان ما يُحْذَفُ يُمْكِن أنْ يُدْرِكه ويَفْهَمه المتلقِّي، دون أن يُذْكَر في اللفظ، لدلالة قرينة الحال، أو قرينة المقال، أو اللّوازم الفكرية المنطقيّة، والمخاطب من الذين تكفيهم دلالات القرائن واللّوازم الفكريّة.

الداعي الثاني: تَخْيِيلُ الْعُدُولِ إلىٰ أَقْوىٰ الدّليلين من العقل أو اللفظ، باعتبار أنّ التوصُّلَ إلى فكرةٍ ما عن طريق الاستدلال العقلي أقْوىٰ لدى الإنسان من أَنْ تُبَيَّنَ له عن طريق دلالة اللفظ، يُضافُ إلى ذلك أنّ فَهْمَ الإنسانِ للأَمْرِ باسْتِنْبَاطِه الفكريّ آنَسُ لَهُ وأَسَرّ، وأكثَرُ إشعاراً له بذاتيّته المستقلّة، من أَنْ يَشْعُرَ بأَنَّه عالةٌ في الْفَهْم على من يُعَرِّفُه به بصريح اللّفظ. لمَا يتضمَّنُ البيان بصريح اللّفظ من إلماح ضمنيّ إلى أنَّ المخاطَبَ ليْسَ مِن أهل فهم المعاني بقرائن الأحوال، أو قرائن الأقوال، أو لوازم الأفكار، ففي الحذف إثارةٌ للفكر وترضية لدوافع النفس التي يُسْعِدها الاستقلال والاعتماد على الذات.

الداعي الثالث: اختبارُ تنَبُّهِ المتَلّقي أو مقدارِ تَنَبُّهِهِ، عند إمكان الاستِغْناءِ عنْ دلالةِ صريح اللفظ على المراد.

الداعي الرابع: الإشعار بتمجيد المسمَّىٰ عن طريق الإيهام بصون اسمه عن أن يُبْتَذَلَ بالذكر لجلالة قدره، على معنى قول الشاعر يخاطبُ ممدوحه:

لَسْنَـا نُسَمِّيــكَ إجْــلالاً وتكْــرِمَــةً فَــوَصْفُــكَ الْمُجتَلِـي عَــنْ ذَاكَ يُغْنِينَـا

الداعي الخامس: الإشعار باحتقارِ المسمَّىٰ وازدرائه وتَنْزِيهِ اللّسان عن ذكر اسْمِهِ، عن طريق الإيهام بأنّه يَنْبَغِي صَوْنُ اللّسانِ عنه، كما يُصانُ عن ذكْرِ ألفاظِ الفحش، وأسماء العورات.

الداعي السادس: صونُ اللّسان حقيقةً عن ذكر المحذوف والاكتفاء بدلالة القرائن، لأنّه ممّا ينبغي سَتْرُ ما يَدُلُّ اللّفظ الصريحُ عليه، ويَسْتَهْجِنُ ذوّاقوا الأدب الرفيع ذكره.

الداعي السابع: التمكُّن من إنكار المحذوف، عند الحاجة إلى هذا الإنكار، وادّعاء قَصْد غيره.

الداعي الثامن: كَوْنُ ما يُحْذَفُ مُتَعَيِّناً حقيقةً أو ادّعاءً، فلا داعي إلى ذكره، إذْ يكونُ ذِكْرُهُ عندئذٍ من الإسراف في القول، وهو أمْرٌ لا يَسْتَسِيغُه الْبُلَغاء.

الداعي التاسع: اتّباع الاستعمال الوارد على ترك ذكره، كالأمثال وما يجري مجراها، نحو: «رَمْيَةٌ من غَيْرِ رَام» أي: رَمْيَةٌ مُصِيبةٌ مِن غير رام ماهرٍ يُحْسِنُ الرّماية. ونحو «شِنْشِنَةٌ أَعْرِفُهَا مِنْ أَخْزَمِ»[1] ونحو: «قضِيةٌ ولاَ أبَا حَسَنٍ لَهَا».

الداعي العاشر: تركُ نظائره في استعمالات العرب، كما في الرفع على المدح، أو الذمّ، أو الترحُّم، فإنَّهُمْ لاَ يكادون يذكرون فيه المبتدأ. وكَقطْع الصفة ونَصْبِها على تقدير فعل أمدح، أو أذُمُّ، أو نحو ذلك، وكما في «أهلاً وسهلاً».

أي: لقيت أهلاً، ووطئت سهلاً، وكما في المفعول المطلق لفعل محذوف، مثل: «سَقْياً وَرَعْياً» أصله: سقاك الله سقياً، ورعاكَ الله رَعْياً، ومثل: «حَمْداً وشُكْراً» أصله: أحمد الله حمداً، وأشكر اللَّهَ شكراً.

الداعي الحادي عشر: ضيق المقام عن إطالة الكلام بسبب التوجُّعِ أو التضجُّر، كأن تقول لمريض: كيف حالك؟ فيقول: مريض.

---

(١) هذا القول جرى مثلاً، وهو لأبـي أَخْزَم الطائي، وكان له ابنٌ عاقٌ يقال له: «أخزم» فمات وترك بنين، فوثَبُوا يَوْماً على جدّهم «أبـي أَخْزَم» فأدْمَوْهُ، فقال:

إنَّ بَنِـيَّ ضَـرَّجُـونِـي بِـالـدَّم ... شِنْشِنَـةٌ أَعْـرِفُهَـا مِـنْ أَخْـزَمِ

يعني أنّ هؤلاء أشبهوا أباهم في العقوق، والشِنْشِنةُ: الطبيعة والعادة.

وكأن تقول لفاقد عزيز عليه: كيف حالك؟ فيقول: حزين.

الداعي الثاني عشر: إرادة إخفاء الأمر عن غير المخاطب الذي يسألك عن أمْرٍ بحضور آخرين لا تريد إعلامهم به، فتكتفي بذكر بعض الجملة، أو بنحو حرف نفي، أو حرف إيجاب.

الداعي الثالث عشر: خوف فوات فرصة سانحة، كأن تقول للصيّاد المترقب الراصِدِ «وَعِل ــ غزال ــ أرنب ــ هذا ــ ذاك ــ».

الداعي الرابع عشر: رعايةُ السَّجْعِ، أو القافية، أو أواخر الآيات، محافظةً على الجمال الفنّي في اللّفظ ونَسَقِ الْجُمَل.

الداعي الخامس عشر: تربية الفائدة بتكثير المعاني، إذْ يتأتّىٰ من احتمالات المعاني بالحذف، ما لا يتأتّىٰ بالذكر.

الداعي السادس عشر: قَصْدُ التعميم مع الاختصار في اللفظ، وهذا كثير في النصوص البليغة الرفيعة، كقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: يدعو كلّ ممتَحَنٍ مُكَلَّفٍ إلى دار السلام عن طريق الإيمان والإسلام، ودار السّلام هي الجنة.

الداعي السابع عشر: قَصْدُ الإيجاز فقط، ولو لم ينضمّ إليه داعٍ آخر، فالإيجاز دون إخلالٍ بالمعنى المراد من الدواعي التي يَهْتَمُّ الْبُلَغَاءُ بمراعاتها، لأنّه يصون الجملة في ذوق الناطق العربي من الثقل والترَهُّل.

الداعي الثامن عشر: المبادرة إلى دفع ما يمكن أن يتوهّمه الْمُتَلَقِّي ممّا هو غير مراد، لو لم يحصل الحذف، كأن يقول المخبر بغزوِ الأعداء المدينة: دخلَ الغزاةُ إلى الْقَصْر السلطاني.

فَحَذَف من عبارته لفظ «المدينة» لأنّه بادر إلى دفع توهم أَنَّهُمْ لم يصلوا بَعْدُ إلى القصر السلطاني، وأنّهم ما زالوا في الطريق إليه.

الداعي التاسع عشر: قصد التشويق بالإبهام، ليأتي البيان بعده شافياً حركة الشوق إلى المعرفة.

إلى غير ذلك من دواعي تتفتَّقُ عنها قرائح البلغاء الفطناء.

* * *

أمثلـة وتطبيقـات

أُقدِّم أمثلةً وتطبيقات غير شاملة لكلِّ أقسام الحذف وأنواعه، رجاء أن تكون هاديةً للدّارِسِ الباحثِ البلاغي، فَيَقيسَ عليها، ويستخرج ما يراه من دواعي بلاغيَّةٍ في مختلف النصوص التي يدرسُها، من كتاب الله، وأقوال الرسول ﷺ، وأقوال البلغاء من ناثرين وشعراء ذوّاقي الأدب الرفيع وعناصره الإبداعيّةِ والجماليّة:

المـثـال الأول:

ذكر البلاغيّون أنّ من المألوف في أساليب بلغاء العرب أنَّهم يحذفون الْمُسْنَدَ إليه عند ذكر الدّيار، ومنه قول امرىء القيس:

لِمَــنْ طَلَــلٌ أَبْصَــرْتُــهُ فَشَجَــانِــي ... كَخَــطِّ زَبُــورٍ فَــي عَسِيــبِ يَمَــانِ
دِيَــارٌ لِهِنْــدٍ وَالْــرَّبَــابِ وَفَــرْتَنَــىٰ ... لَيَــالِيَنَــا بِــالْنَّعْــفِ مِــنْ بَــدَلاَنِ
لَيَــالِـيَ يَـدْعُـونِـي الْهَـوَىٰ فَـأُجِيبُـهُ ... وَأَعْيُــنُ مَــنْ أَهْــوَىٰ إلَــيَّ رَوانِ

الطَّلَلُ: مَا بِقَي شَاخِصاً مِنْ آثار الدِّيار ونحوها.

فَشَجَانِي: أي: فهيَّج حزني وأثاره.

كخطِّ زبور: شبّه بخَطٍّ لكتاب مكتوب.

فِي عَسِيبِ يَمَانِ: الْعَسِيب: سَعَفُ النَّخل. يَمَانِ: نسبة إلى الْيَمن، أو جهة

اليمن، ويظهر أنّ اليمانيّين كانوا في عصره يكتبون كتبهم في سَعَفِ النخل.

دِيارٌ لِهِنْدٍ: أي: هي ديار لهند، فحذف المسند إليه، وهو مبتدأ هنا، و «هند» و «الرباب» و «فَرْتَنَىٰ» أسماء صواحبَ له، كانْ يستمتع بلقائهنّ في هذه الديار التي هُدِمت ولم يَبْقَ منها إلاّ الأطلال.

لَيَالِينَا: أي: أتذكّر ليالِيَنَا، فحذف المسند. وأبقى النصبَ دليلاً على المحذوف، وهذا شاهد على حذف المسند، وكذلك: لَيَالِي.

بالنَّعْف: النَّعْفُ: هو ما انحدر من الجبَلِ وارتفع عن الوادي.

مِنْ بَدَلَانِ: بَدَلَان: بَلَدٌ في اليمن.

رواني: أي: ينظرن إلي نظراً طويلاً مع سكون طرف، يقال: رَنَا إليه، إذا أدام النظر مع سكون الطرف.

ذكر امرؤ القيس أنّه أبصر طَلَلَ دِيار صواحبِهِ «هند والرّباب وفَرْتَنَىٰ» فأحزنه هذا المشهد، لأنّه ذكّره ما فاته من أيّام خوالي، كان فيها مستمتعاً بهِنَّ، ووصف في عرضه المكان وليالي اللّقاء بهنَّ.

* * *

المثـال الثانـي:

قول الشاعر المخزومي القرشي «عُمَرَ بن عبد الله بن أبـي ربيعة» من شعراء القرن الهجري الأول (٢٣ ــ ٩٣هـ) شاعر الغزل:

هَلْ تَعْرِفُ الْيَوْمَ رَسْمَ الدّارِ وَالطَّلَلاَ ... كَمَا عَرَفْتَ بِجَفْنِ الصَّيْقَلِ الْخِلَلاَ؟
دَارٌ لِمَـــرْوَةَ إذْ أَهْلِـــي وَأَهْلُهُمُـــو ... بِـالْكَـانِسِيَّـةِ نَـرْعَـىٰ اللَّهْـوَ والْغَـزَلاَ

رَسْمَ الدّار: أي الأثر الباقي منها.

والطَّلَلاَ: أي: ما بقي شاخصاً من آثار الديار.

بِجَفْنِ الصَّيْقل: الْجَفْنُ: غِمْدُ السَّيف. الصَّيْقَل: الذي يَشْحَذُ السّيوف ويَجْلُوهَا، وأراد هنا السَّيْفَ المجلوّ، والشاعر ممَّنْ يستشهد بكلامه في العربيّة.

الْخِلَلاَ: بكسر الخاء وفتح اللام جمع «خِلَّة» وهي بطانة جَفْنِ السيف.

أي: لم يبقَ من الدار إلاَّ كما لو لم يَبْقَ من جَفْنِ السيف إلى بطانته الداخلية.

دارٌ لِمَرْوَة: أي: هي دارٌ لمروة، فحذف المسند إليه وهو المبتدأ هنا، كعادة العرب من حذف المسند إليه في هذا المقام، و «مَرْوَة» اسم المرأة التي كان يلهو معها لهو غزل.

بالْكَانِسِيّة: اسم مكان.

* * *

المثـال الثالـث:

سأل الأُقَيْشَرُ ابْنَ عَمٍّ له موسراً، فمنعه ولم يُعْطه، فشكاه إلى قومه وذمَّه، فوثَبَ إليه ابْنُ عمِّه ولطمه، فقال فيه الأقَيْشر:

سَـرِيعٌ إلـى ابْـنِ الْعَـمِّ يَلْطِـمُ وَجْهَـهُ ... وَلَيْـسَ إلَـىٰ دَاعِـي النَّـدَىٰ بِسَـرِيـعِ
حَـرِيـصٌ عَلَـىٰ الـدُّنْيَـا مُضِيـعٌ لِـدِينِـهِ ... وَلَيْـسَ لِمَـا فِـي بَيْتِـهِ بِمُضِيـعِ

أي: ابن عَمِّي فلان سَرِيعٌ إلى. . . حَرِيص على، فحذف المسند إليه.

* * *

المثـال الرابـع:

قول الشاعر في ذكر ربْعِه ومنازله الدوارس:

اعْتَـادَ قَلْبَـكَ مِـنْ لَيْلَـىٰ عَـوَائِـدُهُ ... وَهَـاجَ أَهْـوَاءَكَ الْمَكْنُـونَـةَ الطَّلَـلُ
رَبْـعٌ قَـوَاءٌ أَذَاعَ الْمُعْصِـرَاتُ بِـهِ ... وكُـلُّ حَيْـرَانَ سَـارٍ مَـاؤُهُ خَضِـلُ

أي: هو رَبْعٌ قَوَاء، **القواء**: القفر من الأرض، ومنزل قواء: لا أنيس فيه.

أذاعَهُ وأذَاعَ به: إذا نشره. **أذاع المعصراتُ به**: أي: نَشَرَتِ السُّحُبُ المعصراتُ مَاءَها فيه بكثرة فغيّرت معالمه.

وكلُّ حَيْرَانَ سَارٍ: الحيران السّاري: الْمُزْنُ تَجْرِي لَيْلاً.

مَاؤُهُ خَضِلُ: أي: ندِيّ، يُرِيدُ أَنَّه يُنَدِّي ويُبَلِّلُ الأَرْضَ والجوّ من تحته.

المثـال الخامـس:

قول بَكْر بن النَّطّاح:

الْعَيْـــنُ تُبْـــدِي الْحُـــبَّ والْبُغْضَـــا ... وتُظْهِـــرُ الإِبْـــرَامَ والنَّقْضَـــا

دُرَّةُ مَـــا أنْصَفْتِنِـــي فِـــي الْهَـــوَىٰ ... وَلاَ رَحِمْـــتِ الْجَسَـــدَ الْمُنْضَـــىٰ

غَضْبَـــىٰ. ولاَ واللَّـــهِ يَـــا أَهْلَهَـــا ... لاَ أَطْعَـــمُ الْبَـــارِدَ أَوْ تَـــرْضَـــىٰ

فحذف أداة النّداء من «يَا دُرَّةُ». دُرَّة: اسم صاحبته.

وحذف الْمُسْنَد إليه في البيت الثالث، والأصل: هي غضبَىٰ.

وحذف فيما أرى في قوله: «وَلاَ والله يَا أَهْلَها» العطوفَ عليه، إذ يريدأن يقول: هي غضبَىٰ وأنا حزِينٌ ولْهَانٌ ولا واللّهِ يا أَهْلَهَا لاَ أَطْعَمُ الباردَ أَوْ تَرْضَىٰ.

الإبرام: هو في الأصل لفُّ الخيوط بعضها على بعض، ويكنَّى به عن الوعد والعهد، وعكْسُه النقض.

الْمُنْضَىٰ: المهزُول من الْجَهْد، يقال لغة: أَنْضَاهُ إذا أتعبَهُ حتَىٰ جعله هزيلاً نحيفاً.

* * *

المثـال السـادس:

قول الشاعر لمن يَسْتجديه:

بَـــرِّدْ حَشَـــايَ إِنِ اسْتَطَعْـــتَ بِلَفْظَـــةٍ ... فَلَقَـــدْ تَضُـــرُّ إِذَا تَشَـــاءُ وتَنْفَـــعُ

فحذف المفعول، وأصْلُ الكلام: فلقد تضرُّني إذا تشاء وتَنْفَعُنِي، وقد يكون الداعي إرادة التعميم، أي تضرُّني وتضرّ غيري، وتنفعُنِي وتنفع غيري.

* * *

المثـال السابـع:

قول الله عزّ وجلّ لرسوله محمد ﷺ في سورة (الضحى/ ٩٣ مصحف/ ١١ نزول):

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾.

أي: فآواك، وفهداك، فحذف المفعول رعاية للجمال الفني بتجانس أواخر الآيات.

* * *

المثـال الثامـن:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢﴾.

أي: لِيُنْذِرَ الْكَافِرِينَ بَأْساً شديداً، فحذف المفعول الأوّل لأنّه مُتَعيّن، ولدلالة مقابلة جملة «ليُنذِر» بجُمْلة «يُبَشِّرَ المؤمنين».

ويظهر لنا أنّ الداعي هنا الإيجازُ، وإمتاعُ أهل الفكر بالاستنباط، وأهل الذكاء بالاعتماد على ذكائهم.

* * *

المثال التاسع: قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۚ...﴾ [الآية ٢٠].

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

أي: ولو شاء الله أنْ يذهَبَ بسمعهم وأبْصَارِهم لَذَهَبَ. . .

ولو شاء رَبُّكَ أن يُؤْمِنَ من في الأرْضِ كُلُّهُمْ جَميعاً لَجَعَلَهُمْ مَجْبُورينَ لا خِيارَ لَهُم ولآمَنَ مَنْ في الأرضِ كلُّهم جميعاً عندئذٍ.

فَحَذَفَ المفعول لفعل المشيئة، وهذا الحذف هو الغالب في فعل المشيئةِ في النصوص القرآنية، وكذلك فعل الإرادة، إلاَّ إذا كان المفعول أمراً مستغرباً أو مستنكراً أو مستحيلاً، فالداعي البلاغي لذكره أقوى من الداعي البلاغي لحذفه.

والداعي البلاغي للحذف هنا: الإيجاز والتشويق بالإبهام ليأتي البيان بعده شافياً، مع داعي إمتاع أهل الفكر بالاستنباط والاستخراج الفكري، اعتماداً على دلالات القرائن.

* * *

المثال العاشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول):

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ ﴾.

وقوله فيها:

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾.

جاء في أفعال هذه الآيات الثلاث حذف المفعول به تنزيلاً للفعل المتعدي منزلة الفعل اللازم، إذ الغرض بيان أنّ الله عزّ وجلّ هو الذي تكون بخلقه هذه الأفعال التي تحدث في الناس، فذكْرُ المفعول به إطناب لا لزوم له، إذْ هو خارج عن المقصود بالبيان.

ونظيره قول إبراهيم عليه السلام لنمرود في محاجته له، كما جاء في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ. . . ﴾ [الآية ٢٥٨].

أي: هو الذي يكون بخلقه الإحياء والإماتة.

* * *

المثال الحادي عشر:

قول عمرو بن معديكرب يصف تخاذل قومه، ويُبيّن أن رماحهم المتخاذلة قَطَعَتْ لسانه عن الافتخار بهم والثناء عليهم.

فَلَـوْ أنَّ قَـوْمِـي أنْطَقَتْنِـي رِمَـاحُهُـمْ نَطَقْــتُ وَلَكِــنَّ الــرِّمَــاحَ أَجَــرَّتِ

أجَرَّت: يقال: أجرَّ فَلانٌ لسانَه إذ منَعَهُ الكلام.

فحذف مفعول «أجرّت» ومرادُه منَعَتْ لساني عن الثناء على قومي والافتخار بهم، وغرضه الإيجاز لِلْعِلْم بالمحذوف، وللإشارة إلى أنّ تخاذل القوم يُسكت لسان المفتخر مهما كان شأنه، مع مراعاة قافية قصيدته التي جاءت على التاء.

* * *

المثال الثاني عشر:

قول البحتري يمدح يوسف بن سعيد:

لَـوْ شِئْـتَ لَـمْ تُفْسِـدْ سَمَـاحَـةَ حَـاتِـمٍ كَــرَمــاً وَلَــمْ تَهْـدِمْ مَــآثِــرَ خَــالِــدِ

أي: لو شئْتَ أنْ لاَ تُفْسِدَ سَمَاحَةَ حَاتِمٍ بجودِك لأمسكت عن العطاء فلم تُفْسِدْ سماحةَ حاتم كرماً.

ولو شئت أن لا تَهْدمَ مآثر خالدٍ بشجاعتك وإقدامك وحُسْنِ تدبيرك في الحرب لتهاونْتَ فلَمْ تَهْدِم مآثر خالد.

والداعي البلاغي الإيجاز، وإمتاع الفكر بالاستنباط والإدراك الذاتي السريع.

* * *

المثال الثالث عشر:

قول الشاعر للممدوحه:

قَدْ طَلَبْنَا فَلَمْ نَجِدُ لَكَ فِي السُّؤْ دَدِ والْمَجْدِ والْمَكَارِمِ مِثْلاً

أي: قد طَلَبْنَا مِثْلَكَ في السؤدد والمجد فلم نجد لك... إلخ.

والداعي البلاغي الإيجاز، وإمتاع الفكر بالإدراك الذاتي السريع.

* * *

المثال الرابع عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾.

أي: «قَدْ كَانَ لَكُمْ آيةٌ فِي فِئتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ» مؤمِنَةٌ ﴿تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ الطَّاغوتِ ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾.

فَحُذِفَ الوصف وهو لفظ «مؤمنة» في الأوائل لدلالة مقابله في الأواخر لفظ «كافرة» وحُذِفَ من الأواخر جملة «تقاتل في سبيلِ الطاغوت» لدلالة مُقَابِله في الأوائل، وهي جملة «تُقَاتِلُ في سَبيلِ اللَّهِ».

وَهذا الحذف من الأوائل لدلالة الأواخر، ومن الأواخر لدلالة الأوائل يُسمَّىٰ «الاحْتِبَاكَ» إذا اجتمع الحذفان معاً، وله في القرآن نظائر، وهو من إبداعات القرآن وعناصر إعجازه.

* * *

المثال الخامس عشر:

قول البحتريّ يمدح أبا الصقر:

وَكَمْ ذُدْتَ عَنِّي مِنْ تَحَامُلِ حَادِثٍ ... وَسُورَةِ أَيَّامٍ حَزَزْنَ إِلىٰ الْعَظْمِ

فحذَفَ المفعول به لِفِعْلِ حَزَزْنَ وَهو «اللَّحْمَ» لدفْع تَوَهُّم إرادَةِ غَيْرِ الْمُرَادِ ابْتِدَاءً، إذْ لَوْ قَالَ: «حَزَزْنَ اللَّحْمَ» لَجَازَ أَنْ يَسْبِقَ إلى وهْمِ السَّامعِ قَبْلَ ذكره ما بَعْدَهُ أن الحزَّ قد كان في بعض اللّحم ولم يَصِل إلى العظْم، مع ما في الحذف من إيجاز.

ذُدْتَ عَنِّي: دَفَعت وطرَدْتَ.

تَحَامُل حادث: شدّة حادثٍ ومشقته على نفسي.

سَوْرَةِ أيّام: هي شِدَّتُها وعُسْرُها.

حَزَزْنَ: قَطَعْنَ، كفِعْلِ السّكين في اللّحم دون الوصول إلى نهاية الطرف الآخر الذي يتمّ به الْفَصْلُ.

* * *

المثال السادس عشر:

قول البحتري أيضاً يمدح المعتزّ باللّه:

شَجْوُ حُسَّادِهِ وغَيْظُ عِدَاهُ ... أَنْ يَرَىٰ مُبْصِرٌ وَيَسْمَعَ وَاعِ

فحذَفَ المفعول به لِفعْلَي: «يَرَىٰ» و «يَسْمَع» لأنّه أراد تنزيل الفعل المتعدّي منزلة الفعل اللاّزم، فالمعنى: إنّ ما يَحْزُنُ أعداءَه ويَغِيظُهم أن يُوجَدَ راءٍ ما يرىٰ ببصره، وسامعٌ ما يسْمَعُ، لئلا يرى محاسنه وفضائله ويسمع كلامه، ومن يثني عليه، ويُضَاف إلى هذا احتمال إرادة التعميم، أي: أن يوجد سامع يسمع أيّ شيء، وراءٍ يَرَىٰ أيَّ شيء، إذ متى وُجد فلا بُدَّ أن يعرف محاسنه وفضائله فيُقَدِّمه.

* * *

خاتمة:

أكتفي بهذه الأمثلة وأقول: مع كثر ما أودر البلاغيّون من شواهد الحذف في شعر شعراء العرب، فإنّه ينحصر في بعض أبواب الحذْفِ، وبَعْضِ دواعيه وأغراضه، لكنّ روائع الحذف في مختلف الأبواب إنّما نَجِدُهَا في نصوص القرآن المجيد، وهي جديرة بأن تُفْرَدَ بدراسةٍ خاصّةٍ، وتجمع في كتاب مستقلّ.

ومن شاء مزيداً من الشواهد القرآنية على الحذف فليرجع إلى ما سَطَّرتُه في القاعدة (١٤) من كتابي «قواعد التدبّر الأَمْثَل لكتاب اللَّهِ عزّ وجلّ» وإلى كتاب «الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز» للعلاّمة الشيخ «العزّ بن عبد السلام = وهو عبد العزيز بن عبد السلام ٥٧٧ ــ ٦٦٠هـ» لُقّب بسلطان العلماء، لمواقفه الشجاعة ضدّ أعمال السلاطين المخالفة للدين.

* * *

ملاحظة:

لم أتعرّض لعدم ذكر ما يجهله المتكلّم من عناصر الجملة، كالفعل الذي يُبْنَىٰ على ما لم يُسَمَّ فاعله لجهل المتكلّم بالفاعل، ولا لعدم ذكر ما ليس للمتكلّم غرض بذكره، إذْ لا يُوجَدُ ما يَدُلُّ عليه من قرينة الحال، أو قرينة المقال أو اللّوازم الفكرية، لأنّ الدواعي لعدم الذكر مطلقاً هي الدواعي الّتي تدعو القادر على البيان أن يَصْمُتَ ولا يتكلّم، وهذه الدواعي لا تدخُلُ في الفنون البلاغيّة فيما أرىٰ، إذْ يستوي فيها البليغ وغير البليغ والقادر على الكلام والعاجز عنه.

وأرى أنّ ذكر البلاغيين لما يدخل في هذينِ البابَيْن ضمن دواعي الحذف فيه نظر.

• • •

الفَصل الثالث

التقديم والتأخير

(١)

مقدمات

المقدمة الأولى:

لكلّ عنصر من عناصر الجملة في اللّسان العربيّ موقع في ترتيب بناء الجملة، وفق الذي سبق بيانه في الفصل الثاني «بناء الجملة في اللّسان العربي وتقسيمها» من الباب الأوّل «مدخل إلى علْم المعاني».

وقد عرفنا أنّ الجملة في اللّسان العربي تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: الجملة الفعلية.

القسم الثاني: الجملة الاسمية.

وهنا نضيف: أنّ الأصل في الجملة الفعليّة تقديمُ المسند « = المحكوم به» وهو الفعل، ويُلْحَقُ به مَا يعمل عمل الفعل، وتأخير المسند إليه « = المحكوم عليه» وهو الفاعل أو ما يَنُوب منابه، ثم تأتي متعلقات الفعل أو ما يعمل عمله.

وأنّ الأصل في الجملة الاسميّة تقديم المسند إليه « = المحكوم عليه» وهو المبتدأ وما يتصل به، وتأخير المسند « = المحكوم به» وهو الخبر وما يتّصل به، وبعد ذلك تأتي متعلقات الخبر المماثلة لمتعلقات الفعل، إذا كان الخبر ممّا يعمل عمل الفعل، أو جملة مصدّرة بفعل.

وباستطاعتنا أن نحدّد معالم المراتب الطبيعيّة لعناصر الجملتين: الجملة الفعلية، والجملة الاسمية في اللّسان العربـي، اتّباعاً لما نصّ عليه علماء العربيّة في بعضها، واستناداً إلى أهميّة كلّ عنصرٍ من عناصر الجملة في البيان، وأولويته في ترتيب المعاني، مع ملاحظة أذواق فصحاء وبلغاء الناطقين العرب في ترتيب عناصر جملهم التي يصوغونها في كلامهم.

وأبدأ بالجملة الفعلية، لأنّها هي الدرجة الدنيا في سلّم البيان، وأُثَنّي بالجملة الاسمية، لأنّها الدرجة العليا في سلّم البيان، إذْ هي آكد وأقوى، إذا كان الخبر يتحمّل ضمير المبتدأ، أو كان في توابعه أو ما يتّصل به ما يتحمّل ضمير المبتدأ.

وقد صرّح جمهور البلاغيين بهذا الترتيب، وعلَّلوه بأنّ الجملة الاسميّة تشتمل على الحكم بمضمون الجملة مرَّتين:

- فالمرّة الأولى تكون بإسناد الخبر إلى لفظ المبتدأ.
- والمرّة الأخرى تكون بإسناد الخبر وتوابعه وما يتصل به إلى ضمير المبتدأ المستتر في الخبر أو فيما يتصل به أو في توابعه.

فإذا قلنا: «زيدٌ قائم» أو «زيدٌ قام» ففي لفظ «قائم» وفي لفظ «قام» ضميرٌ يعود على «زيد» فيحصل بذلك إسناد القيام إلى لفظ «زيد» وإسناده إلى ضميره، قالوا: وإسنادان أقوى من إسناد واحد، إذْ هو بمثابة إعادة الجملة مرّتين على سبيل التأكيد.

أمّا الخبر الذي لا يتحمل هو ولا ما يتصل به ولا بعض توابعه ضمير المبتدأ، مثل: «القمح البرّ ــ القمّح البرُّ الذي نصنع منه خبزاً نأكله»، فالجملة الاسمية معه بقوّة الجملة الفعلية البسيطة، وهما جميعاً في المرتبة الدنيا.

وفيما يلي جدولان فيهما بيان مراتب عناصر الجملة الفعليّة، ومراتب عناصر الجملة الاسمية على ما ظهر لي، مع التمثيل لكلٍّ منهما:

الجدول الأول: الجملة الفعلية، ومراتب عناصرها في اللّسان العربي إذا اجتمعت، هذا باعتبار الأصل، مع جواز تبادل المراتب عند الحاجة.

وما لا يذكر من هذه العناصر في الجملة يحلُّ تاليه محلّه إذا وُجِد.

١	٢	٣	٤	٥
الفعل	الفاعل	المفعول به الأول	المفعول به الثاني	المفعول المطلق
وما يقترن به من أدوات.	وما يتصل به كالمضاف إليه وصلة الموصول والنعت والتوكيد والبدل والتمييز والعطف.	وما هو بمثابته من جار ومجرور وما يتصل به كما جاء فيما سبق. وقد يحتل هذه المرتبة المفعول معه، مثل: سرت والقمر.	وما هو بمثابته وما يتصل به كما جاء فيما سبق. فالمفعول به الثالث إذا وجد.	وما يتصل به.

٦	٧	٨
المفعول فيه	الحال	المفعول لأجله
وهو ظرفا الزمان والمكان وما يتصل بهما.	وما يتصل به.	وما يتصل به.

المثـال الأول:

ضرب ــ فتىً الحيّ الشجاع ــ اللّصَّ المحترفَ الذي أتْعَبَ أهْلَ الحيِّ ــ ضرباً موجعاً بلَغَ تسعين ضربةً ــ لَيْلَة الخميس في سَاحة الحيّ ــ والقمر بازغ ــ جزاءً وتأديباً.

المثال الثاني:

كسَىٰ ــ سيّد العشيرة السّخيُّ ــ زوجتَهُ الشابّة الحسناء ــ إحْدَىٰ عشرة حلّة ــ كسوة رائعة ــ ليلة الجمعة في قصر الأفراح ــ وهي على منصّة العروس ــ إكراماً لها ولأهلها.

هذان المثالان قد جرى ترتيب عناصر الجملة الطويلة فيهما على وفق الترتيب الذي جاء في الجدول الأول.

الجدول الثاني: الجملة الاسمية ومراتب عناصرها في اللّسان العربـي إذا اجتمعت، هذا باعتبار الأصل، مع جواز تبادل المراتب عند الحاجة.

وما لا يذكر من هذه العناصر في الجملة يحلُّ تاليه محلّه إذا وُجِد.

١	٢	٣	٤
المبتدأ	**الخبر**	**المفعول فيه**	**متعلقات الخبر الأخرى**
وما يتصل به كالمضاف إليه والنعت والبدل والتوكيد والعطف	وما يتصل به كما جاء في المبتدأ	أي ظرفا الزمان والمكان وما يتصل بهما.	وما يتصل بكلٍّ منها.
		قد يتساوى في هاتين المرتبتين كلٌّ من الظرف ومتعلقات الخبر الأخرى.	

٥	٦
الحال	**المفعول لأجله**
وما يتصل به	وما يتصل به

المثـال الأول:

الخليفة الصالح السلطان عبد الحميد ــ خليفةٌ مظلوم إذْ خلَعَهُ ظُلْماً وعُدْواناً ــ من ولايته مَجْلِسُ المبعوثان التركي ــ في تركيا سنة (١٩٠٨م) ــ بتأثير المكايد اليهوديّة والغربيّة ــ وهو يقاوم أعداء الإسلام ــ تحقيقاً للمصالح الغربية ومصالح اليهودية العالمية السَّاعية يومئذٍ لإقامة الدولة اليهودية في فلسطين.

المثال الثاني:

محمدٌ ــ رسول الله النبيّ العربي المبعوث ــ في مكّة سنة (٦١٠م) ــ برسالة عامة للناس أجمعين ــ والناسُ في جهالة جهلاء وضلالة عمياء ــ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

هذان المثالان قد جرى ترتيب عناصر الجملة الطويلة فيهما على وفق الترتيب الذي جاء في الجدول الثاني.

المقدمـة الثانيـة:

التقديم والتأخير في الجملة الاسمية
التي ركناها معرفتان

إذا صلح في الجملة الاسمية كلٌّ من ركنيها لأن يكون مبتدأً فيها ولأن يكون خبراً، نظراً إلى أنَّ كُلًّا منهما معرفة يجوز الابتداء به بمقتضىٰ قواعد النحو، فأيّهما ينبغي أن نجعله المبتدأ والآخر الخبر؟.

لم يتعرّض النحويّون للتَّحديد، بل أجازوا أن يكون كلٌّ منهما هو المبتدأ وأن يكون الخبر، ويُعْرِبُون المقدّم مبتدأً، والمؤخّر خبراً.

لكن البلاغيّين بحثوا الأمر بحثاً فكريّاً منطقيّاً دقيقاً، ناظرين إلى حال المخاطب، وما هو الأعرف لديه من ركني الإسناد اللّذين هما من المعارف.

فأيّ المعرفتين هو الأعرف بالنسبة إليه، وحالتُه تتطلّب مزيداً من العلم عنه يُجْعَلُ هو المبتدأ، والركن الآخر يُجْعَلُ هو الخبر، وتُرَتَّبُ له الجملة بتقديم المبتدأ وتأخير الخبر.

- فمن عرف مثلاً الإمام الشافعيّ وجَهِلَ أنّه هو الشاعر الأول بين الفقهاء يقالُ له:

«الإمامُ الشافعيُّ الشاعرُ الأولَ بين الفقهاء».

- ومن عرف وجود شاعر هو الشاعر الأول بين الفقهاء، واستقر ذلك في ذهنه وسمع شعره أو قرأه، وهو لا يعرف أنه هو الإمام الشافعيُّ يُقالُ له:

«الشاعر الأول بين الفقهاء الإمام الشافعيّ».

● ومن كان مسافراً وعلم أنّه قد وُلد له ولد، ولم يره، وسمّاه في رسالة بعثها سعيداً، ثمّ عاد من السفر وأخذ ينظر في الصغار ليعرف من هو ولده سعيد منهم، يقال له: «ولدُك سعيد هذا الذي في يده كُرَة».

● ومن قدم من سفر، ورأىٰ صبية يلعبون، فهفا قلبه إلى واحد منهم، ولم يكن يعلم أن زوجته كانت حاملاً منه، فحمل الصبـيَّ وقبّله، يقالُ له:

«هذا الصّبِـيّ ولَدُك».

● جاء في الآية الثالثة من سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) خطابُ الله للناس بقوله:

﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣ ﴾.

فقرّر في أذهانهم أنّ الرَّبَّ الممدَّ بعطاءات الرّبوبيّة هو الذي يجب أن يتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إليهم منه.

ثم جاء في الآية (٥٤) منها قوله:

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا... ﴾ [٥٤].

فبنىٰ في هذه الآية على ما سبَقَ أنْ قَرَّرَهُ في أَذْهَانِهِمْ حول ربّهم، بيَان أَنَّه هو اللَّهُ الذي خلق السّماوات والأرض... إلخ لئلاّ تنصرف أذهانهم في تحديده إلى أربابٍ يَعْبُدونها من دون الله.

● وجاء في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول) قول الله عزّ وجلّ لرسوله محمد ﷺ يُعلّمه كيف يخاطب الذين كفروا:

﴿ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥ ﴾.

في الفقرة الأولى من هذا التعليم قال الله له: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾.

فإذا قال لهم هذا القولَ قَرَّرَ في أذهانِهِمْ اسْمَ اللَّهِ مُنَزِّلِ الكِتَاب، فكَانَ هذا الاسم حاضراً في أذهانهم وهو الأعرف.

وهذا يستدعي أن يُبْتَدَأ في الفقرات اللاّحقات باسم الله، وأن يُخْبَرَ عنه بما يُرَادُ بيانُه من صفاته.

فجاء في الفقرة الثالثة: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾.

وجاء في الفقرة السادسة: ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾.

* * *

المقدمة الثالثة:

ترتيب التوابع إذا اجتمعت

ذكر النحاة أنّ التوابع إذا اجتمعت في جملة واحدة فترتيبها كما يلي:

(١) النعت.

(٢) عطف البيان.

(٣) التوكيد.

(٤) البدل.

(٥) عطف النسق، أي: العطف بحرف عطف.

* * *

المقدمة الرابعة:

الحالات التي قرّر النحاة وجوب التقديم والتأخير فيها

قرّر النحاة بمقتضى القواعد النحويّة وجوب التقديم في أربع حالات:

الحالة الأولى: يجب تقديم ما له الصدارة في الكلام العربي، أو ما هو مضاف إلى ما له الصدارة.

والأسماء التي لها الصدارة في اللسان العربي هي ما يلي:

(١) أسماء الاستفهام.

(٢) أسماء الشرط.

(٣) «ما» التعجّبية.

(٤) «كم» الخبرية.

الحالة الثانية: يجب تقديم المحصور من المبتدأ أو الخبر.

الحالة الثالثة: يجب تقديم الخبر إذا كان المبتدأ نكرة لا يصح الابتداء بها، وقد فصل النحاة الأحوال التي يجوز فيها الابتداء بالنكرة.

الحالة الرابعة: يجب تقديم ما حقّه التأخير إذا كان فيما حقّه التقديم ضمير يعود عليه أو على شيء مما يتصل به، وذلك لئلاّ يعود الضمير على متأخّر لفظاً ورُتبة.

* * *

خاتمة:

ما سبق بيانه من ترتيب عناصر الجملة في اللّسان العربي هو الأصل، وقد يخالَفُ هذا الأصل للحاجة الشعرية أو لمراعاة السّجع، وقد يخالفُ هذا الأصل لدواعي بلاغية فكريّة أو جمالية سيأتي إن شاء الله الحديث عنها، وَهذا ما يعتني به علماء البلاغة في بياناتهم التفصيلية.

وقد اعتنىٰ علماء البلاغة ببيان الدواعي البلاغية لتقديم المسند إليه في الجملة الفعلية، إذْ رُتبته فيها التأخير عن المسند، مع عرض بعض الأمثلة. وببيان الدواعي البلاغية لتقديم المسند إليه في الجملة الاسمية التي يكون خبرها أو ما يتصل به ممّا يتحمّل ضمير المبتدأ، كاسْمي الفاعل والمفعول مذكورين أو مقدّرين، مع عرض بعض الأمثلة وببيان الدواعي البلاغية لتقديم المسند في الجملة الاسمية، إذْ رتبته فيها التأخير عن المسند إليه. وببيان الدواعي البلاغية لتقديم المفعول به عن رتبته، مع عرض بعض الأمثلة.

وذكر علماء البلاغة أنّ من عَرف هذه الدواعي أمكنه أن يقيس عليها دواعي التقديم والتأخير في سائر عناصر الجملة في اللّسان العربي.

* * *

(٢)

نظرة تحليلية عامّة إلى دواعي التقديم

لمَّا كانت الجملة الفعلية هي الدرجة الأولى الدنيا في سلّم البيان عمّا يُراد التعبير عنه في اللّسان العربي، وكان الأصل فيها بمقتضىٰ النظام المتبع فيه أنْ يصدرّ فيها المسند وما يقترن به من أدوات «وهو الفعل» وأن يأتي بعده المسند إليه «وهو الفاعل أو ما ينوب منابه» كما ذكرت في المقدمة السابقة، كان تغيير هذا

النظام بتقديم المسند إليه على المسند غير مستحسن إلاَّ إذا اقتضته ضرورة أو حاجة كالوزن الشعري، ومقتضيات السّجع، أو دعا إليه داعٍ بلاغيّ معنوي أو جمالي في اللفظ.

وقد درج ذوق الناطق العربيّ الفصيح على أن يكنّي عمّا سبق له أن ذكره بضمير ظاهر أو مستتر، مع العلم بأنَّ الضمير المستتر ملاحظٌ ذهناً، لذا فله حكم الضمير الظاهر، ولو كان ستره وعدم ذكره أمراً واجباً في أسلوب التعبير العربيّ الفصيح.

فإذا أراد الناطق العربي القُحُّ الفصيح أن يخبر مثلاً بنزول المطر في موسم نزوله، ولم يجد أنّ من يخاطبه منكر، ولم يجد أنّ عليه شيئاً من علامات الإنكار، وليس له غرض يقتضي منه أنْ يغيّر النظام الأوليَّ للكلام، فإنّه يقول عمّا حدث في الماضي: «نَزَل المطر» ويقول عمّا يجري حدوثُه مع كلامه: «يَنْزِل المطر» ولا يجد داعياً لأنْ يقدّم المسند إليه فيقول: «المطر نزل» أو «المطر ينزل».

لكن إذا وجّه كلامه لمن سبق أن أَخْبَرَ بناءً على دلائل الأرصاد الجويّة بأنّ المطر لا ينزل خلال أربع وعشرين ساعة، فجاء الواقع على خلاف ما أخبر، أو أراد بشارة أهله أو قومه بنزول المطر الذي يترقبونه لحاجتهم إليه، أو أراد أن يُعَبِّر عن اهتمامه بحصول هذا الحدث، أو كان الموسم موسِماً يُسْتَغْرَبُ فيه نزول الأمطار، أو كان يُرِيدُ التعبيرَ عن فرحته، أو الثناءَ على نوع المطر النازل، أو التوطئة للثناء على الله الّذي أنزله، أو التوطئة للحثّ على شكر الله على نعمته، أو نحو ذلك من مقتضيات التقوية والتأكيد، أو مقتضيات البدء في الجملة بذكر ما هُو الأهمُّ في نفسه أو نفس المخاطب، كان من المستحسن أن يُعبِّر بأسلوب يُشعِرُ بتقوية الخبر، أو بما يلائم مقتضىٰ الحال، ومن الأساليب المؤديّة للأغراض السابقة تقديم المسند إليه على المسند، فيقول بمقتضى سليقته في تذوّق أساليب

الكلام العربـي: «المطر نَزَل» أو «المطر يَنْزِل» شاعراً بأن المخاطَبَ العربـيّ الْقُحَّ يفهم من هذه الصيغة قوَّةً وَتأكيداً، أو غرضاً ما تساعد على فهمه القرينة، وهذا الغرض دعاه إلى تقديم المسند إليه على المسند.

ويظهر للباحث من تحليل عبارة «المطر نزل» أو عبارة «المطر ينزل» أنّهما تشتملان على عاملين غير موجودين في: «نزل المطر» وفي «يَنْزِل المطر» وهما:

العامل الأول: تقديم لفظ المسند إليه «المطر» المشعر بأنَّه محل اهتمام المتكلّم أو المخاطب، إذ الأصل فيه التأخير، ومعلومٌ أنّ النفس تتّجه دواماً للبدْءِ بما هو محلُّ اهتمامها.

العامل الثاني: شعور الناطق العربـي الْقُحّ بأن في فعل «نزل» المتأخر عن «المطر» وفي فعل «ينزل» أيضاً ضميراً مستتراً يعودُ على المطر، فهو في عبارتَيْهِ يلاحظ أنّه يُسْنِد النزول إلى المطر مرّتين، ففي الأولى يُسْنِدهُ إلى لفظ «المطر» وفي الأخرى يسنده إلى ضميره المستتر.

وقد يُحَوِّل الناطق العربـيّ الْقُحُّ تعبيره إلى جملة مبتَدَؤُها وخبرها اسمان وفيها تحقيق ما يريد من قوّة، وما يريد من إشعارٍ بالْبَدْءِ بما هو محَلُّ اهتمامه، أو محلُّ اهتمام المخاطب، فيقول: «المطرُ نَازِلٌ من السماء» أو «المَطَرُ مُنَزَّلٌ من السماء» إذْ يُدرِكُ أنّ في الخبر «نَازِل ــ مُنزّل» ضميراً مستتراً يعود على المبتدأ، فالأول «اسم فاعل» والثاني «اسم مفعول» وهما يحملان الضمير كالفعل، ويعملان عمله.

وقد نلاحظ في استعمالات العرب الفصحاء البلغاء لتقديم المسند إليه وفق البيان السابق، أنّ التقوية المستفادة من هذا التقديم قد ترقَىٰ إلى مستوىٰ التخصيص والحصر، ولا سيما المسند إليه المسبوق بنفي، مثل أن يقول المتهم بسرقةِ مَنْزِلٍ

حصلت فيه سرقَةٌ فعلاً: «ما أنا سرقتُ المنزل» أو «ما أنا سارقٌ المنزل» أي: بل غيري هو الذي سرقه، فقَصَرَ نَفْي السّرقة على نفسه، ولم يَنْفِ حصول السرقة نفياً كليّاً.

يضاف إلى ما سبق أنّ ما يعتني الإنسان بتفخيمه وتعظيمه في كلامه يحاول تقديمه على غيره في الذكر، كما يقدَّم العظماء في المجالس والمواقف.

وكذلك ما يريد توجيه العناية له في أمْرٍ من الأمور، نظير تقديم العروسين في ليلة عرسهما، وتقديم المتخرجين لتسليمهم شهاداتهم، وتقديم المتفوقين لتسليمهم جوائز تفوّقهم.

وعلى نظير ذلك نلاحظ البدء بطرق المسامع بالمسند إليه في مجال الافتخار، ولدى إرادة تعجيل المسرّة بالبشرى والوعد ونحوهما، أو تعجيل المسَاءَة بالإنـذار والـوعـيد ونحوهما، ولدى الرغبة في تعجيل التلَذُّذ بذكره، ولدى الإشعار بأنّه حاضر في التصوّر لا يغيب عنه، فهو يَسْبِقُ غيره إلى النُّطق به، ولدى الإشعار بالاهتمام بمدحه أو ذمّه، إلى غير ذلك ممّا قد يلاحظه فطناء البلغاء.

وفي كلّ الأحوال ترجع مزايا التقديم إلى أمرين رئيسين:

الأمر الأول: ما يفيد زيادةً في المعنىٰ وزيادةً في جمال اللفظ، وهذا غاية ما يعتني به البلغاء في هذا المجال.

الأمر الثاني: ما يفيد زيادةً في أحدهما فقط، ويدخل هذا أيضاً ضمن مقاصد البلغاء.

أمّا ما يتكافأ فيه التقديم والتأخير فلا يهتم له البلغاء، وأمّا ما يختلُّ به المعنى أو يفقد عنصراً من عناصر جمال اللّفظ فيتجافون عنه وينفرون منه.

* * *

(٣)

دواعي تقديم المسند إليه

من البيان السابق نستطيع استخلاص طائفةٍ من دواعي تقديم المسند إليه على المسند حينما يكون الْمُسْنَد فعلاً، أو اسماً ممّا يتحمّل الضمير كالفعل، إذْ يعمل مثل عمله، ولو كان محذوفاً من اللفظ إلاَّ أنّه مقدّر ذهناً كمتعلّق الظرف والجار والمجرور أحياناً.

والطائفة التي نستخلصها هي ما يلي:

الداعي الأول: تقوية الحكم الذي دلّت عليه الجملة وتوكيده على ما سبق به البيان.

الداعي الثاني: إرادة إفادة اختصاص المسند بالمسند إليه، إذا كان في السّباق أو السياق أو القرائن الأخرى ما يساعد على ذلك، كالرّدّ على مدّعي خلافه، فإذا كان يدّعي انفراد غيره به، أو مُشَاركته له فيه قال له: «أَنَا فعلتُه» أي: فعلته وحدي.

الداعي الثالث: الرغبة في تعجيل المسرّة، أو تعجيل المساءة، وذلك في مواطن البشرى والوعد، ومواطن الإنذار والوعيد.

الداعي الرابع: الإشعارُ بأنه حاضرٌ في التصوّر لا يغيب، لذلك فهو يسبق غيره في التعبير، فيبدأ اللّسان بالنطق به.

الداعي الخامس: الرغبة في تعجيل ذكره، لما يحصل في النفس من مشاعر لذّة، إذ هو محبوبٌ لديها، ومعلومٌ أنّ المحبّ يتلذّذ بذكر اسم محبوبه.

الداعي السادس: مراعاة حال المخاطب الذي يسُرُّه البدء بالمسند إليه، لتشوّقه إلى معرفة أخباره، أو استئناسه أو تلذّذه بسماع اسمه.

الداعي السابع: الرغبة في البدء بالمسند إليه تفاخراً، في المواطن التي يكون ذكر المسند إليه فيها يُشعر بالفخر، كأن يقول من يريد الفخر من الطائيين: «حاتم الطائي جدي» وكأن يقول الشريف: «محمّد رسول الله جدي» ومنه قول سيدنا «علي بن أبـي طالب» رضي الله عنه في غزوة خيبر:

أَنَـا الَّـذِي سَمَّتْنِـي أُمِّـي الْحَيْـدَرة ... كَلَيْـثِ غَـابَـاتٍ غَلِيـظِ الْقَصَـرةِ
أَضْـرِبُ بِـالسَّيْـفِ رِقَـابَ الكَفَـرَة ... أَكِيلُكُـمْ بِـالسَّيْـفِ كَيْـلَ السَّنْـدَرَة

حَيْدَرَة: من أسماء الأسد، قال ابن الأعرابـي: الحيدرةُ في الأُسْدِ مثل الملك في الناس.

القَصَرَة: العنق وأصْلُ الرقبة.

السَّنْدَرة: مكيالٌ كبير.

فقدم المسند إليه «أَنَا» مفاخراً في مقام يحْسُنُ فيه الفخر، لأنَّه يقاتل الكفَرَة أعداء الله.

الداعي الثامن: كون المسند إليه أمراً مستغرباً أو مفاجئاً أو نادِراً أو مخيفاً، مثل: «الحيتانُ العظمىٰ أقبلت إلى الشاطىء ــ الجنُّ لها مساكن في أمّ القرى ــ جيش العدوّ دخل المدينة ــ بَقرةٌ تكلّمت ــ الكنْزُ ظهَرَتْ مَعَالِمُه».

الداعي التاسع: الرّغبة في الإِسراع بالتبرك، ويظهر هذا في أسماء الله الحسنىٰ.

الداعي العاشر: الاهتمام بالممدوح بتقديم اسمه في الجملة، كقولي من قصيدة:

مُحَمَّـدٌ أنـت مَـا أَحْـلاَكَ تَسْمِيَـةً ... اللَّـهُ سَمَّـاكَهَـا والحمـد مُنْتَظَـرُ

لقد حَسُن في مدح الرسول البدءُ بذكْر اسمه.

وفي تقديم لفظ الجلالة«الله» ما يشعر بالتفخيم والتعظيم، وهذا من الدواعي أيضاً كما يأتي.

الداعي الحادي عشر: إرادة التفخيم والتعظِيم، كأن يسأل سائل: ما بال أهل مدينتنا ينصبون الزّينات في الشوارع وعلى الأبنية وعلى الحافلات وكلّ السّيّارات، وبالتلقائيّة يأتيه الجواب: مَلِكُ البلاد سيزورنا قريباً.

الداعي الثاني عشر: إرادة تمكين المسْنَد، لأنّ في المسند إليه تشويقاً إليه.

إلى غير ذلك من دواعي تتفتّقُ عنها قرائح البلغاء.

* * *

ملاحظتان

الملاحظة الأولى: حول كلمتي «مثل ــ غير».

ذكر علماء البلاغة أنّ كلمتي «مثل» و «غير» تلازمان التقديم في التراكيب البليغة، إذا أُرِيد بهما الكناية عن الشخص الذي يجري الحديث عنه. كأنْ تقول له:

● «مثْلُكَ لاَ يَبْخَل ــ مثلُكَ لا يقصر في فعل الخير ــ مثلك لا يترك الصلاة المفروضة عامداً».

أي: أنت لا تفعل ذلك، دون أن تريد التعريض بغيره، مُومِئاً إلى أن من تُعَرّضُ به يتصف بالبخل، أو بالتقصير في فعل الخير، أو بترك الصلاة المفروضة عمداً.

● «غَيْرُك يُسِيءُ إلى أصدقائه ــ غيرك لا يُعاشر أهْلَهُ بالمعروف ــ غيرُكَ يمنَعُ الزكاة.

أي: أنت لا تسيءُ إلى أصدقائك ــ وأنت تُحْسِن معاشرة أهلك بالمعروف ــ وأنت لا تمنع الزكاة، دون أن تريد التعريض بغيره، مُومِئاً إلى أن من تعرّض به يسيءُ إلى أصدقائه، أو لا يعاشر أهله بالمعروف، أو يمنع الزكاة.

● ومنه قول المتنبي من قصيدة يُعَزِّي بها أبا شجاع عضد الدولة وقد ماتتْ عمّته:

مِثْلُكَ يَثْني الْحُزْنَ عَنْ صَوْبِهِ ... وَيَسْتَرِدُّ الدَّمْعَ عَنْ غَرْبِهِ
وَلَمْ أَقُلْ «مِثْلُكَ» أَعْنِي بِهِ ... سِوَاكَ يَا فَرْداً بِلاَ مُشْبِهِ

يَثْنِي: أي: يَعْطِفُ ويَصْرِف.

عَنْ صَوْبِهِ: أي: عن قَصْدِه.

عن غَرْبِهِ: أي: عن مجراه. **الْغَرْبُ**: مجْرَىٰ الدَّمْعِ وَجمعه «غُروب».

والمعنى: أنت تقدر أن تَعْطِفَ وتصرفَ الحزْنَ عن قصده حين يتوجه لنفسك وقلبك، بالحكمة والصّبْر.

وأنت تستطيع أن تسترجع بقوّة احتمالك وبالغ عزمك الدمعَ عن مجراه، وتمنعَهُ من متابعة الجري.

* * *

الملاحظة الثانية: على خلاف ما ذكر البلاغيون فإنني لست أرى أن يُلْحق بباب التقديم والتأخير البلاغي تقديم أداة النفي على اللفظ الدالّ على العموم، ولا تقديم اللفظ الدالّ على العموم على أداة النفي، فهذه قضية فكرية تتصل بأصل بناء الكلام في أدائه للمعاني، وهي ترجع إلى قاعدة «سَلْبِ العموم أو عُموم السلب» فإذا سُلِّط النفي على العموم لم يلزم منه نفي جميع الأفراد، لأنّ المنفيّ حينئذٍ هو

العموم لا جميع أفراده، وإذا سُلّط العموم على المنفي بأداة النفي فإنّه يَدُلُّ حينئذٍ على نفي جميع الأفراد.

فإذا قلنا: «ليس كل إنسان كاتباً» بتسليط السَّلْب على العموم فمعنى هذه الجملة أنّ بعض الناس غير كاتب، وهذا حكم صادق.

وإذا قلنا: كُلُّ إنسان ليس كاتباً» بتسليط اللفظ الدال على العموم على الجملة المنفيّة «المسلوبة» فمعنىٰ هذه الجملة أنه لا أحد في الناس هو كاتب، وهذا حكم كاذب غير صحيح.

فمعني كلٍّ من الجملتين قد أُخِذَ عقليّاً من تسليط النفي على العموم، ومن تسليط العموم على النفي، ولم يُؤْخَذْ من دواعي بلاغية، وهذا الموضوع هو من اهتمامات علماء المنطق وعلماء أصول الفقه، وقد شرحتُه في مقولةٍ خاصة في كتابي: «ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة»[1].

انظر إلى قول القائل: «كُلُّ كبائر الإثم لم أرتكبها» فإنّك تجد أنّ هذا الكلام يفيد أنه لم يرتكب شيئاً من كبائر الإثم، ولذلك قد يعترض عليه بمثل قول القائل: «بل ارتكبْتَ بعضها».

ثم انظر إلى قول القائل: «لم أرتكبْ كُلَّ كبائِرِ الإثْم» فإنّك تجد أنَّ صاحب هذا الكلام لا ينفي عن نفسه أنّه ربما ارتكب بعض كبائر الإثم، من أجل هذا لم يصحّ أن يُعتَرضَ عليه بمثل قول القائل: «بل ارتكبت بعضها» لأنّ هذا أمر لم ينفه عن نفسه، وإنما قد يُعْتَرض عليه بمثل قول القائل: «بل ارتكبْتَ جَميعَ كَبَائر الإثم» إذا كان قد ارْتكبَهَا فِعلاً.

---

(١) انظر فيه بحث «القضايا وأقسامها» مقولة «التحقيق في عموم السلب وسلب العموم».

فقول أبي النجم:

قَدَ أَصْبَحَتْ أُمُّ الخِيَارِ تَدَّعي عَلَيَّ ذَنْباً كُلُّهُ لَمْ أَصْنَعِ

يفيد أنه لم يصنع شيئاً منه، لأنّه قدّم أداة العموم على أداة السلب.

أمثلة وتطبيقات

أُقدّم أمثلة وتطبيقاتٍ قد لا تكون شاملة لكل دواعي تقديم المسند إليه على المسند الفعلي، والمسند الذي يتحمّل الضمير كالفعل، رجاءَ أن تكون هاديةً للدّارس الباحث البلاغي، فيقيسَ عليها، ويستخرج ما يراه من دواعي بلاغيّةٍ في مختلِف النُّصوص التي يدرسها من كتاب الله عزّ وجلّ، وأقوال الرسول ﷺ، وأقوال البلغاء من ناثرين وشعراء ذوّاقي الأدب الرفيع، وعناصره الإبداعيّة والجمالية:

المثال الأول: قول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) بشأن فريق من اليهود:

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

جملة: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُون﴾ جملةٌ حالية قُدِّمَ فيها المسند إليه على المسند الفعلي لتقوية الإسناد فيها وَتأكيده، لأنّ مقتضىٰ الحال يستدعي التقوية والتأكيد.

والسبب في ذلك أنّ هؤلاء كانُوا يكتبون مكتوبات يزعُمُون أنّها ممّا أنْزَل اللَّهُ في الكتُب على رسُلِهِمْ، ويتخذون مع ذلك حيلةً لترويج ما كتبوه وافتروهُ على اللَّهِ

بغية أن يقبله عوامُّهم، وهي أن يَلْوُوا أَلْسِنَتَهُم به لدى تلاوته، كما يفعلون لدى تلاوة ما أَنْزَل الله من كتاب، فيخلطون المدسوس الذي هو من افترائهم بالأصل الصَّحِيح، للإيهام بأنّه من كتاب الله، وهم بذلك يقولون على اللَّهِ الكذب، ويعلمون ذلك من أنفسهم.

لكنّهم لا يعترفون بأنّهم يكذبون، فاقتضىٰ واقع حالهم سوق الكلام لهم بطريقة فيها تقوية وَتأكيد، فجاء في الجملة تقديم المسند إليه على المسند الفعلي، لما في هذا التقديم من تقوية وتأكيد، كما سبق بيانه في المقدمة.

مع ما في تأخير المسند من داعٍ جمالي في اللّفظ، وهو مراعاة التناظر في رؤوس الآيات قبل الآية وبعدها.

* * *

المثال الثاني:

قول أبي العلاء «أحمد بن عبد الله بن سليمان المعرّي» من أبيات يرثي بها أحد الفقهاء:

بَانَ أَمْرُ الإلَٰهِ وَاخْتَلَفَ النَّا   سُ فَدَاعٍ إلى ضَلالٍ وَهَادِي
وَالَّذِي حَارَاتِ الْبَرِيَّةُ فِيهِ   حَيَوانٌ مُسْتَحْدَثٌ مِنْ جَمَادِ

لقد صاغ جملةً اسميّةً في تابع خبرها ما يحمل ضميراً يعود على مبتدئها المسند إليه، فتمّ له تقديم المسند إليه في جملته الاسميّة التي فيها تقوية وتوكيد.

والداعي إلى هذا التقديم تمكينُ المسند في ذهن المتلقّي، لأنَّ في المسند إليه «المبتدأ» هنا تشويقاً للتعرّف على خبره، إذ جاء فيما يتّصل به أنّه شيءٌ حارتْ البريَّةُ بأمره، فالنفس تتساءل بشوق: ما هذا الذي حارت البريّةُ فيه؟

ويأتي الجوابُ في الخبر: «حيوانٌ مستحدثٌ من جماد» والمرادُ الإنسانُ وسائرُ ما خلق الله من ترابٍ فنفخ فيه نسمة الحياة.

* * *

المثـال الثالـث:

قول الله عزَّ وجلّ في سورة (الحجرات/ ٤٩ مصحف/ ١٠٦ نزول):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾.

فإنّ في المسند إليه «أكرمكم» الذي هو اسم «إنَّ» تشويقاً للتعرّف على الخبر وهو «أتقاكم» فإذا جاء الخبر بعد ذلك تمكن من النّفس لأنه جاء بعد تساؤلٍ نَفْسِيٍّ عنه.

* * *

المثـال الرابـع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

فَهُم يُوزعون: أي فهم يُجْمعون في مكان جامعٍ، ويُرَتَّبُونَ صفوفاً ويُسَوَّوْن بانتظام، للقيام بما يكلفون من أعمال، أو للاستعراض.

أصل الوزْعِ: الكفُّ والحبْسُ، والمراد كفُّهم ـ بترتيبهم صفوفاً منتظمةً ـ عن التفرق والانتشار، ومعلوم أنّ الجنود حينما يُجْمعون صفوفاً مُسوَّاة منتظمة يسْهُل توجيهُ الأوامر والنواهي لهم للتحرّك والتوقف، من قِبَلِ وليّ أمرهم القائد.

وقد جاء تقديم المسند إليه في هذه الجملة لتأكيد الخبر باعتباره أمراً غريباً، إذْ من المستغربِ أن يُجْمَعَ جَيْشٌ واحدٌ في مكان جامعٍ، ويُنَظَّمَ صفوفاً مُسَوَّاةً، وأن يكون جُنُودُ هذا الجيش من الجنّ والإِنْسِ والطير.

مع ما في تأخير المسنَدِ من داعٍ جماليٍّ في اللّفظ، وهو مراعاة التناظر في رؤوس الآيات.

* * *

المثال الخامس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) بشأن القرآن:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾.

يُلاحظُ في هذه الآية تقديم المسند إليه، باختيار كون الجملتين فيهما اسميّتَيْن خبرُهما يتحمّل ضميراً يعود على المسند إليه فيهما.

ويظهر لنا من هذا التقديم عدّة دواعي بلاغية:

(١) ابتداءُ طَرْقِ الأسماع بضمير المتكلّم العظيم، لإلقاء المهابة والإجلال ومشاعر التعظيم والتفخيم.

(٢) تمكين الإسناد الخبريّ فيهما وتوكيده، بالعدول عن اختيار الجملة الفعلية، إلى اختيار الجملة الاسميّة التي يتحمّل خبرها ضمير المبتدأ.

(٣) التوطئة لإيراد مؤكّداتٍ تلائمها الجملة الاسميّة، وهي: (حرف التوكيد «إنّ» وضمير الفصل «نحن» في الجملة الأولىٰ) و (حرف التوكيد «إنّ» واللاّم المزحلقة، وتقديم معمول الخبر «له» المفيد للتخصيص في الجملة الثانية).

* * *

المثال السادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝٦٩﴾.

حَنِيذٍ: أي: مَشْوِي، يقال لغة: حَنَذَ العِجْلَ ونَحْوَه يَحْنِذُهُ حَنْذاً وتحْنَاذَا إذا شَوَاه، بأنْ دسّه في النار أو في حجارة مُحْمَاةٍ بالنا، .

نلاحظ في هذه الآية أنّ الرسُلَ من الملائكة لما جاءوا سيدنا إبراهيم عليه

السلام ليبشّروه بغلام من زوجته «سارة» العجوز العقيم، على صور بشرٍ، لم يعرفهم في أول الأمر، وظنّهم ضيوفاً من الناس، فسلموا عليه سلاماً ابتدائياً بجملة فعليّة حُذِف فعلُها، وأبقي منها المفعول المطلق منصوباً بالفعل المحذوف، فقالوا: «سَلاماً» أي: نُسلّم عليكَ سلاماً.

فردّ إبراهيم عليه السلام تحيّتهم بأحسن منها، فجاء بجملة اسميّة هي أقوى وآكد من الجملة الفعليّة، فقال: «سَلَامٌ» بالرّفع، أي: سلامٌ عليكم، سواءٌ اعتبرنا «سلامٌ» مبتدأ، وهذا ممّا يجوز فيه الابتداء بالنكرة، لأنه من المصادر، فعبارة «عليكم» المحذوفة إيجازاً، هي جار ومجرور متعلقان بخبر محذوف هو اسم فاعلٍ من الكون العام، وهو يتحمل الضمير كالفعل، وتقديره: سلامٌ كائنٌ عليكم، وقد سبق أن عرفنا أنّ الجملة الاسمية التي يتحمل خبرها أو ما يتعلّق به ضمير المبتدأ أقوى وآكد من الجملة الفعليّة، أو اعتبرنا «سلامٌ» خبر مبتدأ محذوف تقديره: تحيتي سلام عليكم، فلفظ «سلام» مصدر يعمل عمل الفعل، فهو بقوة الجملة الفعلية.

* * *

المثال السابع:

لَامَ عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بني أميّة على قبولهم استخلاف عُمَرَ بن عبد العزيز، لمّا أخذ هذا الخليفة الصالح التقيّ يردّ المظالم إلى أهلِها، ويحاسب الأمويين بالعدل وهم أهله الأقربون، وقد غَلُظ عليهم ما نالهم منه، فقال عبد الرحمن:

فَقُــلْ لِهِشَــامٍ والــذيــن تَجَمَّعُــوا ... بِدَابِقَ: مُوتُوا لَا سَلِمْتُمْ مَدَى الدهْرِ
فَــأَنْتُــمْ أَخَــذْتُــمْ حَتْفَكُــمْ بِــأَكُفِّكُــمْ ... كَبَـاحِثَـةٍ عَـنْ مُـدْيَـةٍ وَهْـي لَا تَـدْرِي
عَشِيَّــةَ بَــايَعْتُــمْ إمَــامــاً مُخَــالِفــاً ... لَــهُ شَجَــنٌ بَيْــنَ الْمَــدِينَــةِ والْحِجْــرِ

دابق: هو المكان الذي اجتمع كبار بني أُميَّة فيه، وبايعوا عمر بن عبد العزيز خليفة.

حَتْفَكم: أي: هلاككم.

كَبَاحِثَة: أي: كامْرأةٍ خَرْقَاءَ تحفِرُ الترابَ بكفّيهَا على غير هدى فقد تقع يداها على ما يقطعهما، كالْمُدْية.

عنْ مُدْية: الْمُدْيَةُ الشَّفْرة العظيمة.

له شَجَنٌ: أي: له حاجةٌ دِينيَّةٌ شاغلةٌ له في مكة والمدينة، صارفة له عن مطالب الدنيا.

نلاحظ أنَّه قدّم المسند إليه على الخبر الفعلي بقوله لبني أميّة أَهْلِه: «فَأَنْتُمْ أَخَذْتُمْ حَتْفكُمْ بِأَكُفِّكُم» ليقوّي خبره ويؤكّده، وهو أنهم قد وقعوا في خطأ جسيم حينَ بايعوا عمر بن عبد العزيز، وهو تقيٌّ ورع، عَلائِقُ قلبه ونفسه موصولة بمهابط الوحي، وليس هو على طريقة أُسْرَته من بني أميّة مُغْرَماً بالسلطان وزينة الحياة الدنيا، وظاهرٌ أنّ مقتضى الحال يتطلب منه التقوية والتأكيد.

وقد ردّ عليه أحد ولد مروان معارضاً ومؤنِّباً بأبيات على مثل أبياته وزناً وقافية، وخاطبه بمثل طريقته من التقوية والتوكيد.

* * *

المثـال الثامـن:

قول أبـي الطيب المتنبـي من قصيدة يعتذر فيها لسيف الدولة عن تأخّره عليه في نظم قصيدةٍ جديدة يمدحه بها، ذاكراً فيها أنّ عُذْرَه ما نزل به من همٍّ أسقمه، وأضرم ناراً في قلبه، دون أن يكون هو الذي جلب هذا الهمّ إلى نفسه، ودون أن يكون قادراً على دفعه:

وَمَا أَنَا أَسْقَمْتُ جِسْمِي بِهِ ... وَمَا أَنَا أَضْرَمْتُ فِي الْقَلْبِ نَارَا

نلاحظ أنّه قدّم المسند إليه المسبوق بالنفي في الشطرين لإفادة التخصيص مع التقوية والتوكيد، فلخبر فعليٌّ.

والمعنى: إنّ السّقم الذي نزل بجسمي من الهمّ، والنّارَ التي أُضْرِمَتْ في قلبـي منه، لم يكونا مني حتى أُلَام على تأخّري عنك، بل وفَدا عليّ من قوّةٍ قاهرةٍ لإرادتي، فلم أجلُبْهما ولم أسْتَطع رَدَّهُما، ولذلك قال بعده في القصيدة:

فَـلاَ تُلْـزِمَنِّـي ذُنُـوبَ الـزَّمَـا ... نِ إلـيَّ أَسَـاءَ وَإِيَـايَ ضَـارا

ضارَ: مثل «ضَرَّ» يقال: ضارَهُ يَضِيرُهُ ضَيْراً، وضرَّهُ يضُرُّهُ ضُرّاً وضَرّاً.

ونظيره قول المتنبّي أيضاً يمدح علي بن عامر الأنطاكي:

وَمَا أَنَا وَحْدِي قُلْتُ ذَا الشِّعْرَ كُلَّهُ ... وَلَكِنْ لِشِعْرِي فِيكَ من نَفْسِهِ شِعْرُ

فقدم المسند إليه المنفيّ الذي خبره فعلي، لإفادة التقوية والتخصيص، أي: ما أنا المنفرد وحدي بقول هذا الشعر، ولكن أعانني عليه شعري نفسُه، لأنّ شعري أرادَ مدحَكَ كما أرَدْتُه.

قال الْعُكْبَري: وهو معنى قول الطائي:

تَغَـايَـرَ الشِّعْـرُ فِيـهِ إذْ أَرِقْـتُ لَـهُ ... حَتَّـىٰ ظَنَنْـتُ قَـوَافِيـهِ سَتَقْتَتِـلُ

تَغَايَرَ: أي: غار بعضه من بعض، أو تخالَفَ بعضه مع بعض.

* * *

المثـال التاسـع:

قول الرسول ﷺ يوم حنين وهو على بغلته كما جاء عند البخاري ومسلم:

أَنَـــا النَّبِـــيُّ لاَ كَـــذِبْ ... أَنَـــا ابْـــنُ عَبْـــدِ الْمُطَّلِـــبْ

فقدَّم المسندَ إليه في جملة اسمية خبرها يحملُ ضمير المبتدأ، مفتخراً بثباته

وقد فرَّ الناس، ومفتخراً بنبوّته وبنسبه الشريف، لأنّ المقامَ يحسُنُ فيه الفخر، وقد علمنا أن من دواعي تقديم المسند إليه إرَادةَ الافتخار.

* * *

المثـال العاشـر:

قول أبـي تمّام:

وغَيْرِي يَأْكُلُ الْمَعْرُوفَ سُحْتاً ... وَتَشْحَبُ عِنْدَهُ بِيضُ الأَيَادِي

سُحْتاً: السُّحْتُ: المال الحرام، وكلُّ ما خَبُثَ وَقَبُحَ من المكاسب، كالرشوة والْغُلُول والربا.

تَشْحَبُ: يتغير لونها. يريد أنّ بِيضَ الأيادي تظلّ عنده بيضاء فهو لا يجحدها ولا يكفرها.

قدّم كلمة «غير» إذْ أراد بها الكناية عن نفسه، وقد عرفنا أن كلمتي «غير» و «مِثْلَ» تلازمان التقديم إذا أريد بهما الكناية عن الشخص المتحدَّث عنه في الأساليب العربيّة البليغة.

* * *

(٤)
دواعي تقديم المسند إذا كان الأصل فيه التأخير

ذكر علماء البلاغة من الدواعي البلاغية لتقديم المسند إذا كان الأصل فيه التأخير أربعة أمور، ويمكن أن نضيف إليها كثيراً من الدواعي التي سبق بيانها لتقديم المسند إليه إذا كان الأصل فيه التأخير، وكذلك غيرها من الدواعي مما تتفتّق عنه قرائح البلغاء الأذكياء.

الداعي الأوّل: تخصيص المسند بالمسند إليه، أي: قَصْرُ المسند على

المسنَدِ إليه، فلا يكون لغيره، وسيأتي إن شاء الله في بحث القصر بيان القصر الحقيقي والقصر الإضافي.

أمـثـلـة:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

في هذه الآية جملتان قدّم فيهما المسند على المسند إليه، هما:

- ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾.
- ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾.

والجملتان اسميتان، والأصل فيهما تقديم المسنَدِ إليه، وقدم فيهما المسند لإفادة التخصيص بمعنى القصر، وإليك التحليل:

المسند	المسند إليه
له	الحمد في الأولى والآخرة
له	الحكم

اللام بمعنى الاختصاص، أي: اختص الله بكلّ الحمد وبكلّ الحكم، بمعنى أنّ كلَّ الحمد وكلّ الحكم مقصوران عليه، لا يتعديان إلى غيره سبحانه.

(٢) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ... ﴾[الآية ٤].

هذه جملة اسمية، والأصل فيها تقديم المسند إليه، وقُدّم فيها المسند لإفادة التخصيص، أي: الحصر، وإليك التحليل:

المسند	المسند إليه
لِلَّهِ	الأَمْرُ

اللاّم بمعنى الملك، والجار والمجرور متعلقان بخبر مقدم مقدّر، والمعنى اختصّ مِلْكُ الأمر بالله، أي: كلّ الأمر مقصور ملكه على الله سبحانه، لا يتعدّاه إلى غيره.

ونظير ذلك قول الله عزّ وجلّ في سورة (الكافرون/ ١٠٩ مصحف/ ١٨ نزول):

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾.

(٣) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ۝٩٧﴾.

الشاهد: جملة ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ﴿إِذَا﴾ فجائية ﴿هي﴾ ضمير القصة، وهو مبهم جاء تفسيره في الجملة بعده، ويؤتَى في البيان العربي بضمير القصة لتعظيم الأمر المبهم الذي سيأتي تفسيره.

﴿شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كفَرُوا﴾ جملةٌ قُدِّم فيها الخبر وهو ﴿شاخصة﴾ على المبتدأ وهو ﴿أَبْصَارُ الَّذِينَ كفَرُوا﴾ لإرادة التخصيص، على معنى تخصيص الشخوص بأبصار الذين كفروا يوم القيامة، دون غيرهم وهم أهل الإيمان.

(٤) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول): بشأن عباد الله المخلَصِينَ في جنّات النعيم:

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝٤٥ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ۝٤٦ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۝٤٧﴾.

غَـوْل: الْغَوْلُ ما يحدثه شرب الخمر من صداع وسكر، والغول الإهلاك، يقال: غاله غَوْلاً إذا أهلكه.

يُنْـزَفُـون: يَسْكَرُون ــ تذهبُ عقولهم، يقال لغة: شرب خمراً فأنزف، أي: سَكِر، أو ذهب عقله.

الشـاهـد: ﴿لَا فِيها غَوْلٌ﴾ قُدّم المسندُ هو ﴿فيها﴾ المتعلق بخبر محذوف مقدر، وأخِّر المسند إليه وهو ﴿غَوْلٌ﴾ لإفادة التخصيص، أي: خمر الجنّة مخصوصة بنفي الغول عنها بخلاف خمر الدنيا، فنفي الْغَوْلِ مقصورٌ على خمر الجنة لَا يَتَعَدَّاها إلى غيرها من الخمور، وهي خمور الدنيا.

والنصوص القرآنية الشواهد على هذا الداعي كثيرة.

* * *

الداعي الثاني: قالوا: التَّنْبيه من أوّل الأمر على أنّه خبرٌ لا نعت، إذا كان تأخيره قد يوهم ابتداءً أنّه نعتٌ للمسند إليه.

ويمكن أن نصوغ هذا الداعي بأن نقول: دفع سَبْقِ التوهّم إلى أنّه نعت، بالتَّنْبيه على أنه خبر مع بدء الجملة.

أمـثـلـة:

(١) قول أبـي بكر بن النّطّاح في وصف أبـي دُلف العجلي:

لَـهُ هِمَـمٌ لاَ مُنْتَهـىٰ لِكِبَـارِهَـا   وَهِمَّتُـهُ الصُّغْـرَىٰ أَجَـلُّ مِـنَ الـدَّهْـرِ

أصل الكلام: «هِمَمٌ لَهُ لَا مُنْتَهَىٰ لِكِبَارِها» لكنّ هذه الصيغة توهم أنّ «لَهُ» صفة لهمم، لأنّ النكرة تستدعي النعت أكثر ممّا تستدعي الخبر، وهو يريد أن يُثبت لممدوحه هِمماً لا منتهىٰ لكبارها، ودفعاً للتوهم الذي كان يمكن أن يحدثُ قدَّم المسند وهو «له» على المسند إليه وهو «هِمَمٌ لا منتهىٰ لكبارِها».

وجاء في شعره فيه بعد هذا البيت قوله:

لَـهُ رَاحَـةٌ لَـوْ أَنَّ مِعْشَـارَ جُـودِهـا   عَلَىٰ الْبَرِّ كَانَ البَرُّ أَنْدَىٰ مِنَ الْبَحْر

فقدّم المسند وهو «له» على المسند إليه وهو «راحةٌ» لأنّ «راحة» نكرة غير موصوفة، فلا يجوز نحوياً الابتداء بها، فوجب تقديم المسند على المسند إليه وفق القواعد النحويّة، لا بمقتضى داعٍ بلاغي.

(٢) قول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول): بشأن عذاب الذين كفروا يوم القيامة.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾.

جاء في هذه النصوص تقديم المسند وهو ﴿لَهُمْ﴾ على المسند إليه وهو ﴿عَذَابٌ أليم ــ عذابٌ مقيم ــ عذاب عَظيمٌ﴾ لئلا يسبق إلى التوهّم أن المسند قد سيق على سبيل النعت للمسند إليه، وأن الخبر لم يأتِ بَعْدُ، مع ما في هذا التقديم من مراعاة داعٍ جمالي في اللفظ، اقتضته رؤوس الآيات.

* * *

الداعي الثالث: أن يكون في المسند ما يدعو إلى التفاؤل بالخير أو التشاؤم من الشرّ، ويريد موجّه القول المبادرة بما يحدثُ في نفس المتلقّي من التفاؤل أو التشاؤم.

كأن تقول لمن تريد أن يحسَّ بالتفاؤل: مع أذان الفجر أو عند شروق الشمس وِلادَةُ ابنك.

وكأن تقول لمن تريد إثارة تشاؤمه وقد سأل متى يكون زواجه: حين تصيح الْبُومةُ زَواجُك.

ومن إرادة الإِشعار بالتفاؤل، قول الشاعر:

سَعِـــدَتْ بغُـــرَّةِ وَجْهِـــكَ الأَيَّـــامُ وتَـــزَيَّنَـــتْ بِلِقَـــائِـــكَ الأَعْـــوَامُ

* * *

الداعي الرابع: إرادة التشويق إلى ذكر المسند إليه، ويكثُر هذا الداعي في المدح والوعظ.

● فمن أمثلته في المدح قول محمد بن وهب يمدح المعتصم:

ثَـلاَثَـةٌ تُشْـرِقُ الـدُّنْيَـا بِبَهْجَتِهَـا شَمْسُ الضُّحَىٰ وَأَبُو إِسْحَاقَ والْقَمَرُ

● ومن أمثلته في الوعظ، قول أبي العلاء المعرّي:

وَكَـالنَّـارِ الْحَيَـاةُ فَمِـنْ رَمَـادٍ أَوَاخِـرُهَـا وَأَوَّلُهَـا دُخَـانُ

● ومن أمثلته قول الشاعر:

ثـلاثَـةٌ لَيْـسَ لَهَـا إِيَـابُ الْـوَقْـتُ والْجَمَـالُ والشَّبَـابُ

* * *

(٥)

دواعي تقديم متعلقات الفعل عن مراتبها

ذكر عُلَمَاءُ البلاغة طائفةً من الدواعي البلاغية لتقديم ما هو من متعلقات الفعل عن مرتبته، ويمكن أنْ تضاف إليه طائفةٌ أُخرى مما سبق عرضه في تقديم المسند إليه، وتقديم المسند، وطائفةٌ أخرى ممّا تتفق عنه قرائح البلغاء الفطناء.

يُقْصَدُ من متعلقات الفعل المفعولُ به، والجارُ والمجرور، والظّرف، والمفعولُ المطلق، والمفعولُ معه، والمفعولُ لأجله، والحالُ، والتمييزُ في أحوال قليلة ونادرة.

الداعي الأوّل: إرادة التخصيص، وهو قَصْرُ الحكم (الناتج عن إسناد المسند

إلى المسنَدِ إليْه) على المقدَّم من مُتَعَلّقات الفعل على الفعل أو ما في معناه، ممّا يعمل عمله، وتُسَاعد القرائن على اكتشاف إرادة التخصيص.

أمثلة:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفاتحة/ ١ مصحف/ ٥ نزول): ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

إيَّاكَ: في الجملة الأولى مفعول به مقدّم على فعله وهو ﴿نَعْبُدُ﴾.

وإيَّاكَ: في الجملة الثانية مفعول به مقدّم على فعله وهو ﴿نَسْتَعِينُ﴾.

وقد أفاد هذا التقديم تخصيصَ وحَصْر عبادة العابد الذي يتلو هذه الآية باللّهِ عزَّ وجلّ، المخاطبِ بضمير الخطاب ﴿إِيَّاكَ﴾ وتخصيص وحصْر استعانته به إذا استعان.

(٢) قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ۝٤٠ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ۝٤١﴾.

الشاهد في جُمْلَتَي ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ۝٤٠﴾ و ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ۝٤١﴾ ففيهما تقديمُ المفعولِ بِه على فعله، وقد أفادَ هذا التقديم التخصيصَ والحصْرَ، والمعنى: لا ترهبوا غيري من الشركاء، ولا تتَّقُوا غيري من الشركاء.

(٣) قولي في مدح الرسول محمد ﷺ:

إِلَيْـهِ مَـدِيحـاً سُقْـتُ غُـرَّ قَصَـائِـدِي ... فَعَنْـهُ عَـرَفْـتُ النُّـورَ فـي ظُلُمَـاتِـي
وَفـي حُبِّـهِ السَّـامِـي أَجُـودُ بِمُهْجَتِـي ... فَـذَلِـكَ فَـرْضٌ مِثْـلُ فَـرْضِ صَـلاتِـي
إِذَا كَانَ ذُو الْعَرْشِ اصْطَفَاهُ عَلَى الْوَرَىٰ ... فحُبِّـي لَـهُ مِـنْ مُسْعِـدَاتِ حَيَـاتِـي

إليه مَدِيحاً: معمول لفعل ﴿سُقْتُ﴾ مقدَّمٌ عليه لإرادة التخصيص.

فَعَنْهُ: معمول لفعل ﴿عَرَفْتُ﴾ مقدّم عليه لإرادة التخصيص.

وفِي حُبِّهِ السَّامِي: معمول لفعل ﴿أجود﴾ مقدَّمٌ عليه لإرادة التخصيص من دون سائر عباد الله.

(٤) قول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول): خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ: أي: أَخُصُّهُ وَحْدَهُ بِتَوَكُّلي، وقَدْ فُهِمَ هذا من تقديم المعمول على عامله.

ونظير هذا كثير في القرآن مثل: ﴿وإِلَيْكَ أَنَبْنَا ــ إنّا إلى ربّنَا رَاغِبُونَ ــ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُون ــ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ــ إِلَيْه يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ــ وإلى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ــ﴾.

(٥) قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول): خطاباً للمؤمنين أتباع الرسول محمد ﷺ:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾ [الآية ١٤٣].

لِتكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَىٰ النَّاس: جاء في هذه العبارة تأخير المعمول ﴿على الناس﴾ على عامله «شُهداء» وفق أصل الترتيب، إذ لا يُوجَدُ داعٍ للتقديم، إذْ أتباع محمّد ﷺ مكلّفون أن يُبَلِّغوا رسالة الله للناس، ليكونوا يوم القِيامة شهداء عليهم بهذا التبليغ، وليست شهادتهم بعد تبليغهم خاصة بناس دون ناس، لأنّ الخطاب

لعموم المؤمنين، والمطلوب تبليغهم عموم غير المؤمنين، لا خصوص فريق منهم.

وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً: وجاء في هذه العبارة تقديم المعمول ﴿عليكم﴾ على عامله ﴿شهيداً﴾ على خلاف أصل الترتيب، لوجود داعٍ بلاغيّ لهذا التقديم، وهو أنّ بلاغَ الرسُولِ ﷺ بلاغٌ مخصوص بالْقَرنِ الأَوّل الّذينَ بلّغَهُمْ مُشَافهة من أُمّتِه، أمّا الّذِين جاءوا من بعدهم فقد بلّغهم المبلِّغُون من أهل القرن الأول، وهكذا تسلْسُلاً قرناً بعْدَ قرن.

لقد تنبّه إلى الفرق بين العبارتين في هذه الآية وإلى الداعي البلاغي الذي ذكرتُه «الزمخشريُّ» في كشّافه، وقد أحسن.

(٦) قول الله عزّ وجلّ في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) في بيان ما خاطب به المبشر من الملائكة زكريّا عليه السلام بغلام اسمه يحيىٰ، بعد أن أظهر له تعجُّبه من أن يأتيه غلام في حالة كون امرأته عاقراً وكونه قد بلغ من الكبر عتِيّاً:

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ ﴾.

هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ: في هذه الجملة تقديم المعمول ﴿عَلَيَّ﴾ على عامله ﴿هَيِّنٌ﴾ لإفادة أنَّ ما يراه أمْراً صعباً في مقاييس القدرات البشرية، هو بالنسبة إلى الله على وجه الخصوص هيِّنٌ، فاقتضىٰ حال زكريَّا عليه السلام وتَعجُّبه وتساؤله أن يُنَبَّهَ على أنَّ ما تعجَّبَ منه هو ممّا اختصَّ الله بِأنّه هَيِّنٌ عليه.

ملاحظة:

إذا كان العامل منفياً وقدّم عليه المعمول كانت دلالة التقديم على التخصيص والحصر أمراً لازماً، فلا يَجُوز أنْ يُتْبَعَ الْكَلَامُ بما يَنْقُضُ هذا الحصر، فلا يُقَالُ نحو: «ما زَيْداً ضَرَبْتُ ولاَ غَيْرَه» لأنّ عبارة «ما زيداً ضربتُ» تدلُّ على تخصيص

زيد بعدم ضربه، لكنَّها تُفِيدُ أَنَّه قَدْ ضَرَبَ غيره، فتأتي عبارة «وَلاَ غَيْرَه» ناقضةً للدّلالة التي أفادها التخصيص.

* * *

الداعي الثاني: الاهتمام بشأن المقدّم، أو الإشعار بالاهتمام به، كأنْ تُوصِيَ مَنْ طلَبَ منْكَ أنْ تنصحه فتقول له:

«بوالدَيْكَ كُنْ بَرّاً، ثُمَّ كُنْ بَرّاً بالأَقْرَبِيْن والأرحام».

والْفِقْهَ احْرِصْ على تَعَلُّمِه أَوّلاً ثُمَّ تعلَّمْ سائرَ علوم الدين وما يَخْدُمُها من العلوم الّتِي بها تُفْهَمُ النُّصُوصُ وتُسْتَنْبَطُ الأَحْكام.

وتَقْوَىٰ اللَّهِ الْزَمْ في أَمْرِكَ كُلِّه، ثُمّ تَزَوَّدْ فوق ذلك من الصالحات.

والشِّرْكَ احْذَرْ أَنْ يُخَالِطَ نِيَّتَكَ في أَعْمالِكَ.

في هذه الوصايا قُدِّم المعمولُ على عامله لتوجيه الاهتمام وبالغ العناية، ولم يُقدَّم لإفادة التخصيص والحصر.

● ومن الأمثلة قول الله عزّ وجلّ في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿بآيَاتِنَا﴾ معمولٌ مقدَّمٌ على عامله وهو ﴿يُوقِنُونَ﴾ وَقُدِّمَ لِلإشْعَارِ بأَهَمّيَةِ آيَاتِ اللَّهِ في حيَاةِ البَشَر، وبقيمَتِها العظيمة في رحلة امتحانهم، فالإيقانُ بها هو الذي يُصَحِّحُ مسيرتهم ويُقوّمُ سُلوكهم، وليس الغرض حصر الإيقان بها، فأركان الإيمان التي يجب الإيقان بها لا تقتصر على آيات الله.

مع ما في تأخير ﴿يوقنون﴾ من مراعاة عنصر جماليٍّ تستدعيه رؤوس الآيات.

* * *

الداعي الثالث: إرادة ردّ الخطأ في التعيين أو الاشتراك، جواباً أو بياناً لمن ذَكَرَ أو ادَّعىٰ أو اعتقد خلاف ذلك.

فمن أمثلة ردّ الخطأ في التعيين:

دخل «خالد بن سعيد» سوق بيع الأنعام، فاشترى جملاً ليحجّ عليه، وأخذ خطامه، وجرَّه وراءه، فعدا عليه اللّصوص ضمن الزّحام وهو لا يشعر، فقطعوا خطام الجمل، ووصلوه برأس حمار، ومشىٰ الشاري غافلاً، ثمّ التفت فرأى أنّه يجرُّ وراءه حماراً، فصاح أيْنَ جملي، فقال له من في السوق وهم يعلمون حِيَل اللّصوص في سوقهم: أمَا اشتريتَ حماراً؟ فردّ عليهم بقوله: جملاً اشتريتُ، جملاً اشتريت، وأبدله اللُّصوص بحمار.

أي: لم أشتر حماراً وإنَّما اشتريتُ جملاً، فَردّ قولهم في تعيين ما اشترى إلى الصواب، بأسلوب تقديم المعمول على عامله.

ومن أمثلة ردّ ادّعاء الاشتراك:

● اشترى «عبد الرحمن» حصاناً وبقرة وثوراً لمزرعته، من سوق البقر والخيل، وسلّمه البائع البقرة وتشاغل، ثمّ ادَّعَىٰ أنَّه سلّمه الحصانَ والثور.

فقال «عبد الرحمن»: بقرةً استلمتُ منْكَ، أي: لم أسْتَلِمْ بَعْدُ الحصان والثورَ وإنّما استلمتُ البقرة فقط.

● وقال الزوج لزوجته في خصومة بينهما: قدَّمْتُ لَكِ ليْلَةَ الْعُرْسِ عقداً وَسِوَارَيْنِ بيَدَيَّ هَاتين.

فردّت عليه بقولها: «عِقْداً بيَدِكَ قَدَّمْتَ لي» أي: لم تقدّم لي سوارَيْن، ولم تَسْتَعْمِلْ يَدَيْك الاثنتين، بل استعملْتَ يداً واحدة.

وقال لها: تَسَلَّمْتُكِ يَوْمَ الْعُرْسِ مِنْ أُمِّكِ وَأَبِيكِ.

فردّت عليه بقولها: «من أُمِيّ تَسَلَّمْتَنِي» أي: لَمْ يُشَارِكْ أبـي في هذا الأمر.

● وقال المتفاخر بقمع الْجُنَاةِ من قُطّاعِ الطَّريق: قَطَّعْتُ رؤُوس عصابة الجناة.

فردّ عليه أحد حاضري المعركة: «رأسَ جَانٍ قَطَعْتَ» أي: لم تقطع غيره.

● وقال الرفيق لرفيقه: صحبتك في زيارتي لمكة وفي زيارتي لمسجد الرسول ﷺ.

فردّ عليه بقوله: «في زيارتي لمكة صحبتني» أي: لم نتصاحب في الزيارة لمسجد الرسول ﷺ.

* * *

الداعي الرابع: التنبيه على أنّ المقدّم هو مناط الإنكار أو الاستغراب أو الاستعظام أو لفت النظر أو نحو ذلك.

أمثلة:

● أراد المربّـي أن ينكر سلوكاً عابَهُ على تلميذه، وأن يبادِرَه بتنبيهه عليه، فقال له:

«رِجْلَكَ تَمُدُّ إلَى وجْهِي دون احترام، وصَوْتَكَ تَرْفع فِي مَجْلِسي بَعْدَ طُول تَأْديبـي لك، وتَعْليمي إيَّاك.

فقدم المعمول على عامله في الجملتين لتنبيهه عَلى مناط الإنكار.

● وقال أبو العلاء المعرّي منكراً على من زعم أنّه يُصَدِّق الواشي، ويُخيّب السائل:

أَعِنْـدِي وقَـدْ مَـارَسْـتُ كُـلَّ خَفِيَّـةٍ ... يُصَـدَّقُ وَاشٍ أَوْ يُخَيَّـبُ سَـائِـلُ

فقدّم الظّرف «عندي» على عامله «يُصَدَّق» وما عطف عليه، ليدُلَّ على مناط إنكاره.

● وعبّر المتفرج في مجمّع غرائب الألعاب الرياضيّة «السّيرك» عن استغرابه فقال مقدّماً المعمول على عامله:

«عَشَرَةَ أشخَاص حمَلَ اللاَّعبُ على خشبة فوق رَأْسِهِ».

● وعبَّرَ مُعَظِّم خلق الله عن ظواهر من آيات الله في كونه فقال:

«السَّمَاءَ رَفَعَ بغير عَمَد، والرّيحَ سخَّر في أمور كثيرة عظيمة لا تُحَدّ، ونَسَمَةَ الحياة نفخ في مُصَوّرات من الطين، فكانت كائنات حيَّة عجباً».

فقدم المعمولات «السماء ـ والريح ـ ونسمة الحياة» للإشعار بمناط التعظيم.

● وأراد المحادث أن يلفت نظر محدِّثه إلى مكان نظّارة عينيه التي يبحث عنها، فقال له:

«إلى رَأْسِكَ مُدَّ يَدَكَ تَجِدْها».

فقدم المعمول على عامله للمسارعة بلفت النظر.

● واستعظم العالم الباحث المطلّع على المؤلفات كتاباً ألَّفه أحد العلماء المعاصرين له، فأراد التنبيه على ما استعظم فقال:

«مَوْسُوعةً شاملةً ألَّفَ فلانٌ في علم كذا».

فقدم المعمول على عامله.

وهكذا إلى أمثله كثيرة مناظرة.

الداعي الخامس: إرادة المبادرة إلى التلذذ بذكر اسم المحبوب في الجملة، مثل أن يقول العاشق بشأن معشوقته هند:

هِنـداً عَشِقْـتُ وإنْسَـانـاً بِمُقْلَتِهـا ... قَلْبِـي يُـدَاعِبُـهُ بـالضَّـمِّ والْقُبَـلِ

* * *

الداعي السادس: إرادة المبادرة إلى التبرّك بذكر اسم الرّبّ في الدعاء، مثل أن يقول الداعي:

رَبِّي دَعَوْتُ وأَرْجُو فَيْضَ رَحْمَتِهِ   وأَنْ أَنَالَ لَدَيْهِ مُنْتَهَىٰ أَمَلِي

* * *

الداعي السابع: إرادة التهويل، أو التخويف وإلقاء الرُّعب، إذا كان المقدَّم فيه ما يخيفُ ويُرْعب، مثل:

«بالْحَدِيد المحميّ قَيِّدُوه، وإلى بِئْرِ التعذيب خُذُوه»

الداعي الثامن: مراعاة النسق الجمالي اللفظي، في قوافي الشعر، وسجْعِ النثر، وفواصلِ رؤوس الآيات في القرآن.

والأمثلةُ على هذا الداعي كثيرة، منها:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول): بشأن الكافر الذي يؤتَى كتابه بشماله يوم القيامة:

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣﴾.

جاء في هذا النص تقديم المعمول مرّتين، لمراعاة الجمال في رؤوسِ الآيات في السورة، مع ما في الموطنين من البدء بإلقاء الرعب في قلوب الكافرين المجرمين.

* * *

(٦)

دواعي تقديم بعض معمولات الفعل على بعض في الجملة ولو تكافأت مراتبها

من شأن البليغ دائماً أن يتصرف في رصف وترتيب عناصر جملته التي يُنشِئُها

تصرُفاً حكيماً وفنيّاً، يراعي فيه جوانب بلاغية معنوية، أو جوانب جمالية معنويّة أو لفظية.

وعمله في هذا كمنظم العقود حينما يرصف حبات عقده ويرتبها ترتيباً يحقق فيه جوانب ذوقية جمالية، وجوانب جوهرية في عناصر الحبات واختلاف أصولها وقيمها وألوانها.

فإذا كان لدى البليغ معنىً يريد الدلالة عليه ولو على سبيل الإشارة، وهذا المعنى يمكن استفادته من تقديم عنصر من عناصر جملته على عنصر آخر من عناصرها فَعَل ذلك، ما لم يكن ممتنعاً في قواعد اللّغة العربيّة وضوابطها، حتّى العناصر المتكافئة في المرتبة كالنعوت فيما بينها، وكالمعطوفات المتعدّدات التي تعطف بالواو التي هي لمطلق الجمع، ولا تقتضي ترتيباً ولا تعقيباً، وكألفاظ التوكيد المعنوي، فإنّه يهتمُّ بأن يقدّم ويؤخِّر برُؤىً بلاغية أدبية وفكريَّة متى انقدحت لديه فكرة مناسبة، يمكن الدلالة عليها بأسلوب التقديم والتأخير.

وفي مجال ترتيب عناصر الْجُمَل في الكلام تظهر براعة كبار البلغاء والأدباء، وتتفاوت مراتبهم، وفوق كلّ القمم ترتقي جوانب الإعجاز القرآني في رصف عناصر الجملة، وترتيبها، ورصف عناصر الجمل وترتيبها، كما ترتقي في كلّ مجال فكريّ وبلاغي.

ومع احتمال أن تتوارد هنا دواعي كثيرة من الدواعي التي سبق بيانها في دواعي تقديم المسند إليه، ودواعي تقديم المسند، ودواعي تقديم متعلقات الفعل، وأن يُقاس على أمثلتها، فيحسن أن نورد هنا بعض الدواعي، مع بعض الأمثلة.

وعلى دارس النصّ البليغ أن يبحث ليكتشف ما دَعا منشىء الكلام إلى أن يقدّم وأن يؤخّر. ولا سيما حينما يأتي الترتيب على خلاف الأصل، أمّا إذا جاء الترتيب على وفق الأصل فيحسنُ أن لا يتعب نفسه بالبحث عن العلة، إلاّ أن

يكتشف عَرَضاً داعياً مناسباً، فعندئذٍ يمكن أن يجعله عاملاً مرجّحاً لإبقاء الشيء على أصله.

فمن الدواعي هنا ما يلي:

الداعي الأول: أن يكون ذكر المقدّم أهمّ في نظر منشىء الكلام لغايةٍ ما يَرْمي إليها.

* * *

الداعي الثاني: مراعاة الترتيب الطبيعي في المعاني، كأن يقدّم في المتعاطفات بالواو اللفظ الدّال على الإيمان على اللفظ الدالّ على الإسلام، لأنّ الإيمان هو الأساس فلا يصح إسلام ما لم يكن قائماً عليه، وكأن يقدّم اللّفظ الدّال على التقوىٰ على اللّفظ الدّالّ على البرّ، لأنّ الارتقاء إلى مرتبة البرّ لا يكون إلاّ بعد استكمال حقوق مرتبة التقوى، وقد يعكس الأمر لغرض الإشعار بأفضليّة المقدّم وأنّ مرتبته أعلَىٰ، وبغية التشجيع على العمل به، كتقديم اللّفظ الدالّ على البرّ على اللفظ الدالّ على التقوى.

* * *

الداعي الثالث: إرادة الترقّي من الأدنى إلى الأعلى، أو العكس، أو إرادة البدء بالظاهر، فما يتصل به من الأسباب، وهكذا تَسَلْسُلاً إلى الأسباب الباطنة الخفيّة، حتى السبب الأوّل، أو البدء بما هو بمنزلة الأساس فما يتصل به. وهكذا تدرّجاً إلى الأعلى فالأعلى حتى القمة.

ومن أمثلة التدرج من الأدنى إلى الأعلى قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) مبيناً مراتب ودرجات المؤمنين:

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾.

والأغراض الداعية إلى ذلك كثيرة لا تحصر، فمنها ما هو بَيَانٌ لفكرةٍ ومنها ما هو الأفضل في التعليم، ومنها ما يُحقّقُ فوائد تربوية ومنها جماليٌّ فنيٌّ، إلى غير ذلك.

ومن أساليب العرب أن يَبْدؤوا في المدح بالصفة الدّنيا، ثمّ يرتقوا إلى الأعلى فالأعلى، وأن يبدؤوا في الذّم بالصفة الأَخَسّ، ثم يذكروا الأخفّ فالأخف.

وجاء في تعبيرات القرآن المجيد تقديم الأشياء الصغيرة على الكبيرة، للدلالة على تأكيد الشمول، من خلال الإشعار بالاهتمام بالصغير، وأنّه ليس مما يُهْمَل ويُتَسامح بعدم العناية به، كما يقول البائع هذا بخمسةٍ وألف، فيقول الراغب في الشراء، ألا تبيع بألف، فيقول له: الخمسة قبل الألف.

ومنه قول الله عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ ﴾.

فدلّ تقديم «صَغير» على أنّ الشُّمُول في كتابةِ كلّ الأفعال متحقق دون استثناء ما يراه الناس صغيراً ومن المحتقرات.

وجاء في تعبيرات القرآن البدء بما يقَعُ في مُدْركات الناس من الأشياء الصغيرة، والعطف عليها بما هو أصغر منها، فما هو أكبر منها، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾.

إنّ المخاطبين من جماهير الناس لا يعرفون أصغر من الذّرَة، فبدأ القرآن بها، وأبان لهم بالعطف عليها أنه يوجد ما هو أصغر منها، وهنا ينطلق الذهن في المصغرات إلى مقدار يستحيل تقسيمه ذهناً، وعطف عليه بعد ذلك ما هو أكبر،

وينطلق الذهن إلى الأشياء الكبيرة العظيمة التي لا يستطيع التصوّر الإحاطة بها، فشمل النصّ كُلَّ شيْءٍ.

وجاء في القرآن البدء بمَنْ يحتل الدرجة العليا، فمن يحتل الدرجة التي دونها، فمن يحتل الدرجة التالية، ومنه قول الله عزَّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ...﴾ [الآية ١١٧].

فبدأ بالنبـيّ، وعطفَ عليه المهاجرين، وعطفَ عليهم الأنصار الذين اتّبعوا الرسول في ساعة العُسْرَة، مراعاةً لأفضليات المراتب والدرجات.

ونلاحظ في سورة (التوبة) أيضاً ترتيباً روعي فيه الترتيب الواقِعِيّ في الأَحْدَاث، وهو قول الله عزّ وجلّ فيها بشأن الذين خرجوا مع الرسول لغزوة تبوك:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

إنّ الذين خرجوا إلى غزوة تبوك وهذا صالح للتعميم في معظم الغزوات، أوّل ما أصابهم الظّمأ بسبب نفاد الماء، وانعدام مصادر الماء في طريقهم، وبعد ذلك أصابهم النّصَبُ، وهو التعبَ، فالرحلة في أرض صحراء، وفي حرّ شديد، وبعد ذلك انتهت أزوادهم فنزلت بهم المخمصة، أي: المجاعة، وبعد اقترابهم من تبوك وَطِئُو موطئاً يغيظ الكفّار، وبعد ذلك نالُوا من عدوهم عند تبوك نيلاً فرح به الغزاة الخارجون مع الرسول من أهل الإيمان والصدق.

فجاء الترتيب في الآية على وفق الترتيب في الأحداث، وهذا من دقّة الأداء البياني.

وقد يلاحظ في الترتيب تدرّج أحوال النفس، وهذا من مراعاة الترتيب في الواقع، ومنه ما جاء في سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول) في وصف حالة الإنسان يوم القيامة:

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾.

فجاء الترتيبُ وفق ترتيب أحوال النفس، إذ يتخلَّىٰ الإنسان عند الضرورة عن الحبيب، فعن الأحبّ فعن الأشدّ حبّاً له، وأحبّ الناس إلى قلب الإنسان بنوه، ودون ذلك صاحبته الحبيبة، ودونها أبواه، ودونهما أخوه.

فعلىٰ دارس النصوص البليغة أن يُمْعِن النظر، ويطيل التأمُّل والتفكير، حتَّى يكتشف ما فيها من دواعي بلاغيّةٍ وفكرية دعته إلى ترتيب عناصر كلّ جملة، وترتيب الجمل فيها، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وانظر في موضوع ترتيب الجمل ما جاء في «الصورة السادسة» من قسم «صور من أدب القرآن الرفيع» في كتابي «أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع».

* * *

الداعي الرابع: التخلّص مما يُوهم معنىً غير مرادٍ في دلالات الكلام، ومن أمثلة ذلك قول الله عزّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ . . . ﴾ [الآية ٢٨].

عبارة ﴿مِنْ آل فِرْعَوْنَ﴾ نعت لـ ﴿رَجَلٌ مُؤْمن﴾.

وعبارة ﴿يَكتُم إيمَانَهُ﴾ نعت أيضاً لـ ﴿رَجُلٌ مُؤْمن﴾.

وهـذان النعتـان متكافئـات في الرتبـة، فليس أحـدهما أولى بالتقـديم مـن

الآخر، لكن تقديم عبارة ﴿يكتُم إيمانه﴾ على عبارة ﴿من آل فرعون﴾ يوهم أنّ الجار والمجرور في هذه العبارة متعلقان بفعل «يكتم» مع أنهما متعلقان بمحذوف هو صفة لـ ﴿رجل مؤمن﴾ فرفع تقديمها هذا الإيهام، وجاء البيان سليماً واضحاً.

إلى غير ذلك من دواعي لا تخفى على الدارس المتتبِّع اللّبيب.

● ● ●

الفَصل الرابع

التنكيـر والتعريـف

(١)

مـقـدمـة

نعلم من مقرّرات النحويّين أنّ الكلمة تنقسم إلى: «اسم، وفعل، وحرف» وأنّ الجملة العربيّة تتألف من كلمتين فأكثر: من فعلٍ واسم فأكثر، أو من اسمين فأكثر، وقد يدخل في الجملة الحرف للرّبط، أو لأداء معنى وُضِع له، وهذا المعنى يظهر عند تركيب الحرف مع غيره في الجملة.

وإذا أخذنا قسم «الاسم» الذي يدخل عنصراً أو أكثر ضمن عناصر الجملة فإنّنا نلاحظ أنّه قد يكون نكِرَةً، وقد يكون معرفة.

● أمّا النكرة: فاسم يطلق على القليل والكثير، أو على مفرد، أو على أكثر، ومعناه شائع في جنس، أو نوع، أو صنف، أو نحو ذلك، وهذا يصدق بالمثنىٰ والجمع.

ومـا يـطلق على القليل والكثير صالـح لأن يـراد بـه أقل مقدار وأكثر مقدار، وما يطلق على مفرد صالح لأن يراد به أيّ فرد دون تعيين، ومـا يطلق على أكثر من مفـرد صالـح لأن يـراد بـه أيٌّ جمـع دون تعييـن إذا كان جمعاً، وأيّ اثنين إذا كان مثنىٰ.

فالشائع في أفراد دون تعيين مثل: «رجل ــ امرأة ــ إنسان».

والشائع في مثاني أو جموع دون تعيين مثل: «رجلين ــ رجال ــ امرأتين ــ نساء».

وما يطلق على القليل والكثير من الجنس أو النوع أو الصنف مثل: «ماء ــ تراب ــ ريح».

● وأمّا المعرفة فاسم يَدُلُّ على مُعَيَّن مُمَيَّزٍ عن سائر الأفراد أو الجموع المشاركة له في الصفات العامة المشتركة، مثل «زيد» علماً لشخص معين، و «هؤلاء» اسماً يُشار به إلى جماعة معينة، وذكر النحويّون أنّ المعارف سبعة أقسام، قالوا: وترتيبها بحسب الأعْرَفِيّة كما يلي:

الأول: الضمير، مثل: «أنا ــ أنت ــ أنتما ــ هو ــ هي ــ هما...».

الثاني: العلم، مثل: «زيد ــ أبـي بكر ــ بدر الدين» وما يضاف إلى ضمير مثل: «يدي ــ رأسه ــ قلمكَ».

الثالث: اسم الإشارة، مثل: «هذا ــ هذه ــ أولئك».

الرابع: اسم الموصول، مثل: «الذي جاءني ــ التي تزوجتها...».

الخامس: المحلّىٰ بأل، مثل: «الرجل ــ المرأة ــ المؤمن ــ الرجال ــ النساء ــ المؤمنين».

السادس: المضاف إلى غير الضمير من المعارف السابقة، مثل: «زوجة سعيد ــ غلام هذا ــ قلم الذي زارني صباحاً ــ كتاب الرجل».

السابع: النكـرة المقصـودة فـي النـداء، مثـل: «يَا رَجُلُ» تخاطب رجلاً بعينه.

ولمّا كانت الأسماء الّتي تدخل في بناء الجملة ذوات أقسام: النكرة بأقسامها الثلاثة، والمعرفة بأقسامها السبعة، فإنّ أمام منشىء الكلام بدائل من هذه الأسماء يمكن أن يختار منها.

لكنّ هذه البدائل ليستْ سواءً في دلالاتها، حتّى يأْخذَ منْها ما يشاء لما يشاءُ، دون اختيار وانتقاء لما يراه أكثر ملاءمة وأداءً لما يريد توصيله من المعاني، أو التعبير عنه.

لذلك كان لا بدّ من رسم معالم هذه البدائل، وتوضيح فروق دلالاتها، حتَّىٰ ينتقي منها منشىء الكلام لكلامه ما هو الأحكم بياناً، والأفضل لتحقيق ما يريد توصيله من معاني، رجاء أن يكون كلامه أكثر بلاغة، وأتقن اختياراً، وأوفى دلالة على المعاني التي يريد التعبير عنها.

* * *

(٢)
دواعي اختيار النكرة

عرفنا أنّ النكرة ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يطلق على القليل والكثير، ومعناه شائع في جنسٍ أو نوع، أو صنف، أو نحو ذلك، مثل: «ماء ــ تراب ــ ريح».

وهذا القسم يراد منه غالباً المعنىٰ الشائع قلّت وحداته أو كثرت، وعند إرادة تحديد الكميّة أو وصفها بالقلة أو الكثرة أو نحوهما يُضاف في البيان ما يُراد بيانه.

ولا معنى لجمع هذا القسم ما دام يطلق على القليل والكثير، إلاَّ إذا أريد بالجمع الأنواع أو الأصناف أو نحو ذلك.

القسم الثاني: ما يطلق على مفرد شائع دون تعيين، وهذا القسم صالح لأن يراد به معنى الجنس أو النوع أو الصنف أو نحو ذلك، وأن يراد به معنى الإفراد على وجه الخصوص، وفي هذه الحالة يحسن تأكيد معنى الإفراد بالوصف بأنه واحد، ومنه قول المشركين في تعجُّبهم من فكرة التوحيد التي جاء بها الرسول ﷺ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾؟.

قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾.

القسم الثالث: ما يُطلق على أكثر من مفرد، ومعناه شائعٌ في مَثَانٍ أو جُمُوع، وهذا القسم صالح لِأن يُرادَ به معنى الجنس أو النوع أو الصنف أو نحوهما، وأن يراد به معنى التثنية أو الجمع على وجه الخصوص، وفي هذه الحالة يحسُنُ تأكيد معنى التثنية بالوصف بنحو «اثنين» ومنه قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۝٥١﴾.

في هذا المثال نلاحظُ تأكيد التَّثْنِيَة في الْمُثَنَّىٰ النكرة بوصفه بلفظ «اثنين»، ونلاحظ تأكيد الإفراد في المفرد النكرة بوصفه بلفظ «واحد»، لأنّ المراد التنبيه على أنّ التثنية والإفراد هما المرادان على وجه الخصوص، أمّا في النكرة التي هي جمع فقد يحسن تخصيصها بنحو قليل أو كثير، مثل قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ۝٤٨ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ۝٤٩﴾.

فخصَّص «أنْعَاماً وأناسِيَّ» وكلٌّ منهما نكرةٌ جمْعٌ، فوصفهما بلفظ «كثيراً».

وإذا كان المراد تحديد عدد معين وُصِفَتِ النكرة الجمع بما يُبيِّن العدد، ومنه قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول):

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَـٰثَةً ۝٧﴾.

أي: وكنتم أيها الناس يوم القيامة أصنافاً ثلاثة: هم أصحابُ الميمنة، وأصحابُ المشأمة، والسّابقون المقرّبون.

بعد تحديد معالم النكرات يَحْسُنُ بيانُ دواعي اختيار النكرة في الجملة الكلامية.

* * *

تفصيل دواعي اختيار النكرة:

أذكر هنا طائفة من الدواعي أخْذاً ممّا ذكره علماء البلاغة، منبّهاً على أنّ الدواعي قد لا تنحصر فيها، فترك المعرفة واختيار النكرة في الكلام ممّا تتشعّب فيه أغراض البلغاء، وقد تتفَتَّقُ قرائح اللّاحقين منهم عن أشياء لم يتنبّه إليها السابقون، إذ الأمر ليس اصطلاحاً لغويّاً حتّىٰ ينحصر فيما اصطلح عليه الأولون، بل هي أغراضٌ تُقْصَدُ بلاغياً من خلال استعمالٍ لغويّ قابل لدلالات كثيرة، ولا سيما حينما نلاحظ أنّ ذكر النكرة غير موصوفة قد يوحي بطيّ الصفة في اللّفظ مع ملاحظة معناها ذهناً، والنكرة قابلة لأن توصف بأشياء كثيرة جدّاً، فقد توصف بالشيء، وقد توصف بضدّه، وعند حذف الصفة يبقى لفظها محتملاً، لكنّ قرائن الحال أو قرائن المقال قد تشعر بطيّ صفة مع إرادة معناها، وقد تُشعر أحياناً أخرى بطيّ نقيضها مع إرادة معناه، ومن هنا تتنوع الدواعي والأغراض.

وفيما يلي أعرض ما أحصيته من دواعي اختيار النكرة:

الداعي الأول: الجهل بما يُعَرِّف المذكور بقسم من أقسام المعرفة، فيلْجأ المتكلم إلى التنكير، بإطلاق اسم غير مُعَيّن من أسماء النكرة، وهذا الاسم النكرة ينطبق على المتحدّث عنه وينطبق على غيره، مّما يشاركه في الصفات العامة، ويحصل بإيراد النكرة تخصيصٌ ما، وهذه فائدة تُقْصَدُ في الكلام، فمن قال لأبيه مثلاً: جاءنا رجلٌ وسأل عنك، فقد أفاده أنَّ سائلاً ما سأل عنه، وأنّ هذا السائل هو من صنف الرجال، لا من صنف النساء.

* * *

الداعي الثاني: أن يقصد المتكلم عدم تعيين من يتحدث عنه، وتظهر هنا عدّة أغراض:

● منها أن يكون تعيينُه زائداً على ما يقصد المتكلم بيانه، مثل تعيين اسم الرجل الذي جاء من أقصىٰ المدينة يسعىٰ ليقول لموسى عليه السلام: إنَّ الملأ يأتمرون بكَ ليقتلوك، لذلك لم يذكر الله اسمه، فقال تعالى في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

ومثل تعيين اسم الرجل الذي جاء لينصر المرسلين الثلاثة في أنطالية، ويدعو قومه لاتّباعهم، ويُعْلِنُ أمام قومه إيمانه، فانتقموا منه فقتلوه، لذلك لم يذكر الله اسمه، واكتفىٰ بذِكْر أنّه رَجل، فقال تعالى في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾.

● ومنها إرادة إخفاء شخص المتحدّث عنه، لمصلحةٍ يراها مُنْشِيء الكلام، والمصالح من الإخفاء كثيرة يصْعُبُ حصْرُها، كالخوف عليه، وكالتشويق إليه، وكانتظار المناسبة الملائمة للمفاجأة به.

ومن أمثلة إرادة الإخفاء أوّلاً ما كان من أخت موسى عليه السلام، بعد أن وضعته أمّه وهو رضيع في صندوق وألقته في اليمّ، إذْ تتَبّعته حتى التقطه آل فرعون، وتعلّق قلب امرأة فرعون به، ورفض أن يرضع من المراضع اللائي جُلِبْن له، وكانت تتابع أمره فعرضت على الذين يبحثون له عن مرضعة ترضعه وتكفله، فقالت لهم كما جاء في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ١٢ ﴾ .

فقد جاءت بلفظ «بيتٍ» نكرةً، وقالت «أَهْلِ بَيْتٍ» ولم تَقُلْ مُرْضعة، لتلاحظ مدى استجابتهم للعرض، ولتُبْعِدَ الشبهة عن أن تكونَ أُمُّه في هذا البيت، خوفاً على أخيها وأمّها، فلمَّا استوثقت من تلهفّهم، وصدق رغبتهم، وَأَنَّهم لمْ يشْعُروا بأنّها ذات علاقةٍ ما بالطفل، دلَّتْهُمْ وأخَذَتْ بهم إلى أمِّها، فالْتَقَم ثدْيَها وشَرَعَ يَرْضَعُ برغبةٍ تامّة.

* * *

الداعي الثالث: أن يكون مراد المتكلّم ذكر واحد غير معين من الجنس أو النوع أو الصنف، كأن يقول الراغب في الزواج: «أريد زوجة» فهو يبحث عن زوجةٍ ما تناسبه، وهذه غير معينة في ذهنه. وكأن يقول طالب دابّة لسفره: «أريد فرساً» فهو يبحث عن فرس ما مناسبة دون تعيين.

ومنه قول إخوة يوسف حينما تآمروا للتخلّص منه: ﴿ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا ﴾ أي: أرضاً ما بعيدة دون تعيين، حتَّىٰ يضلّ أو تأكله الوحوش.

قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول):

﴿ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٨ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩ ﴾ .

وهذا الشاهد يصلح أيضاً لإرادة نوعٍ من الأرض غير معيّنة بذاتها، لكنّها نوعٌ ذات وصف خاص، فهي أرض بعيدة نائية مجهولة مَنْ طُرِح فيها ضلٌّ وتعرَّض لِلْهَلاَك.

* * *

الداعي الرابع: قد يختار المتكلم النّكرة قاصداً بالتنكير التكثير، وتدلُّ القرائن على قصد التكثير، وإذْ دَلَّتِ القرائن عليه حَسُن في الكلام حَذْفُ الوصف

الدالّ على الكثرة، والاكتفاء بدلالة التنكير مع دلالة قرينة الحال أو قرينة المقال.

أمثلة

● قول الله عزَّ وجلَّ لرسوله محمد ﷺ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾.

لفْظُ: [رُسُل] نكرة، وقرينةُ تسْلِيَةِ الرَّسُولِ ﷺ تدُلُّ على أنَّهم رسُلٌ كثيرون قَدْ كُذِّبوا من قِبَلِ أقوامهم.

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول)، بشأن تقطيع بني إسرائيل في بلدان كثيرة من الأرض:

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ . . .﴾ [الآية ١٦٨].

أي: أُمما كثيرةً في بلدان من الأرض كثيرة.

● ومنه «إنَّ المتَّقينَ في جنَّاتٍ وعُيُونٍ ـ أَمَدَّكُمْ بأَنْعَامٍ وَبَنِين وَجَنَّاتٍ وعُيُون ـ كَمْ تَرَكُوا من جَنَّاتٍ وعُيُونٍ وَزُرُوعٍ ومَقَامٍ كَرِيم ـ».

* * *

الداعي الخامس: وقد يختار المتكلم النكرة قاصداً بالتنكير التقليل، وتدُلُّ القرائن على قصد التقليل، وإذْ دلَّت القرائن عليه حَسُنَ في الكلام حذف الوصف الدالّ على القلّة، والاكتفاء بدلالة التنكير مع دلالة قرينة الحال أو قرينة المقال.

أمثلة

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ

﴿طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

جاءَ لفظ «رِضْوانٌ» مُنَكَّراً، وقرينة كونه من الله مع كونه أكبر من كلّ ما في جنّاتِ عَدْنٍ مِنْ نعيم دليلٌ على أنّ المراد: ورضوانٌ قليلٌ من اللَّهِ يُفْرِغُهُ على أهل جناتِ عَدْنٍ هو أكبر عندهم وأعظم من كلٍّ ما فيها من نعيم.

وقد تنبّه علماء البلاغة إلى أنه لم يرد في القرآن سلامٌ من جهة اللَّهِ إلاَّ مُنكّراً، لأنَّ سلاماً قليلاً من جهته عزَّ وجلَّ كافٍ لتحقيق كُلّ ما يطلُبُهُ العبادُ مِنْ أمن أو تحيّة، مثل: «سلامٌ عليكم بما صَبَرْتُم ــ سَلامٌ قولاً من ربٍّ رَحِيمٍ ــ سلامٌ على نوح ــ سلام على إبراهيم ــ سلامٌ على موسى وهارون ــ وسلام على المرسلين ــ فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أصْحَابِ الْيَمين».

قالوا: وأمّا قول عيسى عليه السلام: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ كما جاء في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) فقد جاء مُعَرَّفاً لأنَّه ورد على لسان عيسَىٰ الطفل في دعائه لنفسه، بخلاف الذي ورد بشأن يحيىٰ عليه السلام في السورة نفسها بياناً صادراً عن الله عزَّ وجلَّ، إذْ جاء فيه قوله تعالى:

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾.

● قول المتنبـيّ يمدح سيف الدولة:

فَيَـوْمـاً بِخَيْـلٍ تَطْـرُدُ الـرُّومَ عَنْهُـمُ ... وَيَـوْماً بِجُـودٍ يَطْـرُدُ الْفَقْـرَ والْجَـدْبَا

نكّر لفظ «خيل» ونكّر لفظ «جود» وهو يريد: بعدد قليل من الخيل، وبمقدارٍ قليل من الجود، وقد دلّ التنكير فيهما على التقليل ما في السّباق والسّياق من المدح والإطراء البالِغَيْنِ من المتنبـيّ لسيف الدولة، وهذا يقتضي أن يطرد الروم بقليل من خيله، وأن يطردَ جودٌ قليلٌ منه الفقر والجدْبا.

* * *

الداعي السادس: وقد يختار المتكلم البليغ النكرة قاصداً بالتنكير التعظيم،

وتدلُّ القرائن على قصد التعظيم، وإذْ دلّت القرائن عليه حَسُنَ في الكلام حذف الوصف الدالّ على التعظيم، والاكتفاء بدلالة التنكير مع دلالة قرينة الحال أو قرينة المقال.

أمـثـلـة:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾.

جاء في هذا النصّ تنكير لفظ «هُدىً» للتعظيم والتفخيم، أي: هُدىً عظيم فخمٌ جليل للمتّقين، ودلّ على إرادة التفخيم قرينة تمجيد القرآن، إذْ جاءت الإشارة إليه بإشارة البعيد للدلالة على منزلته الرفيعة جدّاً، وجاء وصفه بأنه لا ريب فيه.

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٧٨ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ۝٢٧٩﴾.

جاء في هذا النصّ تنكير لفظ «حَرْبٍ» للتعظيم والتهويل، أي: بحربٍ شديدةٍ هائلة مخيفة، ودلّ على كونها شديدةً مخيفة كَوْنُها من الله ورسوله، وكونُها عقوبة على معصيةٍ هي من الكبائر.

* * *

الداعي السابع: إرادة التحقير والتصغير، وتدلُّ القرائن على ذلك.

أمـثـلـة:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) في حكاية قول مؤمن آل فرعون:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

جاء في هذا النص تنكير «مَتَاع» للتحقير والتصغير، أي: متاعٌ حقير صغير سريع الزوال، وفيه معنى التقليل أيضاً.

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) بشأن مشركي مكة:

﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

جاء في هذه الآية تنكير «نفحة» للتصغير، أي: نفحةٌ صغيرة من عذاب ربّك كافيةٌ لأن تجعلَهُمْ يُنَادُون: يَا وَيْلنَا إنَّا كُنَّا ظَالِمين، والقرينةُ عقليّةٌ، فالعذاب الكبير يهلكهم بطرفَةِ عين، فلا يَدَعُهم يُنَادون على أنفسهم بالويل، إذ المرادُ نفحة من عذاب الله في الحياة الدنيا لا في الآخرة، ويكفي في هذه النفحة أنْ تَمَسَّهُمْ مَسّاً، دون أن تُصِيبهم إصابة بالغة، فالنفحة الصغيرة القليلة من عذاب الله تؤلم ألماً شديداً.

● وجمع أبو السّمط بين إرادة التعظيم وإرادة التحقير والتصغير في بيت واحد فقال بشأن ممدوحه:

لَـهُ حَـاجِـبٌ عَـنْ كُـلِّ شَـيْءٍ يَشِينُـهُ   وَلَيْسَ لَهُ عَنْ طَالِب الْعُرْفِ حَاجِب

أي: له حاجب عظيم يحْجُبُه عن كلّ أمر يَشِينُه، وليس له حاجبٌ ما ولو كان حقيراً يَحجب عنه طالب المعروف، بسبب أنه جوادٌ لا يردّ طالب معروف.

* * *

الداعي الثامن: إرادة نوع من الأنواع، أو صنف من الأصناف.

أمـثـلـة:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) خطاباً للذين آمنوا بشأن اليهود:

﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

جاء في هذه الآية تنكير لفظ «أذىً» لإرادة أنه نوع خفيف من أنواع الضّرَر، فالمعنى: لن يضرُّوكم إلاَّ ضرراً هو نوعٌ من أنواع الأذى.

● قول الشاعر:

لِكُــــلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ يُسْتَطَـــبُّ بـــهِ إلاَّ الْحَمَـاقَـةَ أَعْيَـتْ مَـنْ يُـدَاوِيهَـا

نكّر الشاعر لفظ «داء» ولفظ «دواء» قاصداً: لكلّ نَوْعٍ أو صنف دَاءٍ نَوْعُ أو صنفُ دَواءٍ يلائمه.

● ومنه قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) يصف الذين بلغوا في الكُفْر مبلغ من لا يتأثّر بالإنذار بأنّ عَلىٰ أبصارهم غِشَاوَةً، أي: غشاوة من نوع خاصٍّ تحجبُ عنهم رؤية آيات الله في كونه.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾.

فجاء تنكير «غِشَاوَةٍ» لإفادة أنّها نوعٌ خاصٌّ يحجُبُ فقط رؤية آيات الله، وقد دلّ على هذا أَنّهُم يَرَوْن بأبصارهم أشياء كثيرة إلاَّ أنهم محجوبون عن إدْراك آيات الله.

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ . . . ﴾ [الآية ٤٥].

جَاءَ في هذه الآية تنكير لفظ «ماء» لإفادة أنّه نوع خاصٌّ من أنواع المياه، وهو الماء الذي تَنْعَقِدُ منْهُ الأجنَّة.

* * *

الداعي التاسع: إرادة تحاشي المتكلّم التعريف، لما في التعريف من تصريح يحسُنُ في العبارة طيُّهُ، والاكتفاء بدلالة القرائن عليه، أو الإشارة إليه.

أمثلة:

● قول الشاعر في ممدوحه:

إِذَا سَئِمَتْ مُهَنَّدَهُ يَمِينٌ ... لِطُولِ الْحَمْلِ بَدَّلَهُ شِمَالاً

مهنَّدَه: أي: سيفه المطبوع من حديد الهند، وكان حديد الهند أجود الحديد.

نكّر لفظ «يمين» ولم يقُلْ: يمينَهُ، تحاشيَ أن ينسُبَ السآمة بصريح اللفظ إلى يمينه، واكتَفَىٰ بدلالة الحديث عنه.

● قولي صانعاً مثلاً:

مَحَاسِنُ أَشْرَافِ الرِّجَالِ إِذَا الْتَقَتْ ... نظائِرَهَا فيه الْتَقَيْنَ مَسَاوِيَا

جاء تنكير «مَسَاوِيَا» تحاشيَ إضافةِ لفظ «مَسَاوِي» إلى الممدوح، مع أنَّها في معايير الناس تُعتَبَرُ مَحَاسِنَ أشْرَافِ الرِّجال، فإذا كانت هذه المحاسن تعتبر بالنسبة إلى سائر صفاته الفضليات تشبه مساويَهُ، فكيف تكونُ إذن منازِلُ محاسنه الرفيعة.

* * *

الداعي العاشر: إرادة الإطلاق وعدم الحصر بالتنكير، إذ التعريف فيه تَقْيِيدٌ وحصر.

أمثلة:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سُورَةِ (الفرقان/ **٢٥** مصحف/ **٤٢** نزول):

﴿فَسْئَلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾.

أي: فاسأل عن الرحمن خبيراً، أَيَّ خبيرٍ كان لجأ إليه ودعاه فَرحمه، واستجاب له دُعاءه، فجاء اللّفظ نكرة لإرادة الإطلاق الذي يصْدُقُ بخبير فأكثر من المجربين الخبراء عن تجربة.

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾.

القِطْمِيرُ: القِشْرَةُ الرَّقيقةُ على النواة، كاللِّفافة لها.

جاء تنكير لفظ «خبير» لإرادة الإطلاق، أي: لا ينبئُكَ بحقيقة أَمْرٍ ما مِثْلُ من مارسه وخَبَرَ دَقائِقَهُ، وعرفه عن تجربةٍ وممارسَةٍ عمليّة، ويدخل في هذا الإطلاق من خَبَرَ الشركاء فدعَاها من دون الله فلم تستجب له، وخاب في عبادته لها.

* * *

الداعي الحادي عشر: إرادة التعميم بالتنكير، وتساعد على إرادة التعميم القرائن الفكريّة أو اللفظية ويظهر هذا فيما يعمل عمل الفعل من الأسماء، لأنه بمثابة الفعل الّذي حذف معموله لإرادة التعميم.

ومن أمثلة إرادة التعميم بالتنكير مع مساعدة القرائن:

● [إِنَّ اللَّهُ عَليمٌ خَبِيرٌ] أي: عليم بكلّ شيءٍ، خبير بكلّ ما يصلح بطبيعته للاختبار والتجربة.

● [إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ] أي: هو خبير بكلّ شيءٍ من أمور عباده وأحوالهم، بَصِيرٌ بكلِّ ما يُدْرَكُ بالْبَصَرِ من ظواهرهم وبواطنهم.

والقرائن الفكرية دلت على التعميم إذ ورَدَتْ صفاتٍ لله عزَّ وجلَّ الذي دلّ العقل، ودلّت نصوصُ الشرع على أنّ صفاته ذات عموم وشمول تَامّ فيما هي له.

* * *

(٣)

دواعي اختيار المعرفة

عرفنا أن المعرفة في الكلام سبعة أقسام عند النحاة، وترتيبها عندهم بحسب الأعرفيّة كما يلي: «الضمير ــ العلم بأنواعه وفي رتبته ما يضاف إلى الضمير ــ اسم الإشارة ــ اسم الموصول ــ المحلّىٰ بأل ــ المضاف إلى غير الضمير من المعارف السابقة ــ النكرة المقصودة في النداء» هذا ما يقرّره النحويون.

ولمّا كان المتكلم البليغ لا يُلْقِي كلامه جزافاً، بل ينتقي ويختار بحسب أغراضه التي يهدف إليها، فإنّ عليه أن يعرف بدقّة فروقَ دلالاتِ ما يختار لكلامه من كلماتٍ.

ولمّا كانت دلالات المعارف من الأسماء ليست سواءً كان لا بُدَّ من بيان فروق دلالاتها، ودواعي اختيار كلّ قسم منها، وهذا أمْرٌ اهتمَّ به البلاغيون، لتبصير دارسي النصوص البليغة كي يُدْرِكُوا مراميها، وتبصير منشئي الكلام الحريصين على الارتقاء في درجات سلّم البلغاء كي يُجَوِّدوا ما ينشؤون من كلام، حتى يكون كلامهم بليغاً.

وفي دواعي اختيار المعرفة من الأسماء ممّا لا يشترط فيه التنكير في الجملة الكلاميّة، لم أُفَصِّل العناصر التي يمكن أن تكون بدائل في «المسند إليه، والمسند، ومتعلقات الفعل، والتوابع» لأنّي رأيت أن معظم الدواعي قد تُوجَدُ لاختيار المعرفة في كُلٍّ منْها، لذلك آثرتُ دَمْجَها ببعضها تسهيلاً على الدارسين، فكل عنصر من عناصر الكلام ممّا يصلُح لأن يُؤْتَىٰ به معرفة ونكرة دون إلزامٍ نحويّ بأحدهما تَشْمَلُه دواعي الاختيار الملائم لأغراض المتكلم من كلامه، ويَسْتَبْعِد الباحثُ المتفكّرُ ما لا يُلاَئم منها في كلامه.

وبما أن المعارف سبعة أقسامٍ مختلفات الدلالات، فلا بدّ من بحث دواعي اختيار كلٍّ منها.

أولاً ـــ دواعي اختيار الضمير:

أنواع ضمائر التكلّم والخطاب والغيبة المفصّلة عند النحويين، قد يُخْتَار للكلام منها، لأنّ المقام يدعو إلى ذلك، وهي ألفاظ مختصرة موجزة يُستغنى بها ظاهرةً أو مضمرة عن ألفاظ تحتاج عند النطق أزماناً وجهداً أطول وأكثر.

● فإذا كان المقام مقام حديث المرء عن نفسه أو معه غيره جيء بضمير التكلم، مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) في حكاية خطابه لموسى عليه السلام بجانب الطور:

﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ ﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

ويلاحظ الضمير المستتر في «نُسَبِّح» و «نُقَدّس»، وهو «نحن».

وقول المتنبـي:

أَنَـا الَّـذِي نَظَـرَ الأَعْمَـىٰ إلـى أَدَبِـي وأَسْمَعَـتْ كَلِمَـاتِـي مَـنْ بِـهِ صَمَـمُ

● وَإذا كان المقام مقامَ مُخَاطَبٍ واحدٍ أو أكثر جيء بالضمير المناسب للمخاطب، فرداً أو مثنًى أو جمعاً، مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) في حكاية خطابه لموسى عليه السلام:

﴿ ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

● وإذا كان المقام مقامَ حديثٍ عن غائب أو أكثر جيء بالضمير المناسب للمتحدَّث عنه فرداً أو مُثَنًّى أو جمعاً، مثل قول الله تعالى في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾.

ولا يُتْرَكُ الضمير إلى استخدام معرفة أخرى في مقام التكلّم أو الخطاب أو الحديث عن الغائب الذي يُلائمه الكناية عنه بالضمير للإيجاز والربط بين الكلام إلاّ لداعٍ من الدواعي البلاغية التي تستدعي ذلك، وسيأتي إن شاء الله بيان هذا في بحث: «الخروج عن مقتضىٰ الظاهر» الشامل لأمور كثيرة غير العدول عن الضمير الملائم إلى غيره.

قالوا: وأصل الخطاب أن يكون لمعيّن، وقد يُتْرَكُ هذا فيكونُ الكلامُ مُوجَّهاً لكلِّ من يَصْلُح بصفاته لأن يخاطب به، ويُحْمَلُ على هذا كثير ممَّا جاء في القرآن المجيد من خطاب مفردٍ أو جَمْعٍ إلاَّ ما كانَ خاصّاً بمعيَّنٍ كالرَّسُولِ، أو خاصّاً بجماعة معيَّنةٍ مقصودة بالذات، ومن الأمثلة قول الله عزّ وجلّ في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

أي: ولو تَرَىٰ أَنْتَ يَا أَيُّها الصالح لمثل هذا الخطاب أيّاً كُنْتَ.

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ. . .﴾ [الآية ٢٠].

أي: أَلَمْ تَرَوْا أَنْتُمْ يَا أَيُّها الصّالِحُونَ لمثْلِ هذَا الْخِطَابِ.

● وقول الرسول ﷺ فيما رواه الترمذي وأبو داود عن بُرَيْدَةَ قال: قال رسول الله ﷺ:

«بَشِّرِ الْمَشَّائِينَ فِي الظُّلَم إِلَىٰ الْمَسَاجِدِ بِالنُّور التَّامِّ يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

أي: يَا مَنْ يَصْلُح للخطاب بَشِّرْ، والمعنىٰ بَلِّغْ عنّي هذه البشارة.

ونظائر هذا كثير، ومنه:

● قول أبـي فراس الحمداني:

لاَ تَطْلُبَــــنَّ دُنُــــوَّ ... دارِكَ مِـنْ خَلِيـلٍ أَوْ مُعَـاشِـرْ
أَبْقَـــىٰ لأَسْبَـــابِ الْمَـــوَدَّ ... ةِ أَنْ تَـــزُورَ وَلاَ تُجَـــاوِرْ

● وقول المتنبـي:

لاَ تَلْـقَ دَهْـرَكَ إلاَّ غَيْـرَ مُكْتَـرِثٍ ... مَـا دَامَ يَصْحَـبُ فِيـهِ رُوحَـكَ الْبَـدَنُ
فَمَـا يَـدُومُ سُـرُورٌ مَـا سُـرِرْتَ بِـهِ ... وَلاَ يَـرُدُّ عَلَيْـكَ الْفَـائِـتَ الْحَـزَنُ
مَـا كُـلُّ مَـا يَتَمَنَّـىٰ الْمَـرْءُ يُـدْرِكُـهُ ... تَجْـرِي الـرِّيَـاحُ بِمَـا لاَ تَشْتَهِـي السُّفُـنُ

فالخطاب فيهما لكلّ من يصْلُحُ للخطاب، حتَّىٰ المتكلّم نفسه على طريقة تجريد شخصٍ من نفسه يخاطبُه.

* * *

ثانياً ــ دواعي اختيار الْعَلَم:

الْعَلَمُ ينقسم كما ذكر النحويون إلى «اسْم ــ وكُنْيَةٍ ــ وَلَقَبٍ».

فالكنيةُ: كُلُّ مركّب إضافيّ صُدّر بأبٍ أو أمّ، ومنه: «أبو بكر ــ أمُّ كُلثوم».

واللَّقبُ: كلُّ علم أشعر برفعة المسمَّى أو أشعر بضعَتِه، ومنه: «زين العابدين ــ الرشيد» و «الجاحظ ــ الأعرج».

والاسم: ما عدا القسمَيْن السابقين، وهو الغالب، ومنه: «خالد ــ سعيد ــ زينب ــ عائشة ــ ذو الفقار ــ يَعْفُور».

قالوا: وإذا اجتمع الاسم واللّقب أُخّر اللّقبُ على الاسم، مثل: «علي زين العابدين» ولا ترتيب بين الكنية وغيرها، فيجوز تقديم الكنية على الاسم واللّقب، ويجوز تأخيرها عنهما.

وقد ظهرت للبلاغيين عدّة دواعٍ لاختيار الاسم «العلم» دون غيره من المعارف السّبع:

الداعي الأول: إرادة إحضار المتحدّث عنه في ذهن المتلقّي باسمه الخاصّ به، ليمتاز عمّا عداه، ويترجّح هذا الدّاعي حينما يكون المتحدّث عنه معروفاً لدى الْمُتَلَقِّي باسْمِهِ الخاصّ به.

أمثلة:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾.

● قول «الْغَزّي» يذكر «أبا الطيب المتنبي» بكنيته ليميزه ويحضره في الأذهان:

مَنْ أَغفَلَ الشِّعْرَ لَمْ تُعْرَفْ مَنَاقِبُهُ ... لَا يُجْتَنَىٰ ثَمَرٌ مِنْ غَيْرِ أَغْصَانِ

لَـوْلاَ أَبُـو الطَّيِّـبِ الْكِنْـدِيُّ مـا امْتَـلأَتْ مَسَامِعُ النَّاسِ مِنْ مَدْحِ ابْنِ حَمْدَانِ

* * *

الداعي الثاني: إرادة الإشعار بتعظيم المتحدّث عنه، ويكون هذا في الأعلام التي تشعر بمدح، ومنها الألقاب التالية: «ذو النَّورين ــ صلاح الدين ــ سيف الله» ويكون في الأسماء التي اشتهرت بصفاتها العظيمة، ومنها: «محمد بن عبد الله ــ خالد بن الوليد ــ عُمر بن الخطّاب» وفي الكُنَىٰ، مثل: قضيّةٌ ولا أبو حَسَنٍ لها» وهو عليّ بني أبـي طالب.

* * *

الداعي الثالث: إرادة الإشعار بإهانة المتحدث عنه، ويكون هذا في الأعلام التي تشعر بذمّ، أو اشتهرت بصفاتها الذميمة، ومنها «حمار (علماً) ــ صخْر ــ أبو مرّة ــ إبليس ــ أبو لهب ــ أمّ الخبائث (كنية الخمر) ــ أبو جَهْل».

* * *

الداعي الرابع: إرادة استخدام لفظ العْلَمَ للكناية به عن معناه اللغويّ قبل نقله إلى العلمية، مثل أن تقول:

● جاءنا «محمود» بالبشائر، وأنت تريد الإشعار بأنّه في صفاته محمود، فلَهُ من اسمه نصيب.

● المدير «راشِد» وأنت تريد مدحه بالرُّشد الذي هو معنى اسمه قبل العلمية.

● خَصْمُنَا «صَخْر» وأنْتَ تريد الإشعار من خلال ذكر اسمه بأنّه قاسٍ لا يَنْدَىٰ كالصخر.

* * *

الداعي الخامس: إرادة التلذّذ بذكر اسم المتحدّث عنه لأنه محبوب،

فالمحبّون والعشاق يأنسون ويستمتعون بذكر أسماء من يحبون، ومن ذلك:

● قول مجنون ليلىٰ:

بِـاللّـهِ يَـا ظَبَيَـاتِ الْقَـاعِ قُلْـنَ لَنَـا   لَيْـلَايَ مِنْكُـنَّ أَمْ لَيْلَـىٰ مِـنَ الْبَشَـرِ

● وأبان المتنبّي رغبة التلذّذِ بذكر أسماء الممدوح في قصيدة مدح فيها عضد الدولة، أبا شجاع، فَنَّاخُسْرو، الفارسيّ، فقال:

«أبَا شُجَاعٍ» بفارس «عَضُدَ الدَّولَةِ»   ـ «فَـنَّـا خُسْـرُو» ـ «شَهِنْشَـاهَـا»
أَسَـامِيـاً لَـمْ تَـزِدْهُ مَعْـرِفَـةً   وإِنَّمَـا لَـذَّةً ذَكَـرْنَـاهَـا

* * *

الداعي السادس: إرادة التنفير، واستثارة الخوف، أو استثارة التقزّز من ذكر اسمه، وهذا يظهر حينما يكون المتحدَّث عنه مُخِيفاً أو مكروه الاسم ينْفِرُ منْه المتلقّي، كاسم «جهنّم» علماً على دار العذاب يوم الدين، وكاسم «الحجّاج» عند خصومه، واسم الضرّة على مسمع ضَرَّتِها، إذَا كانت أثيرة عند زوجها ومالكةَ قلْبه، فسَمَاعُ اسم ضرّتها يثيرها ويغضبها ويهيّج غَيْرَتها.

ومن النفرة من الأسماء في غير باب الْعَلَم ما حدّثنيه بعض من مضىٰ إلى رحمة الله من الأصدقاء، أنَّ عَلَماً ذَا شهرةٍ كبيرَةٍ من أهل العلم والأدب والقلم واللّسان يكره الْجُبْن منذ طفولته، وله طبْعٌ مزاجيٌّ أَذِيٌّ، إذا ذكر اسم الجبْنِ على مَسْمَعٍ منه تقزَّزَتْ نفسه، وثار غَضباً على من قصد إسماعه إيّاه.

وكان له صديق شاعر أديب يصاحبه في بعض نزهاته، ويجالسه في مجالس أُنْسِهِ، وكانا يسيران معاً في إحدى الضواحي، فلقيهما من حدّثني القصّة، وهو من أهل هذه الضاحية، فقال له الشاعر: هل عندكم في بلدكم جبْنٌ حسَنُ الصنعة خالٍ من الغش؟

وقبل أن يجيبه ثار عليه صديقه الذي يكره الجبْنَ ثورة عظيمة، وشتمه، وانطلق مفارقاً له.

* * *

الداعي السابع: إرادة إثارة الفأل الحسن، وهذا حينما يكون الاسم العلم فيه ما يُشْعِر بالتفاؤل مثل: «سعْد ــ سعيد ــ رضا ــ هناء ــ الشفاء» أعلاماً.

* * *

الداعي الثامن: إرادة إثارة التشاؤم لدى المتلقي، إذا كان من الذين يتشاءمون، وهذا حينما يكون الاسم العلم فيه ما يثير التشاؤم، مثل: «السفّاح ــ الجارود ــ أبو لهب ــ قحطان» أعلاماً.

* * *

الداعي التاسع: إرادة التسجيل والتثبيت حتىٰ لا يتأتّىٰ الإنكار، ويُلْجَأُ إلى تحقيق هذا الداعي كثيراً في تثبيت العقود، وتدوين الشهادات، وفصل الخصومات في القضاء، فذكر الأعلام فيها بالتفصيل ممّا يتحقّق به التسجيل المميَّزُ الذي تُحَرَّرُ فيه القضايا، وتُضْبَطُ بكلٍّ ما يتطلَّبُهُ التسجيل من ضوابط.

* * *

ثالثاً ــ دواعي اختيار اسم الإشارة:

اسم الإشارة: هو ما وُضع لمشارٍ إليه مذكراً أو مؤنّثاً، مفرداً أو مثنّىً أو جمعاً، وقد تلحق به كاف الخطاب، ولام البعد، وقد تقترن به «ها» التي للتنبيه.

وأسماء الإشارة هي:

(١) الإشارة إلى المفرد المذكر تكون بكلمة «ذا».

(٢) والإشارة إلى المفردة، تكون بما يلي: ذي ــ تي ــ ذِهْ ــ تِهِ [وتنطقان بثلاثة

وجوه: بإسكان الهاء وبكسرها دون إشباع وبكسرها مع إشباع] ذات ــ تا».

(٣) والإشارة إلى المثنّىٰ المذكر تكون بـ: «ذانِ» في حالة الرفع، و «ذين» في حالتي النصب والجرّ.

(٤) والإشارة إلى المثنّىٰ المؤنَّث تكون بـ: «تانِ» في حالة الرفع و «تَيْنِ» في حالتي النصب والجر.

(٥) والإشارة إلى جمع العقلاء من الذكور والإناث تكون بـ: «أُولَاءِ» وقد يُشَار به قليلاً إلى جمع غير العقلاء.

(٦) والإشارة إلى الأمكنة تكون بـ «هُنَا [للمكان القريب] وقد يقترن بها «ها» التي للتنبيه، فتصير «هٰهُنَا».

ويُشَار إلى البعيد من الأمكنة بإحدى الصّيغ التالية: «هُنَاك ــ هٰهُنَاك ــ هُنَالِكَ ــ هَنَّا ــ هِنَّا» وبكلمة «ثَمَّ» بفتح الثاء.

وتلحقُ كافُ الخطاب اسْمَ الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد، وكاف الخطاب حرفٌ لا محلّ له من الإعراب، فتفتح للمخاطب المذكر، وتُكْسَرُ للمخاطبة، وتتصل بها علامة التثنية في المثنّى، وعلامة الجمع في الجمع.

وقد تُزادُ لامُ الْبُعْدِ قبل كاف الخطاب للدلالة على الْبُعْدِ الكثير، باستثناء: [المثنَّىٰ ــ وأولئك ــ وما سبقته «ها» التي للتنبيه] فلا تزاد لام البعد فيها.

فتقول: «ذَاكِ وذَلِكَ ــ ذَاك وذَلِكِ ــ ذاكُمَا وذَلِكُمَا ــ ذاكُمْ وذَلِكُمْ ــ ذَاكُنَّ وَذَلِكُنَّ».

وقِسْ على هذا سائر أسماء الإشارة مراعياً ما يجوز وما لا يجوز.

ولاستخدام اسم الإشارة مزايا أساسية منها الإيجاز وتفادي التكرار اكتفاءً بدلالة اسم الإشارة.

وقد ظهرت للبلاغيين عدّة دواعٍ لاختيار اسم الإشارة، دون غيره من المعارف، وفيما يلي بيانُها مع التّنبيه على أنّ الدواعي لا تنحصر فيها:

الداعي الأول: أن يتعَيّن اسم الإشارة طريقاً للتعريف بالمشار إليه، كأن يكون المتكلّم والمتلقّي أو أحدهما لا يعرف من المعارف التي تُميّزُ المتحدَّثَ عنْهُ غيَر كونه حاضراً مُحَسَّاً يشارُ إليه، فيكون استعمال اسم الإشارة لتعيين المتحدّث عنه هو الأمر الذي ينبغي المصير إليه.

أمثلة:

● لمّا كان الملائكة يجهلون أسماء ما عَرَضَ الله عليهم من خلقه قال لهم: «أَنبِئُوني بأَسْمَاءِ هَؤلاء» فأشارَ إِلَيْهِمْ باسم الإشارة لتعيينهم، قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

● قول الشاعر يُثْني علي ممدوحه بأنّه يَقْرِي ضيفه الطارقَ عليه بليل وهو لا يعرفه، فينحر له الناقة، ذَاتَ السَّنَام العظيم:

وَإِذا تَـأَمَّـلَ شَخْـصَ ضَيْـفٍ مُقْبِـلٍ ... مُتَسَـرْبِـلٍ سِـرْبَـالَ لَيْـلٍ أَغْبَـرِ
أَوْمَـا إِلَـىٰ الْكَـوْمَـاءِ هَـذَا طَـارِقٌ ... نَحَـرَتْنِـيَ الأَعْـدَاءُ إِنْ لَـمْ تُنْحَـرِي

أَوْمَا: أي أومأَ بمعْنَىٰ أشار.

الكَوْمَاء: النَّاقَةُ ذَاتُ السَّنَامِ العظيم، وعظم سنامها يدلُّ على سِمَنِها.

هَذَا طَارِقٌ: أي: هذا ضيف طَارق، والطَّارِقُ هو الذي يأتي ليلاً.

والشاعر يدعو على نفسه بأن تَنْحَرَهُ الأَعْدَاءُ إنْ لم يَنْحَرْ نَاقَتَهُ إكراماً للضيف الطارق عليه الذي لا يعرفه، وقد مَيَّزَهُ باسم الإشارة «هذا».

● ومنه قول سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هذَا بَلَداً آمناً﴾.

* * *

الداعي الثاني: إرادة تمييز المتحدَّثِ عنه أكمل تمييز يُحْضِرُهُ في ذهْنِ المتلَقِّي، مبالغةً فِي تعيينه، وقد يحسُنُ هذا في الإطراء، أو في الهجاء، ومعلومٌ أنّ من طبيعة دلالة اسم الإشارة تحديد المشار إليه تحديداً ظاهراً متميّزاً عن غيره وهذا قد يكون من مقاصد المتكلّم.

أمثلة:

● قول ابن الرومي مادحاً أبا الصقر الشيباني:

هـذَا أبُـو الصَّقْـرِ فَـرْداً فـي مَحَـاسِنِـهِ ... مِنْ نَسْلِ شَيْبَانَ بَيْنَ الضَّالِ والسَّلَمِ

الضّال: شجر السّدر، وهو من شجر البوادي.

السَّلَم: شجر ذو شوك، وهو من شجر البوادي أيضاً.

لمّا أراد ابن الرّومي وصف أبـي الصقر بأنّه فردٌ في محاسنه ذكره باسم الإشارة ليميّزه أكمل تمييز.

● سأل رجلٌ من أهل الشام هشام بن عبد الملك عن عليّ بنِ الْحُسَيْنِ: مَنْ هو؟ وكان ذا هيئةٍ ونضارة، فتجاهله هشام، خشية أنْ يفتَتِنَ به أهْلُ الشّام، فقال الفرزدق مستخدماً اسم الإشارة في شعره، يمدح عَلِيّ بْنَ الْحُسَيْن:

هـذَا ابْـنُ خَيْـرِ عِبَـادِ اللَّـهِ كُلِّهِـم ... هَـذَا التَّقِـيُّ النَّقِـيُّ الطَّـاهِـرُ الْعَلَـمُ
هـذَا الَّـذِي تَعْـرِفُ الْبَطْحَـاءُ وَطْـأَتَـهُ ... والْبَيْـتُ يَعْـرِفُـهُ والْحِـلُّ والْحَـرَمُ
إذَا رَأَتْـهُ قُـرَيْـشٌ قَـالَ قَـائِلُهَـا ... إلَـى مَكَـارِمِ هَـذَا يَنْتَهِـي الْكَـرَمُ
يَكَـادُ يُمْسِكُـهُ عِـرْفَـانَ رَاحَتِـهِ ... رُكْـنُ الْحَطِيـمِ إذَا مَـا جَـاءَ يَسْتَلِـمُ
يُغْضِـي حَيَـاءً وَيُغْضَـىٰ مِـنْ مَهَـابَتِـهِ ... فَمَـا يُكَلَّـمُ إلاَّ حِيـنَ يَبْتَسِـمُ

لقد حَسُنَ في ذوق الفرزدق أنْ يُكَرِّر استعمال اسم الإشارة للدّلاَلة على ممدوحه وتمييزه أكمل تمييز، وفي هذا التمييز ردٌّ ضِمْنِيٌّ على تجاهل هشام بن عبد الملك له.

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾.

وقولُهُ تعَالَىٰ:

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾.

فجاء ذكْرُ حديثِ الإفْكِ باسْم الإشارة «هذا» في ثلاثة مواضع: [هذَا إفْكٌ] و [مَا يكونُ لنا أن نتكلّم بهذا] و [هذا بِهْتَانٌ عَظيمٌ] لتمييزه أبلغ تمييز، وإبرازه بما فيه من قُبْحٍ وشناعةٍ وظُلْمٍ لا يَلِيقُ بالمؤمنين.

● وتظهر إرادة تمييز المشار إليه في قول الله تعالى في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) خطاباً لأهل الكتاب:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

لمَّا كان خطابُ أهل الكتاب بعبارَة ﴿هَا أَنْتُمْ﴾ محتَمِلةً لمخَاطبَةِ جميع أهْلِ الكتاب إبّانَ التّنزيل، سواءٌ من كان منهم قد واجه الرَّسُول محمّداً ﷺ ومن لم

يواجهه، اقتضىٰ تمييز المجادلين من عموم أهل الكتاب بعبارة ﴿هؤُلَاءِ﴾ أي: يَا هؤلاء، لا غيركم من سائر أهل الكتاب.

وفي الآية (٦٨) اقتضى تمييز محمّد ﷺ باسم الإشارة مع وصفه بالنبوّة، فقال تعالى: ﴿وَهذَا النبـيّ﴾.

* * *

الداعي الثالث: إرادة التعريض بغباوة المتلقّي، إذ يُشْعِر أحياناً استخدام اسْم الإشارة بأنّ المخاطَب يحتاج لتمييز المتحدّث عَنْهُ إلى إشارة حسّيّةٍ، وأنَّه لَا تكفيه الدلالات الفكريّة.

وقد مثَّلُوا لهذا الداعي بقول الفرزدق من قصيدة يفتخر فيها على جرير:

أولئِــكَ آبَــائِــي فَجِئْنِــي بِمِثْلِهِــمْ   إذا جَمَعَتْنَــا يَــا جَــرِيــرُ الْمَجَــامِــعُ

وأرى أنه من قبيل الداعي الرابع الآتي بيانه إن شاء الله.

● ويمكن أنْ نفهم التعريض بغباوة المخاطبين في قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: أليس هذا الذي أنْتُمْ فيه تُحِسُّونَهُ وَتَعِيشون فيه بعد بعثكُمْ إلى الحياة الأُخْرىٰ بالواقعِ الحقّ، وهو الأمر الذي كنْتُمْ تُنْكِرُونَه وتَجْحَدُونَه في الحياة الدنيا؟

● ويكْثرُ في مخاطبات الناس أنّهم كلّما شعروا بغباء المخاطب عن إدراك المتحدّث عنه استخدموا له اسماً من أسماء الإشارة، على معنى: هذا أو ذاك أو ذلك فانظره إذا كنت من الذين لا تكفيهم الدلالة الفكرية.

* * *

الداعي الرابع: إرادة تكريم المتحدَّث عنه والتعبير عن ارتفاع منزلته، باستعمال اسم الإشارة الذي يُشار به إلى البعيد، والأمثلة على هذا كثيرة في القرآن المجيد.

الأمثلة:

- قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾.

جاء في هذا النّص استخدام اسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد، مع أنّ المشار إليه متْلُوٌّ على المتلقّين قريبٌ منهم، للإشعار بأنَّه جليلٌ رفيع المنزلة، جديرٌ لارتفاع منزلته أن يشار إليه باسم الإشارة الموضوع للبعيد.

- وقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة) أيضاً بعد أن فصّل صفات المتقين:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾.

فأشار إليهم باسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد إشعاراً بارتفاع منزلتهم فوْقَ الناس، إذْ منزلتهم الرفيعة جديرة بأن يُشَارَ إليهم فيها بهذه الصيغة من أسماء الإشارة.

ونظائر هذا الاستعمال في القرآن كثيرة.

- قول الشاعر «الحطيئة» مادحاً:

أُولئِـكَ قَـوْمٌ إنْ بَنَـوْا أَحْسَنُـوا الْبِنَـىٰ   وإنْ عَاهَدُوا أَوْفَوْا وإنْ عَقَدُوا شَدُّوا

الْبِنَى: جمع «الْبِنْيَة» وهي تُطلق على كُلِّ ما بُنِي.

وإنْ عَقَدُوا شَدُّوا: يقال لُغَةً شَدَّ الْعَقْدَ إذَا وَثَّقَه.

* * *

الداعي الخامس: إرادة إهانة المتَحَدَّث عنه، والتعبير عن انحطاط منزلته،

وبعدها كثيراً إلى جهة الأسفل، باستعمال اسم الإشارة الذي يشار به إلى البعيد، والأمثلة على هذا كثيرة في القرآن المجيد.

الأمـثـلـة:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾.

أي: وأولئكَ المنحطونَ السّافلون البعداء جدّاً عن رحمة اللَّهِ أصحاب النار هم فيها خالدون.

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾.

أي: أولئك الذين ردّوا أنفسهم بكفرهم إلى أسْفَلِ سافلين حتى صاروا أضلّ من الأنعام، فابْتَعَدُوا جدّاً عَنْ مَهَابِطِ رحْمَةِ الله فصاروا أصحاب جهنّم يوم الدين، فناسب حالُهم أن يشار إليهم باسم الإشارة الذي يشار به إلى البعيد.

ذَرَأْنَا: أي: خلقنا وفق نظام التناسل الذي تكون المواليد به ذُرّيّة آبائهم وأُمّهَاتهم.

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول) بشأن المنافقين:

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾.

أي: أولئكَ المنافقون البعداء عن مهابط الرحمة إلى جهة الدَّرْك الأسْفلِ من النّار الذين لعنهم الله بسبب نفاقهم فأصَمَّهُمْ وأعْمَىٰ أبصارهم.

* * *

الداعي السادس: إرادة تَحْقِيرِ المتحدَّثِ عنه بتعريفه باسم الإشارة.

الأمـثـلـة:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) حول مقالة الذين كفروا بشأن رسول الله محمد ﷺ:

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

من الظاهر في عبارة الذين كفروا: [أَهَذَا الّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ] أنّهم يريدون التحقير باستعمال اسم الإشارة «هذا» مع الاستفهام الذي يراد منه الاستصغار والتحقير أيضاً.

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) في حكاية قول فرعون يحرّض جيشه الذي جمّعَه لملاحقة موسى عليه السلام ومعه بنو إسرائيل خارجين من مصر في اتجاه سيناء:

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

فحقَّرَ فِرْعَوْنُ بَنِي إسْرَائيل وقَلّلَ من شأنهم بقوله «إنَّ هَؤلاَءِ» وفصّل كلامه بقوله: «لَشِرْذِمةٌ قَلِيلُون».

الشِّرْذِمَةُ: الجماعة القليلة، وجمعُ «شِرْذِمَة» شَرَاذِم.

* * *

الداعي السابع: إرادة بيان أنّ المتحدَّثَ عنه واضح جليّ حاضرٌ قريب التناول لا يحتاج إلى بَحْثٍ وَجَهْدٍ للوصول إليه.

الأمـثـلـة:

●

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (/ الأنعام ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

أي: هذا القريب منكم جدّاً، والظّاهر بما أنزلت عليكم من بيان حوله، والذي يتلاءم مع فطرة عقولكم ونفوسكم، وهو دين الإسلام هو صراطي حالة كونه مستقيماً لا اعوجاج فيه.

● وقول الله عزَّ وجلَّ بشأن القرآن في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

أي: إنّ هذا القرآن القريب منكم الّذي يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ.

* * *

الداعي الثامن: تنزيل المعنويات الفكريّة منزلة الأشياء الّتي تُدْرَكُ بالحواسّ الظاهرة، فهِيَ تَسْتَحِقُ أَنْ يُدَلَّ عليها باسم الإشارة، بحسب ما يرى المتكلم من حالها قرباً أو بعداً.

فإذا كان يرى أنّها قريبة أشار إليها باسم الإشارة الذي للقريب.

وإذا كان يرىٰ أنّها بعيدة أشار إليها باسم الإشارة الّذي للبعيد.

ومنه قول الشاعر ابن الدمينة يخاطب معشوقته:

تُرِيدِينَ قَتْلِي قَدْ ظَفِرْتِ بِذَلِكِ ... تَعَالَلْتِ كَيْ أَشْجَىٰ وَمَا بِكِ عِلَّةٌ

فنزّلَ فِكْرةَ قَتْلِهِ منزلةَ الأَمْرِ المدرك بالحسّ الظاهر، فأشار إليها باسم الإشارة، ولكن أَلْمَحَ إلى أنّ لديه قدرة احتمال قد تؤخِّرُ موته فتجعَلُه بعيداً يشار إليه باسم الإشارة الموضوع للبعيد.

* * *

الداعي التاسع: استخدام اسم الإشارة الذي يُشار به إلى ذي أوصاف متعددة سبقت في الكلام، للإشعار بأنّ هذه الأوصاف السابقة هي التي جعلته مستحقاً لأن يُحْكَمَ عليه بما جاء في جملته الخاصة.

الأمثلة

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) في وصف المتقين:

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾.

أيْ: إنَ الحكم لهم بالفلاح وظفرهم به يوم الدين قد كان بسبب اتّصافهم بالأوصاف التي ذُكِرَت لهم فيما سبَقَ من النصّ في عدّة جُمَلٍ.

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة) أيضاً في وصف الفاسقين:

﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٢٧﴾.

أي: إنّ الحكم عليهم بأنّهم هم الخاسرون قد كان بسبب اتصافهم بالأوصاف التي ذُكِرَتْ لهم فيما سبَقَ من النصّ.

ونظائر هذَيْنِ المثالين في القرآن المجيد كثيرة.

* * *

الداعي العاشر: إرادة التهكّم بالمخاطب، ومن أمثلته أن يكون المخاطب أُمّيّاً لا يقرأ وَلَا يكتُبُ، ويُجَادِل في مسائل علميّة، ويدّعي أنَّ القرآن يشْهَدُ لِمَا يقول، وذكَرَ آيةً من حفظه على خلاف تلاوتها الصحيحة، ومُحَدِّثه يَعْلَمُ أنَّه أُمّي، فيقول له: هذا المصحف فاتْلُ علينا الآيَةَ الَّتِي ذَكرْتَ مِنْه.

إلى غير ذلك من دواعٍ تتفتّقُ عنها قرائح البلغاء ومُتَدَبّري النصوص البليغة الرفيعة.

* * *

رابعاً ــ دواعي اختيار اسم الموصول:

اسم الموصول: هو اسم معرفة يفتقر في بيان المراد منه إلى أمْرَيْن:

الأمر الأول: الصلة، وهي:

(١) جملةٌ خبرية، مثل: الذي **خلق كلّ شيء**.

(٢) أو شبه جملة (وشبه الجملة الظرف والجار والمجرور المتعلقان بعامل محذوف وجوباً) مثل: الذي **في الدار**، والذي **عندك**.

(٣) أو وصف صريح (وهذا خاصٌّ بألْ الموصولية) مثل: هذا المغلوبُ على أمره، أي: الذي غُلِبَ على أمره.

الأمر الثاني: العائد، وهو ضمير مذكور أو محذوف يربط الصلة به.

وأسماء الموصول، منها ما هو نصٌّ في معناه، وهي ثمانية: «الذي ــ الّتِي ــ اللَّذَان ــ اللّتَانِ ــ الأُلَىٰ ــ الّذِينَ ــ اللاّتي ــ اللاّئي».

ومنها ما هو مشترك، وهي ستة: «مَنْ ــ ما ــ أيُّ ــ ألْ ــ ذُو ــ ذا».

فاسم الموصول هو اسم مُبْهَمُ الدلالة لولا صلته الكاشفة للمراد به، والمعرِّفةُ حقّاً بما يرادُ الدلالة به عليه.

وهذا الإِبهَامُ الأوَّليُّ في اسم الموصول يُحْدِثُ في نَفْسِ المتلَقِّي تشَوُّفاً وَتَشَوُّقاً لمعرفة المراد به عن طريق صِلَته.

فهو بسبب استثارته للدّاعي النفسيّ إلى المعرفة يُعْتَبَر من أدوات البيان التي تنفتح لها أبواب النفس انفتاحاً تلقائياً فتتلقَّفُهَا بالدافع الذّاتي إلى المعرفة.

ومن هنا تَبْدُو لنا ميزةٌ خاصّةٌ لاسم الموصول لا تُوجَد في غيره، ويُضاف إلى هذه الميزة أنّ صلة الموصول قد تتضمَّن مع التعريف بالمدلول عليه به بياناً لمعانٍ مُهمَّةٍ تُؤَدَّىٰ بكلام تامّ يَقْصِدُ المتكلّم بيانها، مع صياغتها في إطار مفردٍ هو جزء جملة، ويَقْصِدُ توصيلَها إلى من يُوجَّه له الكلام.

أمّا الدواعي البلاغيّة الخاصّة الّتي تدعو المتكلّم البليغ إلى استخدام اسم الموصول في كلامه، للتعريف بالعنصر الاسمي من عناصر أركان جملته، فهي الّتي اهتمَّ البلاغيون بالتنبيه على ما اكتشفوه منها.

وقد ذكر البلاغيُّونَ طائفةً من الدواعي البلاغيَّة لاختيار اسم الموصول مِنْ ضِمْن البدائل التي تصلُح لأن تستخدم في موقعه من الجملة، دون أن يكون ما ذكروه منها حاصراً لكلّ الدواعي التي تتفَتَّقُ عنْها قرائح أذكياء البلغاء.

ومع تجاوز التقيّد بحدود المسند والمسند إليه تظهر لنا الدواعي التالية:

الداعي الأول: أَنْ لا يكون لدىٰ منْ يتلقَّىٰ الكلامَ عِلْمٌ بشيءٍ من المعرّفات التي تعرّف العنصر الاسميّ، أو تميّزه في الجملة عن غيره، إلاَّ اتّصافه بما دلَّت عليه صلة الموصول، فيكون اختيار الاسم الموصول في هذه الحالة أمراً لازماً لتحقيق البيان الذي يستدعيه الكلام.

كأن لا يعرف عنه المخاطب غير أنّه اشترى منه خروفاً يوم الجمعة، فيقول له

ابنُه مثلاً: يا أبـي جاء الذي اشتريتَ منه الخروف يوم الجمعة يُطالِبُ بباقي ثمن الخروف.

ومنه قول الله عزَّ وجلَّ في عرض قصة موسى عليه السلام في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول) بشأن الإسرائيلي الذي استنصره في مصر فنصره على القبطي:

﴿ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

فمُتلقُّو هذه القصة وتالوها لا يَعْرِفُونَ عن هذا الرجل غير ما جاء في سِبَاقِ القصة من أنّه استنصر موسىٰ بالأمس فنَصَرَهُ، فوكَزَ مُوسَىٰ الرَّجُلَ القبطيَّ فقضىٰ عليه.

* * *

الداعي الثاني: إرادة الوصف بما تضمّنته صلة الموصول، وهذا شائع كثير، ومنه قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ... ﴾ [الآية ١٨٥].

* * *

الداعي الثالث: تحاشي التصريح باسمه لكونه مُسْتَهْجَناً، أو يُؤْثر المتكلّم عدم التصريح به تأدُّباً أو تعفُّفاً أو استحياءً أو غير ذلك، فيكونُ تمييزه بالوصف عن طريق الموصول وصلته محقّقاً لمطلوب البيان، دون التعرض للتّلفُّظ بما هو مستهجَنٌ ممجوج مُسْتكْرَهٌ في آذانِ المتلقين، أو ما يؤثر المتكلّم عدم التصريح به لسبب من الأسباب.

ومنه ما رواه الضحّاك بن سفيان أنّ النبـيّ ﷺ قال:

«إنَّ اللَّهَ جَعَلَ مَا يَخْرُجُ مِنِ ابْنِ آدم مَثَلاً للدُّنْيَا».

أخرجه الإمام أحمد والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان(١).

يلاحظ أنّ ذكر ما يخرج من ابن آدم باللّفظ الصريح مستَهجن، فأشار الرسول إليه بأنّه الذي يخرج من ابن آدم، فاستخدم اسم الموصول وصلته.

ومنه ما رواه البخاري عن سهل بن سعد أنّ النبيّ ﷺ قال: «مَنْ يَضْمَنْ لِي ما بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الجنَّة».

* * *

الداعي الرابع: إرادة زيادة تقرير الغرض المسوق له الكلام، لما في صلة الموصول من ظلال دلالاتٍ توحي بوقوع الحدث، إذا قيس بأشباهه في مثل ظروفه، كأن تقول: سرق خزينة القصر الذي يعرف خباياه، ومداخله ومخارجه، وباستطاعته أن يتوصل إلىٰ مفاتيح أبوابه بسهولة، وأنت تقصد شخصاً معيّناً تعرف اسمه، وتنطبق عليه هذه الأوصاف، فذكرك له باسم الموصول وصلته مما يزيد في تقرير وقوع السّرقة منه، وذلك لأنّ من كان مثله في صفاته كان عُرضةً لأن يسرق الخزينة.

ومن شواهد هذا الداعي قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول) بشأن مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام واستعصامه بالعفة وبالخوف من الله، وتمنُّعِهِ عن الوقوع في الفاحشة:

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾.

فاختيار ذكر: [الّتِي هُوَ في بَيْتِهَا] دون ذكر اسمها «زليخة» أو ذكر «امرأة

---

(١) أشار السيوطي إليه بالصحة في الجامع الصغير.

العزيز» كما جاء في موضعٍ آخر من السورة، لزيادة تقرير وقوع الحدث، إذْ كونُ يوسف عليه السلام في بيتها، وهي سيّدتُه المطاعة فيه، لا بُدَّ أن يُلاحظ معه أنّها لا تراوده إلاَّ إذا وصَلَتْ إلى ذِرْوة الإعجاب بشخصه والافتتان بصفاته، بعد مخالطة طويلة رأت فيها من جماله وبهائه وذكائه وشبابه ورجولته وحسن أدبه، وكمال خلقه ما جعلها شغوفة بحُبّه حُبَّ النساء للرجال، وهي ترى أنّ لها عليه سلطان الآمر الناهي، وأنّ عَلَيْه أن يُحَقِّق لها مطالِبَها منه.

ومع زيادة التقرير هذه نلاحظ مضمون الثناء على عفّة يوسف عليه السلام، واستعصامه وطاعته لربّه، إذ استطاع مع وجود كلّ الدواعي الدافعة بقوّةٍ إلى الخطيئة، أَنْ يَصْمُدَ أمام كلّ مثيرات الإغراء، وأنْ يتحدَّىٰ سلطةَ سيّدة القصر الّتي تريد تحقيق رغبتها ولو بالقوّة.

وتُفْهَمُ زِيَادةُ التقرير هذه من قول أبـي العلاء المعرّي:

أَعُبّــادَ الْمَسِيــحِ يَخَــافُ صَحْبِــي ... وَنَحْـنُ عَبِيـدُ مَـنْ خَلَـقَ الْمَسِيحَـا؟!

أي: من المستبعد جدّاً في أصْحَابـي المسلمين الذين يَعْبُدونَ من خَلَقَ الْمَسِيحَ، ويستعينون به، ويرجون منه النَّصْرَ أن يَخَافُوا مَنْ يَعْبُدون الْمَسِيحَ الذي هو عبد الله، وخَلْقٌ من خلْقِه، وإن استنصرتموهُ لم يَنْصُرْهم.

* * *

الداعي الخامس: إرادة التفخيم والتعظيم أو التهويل، وذلك لأنّ الإبْهام الذي قد يوحي به اسم الموصول مع صلته أحياناً يومىء إلى ذلك.

● ومنه قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾.

أي: فَغَشِيَ فرعَوْنَ وجُنُودَه من الْيمّ مَا غَشِيَهُمْ منْ أمْرٍ مَهُولٍ جدّاً، فدَلّ الإبهام في الموصول وصلته عَلى عِظم الأمر المهول الذي غشيهُمْ.

● ونظيره قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول):

﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾.

المؤتفكة: أي: المنقلبة، وهي قُرَىٰ قوم لوط.

فَغشَّاهَا مَا غشَّىٰ: أي: فنزل عليها من فوقها شيءٌ مهولٌ عظيم سترها كلَّها فدمّرها تدميراً شاملاً، فدلّ الإبهام في الموصول وصلته على عِظَم الأمر المهول الذي غشَّىٰ قرى قوم لوط المنقلبة عاليها سافلها.

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النجم) أيضاً بشأن نفيخم وتَعْظِيم ما يَغْشَىٰ سِدْرَةَ المنتَهَىٰ، فوق السماوات السّبع:

﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾.

أي: إذْ يَغْشَىٰ السّدْرة شيءٌ فخم عظيم لا تستطيع الأوهام أن تتخيّله.

* * *

الداعي السادس: الإشارة إلى أنّ الوصف الذي دلّت عليه صلة الموصول هو علة بناء الحكم في الجملة، وهذا نظير قول علماء أصول الفقه: بناء الحكم على المشتقّ يُؤْذن بعلّيّة ما منه الاشتقاق.

والإشارة أيضاً إلى أن الوصف الذي دلّت عليه صلة الموصول يقتضي الالتزام بالتكليف الذي يأتي بعده.

والأمثلة على هذا الداعي بفرعيه كثيرة في القرآن المجيد، فمنها ما يلي:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ ﴾.

أي: هذا الجزاء الكريم لهم إنّما هو بسبب اتصافهم بالإيمان والعمل الصالح وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

- وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿٥٦﴾ ﴾.

أي: هذا العذاب الأليم لهم إنّما يكون بسبب كفرهم بآياتِ الله.

- وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الحشر/ ٥٩ مصحف/ ١٠١ نزول):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

أي: إنّ إيمانكم بالله واليوم الآخر يقتضى منكم الالتزام بطاعة الله، لتتَّقُوا عذابه يوم الدين.

* * *

الداعي السابع: قد يُتَّخذُ اسم الموصول مع صلته ذريعة لتعظيم الموصوف به، إذ اتّصافُه بما تضمَّنته صلة الموصول من وصفٍ عظيم أمرٌ يدلُّ على أنّه عظيم، كأن تقول: الذي خَلَقَ السماوات والأرض وأتقن كلّ شيءٍ صُنْعاً هو إلّهُنا. فوَصْفُهُ بِـ هو الخالق المتقن لكلّ شيءٍ يَدُلُّ على عظمته وجلاله واستحقاقه أن يُعْبَد ويُفْرد بالعبادة.

وقد يُتَّخَذُ ذَرِيعةً للتعريض بالمنزلة الرفيعة للمتكلّم، أو فخامة شيءٍ يتعلّق به، أو نحو ذلك، كأن تقول: الذي بنَىٰ قصر الملك هو الذي بنَىٰ قَصْرِي، تشير إلى فخامة بناء قصرك، وأنّك ذو مكانة رفيعة.

ومنه قول الفرزدق من قصيدة يفتخر بها على جرير:

إِنَّ الـذي سَمَـكَ السَّمَـاءَ بَنَـىٰ لَنَـا بَيْتـاً دَعـائِمُـهُ أَعَـزُّ وأَطْـوَلُ

وقد يُتَّخَذُ ذريعة للتخويف من عقاب الموصوف به، والتحذير الشديد من مخالفته، ومنه قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) في حكاية ما قال شعيب عليه السلام لقومه:

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾.

والجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ: أي: الأمَّةَ الأَوّلِينَ من الناس.

والمعنى أنّ خالق الناس جميعاً يجب أن يُتَّقَىٰ عقابُه، إذ هو على كلّ شيءٍ قدير.

* * *

الداعي الثامن: إرادة تنبيه المخاطب على خطأٍ واقع فيه، بما تضمّنَتْه صلة الموصول مما يخالف معتقده، ومنه قول عَبْدَة بْنِ الطبيب من قصيدة يَعِظُ فيها بَنِيه:

إِنَّ الَّـذِيـنَ تَـرَوْنَهُـمُ إِخْـوَانَـكُـمْ يَشْفِي غَلِيلَ صُدُورِهِمْ أَنْ تُصْرَعُوا

غَلِيلَ صُدُورهم: أي: غيظ صدورهم منكم.

أَنْ تُصْرعُوا: أي: أن تَهْلِكُوا وتَمُوتُوا.

* * *

الداعي التاسع: قصد الدلالة على معانٍ تتضمنها صلة الموصول، وهذه المعاني لا تدلُّ عليها المعارف الأخرى، ولا حصر لهذه المعاني.

وبعض هذه المعاني يُشعر بتعظيم من دلّ عليه اسم الموصول، وما يجب تجاهه، مثل: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾﴾ [الانفطار/ ٨٢].

وبعضها يشعر بالتّهكُّم، مثل قول المشركين للرسول ﷺ كما جاء في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦ ﴾ .

وبعضها يُشْعر بالحثِّ على الرحمة والمعونة والإحسان، مثل: أسعفو الّذِين يتعرّضون للتقتيل والتشريد والجوع والظمأ والمرض من مسلمي البوسنة والهرسك على أيدي الصِّرْبِ الهمج.

* * *

خامساً ــ دواعي اختيار المعرّف باللاّم:

(١)
مقدمة

الاسم المعرّف باللاّم [وقَدْ يستعمل النحاة عبارة المعرّف أو المحلّى بـ «ال»] تدخل عليه أداة التعريف هذه فتدُلُّ على مَعَانٍ متعدّدة، تختلف باختلاف المراد منها الذي تكشفه القرائن اللفظية أو غير اللفظية.

وقد أحْصَىٰ النحاة وتبعهم البلاغيون المعانيَ التي يُمْكن أن تستفاد من هذه الأداة من أدوات التعريف.

ونبّه البلاغيون على أن المتكلّم البليغ قد يختار في كلامه الاسم المعرّف باللاّم دون المعارف الأخرى التي تَصلُح بدائل له، للدّلالة على معنى يقصده من المعاني التي يمكن أن تستفاد من أداة التعريف هذه، مع قصْدِ الإيجاز في التعبير.

ونلاحظ أنّه كلّما كان المتكلّم أكثر إحساساً بفروق المعاني، وأكثر تذوّقاً لفروق العناصر الجمالية في الكلام، وأكثر إدراكاً لمطابقة الكلام لمقتضىٰ الحال، كان أحْسَنَ اختياراً من البدائل التي يَصْلُح كلٌّ منها لأداء أصل المعنى المقصود بوجه عامّ، وبسبب ذلك تتفاوت مراتب الكلام البليغ ودرجات كلّ مرتبة منها، وتتفاضل مراتب البلغاء ودرجاتهم في إنشاء الكلام البليغ والإبداع فيه.

* * *

(٢)

تقسيم لام التعريف

قسّم النحويّون اللاّم التي تدخل على الاسم فتفيده تعريفاً إلى قسمين: اللاّم الجنسية، واللاّم العهدية.

أمّا اللاّم الجنسيّة[١]: (وقد تُسمَّىٰ عند البلاغيين لام الحقيقة) فهي ثلاثة أنواع:

النوع الأول: اللاّم التي لبيان الحقيقة والماهية، وهي التي لا يصحّ أنْ يستعمل بدلَها كلمة «كلّ» فيشارُ بها إلى الحقيقة الشائعة في الأفراد، دون النظر إلى الدّلالة على عُمومٍ أو خصوص.

ومن الأمثلة على هذا النوع ما يلي:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: وجعلنا من ماهيّةِ جنْسِ الماء كلَّ شيء حيّ، فإرادة حقيقة الماء وماهيته تستبعد إرادة كُلِّ الماء على سبيل الاستغراق، والقرينةُ على إرادة الحقيقة والماهيّة دون الاستغراق الواقعُ المشاهد، فالأحياء يدخل في تركيب أجسادها عنصر الماء، مع وجود مياه منفصلة عن الأحياء، ومياه لم تخلق منها أحياء بعد.

---

(١) يطلق لفظ «الجنس» عند النحويين واللّغويين والبلاغيين والفقهاء على كلّ لفظٍ كُلِّيّ مقول على أفراد متعدّدة كثيرة تشترك في معنى جامع، بحيث يصدُقُ الكلّيّ على كل واحد منها لوجود حقيقة الجنس فيه، فهو يشملُ في إطلاقهم أقسام الكليات الخمس المعروفة في اصطلاح علماء المنطق (الجنس، والنوع، والفصل، والخاصّة، والعرض العام) ويشمل أيضاً الصنف من الأصناف ضمن النوع الواحد، والفصيلة من الفصائل ضمن الصنف الواحد.

● والقول المشهور: «أهلك النّاسَ الدِّينارُ والدّرْهم» أي: أهلك جنْسَ الناس لا كلَّ أفرادهم جنْسُ الدينار وجنسُ الدرهم، لا كُلُّ دينار وكلّ دِرْهم.

● ويمثلون بعبارة: «الرَّجُلُ خَيْرٌ من الْمَرْأة» أي: جنْسُ الرجُلِ وماهيَّتُه خيرٌ من جنس المرأة وماهيتها، لا كُلُّ فردٍ من أفراد الرجال خير من كلّ امرأة، إذْ بعض النساء أفضل من مئات الألوف من الرجال.

● ومنه قول أبـي العلاء المعرّي:

وَالْخِـلُّ كَـالْمَـاءِ يُبْـدِي لِـي ضَمَـائِـرَهُ   مَـعَ الصَّفَـاءِ وَيُخْفِيهَـا مَـعَ الكَـدَرِ

أي: جِنْسُ الْخِلّ يَفْعَلُ هذا، دون ملاحظة استغراق جميع الأخِلّاء، إذْ قد يوجَدُ منهم من هو على خلاف ذلك.

النوع الثاني: اللاّم الّتي لاستغراق أفراد الجنْسِ كلّهِم حقيقةً أَوْ عرفاً، وهي الّتي تدلُّ على ما تدُلُّ عليه لفظة «كُلّ» لو كانت بدلها.

فمن أمثلة الاستغراق الحقيقي ما يلي:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾.

أي: وخلق كلّ فرد من أفراد جنس الإنسان ضعيفاً، والواقع يشهد لإرادة هذا الاستغراق.

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾﴾.

أي: عالم كلّ غيب وكلّ شهادة، والدليل العقلي يقرّر هذا الاستغراق.

ومن أمثلة الاستغراق العرفي ما يلي:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ. . . ﴾ [الآية ١١٣].

أي: سحرة مملكته، لا كلُّ سَحَرَة العالم.

ومنه أن تقول: جمع وزير الصحة الأطباء والصيادلة، أي أطبّاء الدولة وصيادلَتَها.

ويلاحظ في الاستغراق أنّ استغراق المفرد أشمل من استغراق المثنىٰ والجمع، بدليل صحة قولنا: لا رجلان في الدار، إذا كان فيها رجل واحد، وصحة قولنا: لا رجال في الدار، إذا كان فيها رجل أو رجلان.

ويلاحظ أيضاً أنَّهُ لَا تنافي بين الاستغراق وإفراد الاسم، لأنّ حرف اللام يدخل عليه مجرّداً عن معنى الوحدة، فيكون لفظ المفرد المعرّف باللام بمعنى: كُلّ فرد، لا بمعنى: مجموع الأفراد، ولهذا امتنع وصفه بلفظ الجمع، فلا يقال: الرَّجُلُ المؤمنون أفضل من الرجل غيرالمؤمنين، بل يقال: الرجل المؤمن أفضل من الرجل غير المؤمن، أي: كلّ رجل مؤمن أفضل من كلّ رجل غير مؤمن.

النوع الثالث: اللاّم التي لاستغراق صفاتِ الجنْسِ مجازاً على سبيل المبالغة، كأن تقول لمن تريد الثناء عليه باستجماعه صفات الرجولة الكاملة: «أنت الرَّجُل» أي: أنت المستغرق في صفاتك صفات جنس الرجال.

وكأن تقول مثلاً عن المتنبّي: «هو الشاعر» أي: هو الذي اجتمعت فيه كلُّ صفات الشاعر، فكأنه استغرق الجنْسَ كلّه.

ومنه قول الشاعر: «أَنْتُمُ النَّاسُ أَيُّهَا الشُّعَرَاءُ».

* * *

وأمّا اللاّم العهدية: فهي ثلاثة أنواعٍ أيضاً:

النوع الأول: اللاّم الّتي للعهد الذكريّ، وهي الَّتِي يتقدَّم المعرَّفَ بها ذكْرٌ في الكلام، وضابطها أن يسُدّ الضمير مسَدَّه.

والمعهود في الذكر قد يكون مذكوراً صراحةً باللّفظ، وقد يكون مذكوراً على سبيل الكناية.

● فمن أمثلة المذكور صراحة بلفظه ما يلي:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (المزمل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول):

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾.

وَبيلاً: أي: شديداً.

فاللاّم التي في (الرسول) عهديّة، ونلاحظ أنّه يمكن أن يقع الضمير موقع لفظ الرسول فيقال: فعصاه فرعون، ويلاحظ أن في اختيار المعرّف باللام العهديّة هنا إرادة ذكر لفظ الرّسول لبيان شناعة معصية فرعون لرسول ربّه.

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ [الآية ٣٥].

فاللاّم في «الْمِصْبَاح» وفي «الزجاجة» عهديّة، ونلاحظ أنَّه يمكن أن يقع الضمير موقعهما، فيقال: فيها مصباح هو في زجاجة هي كأنّها كوكبٌ دُرِّي. ولكِنْ تَضْعُفُ فنيَّةُ الأداء البياني لو استخدم الضمير بدل الْمُعَرَّف باللاّم، فالداعي هنا جماليّ.

ومن أمثلة المذكور على سبيل الكناية ما يلي:

● ما جاء في قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾.

إنَّهُ لم يسبق ذكر لفظ الذَّكَرِ صراحةً، لكنه سبق ذكره على سبيل الكناية، لأنّها قالت: ﴿إنّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً﴾ وعتق الوليد لخدمة بيت المقدس لم يكن إلاَّ للذكور، فلفظ «ما» في كلامها قد كَنَّتْ به عن وليد ذكر، فلمَّا جاء الوليد أنْثَى قالت: ﴿ولَيْس الذكر كالأُنْثَى﴾.

النوع الثاني: اللاّم التي للعهد الذهني، ويُسمَّىٰ أيضاً «العهد الْعِلْميّ» وهي التي سبق العِلْمُ بالمعرَّف بها.

وهو قسمان: معهود ذهناً بشخصه المعيّن. ومعهود ذهناً بحَقيقته ضمن فرد مُبْهَم غير معيّن بشخصه، والمعرَّفُ بهذه اللام للدّلالة على حقيقته ضمن فرد مبهم لفظٌ يعامل معاملة المعرفة، لكن معناه يُعامَلُ معاملة النكرة، لأن المعهود بها غير معيَّنٍ بشخصه.

ومن أمثلة المعهود ذهناً بشخصه المعين ما يلي:

- قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾.

إنّه لم يَسْبِق ذِكْرٌ للفظ «الوادي» لكن سبق العلم به، فهو معهود ذهناً، فاللاّم المعرّفة له هي للعهد الذهني « = العهد العلمي».

- وقول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) خطاباً للمؤمنين تحريضاً لهم على نصرة الرسول:

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ. . . ﴾ [الآية ٤٠].

إنَّه لم يسبق ذكر للفظ «الغار» لكن سبق العلم به، فهو معهودٌ ذهناً، فالّام المعرّفة هنا هي للعهد الذهني « = العهد العلمي».

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الفتح/ ٤٨ مصحف/ ١١١ نزول):

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾.

فالشجرة مَعْهُودَةٌ ذِهْناً، دون أن يسبق في النصّ لها ذكر.

ومن أمثلة المعهود ذهناً بحقيقته ضمن فرد مبهم غير معين بشخصه ما يلي:

● ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول) حكايةً لمقالة يعقوب لبنيه بشأن يوسف عليهما السلام:

﴿ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

لفظ «الذئب» يطلق على أيّ ذئب فمعناه كمعنى النكرة، فماذا فعلَتْ اللام المعرّفة فيه؟ قالوا: عرّفَتْ الحقيقة الملاحظة في الذهن، ولم تُعَرِّفْ ذِئباً معيّناً بشخصه، وهذه الحقيقة الذهنية الواحدة تنطبق على ذئبٍ ما أيّ ذئب.

● ومنه قول عُمَيرة بن جابر الحنفي:

وَلَقَدْ أَمُرُّ عَلَىٰ اللَّئِيمِ يَسُبُّنِي فَمَضَيْتُ ثَمَّتَ قُلْتُ: لَا يَعْنِينِي

فتعريف لفظ «اللئيم» تعريف للحقيقة الملاحظة في الذهن كما قالوا.

● ومنه أن تقول لمن تخاطبه: اذهب إلى السّوق واشتر منه حاجتك.

النوع الثالث: اللاّم الّتي للعهد الحضوري، وهي التي يكون المعرَّفُ بها حاضراً عند التكلّم، ومن أمثلة هذا النوع ما يلي:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ...﴾ [الآية ٣].

فاللاّم التي في لفظ «اليوم» المعرِّفة له تُشِير إلى اليوم الحاضر الذي نزلت فيه الآية، وكان يوم عرفة في حجّة الرسول ﷺ.

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) في عرض لقطاتٍ من قصة موسى عليه السلام وفرعون:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (١٠٥) قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ (١٠٨) قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠)﴾.

فالظاهر أنّ اللاّم في لفظ «الْمَلإِ» المعرّفةَ تُشِيرُ إل الْمَلإِ الحاضرين فِي مَجْلِسِ فِرْعَوْن حِينَ قدَّم مُوسَىٰ عليه السلامُ آيتيه لفرعَوْن، إذْ يحتمل أن يوجد في مصر مَلأٌ آخرون غيرهم لم يكونوا حاضرين في مجلسه حِنئذٍ.

● وتصل إلى دارٍ لتقابل صاحبها فتناديه: افتح الباب، فاللام في لفظ «الباب» عهدية تشير إلى الباب الموجود في مكان الحضور، فهي من الّتي للعهد الحضوري.

وتريد أن تشرب ماءً، فتقول لمن تخاطبه: ناولني الكأسَ، أي: الكأس الحاضرة في مجلس المخاطبة.

إلى غير ذلك من أمثلة.

وببيان قسْمَي اللّام المعرفة وأنواعهما ودلالات كلٍّ نوع منها، يتّضح لنا أن على المتكلّم البليغ أن يختار لكلامه ما يلائم المعنى الذي يريد أن يعبّر عنه، وما يراه أكثر بلاغة ممّا يطابق مقتضى الحال.

وأنّ على متفهم النصوص البليغة أن يكتشف أسرار الاختيارات الحكيمة في الكلام البليغ، وأن يكون قادراً على النقد الكاشف للمحاسن والعيوب في الكلام.

ملاحظة:

لم أتعرّض هنا لما يسمَّى «اللّام الزائدة» مثل «ال» في نحو «اللّات والعزّى» وفي نحو «الآن» وفي نحو «اليزيد» والداخلة على الأعلام، مثل: «الحسن والحسين».

ولم أتعرّض لما يُسمَّى «اللام الموصولية» التي تأتي بمعنى «الذي» وهي التي قد تدخل على اسم الفاعل، أو اسم المفعول، على مَعْنَىٰ الذي، فهي حينئذٍ اسم موصول في صورة حرف، وصِلَتُها الوصف الذي دخلَتْ عليه، مثل: جاء الضاربُ أخاك، أي: الذي ضرب أخاك.

لم أتعرّض لهما لأنهما بطبيعتيهما خارجتان عن اللام الّتي تدخل على الاسم فتعرّفه، وإنْ كانتا مُشابهتين لها في دخولهما على بعض الأسماء مثل دخولها.

فدواعي اختيار المعرّف باللّام ترجع إلى قصد الدلالة على معنىً من معانيها مع الاختصار والإيجاز، ومع دواعي أخرى يقصد إليها البليغ، كالتأكيد، والإشارة إلى عظمة المعرّف بها، أو حقارته، أو إرادة التذكير به، أو بسالف عهد معه، إلى غير ذلك من أغراض يصعب إحصاؤها.

* * *

سادساً ـــ دواعي اختيار المعرَّف بالإضافة:

(١)
مـقـدمـة

ذكر النحويّون أنّ الإضافة قسمان: لفظيّة، ومعنوية.

فالإضافة اللفظية: وتسمّى أيضاً «الإضافة المجازية ــ والإضافة غير المحضة» هي الّتي لا تفيد المضافَ تعريفاً ولا تخصيصاً، والغرض منها التخفيف في اللفظ فقط بحذف التنوين من المضاف، أو حذف نوني التثنية والجمع ويُجَرُّ المضاف إليه فيها، والمضاف إليه فيها هو فاعل في المعنى للمضاف أو مفعول به، إذ المضافُ فيها ينبغي أن يكون ممّا يعملُ عَمَل الفعل، والجرّ على تقدير حرف تعدية فقط، مثل: سعيد طالبُ علمٍ، أي: يطلبُ علماً. والحُسَيْنُ مَهْضُومُ الحقِّ، أي: هُضِمَ حقُّه. ومُصْعَبٌ حَسَنُ الْخَلْقِ والْخُلُقِ، أي: حَسُنَ خَلْقُهُ وخُلُقه.

وهذه الإضافة اللفظية، لا تَدخُلُ في دواعي اختيار المعرَّف بالإضافة عند البلاغيين، بل هي من مُلْحَقَاتِ متعلقاتِ الفعل.

أمّا الإضافة المعنوية: وتسمّى أيضاً «الإضافة الحقيقية ــ والإضافة المحضة» فهي نِسْبَةٌ تكون بين اسْمَيْن مقترنين على تقدير حرف جرّ ذي معنىً بينهما، ويُنَزَّلُ الثّاني منهما مَنْزِلة التنوين من الأوّل، وهي توجب جرّ الثاني دواماً، مثل: **كتَابُ اللّهِ** المعجزُ دليلٌ على نُبُوَّةِ مُبَلِّغِهِ وأنَّهُ **رسُولُ الله لِجَمِيعِ النّاس**.

ويسمَّى الأول منهما مضافاً، ويُسَمَى الثاني مضافاً إليه، والجارّ للمضاف إليه هو المضاف.

وحرف الجرّ المقدّر بينهما واحدٌ من حروف الجرّ الأرْبعة التالية:

الأول: «اللاّم» التي تفيد الملك مثل: «هذا كتابـي» أي كتابٌ مِلْكي، أو تفيد الاختصاص، مثل: «هُنَا مَرْبطُ الفرسِ» أي: مربط متخصّص بالفرس.

الثاني: «من» البيانيّة، ويكون المضاف إليه فيها جنساً للمضاف، مثل: «سوار ذَهَبٍ ــ خاتمُ فضْةٍ ــ ثوبُ قُطْنٍ». أي: سوارٌ من ذهب، وخاتم من فضة، وثوب من قطن.

الثالث: «في» الظرفية، ويكون المضاف إليه فيها ظرفاً للمضاف مثل: «**سَهَرُ اللّيْلِ مُضْنٍ** ــ **عَمَلُ الصَّبَاح** مباركٌ فيه ــ **قُعُودُ الدار** يجلب الأكدار» أي: سهَرٌ في اللّيل، وعملٌ في الصباح، وقُعُود في الدار.

الرابع: «كاف التشبيه» ويكون فيها المضافُ مشبَّهاً به، والمضاف إليه مشبَّهاً، مثل: «تساقط **لُؤلُؤُ الدَّمع** على **ورد الخدود**» أي: تساقط الدمْعُ الذي كاللُّؤلؤ، على الْخُدُودِ الّتي كالْوَرْدِ، هذه الإضافة هي من إضافة المشبّه به إلى المشبه، وملاحظة كاف التشبيه فيها تكون بعد عكس ركني الإضافة.

وهذه الإضافة المعنوية تفيد واحداً من أمرين:

الأول منهما: تعريف المضاف بالمضاف إليه، إذا كان المضاف إليه فيها واحداً من المعارف، مثل: «**مَسْجدُ الرسولِ** محمّد ﷺ» و «تَلَوْتُ صفحةً من **كِتَابِ اللّهِ**» إلاّ أن يكون المضاف متوغلاً في الإبهام والتنكير مثل: «غير» أو يكون المضاف إليه ضميراً يعودُ على نكرة.

الثاني منهما: تخصيص المضاف بالمضاف إليه، إذا كان المضاف إليه فيها نكرةً من النكرات، مثل: سيف فولاذ أقوى وأصلَبُ من سيف فضّة، أو ضميراً يعودُ على نكرة، مثل: طرق بابي متسوِّلٌ وزوجته. واشتريت ناقةً وَفَصِيلَهَا.

* * *

ملاحظة: الإضافة التي هي تقدير كاف التشبيه يمكن إدْخالها في الإضافة على تقدير «من» على اعتبار أن لفظ المضاف أُخِذ على سبيل الاستعارة وأُطلق على معنى المضاف إليه، والعلاقة هي التشبيه.

ولهذا اقتصر معظم النحاة على تقدير «اللاّم ومن وفي» بين المضاف والمضاف إليه.

(٢)

بيــان الدواعــي

أمّا دواعي التعريف بالإضافة الحقيقية فقد ذكر البلاغيون طائفة منها، وفيما يلي بيانٌ لها:

الداعي الأول: كون الإضافة أخصر طريق وأوجزه، والمقام يقتضي الاختصار والإيجاز.

ومـن الأمثلـة:

● قول جَعْفَر بن عُلْبَة الحارِثي:

هَـوَايَ مَـعَ الـرَّكْـبِ اليَمَـانينَ مُصْعِـدُ ... جَنِيـبٌ وَجُثْمَـانِـي بِمَكَّـةَ مُـوثَـقُ
عَجِبْـتُ لِمَسْـرَاهَـا وَأَنَّـىٰ تَخَلَّصَـتْ ... إِلَـيَّ وَبَـابُ السِّجْـنِ دُونِـيَ مُغْلَـقُ
أَلَمَّـتْ فَحَيَّـتْ ثُـمَّ قَـامَـتْ فَـوَدَّعَـتْ ... فَلَمَّـا تَـوَلَّـتْ كَـادَتِ النَّفْـسُ تَـزْهَـقُ
فَـلاَ تَحْسَبِـي أَنِّـي تَخَشَّعْـتُ بَعْـدَكُـمْ ... لِشَـيْءٍ وَلاَ أَنِّـي مِـنَ الْمَـوْتِ أَفْـرَقُ
وَلاَ أَنَّ قَلْبِـي يَـزْدَهِيـهِ وَعِيـدُهُـمْ ... وَلاَ أَنَّنِـي بِـالْمَشْـي فـي الْقَيْـدِ أَخْـرَقُ
وَلَكِـنْ عَـرَتْنِـي مِـنْ هَـوَاكِ ضَمَـانَـةٌ ... كَمَـا كُنْـتُ أَلْقَـىٰ مِنْـكِ إذْ أَنَـا مُطْلَـقُ

مُصْعِد: من «أَصْعَدَ» إذا ارْتقى في أرضٍ آخذةٍ في العلوّ والارتفاع، وقد كان سجينا في مكة، فزارته التي يهواها، ثم سافرت مع الركب المتجهين مُصْعِدِين إلى جهة اليمن.

الْجَنِيب: ما يقادُ إلى الجنب من الخيل وغيرها، شبّه هواه الصاعد مع الركب بالدابة التي تُقَاد إلىٰ جَنْبٍ من مقودها، فتكون مرافقة للرّكب، وقصده مَنْ يهوى، فهي هواه، قالوا: وحسَّنَ هذا الاختصار أنّ الشاعر ضائق وسجين.

كادَتِ النَّفْسُ تَزْهَقُ: أي: تخرج من جسده.

تَخَشَّعْتُ: تذلّلت وتضرّعت.

أفْرَقُ: أخاف.

أخْرَقُ: أي: مذعور فَزِعٍ مندهش.

ضمانَةٌ: أي: عِلَّةٌ لَزِمَتْنِي.

والشاهد الذي استشهد به البلاغيون قولُه «هَوَايَ» أي: التي أهواها، فأطلق عليها أنّها هي الهوى، وأضاف الهوى إلى ياء المتكلم، فقال: هَوَايَ مع الركب اليمانين مُصْعِد.

* * *

الداعي الثاني: كون الإضافة تُغني عن تفصيلٍ متعذِّرٍ، أو متعسّر، ومن الأمثلة أن تقول: أجْمَعَ علماءُ المسلمين على رجْم الزّاني المحصن.

فتفصيل علماء المسلمين أمرٌ متعذّر.

ومـن الأمثلـة:

قول حسان بن ثابتٍ يمدح أولاد جفنة من الْغَسَاسِنَة، ويبدو أنّ هذا من شعره قبل الإسلام:

أَوْلَادُ جَفْنَـــةَ حَـــوْلَ قَبْــرِ أَبيهِـــمُ ... قَبْـرِ ابْـن مـاريَـةَ الْكَـرِيـمِ الْمُفْضِـلِ

الْمُفْضِل: الْمُحْسِن بالعطاء، والزائد على غيره في الحسَبِ والشّرف.

وقول الشاعر يمدح قومه بني مطر:

بَنُـــو مَطَـــرٍ يَـــوْمَ اللِّقَـــاءِ كَـــأَنَّهُـــمْ ... أُسُـــودٌ لَهَـــا فِـــي غِيـــلِ خَفَّـــانَ أَشْبُـــلُ

في غِيل: الغِيلُ مَوْضِعُ الأسُود، والمجتمع من الشجر.

خفَّان: مأسدةٌ قُرْبَ الكوفة.

أشْبُل: جمع شِبْل وهو وَلَدُ الأَسد.

وقول الحارث الجرمي.

قَــوْمِــي هُــمُ قَتَلُــوا أُمَيْــمَ أَخِــي ... فــإِذَا رَمَيْــتُ يُصِيبُنِــي سَهْمِــي

ومع الاختصار ففي هذه الإضافة معنىٰ التحسُّرِ لأنَّ من قَتَلَ أخاه هم قومُه الّذِينَ يَعِزُّ عليه أن يَنْتَقِم منهم، لأنَّه لو فعل لأصابَ بسَهْمِه نفسه.

* * *

الداعي الثالث: أن يشار بالإضافة إلى تعظيم المضاف أو تعظيم المضاف إليه، ومن أمثلته ما يلي:

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الإسْرَاءِ/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ...﴾ [الآية ١].

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الجنّ/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول):

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾.

لِبَداً: لِبَد جَمْعُ لِبْدَة، وهي لِبْدَةُ الأَسَدِ، أي: كاد مشركو مكة من كثرة تألُّبهم ضدَّه لمقاومة دعوته يكونون مثل لِبَدِ أُسود حوله(١).

فالإضافة إلى الله في الآيتين تَشْرِيفٌ للمضاف عظيم.

● ومن تعظيم المضاف أن يقول ذو مكانة اجتماعية ومال كثير: هؤلاء **أنصاري**، وهذا السوقُ **مِلْكِي**، وقصور هذا الحيّ **قصوري**، فهو يُعظِّم نفسه بانصاره، وبما يملك.

* * *

(١) هذا ما ترجَّح عندي لدى تفسيري لسورة «الجنّ».

الداعي الرابع: أن يُشَار بالإضافة إلى تحقير المضاف أو تحقير المضاف إليه، أو تحقير غيرهما.

فمن تحقير المضاف أن تقول عن عِقْدٍ تتفاخر به صاحبته: هذا **عِقْدُ كَلْبِكِ**.

ومن تحقير المضاف إليه أن ترىٰ كوخاً حقيراً فتقول لمن تريد إهانته: هذا **قصرك**.

ومن تحقير غيرهما أن تقول لمن تريد إهانته وهو جالسٌ على كرسيّ مستكبراً: هذا كُرسيُّ الإسكاف.

* * *

الداعي الخامس: أن تتضمّن الإضافة معنىً يُقْصد ويُشار إليه بها، كالتحريض على الإكرام، أو التحريض على الإهانة والإذلال، أو التحريض على البرّ، أو إرادة الاستهزاء والتّهكم، أو غير ذلك.

- فمن أمثلة التحريض على الإكرام: هذا **صديقُك** يزورك.
- ومن أمثلة التحريض على الإهانة والإذلال: هذا **عدُوّك** مقبل إليك.
- ومن أمثلة التحريض على البرّ: هذا **أبوك** الذي ربّاك.
- ومن أمثلة إرادة الاستهزاء والتهكم: أن تقول لمن تسخر منه: هذا **رَئيسُنَا وزعيمُنَا**، مع أنّه لا يصلُح إلاَّ أن يكون تابعاً خادماً.

إلى غير ذلك من معانٍ لطيفة يمكن أن يُشارَ إليها بالإضافة.

• • •

الفَصلُ الخامِسُ

التقييد وعدمه

(١)
مقدّمة

أصلُ الإِسناد في الجملة يتحقّق بأقلّ ما يُطْلَقُ عليه أنَّه حُكْمٌ بشيءٍ على شيءٍ، كقولنا: «هذه شجرة ــ سعيد رجل ــ القَمَر بازِغٌ ــ الشّمْس غائبة».

وكلّ زيادةٍ على ذلك ذاتِ دلالةٍ في الجملة تُعتَبَرُ زيادةً في إفادة معنىً أو أكثر، ويَقْصِد البلغاء إلى الإتيان بها لتنمية الفائدة وتربيتها لدى مُتَلَقّي الكلام.

وبعضُ هذه الزيادات في المعاني قد تدلُّ عليها البدائل المختارة للمُسْنَد أو المسنَدَ إليه، كزيادة معنى الحدوث في الزمان الماضي لدى اختيار صيغة الفعل الماضي في المسنَد، وكزِيادة معنىَ الحدوث في الحال أو الاستقبال أو التجدّد لدى اختيار صيغةِ الفعل المضارع في المسند أيضاً، وكزيادة معنى الوصف لدى اختيار اسم الفاعل أو اسم المفعول أو الصفة المشبّهة في المسنَدِ، أو في الْمُسْنَد إليه، أو ما هو في حكم المسند إليه كالمفعول به.

وقد سبق في فصل التنكير والتعريف بيان طائفةٍ من أغراض الاختيار من البدائل في الكلام ضمن عناصر الجملة.

وهنا في فصل التقييد وعدمه لاحظ البلاغيّون أنّ المتكلّم قد يقصد زيادة

إفادة المتلقّي معاني لا يكفي المسند والمسند إليه للدّلالة عليها، وهي تتعلّق بالمسند أو بالمسند إليه أو بالإسناد في الجملة.

● فمِمّا يتعلق بالمسند بيان زمن حدوثه أو مكان حدوثه بظرفَيِ الزّمان والمكان، مثل: «جرَىٰ السَّيْلُ يوم الأربعاء في مكة ووصل إلى باب الكعبة».

فبيان الزمن قيْدٌ للمسند، وبيان المكان قيد آخر له.

● وممّا يتعلّق بالمسنَدِ إليه وصْفُه، أو بيان حاله، أو تأكيدُهُ، أو غير ذلك، مثل: «سَبَقَ الْحِصَانُ الأَدْهَم ــ حضَرَ عليٌّ راكباً ــ خَرَجَ طُلاَّبُ المدرسة كُلُّهم».

فـ «الأَدْهم» نَعْتٌ للحصان، و «راكباً» حالٌ لعلي، و «كُلُّهُمْ» تأكيدٌ معنويٌّ لطلاب المدرسة، وكلُّها قيودٌ للمسند إليه، والحالُ منها قَيْدٌ للمسنَدِ أيضاً.

● وممّا يتعلّق بالإسناد تقييده بنحو الشرط، مثل: «إذا أدَّىٰ المخلوق المبتلىٰ المكلَّف كُلَّ الواجبات، وتركَ كُلَّ المحرّمات، دخل الجنة ولم يدخل النار».

فالحكم بدخوله الجنة وعدم دخوله النار مشروط بأن يفعل كلّ الواجبات ويترك كلّ المحرّمات، ومن الظاهر أن هذا الشرط هو من قيود النسبة الحكميّة بين المسند والمسند إليه.

وبالإضافة إلى غرض زيادة الفائدة بما يُؤتَىٰ به في الجملة من قيودٍ للمسند أو المسند إليه أو الإسناد، فقد نبَّهَ البلاغيون على أغراض بلاغيّة تُسْتَفادُ من التقييد بالمقيّدات التي تُسْتكْمَلُ بها الجملة الكلاميّة، وهي المقيّدات التالية:

(١) المفاعيل، وهي: «المفعول به ــ المفعول فيه ــ المفعول لأجله ــ المفعول المطلق ونائبه ــ المفعول معه».

(٢) التوابع وهي: «النعت ــ عطف البيان ــ التوكيد ــ البدل ــ عطف النَّسَق» وهكذا يكون ترتيبُها إذا اجتمعت كما ذكر النحويّون.

(٣) ضمير الفصل.

(٤) الشرط.

وفيما يلي شَرْحُ هذه القيود مع بيان بعضِ الأغراض البلاغيّةِ التي قد يَقْصِدُهَا البلغاء منها.

* * *

(٢)
التقييـد بالمفاعيـل

أوّلاً ـــ المفعول به:

المفعول به هو في الحقيقة مُسْنَدٌ إليه على مَعْنَى أنَّه هو الذي وقع عليه فعلُ الفاعل، فهو من القيود التي تبيّن حُدُود المسند.

إنّ مثال «ركب خالدٌ جواداً» يَدُلُّنا على أنّ العلاقة بين الرُّكوب وخالد، أي النسبة الرَّابطةَ بينهما هي أنّ الرُّكوبَ وقَعَ من خالد، باعتباره فاعل الرُّكوب، وأنّ العلاقة بين الرُّكوب والجواد، أي النسبة الرابطة بينهما هي أنّ الرُّكوبَ وقَعَ على الجواد باعتباره مفعولاً به واقعاً عليه الرُّكوب، فذِكْرُ كلمة «جواداً» في الجملة قد أضاف إليها قيداً، إذْ كانت جملة «رَكِب خالدٌ» جملةً مطلقةً، ذات احتمالات كثيرة، فقد يكون خالدٌ ركب أيَّ مركوب آخر غير الجواد من حيوانٍ أو آلة، كسفينةٍ أو عربةٍ أو نحو ذلك.

من هذا يتبيّن لنا أنّ ذكر المفعول به ممّا يفيد الجملة بياناً تقييديّاً، سواءٌ أكان مفعولاً به لفعل ينصبُ مفعولاً واحداً، كالمثال السابق، أم مفعولاً به ثانياً لفعلٍ يَنْصِبُ مفعولين، مثل: «أَلْبَسَ رَباحٌ زوجتَه حُلَّةً» أم مفعولاً به ثالثاً لفعلٍ يَنْصِبُ ثَلاَثَةَ مَفَاعيل، مثل: «أَعْلَمْتُ سَعِيداً القَمَر بَازِغاً».

فالمفعول به الأوّل في: «أَلْبَسَ رَبَاحٌ زَوجته حُلَّةَ» أضاف إلى الجملة قيداً، هو أنّ الإِلْبَاسَ من رباحٍ قد كان لزوجته، فهي اللاّبسة له. والمفعول به الثاني أضاف قيداً آخر، هو أنّ الملْبُوسَ كان «حُلَّةً»، أي: لا نعلاً أو حِلْيَةً أو غطاءَ رأْسٍ أو غير ذلك.

وفي مثال: «أَعْلَمْتُ سَعيداً الْقَمَرَ بَازِغاً» نقول: إنّ المفعول به الأول وهو «سعيد» أضاف قيداً إلى الجملة، هو أنّ الإعلام كان منّي لسعيد، وإنّ المفعول به الثاني والمفعول به الثالث قد أضافا قَيْدَيْنِ آخرين في الجملة، أحدهما أنّه حصل بُزُوغ، وثَانيهما أنّ هذا البزوغ هو بزوغ القمر.

وظاهرٌ أنَّ التَّقْييدَ بهذه الْقُيود في الكلام ممّا يُفيد تَرْبيةَ الفائدة بزيادة عناصرها لدَىٰ المتلقّي.

وتتوارد بعد ذلك أغراضٌ بلاغيّة فوق تربية الفائدة، فقد يُكتَفَى بدلالة القرائن عن ذكر المفعول به، إلاَّ أنّ دواعِيَ بلاغيَّةً قَدْ تَدْعو إلى ذكره.

● كأن يكون المفعول به أمراً غريباً نادراً، ويَقْصدَ البليغُ أَنْ يَقْرَعَ به سَمْعَ الْمُتَلقِّي أو نَفْسَه مع أوّل مرحلةٍ مناسبةٍ من مراحل كلامه، ومن الأمثلة على هذا قولُ الخزيمي يَرْثي أبا الْهَيْذَام:

وَلَـوْ شِئْـتُ أَنْ أَبْكِـي دَمـاً لَبَكَيْتُـهُ عَلَيْـهِ وَلَكِـنْ سَـاحَـةُ الصَّبْـرِ أَوْسَـعُ

لقد كان يكفي الشاعِرَ أن يقولَ: ولَوْ شئتُ لبَكَيْتُ عليه دماً، بحذْفِ مفعول: «شئْتُ» وكان يكفيه أن يقول: ولو شئتُ أن أبكي لبكيْتُ عليه دماً، بحذف مفعول: «أبكِي» إلاّ أنَّ المسارعة إلى تعريف المتَلَقِّي بأنّ حُزْنَه على فقده أبَا الهيْذام قد بلغ منه مَبْلَغَ أن يَبْكِيَ عليه دماً جعلَتْهُ يُصرِّحُ بما في نفسه، ويُسارعُ إلى ذكر الدّم عند أوّل مناسبَةٍ سَانِحَةٍ في كلامه.

● وَكأن يريد المتكلّم دَفْع تَوَهُّم إرَادة غير المراد، ومن الأمثلة ما صنعتُه

مثلاً، أن يقول مظلوم حَكَمَ عليه طاغٍ بالقتل ليتخلص من منافسته له:

سَتكْسُـونـي بقَتْلِـكَ لِـي فَخَـاراً ومَجْـداً مِـنْ دِمَـاءِ زَاكِيَـاتِ
وتَلْبَـسُ خِـزْيَ عُـدْوانٍ وَظَلْـمٍ بِلُبْسِـكَ بَـاغيـاً ثَـوبَ الطُّغَـاةِ

وهنا نلاحظ المبادرة إلى إعلان أنّ مَا يُلْبِسُه إيّاه إذا قتله هو الفخار والمجد، لا ما يُتَوَهَّمُ من أنّه سَيُلْبِسُه ذلاًّ ومهانة.

● وقد يأتي التقييد بالمفعول به لكثير من الأغراض البلاغية التي سبق بيانها في دواعي ذكر العنصر الذي يُراد الإعلام به من عناصر الجملة.

* * *

ثانياً ــ المفعول فيه:

وهو الظرف، ويؤتىٰ به لتقييد وقوع الحدث الذي اشتملت عليه الجملة بزمَنٍ مُعَيّن، أو مكان مُعَيَّن، مثل: «سافرت لَيْلاً ــ ومَشِيتُ مِيلاً».

ومع تربية الفائدة بقيدَي الزمان والمكان فقد يَقْصِد البليغ بهما أغراضاً بلاغيّة تدعو إليها مقتضيات الأحوال، كالتعريض، والمدح، والذمّ، والتلذُّذ بالذكريات، وغير ذلك ممّا يعسُرُ حصره، وتُلاحظ هنا أيضاً دواعي ذكر العنصر الذي يُراد الإعلام به من عناصر الجملة على ما سبق به البيان.

* * *

ثالثاً ــ المفعول لأجله:

وهو المفعول الذي يُبَيِّن علّة الحدَث الذي اشتملت عليه الجملة، أو سبَبَهُ، أو الحكمة منه، أو الغرض منه، أو نحو ذلك.

ويؤتَىٰ به لتقييد الحدَثِ ببيان علّته أو سببِه أو الحكمة أو الغرض منه، مثل: «زُرْتُكَ إكراماً لَكَ» أي: لأجل إكرامك.

ويدخل في هذا المفعول ما فيه معنى المفعول لأجله ولو لم يكن منصوباً، وهو المجرور منه بحرف جرّ مفيدٍ للتعليل، ويسمَّىٰ المفعول لأجله غير الصّريح، مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢):

﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِۚ. . . ﴾ [الآية ١٩].

«من الصَّواعِقِ» مفعول لأجله غير صريح.

«حَذَرَ» مفعول لأجله صريح.

ومع تربية الفائدة بقيد المفعول لأجله نقول هنا أيضاً ما سبق أن قلناه في المفعول به، والمفعول فيه، حَوْلَ الأغراض البلاغيّة.

* * *

رابعاً ــ المفعول المطلق ونائبه:

المفعول المطلق: هو مصدرٌ يُذْكَرُ بعْدَ فِعْلٍ من لفظِهِ، لتأكيد معناه، أو لبيان عدده، أو لبيان نوعه، أو يؤتَىٰ به بدلاً من التلفّظِ بفعله.

(١) فالمؤكدّ لمعنى فعله، مثل: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾.

(٢) والمبيّن لعدده، مثل: «شَرِبَ شَرْبَتَيْنِ».

(٣) والمبيّن لنوعه، مثل: ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ و «بَكَىٰ بُكَاءَ الثَّكْلَىٰ».

(٤) ومَا يُؤْتَىٰ بِهِ بدلاً من التلفُّظ بفعله، مثل: «رِفْقاً بالقوارِيرِ».

والنائبُ عن المفعول المطلق هو ما يُعْطَىٰ مثل حكمه ولو لمْ يكن مَصْدراً من لفظ فعله، وينوب عنه «اسم المصدر ــ صفة المصدر ــ ضميره العائد عليه ــ مرادفه ــ مصدر يتلاقى معه في الاشتقاق ــ ما يَدُلُّ على نوعه ــ ما يَدُلُّ على عدده ــ ما يدُلُّ على آلته التي يكون بها ــ كلمتا «ما» و «أيّ» ــ الاستفهاميتَيْن ــ «ما ومهما وأيُّ» الشرطيات ــ كلمات «كلّ» و «بعض» و «أيّ الكمالية» مضافات

إلى المصدر ـ اسم الإشارة إذا كان مشاراً به إلى «المصدر» ويرجع إلى أمثلتها في كُتُب النحو.

ومع ترْبية الفائدة بالمفعول المطلق ونائبه نقول هنا أيضاً نظير ما سبق أن قلناه في المفاعيل السابقة حوْلَ الأغراض البلاغيّة.

* * *

خامساً ـ المفعول معه:

هو اسم يؤتى به منصوباً بعد واو المعيّة، لإفادة تقييد الْمُسْنَدِ في الجملة بقيد مصاحبة الاسم المنصوب بعد واو المعيّة للاسم الذي جاء قَبْلها، فهو يفيد فائدة شبيهة بفائدةِ الحال في الجملة، ولاَ يُقْصَدُ إشْرَاكُ ما بَعْدَ واو المعيَّةِ في حُكْم مَا قَبْلها، مثل: سِرْتُ والْجَبَلَ، أيْ: سِرْتُ مُصَاحَباً الجبَل، مع أَنَّ الْجَبَل لَمْ يشْمَلْهُ حُكْمُ السَّيْر الذي سِرْتُه.

ومع تربية الفائدة بالمفعول معه نقول هنا أيضاً نظير ما سبق أن قلناه في المفاعيل السابقة حول الأغراض البلاغية.

* * *

(٣)
التقييد بالنواسخ

النواسخُ هي التي تدخل على الجملة الاسميّة فتنسخ حُكْمَي المبتدأ والخبر، وتعْمَل فيهما عملاً خاصّاً بها وهي أربعة أقسام:

القسم الأول: أفعالٌ ترفَعُ المبتدأ على أنّه اسْمُها، وتَنْصِبُ الخبرَ على أنّه خَبَرُها، وهي الأخوات: «كان ـ أمسى ـ أصْبَح ـ أضْحَىٰ ـ ظلَّ ـ بَاتَ ـ صَارَ ـ لَيْسَ ـ ما زال ـ مَا بَرِحَ ـ مَا فَتِىءَ ـ مَا انْفَكَّ ـ مَا دامَ».

و «كَادَ وأخواتُها» وهي ثلاثة أقسام:

(١) **أفعال المقاربة**: وهي: «كاد ــ كرب ــ أوشك».

(٢) **أفعال الرجاء**: وهي: «عَسَىٰ ــ حَرَىٰ ــ اخْلَوْلَقَ».

(٣) **أفعال الشّروع**: وهي كثيرة، منها: «أنْشَأَ ــ طَفِقَ ــ عَلِقَ ــ أَخَذَ ــ هَبَّ ــ بَدَأَ ــ ابْتَدَأَ ــ جَعَل ــ قَامَ ــ انْبَرَىٰ» ومِثْلُها كُلُّ فعل يدلُّ على الابتداء بالعمل ولا يكتَفِي بمرفوعه.

ولكلّ فِعْلٍ من الأفعال السابقة «كان وأخواتها» و «كَادَ وأخواتها» أفعال المقاربة وأفعال الرجاء، وأفعال الشروع، معنىً يُقْصَد التعبير عنه في الكلام، فالبليغ يختارُه في كلامه لِيَدُلَّ به على المعنَىٰ الذي يُسْتَفَادُ منْه.

ويُرجع إلى كتب النحو واللّغة لمعرفة معاني هذه الأفعال، وطرائق استعمالها وأعمالها.

القسم الثاني: أفعال تنصب المبتدأ والخبر على أنّهما مفعولان لها، وهي: قسمان: «أفعال القلوب» و «أفعال التحويل والتصيير»:

● أمّا أفعال القلوب:

فمنها ما يُفيد اليقين وتسمَّىٰ أفعال اليقين، أي الاعتقاد الجازم، وهي: «رَأَىٰ ــ عَلِمَ ــ دَرَىٰ ــ تَعَلَّمْ، فِعْلَ أَمْرٍ بمعنى اعْلم واعْتَقِدْ ــ وَجَدَ، بمعنى عَلِمَ واعْتَقَد».

ومنها أفعال الظنّ، وهي: «ظنّ ــ خال ــ حَسِبَ ــ جَعَل، التي بمعنى ظنَّ أو اعتقد ــ حَجَا ــ عَدَّ الّتِي بمعنى ظنّ ــ زعم ــ هَبْ، فِعْلَ أمْرٍ بمعنى ظُنَّ».

● وأمّا أفعال التحويل والتصيير فهي: «صَيَّر ــ رَدَّ ــ تَرَكَ ــ تَخِذَ ــ اتَّخَذَ ــ جَعَل ــ وَهَب، إذا اسْتُعْمِلَت هذه الأفعال التي بَعْدَ صَيَّر بمعنَى صَيَّرَ».

ويُرجَعُ إلى كُتُب اللُّغة والنحو لمعرفة معاني هذه الأفعال، وكيفيّة استعمالها وعملها في نصب المبتدأ والخبر.

القسم الثالث: حروف مشبهة بالفعل وهي تنصبُ المبتدأ على أنّه اسْمُها، وترفع الخبر على أنّه خبرها، وهي: «إنَّ ــ أَنَّ ــ كَأَنَّ ــ لَيْتَ ــ لَعَلَّ ــ لَكِنَّ ــ لا النافية للجنس».

ويُرْجَعُ إلى كتب النحو لمعرفة معاني هذه الحروف، وكيفيّة استعمالها وعملها، فقد أوفاها النحويُّون بحثاً، ونخص بالبيان هنا «إنَّ ــ وأَنَّ للتذكير بأنّهما يُفيدان التأكيد في الجملة، إذ إفادة التأكيد ممّا يُهِمُّ البلاغيين التنبيهُ عليه.

القسم الرابع: حروف نفي تَعْمَل عَمَلَ «لَيْس» بشُروطٍ ذكرها النحويون، وتؤدّي المعنى الذي تؤدّيه «ليس»، وهي «مَا ــ لَا ــ لَاتَ ــ إِنْ».

هذه هي النواسخ الّتي تدخل على الجملة الاسمية فتنْسخُ حُكْمَي المبتدأ والخبر من جهة الإعراب، وتعمل فيهما عملاً خاصّاً بها كما سبق.

وهنا نلاحظ أنَّ إدخال النواسخ على الجملة الاسمية يُرادُ منْهُ إضافةُ معانٍ تدلُّ عليها الأفعال والحروف الناسخة بحسَبِ أوضاعها ودلالاتها اللّغوية، وقد اهتم اللُّغويُّون ثُمَّ النّحويُّون ببيان معاني هذه النواسِخِ، فَعَلَىٰ متدبّر النصوص أن يرجع إلى ما دوّنوه من ذلك.

أمّا علماء البلاغة فقد وجّهوا اهتماماتهم للدّلات الأخرى، الَّتي لا تَدُلُّ عليها الأوضاع اللّغويّة، ممّا يُفْهَمُ مجازاً، أو من إشارات الكلام وقرائن الألفاظ والأحوال.

ولا يخفىٰ على الأديب ذي الحسّ المرهف تَصيُّد الأغراض البلاغيّة والأدبيّة الَّتي يَرْمي إليها البلغاء، ممّا يختارون في استعمالاتهم من هذه النواسخ، فمع تربية الفائدة بما تشتمل عليه من دلالاتٍ تُفْهَمُ من أوضاعها اللّغوية نلاحظ أنّه قد يُشارُ

بها إلى معانٍ بلاغيّة سَبَق بيانُ طائفةٍ منها في دواعي ذكر العنصر الّذي يُرادُ الإعلام به من عناصر الجملة، ويُمْكِن القِياسُ عليها.

فكلمة «لَيْتَ» الَّتي تُسْتَعمل للتَّمنّي قد تستعمل بلاغيّاً في الأمر غير البعيد ولا المتعذّر، للإشعار مثلاً برفعة منزلة الشخص الذي يُوَجَّهُ لَهُ المطلوب بها، كأن يقول التلميذ الذي يُحِبُّ شيخه ويُعظمه: «لَيْتَكَ تَزُورُني في دَارِي» مع أنّ الشيخ من عادته أن يزور أصْغَرَ تلاميذه.

وقد يؤكّد بـ «إنّ» أو «أنّ» لتنزيل المخاطب منزلة المنكر أو الشّاك.

وقد يُسْتَعْمل مثلاً فعلُ «أصْبَح» الّذي يدلُّ على الدُّخول في الصباح، أو فعل «أضْحَىٰ» الذي يَدُلُّ على الدخول في وقت الضُّحى، مع أنَّ ما حَصَل قد حَصَل باللّيل، للإشعار بأنّ السُّرُورَ قد قلَبَ اللَّيْلَ فِي مشاعر النفس نهاراً.

وقد يُسْتَعْمَلُ فِعْلُ «أمْسَىٰ» الّذي يَدُلُّ على الدخول في المساء، وفعل «بَات» الّذي يدلُّ على الدُّخولِ في اللّيل، مع أن ما حصل قد حصل بالنهار، للإشعار بأنّ الْحُزْنَ أو الكرْبَ قد قلَب النهار في مشاعر النفس ليلاً.

إلى غير ذلك من أغراض بلاغيّة كثيرة.

* * *

(٤)

التقييـد بالحـال

قال النحويّون: الحال وصفٌ لصاحِبها قَيْدٌ لعامِلها الذي هو الفعل أو ما في معناه، فمثل: «جاء زيد راكباً» نلاحظ أنّ الرُّكوبَ وَصْفٌ لزيدٍ حَالةَ مجيئه، فمجيءُ زيْدٍ المفهومُ من «جَاءَ زيد» مُقَيَّدٌ بقيدِ رُكوبه، وظاهر أنّ في هذا القيد مزيدَ فائدةٍ يستفيدها متلَقِّي الْكَلام.

وقد يُؤتَىٰ بالحال لتوكيد عاملها، مثل «وَلَّىٰ مُدْبراً». أو لتوكيد صاحبها، مثل: «جاء التلاميذ كلُّهم جميعاً». أو لتوكيد مضمون جملة مؤلفة من اسمين معرفتين جامِدَيْن، مثل: «هو الحقُّ بيِّناً».

والتوكيد يعطي مزيد فائدة في الكلام، ومع تربية الفائدة بالحال يمكن الإشارة بها إلى أغراض بلاغية يَقْصِدُها البلغاء، فمثل قول القائل: «جاء عِليَةُ القوم راكِبين» قد يتضمن الإشارة إلى أنّ الذين لم يأتوا راكبين ليْسُوا من عِلْيَة القوم.

ولا يخفىٰ على ذوّاق البلاغة والأدب تصيُّد النكت والأغراض البلاغية من الحال.

* * *

(٥)

التقييد بالتوابع

سبق في مقدّمة هذا الفصل أن عرفنا أن التوابع هي:

(١) النعت « = الصفة».

(٢)عطف البيان.

(٣)التوكيد.

(٤)البدل

(٥)عطف النسق، وهو العطف بحرف من حروف العطف.

وأنّها إذا اجتمعت في جملة واحدة كان ترتيبها وفق هذا الترتيب الذي ذُكرت فيه، كما ذكر علماء النحو.

وفيما يلي شرحٌ لهذه التوابع:

أولاً ــ النَّعْت « = الصفة»:

النعـت: هو تابع يكمّل متبوعَهُ بدلالة على معنىً فيه، أو فيما له تعلُّقٌ به، مثل: «جاءني رجلٌ كريم» و «رَضِيَ بالدّية الأَبْنَاءُ الْمَقْتُولُ أَبُوهم».

ما يستفادُ مِن النعت:

(١) يؤتىٰ بالنعتِ لإِيضاح الموصوف به إذا كان معرفة، ويسمّىٰ الوصْفَ الكاشف، مثل: «فَتْحُ الْبَارِي هو تأليفُ ابْنِ حَجر **أحمد العسقلاني**» و «تُحْفَةُ الْمُحْتاج لشرح المنهاج هو تأليف ابْنِ حجر **أحمد الْهَيْتَمِي**» فالعسقلانيُ وصْفٌ كاشف مميّز لابن حجر أحمد مؤلف كتاب «فتح الباري في شرح صحيح البخاري» والْهَيْتَمِي وصْفٌ كاشفٌ مُمَيِّزٌ لابن حَجر أحمد مؤلف كتاب «تحفة المحتاج لشرح المنهاج» في الفقه الشافعي.

(٢) ويؤتىٰ بالنَّعْتِ أيضاً لتخصيص الموصوف به إذا كان نكِرةً، أو شبيهاً بالنكرة في شُيوعه، كالمعرّف بـ «أل» الّتي للجنس، مثل: «يرافق المرأة في السَّفر كُلُّ رَجُلٍ **مَحْرَمٍ مِنْ مَحَارِمِها**» فعبارة «مَحْرَمِ من مَحَارِمها» وصْفٌ مُخَصِّصٌ لعموم لفظ «رجُل» وجيء بهذا الوصف المخصّص لإِخراج كلّ رَجُلٍ لا يكون مَحْرَماً لها.

هذا ما ذكره النحويّون، وقد ذكر علماء البلاغة هاتين الفائدتين للنعت، وأضافوا إليهما فوائد أخرى استنبطوها بأذواقهم البلاغيَّة الأدبيّة، وتابعهم في ذلك فريقٌ من النحويّين، وهي ما يلي:

(٣) تفصيل المنعوت، مثل: «زارني رجلان: **فقيه، وطبيب**».

(٤) مدح المنعوت، مثل: «الحمدُ لِلّهِ رَبِّ **العالَمين**».

(٥) ذمّ المنعوت، مثل: «أعوذُ باللّهِ من الشيطان **الرجيم**».

(٦) التَّرَحُّم، مثل: «لَطَفَ اللّهُ بعبادِه **الضُّعَفاءِ**».

(٧) الإِبهام، مثل: «تَصَدَّقْ بصَدَقَةٍ **قَلِيلَةٍ أَوْ كثيرة**».

(٨) التوكيد، مثل: «فإذَا نُفِـخَ في الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ»، ومثل: «أَمْسِ الدَّابرُ لَنْ يَعُود» فلفظ «واحدة» ولفظ «الدّابر» كلٌّ منهما نَعْتٌ توكيدي،

ومنه توكيد إرادة الحقيقة أو إرادة عموم الأفراد، مثل قول الله تعالى في سورة (الأنعام/ ٦):

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم. . .﴾ [الآية ١٨].

فَوَصْفُ الطائر بأنّه يطير بجناحيه قد أفاد إرادة الحيوانات التي تطير بأجنحتها دون إرادَة ما يرتفع في الجوّ من غير ذلك كالسُّحُب والأشياء المعنوية غير المرئية، مع إفادة التعميم.

* * *

ثانياً ــ عطف البيان:

عطف البيان تابع شبيه بالصفة في إيضاحه لمتبوعه إذا كان معرفة، وتخصيصه إذا كان نكرة، وهو يفارق النعت بأنّ النعت مشتقٌّ أَوْ مُؤَوّلٌ بمشتق، أمّا عطف البيان فجامدٌ دواماً إذَا كان غير جملة، وقد يكون جملة.

ومن عطف البيان ما يقع بعد «أَيْ» أو «أَنْ» التَّفْسِيريتَيْن، أو «إذا» حينما تكون تفسيريّة.

أمـثـلـة:

(١) «أَقْسَمَ بِاللّهِ أَبُو حَفْصٍ عُمَر» فلفظ «عُمَر» عطف بيان جيء به لتوضيح الكنية «أبو حفص» وهو ثاني الخلفاء الراشدين رضي الله عنه، والغرض من هذا التوضيح تمييز هذه الكنية عن مشاركي عُمر بن الخطاب بمثلها.

(٢) قول الله تعالى: ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِين﴾ فعبارة «طعام» مضافة إلى مساكين عطف بيان جيء بِهِ لتخصيص النكرة الَّتِي هي لفظ «كفّارة» إذ الكفارة

تحتمل أن تكون إطعام مساكين أو غير ذلك، فجاءت عبارة «طعام مساكين» مُخَصِّصة أو مبيّنة للفظ «كفَّارة» المطلق.

(٣) «رَأَيْتُ غَضَنْفراً، أَيْ: أَسَداً» فلفظ «أسداً» عطف بيان جاء تفسيراً لكلمة «غَضَنْفراً» بعد «أي» التفسيريّة.

(٤) قول الله تعالى في سورة (الأعراف/ ٧):

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا. . .﴾ [الآية ٤٤].

فجملة «قد وَجَدْنا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً» معطوفة عطف بيان جاء تفسيراً للنداء الذي ناداه أصحاب الجنة، بعد «أن» التفسيرية.

(٥) قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠) في معرض حكاية قصة آدم:

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾.

فجملة: قالَ يَا آدم هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَىٰ» معطوفة عَطْفَ بيانٍ جاء تفسيراً للوسوسة الّتي وسوس بها الشيطان، دُون أن تُسْبَقَ بكلمة «أن» التفسيريّة.

(٦) يأتي في كُتب اللّغة مثل عبارة: «تَقُولُ: أمتَطَيْتُ الْفَرَسَ، إذَا رَكِبْتَهُ» فلفظ «إذا» في مثل هذه العبارة تفسيريَّة، وما بعدها عطف بيان جاء تفسيراً لجملة «امْتطيْتُ الْفَرَسَ».

ويمكن أن يُؤْتَىٰ بعطف بيان لبعض الأغراض البلاغيّة الَّتِي سَبَق بيانُها في النَّعْت، كالمدح، ومنه قوله تعالى:

﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾[1].

وكالإيضاح والتفسير.

ملاحظة حول عطف البيان:

(١) المائدة: الآية(٩٧).

يُلاحَظُ أَنّ عَطْف البيان يكونُ في اللَّقب بعد الاسم العلم، مثل «جَاءَ عليٌّ **زيْنُ العابدين**» . وفي الاسم العلم بعد الكنية، مثل: «أَقْسَمَ بالله أبو حفصٍ **عُمَر**» . وفي المحلّىٰ بـ «ال» بعد اسم الإشارة، مثل: [ذَلِكَ **الْكِتَابُ** لَا رَيْبَ فِيه]. وفي الموصوف بَعْدَ الصِّفَة، مثل: «بعثَ اللَّهُ الكليمَ **مُوسَىٰ** إِلَىٰ فِرْعَوْن وَمَلَئِه» وَفي التفسير بَعْدَ الْمُفَسَّر، مثل: «الْعَسْجَدُ **الذَّهَبُ** تَجِبُ فِيه الزَّكاة».

* * *

ثالثاً ــ التوكيد:

التوكيد: تابعٌ يُذْكر تقريراً لمتبوعه، بغيةَ رفع احتمال إرادة المجاز، أو رفع احتمال السَّهْو والغلط، وهو قسمان:

القسم الأول: التوكيد اللفظي، ويكون بإعادة اللفظ، أو إعادة مرادفه، سواء أكان اسماً، أم فعلاً، أم حرفاً، أم جملةً، أم شبه جملة.

القسم الثاني: التوكيد المعنويّ، ويكون بسبعة ألفاظ، وهي ما يلي:

(١) لفظتا «النفس ــ العين» ويؤكّد بهما لرفع المجاز عن الذّات.

• ففي المفرد نقول مثلاً: «جاء الأمير نَفْسُه، أو عَيْنُه» أي: لا نائبه، ولا رسولُ من قبله يمثّله.

• وفي المثنى نقول مثلاً: «حضر الْمَلِكَانِ أَنْفُسُهما، أو أَعْيُنُهما» بالجمع، وهو الأفصح، ويجوز نفساهما، أو عيناهما بالمثنىٰ.

• وفي الجمع نقول مثلاً: «حضر الرُّؤَسَاءُ أَنْفُسُهُمْ، أو أَعْيُنُهم».

(٢) لفظة «كِلَا» ويؤكّد بها المثنَّىٰ من المذكّر، لرفع احتمال إرادة المجاز بأنّ الحاضر أحدهما وقد أغنىٰ حضوره عن الآخر، فنقول مثلاً: «حضر الصديقان كلاهما» و «رَكِبْتُ الْحِصَانَيْنِ السّابِقَيْنِ كِلَيْهِما».

(٣) لفظة «كِلْتَا» ويؤكّد بها المثنّىٰ مِن المؤنَّثاتِ، مثل: «امرأةُ نوحٍ وامرأةُ لُوطٍ كافِرَتَانِ كِلْتَاهُمَا» و «دَخَلْتُ الحديقةَ فوجدت فيها شجرتي تُوتٍ فَأَكَلْتُ مِنْهُما كِلْتَيْهِمَا».

(٤) ألفاظ «كُلّ ــ جميع ــ عامّة» ويؤكَّدُ بهَا الجمع من المذكر والمؤنث، فنقول مثلاً: الصَّالِحُونَ كُلُّهُمْ، أو جميعهم، أو عامَّتُهم، يدخلون الجنّة يوم الدين» و «الصالحات كُلُّهُنَّ، أو جميعُهُنّ، أو عامَّتُهُنَّ، يدخُلْنَ الجنَّةَ يَوْمَ الدّين».

وَيُؤَكّد بهذه الألفاظ لرفع احتمال إرادة الأغلب أو البعض، لأنّ لفظتَي الصّالِحِينَ والصّالحاتِ يمكن إرادة عدم العموم فيهما، باعتبار احتمال أن تكون «أل» جنسيّةً أوْ عَهْدِيَّةً وليست استغراقية.

وقد يُرَادُ تَقْوِيَةُ التوكيد فيؤتَىٰ بكلمة «أَجْمَعْ» بعد كلمة «كُلّ» في المذكر، وبكلمَةِ «جَمْعَاء» بعد كلمة «كُلّ» في المؤنث، فنقول مثلاً: «جاء الجيشُ كُلُّه أَجْمَع» و «جاءت القبيلة كُلُّهَا جَمْعَاء» و «حضر الرُّؤسَاءُ كُلُّهُمْ أجْمَعُونَ».

ويُؤتَىٰ بكلمة «جُمَع» بعد كلمة «كُلّهن» فتقول: «حَضَرَ النّسَاءُ كُلُّهُنَّ جُمَعُ».

وقَدْ يُؤَكَّدُ بألْفَاظ «أَجْمَع، وجَمْعَاء، وأَجْمَعِينَ، وَجُمَع» وإنْ لم يَتَقَدَّمْهَا التَّوكيد بلفظة «كُلّ» ولا يجوز تثنية «أجمع» ولا «جمعاء».

قال أبو الهيثم الرّازي: «العربُ تؤكّد الكلمة بأرْبعة تواكيد، فتقول: مَرَرْتُ بالْقَوْمِ أجْمَعِينَ أَكْتَعِينَ أَبْصَعِينَ أَبْتَعِينَ».

وتقول في جمع النِّسْوة: «رَأَيْتُ النِّسْوَةَ جُمَعَ بُصَعَ».

الأغـراض البلاغيـة:

قد يُؤتَىٰ بالتوكيد لأغراضٍ بلاغيةٍ غير ما سبَقَ بيانُهُ، كالرَّدّ على اعتقاد غير صحيح، وادّعاءٍ باطل، والتعريض بغباوة المخاطب، وتنزيل المخاطب منزلة منكر

ما دَلَّ عليه التوكيد، والافتخار، والمدح، والذّمّ، والترحُّم، والتشنيع، والإشعار بهَوْل الحدث وفظاعته، إلى غير ذلك من أغراض يُلْمِحُ إليها البليغ إلماحاً بأسلوب التوكيد.

* * *

رابعاً ـ البدل:

البدل: تابعٌ هو المقصود بالحكم في الكلام، ويؤتَىٰ به بَعْدَ المبْدَلِ منه بدون وساطة عاطفٍ بينهما.

أمّا المبْدَلُ منه: فإمّا أن يكون قَدْ ذُكر توطئة وتمهيداً للبدَل، فيأتي البدل بمثابة التفسير بعد الإبهام، أو التخصيص، أو التوضيح للمراد. وإمَّا أن يكون قد ذُكر على سبيل الخطأ فيأتي البدلُ على سبيل التدراك لتصحيح ما يُرادُ بيانُه.

والبدلُ أربعةُ أقسام:

القسم الأول: بدَلُ الكُلِّ من الكُلِّ، ويُسمَّىٰ الْبَدَلَ المطابق، وهو بدل الشيء ممّا يطابق معناه، مثل قوله تعالى في سورة (الفاتحة): ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

القسم الثاني: بَدَلُ البَعْضِ من الكُلِّ، أَوْ بَدَلُ الجزء من كُلِّه، وهو بمثابة التصريح بالباقي بَعْدَ الاستثناء، مثل: «أكلتُ الرَّغيفَ ثُلُثَيْه، أو نِصْفَه، أو ثُلُثَه».

القسم الثالث: بَدلُ الاشتمال، وهو بدلُ الشَيْءِ ممّا يَشْتَمِل عليه بوجه عامّ دون أن يكون جزءاً منه، مثل: أدْهَشَني مالِكُ بنُ أنس **وَقَارُهُ وسَمْتُه**، و**أَبُو حَنيفة رأيهُ وعُمْقُ تفكيره**، و**الشافعيُ عبقريَّتُه في الاستنباط** من النصوص، و**الإمامُ أَحْمَدُ حِفْظُهُ ووَرَعُه**».

القسم الرابع: البَدَلُ المباين، وهو ثلاثة أقسام.

(١) بدل الغلط، ويأتي تداركاً لشيءٍ غير صحيح ولا مراد، لكن سبَق إليه الفكر أو اللّسان على سبيل الغلط.

(٢) بدل النسيان، ويأتي تصحيحاً لأمر قُصِدَ أوّلاً، ثُمَّ ظهر للمتكلّم أنَّه قد كان ناسياً.

(٣) وبدلُ الإضراب عن المبْدَلِ منه، ويأتي تداركاً لما يرادُ التعبير عنه، مع صحّة إرادة الْمُبْدَلِ منه، لكن المتكلّم أضربَ عنه صارفاً النظر عن الاهتمام به، أو موجّهاً النظر بعنايةٍ إلىٰ الْبَدَل.

أمّا كَوْنُ البدل من القيود في الجملة فيظْهَرُ في بعض أقسامه بلا إشكال، أمّا قسم البدل المباين فإدْخاله في عموم القيود هو على سبيل التسمُّح، وعلى معنى أن البدل صحَّح ما سَبَق في البيان بقيْدٍ لفظيّ مُلْغٍ لَهُ على سبيل الإبدال.

الفوائـد البلاغيـة:

وتظهر فوائد بلاغية في الأقسام الثلاثة الأولى للبدل:

- منها التفسير والتوضيح بعد الإجمال، أو الإبهام أو التعميم، لتثبيت المعنى في نفس المتلَقّي، وهذا يظهر في بدل الكُلّ من الكُلّ.

- ومنها الإشعار بأنّ البعض قد تبلُغُ أهميَّتُه حتّى يكون هو بمثابة الكلّ، فجاء التعبير بالكُلّ أوّلاً، ثُمَّ أُبدلَ منه بعضُه، وهذا يظهر في بدل البعض من الكُلّ.

- ومنها تثبيت الأصل أوّلاً اهتماماً به، ثمّ التوجيه للمقصود بالبيان، فتتحقَّق بذلك فائدتان، وهذا يظهر في بدل الاشتمال.

- ومنها زيادة التقرير بالتفسير والتوضيح، أو بالتكرير المؤكّد.

- وقد تظهر فوائد بلاغيّة في بدل الغلط، وذلك حينما يكون التوجيه غير الصحيح أوّلاً مقصوداً، ثمّ يأتي بعده التصحيح التداركيّ للإيهام بأنّ الفكر

أو اللّسان لم يُخْطِء إلاّ وفي النَّفْسِ عوامل تدعو إلى هذا الغلط، إذْ من المعروف أنَّ فلتات اللّسان قد تدلُّ على ما في الجنان.

- وقد يُقْصَدُ بالبدل التركيزُ على مواطن المدح أو الذّمّ، أو ماله الأهميَّةُ سواءٌ عند المتكلّم أو المخاطَب.

إلى غير ذلك من فوائد.

* * *

خامساً ــ عطفُ النسق:

عطْفُ النَّسق: تابعٌ يتوسَّطُ بينه وبين متبوعه واحدٌ من حروف العطف، وهي: «الواو ــ الفاء ــ ثُمَّ ــ حتَّىٰ ــ أَمْ ــ لَكِنْ ــ بَلْ ــ لاَ ــ لاَ يَكُونُ ــ ليس».

ولِكُلّ واحد من حروف العطف هذه دلالة تُستفادُ في الكلام، بسطها علماء النحو، والمتكلّم البليغ يتحرّىٰ أن يختار منها في كلامه حين يريد العطفَ ما يلائم منها المعنى الذي يريد إعلام المتلَقِّي به.

ومن الظاهر أنّه يتحقَّق بالعطف مزيد فائدة يستفيدها مُتَلَقِّي الكلام.

الفوائد البلاغية:

لِلْبلاغيين نظراتٌ فوق الأوضاع اللّغويّة للدلالة التي تُستفادُ بالعطف وحروفه، ومنها ما يلي:

(١) التفصيل مع الاختصار. فقولنا: «جاء مُحمَّد وعلي ــ جاء محمد فعلي ــ جاء مُحَمَّد ثُمّ علي» أخصر من أن نقول: جاء محمد جاء علي، وهكذا، وهذا من أصل فوائد العطف، والبليغ يهتمّ بالإيجاز.

(٢) إراد التشكيك بحرف العطف «أو».

(٣) تجاهل العارف بحرف العطف «أو».

(٤) بعض الأغراض التي تستفاد ببدل الإضراب، باستخدام «بل».

(٥) إراد الترتيب في الرتبة أو في الذكر على سبيل المجاز، باستخدام «الفاء» التي تفيد الترتيب مع التعقيب، أو باستخدام «ثُمَّ» الَّتِي تفيد الترتيب مع التراخي.

إلى غير ذلك من فوائد بلاغيّة يمكن استنباطُها من النصوص، أو تصيُّدها عند الأحوال المقتضية لها.

* * *

(٦)

التقييد بضمير الفصل

ضمير الفصل هو ضمير منفصل من ضمائر الرفع، يُؤتَىٰ به لغرض الفصل بين ما هو خبر وما هو تابع.

ويقع فصلاً بين المبتدأ والخبر، مثل: «المتنبـي هو شاعر العربيّة المبدع».

ويقع فصلاً بين ما أصله مبتدأ وخبر ممّا دخل عليه أحَدُ النواسِخِ، مثل: «إنْ كَانَ هذا هو الحق ــ وكُنْتَ أَنْتَ الرّقيبَ عليهم ــ وكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثينَ ــ تَجِدُوهُ عند اللَّهِ هُوَ خيراً».

الفوائـد البلاغيـة:

يستفاد من ضمير الفصل فوائد بلاغية متعدّدة، منها ما يلي:

(١) التخصيص، بقصر المسند على المسند إليه، مثل قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (التوبة/ ٩):

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

(٢) تأكيد التخصيص، إذا كان في الجملة مُخَصِّصٌ آخر، كما في المثال الثاني من الآية السابقة، وكما في قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الذاريات/ ٥١):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾.

فالتخصيص مستفاد من تعريف طرفي الإسناد، وجاء ضمير الفصل مؤكّداً له.

(٣) تمييز الخبر عن الصفة، مثل قولنا: «الْفَصِيحُ هو مُوضِح البيان طَلْقُ اللِّسَان».

إلى غير ذلك من أغراض بلاغية يمكن استنباطها أو تصيُّدها.

* * *

(٧)

التقييد بالشرط

يدخل الشرط على الجملة لربط الحكم فيها بحكم آخرَ في جملة أخرى ربطاً شرطيّاً، فتكون الجملتان بمثابة جملة واحدة، وتُسمّى عندئذٍ جملة شرطيّة.

ويلاحظ في الجملة الشرطية أنّ الشرطَ فيها قَيْدٌ للحكم في الجملة التي هي جواب الشرط، ففي قولنا: «من آمَنَ وعَمِل صالحاً دخَلَ الجنة» نلاحظ أنّ تحقُّق الإيمان والعمل الصالح المبيّن في الجملة الأولى قَدْ جُعِل في الكلام شرطاً لتحقُّق دخول الجنة في الجملة الثانية، والأداةُ الرّابطة بين الجملتين هنا كلمة «مَنْ» الشرطيّة.

وأدوات الشرط قسمان: أدوات عاملة فيما بعدها، وأدواتٌ غير عاملة.

- أمّا الأدوات العاملة: فهي التي تجزم فعلين أوّلُهما فعل الشرط والثاني جوابه وجزاؤه، وهي:

(١) «إن ــ إذْمَا» وهما حرفان.

(٢) «مَنْ ــ مَا ــ متَىٰ ــ أَيْنَ ــ أيْنَما ــ أَيَّانَ ــ أَنَّىٰ ــ حَيْثُمَا ــ كَيْفَمَا ــ مَهْمَا ــ أيٌّ» وهي أسماء.

● **وأمّا الأدوات غير العاملة، فهي**: «لَوْ ــ لَوْلاَ ــ لَوْمَا ــ أَمَّا ــ لَمَّا» وهي حروف، و «إذا» هي اسم ظرف لما يستقبل من الزمن.

وقد فصّل اللّغويون والنحاة معاني أدوات الشرط العاملة وغير العاملة، والفصيح البليغ يتحرَّىٰ استعمالها فيما وُضِعَتْ له، وضمن المعاني الّتي استَعْمَلَها العربُ الفصحاء فيها.

ونبَّه علماءُ البلاغة على مواقع استعمال بعض أدوات الشرط السّابِق ذكرُها، إذْ لاحظوا أنّ بَعْضَ شارحي النصوص البليغة ومُفَسِّريها لَمْ يكْشِفُوا فروق دَلالات هذه الأدوات، مكْتَفِينَ بدلالاتِها الشرطيّة العامّة، كما أنّ بعض الكتَّاب والشُّعراء يَغْلَطُونَ فيضَعُونَ بعضَ هذه الأدواتِ في المواقع التي لا يحْسُنُ وضْعُهَا فيها.

وقد أَبَان البلاغيّون الفرق بين أداة الشرط «إنْ» وأداة الشَّرْط «إذا» فرأوا من تتبُّع النُّصُوصِ الرَّفيعة أنّ حرف الشرط «إنْ» يُسْتَعْمَلُ غالباً فيما يَرىٰ المتكلّم أنّ ما جُعِلَ شرطاً وهو ما دلَّتْ عليه جملة الشرط أمْرٌ مشكوكٌ في وقوعه مستقْبلاً، أو هو نادر الوقوع. وأنّ اسم الشرط «إذا» يُسْتَعْمَلُ غالباً فيما يرَىٰ المتكلم أنَّ ما جُعِلَ شرطاً وهو ما دلّتْ عليه جملة الشرط أمْرٌ مُتَحقِّق الوقوع، أو هو مَرْجُوّ الوقوع.

فالبليغ مطلوبٌ منه، أن يستَعْمِلَ كُلًّا من «إنْ» و «إذا» فيما هو الغالبُ من استعماله، ليشير في كلامه بكلمة «إنْ» الشرطيّة إلىٰ الشَّكِّ في وقوع الشرط أو ندرته، وليشير في كلامه بكلمة «إذا» إلىٰ تَحَقُّقِ الشرط مستقبلاً، أو إلى رجاء تحقُّقه.

على أنّ كلمة الشرط «إنْ» باعتبارها أمّ أدوات الشرط قَدْ يقتضي الكلام

استعمالها في غير المشكوك فيه أو النادر، ولا سيما حينما يتردَّدُ الشرط بين احتمالين أو احتمالات متعدّدات، مثل أن نقول: «إن استوفى المصلي المطلوبَ منه وجوباً صحَّتْ صَلاتُه، وإنْ لم يستوف المطلوبَ منه وجوباً لم تَصِحَّ صلاتُه» فلفظ «إنْ» في هذا المثال وأشباهه لا يشير إلى أنّ الشرط مشكوكٌ في تحقُّقِهِ أو نادر.

وللبلغاء ذوقٌ دَرّاكٌ للمواطن التي يَحْسُنُ فيها استعمال «إنْ» الشرطية، وللمواطن التي يَحْسُنُ فيها استعمال «إذَا».

ومن الأَمثلة التي جاء فيها استعمال كلٍّ من «إذا» و «إنْ» الشرطيتَيْنِ في مكانه المناسب تماماً، قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧): يقصُّ قصّة موسَىٰ عليه السّلام وآل فرعون:

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾.

إنّ مَجْرَىٰ إمْدَادِ اللَّهِ الناسَ بالحسنات في الحياة الدُّنيا أَمْرٌ مُتَحَقِّقٌ وَهُوَ القاعِدَةُ الأَغْلَبِيَّة، ولو كانوا كفَّاراً مُجْرمين، لذلك جَاءَ استعمال كلمة «إِذَا» داخلةً على شرط مجيء الحسنة لآلِ فرعون، أمَّا الإِصَابَةُ بالسَّيِّئَة فأمْرٌ نادرٌ وقليلٌ بالنسبَة إلى تواتر الحسنات، وتأتي للتذكيرِ، والتَّنْبيه على عقوبات الله الكبرى التي جاء بها الوعيد الرّباني، لذلك جاء استعمال كلمة «إنْ» داخلة على شرط الإصابة بالسيّئة.

قال الزمخشري في الكشاف: «وللْجَهْلِ بمواقع (إنْ) و (إذا) يَزيع كثير من الخاصَّة عن الصواب فيَغْلَطُونَ، ألاّ ترى إلى (عبد الرحمن بن حسَّان) كيف أخطأ بهما الموقع في قوله يخاطِبُ بعض الولاة وقد سأله حاجَةً فلم يقضها، ثُمَّ شُفعَ لَهُ فيها فقضاها:

أَبَـىٰ لَـكَ كَسْـبَ الْحَمْـدِ رَأَيٌ مُقَصِّـرٌ ... ونَفْـسٌ أَضَـاقَ اللَّـهُ بـالْخَيْـرِ بَـاعَهَـا

إذا هِـيَ حَثَّتْـهُ عَلَـىٰ الخيـر مَـرَّةً ... عَصَـاهَـا وإنْ هَمَّـتْ بِشَـرٍّ أَطَـاعَهـا

ولو عكس في استعمال الأداتين لأصابَ الغرض».

أي: لو قال: فإن هي حثته... وإذا همت بشرٍّ...

● وذكر البلاغيّون أنّ كُلاًّ من حَرْفِي «إنْ» و «إذا» الشرطيَّيْن قد يستعمل في موضع الآخر لأغراض بلاغيّة، منها:

(١) تجاهل العارف، كأن يقول المعتذر عن أمْرٍ لا يليق به: «إنْ كنتُ فَعَلْتُ هذا الأَمْرَ فأرجو العفو والمسامحة» وهو يعلم من نفسه أنّه فعله، وكأن يقول المغاضب لصاحبه: «إنْ طرقْتُ بابَكَ بَعْدَ اليَوم فلا تَفْتَحْ لي» وهو يعلم من نفسه أنّه لا يصْبر على هجره. وكأنْ يقول مُدَّعِي ما ليْسَ له: «إِذَا كَانَ هذا حَقِّي فَلا بُدَّ أنْ أصل إليه» وهو يعلم أنّه لا حقّ له به.

(٢) تنزيل المخاطب منزلة مُنْكر الحقيقة، كأن يقول الأب لابنه الخارج عن واجب البرِّ: «إنْ كنْتَ ابْنِي حَقّاً فَلا تَعْصِنِي».

(٣) تنزيلُ الشَّاكّ منزلةَ غير الشاكّ، للإشعار بأنّ وضوح الأدلة يقتضي عدم وجود الشّك أَصْلاً، كأن يقول المؤمن الذي يناظِرُ غير المؤمن حول قضايا الإيمان الكبرى: «إِذَا كنْتَ تُسَلّم بالبراهين العقلية الدّامِغَة فلا بُدَّ أن تُؤْمِنَ باللَّهِ واليوم الآخر وَالقرآن وخاتم المرسلين محمد بن عبد الله وما جاء به عن ربّه».

(٤) تغليب واقع حال العدد الأكثر من المخاطبين على العدد الأقل، وقد يُحْمَلُ على هذا قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/٢) خطاباً للجاحدين من المشركين بأن القرآن مُنَزَّل مِنْ عند الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ...﴾ [الآية ٢٣].

أَفْهَمَ اسْتِعْمالُ «إنْ» في هذا النَّصّ أنّ العدد الأكثر من المشركين لم يكونوا شاكّين في أنَّ القرآن كلامٌ مُنَزَّل من عند الله، إنما كانوا جاحدين معاندين، والمعنى أن احتمال وجود الشّكّ في القرآن عندكم أمْرٌ قليلٌ ونادِرٌ، فأكثرُكُمْ معاندون.

والأصل أن يكون فعل الشرط مع أدَاتَيْ «إنْ» و «إذَا» فِعْلاً مضارعاً، وقد يأتي فعلاً ماضياً لفظاً، إلّا أنّ معناه بأداة الشرط انقلب إلى الاستقبال، والبليغ حين يستعمل فعل الشرط ماضياً مع «إنْ» أو «إذا» يُلاحظ غرضاً بلاغيّاً، ومن هذه الأغراض:

(١) الإشعار بتحقُّقِ الوقوع فكأنه أمْرٌ تَمَّ وُقُوعُهُ، مثل: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ﴾، ﴿إِذا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾، ﴿إذا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَها﴾.

(٢) التفاؤل بتحقُّق الوقُوع، مثل قول الفقير المعدم: «إذا رزقني اللَّهُ مالاً وفيراً اشتريت داراً واسعة جميلة وأدّيت فريضة الحجّ».

(٣) إظهار الرغبة في تحقُّق الوقوع، مثل قول التاجر الطامع بشراء صفقة تجاريّة رابحة: «إذا تَمّتْ هذِهِ الصَّفْقَةُ التِّجَاريّة حصَلَ لنا منها رِبْحٌ وفير».

(٤) التعريض، مثل أن يقول الباحث عن زوجة مناسبة أمام من يرغب أن يتزوَّجَها، إِذَا وَجَدْتُ الجميلة الذكيّة العاقلة ذات الخلُق والدِّين فإنّي أُحِبُّ الزّواج مِنْها إِذَا وَافَقَتْ هِي وأهْلُها.

إلى غير ذلك من أغراض.

على أن حرف الشرط «إِنْ» قد يُسْتعمل في غير الاستقبال لفظاً ومعنىً، قياساً مُطَّرِداً في موضعين:

الموضع الأول: أن يأتي فعل الشرط لفظ «كان».

الموضع الثاني: أن يأتي حرف «إنْ» في مقام التأكيد بعد واو الحال لمجرّد

الربط دون إرادة الشرط منه، مثل أن يقول المحبّ لحبيبه: «سأزورُكَ وَإِنْ هَجَرْتَنِي، وأكْرِمُكَ وإِنْ أَهَنْتَنِي، وأَحْبَبْتُكَ وإِنْ جَفَوْتَنِي، وذَكَرْتُكَ وإِنْ نَسِيتَنِي».

● أمّا «لو» الشرطيّة فهي على قسمين:

الأول: أنْ تكون للتعليق في المستقبل، وعندئذٍ تكون مرادفة «إِنْ» الشرطيّة، وإذا وَلِيَها فعل «ماضٍ» كان معناه على الاستقبال، وقد يدعو إلى ذلك غرض بلاغي، وهو جعل الأمر المستقبل بمثابة الأمر الماضي، ومن فوائد ذلك التحذير والتخويف، كما في قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النساء/ ٤):

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾.

أي: إنّ من المتوقَّع أنْ يترُكَ الَّذِينَ لاَ يتَّقُونَ اللَّهَ فِي ذُرِّياتِ غيرهم ذُرّياتٍ لهم يخافون عليهم من ظلم من يتولّىٰ أمورهم بَعْدَهم.

الثاني: أنْ تكون «لو» للتعليق في الماضي، وهو أكثر استعمالاتها، وتقتضي عندئذٍ لزوم امتناع جوابها لامتناع شرطها إن لم يكن لجوابها سبَبٌ آخر غير الشرط، مثل قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الفرقان/ ٢٥):

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ ﴾.

أي: لم نشأ ذلك فلم نَبْعَثْ، لأنّ الحكمة اقتضت أن نبعث رسولاً واحداً في آخر الزَّمان خاتماً للمرسلين، ورسولاً لجميع العالمين.

وحين تكون «لو» للتعليق في الماضي فالأصل أن يكون كلٌّ من فِعْلَي الشرط وجوابِه فِعلاً مَاضياً، وقد يَسْتَعْمِلُ البليغ الفعل المضارع لغرض بلاغي، ومن الأغراض البلاغيّة في هذا الاستعمال ما يلي:

الغرض الأول: قصد الاستمرار في الماضي حيناً فحيناً، مثل قول الله عزَّ

وجلَّ في سورة (الحجرات/ ٤٩) خِطَاباً للمؤمنين في عصر الرسول ﷺ:

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ. . .﴾ [الآية ٧].

الْعَنَت: المشقة، والتعب، وشدّة الضّرر، والفساد.

أي: لو تابع طاعتكم في كثير من الأمور الَّتي تقدّمون فيها آراءً خاصَّةً لوقعتم في العنت، وهذا المعنى يُفْهَمُ من الفعل المضارع الذي يدلُّ على التجَّدُّد في المستقبل، فَقُلِبَ معنىٰ زمانه إلى المضي بحرف «لَوْ» وبقي فيه معنىٰ التجدّد.

الغرض الثاني: تصوير ما سيحدث بصورة الأمر الذي وقَعَ وحدث، فيُؤْتَىٰ بالفعل المضارع للإشعار بأنَّه أمْرٌ من أُمُورِ المستقبل المتحقِّقَةِ الوقوع، ولمَّا كانت «لو» هذه للتعليق في الماضي كان اجتماع الأمرين بمثابة الإعلام بأنّ ما نقولهُ من أمْرِ المستقبل هو بقوّة ما وقع وتحقَّقَ فِعلاً، ولهذا أمثلة كثيرة في القرآن، منها قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (السجدة/ ٣٢):

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ١٢﴾.

وُضِع الفعل المضارع «تَرَىٰ» والأصل ــ دُون ملاحظة الغرض البلاغي ــ أن يُقَال: ولَوْ رَأَيت. لكن الفعل المضارع أدّىٰ معنى دقيقاً لا يؤدّيه الفعل الماضي هنا.

• • •

الفَصْل السَّادِس

الخروج عن مقتضىٰ الظاهر

مقدمة:

درس علماء البلاغة ضمن تتبُّعِهم لموضوعات علم المعاني ظاهرةَ الخروج عن مقتضى الظاهر في الكلام البليغ، لداعٍ من الدواعي البلاغيّة ذات التأثير في النفوس والأفكار، لما فيها من عناصر فَنّيّةٍ إبداعيّة تتضمَّن دلالاتٍ فكرية، أو تعبيراتٍ جماليّة، أو إلماحات ذكيّة.

وظهر لهم من التتبُّع الأنواع التسعة التالية:

النوع الأوَّل: الالتفات.

النوع الثاني: أسلوبُ الحكيم.

النوع الثالث: الإضمار في مقام الإظهار، والإظهار في مقام الإضمار.

النوع الرابع: التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي.

النوع الخامس: التغليب.

النوع السادس: وضع الخبر موضع الإنشاء ووضع الإنشاء موضع الخبر.

النوع السابع: الانتقال من الماضي إلى المضارع وبالعكس.

النوع الثامن: تجاهُل العارف.

النوع التاسع: القلبُ بإجراء التبادل بين جزئَيْنِ يُمْكن إجراء التبادل بينهما من أجزاء الجملة.

وفيما يلي شرح لهذه الأنواع الّتي يلاحظ فيها خروجٌ في الكلام البليغ عن مقتضىٰ الظاهر لداعٍ بلاغيّ حسُنَ بسببه هذا الخروج بلاغياً وأدبيّاً.

* * *

(١)
النوع الأول
الالـتـفـات

تعريف الالتفات:

الالتـفـات: هو في اللّغة تحويل الوجه عن أصل وضعه الطبيعيّ إلى وضْعٍ آخر.

وفي اصطلاح البلاغيين هو التحويل في التعبير الكلاميّ من اتجاه إلى آخر من جهات أو طرق الكلام الثلاث: «التكلّم ــ والخطاب ــ والغيبة» مع أنّ الظاهر في متابعة الكلام يقتضي الاستمرار على ملازمة التعبير وفق الطريقة المختارة أوّلاً دون التحوّل عنها.

وأضاف السَّكّاكيّ إلى ما اشتمل عليه هذا التعريف التعبيرَ ابتداءً بواحدة من هذه الطُّرُقِ إذا كان على خلاف مقتضىٰ الظاهر، كأنْ يتحدّث المتكلِّم عن نفسه بأسلوب الخطاب الذي يخاطب به غيره، أو يتحدَّث مع من يخاطبه بأسلوب التكلّم عن الغائب، أو يتحدّث عن نفسه بأسلوب الحديث عن الغائب، أو يتحدّث عن الغائب بأسلوب الخطاب، وهكذا.

ومنه وفق رأي السّكّاكي قول البوصيري في بردته يخاطبُ نفسه:

أَمِــنْ تَــذَكُّــرِ جيــرَانٍ بِــذِي سَلَــمِ مَـزَجْـتَ دَمْعـاً جَـرَىٰ مِـنْ مُقْلَـةٍ بِـدَمِ

ومنه حديث الله عزّ وجلّ عن نفسه بأسلوب الحديث عن الغائب في القرآن المجيد، مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢):

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

ومنه خطاب الله رسوله بقوله: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ ﴾.

وكان مقتضىٰ الظاهر أن يقول: «وإذْ قُلتُ لِلْملاَئِكَة. . .» وأن يقول لرسولِهِ: «عَبَسْتَ وتولَّيْتَ أن جاءَكَ الأعمى».

ويُلَقَّبُ الالتِفاتُ بشجاعة العربيّة، على معنى أنَّ الْبُلَغَاء مِنْ ناطقي العربية كانت لديهم شجاعةٌ أدبيَّةٌ بيانيّة استطاعوا بها أن يفاجئوا المتلقّي بالتَّنقُّل بيْن طُرُقِ الكلام الثلاثة «التكلُّم ــ والخطاب ــ والْغَيْبة» مشيرين بذلك إلى أغراضٍ بلاغيَّة يريدون التنبيه عليها بذلك.

والالتفات من الأساليب البلاغيَّةِ ذَاتِ اللَّطَائف النفيسة، وقد تكرّر في القرآن المجيد استخدامه جداً، وله فيه أمثلة كثيرة.

وهو فنٌّ بديعٌ من فنون القول يُشْبِهُهُ تحريكُ آلات التصوير السينمائي بنقلها من مشهد إلى مشهد آخر في المختلفات والمتباعدات الّتي يُرادُ عَرْضُ صُوَرٍ مِنْها، ومفاجأة الْمُشَاهِدِ بلَقَطاتٍ مِنْها متباعدات، لكنَّها تدخُلُ في الإطار الْكُلّي الذي يُراد عرض طائفةٍ من مشاهده تدلُّ على ما يُقْصد الإعلام به.

ويَهْدِي الذوقُ الأدبيُّ السليم إلى استخدام الالتفات استخداماً بارعاً يُحَقِّق به البليغ فوائد في نفس المتَلَقِّي أو فكره، مع ما يُحقِّق به من الاقتصاد والإيجاز في العبارة.

فلننظر إلى الالتفات البديع الموجود في النصّ القرآنيّ التالي:

بينما يتحدّث النّصّ عن بني إسرائيل الأوّلين وما فعلُو من كبائِرَ بأسلوب الحديث عن الغائب، يلتفت النّصّ فيخاطب بني إسرائيل المعاصرين لنزول القرآن فمن يأتي بعدهم كأنَّهم الأوّلون أنفسُهم، للإشعار بأنّ هؤلاء الْخُلُوف ما زالوا يتّصفون بأوصاف الأوّلين، لم يغيّروا منها شيئاً، فهم مَعْنِيُّون بعموم الخطاب، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩﴾.

فالالتفاتُ في: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ؟﴾ خطاباً لبني إسرائيل المعاصرين لنزول النصّ فمن بعدهم فيه فائدتان:

الأولى: فنّيّةُ التنويع في العبارة المثيرة لانْتِباه المتلَقِّي، والباعثة لنشاطه في استقبال ما يُوَجَّه له، والإِصْغَاءِ إلَيْه.

الثانية: الاقتصاد والإيجاز في التعبير، فبدل أن يقول النصُّ لمعاصري التنزيل الكافرين من بني إسرائيل فمن بَعْدَهم: وأنتم يا بني إسرائيل ما زِلْتُم على طريقة أسْلاَفِكُمْ، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ؟. اقْتَصَرَ النّصُّ على: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ؟﴾ مُسْتَغْنِياً بأُسْلُوبِ الالْتفاتِ، للدلالة على ما يُمْكِن فَهْمُه ذِهْناً، إذْ اعتبَرَهُمُ النَّصُّ داخِلِين في عُمُوم خطاب الغائبين السّالِفين، إذْ هم موافقون على ما كانوا يفعلون، أو يفعلون مثلهم.

ونظيره الالتفات البديع في قول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ . . .﴾ [الآية ١٧٩].

ففي هذه الآية تحقَّقَتِ الفائدتانِ أيضاً:

الأولى: فَنِّيَّةُ التَّنْوِيع في أسلوب الكلام.

الثانية: الإيجاز في العبارة.

وبسط الكلام يكونُ كما يلي: مَا كان الله ليذر المؤمنين على ما هم عليه من الدَّعَة والأمن والرَّخاء، وأنتم من المؤمنين، فما كان الله ليَذَرِكُمْ على ما أَنْتُم عليه، حتَّى يميز بالامتحان الشديد على النفوس الخبيثَ من الطِّيب في الأعمال والأقوال والنيّات وحركات النفوس الإرادِية.

ومن فوائد الالتفات من الخطاب إلى الغيبة الإشعارُ بالعتاب أو الإعراض عمَّنْ يليقُ به أن يُكرَّمَ بالخطاب بحسب مقتضى الظاهر، ولكن جاء الكلام على خلاف ذلك لأنّه أعرض أو تولَّىٰ في مقامٍ كان ينبغي له فيه أَنْ لا يُعْرِض أو أن لا يتولّىٰ، ومن أمثلته على رأي السّكّاكيّ ــ وهو رأيٌ حَسَنٌ ــ المثالُ الذي سبق الاستشهاد به لما ذهب إليه، وهو قول الله عزّ وجلّ في سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول):

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾.

إذِ الْتَفَتَ عنه ابتداءً، فتحدَّثَ عنْهُ بأسْلُوبِ الحديثِ عن الغائب، مع أنّ مُقْتَضَىٰ الظاهر بحسب منزلته أنْ يُكلِّمَهُ بأسلوب الخطاب، لكِنْ لم يُطِلِ الالتفاتَ عنه بل أسْرَعَ إلى الالتفات إليه، فخاطبه بقوله معاتباً:

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾.

* * *

فوائد الالتفات:

ممّا سبق استطعنا أن نكتشف مِنْ فوائد الالتفات ما يلي:

الفائدة الأولى: فنّيّةُ التّنْويعِ في العبارة، المثيرِ لانتباه المتلَقّي، والباعثِ لنشاطه في استقبالِ ما يوجَّه له من كلام، والإِصغاءِ إليه، والتفكير فيه.

الفائدة الثانية: الاقتصادُ والإِيجازُ في التعبير.

الفائدة الثالثة: الإِعراض عن المخاطبين، لأنهم عن البيانات معرضون أو مُدْبرون وغير مكترثين.

الفائدة الرابعة: إفادة معنىً تتضمَّنُه العبارة الّتي حصل الالتفات إليها، وهذا المعنىٰ لا يستفادُ إذا جرَىٰ القول وفق مقتضىٰ الظاهر.

الفائدة الخامسة: ما يُسْتفاد من معنىً بالالتفات إنّما يستفاد إلماحاً بطريقٍ غير مباشر، ومعلُومٌ أنّ الطُّرُقَ غير المباشرة تكون أكثر تأثيراً من الطرق المباشرة حينما تقتضي أحوال المتلقّين ذلك.

الفائدة السادسة: إشعارُ مختلِف زُمر المقصودين بالكلام بأنّهم محلُّ اهتمام المتكلّم، ولو لم يكونوا من الزُّمْرَة المتحدّث عنها أوّلاً، ويظهر هذا في النصوص الدينيّة الموجَّهة لجميع الناس، وفي خُطَب الملوك والرؤساء والوعّاظ وأشباههم.

* * *

ملاحظات حول شروط الالتفات وما يقرُب منه:

الملاحظة الأولى: قالوا: يشترط في الالتفات أن يكون الضمير المنتقل إليه عائداً في نفس الأمر إلى المنتقل عنه.

ولكنّي لست أرى هذا شرطاً لازماً، لأنّ مطلق التنقّل بين التكلّم والخطاب والغيبة له التأثير نفسه، وله خصائصه الفنيّة البيانية البليغة، إذا استوفى عناصره الجماليّة المؤثرة، وأدّىٰ بعض فوائده وأغراضه البلاغية.

الملاحظة الثانية: وقالوا: يقربُ من الالتفات نقل الكلام من خطاب الواحد

أو الاثنين أو الجمع إلى الآخر. أقول: هذا صحيح، ولا مانع من إلحاقه به.

الملاحظة الثالثة: وقالوا: يقربُ من الالتفات التنقُّل بين الماضي والمضارع والأمر. أقول: وهذا صحيح أيضاً، وهو من الخروج عن مقتضى الظاهر، ويُلْحَقُ به التنقُّل بين الفعل واسم الفاعل واسم المفعول، مثل: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّۚ﴾ [٩٥/ الأنعام].

ويُلْحق به أيضاً كُلُّ تنويع من هذا القبيل يُلاَحَظُ فيه خروج الكلام عن مقتضىٰ الظاهر، مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفاتحة).

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۞﴾.

إذْ كان الظاهر أن يقال: «غير الذينَ غَضِبْتَ عليهم» فَخُولِفَ هذا الظاهر.

* * *

صُورُ الالتفات:

يأتي الالتفات في ستِّ صُوَر:

الصورة الأولى: الانتقال من التكلّم إلى الخطاب، وكذا الابتداء بالخطاب، مع أنّ مقتضىٰ الظاهر يستدعي التكلم أو الْغَيْبَة.

الصورة الثانية: الانتقال من التكلُّم إلى الغيبة، وكذا الابتداء بالْغَيْبة مع أنّ مقتضىٰ الظاهر يستدعي التكلّم أو الخطاب.

الصورة الثالثة: الانتقال من الخطاب إلى التكلّم، وكذا الابتداءُ بالتكلّم مع أنّ مقتضىٰ الظاهر يستدعي الخطاب أو الْغَيْبَة.

الصورة الرابعة: الانتقال من الخطاب إلى الْغَيْبة.

الصورة الخامسة: الانتقال من الْغَيْبة إلى التكلّم.

الصورة السادسة: الانتقال من الْغَيْبة إلى الخطاب.

* * *

الأمـثـلـة:

أولاً: فمن أمثلة الانتقال من التكلّم إلى الخطاب ما يلي:

● ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) في حكاية ما كان من الرجل المؤمن الذي جاء من أقصىٰ المدينة (قيل: هي أنطاكية) لنُصْرَة الرُّسل الثلاثة:

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ معطوفٌ على محذوفٍ دلَّ عليه حرف العطف «الواو» والمطويُّ المحذوف يُمْكِنُ تقديره بأن نقول.

قالوا له: أتُؤْمن بما جاء به هؤلاء المرسلون وتَعْبُدُ الرَّبَّ الّذِي يدعُونَ لعبادته؟

قال: نعم أومنُ بما جاءوا به، وأَعْبُدُ رَبِّـي، ومَالِيَ لاَ أَعْبُدُ الّذي فَطَرَني؟!.

ثم انتقل من التكلّم إلى الخطاب فقال لهم: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾ فخاطَبَهُمْ مع أن مقتضىٰ الظاهر أن يقول: وإليه أُرْجَعُ يوم الدين ليحاسبني ويجازيني، كما يُرْجَعُ إليه سائر الناس وأنتم منهم.

فأوجز في العبارة، وأشعرهم بأسلوب غير مباشر أنّهم قد كان عليهم أن يؤمنوا كما آمَنَ هو، لأنّهم سَيُرْجَعُون إليه يوم الدين، وسَيُحَاسِبُهم ويجازيهم على أعمالهم.

* * *

ثانياً: ومن أمثلة الانتقال من التكلّم إلى الغيبة ما يلي:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (الكوثر/ ١٠٨ مصحف/ ١٥ نزول):

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾.

فقد جاء الكلام أوّلاً على طريقة التكلُّم: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ﴾ ثُمَّ انْتَقَل إلى أسلوب الحديث عن الغائب: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ ولم يَقُلْ: فَصَلِّ لنا.

والحكمة من هذا الالتفات التذكير بحقِّ الرّبّ الْمُنْعِم بعطاءات الربوبيّة في أن يَعْبُدَهُ عبادُهُ ويُصَلُّوا له، مع الاقتصاد في التعبير، والإِيْجاز في القول.

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾.

كان مقتضىٰ الظاهر أن يأتي التعبير: لا تقنطوا من رحمتي إنّي أغْفِرُ الذُّنوب جميعاً.

ولكن حصل العدول عنه إلى ﴿من رحمة الله...﴾ للإشعار بأنّ من صفات الله الجليل العظيم أن يغفر ذنوب مَنْ يُنيبون إلى رَبِّهِمْ ويسلمون له، كما جاء في الآية التالية من السورة، مع الإِيجاز والاقتصاد في العبارة.

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول):

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦﴾.

بدأ الأسلوب في هذا النّصّ عَلىٰ طَريقة حديث المتكلّم عن نفسه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ ــ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ــ أمراً من عِندِنا ــ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾.

وبعد ذلك انتقل إلى أسلوب الحديث عن الغائب خلافاً لمقتضى الظّاهر ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُو السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وفائدة هذا الالتفات التذكير بربوبيّة الله عزّ وجلّ والتوطئة لذكر بعض صفاته التي هي من مقتضيات ولوازم كونه ربّاً، مع الإيجاز والاقتصاد في العبارة.

● وقول الْحُصَيْنِ بنِ الْحُمَام في مُفَضَّليته يتحدّث عن الخيل في موقعةِ يوم «دَارةِ موضوع» بين بني سعد بن ذبيان، وبين بني سهم بن مُرَّة، وكان الْحُصَيْن قائد بني سهم، وكتب الله له فيها النصر، فجاء في قصيدته:

وَأَنْجَيْـنَ مَـنْ أَبْقَيْـنَ مِنَّـا بِخُطَّـةٍ ... مِنَ الْعُذْرِ لَمْ يَدْنَسْ وإِنْ كَانَ مُؤْلِماً
أَبَـىٰ لابْـنِ سَلْمَـىٰ أَنَّـهُ غَيْـرُ خَـالِـدٍ ... مُـلاَقِـي المَنَـايَـا أَيَّ صَـرْفٍ تَيَمَّـمَـا
فَلَسْـتُ بِمُبْتَـاعِ الْحَيَـاةِ بِسُبَّـةٍ ... وَلاَ مُبْتَـغٍ مِـنْ رَهْبَـةِ الْمَـوْتِ سُلَّمَـا

يَصِفُ الْحُصَيْنُ بن الْحُمَامُ خَيْلَ قَوْمه وقد نجّتْ من بقي منهم في معركتهم الظافرة، وأبان أنّ مَنْ بقي حيّاً فقد بقي بخُطَّةٍ يُعْذَر بها، إذْ لم يجبُنْ، بل أبلَىٰ بلاءً حسناً، فلَمْ يَدْنَسْ بفرار من المعركة.

وتحدَّث عن نفسه بأسلوب الحديث عن الغائب فقال: «أَبَـىٰ لابن سَلْمَىٰ» بعد أن تحدّث عن نفسه بأسلوب التكلم مع قومه في قوله: «مَنْ أبْقَيْنَ مِنّا» وكان هو ممّن بقي.

ونقل الحديث إلى الحديث عن الغائب ليوطىء للحديث عن نفسه، كأنَّه يُحَدِّث عن فـارسٍ شجاعٍ لا يخشىٰ المنايا، لأنّه يعلم أنه غير خالد لوفرّ من مواقعها، وقَصَدَ أيّ صَرْفٍ من صُروفِ المَهَارِب.

وبعد ذلك التفت أيضاً إلى التكلّم، فَتَحَدَّث عن نفسه فقال:

فَلَسْـتُ بِمُبْتَـاعِ الْحَيَـاةِ بِسُبَّـةٍ ... وَلاَ مُبْتَـغٍ مِـنْ رَهْبَـةِ الْمَـوْتِ سُلماً

بمبتاعِ الحياة: أي بِشَارٍ لها.

* * *

ثالثاً: ومن أمثلة الانتقال من الخطاب إلى التكلّم ما يلي:

● قول «عَلْقَمة بْنِ عَبْدَة»:

طَحَابِكَ قَلْبٌ في الْحِسَانِ طَرُوبُ   بُعَيْدَ الشَّبَابِ عَصْرَ حَانَ مَشِيبُ
يُكَلِّفُنِي لَيْلَىٰ وَقَدْ شَطَّ وَلْيُهَا   وَعَادَتْ عَوَادٍ بَيْنَنَا وَخُطُوبُ

بدأ يتحدث عن نفسه بأسلوب الخطاب في البيت الأوّل مُجَرِّداً من نَفْسِه مُخاطَباً قائلاً: «طَحَا بِكَ قَلْبٌ» أي: ذهبَ بِكَ وأتْلَفَك.

وانتقل إلى أسلوب التكلُّم في الحديث عن نفسه فقال في البيت الثاني «يُكَلِّفني لَيْلَىٰ وَقَدْ شَطّ وَلْيُهَا» أيْ: يُكَلِّفُنِي حُبَّ ليلَىٰ وقد بَعُدَ قُرْبَها.

قال المرصفي: مدَحَ «أي: علقمة بهذه القصيدة» مِلِكَ غَسَّانَ واستعطاه، وسأله مع طلب الجائزَة أن يَمُنَّ على أخيه شاس بن عبْدَة، وكان أسيراً عند الملك، ولم يكتف بهذا بل طلب الجائزة لأخيه.

* * *

رابعاً: ومن أمثلة الانتقال من الخطاب إلى الغيبة ما يلي:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ...﴾ [الآية ٢٣].

كان الكلام في صدر الآية جارياً على أُسلوب الخطاب: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى

﴿ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾، وبَعْدَ ذَلِكَ انْتَقَلَ الْكَلامُ إلى أسْلُوب الحديث عن الغائب: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾.

وفائدة هذا الالتفات بيانُ أنّ الذين تكون منهم هذه الظاهرة التي تحدّث عنها النّصّ ليسوا جميع المخاطبين، بل هم فريق منهم، فمن الحكمة الحديث عنهم بأسلوب الحديث عن الغائب، مع ما في الحديث عن الغائب من الإعراض المشعر بالتأنيب على ما يكون منهم، وقد جاء في النصّ بعد ذلك تأنيبُهُمْ صراحةً فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيا﴾ ولَوْ تتابع الكلامُ وفْقَ أُسْلُوب الْخِطاب دون ما حصل في النصّ من الالتفات لكان التأنيب مُوَجّهاً لكلّ الناس، مع أنّ فيهم صالحين لا تظهر منهم هذه الظاهرة القبيحة من الظواهر المنافية للسلوك الدّيني المطلوب من العباد.

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) في معرض بيان خطابه لِجَمْعٍ كبيرٍ من الأنبياء المرسلين الذين جاء ذكرهم في السورة:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

يظهر لنا في هذا النصّ نَظِيرُ ما ظهر لنا في النَّصّ السّابق، فالذين تقطّعُوا أَمْرَهم بَيْنَهُمْ لَيْسُوا كُلَّ أتباعِ الرُّسُل، إذْ فيهم من حافظوا على وحدة الأمّة الرَّبَّانيّةِ، ولم يَتَنكَّبُوا صِراطَ الله، وحينما بعثَ الله الرَّسُولَ الخاتم اتَّبعوه مؤمنين بأنَّ أُمَّتَه هُمْ أُمَّةُ الرُّسُلِ الذين جاءوا قبله، تلاحقت مواكبهم، إذْ هُمْ رُسُلُ مُرْسلٍ واحدٍ، يقُودون أمّةً واحدةً على صراط الله المستقيم.

● وقول الشاعر:

أَأَذْكُرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي حَيَاؤُكَ إِنَّ شِيمَتَكَ الْحَيَاءُ

كَـــرِيـــمٌ لاَ يُغَيِّـــرُهُ صَبَـــاحٌ عَـــنِ الْخُلُـــقِ الْجَمِيـــلِ وَلاَ مَسَـــاءُ

في البيت الأوّل واجه ممدوحه بالخطاب، وفي البيت الثاني انتقل من الخطاب إلى الغيبة على طريقة الالتفات.

وموضع الحسن في هذا الالتفات أنّ الشاعر أراد أن يُواجه الناسَ بمدحه، ويُعْلِن على الملأ أنّه كريم ذو خُلُقٍ جميل، ولو تابع طريقة الخطاب لأوهم أنّه يتزلّف إليه بينه وبينه، وهو لا يريد إعلان مدحه بين الناس.

خامساً: ومِنْ أمثلة الانتقال من الغيبة إلى التكلّم ما يلي:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾.

الكلامُ في صَدْرِ الآيةِ جَارٍ وفْقَ أُسْلُوبِ الْحدِيثِ عن الْغَائب:

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾.

وبَعْدَ ذَلِكَ انْتَقَلَ إلى أُسْلُوبِ التَكَلُّمِ فقال تَعالَىٰ:

﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ﴾.

وفائِدة هذا الالتفاتِ إيقاظُ الأذْهانِ للتفكُّر في مِنَّةِ اللَّهِ على عبادِه الذي يُقَدِّر أسْباب رِزْقِهِم ويَسُوقُها لهم، وللتفكُّرِ في مظهر من مظاهر قدرته الَّتِي يُحْيِـي بها الأرْضَ الميتة، الذي يُشْبِهُهُ إحياءُ الموتَىٰ يومَ القيامة، إذ جاء فيه تحدُّثُ الرَّبِّ الجليل عن نفسه بضمير المتكلِّم العظيم: ﴿فَسُقْنَاهُ ــ فَأَحْيَيْنَا به﴾.

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (فُصِّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾

فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾.

الكلام في صدر النصّ جارٍ وفق أسلوب الحديث عن الغائب كما هو ظاهر، وبعد ذلك انتقل إلى أسلوب التكلّم، فقال تعالى:

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ﴾.

وفائدة هذا الالتفاتِ هو ما سبق بيانه في النصّ السابق.

وبعد ذلك انتقل النَّصُّ أيضاً إلى أسلوب الحديث عن الغائب:

﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾.

توطئةً لذكر اسْمَيْنِ من أسْمَاءِ الله الحسنىٰ الملائمة لدقَّةِ التقدير العظيم وإحكامه.

● وقول المخبَّل السَّعْدِي في مطلع مُفَضَّلِيَّته:

ذَكَـرَ الـرَّبَـابَ وَذِكْـرُهَـا سُقْـمُ ... فَصَبَـا وَلَيْـسَ لِمَـنْ صَبَـا حِلْـمُ
وَإِذَا أَلَـمَّ خَيَـالُهَـا طَـرَفَـتْ ... عَيْنِـي فَمَـاءُ شُـؤُونِهَـا سَجْـمُ
كَـاللُّـؤْلُـؤِ الْمَسْجُـورِ أُغْفِـلَ فِـي ... سِلْـكِ النِّظَـامِ فَخَـانَـهُ النَّظْـمُ

الرَّبَـاب: اسم محبوبته.

فَصَبَـا: أي: فَحَنَّ ومَال.

طَرَفَتْ عَيْنِي: تَحَرَّكَ جَفْنَاها.

فَماءُ شُؤُونها: شُؤُونُ العين مجاري دَمْعِهَا.

سَجْـمُ: أي: سَائِلٌ يتصَبَّب.

كاللُّؤْلُؤِ الْمَسْجُورِ: أي: كاللُّؤْلُؤ الْمَحْمِيّ.

أُغْفِلَ في سِلْكِ النِّظَام: أَي تُرِكَ مُهْمَلاً في الْخَيْطِ الَّذِي نُظِمَ فِيه فَلَمْ يُعْقَد.

فَخَانَهُ النَّظْمُ: أي: فتناثَر لأنّ النَّظْمَ الذي كانَ لَهُ في سِلْكِهِ خَانَهُ لَمْ يُمْسِكْهُ عَنِ التَّسَاقط.

في البيت الأول اتَّبَعَ في الحديث عن نفسه أُسْلُوبَ الْحَدِيثِ عَنِ الغائب.

وفي البيت الثاني التفت من الغيبة فتحدّث عن نفسه بأسْلُوب التكلُّم، ليدلَّ على أنّه هو المقصود في البيت الأوّل.

* * *

سادساً: وَمِن أمثلة الانتقال من الغيبة إلى الخطاب ما يلي:

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفاتحة/ ١ مصحف/ ٥ نزول):

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

النص في مطلع السورة جارٍ وفق أسلوب الحديث عن الغائب، وبَعْدَ ذلِكَ انْتَقَلَ إلى أسْلوب الخطاب:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ...﴾.

وفَائِدَةُ هذا الالتفات التحوُّلُ من موضوع الثناء على الله عزّ وجلّ إلى موضوع التوجُّهِ له بالعبادة والدُّعاء، فالثناء يحْسُنُ فيه الإعلانُ العامّ، وهذا يلائمه أسلوبُ الحديث عن الغائب، والعبادةُ والدّعَاءُ يَحْسُنُ فيهما مواجهة المعبود الْمَدْعُوّ بالخطاب.

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ ﴾.

الإدّ: المنكر الفظيع الشنيع.

بدأ الحديث عمَّن افترىٰ على الله بأنّه اتخذ ولداً بأسلوب الحديث عن الغائب خطاباً للمؤمنين.

وعَقِبَ ذلك وجّه الخطاب للمفترين فقالَ الله لهم:

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً﴾.

وفائدةُ هذا الالتفات تحقيق غرضَيْنِ:

الأول: تَثْبِيتُ المؤمنين على عقيدة تنزيه الله عمّا لا يليق به سبحانه.

الثاني: تَـأْنِيبُ المفترين على الله بأنَّهم ارتكبوا أمراً بالغ النكارة والفظاعة والشناعة.

مع الاقتصاد والإيجاز في العبارة.

* * *

تطبيقات تحليليّة لأمثلة قرآنية

المثال الأول: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) ضمْنَ عَرْضِ قصّة أصحاب القرية الّتي جاءها المرسلون فكذّبوهم:

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

دلَّت عبارة ﴿وَمَالِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ على أَنَّ قَوْمَه تَوَجَّهُوا له يحاكمونه على انتصاره للرُّسُل، فأخذوا يسألونه ويُجيبُهُم بحكمة وعقْلٍ وسداد، وباستطاعتنا أن نتخيّل مجلس المحاكمة:

قالوا: هل صدّقت هؤلاء الذين يزعمون أنّهم مُرْسلون؟ وهَلْ آمنتَ بهم؟

قال: نعم.

قالوا: وَهل تركتَ ما يعبُد قومُك من آلهة؟.

قال: نعم.

قالوا: وَهل صِرْتَ تَعبُد الإلّه الّذِي يدعو هؤلاء إلى عبادته وحده لا شريك له؟.

قال: نعم، إنّه هو الذي فطرني، ومَالِيَ لاَ أعْبُد الذي فَطَرني وَإليه تُرْجَعُون؟!.

فالتفت من الحديث عن نفسه، إذْ كانت متابعة الأسلوب تستدعي أن يقول: «وإليه أرجع» أي: للحساب والجزاء، فخاطبهم فقال: ﴿وإلَيْهِ تُرْجعون﴾.

ونلْمَحُ في هذا الالتفات البديع أنّه بدأ كلامه أوّلاً بأسلوب اتخاذ طريق الخير لنفسه، وهو يريد ضِمْناً مناصحة قومه تلطُّفاً بهم، وليُشْعرهم بأنّه يريد لهم ما يريد لنفسه، وبعد ذلك التفت إليهم إذْ أراد تخويفهم من عذاب الله، ودعوتهم إلى الإيمان واتّباع المرسلين.

ولدى تحليل النصّ بوجه عام نلاحظ أنّ الرَّجُل المؤمن يريد أن يقدّم لهم الدليل الذي اقتنع هو به، وأنّ عليهم لمصلحة أنفسهم أن يتبصّروا بهذا الدّليل ليُوَلّد لديهم الاقتناع بما اقتنع هو به، فقال لهم: ﴿وَمَالِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذي فطرني﴾ وطوى ضمن كلامه: وإليه أرجع ليحاسبني ويجازيني، وأنتم كذلك مثلي، فلم لا تَعْبُدونَ الذي فطركم؟! واكتفى عن ذكر هذا المطوي بعبارة: ﴿وَإلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

فدلّت عبارة: ﴿وَمَالِيَ لاَ أَعْبُدُ الّذِي فَطَرَني﴾ من شطر الكلام الأول على عبارة: «ومَالكم لا تعبدونَ الذي فطركم» من شطر الكلام الثاني.

ودلّت عبارة: ﴿وَإليه تُرْجَعُونَ﴾ من شطر الكلام الثاني على عبارة: «وإليه أرجع» من شطر الكلام الأول.

وبهذا الحذف الإيجازي ظهر التعبير على صورة الالتفات من أسلوب حديث المتكلّم عن نفسه مريداً به المخاطبين، إلى أسلوب الخطاب، ومثل هذا الالتفات البديع يشدّ الانتباه إلى التأمُّل وحُسْنِ التدبُّر.

المثـال الثانـي:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) خطاباً للرسول ﷺ، فكُلّ داعٍ إلى سبيلِ ربّه وآمرٍ بالمعروف وناهٍ عن المنكر من بَعْده:

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

عبارة ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ جاءت بأسلوب حديث المتكلّم عن نفسه ومعه كُلّ المكلفين من الناس، أي: وأُمِرْنَا جميعاً بالأوامر الربّانيّة المختلفة لنُسْلِمَ مُنْقادين طائعين لربّ العالمين.

وبعد هذه العبارة تحوّل الأسلوب إلى التكليف بالخطاب، فجاء في النصّ: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاَةَ واتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

والغرض من هذا الالتفات نلاحظه حينما ندرك أنَّ الأَمْر بإقامَةِ الصلاة وبتقوىٰ اللَّهِ مع كونه داخلاً في عُمُومِ ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلاّ أنّ على الرسول وعلى كلّ آمرٍ بالمعروف ناهٍ عن المنكر من بعده أنْ يقوم بهذه الوظيفة الاجتماعية تذكيراً وتحذيراً، فهو آمِرٌ ونَاهٍ بتوجيه منه، وليس مجرّد مقدّم على سبيل الحكاية ما أمر الله به ونهى عنه، ضمن المأمور به في عبارة: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

المثـال الثالـث:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الفتح/ ٤٨ مصحف/ ١١١ نزول) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾.

بدأت الآياتُ بِحَدِيثِ المتكلّم العظيم عَنْ نفسه، وهذا الأسلوب يناسِبُه بحسَب الظاهر أن يكون الكلام بعدَهُ: «لنغفر لك ما تقدم... ونُتِمَّ نعْمَتَنَا... ونَهْدِيَكَ...».

إلاَّ أن الكلام جاء على خلاف ذلك، فحصل الالتفات من التكلّم إلى الغيبة، فقال تعالى ﴿ليَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ إذ الاسم الظاهر بقوّة ضمير الغائب.

والفائدةُ الخاصةُ التي يَدُلُّ عَلَيْها هذا الالتفاتُ الإشعارُ بأنَّ قائل ﴿إنَّا فَتَحْنَا﴾ هو الله نَفْسُه، والتنبيهُ على مقام لفظ الجلالة «الله» الدّالّ على الذات وكلّ الصفات والذي بيده الغفرانُ، وإتمامُ النعمة، والهدايةُ إلى الصراط المستقيم، والنَّصْرُ العزيز، مع الفوائد العامّة الَّتي تُسْتَفَاد من الالتفات.

المثال الرابع:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الكوثر/ ١٠٨ مصحف/ ١٠ نزول):

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

بدأت السورة بحديث المتكلّم العظيم عن نفسه، وهذا الأسلوب يناسبُه بحسَب الظَّاهر أن يكون الكلام بَعْدَهُ: «فَصّلِ لنَا وانْحر».

إلاَّ أن الكلام جاء على خلاف مقتضى الظاهر هذا، إذْ حصل الالتفات من التكلّم إلى الغيبة، فقال تعالى: ﴿فَصّلِ لِرَبِّكَ وانْحَرْ﴾.

والفائدة الخاصة التي يدلُّ عليها هذا الالتفات الإشعار بأنّ المتكلّم هو ربٌّ يُمِدُّ بعطاءات الرُّبوبيّة دواماً، فمن حقِّهِ على مَرْبُوبيه أن يَعْبُدوه بمختلف أنواع العبادات، ومنها الصلاة له، ونَحْرُ الْهَدْيِ ابتغاءَ مرضاته.

المثال الخامس:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول):

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾﴾.

كما جاء في المثالين السابقين الثالث والرابع بدأت السورة بحديث المتكلّم العظيم عن نفسه، وبعد ذلك حصل الالتفات من التكلُّم إلى الغيبة، فقال تعالى: ﴿رَحْمَةً مَنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُو السَّمِيعُ العليم﴾ وكان الأسلوب النّمطِيُّ يستدعي أن يكون النّص: ﴿رَحْمَةً منّا﴾.

والفائدة الخاصة في هذا الإلتفات التنبيه على أنَّ كلّ أمرٍ حكيم يُفْرق بأمْر الله هو رحمةٌ من أَثَر صفةِ رُبوبيّةِ الرَّبّ عزَّ وجلَّ.

المثال السادس:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

إنّ أسلوب عبارة ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ هو من المواجهة بالخطاب، ويلائمه بحسب الظاهر أن يقال: ﴿فَأَنْتُمُ المضعفون﴾.

إلاَّ أنَّ الكَلامَ جَاءَ على خلاف مُقْتَضَىٰ الظَّاهِرِ هَذَا، إذْ حصل الالتفاتُ من الخطاب إلى الغيبة، فقال تعالى: ﴿فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُون﴾.

والغرض البلاغيّ الخاصّ في النَّصّ التنبيه باسم الإشارة الذي هو في قُوّةِ ضَمِيرِ الغائب على ارتفاع منزلتهم عند الله، إذْ أُشِيرَ إليهم باسم الإشارة الخاصّ بالمشار إليه البعيد.

والأمثلة على الالتفات في النصوص القرآنية كثيرةٌ جدّاً، وفيما سبق استعراضُهُ وتحليلهُ منها كفايةٌ لمن شاء أَن يتدبّر ويحلّل سائر النّصوص، إذا كانت لَدَيْهِ ملكة التدبُّر والتحليل.

* * *

(٢)

النـوع الثانـي
أسْلـوبُ الحكيـم

أسلوبُ الحكيم: هو عند علماء البلاغة صَرْفُ كلامِ المتكلّم أو سؤال السائل عن المراد منه، وحَمْلُه على ما هو الأَوْلَىٰ بالْقَصْد، أو إجابته على ما هو الأولى بالقصد، وسمّاه الشيخ «عبد القاهر الجرجاني»: «المغالطة».

وهو قسمان:

القسمُ الأول: حَمْلُ كلام المتكلّم على غير ما يُريد به، تنبيهاً على أنّه الأولى بالْقَصْد، ومنه ما يلي:

- قول ابن حجّاج البغدادي «هو أبو عبد الله بن أحمد البغدادي» شاعرَ فَكِهٌ:

قَـالَ: ثَقَّلْـتُ إِذْ أَتَيْـتُ مِـرَاراً ... قُلْـتُ ثَقَّلْـتَ كَـاهِلـي بـالأَيَـادِي
قـالَ: طَـوَّلْـتُ. قُلْـتُ: أَوْلَيْـتَ طَـوْلاً ... قَـالَ: أَبْـرَمْـتُ قُلْـتُ: حَبْـلَ وِدَادِي

الكاهل: من الإِنسان هو ما بين كتِفَيْهِ، فَوْقَ الْعُنُق.

بالأَيَادِي: أي: بالنعم.

في البيت الأول أخذ المخاطب ظاهر كلام صاحِبِه وحَمَلَه على غَيْر مرادِه به، إذْ أراد بالتثقيل ما يَحْمِلُه المضيف من أعباء الضيافة، لكن المضيف حَمَلَه على معنى أنّ صاحِبَهُ ثَقَّلَ كَاهله بأياديه في تكرير زيارته له.

وفي البيت الثاني حَمَل كلمةَ «أَبْرَمْتُ» على معنى إبْرام حبْلِ الوداد، وقَصْدُ المتكلّم من «أَبْرَمْتُ» معنَىٰ أضْجَرْتُ وأَنْزَلْتُ الْمَلَلَ، وحَمَلَ كلمةَ «طَوَّلْتُ» على معنَىٰ أفْضَلْتَ، أي: أعطيتَ فضلاً، وقَصْدُ المتكلّم أنّه أطال الإقامة.

● ومن العبارات الدارجات أنْ يقول المحتفي بضيفه معتذراً. «أرجو العفْوَ عن قُصُوري».

فيقول الضيف: «قُصُورُك عاليةٌ شامخة» أي: ما قدّمته من إكرام عظيم كالْقُصُورِ الشامخة إلى جانب الأبنية الأخرى، فيحمل كلمة «قصور» على غير ما أراد بها المضيف.

● ما رُوي من قصّة «القَبَعْثَرَىٰ» و «الْحَجَّاج بن يُوسف الثقفي» والي بني أُمَيَّة على العراق.

قالُوا: اجتمع نُدَماء من أهل الشّعْر والأدب في مَجْلِس شراب، إلى جانب شجرة من أشجار العنب ذاتِ عناقيد مُدَلاّة، وكان «القَبَعْثَرَىٰ» واحداً منهم، يعبث بعنقودِ عِنَبٍ مُدَلَّىٰ من غُصْنِه، فذكر أحد النّدماء «الحجّاج بن يوسف» فقال «القَبَعْثَرَىٰ» وبيده عنقودُ العِنب المدَلَّىٰ من غُصْنه: قَطَع الله عُنُقَهُ وسقاني من دَمه.

فأبْلَغ أحدُ الوشاة كلمتَهُ إلى الحجّاج، فاستدعاه وقال له: أنت الذي قُلْتَ: قطع الله عنُقه وسقاني من دمه؟

قال: نعم، وقد قَصَدْتُ عُنْقودَ العنب الّذي كان بيدي.

قال له الحجّاج: لَأَحْمِلَنَّك على الأدهم (أي: لأُقيّدنَّكَ بالْحَدِيد).

قال القَبَعْثَرَىٰ: مثْلُ الأمير يَحْمِل على الأدهم والأشهب (قاصداً من الخيل).

قَال الحجّاج: قَصَدْتُ الحديد.

قال القَبَعْثَرَىٰ: لأنْ يكون حديداً خيرٌ من أن يكون بليداً.

● فقول الشاعر:

وَقَـالُـوا: قَـدْ صَفَـتْ مِنَّـا قُلُـوبٌ ... نَعَـمْ صَـدَقُـوا ولكِـنْ مِـنْ وِدَادِي

● قول القاضي الأرّجاني:

غَـالَطَتْنِـي إِذْ كَسَـتْ جِسْمِـي الضَّنَـا ... كِسْـوَةً عَـرَّتْ مِـنَ اللَّحْـمِ الْعِظَـامَـا

ثُـمَّ قَـالَـتْ: أَنْـتَ عِنْـدِي فِـي الْهـوَىٰ ... مِثْـلُ عَيْنِـي. صَـدَقَـتْ لكِـن سَقَـامَـا

فقبل ظاهر كلامها: ﴿أَنْتَ مِثْلُ عَيْنِي﴾ لكِنْ حمَلَهُ على غير ما قَصَدَت إذْ ذكَرَ أَنَّهُ مِثْلُ عَيْنِها في سقامِها، ومعلومٌ أنّ السقام في العين يزيدها حسناً.

● وقول أحدهم:

ولَقَـدْ أَتَيْـتُ لِصَـاحِبِـي وسَـأَلْتُـهُ ... فِـي قَـرْضِ دِينَـارٍ لِأَمْـرٍ كَـانَـا

فـأَجَـابَنِـي ـ واللَّـهِ ـ دَارِي مَـا حَـوَتْ ... عَيْنـاً فَقُلْـتُ لَـهُ: وَلاَ إِنْسَـانـا

أراد بقوله: «مَا حَوَتْ عيناً» أي: ذهباً، لكِنّ المخاطبَ حَمَل كلمة «عيناً» على العين المبصرة، وعطف عليها قوله: «وَلاَ إنساناً» ومرادُهُ إنسان العين.

● وقول أحدهم:

طَلَبْـتُ مِنْـهُ دِرْهَمـاً ... يَـوْمـاً فـأَظْهَـرَ الْعَجَـبْ

وَقَـالَ: ذَا مِـنْ فِضَّـةٍ ... يُصْنَـعُ لاَ مِـنَ الـذَّهِـبْ

تجاهل غَرَضَ طالِب الدّرهم وحمل كلامه على غَيْر مراده مُوهِماً بأنّه يَرُدّ على زَعْمِهِ بأنّ الدّرْهم من الذهب ويبيّن له أنّ الدّرهَمَ يُصْنَعُ من الفضّة.

ولدينا أمثلة قرآنيّة من هذا القسم:

المثال الأول: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (المنافقون/ ٦٣ مصحف/ ١٠٤ نزول) بشأن قول المنافقين في غزوة بني المصطلق، وما بنىٰ الله عزَّ وجلَّ عليه:

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

المنافقون قالوا: لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ من المدينة الأذلّ إنْ رَجَعْنَا من الغزوة التي نحن فيها إلى المدينة.

فجا البيان القرآني تعليقاً على مقالهم بحمله على ظاهره لكن على غير ما قصدوا، وذلك بإثبات أنّ الأعزَّ الرسولُ والمؤمنون معه بإمداد الله لهم بالعزّة، لأنّ العزّة أي: القوة الغالبة هي له سبحانه ولمن يُمدِّهم بالعزّة.

المثال الثاني: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول) خطاباً للكافرين:

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ... ﴾ [الآية ١٩].

أي: إنْ تَدْعُو الله بأنْ يَنْصُرَكم على الرسول والذين آمَنُوا معه، فَقَدْ جَاءَكم النَّصْرُ ولكن على غير ما تطلُبون، لقد جاءكم نَصْرُ الله لرسوله والّذين آمنوا معه عليكم.

فجاء قبول ظاهر دُعائهم بالنّصر ولكن بعد حمله على غير ما طلبوا فيه، لقد طلبوا مجيء النّصر فجاءهم النّصر للمؤمنين عليهم.

المثال الثالث: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) بشأن المنافقين الّذين تخلّفوا عن الرسول والمؤمنين فلم يخرجوا إلى غزوة تبوك:

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

إنَّهم يَطلبُونَ الإعراض عن مؤاخذتهم على تخلُّفهم، فإذا حَمَلْنا قول الله عزَّ

وجلّ ﴿فأَعْرِضوا عنهم﴾ على معنى الإعراض الدّالّ على المجافاة والقطيعة وعَزْلِهم عن دائرة المؤمنين الصادقين، كان من الأسلوب الحكيم، إذْ جاء فيه حَمْلُ طلبهم على غير ما يَقْصِدُون به.

* * *

القسم الثاني: إجابة السائل بغير ما يطلُبُ في سؤاله، (لتنبيهه على أنّه الأَمْر الأَهَمُّ الذي كان ينبغي أن يسأل عنه.

ومن أمثلته في القرآن ما يلي:

المثال الأول: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾.

لَقَدْ سَأَلُوا عَنِ الشيء الذي يُنْفِقُونه، فعلَّم الله رسوله أَنْ يجيبهم عن الّذين يَنْبَغي أن تُوَجّه لهم النفقة، إشارةً إلى أنّه كان ينبغي لهم أن يسألوا عمَّنْ ينبغي أنْ تُوجّه لَهُم النفقة، أمّا الشيءُ الذي يُنْفقُون منْهُ ومقدارُ ما يُنْفِقُونَ فيَعُمُّ كُلّ ما يَصْلُح للإنْفاق منه، وما وراء حدّ الزكاة المفروضة هو من التطوّع المفتوح الذي لاَ يُسْأَلُ عن حدٍّ له، ويظهر أنّ حدّ الزكاة المفروضة لم يكن قَدْ نزَلَ به حكْمٌ، فأعرض النصّ عن الإجابة عليه، وقد أجاب الله عزَّ وجلَّ عن هذا حينما كرَّرُوا سؤالهم بقوله في السورة:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ... ﴾ [الآية ٢١٩].

الْعَفْوُ في النفقة: ما زاد على حاجة الإنسان لنفسه ولمن يعولُهم.

المثال الثاني: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ... ﴾ [الآية ١٨٩].

سأل السائِلونَ عَنْ سَبَبِ الظاهرة الكونيَّةِ في الأهلة، لماذا يَبْدأ الهلالُ كالحاجب في أوّل الشهر، ويتزايَدُ يَوْماً فَيَوْماً، حتَّىٰ يكون الْقمَرُ بدراً، وبعد ذلك يتناقض حتَّىٰ يكون في آخر الشهر مثلما بدأ في أوَّله؟

ولمّا كانت هذه الظاهرة إحدى أنظمة الكون التي يمكن بالبحث العلمي أن يكتشفها الناس مستقبلاً، وليس بيانُها من الأغراضِ الدينيّةِ الأساسيّة الَّتِي بعث اللَّهُ الرُّسُل لبيانِها، جاءَ الجوابُ مبيّناً وظيفة الأهلة المرتبطةَ ببعض قضايا الدين، وهي تحديد مواقيتِ الشهور الّتي يحتاجها الناس لعباداتهم، ومعاملاتِهم، وتواريخهم، وتكاليفهم، المرتبطة بالأشهر القمرية، كالصيامِ، وأشهرِ العِدَّةُ، ومُرُورِ الحول لأداء الزكاة، وغيرِ ذلك، وخصّ اللَّهُ منها الحجّ اهتماماً بتحديد وقته، إذ دخل فيه التحريف الجاهليُّ بالنِّسيء الذي كانُوا يصنعونه.

أمّا الظواهر الكونية القائمة على أسباب غير منظورة فكثيرة جدّاً، والناس لا يستطيعون إحصاءها، وفتح أبواب السؤال عنها والإجابة عَلَيْها. يُحَوِّلُ مُهِمَّة الرسول من رسالة دينيّة إلى رسالة عالِمٍ من علماء أنظمة الله في كونه.

* * *

(٣)

النـوع الثالـث

الإظهار في مقام الإضمار، والإضمار في مقام الإظهار

ومن الخروج عن مقتضىٰ الظاهر: الإظْهَارُ في مقام الإضْمارِ، وبالعكس، فهو قسمان:

القسم الأول: الإظهارُ في مقام الإضمار.

قد يكون استخدام الضمير في الكلام هو المتبادر الذي يقتضيه ظاهر الأسلوب المعتاد، لكن قد يوجد داعٍ بلاغي يستدعي استخدام الاسم الظاهر بدل استخدام الضمير، ومن الأغراض البلاغيّة لهذا ما يلي:

الغرض الأول: الإشعار بكمال العناية بما اسْتُخْدِمَ للدلالة عليه الاسم الظاهر بدل الضمير، من أجل اختصاصه بحكم غريبٍ مثلاً، ومنه:

قول أحمد بن يحيىٰ الراوندي:

كَمْ عَاقِلٍ عَاقِلٍ أَعْيَتْ مَذَاهِبُهُ ... وَجَاهِلٍ جَاهِلٍ تَلْقَاهُ مَرْزُوقاً
هَذَا الَّذِي تَرَكَ الأَوْهَامَ حَائِرَةً ... وَصَيَّرَ الْعَالِمَ النِّحْرِيرَ زِنْدِيقَا

فجاء اسم الإشارة «هذا» في مقام الضمير «هو» لتوجيه العناية تفكّراً في حكمة اللَّهِ بتقدير أرْزاق العباد، وإدراك أنّ الأرزاق قد تقتضي حكمة الله بأن تأتي وافرةً للجاهل، وتأتِيَ غير وافرة للعالم العاقل.

الغرض الثاني: التهكّم باستخدام اسم الإشارة، ويُمْكن أن أُمَثِّل له بقولي:

قَالَ لِلأَعْمَىٰ وَقَدْ أَزْعَجَهُ ... مِنْهُ إِنْكَارُ بُزُوغِ الْقَمَرِ
أَيُّهَا الْجَاحِدُ هَذَا نُورُهُ ... سَاطِعٌ عَبْرَ غُصُونِ الشَّجَرِ

كان مُقْتَضَىٰ الظاهر أن يقول له:

نُورُهُ يَخْتَرِقُ الأُفْقَ لَنَا ... فَنَرَاهُ مِنْ خِلالِ الشَّجَرِ

لكِنَّهُ أراد التهكم به لجحوده ما يراه المبصرون وهو أعْمَىٰ، فاستخدم اسم الإشارة، لإشعاره بأنه لو كان يُبْصِر لرآه.

ومنه فيما أرى باستخدام الاسم المظهر، قولُ الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول) خطاباً للكافرين:

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ... ﴾ [الآية ١٩].

أي: إن تطلبوا الفتح فقد جَاءَكُمُ الفتح، وكان مقتضىٰ الظاهر أن يُكتفىٰ بالضمير فيقال: «إن تستفتحوا فقد جاءكم» ولكن جيء بالاسم المظهر للتهكم بهم، لأنّ الفتح وهو النصر الذي جاءهم كان عليهم ولصالح المسلمين..

الغرض الثالث: إظهار بلاهة المقصود بالخطاب، وأنّه لا يفهم إلاَّ بالإشارة الحسيّة، فلا يكفيه الضمير لمعرفة المراد، كأن تقول لمن تُرِيد وصفه بالبلادة، وهو يتحدَّثُ عن كتابٍ بيده اشتراه وهو مبتهج بشرائه له: أَرِني **هذا** الكتاب الذي اشتريته.

لقد كان مقتضىٰ الظاهر أن تقول له: أَرِنيه، إلاَّ أنّك أردت إشعاره بالبلادة، وأنّه ليس أهلاً لاقتناء الكتب.

الغرض الرابع: إظهار فطانة المتكلّم أو المخاطب، حتّىٰ كأنّ الأمْرَ الفكريّ غير المحسوس هو بالنسبة إليه يشبه الأمور الحسيّة، ومنه قول الشاعر:

تَعَالَلْتِ كَيْ أَشْجَىٰ وَمَا بِكِ عِلَّةٌ   تُرِيدِينَ قَتْلِي قَدْ ظَفِرْتِ بِذَلِكِ

أي: ادّعَيْتِ العلّة كَيْ أَحْزَنَ مِنْ أجْلِكِ وَأَنْتِ سَلِيمة، أتُرِيدينَ قتلي بما تفعلين؟

إنْ كنت تريدين قتلي فقد ظفرتِ بذلِكِ، وكان مقتضى الظاهر أن يقول لها: قد ظفرتِ به.

الغرض الخامس: زيادةُ تمكين ما اسْتُخْدِمَ للدلالة عليه الاسم الظاهر بدل الضمير، ومنه قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الصّمد/ ١١٢ مصحف/ ٢٢ نزول):

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾.

كان مقتضىٰ الظاهر أن يكون التعبير: «هُو الصّمد» لكنّ بلاغة القرآن جاء فيها استعمال الاسم العلم الظاهر بدل الضمير، لتوكيد وتمكين إسناد الصفات في السورة إلى الله عزَّ وجلَّ.

الغرض السادس: الاستعطاف بإعلان الخضوع، بغية استدرار الرحمة والشفقة، ومنه قول العبد الذي يستدر رحمة ربّه:

إلَهِـي عَبْـدُكَ الْعَـاصِـي أَتَـاكَـا مُقِـرّاً بِـالـذُّنُـوبِ وَقَـدْ دَعَـاكَ

كان مقتضى الظاهر أن يقول: «أنا العاصي أتيتُكَ» لكنّه أراد أن يستعطف ربّه ويظهر كمال خضوعه له، فذكر الاسم الظاهر بدل ذكر الضمير.

الغرض السابع: إدخال الروعة والمهابة في نفس المخاطب، ومنه قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) خطاباً للرسول ﷺ:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

إنّ مُقْتَضَىٰ الظّاهر يستدعي أن يقال: «فتوكَّلْ عليه إنَّه يحبُّ المتوكلين».

لكن وُضع الاسم المظهر وهو لفظة الجلالة «الله» موضع الضمير لإدخال الروعة والمهابة، نظراً إلى أن لفظ الجلالة يجمع كُلَّ صفات كمال الله عزَّ وجلَّ، باعتباره اسماً علماً للذات العليّة، وما هو اسم علم للذّات يكون جامعاً لكلّ صفات الكمال.

الغرض الثامن: التعجيب واستثارة الإنكار، ومنه قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ ﴾.

جاء في هذا النصّ: ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ مَعَ أَنَّ مُقْتَضَىٰ الظَّاهِرِ أَنْ يُقَال: «وَقَالُوا» باستخدام الضمير، ولكن وُضِع الاسم المظهَرُ «الكافرون» مقام الضمير للتعجيب من فظاعة مقالتهم، واستثارة النكير عليهم، والإشعار بأنّهم أهل تمرّدٍ وعناد، كافرون بالحقّ، ساترون لأدلّته وبراهينه الواضحة.

* * *

القسم الثاني: الإضمار في مقام الإظهار.

ويلاحظ هذا القسم في موضعين:

الموضع الأول: ضمير الشأن أو القصّة، وهو ضمير الغائب الذي يقع قبل الجملة، ويسَمَّىٰ ضمير الشأن إذا كان مذكّراً، وضمير القصة إذا كان مؤنَّثاً، ويعود كلٌّ منهما إلى ما في الذهن من شأنٍ أو قصة، وذلك هو مضمون الجملة التي بعده.

وضمير الشأن أو القصة لا يحتاج إلى ظاهر يعود عليه، ولا يفسَّرُ إلاَّ بجملة.

ويُستعملُ ضمير الشأن أو القصة في مقام الاسم الظاهر في الأمر الذي يُرادُ فيه التعظيم والتفخيم، أو التهويل، أو الاستهجان، أو نحو ذلك.

ولهذا الضمير أربعة أحوال:

(١) أنْ يكون بارزاً متّصلاً، في باب «إنَّ» مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول) حكاية لمقالة يوسف عليه السلام لإخوته:

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٩٠﴾.

أي: إنّ الشأنَ العظيم الّذِي يَعْظُمُ لدى أُولي الألباب هو «مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِر...».

(٢) أن يكون بارزاً مُنْفَصلاً، إذا كان عامله معنويّاً، أي: إذَا كان مبتدأً، مثل قول الله عزَّ وجلّ:

﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾.

أي: قل: الشأنُ العظيم الجليل الذي يجب أن يَهْتَمَّ بِهِ كُلُّ ذي فكر اللَّهُ أَحَدٌ....

(٣) أن يكون مستتراً، ويكون مستتراً في باب «كاد»، مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ . . .﴾ [الآية ١١٧].

أي: من بعد مَا كادَ شأنُهُم المستنكر يَزِيغ قلوبُ فريق منهم، فضمير الشأن هنا مستتر، ولكن بقيَتْ دلالته.

(٤) أن يكون واجب الحذف، ويجب حذفه مع «أَنْ» المفتوحة المخففة من الثقيلة، مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ⁽١٠⁾﴾.

أي: وآخر دُعَاءِ أهل الجنّةِ في الجنّة أنَّ شأَنَهُمُ المحمود أن يَحْمُدوا ربَّهم قائلين: الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ العالمين.

فضمير الشأن هنا محذوف وجوباً، ولا يجوز في العربية إظهاره.

والغرض من وضع ضمير الشأن موضع الاسم الظاهر التعظيم والتفخيم، أو التهويل، أو الاستهجان، أو نحو ذلك كما سبق، وهذا من خصائصه في أصل الوضع اللّغوي واستعمالات العرب له.

الموضع الثاني: الضمير في باب «نِعْمَ وبِئْسَ وَمَا جَرَىٰ مجراهما» وهي أفعالٌ لإنشاء المدح أو الذّمّ على سبيل المبالغة، وفاعل هذه الأفعال قد يكون اسماً ظاهراً، وقد يكون ضميراً مُسْتَتِراً وجُوباً مُمَيّزاً بكلمة «مَا» بمعنى شيْءٍ أو كلمةِ «مَنْ» بمعنى شخص، أو بنكِرَةٍ عَامَّةٍ.

والغرض من الضمير المستتر في هذا الباب الإبْهامُ به أوّلاً للتشويق واستثارة النفس، ويأتي التّمييز فيزيلُ بعض الإبهام ويزيد تشويقاً لمعرفة المخصوص بالمدح

أو الذّم، وهذا من خصائص هذا الضمير في أصل الوضع اللّغويّ واستعمالات العرب له، ومن الأمثلة ما يلي:

- قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ...﴾ [الآية ٢٧١].

أصلها: فنِعْمَ مَا، أي: فنعم هو شيئاً.

- وقولُ الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) بشأن كثير من اليهود:

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

أي: لَبِئْسَ هو شيئاً قبيحاً كانوا يعملونه.

* * *

(٤)

النوع الرابع
التَّعبير عن المستقبل بلفظ الماضي

من الخروج عن مقتضى الظاهر التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي، والغرض من هذا التعبير الدلالة على تحقق الوقوع، وهو كثير في القرآن المجيد.

ومن روائعه ما كان على سبيل اقتطاع أحداث المستقبل التي سيتحقّق وقوعها حتماً، وتقديمها في صورة أحداثٍ تمَّ وقوعُها.

ومن الأمثلة قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ .

فجاء في هذه الآيات وطائفة من الآيات بَعْدَها في السورة تَقْديمُ صُوَر من أَحْداث المستقبل التي ستكون بصِيَغ أفعال من أفعال الماضي، كأنَّها أُمُورٌ قَدْ وقعتَ فعلاً ومضت للدّلالة على تَحقُّق وقُوعها في المستقبل، ولاعطاء الأحداث المستقبليَّة صُوَرَ قصَص تَمَّ حُدُوثُها، فهي تُقَدِّم بتَصْوير فَنِّيٍّ مطابق للْواقع.

ومعلومٌ لدَى كلِّ ذوَّاق للتَّصْوير الْفَنِّي في القصَص أنَّ ما كانَ منها أكثر مطابقةً للواقع كانَ أكْثَرَ تَأْثيراً في النفوس، واستثارةً للمشاعر.

* * *

(٥)

النـوع الخامـس

الـتَّـغْـلـيـب

التَّغْلـيـب: إعطاء أحد المتصاحِبَيْن في اللّفظ، أو المتشاكِلَيْنِ المتشابِهَيْنِ فِي بَعْضِ الصفات، أو المتجاورين أو نحو ذلك حُكْمَ الآخر.

ومن فوائده الإِيجاز في العبارة، مع فوائد بلاغية تُلاحَظُ في مُخْتَلِفِ الأَمثلة.

ويكون التغليب في أمور كثيرة، منها: تغليبُ المذكّر على المؤنّث، وتغليب الكثير على القليل، وتغليب المعنىٰ على اللفظ، وتغليب المخاطب على الغائب، وتغليب أحد المتناسبين أو المتشابهَيْن أو المتجاورِيْنِ على الآخر، وتغليب العقلاء على غيرهم، إلى غير ذلك من أمور.

الأمـثـلـة:

● ذكر الله عزّ وجلّ في القرآن الذين آمنوا والّذين كفروا في نصوص كثيرة،

ويدخل المؤمنات في الذين آمنوا، والكافرات في الّذين كفروا، لأنّ الاقتصار في اللفظ على المذكرين قد كان على سبيل التغليب.

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (صَ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

جاء في هذا النّصّ وأشباهه ذِكْرُ الملائكة دُونَ ذِكْرِ مَنْ كَانَ معهم من الجنّ عَلىٰ سبيل تغليب الكثير على القليل، فالذينَ كانوا مع الملائكة من الجنّ داخلون في عموم الأمر بالسجود لآدم، دلَّ على هذا استثناء إبليس، فقد كان من الجن ففسق عن أمر ربه، ولو لم يكن الجنُّ الذين كانوا مع الملائكة مأمورين بالسجود لما استثْنَاهُ اللّهُ من عُمُومِ المأمورين به إذْ لم يَسْجُدْ.

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول) حكاية لمقالة هود عليه السلام لقومه:

﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

كان مقتضىٰ الظاهر أن يكون النص: قَوْماً يَجْهَلُون، بياء الغائب مراعاة للَفْظِ ﴿قوماً﴾ لكنْ جاء في النصّ تغليبُ المعنىٰ، فَهُوَ يُخاطبهم بقوله: ﴿أَرَاكُمْ﴾ فناسَبَ هذا المعنى أن يقول لهم ﴿تَجْهَلُون﴾.

والغرض البلاغيُّ من هذا التغليب مواجهتُهم بوصفهم بالجهالة، إذْ وصَلُوا إلى طَوْرِ العناد الشديد والتحدّي بأن يأتيهم بالإهلاك الذي كان يُنْذِرُهُمْ به.

● ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) خطاباً لموسى عليه السلام، وهو في المناجاة بجانب الطّور، ولم يكن معه أخوه:

﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾.

ففي هذا النصّ تغليب المخاطب وهو موسىٰ عليه السلام بأسلوب الخطاب على الغائب وهو هارون عليه السلام، والغرض البلاغيّ اعتبار الغائب كأنه حاضِرٌ يتلقّىٰ الخطاب.

● إطلاق لفظ ﴿العالمين﴾ في القرآن في سورة (الفاتحة) وفي بعض النصوص الأخرى على كلّ ما سوى الله، تغليباً للعقلاء على غيرهم.

● قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ... ﴾ [الآية ٢٧].

أي: كما أخرجَ أَباكم وأمّكم، فقد جاء ذكرهما بعبارة ﴿أَبَوَيْكُمْ﴾ على سبيل التغليب، لما بينهما من علاقة، وغُلِّبَ الذكر على الأنثى.

ومنه ما هو معروف في استعمال الناس من إطلاق لفظ القمرين على الشمس والقمر.

* * *

(٦)

الـنـوع الســادس

وضع الخبر موضع الإنشاء ووضع الإنشاء موضع الخبر

ومن الخروج عن مقتضىٰ الظاهر وضع الخبر موضع الإنشاء، ووضع الإنشاء موضع الخبر، لأغراض بلاغيّة متعدّدة.

أولاً: فمن أغراض وضع الخبر موضع الإنشاء ما يلي:

الغرض الأوّل: التفاؤل بتَحَقُّق المطلوب، كالدُّعاء بصيغة الخبر، تفاؤلاً بالاستجابة، ومنه ما يلي:

● قول الرسول ﷺ: «غِفَارُ غَفَرَ اللَّهُ لَهَا».

غَفَر: فعل ماضٍ، فالصيغةُ خبر، وقد وُضِع موضع الإنشاء، إذ المعنى: اللَّهُمّ اغْفِرْ، والغرض التفاؤل باستجابة الدعاء.

ومنه قول الشاعر:

كُــلُّ خَليــلٍ كُنْــتُ خَــالَلْتُــهُ   لاَ تَــرَكَ اللَّـــهُ لَـــهُ وَاضِحَـــهْ
كُلُّهُـــمْ أَرْوَغُ مِـــنْ ثَعْلَـــبٍ   مَـــا أَشْبَـــهَ اللَّيْلَـــةَ بِـــالْبَـــارِحَـــهْ

الواضحة: الأسنان الّتي تبدو عند الضحك.

ما أشبه اللّيلة بالبارحة: مثل يُضْرَبُ لِتَشَابُهِ الأُمُور.

لقد كان مقتضىٰ الظاهر أنْ يدعو عليه بمثل: «اللَّهُمَّ كسِّرْ أسنانه» بصيغة الإنشاء، لكن جاء بصيغة الخبر تفاؤلاً بأن يُسْتَجَابَ دُعاؤه.

الغرض الثاني: التأدُّب بالابتعاد عن صيغة الأمر، احتراماً لِمَنْ يُوجَّهُ له الطَّلَب، كأن يقول رافعُ خطابِ طلبٍ للأمير أو الرئيس: «يتكرَّمُ الأَمِيرُ بِأَنْ يطّلعَ على خطابي، ويَنْظُرَ في طَلَبِي».

الغرض الثالث: التنبيه على أنّ المطلوب يسير سهل، قد توافرت أسبابه، كأن يقول القائد لجنده في بدء المعركة: «أنتم تحُسُّونَهُمْ حَسّاً، تَقْتُلُونَ ذوي البأسِ منهم، وتُطَارِدُونَ الفارّين، وتأسِرُونَ سَائِرَهم».

أي: افعلوا كذا وكذا.

الغرض الرابع: إظهار الرغبة في حصول المطلوب، كأن تكتُبَ رسالة لقريب أو صديق غائب، تقول فيها: «جَمَعَ اللَّهُ شَمْلَنَا، ووصَلَ ما انقطع من حبالنا، وأمْتَعَنا بأيَّامِ أُنْسٍ وصَفَاء، كما كُنَّا قَبْلَ زَمَانِ الْبُعْدِ والْغُرْبَة».

الغرض الخامس: التنبيهُ على لزوم سُرْعة امتثال الأمر التكليفي، وأنه ينبغي

ألاَّ يَمُرَّ زَمَنٌ إلاَّ والمطلوب متحقِّقُ الوقوع، ومنه قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً لبني إسرائيل:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

أي: لاَ تَسْفِكُوا دِماءَكُمْ، ولا تخرجُوا أنفسكم من دياركم، فجاء التكليف بصيغة الخبر وبعبارة الفعل المضارع للإشعار بلزوم فورية الامتثال.

الغرض السادس: حمل المخاطب على الفعل بألطف أسلوب، كأن تقول لتلميذك الحريص على أن لا يكذّبك فيما تخبر عنه من أحداث المستقبل.

«تلميذي حُسَين يخطُبُ غداً يوم الجمعة عنّي في المسجد الجامع بموضوع كذا...».

إلى غير ذلك من أغراض قد تتفتَّق عنها أذهان البلغاء الأذكياء.

ثانياً: ومن أغراض وضع الإنشاء موضع الخبر ما يلي:

الغرض الأول: إظهار العناية والاهتمام بالشيء، ومنه قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

كان مقتضىٰ الظاهر أن يُقَال: وبإقامَةِ وُجُوهِكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وبدُعَائِكم مُخْلِصين له الدِّين، عطفاً على لفظ ﴿بِالْقِسْط﴾ وبأسلوب الخبر، لكن خُولِف هذا الظاهر فجاء التعبير بأسلوب الإنشاء، في صيغة الأمر التكليفي، إشعاراً بالاهتمام بالمطلوب في أمر التكليف.

الغرض الثاني: التفريق في أسلوب الكلام بين المتقارنين في العبارة للإشعار

بالفرق بينهما، وبأنهما لا يحسُن الحديث عنهما بتعبيرين متماثلَيْن، ولو في الصيغة الكلاميّة، ومن الأمثلة قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) في حكاية قول هودٍ عليه السلام لقومه:

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤﴾.

كان مقتضى الظاهر أن يقول لهم: إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَأَشْهِدُكُمْ أَنِّي بَرِيءٌ ممّا تُشْرِكون.

لكن جاء التعبير على خلاف مقتضىٰ الظاهر هذا، لئلا يكون التحدّث عنهم وهم كفرة مشركون بعبارة مُشابهة للعبارة الّتي جاء فيها إشْهَادُ الله عزّ وجلّ.

الغرض الثالث: الإشعار بأنّ ما هو مُقَرَّرٌ حصولُهُ هو أمْرٌ مرغوبٌ فيه للمتحدّث، فكأنّه مطلوبٌ له، ومن أمثلته قول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح:

«مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ متعمّداً فلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».

كان مقتضىٰ الظاهر يستدعي أن يقول: فإنّه سيَتَبَوَّأُ مَقْعدَهُ من النار، بأسلوب الخبر، لكن عدل الرسول عن ذلك وجاء بأسلوب الإنشاء «فَلْيَتَبَوَّأْ» للإشعار بأنّ هذا التَّبُّوءَ أمر يَطْلُبُه الرسول ﷺ ويدعو ربّه به.

إلى غير ذلك من أغراض بلاغيّة قد تتفتّق عنها أذهان البلغاء الأذكياء.

* * *

(٧)

النوع السابع

الانتقال من الفعل الماضي إلى الفعل المضارع وبالعكس

ومن الخروج عن مقتضىٰ الظاهر الانتقال في تتابع الجمل من الفعل الماضي إلى الفعل المضارع وبالعكس.

ولهذا الانتقال أغراض بلاغيّةٌ يقصدها البلغاء، ويكتشف متدبّر النصوص الرفيعة أغراضاً نفيسة تُقْصد بهذا الانتقال.

● فمن الانتقال من الماضي إلى المضارع فالماضي قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩﴾.

كان مقتضىٰ الظّاهر بَعْدَ فعل ﴿أَرْسَلَ﴾ الماضي أن يُعْطَفَ عليه بفعل ماضٍ فيقال: «فأثارت» لكن عُدِلَ عن هذا الظاهر إلى: ﴿فَتُثِيرُ﴾ بالمضارع بُغْيَة تقديم صُورَةِ السَّحابِ المثار كأنّه حدَثٌ يجري مع تلاوة النَّصّ، وهذا أسلوب فَنِّيٌّ بديعٌ، فيه إحضارٌ للمشاهد الماضية في صُوَر المشاهد الحاضرة الجارية، ذاتِ الأحداث المتجدّدة، إذ الفعل المضارع يفيد مع الحدوث الحاضر ظاهرة التجدّد والتتابع.

يضافُ إلى هذا الغرض التنويعُ في أسلوب التعبير الذي يستثير الانتباه ويستدعيه بقوة.

ونلاحظ في هذه الآية العود إلى الفعل الماضي بقوله تعالى: ﴿فَسُقْنَاه ــ فَأَحْيَيْنَا﴾ للتأكيد على أنَّ الغرض من التعبير بعبارة: ﴿فَتُثِيرُ﴾ تَصْوِيرُ حَدَثٍ مضَىٰ بصُورَةِ حدثٍ يجري في الحاضر.

● ومن الانتقال من المضارع إلى الماضي قول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) في وصق بعْضِ أحداث يوم القيامة:

﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ٨٧﴾.

داخِرِين: أي: أذِلَّاء صاغرين خاضعين.

كان مقتضىٰ الظاهر يستدعي أن يُقال: ﴿فَيَفْزَعُ﴾ بالفِعْل المضارع عطفاً على فعل ﴿يُنْفَخُ﴾ لكن عُدِلَ عن هذا الظاهر لتقديم الأحداثِ الّتي ستأتي في المستقبل في صورة أحداثٍ قَدْ وقَعَتْ وَمَضَتْ.

ومع ما في هذا الأسلوب من تنويعٍ يَسْتَثير الانْتِبَاهَ، فهو يتضمَّن تأكيد أنّ هذا الأمْرَ الّذي سيحدث مستقبلاً هو بقوة الأمر الذي وقع في الماضي، إذْ مجيئُهُ في المستقبل حتميٌّ، وحتميَّةُ وقوعه في المستقبل تَسْمَحُ بالتحدُّثِ عَنْهُ بصيغة الفعل الماضي، كما يقول الماهر بالرَّمْي إذا أطْلَقَ قذيفةً مُسَدَّدَةً إلى الْهَدَفِ بدقَّةٍ تَامَّة: «لَقَدْ أصَابَتِ الهدفَ» مع أنَّها ما زالَتْ تَسِيرُ في الجوّ لم تَصِلْ بَعْدُ إلىٰ الْهَدَف.

وهذا فنٌّ بديع من فنونِ الإبداع البيانيّ البليغ، ولكنّ استخدامه يحتاج قدرة بيانيّةً رفيعةً، تمكّن المتكلّم من اختيار المواضع الملائمةِ لاستخدامه.

❋ ❋ ❋

(٨)

النـوع الثامـن
تجاهـل العـارف

ومن الخروج عن مقتضىٰ الظاهر «تجاهُل العارف» إذْ من الأمور التي تجري على طبيعتها بالتِّلْقائيّة أن يتكلّم العارف بالأمر على وفق معرفته له، ولكن قد تدعوه دواعي بلاغيّة إلى التظاهر بالشّكّ أو الجهل.

ومن الدواعي البلاغية لهذا: «المدح ــ الذَّمّ ــ التعجّب ــ التوبيخ».

أمـثـلـة:

● قول الشاعر:

أَلَمْـعُ بَـرْقٍ جَـرَىٰ أَمْ ضَـوْءُ مِصْبَـاحِ ... أَمِ ابْتِسَـامَتُهَـا بِـالْمَنْظَـرِ الضَّـاحِـي

المنظر الضاحي: هو المنظر البارز الواضح.

يريد الشاعر أن يصف ابتسامة مالكةِ هواه بأنها ابتسامة مضيئة، فأراد تأكيد هذه الفكرة بطرح تشكيك حول ثلاثَةِ أُمُورٍ باعِثاتِ ضوء، وهي: «لَمْعُ البرق ـ ضوء مصباح ـ بَرِيقُ ثَغْرِها» وهو عارفٌ غير جاهل، فبريق ثغرها هو الذي أثار مشاعره، فأراد أن يُثْنِيَ عليه بطرح اختلاطه في تصوّره بالأشباه والنظائر، مع تأكيد أنّ ابتسامتها ذات بريق.

● قول البوصيري:

أَمِـنْ تَـذَكُّـر جِيـرَانٍ بِـذي سَلَـمِ ... مَـزَجْـتَ دَمْعـاً جَـرَىٰ مِـنْ مُقْلَـةٍ بِـدَمِ

أَمْ هَبَّـتِ الـرِّيـحُ مِـنْ تِلْقَـاءِ كَـاظِمَـةٍ ... وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ في الظَّلْمَاءِ مِنْ إضَمِ

يرُيدُ تأكيد بُكَائِه المختلطِ بالدّمّ، بطرح تشكيكه في الأسباب الداعية إلى ذلك، أَهِيَ التذكر، أم الريح الّتي هبَّتْ من أرض محبوبه، أم البرق الذي أومض من جِهَتِها، وهو عارف بأن السبب هو التذكُّر.

● قول المتنبّـي:

مَـالِـي أُكَتِّـمَ حُبّـاً قَـدْ بَـرَىٰ جَسِـدي ... وتَـدَّعِـي حُـبَّ سَيْـفِ الـدَّوْلَـةِ الأُمَـمُ

بَرَىٰ جَسَدِي: أي: أَنْحَلَهُ وَأَضْنَاهُ.

قال العكبري في شرح هذا البيت: يقول: لِأَيّ شيْءٍ أُخفِي حُبَّه؟ وغيري يُظْهِرُ أنَّه يُحِبُّه، وهُوَ بخلافِ مَا يُضْمِر، وَأَنَا مُضْمِرٌ مِنْ حُبِّهِ مَا يَزِيدُ مُضْمَرُهُ عَلَىٰ ظَاهِره، ومَكْتُومُهُ عَلَىٰ شَاهِدِهِ، والأُمَمُ تَشْرَكُنِي في ادّعاءِ ذَلِكَ، بقلُوبٍ غير خَالِصَة، ونيَّاتٍ غَيْر صَادِقَةٍ، فَيَنْحَلُ جِسْمِي بِقِدَمِي في صِدْقِ وُدِّهِ، وَتَأَخُّرِي فِيمَا يَخُصُّنِي من فَضْلِه».

إنّه على طريقة تجاهل العارف قال: «مَالِي أُكَتِّمُ حُبّاً قَدْ بَرَىٰ جَسَدِي» لتأكيد حُبِّه له بتساؤله عن سبب تكتُّمِه بهذا الحب.

* * *

(٩)

النـوع التاسـع

الـقـلـب

ومن الخروج عن مقتضى الظاهر «الْقَلْبُ» ويكون القلْب بإجراء التبادل بين جزئين من أجزاء الجملة لغرضٍ بلاغيّ يستحسنُه الفطناء، وَيُلْحَقُ به القلب في التشبيه.

وأُمثّل للقلب في التشبيه بقولي صانعاً مثلاً:

تَـدَاوَلَ الإِلْمَـاحَ بَـدْرُ الـدُّجَـىٰ   كَـوَجْـهِ هِنْـدٍ مِـنْ وَرَاءِ الشَّبَـكْ
والْـوَرْدَةُ الْحَسْنَـاءُ فِـي غُصْنِهَـا   وَجْنَتُهَـا مَـدَّتْ إِلَيْنَـا الشَّـرَكْ

واستعمال القلب في التشبيه يتضمّن ادّعاء أنّ الصفات في المشبّه أفضل منها في المشبه به، فيأتي القلب أبلغ إذا كان التشبيه دقيقاً متقناً مختاراً ببراعة.

● ومن القلب قول الشاعر: «يكُونُ مِزَاجَهَا عَسَلٌ وَمَاءُ».

وكان مقتضىٰ الظاهر أن يقول: تَكُونُ مِزَاجَ الْعَسلِ والماءِ، إلاَّ أن الشَاعرَ أجرى القلب بين جزئين من أجزاء جملته.

● ومن القلب قول الشاعر يصف ناقته:

فَلَمَّـا أَنْ جَـرَىٰ سِمَـنٌ عَلَيْهَـا   كَمَـا طَيَّنْـتَ بِـالْفَـدَنِ السَّيَـاعَـا

الفَدَن: القصر.

السِّياع: الطين المخلوط بالتبن يُطَيّن به البناء.

وحسَّنَ هذا القلبَ إذْ كان الغرض منه الإشعارَ بأنّ الطين كان أكثر من القصر، حتَّى كأنَّ القصر هو الذي كان طيناً للطين.

ملاحظات:

الأولى: حين لا يتضمّن القلب غرضاً بلاغيّاً مقبولاً لدىٰ البلغاء والأدباء يكون سَمِجاً مرفوضاً، كقول عُرْوَة بن الْوَرْد.

«فَدَيْتُ بِنَفْسِهِ نَفْسِي وَمَالي».

إنّ ما يتبادر إلى الذهن هو أنه يؤثر نفسه، ولا يفدي محبوبه بنفسه وماله.

الثانية: أرى أنّ من القلب أن يُوجّه الأب مثلاً لابنه تكليفاً بعمل بصورة مقلوبة، فيقول له مثلاً: «أعطني نقوداً لأذهبَ إلى السّوق وأشتري لك فاكهة»، أي: خذ منّي النقود وأحضر الفاكهة من السّوق.

الثالثة: وأرىٰ أنّ من القلب أنْ يلاحظ البليغ أنّ عند غيره كلاماً يتلجلَجُ في صدره، ويريد أن يقوله له، إلاَّ أنّه يكتمه خجلاً، أو خوفاً، أو تأدُّباً، أو غير ذلك، فيقوله عنه، لكنَّه يخاطبُه به، كأن يقول لزائره الذي يُكثر من زيارته، وفي نفسه أن يوجّه له عتاباً على أنّه لا يقابله بالمِثْلْ، في شعر صنعتُه مثلاً لهذا:

مَالِي أَزُورُكَ في شَوْقٍ وَفِي حَدَبٍ ... وَأَنْتَ تَهْجُرُنِيْ في الْفِكْرِ والنُّزُلِ
مَا هَكَذا يَصْنَعُ الأَحْبَابُ مَا صَدَقَتْ ... حِبَالُ وِدِّهِم فِي الْقَوْلِ والْعَمَلِ

أي: من حَقِّكَ أَنْ تقولَ لي هذا الكلام.

• • •

البَابُ الثَالِثُ

القَصْـرُ

(١)

تعريـف القصـر

القصر: يأتي في اللّغة بمعنى التّخصيص، يقال لغة: قَصَرَ الشَّيْءَ على كذا، إذا خصّصه به، ولم يجاوز به إلى غيره. ويُقالُ: قَصَر غلَّةَ بستانه على عياله، إذا جعلها خاصّةً لهم، وقَصَر الشيءَ على نفسه، إذا خصَّ نفسَه به، فلم يجعل لغيره منه شيئاً.

ويأتي الْقَصْر أيضاً بمعنى الحبْس، يُقال لغة: قَصَر نفسه على عبادة رَبّه، إذا حَبَسها على القيام بعبادة ربّه، وقَصَرَ جُنْدَهُ على ممارسة التدريب العسكريّ في القلعة، إذا حَبَسَهُمْ وألْزَمَهُمْ بذلك فيها.

والقصر في اصطلاح علماء البلاغة: تخصيص شيءٍ بشيءٍ بعبارة كلاميّةٍ تدلُّ عليه.

ويقال في تعريفه أيضاً: جعْلُ شيءٍ مقصوراً على شيءٍ آخر بواحدٍ من طُرُقٍ مخصوصة من طُرُق القول المفيد للقصر.

والمقصور عنه على وجهين:

الوجه الأول: أن يكون جميع ما سوى المقصور عليه، ويسمَّىٰ عند البلاغيين «قصراً حقيقيّاً» مثل: «لا إلَه إلاَّ الله» أي: لا يُوجَدُ في الوجود كُلّه معبودٌ بحقٍ سوىٰ الله عزَّ وجلَّ.

وهذا «القَصْر الحقيقيّ» إذا كان مضمونه مطابقاً للواقع سمّوه «حقيقيّاً تَحْقيقيّاً» أي: صادقاً مطابقاً للواقع.

وإذا كان غير مطابق للواقع، وإنما ذُكر عَلَىٰ سبيل المبالغة والادّعاء المجازيّ، سمَّوْهُ «حقيقيّاً ادّعائيّاً أو مجازيّاً» مثل قولهم: لا سيف إلاَّ ذو الفقار، ولا فتى إلاَّ علي «ذو الفقار اسم سيفه».

الوجه الثاني: أن يكون المقصور عنه شيئاً خاصّاً يُرادُ بالْقَصْر بيانُ عَدَم صحَّةِ ما تَصوَّرَهُ بشأنه أو ادَّعاهُ المقصودُ بالكلام، أو إزالة شكّه وتردّده، إذا الكلام كلُّه مُنْحَصِرٌ في دائرة خاصّة، ويسمَّىٰ «قصراً إضافيّاً» أي: ليس قصراً حقيقيّاً عامّاً، وإنّما هو قَصْرٌ بالإضافة إلى موضوع خاصٍّ يدور حول احتمالين أو أكثر من احتمالاتٍ محصورة بعَدَدٍ خاصّ، ويُسْتَدلُّ عليها بالقرائن.

مثل: [وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُل] لقد جاء هذا البيان لتصحيح تصوُّر الَّذِين يتوهَّمُونَ أنّ محمداً رسولٌ لَا يموتُ كما يموت سائر الناس.

فالموضوع الخاصّ الذي يدور الكلام حوله هو كون محمّدٍ رسولاً مبرَّءاً من أن يكون عرضةً للموت، فجاء النصّ مبيّناً قَصْرَهُ علَىٰ كونه رسولاً فقط، والمقصورُ عنه أمْرٌ خاصٌّ هو كونه لا يموت، لا سائر الصفات غير صفة كونه رسولاً، إذْ له صفات كثيرة لا حصر لها، وهي لا تدخل في المقصور عنه.

إذن: فالقصر في هذا المثال هو من قبيل «القصر الإضافي».

* * *

(٢)
أقسام القصر
بحسب أحوال المقصور والمقصور عليه صفة أو موصوفاً

كُلٌّ من القصر الحقيقيّ والقصر الإضافي ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: قصر موصوف على صفةٍ دون غيرها.

ويكون قصراًحقيقياً، وقصراً إضافياً.

القسم الثاني: قصر صفةٍ على موصوفٍ دون غيره.

ويكون قصراً حقيقياً، وقصراً إضافياً.

وليس المقصود بالوصف في باب القصر النعتَ النحويَّ الذي يَتْبَعُ منعوتَه، بل هو كلُّ معنىً من المعاني يتّصف به موصوف ما، كالفعل يتصف به الفاعل باعتبار كونه فاعلاً، ويتصف به المفعول به باعتبار كونه مفعولاً به، وَكالخبر يتَّصفُ به المبتدأ، وكالحال يتّصفُ به صاحبُ الحال، وكَفِعْلٍ مَا يتَّصفُ بكونه قد وقع في مكانٍ ما أو زمانٍ ما، وهكذا.

فقـد يريـد المتكلّم أن يَقْصُرَ مثـلاً الفعلَ على الفاعل، أو على المفعول به، أو يقصر الخبر مثلاً على المبتدأ، أو الحال مثلاً على صاحب الحال، وهكذا.

وقد يريد المتكلّم أَنْ يقصر مثلاً الفاعل أو المفعول به على الفعل، أو المبتدأ مثلاً على الخبر، أو صاحب الحال على الحال، وهكذا.

الأمـثـلـة:

● حينما نقول: «لا إلَه إلاَّ الله» فإنّنا نقصر وصف الإلَهيّة الحق على موصوف هو الله وحده «هذا من قصر الصفة على الموصوف ــ وهو قصر حقيقي».

● وحينما نقول: «ما لإبليس من عمل في الناس إلاَّ الوسوسة والإغواء» فإنَّنَا نقصر عمل إبليس في الناس على صفتي الوسوسة والإغواء.

عمل إبليس في النّاس موصوف، والوسوسة والإغواء صفة «هذا من قصر الموصوف على الصفة».

فإذا كان لا صفة لعمله في الناس بحسب الواقع إلاَّ الوسوسة والإغواء كان قصراً حقيقيّاً، وإذا كان لعمله صفات أخرى غير الوسوسة والإغواء كان قصراً إضافيّاً.

● وحينما نقول: «ليس في كلام الله باطلٌ بل كُلُّه حقٌّ» فإننا نقصر كلام الله في موضوع الحق والباطل على صفة كونه حقّاً «هذا من قصر الموصوف على الصفة ــ وهو قصر إضافي».

● وحينما نقول: «علم قيام الساعة عند الله لا عند غيره» فإننا نقصر علم قيام الساعة على الله وننفيه عن غيره «هذا من قصر الصفة على الموصوف ــ وهو قصر حقيقيّ».

● وحينما نقول: «طاف الرسول ﷺ حول الكعبة راكباً ناقته لا ماشياً» فإننا نقصر طواف الرسول على حالة الركوب، دون المشي، «هذا من قصر الموصوف وهو الطواف على الصفة وهي كونه ركوباً ــ وهو من القصر الإضافي».

● وحينما نقول: «إنّما تُشْرِق الشَّمْسُ في النهار» فإننا نَقْصُر شروق الشمس على كونه في النهار دون اللّيل «هذا من قصر الموصوف وهو شروق الشمس على الصفة وهي كونه في زمن النهار ــ وهو من القصر الإضافي لأن الشروق له صفات أخرى كثيرة غير كونه في النهار، لكنّ الموضوع المتحدَّث عنه خاص بزمن الشروق».

* * *

(٣)

أركــان القصــر

ممّا سبق يتضح لدينا أنّ للقصر أربعة أركان:

الركن الأول: المقصور، صفةً كان أو موصوفاً.

الركن الثاني: المقصورُ عليه، صفةً كان أو موصوفاً.

الركن الثالث: المقصورُ عنه، وهو المنفيُّ المستَبْعَدُ بالْقَصر.

الركن الرابع: القولُ الْمَقصُورُ به.

(١) ففي كلمة التوحيد: «لا إلَهَ إلاَّ الله» وهي من القصر الحقيقي بقصر صفةٍ على موصوف:

- **المقصور**: صفة الإلَهيّة للمعبود بحقّ.
- **المقصور عليه قصراً حقيقيّاً**: الله عزَّ وجلَّ الموصوف بأنَّه الإلَه بحقّ.
- **المقصورُ عنه**: كلُّ ما سوى الله عزَّ وجلَّ.
- **القول المقصور به**: النفي والاستثناء في العبارة: «لا . . إلاَّ . .».

(٢) وفي عبارة: [وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ] وهي من القصر الإضافي بقصر موصوف على صفة:

- **المقصور**: «محمّد» الموصوف بأنه رسول.
- **المقصور عليه قصراً إضافياً**: صفة رسالته، المفهومة من «رسول».
- **المقصور عنه قصراً إضافياً**: صفة تبرُّئِه من أن يكون عرضةً للموت، لتصحيح تصوُّر متوهمي ذلك فيه، ظانين ظنّاً توهمياً أنه لا يموت.
- **القول المقصور به**: النفي والاستثناء في العبارة: «مَا . . . إلاَّ . . .».

* * *

(٤)

أقسام القصر بحسب أحوال من يُوجّه له الكلام

من المعلوم أنّ الكلام يوجّه لمن يراد إعلامه بمضمونه وهو خالي الذّهن، أو يراد تصحيح تصوّره الذي هو مخطىء فيه بحسب اعتقاد مُوَجِّه القول، أو يُرادُ رَفْعُ شَكِّه وتردّده، ويستخلص من هذا أربعة أقسام في القصر:

القسم الأوّل: أنْ يكون الكلام المشتمل على القصر موجّهاً لخالي الذّهن، أو إعلاناً عن اعتقاد المتكلم، أو اعترافه بمضمون ما يقول، أو تعبيره عما في نفسه لمجرّد الاعلام به، وأُسمِّيهِ: «قصراً إعلامياً ابتدائياً».

وأشير إلى أنَّ البلاغيين لم يذكروا هذا القسم اكتفاءً بالمفاهيم العامّة المعروفة من توجيه الكلام.

القسم الثاني: أن يكون الكلام المشتمل على القصر موجّهاً لمن يُرادُ إعلامُه بخطأِ تصوُّرِهِ مُشَارَكةَ غيرِ المقصور عليه في المقصور.

ويُسمِّي البلاغيُّون هذا «قَصْرَ إفراد».

مثالُه: يعتقد المشرك أنّ الأربابَ التي يُؤْمِنُ بها تَخْلُق، كما أنَّ اللَّهَ يخلُق، فنقول لَهُ: «لَا خَالِقَ إلاَّ الله».

هذا قصر حقيقيٌّ، من قصر الصفة على الموصوف، ويُرادُ منه إفراد الله عزَّ وجلَّ بالخلْقِ، ونَفْيُ صفةِ الخلْقِ عن كلّ ما سواه ومن سواه من الشركاء، لتعريف المخالفِ بأنه مخطىء في تصوّره مشاركةَ غَيْرِ اللَّهِ لِلَّهِ في الخلْق، فهو «قَصْرُ إفراد».

القسم الثالث: أن يكون الكلام المشتمل على القصر موجّهاً لمن يُرادُ إعلامه بخطأ تصوُّره نسْبَةَ المقصور إلى غَيْر المقصور عليه.

ويُسَمِّي البلاغيون هذا «قَصْرَ قَلْب».

مثاله: يعتقد الملحد الذي يَجْحَدُ وجُود اللَّهِ عزَّ وجلَّ، وينْسُبُ أحداثَ الكون المتقنة العجيبة إلى التطوّر الذاتيّ، وإلى المصادفات، فنقول له: «لا مُحْدِثَ لأحداث الكون إلاَّ الله».

هذا قصرٌ حقيقيٌّ، من قصر الصفة التي هي إِحْداثُ أَحْداثِ الكون، على موصوف واحدٍ هو الله عزَّ وجلَّ، ويُرادُ منه قلْبُ تصوُّر من يُوَجَّهُ له الخطاب،

وتعريفُهُ بأنَّ ما يَنْسُبُه إلى التطوُّر الذّاتي وإلى المصادفات هو لله وحده، فهو «قَصْر قلْب».

القسم الرابع: أن يكون الكلام المشتملُ على القصر موجَّهاً لمن يُرادُ إزالَةُ تردُّدِه وشكِّهِ، هل المقصورُ منسوبٌ إلى المقصور عليه أوْ إلى غَيْره.

ويُسمِّي البلاغيّون هذا «قَصْرَ تعْيين».

مثاله: يسأل متردّد شاكٌّ: هل لفظ الكسوف يُسْتَعْمَل لاختفاء ونقصان ضوء الشمس أو نور القمر، فنقول له: «لا يُسْتَعْمَل لفظ الكسوف إلاَّ للشمس، أمّا ما يحدث للقمر فيُسَمَّىٰ الْخُسُوف».

هذا قصرٌ إضافي، لأنّ كلمة «الكسوف» تُسْتَعْمَلُ لمعانٍ أخرى غير ما يحدث للشمس، ومنها تنكيس الطَّرْف، وهو من قصر الصفة على الموصوف. ويُرَادُ منه إزالة شكٍّ وتردّد من يوجّه له القول، بتعيين المقصور عليه، فهو «قصْرُ تعيين».

ملاحظة:

يرى البلاغيّون أنّ «قَصْرَ الإِفراد، وقَصْرَ الْقَلْبِ، وقَصْر التَّعْيِين» أقسامٌ للقصر الإضافِيّ فقط، إلاَّ أنّي لست أرَىٰ هذا، ففي الأمثلة الّتي أَوْرَدْتُها للأقسام، منها ما هو قصْرٌ حقيقيٌ، ومنها ما هُو قَصْرٌ إضافي.

فالأقسام الأربعة السابقة نستطيعُ أن نعتبرها أقساماً للقَصْر بوجْهٍ عَامّ، وحَالُ المقصود بتوجيه الكلام له هي التي تحدّد كون الْقَصْر قَصْرَ إعلامٍ ابتدائي، أو قَصْرَ إفراد، أو قصر قلب، أو قصر تعيين.

* * *

(٥)
طُـرُقُ القصـر

يُسْتفادُ القصر بعدة طرق:

الطريق الأول: أن يكون بعبارة تدلُّ عليه بمادَّتها اللّغويَّة صراحةً، مثل:

«دخولُ مكةَ مقصورٌ على المسلمين ــ غرفة القصر العليا خاصّةٌ بسيِّد الْقَصْر ــ سبق الفارس خالدٌ جميعَ الْمُتَسابقين ــ دخل الزوج إلى مخدع العروس وحده ــ سدُّ الصّين أعظم سَدٍّ في الأرْض وأطولُه ــ أبو حنيفة مُنْفَرِدٌ من بَيْنِ المجتهدين في باب الاعتماد على الرأي الثاقب».

* * *

الطريق الثاني: أَنْ يكون بدليلٍ خارجٍ عن النصّ، كدليل عقلي، أو دليل حِسِّي، أو دليل تجريبـي، أو دليل من القرائن الذّهنيَّةِ أو الحاليّة، مثل:

«فلانٌ رئيسُ الجمهوريّة ــ اللَّهُ رَبُّ السّماوات والأرض وهو على كُلّ شيءٍ قدير ــ تبثُّ الشَّمْس ضياءها على الأرض فَتُمِدُّها بالحرارة ــ.

لاَ يَسْلَـمُ الشَّـرَفُ الـرَّفِيـعُ مِـنَ الأَذَىٰ ... حتَّـىٰ يُـرَاقَ عَلَـىٰ جَـوانِبِـهِ الـدَّمُ

أَرُونِـــي أُمَّـــةً بَلَغَـــتْ مُنَـــاهَـــا ... بَغَيْـــرِ الْعِلْـــمِ أَوْ حَـــدِّ الْيَمَـــانِـــيّ

لكِنَّ الْقَصْرَ بواحدٍ من هذين الطريقين لا يدخل في اهتمامات علماء البلاغة تفصيلاً وتقسيماً وشرحاً، إلاَّ أنّ القصر المستفاد بواحد منهما ــ فيما أرى ــ مشمولٌ بكلّ أحكام القصر وتفصيلاته من جهة المعنى، والسبب في أنَّ البلاغيين لم يوجّهوا لهما اهتماماتهم، أنّهما طريقان يتعذَّر حَصْر عناصرهما أو يَعْسُر.

واهتم البلاغيون بتحديد وشرح وتقسيم وتفصيل الطريقين الآتيين «الثالث والرابع» فهو القصر الاصطلاحي المدوّن عند علماء البلاغة، والذي وجهوا له عنايتهم وفيما يلي شرحهما:

* * *

الطريق الثالث: أن يكون القصر ببعض الأدوات التي تدلُّ عليه بالوضع اللّغوي، وهي: النفي والاستثناء ــ وكلمتا «إنّما» و «أنّما» ــ والعطف بالحروف التالية: «لا ــ بل ــ لكن».

وفيما يلي الشرح:

أولاً: النفي والاستثناء، مثل: «**لَا** إلَه **إلاَّ** الله ــ **مَا** مِنْ إلَه **إلاَّ** الله ــ **ومَا** كان لنفس أن تموت **إلاَّ** بإذن الله ــ **وَإِنْ** مِنْ شيءٍ **إلاَّ** عِنْدَنَا خزَائِنُه ــ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُم **لَمْ** تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ **إلاَّ** قَلِيلاً ــ وقَالُوا **لَنْ** تَمَسَّنَا النَّارُ **إلاَّ** أَيَّاماً مَعْدُودَة ــ قُلْ **لَنْ** يُصِيبَنَا **إلاَّ** مَا كَتَبَ اللَّهُ لنا» ومثل إلاَّ في الاستثناء كلمة «غَيْر» ونحوها. ومثل النفي ما يدلُّ على معناهُ، كالاستفهام.

ويكون المقصور بالنفي والاستثناء هو ما قبل الاستثناء صفةً كان أو موصوفاً، أمّا المقصور عليه فهو ما بعد أداة الاستثناء.

النفي	المَقْصُورُ	أداة الاستثناء	المقصور عليه
ما	مُحَمَّدٌ (موصوف)	إلاَّ	رسول «صفة»
لا	صاحب للرسول في الغار (صفة)	إلاَّ	أبو بكر الصديق «موصوف»
لن	يُصِيبَنَا «أي: مُصِيب ما» وهو «موصوف»	إلاَّ	مَا كتب الله لنا «صفة» أي: صِفَةُ ما يُصِيبَنَا أنَّه مكتوبٌ لنا لا علينا

ثانياً: كَلِمتا «إِنّما» بكَسْر الهمزة، و «أنَّما» بفتح الهمزة، والمقصور بواحد منهما هو ما يلي الأداة، والمقصور عليه هو الذي يجيءُ بعده.

أمثلة:

قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ. . . ﴾ [الآية ١١١].

أي: لا يكسبُهُ إلاَّ علىٰ نفسه، والمعنىٰ أنّ المكسُوبَ من الإثم «وهو هنا موصوف» مقصور على صفة واحدة هي كونه على نفس الكاسب.

فهو من قصر موصوف على صفة، أي: لا يضرّ به إلاَّ نفسه، وظاهرٌ أنَّه من قسم القصر الإضافي، إذ الكلام يدور في دائرة الجزاء عند الله، أمّا في غير دائرة الجزاء الرّبّاني فقد يضرّ كاسب الإثم به غيره من عباد الله ضرراً دنيويّاً.

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾.

في هذا النَّصّ قَصْران: أحدهما بأداة «إنَّما» بكسرالهمزة والآخر بأداة «أنَّما» بفتح الهمزة.

وهذان القصران مساويان لقولنا: ما يُوحَىٰ إليَّ إلاَّ أنَّه ما إلَٰهكُمْ إلاَّ إلَٰهٌ واحد.

فالْمَقْصُورُ بالأداة الأولى «إنَّما» هو الموحَىٰ به، وهو هُنَا «موصوفٌ» والمقصورُ عَلَيْهِ مَضْمُونُ جُمْلَةِ «أَنَّمَا إلَٰهُكِمْ إلَٰهٌ واحِدٌ» أي: وحدانية إلَٰهكُم، وهو هنا «صفة» أي: صفة الموحَىٰ به كونُ مضْمُونِه هذه الحقيقة.

والمقصور بالأداة الثانية «أَنَّما» هو «إلَٰهُكُمْ» وهو هنا «موصوف».

والمقصورُ عليه هو كونُه إلَٰهاً واحداً، وكونه إلهاً واحداً صِفَةٌ.

فالمثالان من قصر مَوْصُوفٍ على صِفَةٍ، وظاهر أنهما من قبيل القصر الإضافي، إذ الكلام مع المشركين يدور في دائرة التوحيد والشرك، ومن المعلوم أنَّ الله عزَّ وجلَّ كان إبَّانَ نُزولَ النّصّ يُوحِي إلى رَسُولِهِ بياناتٍ ومعلومات أُخْرَىٰ غير كون إلَٰهِهم إلَٰهاً واحداً.

● قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) خطاباً للذين آمنوا:

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾.

أي: لَا يَجِبُ عَلَىٰ رَسُولِنَا إلَّا البلاغُ المبينُ.

المقصورُ بأداة «أَنَّما» هو الوجوبُ على الرسول، وهو هنا «صِفَةٌ» والمقصورُ عليه هو البلاغ المبين، وهو هنا «موصوف» فهو من قصر صفة على موصوف أي: صفةُ تكليف الرسول مقصورةٌ على موصوف هو تبليغهُ ما أَمَرَهُ الله بتبليغه بَلَاغاً مبيناً.

وهذا القصر هو من قبيل القصر الإضافي، إذ الكلام حول مسؤولية الرسول ﷺ تجاه قومه في موضوع رسالته، ولا يدخل في هذه الدائرة الخاصة ما يجب على الرسول من واجبات أخرى تجاه ربّه وتجاه أصحاب الحقوق، وواجبات أخرى غير ذلك.

● ونقول في قصر الموصوف على الصفة: «إنّما اللَّهُ إِلَهٌ واحد» وهو قصر إضافي.

ونقول في قصر الصفة على الموصوف: «إنما الإلّه الله» وهو قصر حقيقي.

ثالثاً: العطف بالحروف التالية: «لا ـ بَلْ ـ لكن».

(١) أمّا كلمة «لا» العاطفة فَيُعطَفُ بها لإخراج المعطوف ممّا دخل فيه المعطوف عليه، مثل: أَكَلْتُ بصَلاً لا عَسَلاً، ولبستُ خزّاً لَا بزّاً، وللعطف بها ثلاثة شروط:

الأول: أن يكون المعطوف بها مفرداً، أي: غير جملة.

الثاني: أن تكون مسبوقة بإيجاب أو أمْرٍ أو نداء.

الثالث: أن لا يَصْدُقَ أحد معطوفيها على الآخر، وهذا الشرط بدهي.

والعطف بكلمة «لا» يفيد القَصْر، وكلٌّ من المقصور والمقصور عليه يأتيان

قبل أداة العطف، وكلٌّ منهما قد يكون هو المعطوف عليه، أمّا المعطوف بها فهو مقصور عنه، ففي قولنا: حامل راية المسلمين في فتح خيبر عليٌّ لا غَيْرُه.

عليٌّ: هو المقصور عليه، وهو موصوف هنا.

حَمْلُ الراية في فتح خيبر: هو المقصور، وهو صفة هنا.

غَيْرُ علي: هو المقصور عنه.

والقصر في هذا المثال حقيقي، من قصر الصفة على الموصوف.

وفي قولنا: مالك بن أنس فقيه مجتهد لا شاعر.

مالك بن أنس: هو المقصور، وهو موصوف هنا.

فقيه مجتهد: هو المقصور عليه، وهو صفة هنا.

شاعر: هو المقصور عنه.

والقصر في هذا المثال قصر إضافي، وهو من قصر الموصوف على الصفة.

(٢) وأمّا كلمة «بل» العاطفة، ومعناها الإضرابُ عن الأول، والإثبات للثاني، وللعطف بها شرطان:

الأول: أن يكون المعطوف بها مفرداً، أي: غير جملة.

الثاني: أن تكون مسبوقة بإيجابٍ أو أمْرٍ أو نهْيٍ أو نَفْيٍ.

● فإن وقعت بعد كلام مثبت خبراً كان أو أمراً، كانت للإضراب والعدول عن شيءٍ إلى آخر.

● وإن وقعت بعد نفْيٍ أو نَهْيٍ كانت للاستدراك بمنزلة «لكِنْ».

والعطف بكلمة «بل» يفيد القصر، والمقصور عليه بها هو ما بعدها، المعطوف بها، ففي قولنا: «لا تأكل دُهْناً حيوانيّاً بل دهناً نباتيّاً».

دهْناً نباتيّاً: هو المقصور عليه، وهو المعطوف بكلمة «بل».

دُهْنَا حَيَوانيّاً: هو المقصور عنه. وهو المعطوف عليه.

الأكْل المفهوم من «لا تأكل»: هو المقصور.

أي: ليكن أَكْلُكَ بالنسبة إلى الأدهان مقصوراً على الدهن النباتي، ومبتعداً عن الدهن الحيواني.

وهذا قصر إضافيٌّ من قصر الصفة على الموصوف، إذ الموصوف هنا مطلق «الدُّهن» والصفة كونه دهناً نباتيّاً، والوصيةُ توجّه أن يكون المأكول من الأدهان الدّهن النباتي.

وفي قولنا: «المرجان حيوانٌ بَحْرِيٌّ بل نبات بحري».

نبات بحري: هو المقصور عليه، وهو «صفة».

المرجان: هو المقصور، وهو «موصوف».

حيوان بحري: هو المقصور عنه، وهو «صفة».

القصر في هذا المثال قصر إضافي، من قصر الموصوف على الصفة، إذ لا تقتصر صفات المرجان على كونه نباتاً بحريّاً.

(٣) وأمّا كلمة «لكِنْ» العاطفة، فهي للاستدراك بعد النفي، وللعطف بها ثلاثة شروط:

الأوّل: أن يكون المعطوف بها مفرداً، أي: غير جملة.

الثاني: أن تكون مسبوقة بنفي أو نهي.

الثالث: أن لا تقترن بالواو.

والعطف بكلمة «لكن» يفيد القصر، وحالها كحال «بل» فالمقصور عليه بها

هو ما بعدها المعطوف بها، ويصلح هنا مثال: «لا تأكُلْ دُهْناً حيَوانيّاً لكن دُهْناً نباتيّاً» بوضع كلمة «لكِنْ» بدل كلمة «بل» ويكون الشرح هناك هو الشرح هنا.

وفي قولنا: «مَا طلعَ الْفَجْرُ الصّادقُ لَكِنِ الفجر الكاذب».

الفجر الكاذب: هو المقصورُ عليه، وهو «موصوف».

الفجر الصادق: هو المقصورُ عنه.

الطلوع الخاص: هو المقصور، وهو «صفة».

القصر في هذا المثال قصر إضافي من قصر الصفة على الموصوف، إذ لا يقتصر الطلوع على الفجر.

* * *

الطريق الرابع: أن يكون القصر بدلالات في الكلام تفهم من:

(١) تقديم ما حقُّهُ التأخير في الجملة.

(٢) إضافة ضمير الفصل.

(٣) تعريف طرفي الإسناد في الجملة.

والشرح فيما يلي:

أولاً: تقديم ما حقُّهُ التأخير في الجملة.

سبق في مبحث «التقديم والتأخير» بيان مراتب عناصر الجملة في اللّسان العربي، وأنّ تقديم ما حقُّه التأخير يكون لأغراضٍ ودواعي بلاغيّةٍ معنوية، أو جماليّة لفظيّة، وبلغت الدواعي البلاغيّة لتقديم المسند إليه على المسند «اثني عشر داعياً» وبلغت دواعي تقديم المسند إذا كان الأصل فيه التأخير في الجملة «أربعة دواعي خاصة» مع داوعي أخرى يمكن أن تستفاد من تقديم المسند إليه، وبلغت دواعي تقديم متعلقات الفعل عن مراتبها. «ثمانية دواعي» وقد سبق شرحها وعرض أمثلتها.

وهنا في باب القصر نبَّهَ البلاغيون على أنّ تقديم ما حقّه التأخير في الجملة قد يُفِيدُ القصر في بعض صُوره، ومن ذلك ما يلي:

(١) تقديم المعمول على عامله.

(٢) تقديم المسند إليه إذا كان حقُّه في الجملة التأخير.

(٣) تقديم المسند إذا كان حقُّه في الجملة التأخير.

● أمّا تقديم المعمول على عامله فجمهور البلاغيين على أنّه يفيد القصر، سواءٌ أكان مفعولاً، أم ظرفاً، أم مجروراً بحرف جرّ، والمقصور عليه هو المقدّم.

أمثلة:

المثال الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفاتحة/ ١ مصحف/ ٥ نزول):

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

إيّاكَ: الأولى مفعول به لفعل ﴿نَعْبُدُ﴾.

وإيّاكَ: الثانية مفعول به لفعل ﴿نَسْتَعِين﴾، والأصل في المفعول به أن يكون متأخراً عن عامله.

قالوا: دلّ هذا التقديم على تخصيص الله عزّ وجلّ بالعبادة والاستعانة، فالمعنى: لا نَعْبُد إلاَّ إيّاك، ولا نستعين إلاَّ بك.

والقصر هنا من قصر الصفة على الموصوف، وهو قصر حقيقي.

المثال الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) خطاباً للّذينَ آمنوا:

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

إلىٰ الله: معمول لفعل ﴿تُحْشَرُونَ﴾ لأنّه متعلّقٌ به، والأصل فيه أن يكون متأخراً عن عامله.

قيل: معناه لإلَىٰ الله تُحْشَرُونَ لا إلى غيرِه، أي: ليحاسبكم ويجازيكم، ومعلوم أنّ الحشر يوم القيامة يكون لله وحْدَه، فهو وحده الذي يحاسِبُ عباده ويجازيهم يوم الدين.

مع ما في هذا التقديم من داعٍ جمالي رُوعي فيه تناسُق رؤوس الآيات.

ولا مانع من اجتماع عدَّة دواعي بلاغيّةٍ لظاهرة واحدة.

المثال الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾ [الآية ١٤٣].

يُلاحظُ في هذا النّصّ أنَّ الصِّلَةَ في العبارة الأولى: ﴿شُهَدَاءَ عَلَىٰ النَّاسِ﴾ أُخّرَتْ عن عاملها، لأنّ المراد مجرّد إثبات شهادة المسلمين على الناس دون تخصيصهم بهذه الشهادة، إذْ قَدْ يَشْهَدُ عليهم عيسَىٰ عليه السلام الذي بشّرهُمْ بخاتم المرسلين، وسَيَشْهَدُ عليهم عند نزوله.

أمّا في العبارة الثانية: ﴿وَيَكُونَ الرُّسُلُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ فقد قُدِّمَت الصلة ﴿عليكم﴾ على عاملها ﴿شهيداً﴾ لأنَّ المراد تخصيص الرسول بشهادته عليهم، إذْ هو المبلّغ عن الله دين الله لمن بلّغَهُمْ بَعْدَ بعثته، ولا أحَدَ غيرُهُ بلَّغَ هذا الدين عن الله.

المثال الرابع:

قول المتنبي يمدح بَدْر بْنَ عمّار:

بِـــرَجَـــاءِ جُـــودِكَ يُطْـــرَدُ الْفَقْـــرُ وَبَـــأَنْ تُعَـــادَىٰ يَنْفَـــدُ الْعُمْـــرُ

قدّم الصلة (برجاء جودك) على عاملها (يُطْرَد) والصلة (بأنْ تُعَادَىٰ) على عاملها (يَنْفَدُ) لأنه أراد على سبيل المبالغة والادّعاء أنْ يخُصَّ برَجاءِ جوده طردَ الفقر، دون رجاء جود غيره، وأنّ يَخُصَّ بِمُعَاداته نفاد عمر من يعادِيه من الناسِ، دون معاداة غيره من الناس.

فالقصر هنا ادعائي مجازي، وإضافي غير حقيقي.

المقصور (وهو صفة)	المقصور عليه (وهو موصوف)	المقصور عنه
طرد الفقر	رجاء جوده	رجاء جود غيره من الناس
نفادالعمر	معاداته	معاداة غيره من الناس

المثال الخامس: قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) في معرض الحديث عن كُفَّار اليهود:

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ. . .﴾ [الآية ٨٥].

في هذا النص قُدِّمَ الظَّرفُ ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَة﴾ على عامله ﴿يُرَدُّونَ إلى أَشَدِّ الْعَذَاب﴾ لإِفادَة قصر الرَّدّ إلى أشدّ العذاب علىٰ كونه يقع يوم القيام، وهو قصر حقيقي.

● وأمَّا تقديم المسنَدِ إليه إذا كان حقُّه في الجملة التأخير، فقد يفيد القصر في بعض أحواله، وقد يفيد مجرّد التقوية والتأكيد، ودلالة القصر يساعد عليها سِبَاق الكلام وسياقه، وقرائن الحال، والمقصور عليه هو المقدّم.

فمن إفادة تقديم المسند إليه القصر ــ على ما أبان الشيخ عبد القاهر الجرجاني الإمامُ في البلاغيّات ــ ما يلي:

الأول: أن يكون المسند إليه معرفةً والمسنَدُ فعلاً مثبتاً، كأنْ تقول: «أنا قمت ــ أنا سعيت في حاجتك».

فإذا كان القصر قصر «إفراد» جاء التأكيد بنحو: «أنا قمتُ وحْدِي ــ أنا سعيْتُ في حاجَتِكَ وحْدِي».

وإذا كان قصر «قلب» جاء التأكيد بنحو: «أنا قُمْتُ دون غيري ــ أنا سعيتُ في حاجَتِكَ لا غيري» وكذلك إذا كان القصر قَصْرَ تعيين.

ومنه ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) في عرض قصّة هَدِيَّة ملكة سبأ لسليمان عليه السّلام، قالت:

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

جاء في هذا النصّ تقديم المسند إليه: ﴿أنتم﴾ على الْمُسْنَد: ﴿تَفْرَحُون﴾ مع تقديم المعمول ﴿بهديتكم﴾ على عامله ﴿تفرحون﴾.

وَالشاهد هنا تقديم المسند إليه المفيد مع القرائن التي اشتمل عليها النّص القصر الإضافي، والمعنى أنّ الفرح بالهديّة مقصورٌ عليكم، لا يتعدّىٰ إليّ، فأنا لست بها فَرِحاً، فَمَا آتاني اللَّهُ خيرٌ ممَّا آتاكم.

ومنه ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) لرسوله بشأن المنافقين:

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ. . .﴾ [الآية ١٠١].

قُدِّم في هذا النصّ المسند إليه ﴿نَحْنُ﴾ على الْمُسْنَدِ ﴿نَعْلَمُهُمْ﴾ لإفادة قَصْرِ الْعِلْمِ بِهِمْ على الله، وظاهر أنّ القصر هنا هو من قبيل القصر الإضافي، إذْ قد

تَعْلَمُهُمُ الملائكة أيضاً، ولكن جاء القصر في مقابلة نفي العلم بهم عن الرسول، ولعلّ ذلك قد كان قبل أن يُعْلِمَهُ الله بهم، أو أن بعض المنافقين لم يُعْلِمِ الله رسوله بهم.

الثاني: أن يكون الْمُسْنَدُ منْفيّاً، كأن تقول لمن تخاطبه: «أنْتَ لاَ تكْذب» فهذه العبارة أبلغ من أن تقول له: «لا تكذبُ أنت» وهذا التقديم قد يفيد القصر بمساعدة القرائن.

ومنه قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾.

ففي قوله ﴿وأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُون﴾ يُلاَحظُ قَصْرُ عَدَم الْعِلْم على المخاطبين في النَّصّ، وساعد على هذه الدلالة قوله تعالى قبله ﴿واللَّهُ يَعْلَم﴾.

الثالث: أن يكون المسند إليه نكرةً مثبتاً، كأن تقول: «رجُلٌ جاءني».

فقد يفيد تقديم المسند إليه في هذه الحالة القصر بمساعدة القرائن من الحال أو من المقال.

فإذا كنت في معرض تساؤل متسائل هل الذي جاءك من الرجال أو من النساء؟ كان قولك: «رجلٌ جاءني» مفيداً أنّه ليس امرأة.

وإذا كنت في معرض تساؤل متساءل هل جاءك رجلٌ واحد أو أكثر؟ كان قولك: «رجلٌ جاءني» مفيداً أنّه رجل واحد لا أكثر.

الرابع: أن يأتي قبلَ المسند إليه حَرْفُ نفي، كأن تقول: «ما أنا قلتُ هذا القول» أي: أنا لم أَقُلْه مع أنّ غيري قاله فتدَلُّ بعبارتك على قَصْرِ النفي على نَفْسِك، مع إثبات القول لغيرك.

أقول: وفي كلّ ذلك لا بُدَّ من مساعدة القرائن، إذْ ليس القول نصّاً في الدلالة.

● وأمّا تقديم المسند إذا كان حقُّهُ في الجملة التأخير، فقد يفيد القصر بمساعدة قرائن الحال أو المقال، والمقصور عليه هو المقدّم.

ويمكن أن أمثّل له بقولي صانعاً مثلاً، خطاباً للكفّار:

لَنْ تَهْزِمُوا إِيمَانَنَا بِسِلَاحِكُمْ جُبَنَـاءُ أَنْتُـمْ أَيُّهَـا الكُفَّـارُ

فجاء في هذا الكلام تقديم «جُبَنَاء» وهو مسنَدٌ حقُّه في الجملة الاسميّة التأخير، وتأخير «أنتم» وهو مسند إليه وحقُّه هنا التقديم لإفادة القصر بمساعدة قرينة المقال السابق، وقرينه حال الاستبسال، والمعنى أنتم وحدكم الجبناء بكفركم، أمّا نحن فشجعان بإيمانا وتوكّلنا على ربّنا.

* * *

ثانياً ــ إضافة ضمير الفصل إلى الجملة:

ضمير الفصل: هو ضمير منفصل مرفُوعٌ يُؤْتَىٰ به فاصلاً بين المبتدأ والخبر، أو ما أصله مبتدأ وخبر، ويفيدُ تقوية الإسناد وتوكيده، وقَدْ يفيد القصر بمساعدة قرائن الحال أو المقال، والمقصور عليه هو ما دل عليه ضمير الفصل.

والأصل أنّه لا محلّ له من الإعراب، وقد يؤتَّىٰ به على أَنَّهُ مبتدأ وما بعده خبرٌ له، وتكونُ الجملة منه ومن خبره هي الخبرَ لما قبلهما.

أمـثـلـة:

المثال الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بشأن المنافقين:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ

﴿ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ
أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

لقد جيء بضمير الفصل مرّتين في هذا النص: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ـ أَلاَ إِنَّهم هم السُّفَهَاء﴾.

ونلاحظ أنّه مع تقوية الإسناد وتوكيده في الجملتين فقد أفاد ضمير الفصل بمساعدة القرائن القصر، والمعنى: هُمُ المفسدونَ وهُمُ السَّفَهاء، لا المؤمنون الذين يتَّهِمُهُم المنافقون بإفسادِ وحْدَةِ جماعة قومهم بدينهم الجديد، وبالسّفاهة في عقولهم، أي: بِالطيشِ ونقصان العقل.

المثال الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) في عرض سؤال الله عزّ وجلّ عيسىٰ عليه السلام: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ الله﴾ وفي أجوبته عليه السلام قال لربّه:

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾.

جاء في هذا النصّ ضمير الفصل في حكاية قول عيسَىٰ عليه السلام: ﴿كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: كُنْتَ أَنْتَ الرَّقيب عليهم وحدك دوني، إذْ تَوَفَّيْتَنِي أَجَلِي بينهم، ورفعْتَنِي بعيداً عنهم، فليس لي رقابةٌ عليهم.

المثال الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

أي: وكنّا نَحْنُ لاَ غَيْرُنَا الْوَارِثِينَ، فقد أفاد ضمير الفصل هنا القصر بقرينة سوابق الجملة.

ومنه ﴿فاللَّهُ هو الولي ــ وأولئك هُمُ المفلحون ــ إنَّ هذا لَهُو القَصَصُ الحقّ ــ إنَّ شانِئَكَ هُوَ الأبْتَر ــ وأنَّهُ هُوَ أضْحَكَ وأبْكىٰ﴾.

والأمثلة على هذا كثيرة.

* * *

ثالثاً: تعريف طَرَفَي الإسناد، المسند والمسند إليه، ويكون هذا في الْجُمَل الاسميّة، أَمّا الْجُمَلُ الفعليّة فالفعل فيها بقوّة النكرة، فلا يكون فيها المسند معرّفاً، وليس بعيداً أن نجد جملة فعليّة هي بقوّة جملة اسميّة معرّفة الطرفين، لكن لم يُتَابع البلاغيون هذا بالبحث، كأن يَدُلَّ دليل العقل على أنّ الفعل لا يَصْدُرُ إلاَّ من الفاعل.

فقد يُفيد تعريف طرفي الإسناد القصر بمساعدة قرائن الحال أو المقال مع إفادته تقوية الإسناد وتوكيده، والمقصورُ هو المبتدأ الذي يجب في هذه الحالة تقديمه، والمقصور عليه الخبر الذي يجب في هذه الحالة تأخيره.

ونمثل لما قد يُفِيدُ القصر من تعريف طرفي الإسناد: بأنْ يجري حديث حول مشتغلَيْنِ بنظم الشعر، أيُّهما الناظم وأيُّهما الشاعر: «العمريطي» أو «أحمد شوقي» فيقول الخبير الناقد: «الشّاعِرُ أحمد شوقي» أي: أمّا «العمريطي» فناظم لا شاعر.

● ● ●

شجرة تقسيمات القصر

القصر: تخصيص شيءٍ بشيءٍ بعبارة كلامية تدلّ عليه ← وأركانه:
- (١) مقصور.
- (٢) مقصورٌ عليه.
- (٣) مقصورٌ عنه.
- (٤) قَوْلٌ مقصور به.

والقصر باعتبار حال المقصور عنه.

١ ــ حقيقي:
إذا كان المقصور عنه جميع ما سوى المقصور عليه.

- ١ ــ حقيقي تحقيقي:
إذا كان مضمون القصر مطابقاً للواقع.

- ٢ ــ حقيقي ادعائي مجازي:
إذا كان مضمون القصر غير مطابق للواقع إلاّ أنّه جاء على سبيل الادعاء والمبالغة مجازاً، أو وفق رؤية ذاتيّة خاصّة.

٢ ــ إضافي:
إذا كان المقصور عنه خاصّاً منحصراً في دائرة خاصة يجري الكلام فيها [ويُسْتَدَلُّ عليها بالقرائن].

والقصر بحسب أحوال المقصور والمقصور عليه صفةً أو مَوْصوفاً:

١ ــ قصر موصوف على صفة دون غيرها.

٢ ــ قصر صفة على موصوف دون غيره.

والقصر بحسب أحوال من يوجّه له الكلام:

١ ــ قصر إعلام ابتدائي:
وهو الموجه لخالي الذهن أو كان تعبيراً عمّا في نفس المتكلم دون النظر إلى رأي الآخرين.

٢ ــ قصر إفراد:
وهو الموجه لمن يُراد إعلامه بخطأ تصوّره مشاركةَ غير المقصور عليه في المقصور.

٣ ــ قصر قَلْب:
وهو الموجه لمن يُراد إعلامه بخطأ تصوّره نسبة المقصور إلى غير المقصور عليه.

٤ ــ قصر تعيين:
وهو الموجه لمن يُراد إزالة تردّده وشكّه هل المقصور منسوب إلى المقصور عليه أو إلى غيره؟.

والقصر له طُرُق تدلُّ عليه:

الطريق الأول
أن يكون بعبارة تدلّ عليه بمادتها اللغوية صراحة، مثل: «هذا مقصور على هذه».

الطريق الثاني
أن يكون بدليل خارج عن النصّ كدليل عقلي أو حسّي أو تجريبي أو دليل من القرائن الذهنيّة أو الحاليّة.

وهذان الطريقان لا حصر لهما فلم يوجه البلاغيون عنايتهم لتفصيلهما.

الطريق الثالث
أن يكون القصر ببعض الأدوات التي تدلُّ عليه بالوضع اللّغوي وهي:
- ١ النفي والاستثناء.
- ٢ إنما أنّما.
- ٣ العطف بالحروف التالية.
  - ١ ــ لا.
  - ٢ ــ بل.
  - ٣ ــ لكن.

الطريق الرابع
أن يكون بدلالات كلامية تفهم بالفحوى من:
- ١ ــ تقديم ما حقه التأخير.
- ٢ ــ إضافة ضمير الفصل.
- ٣ ــ تعريف طرفي الإسناد في الجملة.

البَابُ الرّابعُ

نظام التـلاؤم في الكلام

والفــصــل والــوصــل

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول : نظام التلاؤم في الكلام.

الفصل الثاني : الفصـل والوصل بين عناصر الجملة الواحدة. والجمل التي لها محل من الإعراب.

الفصل الثالث : الفصـل والوصـل بين الْجُمَل التي لا محلّ لها من الإعراب.

الفَصل الأول

نظامُ التَّلاؤُم في الكَلام

(١)

بيـان التـلاؤم

نَظْمُ الكلام عَمَلٌ فكريّ يُشْبه في الحسيَّات نَظْمَ العقود من اللآلىء أو غيْرِها من الجواهر، ويُشْبه رصفَ حجارةِ الألماس والياقوت والمرجان والزّمُرّد وغيرها من الحجارة الكريمة على مَا يُصاغ مِنْ حِلْيَاتٍ للرُّؤوسِ والصُّدُورِ والأيدي وغيرِها.

إنّ دخيلاً نابياً أو نظماً غير متلائم الألوان والطيوف والحجوم في عقود اللآلِىء، أو رَصْفاً محروماً من التناسق الجماليّ في الْحِلْيَات يُفْسِدها، ويُقَلِّل من قيمتها.

ورُبَّ عِقْدَيْنِ أو حِلْيَتَيْنِ جواهرُ كُلٍّ منهما متساويتان في القيمة وَهُمَا غَيْرُ مَنْظُومَتَيْن أو غَير مَصُوغتين.

فيَنْظم الْعِقدَ أو يَصُوغُ الحِلْيَةَ ماهر خبير مُتْقِنٌ بتلاؤمِ جميلٍ بديع، يُرَاعي فيه حُسْنَ التجاور، وخُطُوط التلاؤم وطُيُوفَهُ وظِلاَلَهُ، ويُراعي فيه تناسُبَ الألْوانِ، وجَمالَ تلاقيها وتدرُّجها وتكاملها، فإذا هو يُعَادِلُ أضعافَ قِيمة جواهره وهي غير منظومه أو غير مصوغة.

ويعمل نظير ذلك من لا خبرة له، ولا مهارة عنده، فلا تزيد قيمةُ ما نظم

أو صاغَ على قيمة جواهره منثورة، وربّما تَنْقُصُ قيمَتُها في نظر ذوّاقي الجمال.

كُنْتُ أجلس أحياناً إلى من كان يُسَمَّىٰ «مَلِكَ اللُّؤلؤ» الشيخ «محمد علي زينل علي رضا» ـ تغمّده الله برحمته وضاعف حسناته ـ في دارة عمله التجاريّ في مدينة «بومبـي» إحدى كُبْرى مُدُنِ الهند، إذْ أقمت عنده أربعة أشهر وعشراً[1] سنة (١٣٧٢ هجرية) فأشاهِدُهُ يجمع أكوام حبّاتِ اللُّؤلُؤ، ويختار منها بإتقان وإحكامٍ وتلاؤم، وينظم نفيسات عقود اللُّؤلؤ.

وأخبرني يومئذٍ وأنا أتابع اختياراته ونَظْمَهُ لعقوده: أنّ العقد الذي يَنْظِمُه هو يُبَاعُ بقيمةِ عِقْدَيْن أو ثلاثةِ عُقُود، من العقود التي ينظمها من لا خبرة له، وليس لديه حِسٌّ مرهف يُدْرِكُ به التلاؤم بين الحبات التي ينظمها، سواء تجاورت أو تباعدت، مع أنّ وزن حبات عِقْدِه يساوي وزن حبات العقد الآخر، وقيمتها منثورةً تساوي قيمة الأخرى منثورة، والفرقُ بيْنَهما إتقانُ الانتقاء، ودقّة التلاؤم والتناسُقِ الجمالي فيما أنْظم، وانْعِدام ذلك فيما ينظم الآخرون.

أقول: ولدَىٰ التحليل نلاحظ أنّ التلاؤم في حَبَّاتِ العقود، وجواهر الْحِلْيَاتِ يكون في الأَلوانِ، والطُّيوف، وبَريقِ الأشعة، والحجوم، والتدرّج، وحُسْنِ التآخي والمزاوجة، ونِسَبِ الأبعاد، وبدائع التشكيلات ضمن أشكالٍ هندسيّة، أو أشكال مُتَنَاثِرَة العناصر ذاتِ جمالٍ يأسِرُ المشاعر، ونحو ذلك.

وأقول أيضاً: كذلك الكلمات والجمل حين تُجْمَعُ في نظام كلاميٍّ من النثر، أو من الشعر.

والتلاؤم الجماليُّ في الكلام تتدخّل فيه عوامل مختلفة فكريّةٌ ولفظية.

● أمّا العوامل اللفظيّة فقد سبق بيانُها في بحث الفصاحة، وأنّ شروط الكلمة

(١) لتعليم كريماته علوم الدّين واللّغة العربية.

الفصيحة أن تكون خالية من أربعة عيوب، وهي: «التنافر ــ الغرابة ــ مخالفة القياس ــ كراهة السّمع لها».

وأن شروط الكلام الفصيح أن يكون خالياً من أربعة عيوب أيضاً، وهي: «تنافر الكلمات عند اجتماعها ــ ضعف التأليف ــ التعقيد اللّفظي ــ التعقيد المعنوي».

● وأمّا العوامل الفكرية فمن المتعذّر إحصاؤها، إذِ الأفكار ومعاني الألفاظ لا حصر لها، وضَمُّ فكرةٍ إلى فِكرةٍ أخرى، وَلفظ ذي معنى إلى لفظ آخر ذي معنى موافق أو مخالف، يتطلّب إدْراكاً عالياً جدّاً، قادراً على تمييز درجات حُسْن التلاؤم، ودركات قبح عدم التلاؤم الذي يُوَلِّد في النفوس الصَّدَّ أو النفرةَ أو الاستقباحَ، أو الحكم على الكلام بالركاكة، وسوء التركيب، وخروجِهِ عنْ أُطُرِ الجمال الفنّي.

وقد تعرّض أئمة علوم البلاغة وشيوخ الأدب للإشارة إلى هذا الموضوع ضمن بحوث الفصل والوصل، أو ضمن بحوثٍ أخرى، دون أن يُفْرِزوه بعنوان خاص، مع كونه جديراً بأن يُفْرز ببحثٍ مستقلٍّ، وكانت لهم حوله عبارات، ونظرات عامّات لم تُحَدَّدْ فيها أقسامٌ ولا عناصر متفاصلة، بسبب أنّ التلاؤمَ وعدَمَ التلاؤم بين المعاني قضيَّةٌ جمالية فكريّة، والبحث فيها مائجٌ رَجْراجٌ لا حصر لصوره، والبحث فيه كالبحث في صُوَرِ أمواج البحر، وكالبحث في صُورِ حركات السُّحُب وتشيكلاتها المتنوعات الناتجات عن تقاربها وتباعدها، واجتماعها وافتراقها، مع اختلاف ألوانها وكثافاتها في الأبعاد الثلاثة: «الطول والعرض والْعُمْق».

* * *

(٢)

من أقوال شيوخ البلاغة والأدب

حول التلاؤم في الكلام

(١) لقد وصف شيوخ البلاغة والأدب الكلمة الموضوعة في المكان الملائم لها من الجملة بأنها «مُتَمَكِّنة».

أي: هي ثابتة في المكان الذي وُضِعَتْ فيه، فهي ذات جذور وروابط فكرية تربطها بما جاورها من عناصر الجملة.

(٢) ووصفوا الكلمة الموضوعة في المكان غير الملائم لها من الجملة بأنَّها «قَلِقَة» و «نَابِيَة» و «غَيْرُ مُتَمَكِّنَة».

(٣) وقالوا عن الشعر الذي لا تآخي بين كلماته، ولا تواصُلَ بين مُفْرَداته: «لاَ قِرَانَ له».

أي: ليس له جامع فَنِّيٌّ راقٍ يجمع بين كلماته ويَشُدُّ بعضها إلى بعض، كما يَجْمَعُ أَسْرُ[١] الكائن الحيّ بين أعضاء جسده ومختلف أجزائه، وهو جملته العصبيّة.

القِران: هو الجمع بين شيئين وشدّ كلٍّ منهما إلى الآخر بِحَبْلٍ رابط، كأسيرين يُقْرَنانِ بحبل مَشْدُودٍ عليهما.

ويطلق القِرانُ أيضاً على الحبل الجامع بينهما.

فهو مصدر للشدّ بالحبل، واسم للحبْلِ الذي يُشَدُّ به.

(١) **الأَسْرُ:** العصب في الكائن الحيّ الذي يشدّ بعضَه إلى بعضٍ، وبه يشتد خَلْقُه، قال تعالى في سورة (الإنسان/ ٧٦) يمنّ على الناس: ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ. . . ﴾ [الآية ٢٨].
وأصل الأَسْرِ: القِدُّ من الجلد يُشَدُّ به الأَسِيرُ، وكلُّ رِباطٍ.

ومن أقوالهم في ذمّ الشعر الذي لا قِرَان له، ما أنشده ابن الأعرابي.

وبَاتَ يُنْشِدُ شِعْراً لاَ قِرَانَ لَهُ قَدْ كَانَ ثقّفَهُ حَوْلاً فَمَاذَادَا

لا قِرَانَ له: أي: لا روابط بين مفرداته وجُمَله.

قد كان ثَقَّفَهُ: أي: قد كان قوّمه وعدّله، وعمل على إزالة الزوائد النابية منه.

فَمَاذَادَ: أي: فما استطاع أن يذود عنه ويُبْعِد الْعوج، ويُخَلِّصَهُ من الزوائد النابية، لضعف ملكته الشعريّة.

(٤) ووصفوا الشعر الرّاقي بالتماسُكِ والإحكام، والتَّلاؤُم، والسَّلاسَةِ والتَّحَدُّر، نظراً إلى ما يشتمل عليه من حُسْنِ بناءٍ، وسَبْكٍ، وصِيَاغةٍ، ولِينٍ وسُهُولةٍ في النُّطْقِ، وعُذُوبةٍ في مجاري السَّمْع، وذلك بسبب ما في معاني كلماتَه وجمله من ترابط وتعانُقٍ وتلاحُمٍ موافق لما في فِطَرِ أنظمة الفكر وحركات مشاعر النفوس من تشعُّبَاتٍ شَجَرِيَّةٍ بديعةِ التواصل والتلاقي، من بزورها وجذورها حتى أقاصي فروعها، ما يتلاقىٰ منها وما يَتَبَاعَدُ. وبسبب ما في الألفاظ من سهولة وتلاؤمٍ في النُّطْقِ وعُذُوبةِ طَرَقَاتِ موسيقاها على السَّمْع، مَعَ التلاؤم بين مخارج حروف الكلمات الْمُنْتَقَيات، والمعاني الّتِي يُراد أداؤها بها.

(٥) وذكر الجاحظ قول «خلف الأحمر»:

وَبَعْضُ قَرِيضِ الْقَومِ أبْنَاءُ عَلَّةٍ يَكِدُّ لِسَانَ النَّاطِقِ الْمُتَحَفِّظِ

أبناءُ عَلَّة: أي: أبناء ضَرَّة، الْعَلَّة الضَّرَّة، يقال: هم أبناءُ عَلَّات أي: أبناء ضرائر، أبوهم واحد وأمَّهاتُهُمْ شتَّىٰ. ومعلوم أنّ أبناء العلّات يحدُث بينهم جفوات وتنافر في أكثر الأحيان.

يَكِدُّ لِسَانَ النَّاطِقِ: أي: يُجْهِدُ لِسَانَ الرجُلِ النّاطِقِ الذي يُطاوعه لسانُه في النُّطق.

المتحفِّظ: هو المحترز الذي يحاول الضبط وعدم الانزلاق إلى ما لا يُحْسِن، أو الذي بَذَلَ جَهْداً حتَّىٰ حفظ النصّ وأتقنه أجزاءً، ومع ذلك فهو يكِدُّ لِسَانَه: أي يُتْعِبُه ويُجْهِدُه.

قال الجاحظ في كتابه: «البيان والتبيين»:

(أمّا قول خَلَفٍ: «وبَعْضُ قريضِ القوم أَبْنَاءُ عَلَّة» فإنّه يقول: إذا كان الشّعرُ مستكْرَهاً، وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقَعُ بعضُهَا مُمَاثلاً لبعضٍ كان بينهما من التنافر ما بين أبناء الْعَلاَّت، وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مُرْضياً موافقاً، كان على اللّسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤونة).

وقال أيضاً: وأنشدني أبو البيداء الرِّياحي:

وشِعْـرٌ كَبَعْـرِ الكَبْـشِ فَـرَّقَ بَيْنَـهُ لِسَـانٌ دَعِـيٌّ فـي الْقَـرِيـضِ دَخِيـلُ[1]

وعلّق الجاحظ بقوله:

«وأمّا قوله: «كَبَعْرِ الكَبْش» فإنَّما ذهب إلى أنَّ بَعَرَ الكَبْشِ يقع متفرّقاً، غَيْرَ مؤتلف، ولا متجاور، وكذلك حروف الكلام، وأجزاء البيت من الشعر، تراها متفقة ملساء، وليّنة المعاطف سهلة، وتراها مختلفة متباينة، ومتنافرة مستكْرَهة، تَشُقُّ على اللِّسَانِ وَتَكِدُّهُ، والأخرى تراها سهلةً ليّنةً، ورطبَةً مواتية، سلسلة النظام، خفيفةً علىٰ اللّسان، حتَّىٰ كأنّ البيت بأسْرِه كلمةٌ واحدة، وحتَّىٰ كأنّ الكلمة بأسرها حرفٌ واحد».

(٦) وقال عبد القاهر الجرجاني في كتابه: «دلائل الإعجاز»:

«وهل نَجِد أحداً يقول: هذه اللَّفظة فصيحة إلاَّ وهو يعتبر مكانَها من النظم، ومن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها، وفَضْلَ مؤانَسَتِها لأخواتها؟!

(١) الدَّعِيّ: المنسوب إلى غير أبيه، والدعيّ في القريض: يريد به المنتسب إلى قَرْضِ الشعر وفئة قارضي الشعر كذباً وزوراً.

وهل قالوا: لفظةٌ متمكّنةٌ ومقبولة، وفي خلافه: قَلِقةٌ ونابيةٌ مستكرهة، إلاَّ وغرضُهم أن يُعَبِّروا بالتمكّن عنْ حُسْنِ الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناها. وبالْقَلَقِ والنُّبُوّ عن سوء التلاؤم، وأنّ الأولىٰ لم تَلْتَقِ بالثّانية في معناها، وأنّ السَّابقةَ لم تَصْلُحْ أنْ تكون لِفْقاً للتالية في مؤدّاها؟!».

لِفْقاً: يَقْصِد أنْ تكون الكلمة ملائمةً ومُلْتَحمةً مع جارتها كَتَلاؤُمِ الشِّقِ المخيط بالشِّقِّ الآخر من الْحُلَّة.

يقالُ لغة: حُلَّةٌ ذاتُ لِفْقَيْنِ، أي: ذاتُ شِقّينِ مُنْضَمَّيْنِ معاً بالخياطة، ولا يُقال للشّقّ «لِفْقٌ» إذا فُتِقَتِ الخياطَة الضّامَّةُ لهما.

(٧) وذكر السَّكَّاكِيُّ مثالاً للكلام الذي ليس بين مفرداته ترابط فكري، فالجمع بينها في حكم واحدٍ غير مقبول في الذوق الأدبـيّ، وإن كان مطابقاً للواقع، أن يقول القائل: «الشمس، ومرارة الأرنب، وألف باذنجانة، مُحْدَثَة».

أقول: والسبب في عدم قبول مثل هذا الجمع أنّ الذّهن إمّا أنْ يَقْرن بين الأشباه والنظائر، أو بَيْنَ المتجاورات في الواقع، أو بين الأضدّاد، لأنَّ استدعاء الذهن للأضدّاد، أسرع من استدعائه للنظائر، وينفر من جمع مفردات متباعدات لا يجمعها تشابه أو تجاور، أو تضادّ، لأنّ شريط السلاسل الفكريّة ذو نظامٍ فطريّ مُحْكَمِ الترابط، أمّا الالتقاط العشوائي دون ملاحظة أنظمة الترابط الفكريّة الفطريّة فهو لا ينسجم معها، والنفس الإِنسانية تنفر منه بسبب ذلك.

(٨) وجاء في مُدوَّناتِ الأدب أنّه: اجتمع «نَصِيبُ بن رَباح» وهو من فحول شعراء القرن الأول الهجري، و «الكُمَيْت» وهو أيضاً من فحول الشعراء في عصره، و «ذو الرّمّة» وهو من فحول شُعراء الطبقة الثانية في عصره، فأنْشَدَ الكميتُ صاحبيْهِ قصيدتَهُ التي في مَطْلعِها: «هَل أَنْتَ عَنْ طَلَبِ الأيفاعِ مُنْقَلِبُ» حتَّىٰ إذا بلغ إلى قوله:

أَمْ هَـلْ ظَعَـائِـنُ بـالْعَلْيَـاءِ نَـافِعَـةٌ   وَإِنْ تَكَـامَـلَ فِيهـا الأُنْـسُ والشَّنَـبُ

عقَدَ «نَصِيبٌ» واحدة.

فقال الكُمَيْتُ: ماذا تُحْصي؟

قال نَصِيبٌ: خطأَكَ، بَاعَدْتَ في القول، مَا الأُنْسُ من الشنب (أي: ما الرابط الفكري بين الأنس والشَّنَب) ألاَّ قُلْتَ كما قال ذو الرّمّة:

لَمْيَـاءُ فـي شَفَتَيْهَـا حُـوَّةٌ لَعَـس   وَفِـي اللّثَـاتِ وَفِـي أَنْيَـابِهَـا شَنَـبُ

فانْكسَرَ الكُمَيْت، (أي: طأطأ رأسَهُ معترفاً بأنَّه لم يُحْسِنِ الجمع بين الأُنْسِ والشَّنَب).

الشَّنَبُ: جمال الثَّغر، وصفاءُ الأسنان ورقّتها.

لَمْيَاءُ: أي: ذاتُ شفاه حُمْرتُها ضاربة إلى سواد، وهذا نوع من الجمال يستحسنه العرب.

حُوَّة: الحوّةُ لونٌ مُسْتَحْسنٌ في الشفاه، وهو حمرةٌ إلى سواد.

لَعَس: اللَّعَسُ سواد في باطن الشفة.

أقول لقد كان يكفي ذا الرّمّة أن يقول: «لمياء» دون أن يؤكّد ذلك بقوله: «في شفتيها حُوَّةٌ لَعَسُ» إلاَّ أنّه فيما يبدو قد حَلاَ لَهُ أن يتلذّذَ بتَنْويع العبارة حول هذا الجمال، الذي هو شَغُوفٌ به في شِفاهِ لَمْيَائِه.

• • •

الفَصل الثاني

الفصل والوصل بين عناصر الجملة الواحدة والجمل التي لها محل من الإعراب

(١)
مقدمة عامّة

يُراد بالوصل الربط بين أجزاء الكلام بحرف عطف، ويراد بالفصل عدمُ الربط بين أجزاء الكلام بحرف عطف.

وأجزاء الكلام قسمان:

القسم الأوّل: «المفرد» ويراد به هنا ما يُقَابل الجملة، وهو الذي لا تتحقّق به وحْدَهُ الفائدة من عناصر الجملة.

القسم الثاني: «الجملة» وهي القول المفيد معنىً تامّاً مُكْتَفِياً بنفسه.

* * *

(٢)
عناصر الجملة

سبق في فصل «بناء الجملة في اللّسان العربي وتقسيمها» أنّ الجملة تتألف من العناصر التالية:

(١) المسند إليه.

(٢) المسند.

(٣) الإسناد الذي لا يُصَرّحُ به في اللّفظ.

(٤) ما يتعلّق بواحد ممّا سَبق من توابع وأدواتٍ إنْ وُجِدَتْ.

والعنصر من عناصر الجملة:

- إمّا أنْ يكون عُنصُراً بسيطاً غير مُرَكّب.
- وإمّا أن يكون عُنْصراً مُرَكَّباً (وما تركَّبَ منه هذا العنصر من أجزاء قد صار بالتركيب جزءاً واحداً فلا تُوصَلُ بحرف عطف).

وينقسم العنصر المركب إلى سبعة أقسام:

القسم الأول: «المركّب الإضافي» مثل: «كتابُ اللّهِ ــ صَلاةُ الْجُمعَةِ ــ رأسُ الحكمةِ ــ بَابُ الْعِلمِ».

ومعلوم أنّه لا عطف بين المضاف والمضاف إليه، لأنّهما صارًا بالتركيب الإضافي بمثابة الكلمة الواحدة، ذات الأجزاء الملتحمة، والإضافةُ على تقدير حرف جرٍّ بين المضافِ والمضاف إليه.

القسم الثاني: «المركَّبُ الوصْفيُّ» مثل: «**الرَّجُلُ الْعَالِمُ** زَارَني ــ أكلتُ **طعاماً طيّباً** ــ وسقاهم ربُّهُمْ **شَرَاباً طَهُوراً**».

ومعلوم أنَّه لا عطف في الأصل بيْنَ النَّعْتِ والمنعوتِ به، لأنّ الصفة جزءٌ من الموصوف فهما متشابكان، فلا معنى لعطف الصفة على الموصوف بها، إذ العطفُ في أصل معناه يقتضي التغايُر، ويكفي للدلالة على كونها صفة إتباعها للموصوف بها في الإعراب ضمن الشروط المبينة عند النحويين.

القسم الثالث: «المركَّبُ التَّوكيديّ» مثل: «حضر **الضيوفُ كلُّهم** ــ فَسَجَدَ **الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُون**».

ومعلوم أنّه لا عطف بين المؤكَّد والمؤكِّدِ به، لأنَّ المؤكَّدَ بِهِ محقِّقٌ للمرادِ

من المؤكَّد، فهما بمثابة شيءٍ واحدٍ، فلا معنىً للعطف بينهما، والتوكيد تابع من التوابع.

القسم الرابع: «المركّب الْبَدَلِيُّ» سواء أكان بدلاً مطابقاً، أوْ بدلَ بعضٍ من كلٍّ، أو بدَلَ اشتمال، أو بدلاً مُبَايناً، مثل:

«اهدنا الصراطَ المستقيمَ **صراطَ الّذين أنعمت عليهم** (في البدل المطابق) ــ **قُمِ اللّيْلَ إلاّ قليلاً نِصْفَهُ أو انْقُصْ** منه قليلاً أو زد عليه (في بدل البعض من الكُلّ) ــ أفادني **الشيخ عِلْمُه** (في بدل الاشتمال) نَاوِلْني كتابَ النحو **كتابَ اللُّغَةِ** (في البدل المباين) وهكذا. . .».

ومعلوم أنّه لا عطف بين البدل والمبدَلِ منه إذ المراد أن يَحُلَّ البدلُ مكان المُبْدَل منه، والعطف يقتضي اجتماعهما.

القسم الخامس: «المركّب البيانيُّ» وهو ما يكون الجزء الثاني منه معطوفاً على الأوّل عطف بيان، مثل: «أقسم باللَّهِ **أبو حفْصٍ عُمَرُ**».

ومعلوم أنه لا تتوسط أداة عطف بين البيان والمبيَّنِ، إذْ هُمَا: إمّا بمثابة المركّب الوصفيّ، أو بمثابة المركّب الْبَدَلِيّ.

القسم السادس: «المركب المزجيُّ» مثل: «بعلبَكّ ــ حضرموت ــ معديكرب» ونحو ذلك.

ومعلومٌ أنّ المركّب المزجي هو في الحقيقة كلمةٌ واحدة يُلاحَظُ في لفظها أصلُها قبل أن تمتزج عناصرها في كلمة واحدة.

القسم السابع: «الأسْماءُ المركبة من أكثر من كلمة» مثل: «عبد الله ــ شابَ قرناها ــ ذونُوَاس ــ ذو الخويصرة» ونحو ذلك.

ومعلوم أنَّ الأعلام المركبة من كلمتين فأكثر صارت بالنقل إلى العلمية كلمةً واحدة جديدة، تُقال كما كانت قبل النقل إلى العلميّة، وكذلك الألفاظ المتعدّدة

التي تُطْلَق بهيئتها التركيبِيّة على أشياء إطلاقَ النكرات على أجناسها وأنواعها.

القسم الثامن: «المركّب العددي» مثل: «أَحدَ عشر ــ ثلاثَةَ عشر». والمركب العددي هو بمثابة كلمة واحدة كانت كلمتين، وكان ينبغي عطف الثانية منهما على الأولى بحرف العطف، إلاّ أنّه اسْتُغْنِيَ عن حرف العطف بينهما باعتبارهما قد صارتا مُرَكَّبتَيْنِ تركيبَ كَلِمَةٍ واحدة.

* * *

(٣)

الاحتمالات التي يتعرّض لها «المفرد» وكذلك «الجملة التي لها محل من الإعراب»

«المفرد» المقابل للجملة (ومثله الجملة التي لها محلٌّ من الإعراب إذ هي مؤوّلة بالمفرد) لا يخلو عن أن يكون واحداً من الاحتمالات التاليات:

الاحتمال الأوّل: أنْ يكون حرفاً من حروف المعاني أو من الحروف التي تُزاد للتأكيد، في أي موقع من مواقع الجملة.

ومن الملاحظ أنّ الحرف يدخل في الجملة كالجزء من العنصر الذي دخل قبله، كحرف النفي، وحرف الجرّ، وحرف التوكيد، والجزء من العنصر الذي التحق به، كنون التوكيد، ونون الوقاية.

فالحرف بطبيعته ملتحم أو شبه ملتحم بالعنصر الذي دخل عليه أو التحق به من عناصر الجملة، ولهذا كان بطبيعته لا يحتاج وصلاً بحرف عطفٍ بداهةً.

الاحتمال الثاني: أنْ يأتي العنصر في صدر الكلام، وهذا بطبيعة حاله لا يُلاحَظُ وصْلُه بشيء قبله حتى يدخل عليه حرف عطف، إلاّ أن يُسْبَق بكلامٍ مُقَدَّرٍ ذِهْناً، فقد يكون للمقدّرات الذهنيّة اعتبارات تُلاحظُ في المنطوق من الكلام، مثل:

قَـالَـتْ بَنَـاتُ الْعَـمِّ يَـا سَلْمَـىٰ وإِنْ كَـانَ فَقِيـراً مُعْـدِمـاً قَـالَـت: وَإِنْ

الاحتمال الثالث: أن يكون خبراً لمبتدأ أو لما كان مبتدأ، كاسم «كان» واسم «إنّ».

ومعلومٌ أنّ الرابط بين المبتدأ والخبر رابط معنويٌّ هو الإسناد الذي يجعل الْمُسْنَدَ وصفاً من جهة المعنى للمسند إليه في الإيجاب، أو نفي ذلك في السلب، ودليل الإسناد مع المعنى علامةُ الإعراب.

الاحتمال الرابع: أن يكون فاعلاً، والرابط بين الفعل أو ما يعمل عمله وبين الفاعل رابط معنوي، وهو الإسناد الذي يجعل المسند وصفاً من جهة المعنى للمسند إليه في الإيجاب، أو نفي ذلك في السلب، ودليله مع المعنى علامة الإعراب.

الاحتمال الخامس: أن يكون مفعولاً به (واحداً أو أكثر إذا تعدَّدت المفاعيل». والرابط بين الفعل أو ما يعمل عمَلَهُ وبين المفعول به رابط معنويٌّ أيضاً مُشْتَقٌّ من الإسناد، ودليله مع المعنىٰ في الجملة علامةُ الإعراب، ويُلْحَقُ بالمفعول به المجرورُ بحرف جرٍّ، لأنَّ تعدية الفعل إلى المفعول به إمَّا أنْ تكون بغير أداة، أو بأداة حرف الجرّ سواء أكان لمجرّد التعدية أو لإضافة معنى يدلُّ عليه حرف الجرّ.

الاحتمال السادس: أن يكون مفعولاً فيه (ظَرْفَ زمانٍ أو ظرفَ مكان) والرابط بين الفعل أو ما يعمل عمله وبين المفعول فيه رابطٌ معنويّ أيضاً مشتقٌّ من الإسناد، وهو رابط يدخل في عموم رابط المفعول به، ودليله مع المعنى علامة الإعراب، وهو على تقدير حرف الجرّ «في» فلمّا حُذِف نُصِبَ الاسم الذي كان مجروراً به، وأُلْحِقَ بالمفاعيل.

الاحتمال السابع: أن يكون مفعولاً مطلقاً، وهو في الحقيقة كالجزء من

عامله، فهو لا يحتاج ربطاً بحرف عطف، لأنّ الربط بحرف العطف يقتضي في الأصل التغاير، وهذا جزء مكمّلٌ للعامل به، لا مغاير له، وحركته الإعرابيّة النصب لأنه يدخل في عموم المفاعيل.

الاحتمال الثامن: أن يكون مفعولاً لأجله، وهو في الحقيقة على تقدير حرف علة، ولو كان مصرّحاً به في اللفظ لكان جارّاً لأنه من حروف الجرّ، فلمَّا حذف نُصِبَ الاسم الذي كان مجروراً به وأُلْحِقَ بالمفاعيل.

الاحتمال التاسع: أن يكون مفعولاً معه، مثل: «سِرْتُ والجبَلَ» إنّ مثل هذا التعبير الَّذِي يُفِيدُ المعيَّةَ والمصاحبة أصْلُهُ: سِرْتُ مع الجبل، أي: مصاحباً لأجزاء الجبَلِ في مسيري، فلمّا وُضِعتِ الواو الّتي من معانيها المعيّة بدلَ «مع» والواو ليست اسماً حتَّى تُعتبَر مضافةً إلى ما بعدها، نُصِبَ ما بعدها إلحاقاً له بالمفاعيل، ولأنّ واو المعية هذه يُمْكِنُ أنْ يُعَبَّر عنها بالحال، فيقال: سِرْتُ مصاحباً الجبلَ، فأُلْقِيتْ حركة النصْب على المفعول معه.

فالواو في المفعول معه ليست في الحقيقة حرْف عطف، والكلام لا وصل فيه.

الاحتمال العاشر: أن يكون تمييزاً، ومعلومٌ أنّ التمييز هو والمميَّز شيءٌ واحد، فلا يُعْطَفُ عليه بحرف عطف، لأنه في الحقيقة بيانٌ له، والتمييز:

● إمّا منصوبٌ على تقدير حذف حرف «مِنْ» الجارّة، مثل: «اشتريتُ عشرين كتاباً» إذ المعنى اشتريت عشرين من الكتب، وتعليل النصب هنا كتعليل النصب في المفعول فيه والمفعول لأجله.

● وإمّا مجرورٌ بالإضافة، مثل: «ثلاثةُ رِجالٍ وعَشْر نِسْوَةٍ» وهذا يدخل في عموم المضاف إليه.

وطبيعيٌّ أن لا يحتاج التمييز إلى الوصل بحرف العطف.

الاحتمال الحادي عشر: أن يكون منادىً، وهو في الحقيقة بمثابة المفعول به، لأنّ أداة النداء نائبة مناب أدعو أو أُنَادي.

الاحتمال الثاني عشر: أن يكون مستثنى، وهو في الحقيقة على وجهين:

- إمّا أن يكون بمثابة المفعول به، لأنّ أداة الاستثناء «إلاّ» نائبة مناب «استثني».

- وإمّا أن يكون ما بعد أداة الاستثناء معمولاً لما قبلها، ويكون هذا في الاستثناء المفرّغ.

وفي كلٍّ من الوجهين لا يحتاج المستثنى إلى الوصل بحرف عطف.

الاحتمال الثالث عشر: أن يكون حالاً مفرداً غير جملة، والحال في الحقيقة صفة لصاحبها، وهي مع صاحبها كالصفة مع الموصوف، فهي كالجزء منه، فلا تُعْطَفُ عليه بحرف عطف.

الاحتمال الرابع عشر: أن يُرادَ إدْخال عُنْصرٍ في الجملة شريكاً لأحد العناصر السابقة في الحكم، استغناءً بذلك عن تكرار الجمل.

والوسيلة لذلك في معظم الأحوال الوصل بالعطف بحرف من حروف العطف حسب اقتضاء المعنى.

وينبغي أن تُلاحظ هُنا معاني حروف العطف، وشروط العطف بها، على ما فصّله النحويّون واللّغويّون.

وإجمال معاني حروف العطف فيما يلي:

(١) «الواو» لمطلق الجمع فلا تقتضي بأصل الوضع ترتيباً ولا تعقيباً.

(٢) «الفاء» للترتيب مع التعقيب حقيقةً أو مجازاً.

(٣) «ثُمّ» للترتيب مع التراخي حقيقةً أو مجازاً.

(٤) «حتّى» لانتهاء الغاية.

(٥) «بل» وتأتي على وجهين.

الوجه الأول: للإضراب والعدول عن شيءٍ إلى آخر بعد كلامٍ مثبت خبراً كان أو أمراً.

الوجه الثاني: للاستدراك بمنزلة «لكن» إذا وقعت بعد نفي أو نَهْي.

(٦) «لكن» للاستدراك.

(٧) «لا» بعد المثبت، وهي تفيد تأكيد إثبات الحكم لما قبلها، ونَفْيَهُ عمّا بعدها.

(٨) «أم» وتأتي على وجهين:

الوجه الأول: «أَمْ» المتصلة، وهي الّتي يكون ما بعدها متَّصِلاً بما قَبْلَها، ومشاركاً له في الحكم، وتقع بعد همزة الاستفام مثل: «أعليٌّ في الدار أمْ خالد؟» أو بعد همزة التسوية، مثل: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنون﴾.

وسُمِّيتْ متّصلة لأنَّ ما قَبْلها وما بَعْدها لا يُسْتَغْنَىٰ بأحدهما عن الآخر.

الوجه الثاني: «أَمْ» المنقطعة، وهي التي تكون لقطع الكلام الأوّل واستئناف ما بَعْدَه، ومعناها الإضراب، مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾.

هذه هي القاعدة العامّة فيما يراد جعله شريكاً لعنصر من عناصر الجملة التي سبق بيانُها، باستثناء تعدُّد الأخبار، وتعدّد الصفات أو تعدّد الأحوال.

* * *

أمّا القاعدة بالنّسبة إلى تعدّد الأخبار:

فإذا جاء في الجملة أخبارٌ متعدّدة لمُبتَدأ أو لما أصله مبتدأ فإذا كان الخبران متكاملين فيما بينهما ومفردَيْن، وهما بقوّة الخبر الواحد، لم يَجُزْ عطفُ الثاني على الأول، مثل: «هذا الرُّمّان حُلْوٌ حامض» لأنهما بمعنى خبَرٍ واحدٍ تقديره: «مِزّ».

والأصل عند تعدّد الأخبار إذا كان اللاّحق مفرداً لا جملة، أَنْ لا يُعْطَفَ اللاّحِقُ منها على السّابق، مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول):

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾.

ويجوز عطف بَعْضِها على بعضٍ لدى ملاحظة غَرَضٍ بلاغيٍّ خاصٍّ يدلُّ عليه العطف، فتقول مثلاً: «عليُّ بْنُ أبـي طالبٍ شجاعٌ ذُو بأسٍ لا تَلِينُ له قناةٌ، **وعَالِمٌ وَبليغ، وذُو بَصَرٍ في الأَقْضِية**، حتَّىٰ قيلَ: قضيَّةٌ ولاَ أبا حَسَنٍ لها».

أمّا إذا كان اللاّحق جُمْلةً فيأتي موصولاً بحرف العطف، مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (البروج) أيضاً:

﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾.

* * *

وأما القاعدة بالنسبة إلى تعدّد الصفات:

فإذا كان الموصوف لا يتعيّن إلاَّ بعدد من الصفات فيجب إتباعُها وعدم عطف بعضها على بعض.

وإذا كان الموصوف لا يحتاج إلى تعيين أو كان يتعيّن ببعضها فقط، فما يتحقَّقُ به تعيينُ الموصوف منها فإنَّهُ يُذْكَرُ دون توسط حرف عطف، وأمّا سائر الصفات فيجوز فيها وجهان:

الأول: أن تذكَرَ توابع بلا عطف، وهو الأصل، مثل:

﴿بسم اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيم ـ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ـ ﴾.

الثاني: أن تُذكَرَ معطوفةً، وينبغي أن يُلَاحظ في العطف غرضٌ بلاغيٌ، لأنّ الأصل في النعوت أن تأتي تَوابعَ دون أن تُوصَلَ بحرف عطف.

● ومما جاء من ذلك معطوفاً لغرض بلاغي قول الله عزّ وجلّ حكاية لمقالة إبراهيم لقومه في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾.

فعطف الصفات للتأكيد على أن كلَّ واحدةٍ منها كافيةٌ لعبادة الرّب وحده.

● ومنه أيضاً قول الشاعر:

إِلَـىٰ الْمَلِـكِ الْقَـرْمِ وابْـنِ الْهُمَـامِ ... وَلَيْــثِ الْكَتِيبَــةِ فــي الْمُــزْدَحَــمِ

الْقَرْمُ: السيّد المعظَّم.

الهُمَامُ: السيّد الشجاع السَّخِيُّ من الرِّجال، والأسد.

فعطفَ الصِّفاتِ مع أنّ الأصل عدمُ عطفها، ليَلْفِتَ النظر إلى أنّه مع كونه ملكاً قَرْماً هو ابْنُ سيِّدٍ شجاع سخي، وهو أيضاً شجاعٌ كالأسد.

● ومن الصفات المتعدّدة الّتي اجتمع فيها الفصل والوصل قول الله عزّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾.

إنَّ صفات ﴿العزيزِ الْعَلِيم غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ جاءت منفصلة دون حرف عطف كما هو الأصلُ في الصفات.

وبعدها جاءت: ﴿وَقابِلِ التوب﴾ صفةً معطوفة بالواو على خلاف الأصل لغرضَ بلاغي، وهو فيما أرى دفع توهُّم المطابقة بين غُفْرانِ الذّنْبِ وقبول التوبة، فغفرانُ الذَّنْب قد يكون دون أن يتوبَ الْمذنِبُ من ذنبه، بل يسأل اللَّهَ الغفران فقط، أمّا قبولُ التوبةِ، بمعنىٰ رجوعِ اللَّهِ إلى التائب من عباده بفيوضاتِ عطاءاته التي يُعْطِيها المتقين إذا كان منهم، أو الأبرار أو المحسنين إذا كان منهم، فهو شيءٌ آخر غير غفران الذنب.

وعاد النص بعد هذا إلى ذكر سائر الصفات دون عطف، وهذا من بدائع القرآن.

* * *

(٤)

الجمل التي لها محلٌّ من الإعراب

كلُّ جملة صحَّ تأويلها بمفرد فلَهَا محلٌّ من الإعراب: «الرفع أو النصب أو الجرّ» كالمفرد الذي تُؤَوَّل به، ويكون إعرابُهَا كإعرابه، إذْ تكون واقعة موقعه.

وكلُّ جملة لا يصحُّ تأويلها بمفرد، لأنّها غير واقعة موقع مفرد فليس لها محلٌّ من الإعراب.

والجمل التي لها محلٌّ من الإعراب سبعٌ:

الجملة الأولى: هي الواقعة خبراً، ومحلُّها من الإعراب الرفع أو النصب بحسب الخبر المفرد الذي وقعت موقعه، مثل: «العلمُ **يَرْفَعُ مَنزلةَ صاحبه** ــ كان رسُولُ الله **يُواظبُ على قيام اللّيل**».

الجملة الثانية: هي الواقعة مفعولاً به، ومحلُّها من الإعراب النصبّ، مثل: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ فجملة «إنّي عبد الله» في محلّ نصب مفعول به لفعل «قال».

الجملة الثالثة: هي الواقعة موقع المضافِ إليه، ومحلّها من الإعراب الجرّ، مثل: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ فجملة ﴿يَنْفَعُ الصادقين صِدْقُهُمْ﴾ في محل جرّ لأنّها في تأويل مفرد هو مضافٌ إليه، والتقدير: يَوْمُ نَفْعِ الصِدْقِ للصادقين.

الجملة الرابعة: هي الواقعة جواباً لشرطٍ جازِمٍ، وشرطها أنْ تقترن بالفاء أو بإذا الفجائيّة، ومحلُّها من الإعراب الجزم، مثل: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

فكل جملة من هاتين الجملتين: ﴿فماله من هاد ــ إذا هم يقنطون﴾ واقعة موقع فعل مجزوم هو جواب الشرط.

الجملة الخامسة: هي الواقعة موقع الصفة، ومحلُّها من الإعراب بحسب الموصوف بها، مرفوعاً كان أو منصوباً أو مجروراً، مثل: «وجاء رجلٌ مِنْ أقْصَىٰ المدينة **يَسْعَىٰ** ــ الزَمْ عالماً **يُعَلِّمُ عُلُومَ الدِّينِ الإسْلامي** ــ اعتَصِمْ بِحَبْلٍ **يَصِلُكَ باللّهِ**».

فكل جملة من هذه الجمل الثلاث «يَسْعَىٰ ــ يُعَلّم علوم الدين الإسلامي ــ يَصِلُكَ بالله» واقعة موقع صفة للاسم النكرة الذي قبلها.

الجملة السّادسة: هي الجملة التابعة لجملة لها محلٌّ من الإعراب، ومحلُّها من الإعراب يكون بحسب الجملة التي هي تابعة لها، رفعاً أو نَصْباً أوْ جرّاً، مثل: «كُلُّ حيوانٍ **يأْكُلُ وَيَشْرَبُ** ــ كَانَ رَسُولُ اللّه يَحْمِلُ الكَلَّ وَيَقْرِي الضَّيْفَ **ويُعِينُ عَلَىٰ نَوائب الدهر** ــ مرَرْتُ بِرَجُلٍ **يأكُلُ بِشَرَهٍ، يأْكُلُ بِشَرَهٍ**».

الجملة السابعة: هي الجملة الواقعة موقع الحال، ومحلُّها من الإعراب النصب، كالحال التي جاء لفظها «مفرداً غير جملة» ومؤولة بمفرد، فقول القائل: «وُلِدَ الطفْل **يَبْكي**» هو بمثابة قوله: «وُلِدَ الطفلُ بَاكياً».

وكان الأصل في الجملة الحالية أن تكون خالية من الواو، لأنّها كالنعت مع المنعوت به، وأن يكون الربط بين الجملة الحالية وصاحبها ضميراً فيها يعود عليه.

ولكن قد تكون الجملة الحاليّة خاليةً من هذا الضمير الرابط، مثل: «صلَّى المتهجّد ـ الناسُ نَائمون» إذا أُريد أن تكون جملة «الناسُ نائمون» جملةً حاليَّة. أو يكون هذا الضمير الرابط صدر الجملة الحالية، مثل: «سافر خالد ـ هو صائم» إذا أريد أن تكون جملة «هو صائم» حاليّة. إلاَّ أنّ مثل هذين التعبيرين لا دليل فيهما علىٰ أنّ جملة كلّ منهما جملة حاليّة، فجاء في اللّغة العربية اختيار حرف «الواو» التي تستعمل في العطف رابطاً يدلُّ على أنّ الجملة حالية، سواء قلنا بتجريد هذه الواو من معنى العطف، أو قلنا بأنّ معنى العطف ما زال باقياً يجمع الصفة التي دلَّتْ عليها الحال مع الصفة المسندة إلى صاحب الحال التي دلّ عليها الْمُسْنَدُ فِعلاً كان أو غيره، وقد أُضيف إلى معنى الجمع بين الوصفين معنى الحاليّة.

ودعت ذَوْقِيَّةٌ جماليَّةٌ وفكريَّةٌ في الجمل الحاليّة أن تجب واو الحال في بعضها، وأن تَمْتَنِعَ في بَعْضِها، وأن يجوز ذكرها وتركها في بعضها.

- فتجب واو الحال في ثلاث صور.
- وتمتَنِعُ في سبْع صُور.
- ويجوز ذكرها وتركها فيما سوى ذلك.

على ما فصله النحويّون في باب الحال، وذكره البلاغيّون في باب «الفصل والوصل» استكمالاً لذكر أحوال «الواو» في الْجُمَل وجوداً وعدماً، على اعتبار أنّ «واو» الحال تدخل في عموم الواو العاطفة، إلاَّ أنني رأيت إحالة أمر هذه الواو على ما قرّره النحاة بشأنها.

وممّا سبق ظهر لنا أنّ الجمل التي لها محلٌّ من الإعراب هي بمثابة المفرد،

لأنَّها تُؤَوَّلُ بمفرد، وتَشْمَلُها أحكام المفرد في الوصل والفصل، حتَّىٰ الجملة الحالية التي تدخل عليها واو الحال رابطةً، إذا لاحظنا أنَّ هذه الواو قد استدعاها حاجة الجملة الحالية إلى رابط، والأصل فيه أن يكون ضميراً يعود على صاحب الحال، وحين تُسْتَخْدَمُ واو الحال للربط فليس ذلك من وصل الجمل بالعطف، وإنما هو للدلالة على معنى الحالية بحرف رابط.

• • •

الفَصْل الثالث

الفصل والوصل بين الجمل التي لا محلّ لها من الإعراب

(١)

مقدمة

(١) اهتم البلاغيّون بالبحث لاستخْراج الأسس الفكريّة العامّة للفصل والوصل بين الجمل التي لها محلّ من الإعراب، بعد أن نظروا نظرات عامّاتٍ إلى المفرد، وإلى الجملة التي لا محلّ لها من الإعراب باعتبارها بمنزلة المفرد، وتُؤَوَّلُ بمفرد، وتحكُمُهما الأسس الّتي سبَقَ بيانُها في الفصل الثاني من هذا الباب، أخذاً ممّا بَحَثَهُ النَّحوِيُّونَ، وبحثَ بعضَهُ البلاغيون متناثراً.

(٢) وقد أبان البلاغيّون أهميَّةَ معرفةِ مواطن الفصل والوصل بين الجمل الّتي لا محلّ لها من الإعراب، واعتبروا إدْراكَ ذلك من الأمور التي تحتاج بصيرةً نفَّاذةً قادرةً على إدْراك مدَىٰ التلاقي والافتراق، والتقارب والتباعد بين المضامين الفكريّة للجمل التي يتلو بعضُها بعضاً في الكلام، وأنّ هذا ممّا يَصْعُبُ على الكثيرين إدْراكُه، فلا يستطيعون دواماً تَحْدِيدَ ما يجبُ أو يَحْسُن فَصْلُهُ، ومَا يجبُ أو يَحْسُن وصله، وَما يستوي فيه الأمران، فَلاَ يَرْتَقي ما يُنْشؤون من كلامٍ مؤلف من جُمَلٍ كثيرةٍ في مراقي البلاغية الرفيعة، وفي حُسْنِ وضْعِ كُلٍّ من الفصل والوصل في موضعه.

ولا تُكْتَسَبُ ملكةُ وضْع كلٍّ من الفصل والوصل في موضعه الملائم بالتلقائيّةِ إلاّ بممارسةٍ طويلة، مع حِسٍّ فطريٍّ مُرْهف، وموهبة بلاغيّة ممتازة.

ويتفاوت الكلام بالفصل والوصل تفاوُتاً كبيراً ارتقاءً أو نزولاً في المراتب البلاغيّة، ويتفاضل في هذا المجال أيضاً الكتّاب والشعراء والخطباء والْمُحَدِّثون.

وبالَغَ بعضهم فقال: البلاغة معرفة مواطن الفصل والوصل في الكلام (أي: العطف بالواو وترك العطف بها).

* * *

(٢)

الجمل التي لا محلّ لها من الإعراب

لمّا كان الكلام هنا يتناول الْفَصْلَ والوصل في الجمل التي لا محلّ لها من الإعراب، فمن المناسب أن نأخذ من النحويّين ما ذكروه من تفصيل لها، ليكون ذلك تمهيداً لكلام البلاغيين حولها.

ذكر النُّحاةُ أنّ الْجُمَل التي لا محلَّ لها من الإعراب تِسْعُ جمل، وهي ما يلي:

الأولى: «الجملة الابتدائية» وهي الّتي تكونُ في بدء الكلام، مثل: ﴿ ۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهي جملة لا محلّ لها من الإعراب.

وهذه الجملة بطبيعتها لا توصل بشيء قبلها، إلاَّ أن تُسْبَقَ بكلامٍ مُقَدَّر ذهناً، فقد يكون للمقدّرات الذهنيّة اعتباراتٌ تُلاحظُ في المنطوق من الكلام، كأن يسأل رجلٌ صديقه: هلْ تَعَشَّيْتَ عند فلان؟، فيقول له: وَبِتُّ عِنده حتّى الصباح.

الثانية: «الجملةُ الاستئنافية» وهي الّتي تقع في أثناء الكلام منقطعةً عمّا قبْلَها لاستئناف كلام جديد، وهي جملة لا محلّ لها من الإعراب.

والأصل فيها أن تكون منفصلةً غير مقترنَةٍ بحرف عطف، مثل قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣﴾.

فجملة: «تعالَىٰ الله عمّا يشركون» جملة استئنافيّة.

وقد تقترن بالفاء الاستئنافيّة، مثل قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١٩٠﴾.

وقد تقترن بالواو الاستئنافية، مثل قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) في عرض قصة امرأة عمران:

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٣٦﴾.

فجملة: «وَالله أعلم بما وضعت» جملة استئنافية اقترنت بالواو الاستئنافية.

الثالثة: «الجملة التعليليّة» وَهِي الّتِي تَقَعُ في أثناءِ الكلام تَعْليلاً لما قَبْلَها، وهي جملة لا محلّ لها من الإعراب.

والأصل في هذه الجملة أن تكون منفصلة غير مقترنة بحرف عطف، مثل قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٠٣﴾.

فجملة: «إنّ صلاتَكَ سَكَنٌ لهم» جملة تعليلية.

وقد تقترن بفاء التعليل، مثل أن نقول: «**الْزَمْ سَبِيلَ الْهُدَىٰ فَإِنَّهُ سَبَبُ السَّعَادَةِ**».

الرابعة: «الجملة الاعتراضيّة» وهي التي تعترض بين شيئَيْن متلازِمَيْن: «كالمبتدأ والخبر، والفعل ومرفوعه، والفعل ومنصوبه، والشرط وجوابه، والحال وصاحبها، والصفة والموصوف بها، وحرف الجرّ ومتعلَّقه، والقسم وجوابه» وهي جملة لا محلّ لها من الإعراب.

قالوا: ويُؤْتَىٰ بالجملة الاعتراضيّة لإفادة الكلام تقويةً وتسديداً وتحسيناً.

أقول: أغراض الجملة الاعتراضيّة عند البلغاء كثيرةٌ يصْعُبُ تحديدُ أُطُرِها العامّة، فضلاً عمّا هو أكثر من ذلك تحديداً أو تفصيلاً، إذْ داوعي ذكرها، فكريَّة، تُشْتَقُّ من الموضوعاتِ التي تُذْكَرُ ضِمْنَها. ومن أمثلة الجمل الاعتراضية:

- قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

فجملة ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ جُمْلَةٌ اعْتِراضِيَّةٌ جاءَتْ بين متلازمَيْنِ هُمَا: «الشرط وجوابه» والواو فيها استِئْنَافيّة.

- وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول):

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾.

فجملةُ: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ جُملةٌ اعتراضيَّةٌ جاءت بَيْنَ مُتَلازِمَيْنِ هُما: الصفة والموصوف بها».

الخامسة: «الجملة الواقعة صلةً للموصول» سواءٌ أكان الموصول موصولاً اسمياً، أَمْ موصولاً حرفياً.

● فالموصول الاسمي: «كالّذِي ــ والّتِي ــ ومَنْ ــ » مثل قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ . . .﴾.

فجملة: ﴿يُؤْمِنُونَ بالغيب﴾ صلة لموصول اسمي، لا محلّ لها من الإعراب.

● والموصول الحرفيّ هو الحرف المصدريُّ الذي يُؤوّل مع ما بعده بمصدر، والحروف المصدرية هي «أنْ الناصبة للفعل المضارع ــ أَنَّ ــ كَيْ ــ ما المصدرية ــ لو ــ همزة التسوية».

ومن الأمثلة قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ . . .﴾ [الآية ٥٢].

فجملة ﴿تُصِيبَنَا دَائِرَة﴾ لا محلّ لها من الإعراب لأنّها صلة موصولٍ حرفي، وهي مع الموصول الحرفي في تأويلِ مصدرٍ مفعول به لفعل ﴿نَخْشَىٰ﴾.

السادسة: «الجملة التفسيرية» وهي الّتي تأتي مفسِّرَةً لجملةٍ أو مفردٍ قبلها، وتأتي خبريَّةً أو إنشائيّة.

والجملة المفسِّرة لما قبلها، قد تأتي مقرونة بكلمة «أيْ» أو بكلمة «أن» أو مجرَّدَةً منهما، وهي لا محلّ لها من الإعراب.

● فمِنْ أمثلة المقرونة بكلمة «أي» قول الشاعر:

«وتَرْمِينَنِي بالطَّرْفِ أي: أَنْتَ مُذْنِبٌ».

● ومن أمثلة المقرونة بكلمة «أنْ» قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) في عرض قصة نوح عليه السلام:

﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا . . . ﴾ [الآية ٢٧].

ومن أمثلة المجرَّدَة من «أي» و «أنْ» قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الصف/ ٦١ مصحف/ ١٠٩ نزول):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

فجملة ﴿تُؤْمِنُونَ باللَّهِ ورَسُوله﴾ وما عُطِفَ عليها مُفَسِرَةٌ للتّجارة المنجية.

السابعة: «الجملة الواقعة جواباً لقسم» مثل قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ ﴾.

فجملة: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ جواب القسم الوارد في: ﴿والقرآن الحكيم﴾ وهي لا محلّ لها من الإعراب.

● وقول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) في عرض قصة إبراهيم عليه السلام:

﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

فجملة: ﴿لأَكيدَنَّ أصْنَامُكُم. . .﴾ جواب القسم في ﴿تَالله﴾ وهي لا محلّ لها من الإعراب.

الثامنة: «الجملة الواقعة جواباً لشرط غير جازم» وهي جملة لا محلّ لها من الإعراب.

وأدوات الشرط غير الجازم هي: «لو ــ لَوْلاَ ــ لَوْمَا ــ أمَّا ــ لمَّا ــ إذَا».

أمـثـلـة:

(١) ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾.

(٢) ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾.

(٣) ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾.

(٤) ﴿لوما الكتابةُ لضَاعَ أكْثَرُ الْعِلْم﴾.

(٥) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾.

(٦) ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾.

(٧) ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾.

فجوابُ الشرط الواردُ في هذه الأمثلة جُمَلٌ لَا محلّ لها من الإعراب.

التاسعة: «الجملة التابعَةُ لجملةٍ لا محلّ لها من الإعراب» فلها حكم الجملة التابعة لها، مثل: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ . . . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ فجملة ﴿واستغفرْهُ﴾ معطوفة على جملة ﴿فَسَبّحْ بحَمْدِ رَبِّكَ﴾ وهي لا محلّ لها من الإعراب لأنها جواب شرط غير جازم.

* * *

(٣)
الأسس العامّة للفصل والوصل بين الجمل التي لا محلّ لها من الإعراب

سبق أن عرفنا أسس الفصل والوصل بين المفردات في الجملة الواحدة، وبين الْجُمَل الّتِي لها محلٌّ من الإعراب.

وعلينا هنا أن نستبصر الأسس العامّة للفصل والوصل بين الجمل التي لا محلّ لها من الإعراب، وهو البحث الذي اعتبره البلاغيّون عِمَادَ هذا الباب من أبواب البلاغة، كما سبق به البيان.

وقبل أن نبدأ ببيان هذه الأسس لا بدّ من التنبيه على أنّ الْمَعْنَىٰ إذا كان

يقتضي العطف بحرف من حروف العطف غير الواو، وهي: «الفاء ـ ثُمَّ ـ حتّى ـ بل ـ لَكِنْ ـ لا ـ أم» فالأصل العطف بالحرف الذي يقتضيه المعنى من هذه الحروف، ولا يُتْرَكُ هذا الأصل إلاَّ لغرضٍ من الأغراض الّتي يَقْصِدُها البلغاء، ومنها أن لا يريد صاحب الكلام بيانَ المعنى الذي يدلُّ عليه حرف العطف ذو المعنى الخاص، وإنْ كَانَ واقع الحال مطابقاً لدلالته لو عطف به، إذْ له غرضٌ في إغفال المعنىٰ وعَدَمِ التعبير عنه، وهذا موضوع لا يحتاج بحثاً ولا تأصيلاً.

ولا بُدَّ من التَّنبيهِ أيضاً على أنّ عطف الجملة التالية على الجملة السابقة بالواو، إذا كان يُفِيدُ إشراكَها في حكمها، والمتكلّم لا يُريد أن يَدُلَّ على هذا الاشتراكِ لأمْرٍ ما، فإنّه لا يَرْبطُ الجملة التالية بحرف العطف، بل يأتي بها منفصلة، لئلا يدُلَّ كلامه على ما لا يريدُ بيانه والدلالة عليه، وهذا أيضاً موضوع لا يحتاج بحثاً ولا تأصيلاً.

إذن: ينحصر الكلام هنا في العطف «بالواو» أو عدم العطف بها، ضمن المقاصد الّتي يريد المتكلّم التعبير عنها والدّلالة عليها.

و «الواو» العاطفة التي يدور البحث هنا حول استخدامها عاطفةً أو عدم استخدامها، بين الجمل التي لا محلَّ لها من الإعراب، لها أرْبَعُ صفات:

الصفة الأولى: أنّها لمطلق الجمع، فلا تقتضي ترتيباً ولا تعقيباً ولا غير ذلك من معاني حروف العطف، سواءٌ أعطفت المفردات أَمْ عطفت الجمل.

الصفة الثانية: أَنّها تُفِيدُ الإشراك في الحكم في عطف المفردات وفي عطف الجمل التي لها محلٌّ من الإعراب، لأنها مؤولة بالمفردات التي حلَّت محلّها.

الصفة الثالثة: أنّها تقتضي التغاير بين المعطوف بها والمعطوف عليه، فلا يُعْطَفُ بها المتّحِدَان في المعنىٰ.

الصفة الرابعة: أنّ الربط بها يتَطَلَّبُ مُنَاسبَةً فِكْرِيّةً بَيْنَ المعطوف والمعطوف عليه بها تُسَوّغُ عند البلغاء هذا العطف.

فلا بُدّ من ملاحظة هذه الصفات لدى العطف بالواو حتى يكون الْعَطْفُ مستقيماً نَحْوِيّاً وبَلَاغيّاً، وما قد يَرَاهُ النحويُّ جائزاً بحسب القواعد النحويّة، قد لا يراه البلاغيُّ جائزاً إذا نظر إلى المعاني.

وبالنظر إلَىٰ الصِّفَاتِ الأربع للواو العاطفة تظهر لنا الاحتمالات التالية للعطف بها أو عدم العطف بين الجمل التي لا محلّ لها من الإعراب، والتي يُرَادُ رَصْفُ بعضها وَرَاءَ بعْضٍ.

الاحتمال الأول: أن يكون المعنيان في الجملتين السابقة واللّاحقة لا يتلاءم معهما مفهوم التغايُر بينهما، لشدّة اتّحادهما أو لشدّة تقاربهما، أو كانت التالية منهما جواب سؤال مطويّ تستدعيه السابقة منهما.

وفي هذه الحالة لا يَصِحُّ بلاغيّاً العطف «بالواو» لأنّ الواو تقتضي التغايُر بين المعطوف بها والمعطوف عليه، وهذا العطف يُفْسِدُ المعنَىٰ المقصود بالبيان.

لكن إذا كان ترك الواو يوهم خلاف المقصود، كان إدخال «الواو» بين الجملتين أمراً لازماً كأن يسألَكَ سائل: هل شُفِي معلّمكُمْ؟ فتقول له: لا. وشفاه الله، إذْ لو حذفت الواو لأوهم أنّك تدعو عليه بعَدَم الشفاء، والمعنى: لم يُشْفَ وشفاه الله.

الاحتمال الثاني: أنْ يكون بين الجملتين السابقة واللاحقة تغايرٌ في المعنىٰ، ولكن ليس بينهما تناسبٌ أو تلاؤُمٌ فكريٌ يسمح بأن يُجْمَعَ بينهما برباطٍ تشير «الواو» الرابطة إليه حين العطف بها.

فإذا وُجِدَتْ هذه الواو الرابطة وكان واقع حال الجملتين خالياً من التناسب والتلاؤم، إذْ لَيْسَ بينهما خيوطٌ فكريّةٌ متلائمة، كان وجود الواو الرابطة بمثابة مُدّعٍ

كذّاب، يدّعي وُجُودَ التّنَاسُب والتلاؤم، وهو في الواقع غير موجود، وهذا أمْرٌ تنفر منه النفوس وتأباه، ولا يَسْمَحُ البلغاء وأهل الفكر باستخدامه.

ويستثنىٰ من هذا أن يَحْدُث من ترك الواو بين الجملتين إيهام خلاف المقصود، فَتُذْكَر الواو للدلالة على استئناف الكلام الذي بعدها، كأن يسألك سائل: هل أنت مذنب؟ فتقول: لا. وغفر الله لك.

الاحتمال الثالث: أن يتوافر في الجملتين السابقة واللاّحقة شرطا التغايُر في المعنىٰ من جهة، والتناسب بين معنَيَيْهِما المتغايرين من جهة أخرى:

فإذا كان غرض المتكلّم أن يجمع بينهما برباط «واو» العطف الدّالة على مطلق الجمع مع التغاير والتناسُب بين مَعْنَيَيْهما، ليَدُلَّ بها على ذلك، كان استخدامه هذا الرابط عملاً بليغاً، ويَدُلُّ على حِسٍّ مُرْهف، وذَوْقٍ رفيع، باستثناء بعض الصور الّتي يوجد فيها سبب في نظم الكلام يقتضي عدم العطف، كإيهامِ خلاف المقصود، مثل قول الشاعر:

وتَظُنُّ سَلْمَى أَنَّنِي أَبْغِي بِهَا ... بَدَلاً أُرَاهَا فِي الضَّلَالِ تَهِيمُ

إنّ جملة «وتَظُنُّ سَلْمَى» يناسبُها أن تُعْطَفَ عليها بالواو جملة «أُراها في الضلال تهيم» أي: هي تَظُنُّ بي شيئاً مخالفاً لواقع حالي، وأنا أرىٰ جازماً أنَّها في هذا الظّنّ تهيمُ في الضلال.

لكنَّهُ لو عطفها «بالواو» لأوهم أنّ هذه الجملة معطوفة على جملة «أَنَّنِي أَبْغِي بِهَا بَدَلاً» أي: وتظُنُّ أيضاً أنني أراها في الضلال تهيم، وهذا خلاف مقصود الشاعر.

ملاحظة:

هذا التقسيم هو التقسيم الذي رأيته الأسهل والحاصر لمختلِف الاحتمالات، دون إرباك الذهن، بمصطلحاتٍ متشعّبات، وتفريعات قلّما يستفيد منها من يريد

التعرّف على أُسُسِ رَبْطِ الْجُمَل التي لا محلّ لها من الإعراب بواو العطف أو عَدَمِ رَبْطِها بها.

* * *

ما يخرج عن دائرة هذا التقسيم السابق:

(١) يخرج عن دائرة هذا التقسيم عطف كلامٍ كُلِّي عَلى كلام كلِّي، كعطف قصّة على قصّة، وعطف موضوع كُلّيٍّ على موضوعٍ آخَر كُلّيّ، إذْ يكفى لتسويغ العطف «بالواو» في ذلك مجرّدُ ملاحظة عطف كلامٍ ما، على كلامٍ ما، وعطفِ قصَّةٍ ما، على قصّة ما.

أمّا التغاير الذي تقتضيه «الواو» العاطفة فقائم في ذلك، ما لم تكن القصّة التالية تفصيلاً لملخّص القصة السابقة، أو الموضوعُ التالي تفصيلاً لملخّص الموضوع السابق، أو العكس فيهما، فإذا كان التالي تفصيلاً أو تلخيصاً للسابق فَهُما بمثابةِ البيان من المبيَّنِ، متَّحِدَانِ أو شِبْهُ متّحدَين، وتركُ العطف بالواو هو الأصل الذي ينبغي أَنْ يُتَّبَعَ، إلاَّ لغرض بلاغي يقوم في نفس البليغ يرجّح عنده العطف.

ومن أمثلة عرض القصّة المفصلة بعد ذكرها مُلَخّصةً قصّةُ أهل الكهف الّتِي قصَّها الله في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول) فقد جاء التلخيص في الآيات من (٩ ــ ١٢) وبعدها جاء التفصيل في الآيات من (١٣ ــ ٢٦) وعند بدْءِ التفصيل جاء الكلام غير مقترنٍ بواو العطف.

وأمّا التناسب فيمكن أن ينتزع من الموضوع العام، إذ الباحث مثلاً في النحو قد يعطف باب المفعول به على باب الفاعل، وقد يعطف أبواب المنصوبات على أبواب المرفوعات أو المجرورات، فالناظم العامّ لأبواب علْم النحو بحث أحوال الكلمة من جهة إعرابها.

والباحث في علم الفقه قد يعطف أبواب المعاملات على أبواب العبادات، وقد يعطف فصلاً على فصل في الباب الواحد. وفرعاً على فرع في الفصل الواحد. وباستطاعته أن ينتزع مناسبةً عامّةً كافيةً للعطف، وكلّما كانت هذه المناسبة ألْصَق بالْمَقْسِمِ القريب للقسم الذي يذكره كان العطف مقبولاً غير مستهجن، وقد تكون مُنْتزعَةً من الْمَقْسِم البعيد بحسب اقتضاءات المعاني.

والْقَصَّاصُ قد يعطف قصّةً على قصة، إذْ باستطاعته أن ينتزع مناسبة عامّةً كافيةً للعطف، كأن يكون حديثه حول قصص الأنبياء وأقوامهم، أو قصص المتقين، أو قصص المجاهدين، أو يكون حديثه حول قصص اللّصوص، أو قصص الْقَتَلة، أو قصص غرائب السلوك عند الحيوانات، إلى غير ذلك.

(٢) ويخرج عن دائرة هذا التقسيم أيضاً استخدام «الواو» للدلالة على استئناف كلامٍ جديد، غير مرتبط بالكلام السابق، وتكون عندئذٍ بمعنى: التوقف عن متابعة ما يتعلّق بما سبق من موضوعٍ واستئناف الكلام في موضوعٍ آخر.

ومن أمثلة «واو» الاستئناف قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا. . . ﴾ [الآية ٥].

فجملة: ﴿ونُقِرُّ في الأرحام ما نَشَاءَ﴾ جملةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ، مُصَدَّرَة بواو الاستئناف، وليست هذه الواو عاطفةً على ما ذكر النحويون إذْ لو كانت عاطفة على ﴿لِنُبيّن لكم﴾ لكان ينبغي أن يكون فعل ﴿نُقِرُّ﴾ منصوباً. ولنا أن نقول: إنّ جملةَ ﴿ونُقِرُّ في الأرحام. . .﴾ معطوفة على جملة ﴿فإنّا خَلَقْنَاكم من تراب﴾ ولواحقها.

ومن الأمثلة التي ذكرها النحويون قول أبـي اللّحّام التغلبـي:

عَلَىٰ الْحَكَمِ الْمَأْتِيِّ يَوْماً إِذَا قَضَىٰ قَضِيَّتَهُ أَنْ لاَ يَجُورَ وَيَقْصِدُ

وَيقْصِدُ: بالرَّفع أي: وهو يَعْدِلُ، فحمل الكلام هنا على الاستئناف متعيّن، إذ كيف يَجِبُ على الْحَكَمِ إذا قَضَىٰ قضيَّتَهُ أن لا يجور ولا يعدل، هذا تناقض.

وأرى أنّ الواو التي تدخل على الجملة الاعتراضيّة هي واو استئناف وليست واو عطف.

* * *

(٤)

مع علماء البلاغة في تقسيماتهم

تأمَّلْتُ فيما ذكر البلاغيّون من تقسيم لأحوال الجمل التي لا محلّ لها من الإعراب حول الفصل والوصل بينها في الكلام، فرأيت أنّهم بالبحث التحليليّ قد ذكروا لها سبعة أقسام متفرّعة من تقسيمين رئيسَيْن، وأنّهم فصّلوا بعض هذه الأقسام إلى فروع بحسب أحوالها.

وفيما يلي بيان ذلك مع بعض تعديل في شجرة التقسيم التي ذكروها.

القسم الأول: ما يجب فيه الفصل (أي: عدم عطف الجملة التالية على الجملة السابقة بالواو).

وهذا يكون في أربع صُوَر:

الصورة الأولى: أن يكون بين الجملتين «كَمَالُ اتّصال» إذْ لا تغايُر بين الجملتين حتّى تُعطَفَ التالية على السابقة.

وهذه الصورة تظهر في ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: أن تكون الجملةُ التالية توكيداً للجملة السابقة، لزيادة التقرير، أو لدفع توهُّم المجاز، أو لدفع توهُّمِ الْغَلَط، وهذه الجملةُ التوكيديّة:

● قد تكون من قبيل التوكيد اللّفظيّ مثل قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُيداً﴾.

● وقد تكون من قبيل التوكيد المعنويّ، مثل ما حكىٰ الله عزّ وجلّ في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول) عمّا قال النسوة حين رأَيْنَ يوسف عليه السلام في بيت العزيز:

﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١ ﴾.

فجملة ﴿إنْ هذا إلاّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ توكيدٌ معنويٌّ لجملة ﴿ما هذا بشراً﴾ لأنّ إثبات كونه ملكاً كريماً تأكِيدٌ وتحقيقٌ لنفي كونه بشراً.

ومثل قول المتنبـيّ:

وَمَـا الـدَّهْـرُ إِلاَّ مِـنْ رُوَاةِ قَصَـائِـدي   إِذا قُلْتُ شِعراً أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِداً

الوجه الثاني: أن تكون الجملة التالية بدلاً من الجملة السابقة، وجملة البدل:

● قد تكون بدل كلٍّ مِنْ كلٍّ، ويسمّى «الْبَدَلَ المطابق» مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٨١ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٨٢ ﴾.

● وقد تكون بدَلَ بعْضٍ مِنْ كلٍّ، مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) حكاية لمقالة هودٍ عليه السلام لقومه:

﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٣١ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٣٤ ﴾.

فالأنعام والبنون والجنات والعيون هي بعض ما أمدّهم به مما يعلمون،

وفائدة هذا البدل ذكر بعض العناصر مفصلة لأهمّيتها عند المخاطبين، بعد ذكرها بشكل مجمل.

● وقد تكون بدَلَ اشتمال، مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (يٓس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) حكايةً لمقالة الرجل المؤمن الذي جاء يَسْعَىٰ من أهل أنطاكية، يعظ قومه أن يتَّبعُوا المرسلين الثلاثة الذين أُرْسُلو إليهم:

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾.

فجملة ﴿اتّبعُوا مَعنْ لاَ يسألكُم أجراً...﴾ بدل من جملة ﴿اتّبعُوا المرسلين﴾ التي تشتمل بمفهومها العام على معنى الجملة التي جاءت بدلاً منها. والغرض التنبيه على قضيّة مهمّةٍ فيهم، وهي إخلاصهم وعدم سعيهم لغرض دنيويٍّ من دعوتهم.

الوجه الثالث: أن تكون الجملة التالية معطوفة على الجملة السابقة عطف بيان، مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (طٰه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾.

فجملة: «قال يا آدم...» عطف بيان على جملة ﴿فوسوس...﴾ وهي لبيان مضمون الوسوسة التي وسوس بها الشيطان.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) خطاباً لبني إسرائيل:

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾.

فجملة: «يُقتّلون أبناءكم» والتي بعدها عطف بيان لجملة: «يسومونكم سُوءَ العذاب».

الصُّوَرة الثانية: أَنْ يكون بين الجملتين «شِبْهُ كمال الاتصال». وهذا يكون حينما تكونُ الجملةُ السابقة ممّا يثير في نفس المتلَقّي سُؤالاً يتردَدُ في نفسه ولو لم يُصَرِّحْ به، فتأتي الجملة التالية لتجيب على هذا السؤال، وتأتي دون أن تعطف بالواو، وعلى أسلوب الاستئناف، فالجملة الواقعة جواباً لسؤالٍ مقدّر ذهناً غيرِ مصرّحٍ به في اللّفظ، لكن من شأنه أن تثيره في النفوس الجملة السّابقة هي جملة استئنافيّة.

قالوا: والسؤال الذي تثيره الجملة السّابقة على وجوه:

● فإمَّا أن يكون سؤالاً عن سبب الحكم الذي تضمّنته الجملة السابقة بوجه عامّ، مثل قول الشاعر:

قَالَ لِي: كَيْفَ أَنْتَ؟ قُلْتُ: عَلِيلٌ سَهَـــرٌ دَائِـــمٌ وَحُـــزْنٌ طَـــوِيـــلُ

فجملة «سَهَرٌ دائم. . .» جملةٌ استئنافية جاءت بدون عطف بالواو، إذْ وقَعَت جواب سؤالٍ تُثِيرُه جملة «أنا عَلِيل» لأنّ من طبيعة المتَلَقِّي أن تتحرّك نفسه بسؤالٍ مضمونه: ما سبَبُ كَوْنِكَ عليلاً؟ وأسْرَعَ المتكلم فأجاب على السؤال دون أن يُطْرَحَ عليه، أي: أنا عاشقٌ بعيد عن محبوبه.

فالسؤال عن سبب حدوث العلّة المرضية هو سؤال عن السبب بوجه عامٍّ، إذ عادة الناس أنَّهم إذا قيل لهم: فلانٌ مريضٌ، قالوا: ما سبب مرضه؟.

● وإمّا أن يكون سؤالاً عن سبب خاص، مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول) حكاية لمقالة يوسف عليه السلام:

﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣ ﴾.

فجملة: ﴿إنَّ النفس لأمّارةٌ بالسُّوء﴾ جملة مستأنفة وقعت جواب سؤال تثيره جملة ﴿وَما أُبرّىء نفسي﴾.

لقد سبق هذه الآية بيان أن يوسف عليه السلام قال:

﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

فَبَعْدَ أَنْ أعْلَنَ براءَتَهُ من الخيانةِ، واعترفَت امرأةُ العزيز بأنَّها هي التي راودَتْهُ عن نفسه، تتساءل النفس قائلة: ما الّذي جعل يوسف عليه السلام يقول: ﴿وَما أُبَرّىء نفسي﴾ بعد أنْ ثبتت براءته وثبتت طهارتُه وعِفَّته، فما هو السبب الخاصُّ الذي جعله يقول هذا القول؟ وقد أسرع عليه السلام فأجاب على السؤال بقوله: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بالسُّوءِ﴾ والسوءُ الذي حدّثته نفسه به ولم يَعْمَلْه، هو هَمُّهُ بضَرْبها بَعْد أنْ همَّتْ بضربه لمّا استعصم بالله، متعفّفاً عن الفاحشة.

● وإمَّا أن تُثِير الجملة السابقة سؤالاً ما، لا عن السبب العامّ للحكم فيها، ولا عن السبب الخاصّ، مثل ما جاء في قول الله عزّ وجلّ يَقُصُّ قصّة إبراهيم عليه السلام في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ ﴾.

حَنِيذ: أي: مَشْوِيّ.

إنّ من طبيعة أَيِّ متلَقٍّ للقصة، أنْ يتساءل بعد أن يَسْمَعَ أنّ الرُّسُل من الملائكة الذين جاءوه وقالوا له سلاماً، فيقول في نفسه، فبماذا أجابهم إبراهيم عليه السلام؟ فجاءت جملة: ﴿قَالَ سلامٌ﴾ جواباً على هذا السؤال.

ومنه قول الشاعر:

زَعَمَ الْعَواذِلُ أَنَّنِي فِي غَمْرَةٍ ... صَدَقُوا ولكِنْ غَمْرَتِي لاَ تَنْجَلِي

إنّ الشطر الأول يثير في النفس سؤالاً وهو: إذا كان العواذل قد زعموا أنَّكَ في غَمْرَة فماذا تقول أنت؟ فأجاب على هذا التساؤل بقوله: «صَدَقوا» وزاد على

قولهم تأكيداً بقوله: «ولكِنْ غَمْرَتي لا تَنْجَلِي» وهذا من تأكيد الشيء بما يوهم في بدايته خلافه.

الغمرة: الشّدّة.

ملحوظتان:

(١) قد يُحْذَفُ صَدْرُ جواب السؤال المقدّر الذي أثارته الجملة السابقة، ويُسْتَغْنَىٰ عَنْه بما جاء بعده ممّا يدلُّ عليه، ومنه قول الله عزّ وجلّ في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) كَمَا جَاءَ في قراءةَ ابن عامر الشامي وشعبة ﴿يُسَبَّحُ﴾ بالبناء للمجهول:

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾.

قراءة جمهور القرّاء العشرة ﴿يُسَبِّحُ﴾ وَلَيْسَ فيها شاهِدٌ لمَا نَحْنُ فيه، أمّا قراءة ابن عامر وشعبة ﴿يُسَبَّحُ﴾ بالبناء لما لم يُسَمَّ فَاعِلُهُ فهي التي تتضمّن الشاهِدَ المطلوب.

إنّ جملة ﴿يُسَبَّحُ لَهُ فِيها بالْغَدُوِّ والأصَالِ﴾ جملة تامّةٌ تثير سؤالاً وهو: مَنِ الذي يُسَبِّحُ للَّهِ فيها؟

والجوابُ: يُسَبِّحُ فيها رَجَالٌ... فَحُذِفَ صَدْر الجواب وهو فِعْلٌ واستغني عنه بذكر فاعله «رجالٌ».

(٢) وقد تُحذف جملة الجواب كلُّها، ويُكْتَفَىٰ بذكر ما يَدُلُّ عليها، ومنه قول الشاعر «مُسَاوِرِ بن هند» يهجو «بني أسَد»:

زَعَمْتُم أَنَّ إخْوَتَكُمْ قُرَيْشٌ   لَهُمْ إلْفٌ وَلَيْسَ لَكُمْ إلَافُ

إنّ الشطر الأول جملة تامّة تُثِير سؤالاً: أَلَسْنَا صادقين؟

وجوابه: «كذبْتُمْ فإنَّ قُريشاً لَيْسُوا إخْوَتكُم» وهذا الجواب محذوف لكن دَلَّ عليه ما جاء في الشطر الثّاني، أي: لو كنتم إِخْوَةَ قَرَيْشٍ لكان لكم إِلْفٌ كما لهم.

الإِلْف والإِلاَف: العهد والأمان الذي يؤخذ لتأمين خروج التجَّار من أرض إلى أرض، وقد كانت قريشٌ لها هذا الإِلاف الذي يمكّنها من رحْلَتِي الشتاء والصيف، إلى الشام واليمن ومصر.

الصورة الثالثة: أَنْ يكونَ بَيْنَ الجملَتَيْن «كَمَالُ الانقطاع».

وهذا يكون حينما يكون بين الجملتين تبايُنٌ تَامّ، فيجب فصل الجملة التالية عن الجملة السابقة، وعدَمُ وصلها بالواو العاطفة، بشرط أن لا يؤدّي ذلك إلى إيهام غير المقصود.

وهذه الصورة تظهر في ثلاثة وجوه:

الوجه الأول:

أن تختلف الجملتان السابقة والتالية خبراً وإنشاءً في لفظيهما وفي دلالتيهما مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجرات/ ٤٩ مصحف/ ١٠٦ نزول):

﴿وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾.

فالجملة السابقة ﴿وأَقْسِطُوا﴾ إنشائية، مصدّرة بفعل أمر.

والجملة التالية ﴿إنَّ الله يحبُّ المقسطين﴾ خبريَّة في لفظها وفي معناها.

وظاهر أنّ بين هاتين الجملتين «كمالَ انقطاع» فوجب فصلهما.

الوجه الثاني:

أن تختلف الجملتان السابقة والتالية خبراً وإنشاءً في دلالتيهما، ولو لم تختلفا في لفظيهما، كأن تكون الأولى خبراً في لفظها ومعناها، والثانية خبراً في

لفظها إنشاءً في معناها، كأن تقول: **نجَحَ ابني في امتحاناته كلِّها، وَفَّقَهُ الله.** فالأولى خبريَّةٌ لفظاً ومعنى، والتالية خبريَّةٌ لفظاً إنشائيَّةٌ دعائيَّةٌ معنى.

الوجه الثالث:

أن لا يكون بين الجملتين مناسبة ما في المعنى، ولا يوجد ارتباطٌ ما بين المسنَدِ إليه فيهما، ولا بين الْمُسْنَد، ومنه قول الشاعر:

إنَّمــــا الْمَــــرْءُ بـــأصْغَــــرَيْــــهِ كُــلُّ امْــرِئٍ رَهْــنٌ بمــا لَــدَيْــه

ومثل أن تُعَدّدَ حِكَماً في موضوعات مختلفات لا ترابط بينها، كأنْ تقول: «رَأسُ الحكمة مَخَافَةُ الله ــ لا يُلْدَغُ المؤمِنُ من جُحْرٍ مَرَّتين ــ ارْضَ بما قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تكُنْ أغْنَىٰ الناس ــ كفَىٰ بالموتِ واعظاً».

أما الوصل مع وجود كمال الانقطاع لأنّ الفصل يوهم خلاف المقصود، فمن أمثلته ما رُوي أنّ «هارون الرّشيد» سأل وزيرَه عن شيء فقال:

«لا وَأيّدَ اللَّهُ الْخَلِيفَة» فبلَغ هذا القول «الصّاحِبَ بْنَ عبّادٍ» فقال: هذه الواو أحْسَنُ من الواوات في خُدُود الملاح (أي: أحسن من الشعر الذي يتدلّىٰ من الصدغ ويكون مثل الواو على الخدود).

الصورة الرابعة: أنْ يكون بين الجملَتَيْن «شبْه كَمَالِ الانقطاع».

وهذا يكون حينما تكون الجملة التالية مسبوقةً بجملَتَيْنِ يَصِحُّ عطفها على إحداهما، ولا يصحّ عطفها على الأخرىٰ، لأنه يُفْسِدُ المعنىٰ المقصود للمتكلم، فَيُتْرَكُ العطف، ويجب حينئذٍ الفصل دفعاً لما قد يحدث من إيهام بالوصل بالواو.

وذكروا من أمثلة هذا القسم قول الشاعر:

وَتَظُــنُّ سَلْمَــىٰ أَنَّنــي أبْغِــي بهَــا بَــدَلاً أُرَاهَــا فــي الضَّــلاَلِ تَهِيُــم

وقد سبق شرح هذا الشاهد.

* * *

القسم الثاني:

ما ينبغي فيه الوصل أو يحسُنُ (أي: أن تُعْطَفَ الجملة التالية على الجملة السابقة بالواو).

ويظهر هذا حينما تكون العلاقة بين الجملتين متوسطة تماماً بين حالَتَيْ «كمالِ الانقطاع» و «كمال الاتصال».

ويُلاحظ هذا التوسط حينما تتفق الجملتان التالية والسابقة خبراً أو إنْشاءً، لفظاً ومعنىً، أو معنىً فقط، مع جامع يجمع بينهما، فتُعْطَفُ التالية على السَّابقة إلّا إذا أوهم العطفُ خلاف المقصود.

أمـثـلـة:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الانفطار/ ٨٢ مصحف/ ٨٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾.

يُلَاحظ في هاتين الجملتين المعطوفة بالواو والمعطوف عليها توسُّطاً بين كمال الاتّصال وكمال الانقطاع، وجامعاً يجمع بينهما، فالعلاقة بينهما قانون الجزاء الرّبّاني، ذي الصورتين المتضادّتين، لفريقين متضادّين، هما الأبرار والفجّار، إنّ عنوان الجزاء عنوانٌ جامع دون اتّحاد ولا شِبْه اتّحاد، وإنّ التضادّ لا يَصِلُ إلى مستوى التباين التامّ في الفكر، لأنّ الضدَّ أقربُ خُطُوراً بالبال عند ذكرِ الضدّ من النظير إلى النظير، فحصلَ بذلك التوسُّط بين الكمالين، والجملتان هما أيضاً خبريتان لفظاً ومعنىً، فحَسُنَ عطفُ التالية على السابقة بالواو.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾.

إنَّ الْجُمَلَ الْمَعْطُوفة على سَوَابقها في هذا النّصّ لَيْسَ فيها كمال اتصالٍ وَلاَ شِبْهُه، ولا كمال انقطاع وَلاَ شِبْهُه، مع وجود جامع يُحَسِّنُ العطف بالواو، إنّ التسبيحَ مغايرٌ للحمد، لأنّ معنىٰ «سبحان الله» أُنَزِّه الله عمّا لا يليق به من صفات، ومعنى: «الحمد لله» أُثْبِت لله كلّ صفات الكمال التي تقتضي الثناء عليه بها، ومع هذا التغاير فإنّ بينهما تلاؤماً فكرياً لأنّهما متكاملتان حول صفات الله عزّ وجلّ، والجملتان هما أيضاً خبريّتان لفظاً ومعنى، فَحَسُنَ عطف التالية منهما بالواو على السابقة.

وكذلك نقول في الجمل الواردة في الآية (١٩) إذ عُطِفَتْ الثلاثة الأخيرة منها على الأولى: ﴿يُخْرِجِ الْحَيَّ مِنَ الميّت﴾ لوجود التغاير بينها مع التلاؤم الفكري.

إنَّ إخراج الميت من الحيّ مغايرٌ لإخراج الحيِّ من الميت وملائم له، إذْ هما مظهران من مظاهر قدرة الرّبّ الخالق جلَّ وعلا، ، وكذلك إحياء الأرض بعد موتها، وكذلك البعث يوم الدّين.

فاقتضىٰ التوسط بين الكمالين مع التلاؤم وكونها جملاً خبرية لفظاً ومعنى عَطْفَها بالواو العاطفة.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾.

إنّ جُمَلَ ﴿وَكُلُوا واشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفوا﴾ معطوفة على: ﴿خُذُوا زينتكم﴾ لما بينهما من التغاير الذي يجعلها متوسطة بين الكمالين، مع التلاؤم الفكري بينها، والجمل كلُّها متفقة في كونها جملاً إنشائيةً واردة إمَّا بصيغة الأمر وإمّا بصيغة النهي، ومعناها جميعاً على الإنشاء.

والأمثلة على هذا كثيرة من القرآن ومن السنَّة ومن أقوال البلغاء.

* * *

الجامع المسوّغ للعطف بالواو
بين الجمل التي لا محلّ لها من الإعراب

العلاقة الجامعة بين الجملتين فكرةٌ تسوّغ الربط بالواو، وهذه الفكرة تُنْتَزَعُ من أركان الإسناد بين الجملتين وتوابع هذه الأركان، وأرى أنّه ليس باستطاعة الباحث أن يملك ضوابط محدَّدَةً للصُّور التي يُلاَحَظُ فيها الجامع المسوّغ للعطف، ويميّزها عن الصور الأخرى التي يكون الجامع فيها ضعيفاً لا يحسُنُ معه العطف بالواو لدى أذكياء البلغاء.

وقد حاول السَّكّاكي مستفيداً من دراساته المنطقيّة والفلسفيّة الواسعة، أن يقدّم تصنيفاً للكليّات الّتي يمكن أن يندرج تَحْتَها الجامع، فرأى أنّ الجامع، إمَّا أن يكون عقليّاً، أو وهْميّاً، أو خياليّاً.

● **فالجامع العقلي**: له عدة صُوَر:

(١) أن يتّحد في الجملتين واحدٌ فأكثر من المسند إليه، والمسند، وقيودهما.

(٢) أن يتماثل في الجملتين واحدٌ فأكثر من المسند إليه، والمسند، وقيودهما، والتماثل هو التشابه، وهو غير الاتحاد.

(٣) أن تربط بين الجملتين العلاقة التي تُسَمَّى في الفلسفة مقولة «الإضافة» وهي التي يرتبط فيها فهم الشيء بفهم شيء آخر، مثل العلاقة بين الأُبُوّة والبنوة، والعلاقة بين العلة والمعلول، والسبب والمسبّب، والأسفل والأعلى، والأقل والأكثر، والبيع والشراء، والشريك مع شريكه، إلى غير ذلك.

● **والجامع الوهمي**: هو أن تتواصل الجملتان ببعض عناصرهما عن طريق القوة الواهمة في الذهن.

(١) فمنه أن يكون بينهما شبه تماثل، إذ الوهم من شأنه أنْ يرفع شبيه المتماثلين إلى مرتبة المتماثلين ويجمع بينهما لتقاربهما.

كأن يجمع بين الأبيض والأصفر لأنهما يشبهان المتماثلين، وكأن يجمع بين شديد الخضرة والسّواد.

(٢) ومنه أن يكون بينهما تضادّ، كالسّواد والبياض، والإيمان والكفر، والضحك والبكاء، والقيام والقعود، إذ من شأن القوة الواهمة أن تجمع بين الأضداد.

(٣) ومنه أن يكون بينهما شبه تضاد، كالسّماء والأرض، والسهل والجبل.

● **الجامع الخيالي**: هو أن تتواصل الجملتان ببعض عناصرهما عن طريق «المخيّلة» في الذهن، إذ الذهن يؤلف بين المتقارنين في الخيال لأسباب مختلفة، كالقلم والقرطاس، والعقد والجيد، والمعصم والسوار، والخاتم والإصبع، والغراب والسواد، إلى غير ذلك.

* * *

محسنات الوصل بالعطف بالواو

إضافة إلى الجامع المسوّغ للعطف بالواو بين الجمل التي لا محلّ لها من الإعراب توجد مُحَسّنات تُحَسِّن هذا الوصل، ومن هذه المحسنات ما يلي:

(١) أن تكون الجملتان اسميتين.

(٢) أن تكون الجملتان فعليتين، ويزيد في الحسن أن يكون الفعل في كلٍّ منهما ماضياً، أو مضارعاً.

هذا إذا لم يوجد داعٍ فكري يقتضي خلاف ما سبق من محسنات، فالدّاعي الفكريّ هو الأحقّ بالمراعاة دواماً، إذا كانت قواعد العربية تَسْمَحُ بذلك.

● ● ●

شجرة أقسام الفصل والوصل في الجمل التي لا محل لها من الإعراب وفق تقسيمات البلاغيّين

- ما يجب فيه الفصل (أي: عدم عطف الجملة التالية على الجملة السابقة بالواو)

  وله أربع صور:

  - **الصورة الأولى**: أن يكون «بين الجملتين «كمال اتصال»

    ويظهر في ثلاثة وجوه:

    - **الوجه الأول**: أن تكون التالية توكيداً للسابقة.
      - توكيد لفظي.
      - توكيد معنوي.
    - **الوجه الثاني**: أن تكون الجملة التالية بدلاً من الجملة السابقة.
      - بدل كلّ من كلّ.
      - بدل بعض من كل.
      - بدل اشتمال.
    - **الوجه الثالث**: أن تكون التالية عطف بيان للسابقة.

  - **الصورة الثانية**: أن يكون بين الجملتين «شبه كمال الاتصال» وهذا يكون حينما تكون الجملة السابقة مما يثير في نفس المتلقي سؤالاً يتردّد في نفسه ولو لم يصرِّح به، فتأتي الجملة التالية لتجيب على هذا السؤال.

    والسؤال عن:

    - سبب عام.
    - سبب خاص.
    - سبب ما غير عامّ ولا خاصّ.

  - **الصورة الثالثة**: أن يكون بين الجملتين «كمال انقطاع».

    ويظهر في ثلاثة وجوه:

    - ١ ــ أن تختلف الجملتان خبراً وإنشاءً لفظاً ومعنى.
    - ٢ ــ أن تختلف الجملتان خبراً وإنشاءً معنى فقط.
    - ٣ ــ أن لا يكون بين الجملتين مناسبة ما ولا ارتباط بين أركانهما.

  - **الصورة الرابعة**: أن يكون بين الجملتين «شبه كمال الانقطاع» وهذا يكون حينما تكون الجملة التالية مسبوقة بجملتين يصحُّ عطفها على إحداهما ولا يصحّ عطفها على الأخرى لأنّه يفسد المعنى المقصود للمتكلّم.

- ما ينبغي فيه الوصل أو يحسن ويظهر هذا حينما تكون العلاقة بين الجملتين متوسطة تماماً بين حالتي «كمال الانقطاع وكمال الاتصال» مع جامع يسوّغ العطف بالواو.

  والجامع على رأي السّكاكي:

  - ١ ــ عقلي.
  - ٢ ــ وهمي.
  - ٣ ــ خيالي.

فهرس الجزء الأول

«علم المعاني»

الباب الأول: مدخل إلى علم المعاني

الباب الثاني: أحوال عناصر الجملة

الباب الثالث: القصر

الباب الرابع: نظام التلاؤم في الكلام والفصل والوصل

انتهى الجزء الأول ويليه الجزء الثاني وأوله:

الباب الخامس في الإيجاز والإطناب والمساواة